



ماري-كاترين دونْوا

«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى

ترجمتها عن الفرنسية

ماري طوق

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

ماري-كاترين دونْوا

«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى

ترجمتها عن الفرنسية
ماري طوق

مراجعة
كاظم جهاد

«العصفور الأزرق»
وحكايات أخرى

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PZ24.A855 O4712 2013
D'Aulnoy, Marie-Catherine, 1651-1705
[*L'Oiseau bleu* et autres contes]
«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى / ماري-كاترين دَونْوا ؛ ترجمة ماري طوق. مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
712 ص. ؛ 13×20 سم.
ترجمة كتاب : *L'Oiseau bleu* et autres contes
تدمك: 978-9948-17-200-0
أ- طوق، ماري. ب- جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لنصوص الكاتبة الفرنسيّة ماري-كاترين دَونْوا
«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى
Marie-Catherine D'Aulnoy, *L'Oiseau bleu* et autres contes

لوحة الغلاف لرسّام مجهول من القرن التّاسع عشر

الرّسوم الداخليّة مُشار إلى أصحابها في موضعها



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

المحتوى

هذه السّلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنس أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناس أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات، بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

مقدّمة المترجمة

•

ولدت ماري-كاترين دونوا Marie-Catherine d'Aulnoy عام 1651 في بارنفيل في النورماندي بفرنسا، وتوفّيت في باريس عام 1705. وهي ابنة كلود لو جوميل دو بارنفيل Claude Le Jumel de Barneville الذي كان ينتمي إلى طبقة النبلاء. زوّجتها عائلتها فرنسوا دو لاموت François de La Motte، بارون دونوا، وهي ما تزال في سن السّادسة عشرة، وصارت تحمل لقب «البارونة». وعندما بلغت الثامنة عشرة، هربت من فرنسا على أثر ملابسات قضائيّة لم تكن في صالحها، وأمضت عشرين سنة في التّرحال من بلد أوربيّ إلى آخر، لتعود بَعدها إلى باريس وتفتح صالوناً أدبيّاً ارتادته شهيرات ذلك الزّمان. ومن البديهيّ أنّ سنوات التّرحال والاغتراب تلك هي التي تقف وراء تحوّلها الفكريّ وتفتّح مواهبها ككاتبة. ونلاحظ في الكثير من قصصها إدانة واضحة للزّيجات المدبّرة، وهذا بالتأكيد صدىً لما عانته في حياتها الشخصيّة؛ نذكر على سبيل المثال «القطّة البيضاء»، و«ظبْية الغابة»، و«العصفور الأزرق»، و«الجميلة بشعرها الذهبيّ».

لا شكّ أنّ «حكايا الجنيّات» لاقت رواجاً وانتشاراً واسعين في نهاية القرن السّابع عشر، وهي تستلهم التراث الشفويّ والأساطير الشعبيّة والتراث المشرقيّ والأدب القروسطيّ وبعض نصوص عصر النهضة الإيطاليّة. لكن يعود لماري-كاترين دونوا الفضل في أنّها، قبل الأديب المعروف شارل بيرّو، أوّل من استخدمَ عبارة «حكايا الجنيّات» *contes de fées* ونشرت في فرنسا قصّة تنتمي إلى هذا الجنس الأدبيّ، عنوانها «جزيرة السّعادة» *L'île de la félicité*،

وذلك ضمن الرّواية التي أصدرتها عام 1690 بعنوان **حكاية هيبوليت، الكونت دو دوغلا** *L'Histoire d'Hippolyte comte de Douglas*. وفيما بعد ستكرّ السّبحة وتنشر في العامَين 1697 و1698 أربعاً وعشرين حكاية نالت شهرة كبيرة، تتضمّن الترجمة الحاليّة ثماني عشرة منها، هي أهمّ حكاياتها وأكثرها انتشاراً. وللكاتبة مؤلّفات أخرى عديدة في مجالَي الرّواية العاطفيّة والمذكّرات.

تعدّ هذه الحكايات من أجمل القصص الخرافيّة، وهي حافلة بالمغامرات والتحوّلات والخيال الجامح، إلى جانب السّخرية وحسّ الدعابة الذي تميّزت به الكاتبة الأنيقة والشقيّة في آن. استطاعت ماري-كاترين دونوا من خلال هذا الجنس الأدبيّ الذي يشرع الحريّة للخيال أن تهزّ القيم والمعايير المكرّسة في مجتمع مأزوم، كما تُظهر قصصها اهتماماً شغوفاً بالحبّ بصفته مصدراً للسّعادة وأساساً لخلق مجتمع متوازن. هذا الشّغف بالحبّ يحدوه، بين دوافع أخرى، الحنين لعصر الفروسيّة حين كان الرجال يُجلّون النساء ويفعلون المستحيل ليفوزوا بحبّهنّ ويخلصوا لهنّ الودّ (الأمير فتّان في حكاية «العصفور الأزرق» يفضّل أن يتحوّل إلى عصفور أزرق لسبع سنوات على أن يخون الأميرة التي يحبّها). كما يتحدّث العشّاق في حكاياتها بلغة عاطفيّة منمّقة ومتحذلقة تعكس تأثّر الكاتبة بأسلوب الآنسة مادلين دو سكوديري Madeleine de Scudéry وجغرافية الحبّ الرمزيّة التي ابتدعتْها والتي تُعرف بـ «خارطة الرقّة» La carte de Tendre. كلّ ما يقوم به الرّجل ينمّ عن احترام مفرط للمرأة وتغدو هي الشاهدة الوحيدة على ما يحقّقه من مآثر. إلى ذلك، يُعالَج الحبّ في هذه الحكايات من الناحية النفسيّة عبر دراسة الانفعالات والمشاعر التي يثيرها كالغيرة والرقّة والتقدير، أو الوله والهيام وتصويره على أنّه

«مرض» محتَّم.

لا تهدف حكايا الجنيّات التي ألّفتها ماري-كاترين دونْوا بفانتازيا وخيال مدهشَين إلى التسلية والترفيه فحسب، بل تبدو أيضاً وكأنّها وسيلة للاعتراض على الظروف التي تحدّ من حريّة النساء في التعبير عن المواضيع التي تمسهنّ في الصّميم، ولرفض المبتذل وإعادة تحديد العلاقات بين الرّجال والنّساء على أساس التكافؤ المتبادل والحبّ والاحترام. كما تتضمّن احتجاجاً مضمراً على السياسة القمعيّة التي ميّزت أواخر القرن السّابع عشر. وقد جرت دوماً المقارنة بينها وبين جان لافونتين Jean de La Fontaine صاحب الأمثال الشعريّة لجهةِ انتقادهما المضمَر لوجوه البلاط والمجتمع الفرنسيَّين.

قصص الجنيّات كنز ثمين يؤكّد حضوره بفاعليّة في الوعي البشريّ والفكريّ ويحمل القارئ إلى عوالم تجاور فيها الحقيقةُ الخيالَ. وكما كتب برونو بتلهايْم Bruno Bettelheim، في كتابه الشّهير في **التّحليل النّفسيّ لحكايا الجنّيّات**[1]: «تستجيب قصص الجنيّات لمخاوف الطّفل والمراهق وتمارس عليهما قدرة إشفائيّة موحية بالتجارب التي يجب خوضها والجهود التي يجب بذلها لمواجهة الواقع. وهي تساعد الأطفال على إضفاء معنى على حياتهم...».

ماري طوق

(1) Bruno Bettelheim, *The Uses of Enchantment: The Meaning and Importance of Fairy Tales*, 1976.

مقدّمة المُراجِع

تستنطق حكايا الجنيّات المكتوبة بالفرنسيّة Contes de fées، شأنها شأن حكايات **ألف ليلة وليلة** ومجمل القصص الخرافيّة، كاملَ الوجود الإنسانيّ. تتوسّل بالأخيلة والأمثال والرّموز، بيد أنّ مدار انعقادها هو حياة الإنسان نفسه. يقرؤها الصّغار والكبار، ولا تختصّ بها ثقافة دون سواها، ولا عصرٌ دون غيره. ومن علامات خصبها وقوّتها أنّها سرعان ما انتصرت على أفكارٍ مناوئةٍ نعتتْها، لدى ولادتها في أواخر القرن السّابع عشر، بالسّذاجة وتوخّي الإمتاع الفنيّ بوسائل يسيرة. وتشكّل حكايات ماري-كاترين دونوا Marie-Catherine D'Aulnoy أحد الأعمال المؤسِّسة لهذا الجنس الأدبيّ، وفي الأوان ذاته أحد التجلّيات الأولى للكتابة النّسويّة في فرنسا. ونظراً لسعة عالَم الكاتبة الخياليّ ولتنوّع إجراءاتها السّرديّة ارتأينا أن نمهّد لقراءتها بهذه الإضاءات التّاريخيّة والنّقديّة.

نسيج الحكايات

ساهمت ماري-كاترين دونوا في إرساء قواعد هذا الجنس الأدبيّ إلى جانب شارل بيرّو Charles Perrault (1628-1703) وعدد من الكاتبات والكتّاب الفرنسيّين. نشرتْ حكايتها الأولى «جزيرة السّعادة» *L'île de la félicité* ضمنَ روايتها **حكاية هيبوليت، الكونت دو دوغلا** *L'Histoire d'Hippolyte comte de Douglas* في 1690، أي قبل أن يبدأ شارل بيرّو، الرّائد الآخر لهذا الجنس الأدبيّ[1]،

(1) يجد القارئ في هذه السّلسلة ترجمة لحكاياته تحت عنوان **حكايات أمّي الإوزّة**، ترجمة ياسر عبد اللّطيف، مراجعة كاتب هذه السّطور.

نشْرَ حكاياته الشّهيرة بسنة واحدة. ثمّ أظهرت في العامين 1697 و1698 جميع حكاياتها الباقية التي ستصنع إلى اليوم شهرتها ككاتبة. أمّا وقد قلنا هذا، فينبغي الانتباه إلى أنّ هذا الجنس الأدبيّ الذي تأسّس ككتابة بمبادرة من هذين الرّائدين ومُجايليهما كان بطبيعة الحال مسبوقاً بتراثٍ شفاهيّ ضخم. كما أنّ تراثاً إنسانيّاً واسعاً من الحكايات الأسطوريّة والدّينيّة والخياليّة شكّل لهؤلاء الكتّاب خزّاناً واسعاً راحوا ينهلون منه عناصر أو «موتيفات» سرديّة يمارسون عليها تحويلات معتبرة ويُخضعها كلٌّ منهم لمتطلّبات عمله الحكائيّ ولإلزامات خياله الخلاّق.

على هذا النّحو، تستعير ماري-كاترين دونوا في حكاياتها التّالية عناصر وإجراءات سرديّة آتية من نصوص أبوليوس Apuleius صاحب الحمار الذّهبيّ أو **التّحوّلات** (القرن الميلاديّ الثّاني) ومن **التحوّلات** لأوفيديوس Ovidius (بدايات القرن الميلاديّ الأوّل) ومن حكايات الإيطاليّيْن ستراباròولا Straparola (حوالى 1480-1558) وبازيله Basile (حوالى 1566-1632)، ومن الحكايات الخرافيّة الشّعريّة لمُعاصرها الشّهير لافونتين (1621 - 1695) La Fontaine، وكذلك ممّا كانَ معروفاً يومذاك في أوروبّا من عناصر الأدب الشّرقيّ.

تتركّز عمليّة الاستعارة أو التّناصّ هذه على إجراءات معيّنة نجدها في مختلف حكايات هذا الجنس الأدبيّ، تؤلّف بينها الكاتبة وتضيف إليها وتدمغها بميسم لغتها الخاصّة. على رأسها يقف:

- موضوع الغراميّات المعوقة أو المَحول بينها وبين التحقُّق؛
- الحيوانات الخدوم أو المُسعِفة التي تكافئ البطل على إنقاذه لها في الماضي فتساعده في العثور على ضالّته؛
- المسْخ أو التّحويل المؤقّت إلى حيوان أو إلى طائر أو نبات أو

جماد. يدوم ذلك ريثما يتوصّل البطل أو أيّ «مُساعِد» أو «حليف» آخر إلى إبطال السّحر المسلَّط على الحبيبة (أو العكس، إذ يحدث أن تُبطل الحبيبة هي نفسها عملَ السّحر المُصاب به المعشوق)؛

- الجماد النّاطق والنّبات الذي يُصبح حسّاساً؛
- الجنيّات المُحسِنات والأخريات الخبيثات؛
- سلسلة من الاختبارات التّعجيزيّة المفروضة على بطلة الحكاية من لدن منافسة حاقدة أو جنيّة خبيثة، منها، مثلاً، حلّ شلّة ضخمة من الخيوط، أو تفريق رياش عائدة إلى طيور مختلفة صير إلى تكديسها كيفما اتّفق في برميل ضخم، وسواها من أنماط السُّخرة والتّدجين، يساعد البطل حبيبته في اجتيازها دوماً؛
- سلسلة من العقوبات تتعرّض لها البطلة أو البطل على يد امرأة منافسة أو خصم كاره، تساعدهما جنيّة خبيثة، عقوبات تذهب من الجَلْد إلى الاعتقال في قصر موصدة أبوابه أو في مكان مسحور أو في قاع قنينة ضخمة؛
- الأشياء المزوّدة بمفعولٍ خارقٍ للعادة، كالعصا السّحريّة والتّفّاحة التي تجدّد الجمال وينبوع الشّباب والطّائر الأخضر الذي ينطق بكلّ الأسرار، إلخ.

هذه الإجراءات وسواها، وهو كثير[1]، تضيف إليها الكاتبة إجراءات أخرى وافرة هي بنات خيالها المحض. لا بل تجد في آثارها حكايات كـ «الفأرة الصّغيرة الطّيّبة» و«سعدى» و«لُعيبة»

(1) تقدّم نادين جاسمان في نشرتها الشّاملة المحقّقة لحكايات ماري–كاترين دونْوا عرضاً نقديّاً تفصيليّاً لما تقوم به الكاتبة من استعارات وإضافات في كلّ واحدة من حكاياتها، وندين لعمل هذه الشّارحة بعدد من المعلومات حول مَصادر إلهام الكاتبة؛ انظرْ:
Madame D'Aulnoy, *Contes des Fées, suivis des Contes nouveaux ou Les Fées à la Mode*, édition critique établie par Nadine Jasmin, Honoré Champion éditeur, coll. Bibliothèque des Génies et des Fées, Paris, 2004.

و«الضّفدعة الخيّرة» لا تستند إلى أيّ نماذج سابقة، وإن كانت تشترك معها في بعض «الموتيفات» العامّة كالبحث عن الزّوج المفقود أو اكتشاف الهويّة الشخصيّة بعدَ تمويهٍ ممارَس عليها أو تكبّد الامتساخ. وتقوم الكاتبة بالجمع بين هذه العناصر والإجراءات فتفرض عليها صيرورات مختلفة وتتمايز عن الكتّاب الآخرين بما تمارسه من تعدادٍ أو تنضيدٍ للحكايات. فإذا كان بيرّو مثلاً يُمسك بخيط أساسيّ ويُقيم عليه حكاية واحدة يضيئها من كلّ جوانبها عاملاً بالتّكثيف والاقتصاد السّرديّ واللّغويّ في آنٍ معاً، فإنّ دونوا تعمل بالعكس على الجمع بين حكايات عديدة تجعلها تنمو بصورة متوازية أو متزامنة. ودائماً يكون بين الحكايات عنصر مشترك يؤمّن في نهاية المطاف وحدة مختلف الحبكات ويصهرها في بوتقةِ حبكةٍ كبرى متماسكة. ولأنّ من شأن القارئ أن يتحقّق من ذلك بنفسه، فلن نضرب هنا إلاّ مثلاً واحداً. ففي حكاية «الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز» تتنامى ألغازٌ عديدة تظلّ في تناوبها وتقاطعها تشوّق القارئ وتوجّه مجرى الحكاية حتّى يعثر البطل على الطّائر الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار، الذي يكشف عن الألغاز تلك ويمنح جميع عناصر الحكاية في نهايتها وضوحاً باهراً وتلاحُماً لا انفصام فيه.

عمل التناصّ

على أنّ الكاتبة تمارس أحياناً نوعاً من التّناص الصّريح والمقصود لِذاته. ففي حكايتها «رهيفة أو فتاة الرّماد» تجمع بين حكايتين معروفتين لشارل بيرّو هما «سندريلاّ والخفّ البلّوريّ الصّغير» و«أُصَيبِع»، وتجعل الفتاة رهيفة تضطلع بكلتا التّجربتين اللّتين يُعيرهما بيرّو لبطلَيه الاثنين. وإلى ما في صنيعها من إعلاء

لقوّة الأنوثة وذكائها، وهو أمر متواتر في كتاباتها، تُضيف دونـوا تعقيداتٍ إضافيّة ومنعطفات جمّة. لقد نشرت هي حكايتها المعنيّة في 1697، أي في العام نفسه الذي سبقها فيه بيرّو إلى نشر حكايتيه المذكورتين. وقبل ذلك بعامين، أي في 1695، كانت الآنسة ليريتييه Mademoiselle L'Héritier (1734-1664) قد نشرت حكاية مشابهة بعنوان «مغامرات رهيفة». هذه الكاتبة كانت تخوض مع شارل بيرّو (وكان عمّها أو خالها) نوعاً من المنافسة الودّيّة والتّعاون الأدبيّ، ولطالما عالَجا تجارب سرديّة متقاربة. وعلى النّحو ذاته ينبغي أن نفهم ما قامت به دونوا من تطوير لحكايتَي «رهيفة» و«أُصَيبع». وهذا التّنافس والممارسة المعمّمة للتّناصّ شاعا في الحقيقة بين أغلب كتّاب هذا الجيل، لا بين أغلب كتّاب هذا الجنس الأدبيّ، وهو ما يذكّر باشتغال قُدامى الشّعراء العرب على عدد من الأواليّات الشّعريّة كالوقوف على الأطلال وسواه يسكب عليها كلٌّ منهم نبْره الخاصّ.

ميسَم الشّرق

أمّا بالنّسبة للتّأثير الشّرقيّ، وخصوصاً المؤثّرات العربيّة، فينبغي التّذكير بأنّ عناصر من المخيال الشّرقيّ كانت دائمة الحضور في الأدب الغربيّ قبل نشأة حكايا الجنّيات بقرون. وكما تذكّر به ريموند روبير[1]، فإنّ عهد لويس الرّابع عشر الذي عاشت ماري-كاترين دونوا إبّانه قد حفل بالعلاقات الدّبلوماسيّة والتّجاريّة بين فرنسا

(1) انظر تقديم ريموند روبير لنشرة نادين جاسمان الآنفة الذّكر لحكايات ماري-كاترين دونوا، بعنوان «قرن من الحكايا العجائبيّة»، وندين لهذا البحث ببعض المعلومات التاريخيّة الواردة في فقرتنا التّالية.

Raymonde Robert, « Un siècle de contes merveilleux », in Madame D'Aulnoy, *Contes des Fées…*, *op. cit.*, p. 15 sq.

والشّرق وامتاز بافتتاح المعهد الملكيّ لتعليم اللّغات الشّرقيّة، بما فيها العربيّة، وبكثرة البعثات المرسلة إلى الامبراطوريّة العثمانيّة. وقد ساهم المستعرب الشّهير أنطوان غالان Antoine Galland في بعض هذه البعثات، كما بدأ ينشر أجزاء ترجمته لحكايات ألف ليلة وليلة في 1704، أي بُعيد انطلاق موجة حكايا الجنيّات في فرنسا بستّ سنوات. هذه المسافة الزّمنيّة الضّئيلة تدفع إلى التّساؤل عمّا إذا لم تكن عناصر جزئيّة من اللّيالي قد سبقت إلى الشّيوع في فرنسا أو أوروبّا، بصورة شفويّة على الأقلّ، وذلك لا سيّما وأنّ حكايا الجنيّات نفسها كانت تُسمع في الصّالونات والبيوت، كما يحدث حتّى الآن في بعض المقاهي الشّرقيّة، أكثر ممّا كانت تُقرأ في الكتب. بعد صدور ترجمة ألف ليلة وليلة على يد غالان سينشأ في الحكايات الخرافيّة الفرنسيّة تيّارٌ كامل يُسمّى تيّار الحكاية الشّرقيّة الإلهام la veine orientale تمتدّ سنيّ ازدهاره أو عصره الذهبيّ بين 1704 و1789، ومن أهمّ أعمدته غالان نفسه والأب بينيون L'abbé Bignon وبيتيس دو لا كروا Pétis de La Croix وغوليت Gueulette وكازوت Cazotte.

بيد أنّ حكايات دونوا نفسها لا تبدو خلْواً من التّأثير الشّرقيّ. هكذا يشير الباحثون مثلاً إلى تقارب واضح بين حكايتها «القُمريّ واليمامة» و«حكاية نِعَم ونِعمة» في ألف ليلة وليلة، قد يكون نتيجة تأثّر مباشر أو غير مباشر بالنصّ العربيّ[1]. فكلتا الحكايتين تقومان على أسْر الحبيبة أو اختطافها وترحيلها إلى بلاد أخرى، وعلى اندفاع العاشق في بحثٍ مضنٍ عنها يمرّ بمنعطفات ومفاجآت عديدة. وكالعادة تبرع دونْوا في تعقيد الحكاية وإثرائها بحكايات عديدة

(1) انظر حواشي نادين جاسمان في نشرتها السالفة الذّكر لحكايات دونوا، ص 1149 وما يليها.

يتوالد بعضها من بعضٍ على خلفيّةٍ تلاحم نهائيّ. على أنّ الباحثين لم ينتبهوا إلى ما وجدناه من شبَه بين مطلعً الحكاية العربيّة المذكورة والحبكة الأساسيّة لحكاية أخرى لدونْوا عنوانها «الأميرة نجمة الجمال والأمير عزيز» (وهي مترجمة في هذا الكتاب). ففي حكاية **ألف ليلة وليلة**، يُغرَم نِعمة بنِعَم ولكنّه كان يتصوّر أنّها أخته، حتّى يكشف له أبوه عن كونها في الحقيقة طفلة غريبة ربيت معه في كنف عائلته، فيتزوّجها. ونجمة الجمال وعزيز في نصّ دونْوا نشآ هما أيضاً في ظروفٍ تجعلهما يحسبان أنّهما شقيقان، ولكنّهما يُفاجآن بحبّ جارف يجتاحهما ولا يقدران لا على الانقياد إليه ولا على صدّه، حتّى يكشف لهما الطّائر الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار أنّ نجمة الجمال هي في الحقيقة ابنة خالة عزيز، وأنّهما كانا قد أُبعدا عن عائلتيهما بصحبة شقيقَي الفتاة على يدِ خالةٍ أخرى غيور وحاقدة. هنا أيضاً تُختَتم تجربة المنفى والحبّ الغامض اللّهاب بقرانٍ فرِحٍ واكتشافٍ ظافرٍ للهويّة أو لتاريخ الشّخوص الذي كان متستَّراً عليهً في صنيعِ لؤم.

حَداثة دونْوا

إلى عمل الاستلهام والتّطوير والإضافة والابتكار هذا، تمزج الكاتبة بين مختلف مستويات الكلام والسّرد فتجمع بين الخرافيّ والعجائبيّ والتّاريخيّ والواقعيّ، إلخ. وبهذا كلّه قرّبت الحكاية الخرافيّة من القصّة الطّويلة أو من الرّواية القصيرة فكانت من الممهّدين لكتابة الحداثة.

ومن سِمات حداثة حكايات دونوا توفّرها على عملٍ واضح للدّعابة تارةً وللسّخرية طوراً. فغالباً ما نراها وهي تبالغ في وصف قبح بعض الشّخوص أو جمال بعضها الآخر، كما تتسلّى أحياناً

بوصفِ سذاجة بعض العشّاق أو الأبطال. فكأنّ هذا الجنس الأدبيّ قد بلغ لديها فور ولادته طوراً من النّضج يسمح لها بأن تُلقي على بعض عناصره نظرةً لاعِبة أو حتّى متهكّمة تستهدف بعض العناصر الشّائعة في حكايات الفروسيّة والعشق. ولا شكّ أنّ القارئ لا يقدر إلاّ أن ينتبه إلى الانتصار الدّائم لديها للأنوثة المعتقَلة وللمرأة المهمَّشة، وهو صدىً واضح لمأساتها هي نفسها في حياتها كامرأة.

ممّا يميّز عمل الكاتبة أيضاً خروجها مراراً عديدة على بعض قواعد هذا الجنس الأدبيّ، وخصوصاً عدم التزامها بالنّهاية السّعيدة لجميع الحكايات. هكذا نجد لديها نهاياتٍ غير مألوفة ولا متوقّعة وكذلك نهايات مأساويّة. فبطلة «الغصن الذّهبيّ» تفضّل أن توهَب الحكمة على أن توهَب الجمال، وفي النّهاية تظفر بهما كليهما. وبَطَلا «القُمْريّ واليمامة» يفضّلان في خاتمة الحكاية البقاء طائرَين، أي أن يستمرّ تحوّلُهما، حتّى بعدما تعرض عليهما إحدى الجنيّات المُحْسِنات إمكان استعادتهما هيئتَهما البشريّة. وبَطَلا «القزم الأصفر» و«الخروف» ينتهيان نهاية فاجعة. وفي هذا الخرْق لمبدأ النّهاية السّعيدة التي يفرضها الكتّاب على أغلب حكايا الجنّ وقصص النّاشئة، تُقرِّب الكاتبة الأدبَ من الواقع ولا تتخفّى برياءٍ على ما في التّجربة الملموسة أحياناً من مآسٍ ومصاعب وخسارات.

على أنّ أحد جوانبَ حكايات دونوا هذه يظلّ عرضةً للنّقد أو يدعو إلى قراءته بشيء من التحوّط. يتعلّق الأمر بشيء من روح المحافَظة أو الامتثاليّة والمراتبيّة التي تبرز عبر الإعلاء من أهميّة عالم النّبلاء والتّشبّث بالقيم الأرستقراطيّة والأهميّة المعقودة للولادة والمَحْتِدِ والأصل، وكذلك الولع بعناصر البذخ والتّرف المادّي والثّراء. هذا كلّه لصيقٌ بروح العصر وبالأجواء التي نشأت فيها

الكاتبة، ويمكن أن يفطن إليه القارئ بسهولة ويتخطّاه إلى لبّ الحكايات وجوهرها الأدبيّ والإنسانيّ الذي يتجاوز الفوارق الطّبقيّة والاجتماعيّة، لا بل حتّى فوارق الأزمنة والثّقافات.

ترجمة أسماء الأعلام

معروفٌ أنّ أسماء الأعلام، اسم زيد أو عمرو أو كاترين أو جاكي أو سواه، ليس تقبل التّرجمة، سواءٌ أكانت أسماء أشخاصٍ فعليّين أم أسماء شخوص قصصيّة. يشذّ عن هذه القاعدة، كما هو معروفٌ أيضاً، استثناءٌ أساسيّ يشمل الأسماء المحمّلة بدلالات تكثّف طبيعة الشّخصيّة الحاملة لها، أيِ تلك الأسماء التي هي في الأوان ذاته نعوتٌ أو صفات. هكذا نقول «ريتشارد قلب الأسد» و«أحدب نوتردام» و«ذات القلنسوة الحمراء» و«أُصَيبِع» بدل أن ننطق هذه الأسماء-النّعوت بلسانها الأصليّ نفسه. الأمر نفسه بالنّسبة إلى شخوص حكايات هذا الكتاب. فمن الواضح أنّ أغلب أسماء الشّخوص تستدعي ترجمتها إلى العربيّة، لِما لهذه الأسماء من قدرة على تلخيص طبيعة الشّخصيّة القصصيّة على النّحو الذي وصفناه أعلاه. وقد أبدعت مترجمة الكتاب ماري طوق في اختيار مقابِلات عربيّة لأسماء الشّخوص هذه، وسيرى القارئ بنفسه كم أنّ هذه الأسماء العربيّة تساهم في إنعاش القراءة وإضاءة علاقة المتلقّي بمختلف الشّخوص. وذلك لا سيّما وأنّ مؤلّفة الحكايات نفسها أعربت في الفرنسيّة عن قدرة عالية على ابتكار الأسماء وعلى شحْنها بوهج تعبيريّ وكثافةٍ عالية. ليس اعتباطاً أن تحمل شخوصٌ جميلة وطيّبة أسماء من أمثال «فتّان» و«محبوب» و«عزيز» و«رهيفة» و«سائدة» و«حليمة»، أو أن تحمل جنيّات ونساء خبيثات أسماء من

أمثال «نكد» و«وسواسة»، إلخ. لا بل إنّ حكاية كاملة هي «القُمْريّ واليمامة» تجد دعامتها الأساسيّة في كلمة واحدة هي constance، التي تُفيد الثّبات والمواظبة، وتشير في سياق الحكاية إلى الثّبات على الحبّ والوفاء لميثاق الغرام. وتأتي الحكاية بكاملها لتثبت أنّ مثل هذا الثّبات لا يمكن إلاّ أن يلقى في نهاية المطاف مكافأته. على هذا الأساس سمّت الكاتبةُ البطلَ العاشقَ كونستانسيو، أي الباقي على العهد، ومعشوقتَه كونستانسيا، أي الباقية على العهد، وقد تحوّل الاسمان في هذه التّرجمة إلى «عهد» و«إخلاص».

على أنّ الاشتغال على أسماء الشّخوص يصطدم أحياناً بعائق استحالة التّرجمة. ولحُسن الحظّ لم تصطدم المترجمة بهذا العائق إلاّ في حالاتٍ معدودة. هناك أوّلاً الأسماء التي لا تحمل معنىً أكيداً أو دلالة واضحة، والتي تستمدّ أحياناً بعض دلالةٍ من نبْرها أو رنينها الخاصّ. منها مثلاً اسم الفتى الوسيم ليانْدر Léandre، هذا الاسم اليونانيّ الأصل والذي يوحي في موسيقاه باللّيونة والعذوبة والانسياب. أو اسم الجنيّة الخبيثة كانكالين Cancaline، الذي يذكّر بِمَحار كنكال، نسبةً إلى بلدة كنْكال Cancale الفرنسيّة المعروفة بمَحارها، والذي يتّصف برنين حديديّ وشظَفٍ واضح. وهناك ثانياً وأخيراً الأسماء المبتكرة من لَدن المؤلّفة والتي تمارس فيها إدغاماً للكلمات الفرنسيّة لا يمكن العمل به في العربيّة، كما في حكاية «غراسْيوزا وبرسينَه». فلئن كان اسم البطلة Gracieuse قابلاً للتّرجمة إلى «لطيفة» أو «جميلة» أو «فاتن»، فإنّ اسم البطل Percinet هو ثمرة إدغامِ مفردتين: الأولى هي المفردة الفرنسيّة prince (أمير)، التي أخضعَت حروفها إلى إعادة توزيع (ما يُعرَف بالجِناس التّصحيفيّ anagramme)، والتي تُحيل في هذا السّياق على التّعبير المكرَّس: le prince charmant، ومعناه

الحرْفيّ هو «الأمير الفاتن» وتقابله الصّيغة العربيّة «فارس الأحلام» أو «فتى الأحلام»؛ أمّا المفردة الثّانية فهي الفعل percer الذي يُفيد النّفاذ والاختراق، ويُحيل في سياق الحكاية إلى سِهام العشق، وتحديداً إلى صورة كوبيدون رسول العشق الأسطوريّ الذي غالباً ما نراه في الرّسوم حاملاً قوساً ومتأهّباً لإطلاق سهمه. ولصعوبة جمع هاتين الدّلالتين في كلمة عربيّة واحدة عمدت المترجمة إلى الاحتفاظ بالاسم برسينه. ولمزيدٍ من الملاءمة، أبقت على اسم محبوبته مع شيء من الإمالة صوب النطق الإيطاليّ أو الإسبانيّ للاسم بما يزيده تناغماً في العربيّة: غراسْيوزا.

على امتداد هذا الكتاب بقيت الترجمة وفيّة لدلالات الأسماء هذه، ولم يحدث تحوير أو تخفيف إلاّ لواحد من الأسماء، ذلكم هو اسم «الأمير ذيب»، بطل الحكاية الأخيرة في الكتاب، الحاملة اسمَه عنواناً. تقوم الحكاية على وصف تحوّلات رجل تمسخه جنيّة عابثة إلى حيوان في لحظة ولادته، فيُعيد له حبُّ امرأةٍ إهابَه الآدميّ أو هيئتَه البشريّة، تماماً كما يحدث في حكاية سترابارولا في اللّيلة الثانية من عمله **اللّيالي الهزليّة** (1550-1553) *Le piacevoli notti*، وفي الحكاية الشّهيرة **الحسناء والوحش** *La Belle et la Bête* للسيّدة دو فيلنوف Madame de Villeneuve، المنشورة في 1740، أي بعد صدور حكاية دونوا هذه بما يقرب من نصف قرن[1]. في التّرجمة المنشورة هنا لهذه الحكاية، آثر المحرّر والمترجمة اختيارَ اسمِ حيوانٍ أكثر شيوعاً في البيئة

(1) الحكاية الأخيرة هي نفسها معروفة أكثر عبرَ صيغة مختصرة ومُتَصَرَّف بها وضعتها السيّدة لوبرانْس دو بومون Madame Leprince de Beaumont في 1756، قبل أن يأتي الشّاعر والفنّان الفرنسيّ جان كوكتو Jean Cocteau ليترجمها إلى لغة السّينما في فيلم حمل العنوان نفسه في 1946، وتحذو حذوه شركة والت ديزني فتحوّل الحكاية إلى فيلم للرّسوم المتحرّكة في 1991.

العربيّة من ذلك الذي اختارته المؤلّفة، ويتيح خصوصاً تحويله إلى أحد أسماء الأعلام المتداولة في لغة الضادّ (ذئب/ ذيب).

وتفادياً للّبس، لم تعمل هذه التّرجمة بإعراب نهايات أسماء الأعلام إلاّ نادراً. هكذا، وعملاً بالتّحييد الذي تمارسه العربيّة الحديثة على نهايات هذه الأسماء، يقف القارئ، لدى الكلام على الفتى المدعوّ «عهد» على سبيل التّمثيل، على عبارات من قبيل «ترى عَهْد في كلّ يوم» بدلاً من «ترى عَهْداً في كلّ يوم».

مَواعِظ وعِبر

كان من السّهل أن نلخّص على غرار أغلب شرّاح هذه الحكايات عِبَرَها أو دروسَها، كأنْ نشير إلى أنّ عِبْرة «غراسيوزا وبرسينه» هي أنّ الفضيلة وروح الإحسان تلقيان ثوابهما العادل دوماً، أو أنّ عبرة «الأميرة روزيت» هي أنّ البراءة تنتصر دائماً في نهاية المطاف، أو أنّ عِبْرة «رهيفة أو فتاة الرّماد» هي أنّ العفو هو أكبر انتقام ممكن، إلخ. بيد أنّنا فضّلنا أن ندع القارئ يستخلص العبْرة بنفسه، من فهمه لأجواء الحكاية وبالاستعانة بالأبيات الشّعريّة التي تختتم بها الكاتبة أغلب الحكايات. ثمّ إنّ العديد من حكايات دونوا تتمتّع أحياناً بأكثر من عِبرة. كما أنّ بعض الحكايات لا تستهدف تقديم درسٍ أو موعظةٍ (وهو ما يشكّل قاسماً مشتركاً لُمجمل الحكايات الخرافيّة، بما هي أدبُ أمثالٍ كما في كليلة ودمنة) بل تصف مشاهد وتجارب حياتيّة أو عشقيّة موصوفة لجَمالها الخاصّ.

عن الحواشي والرّسوم وتسلسل الحكايات

تضمّنت ترجمة هذا الكتاب حواشي معدودة تعرّف بأسماء

الأعلام وبعناصر أسطوريّة أو تاريخيّة وببعض الرّقصات والفنون. وقد تعاون في وضعها كلّ من مترجمة الكتاب ومحرّره، ويتعلّق الأمر بإضاءات وجيزة آتية من بطون المعاجم والموسوعات.

كما حظيت حكايات الكاتبة، شأنها شأن أغلب روائع الأدب الفرنسيّ، برسوم مصمّمة بطريقة النّقش الغائر أو الحفْر على الخشب أو على الحجر، وبلوحات زيتيّة وتحبيرات قام بها بعض كبار الرّسامين لمرافقة مختلف طبعاتها على امتداد القرون. وقد انتخبنا هنا بعضاً منها، وحرصنا على أن تعكس الرّسوم، بتعدّد أصحابها، تنوّع الأساليب في الأعمال الفنيّة التي رافقت هذه النّصوص.

أمّا تسلسل الحكايات فقد اتّبعنا فيه الترتيبَ التحقيبيّ، ذلك الذي يمضي متصاعداً بحسب تواريخ ظهورها إلى النّور.

كاظم جهاد



”غراسيوزا وبرسينه»، نقش غائر لكليمان–بيار ماريليّيه

Clément-Pierre Marillier 1785

غراشيوزا وبَرْسِينَه

كان يا ما كان، كان هناك ملك وملكة ليس لديهما إلاّ ابنة وحيدة. وكان جمالها ما بعده جمال، ناهيك عن لطافتها ونَباهَتها. سمّوها غراسيوزا[1] فكانت اسماً على مسمّى. كانت بهجة أمّها. لا يمرّ صباح إلاّ ويُقدّم لها ثوب جميل، تارةً من الحرير المقصّب وطوراً منَ المخمَل أو السّاتان. وكانت تتزيّن بأبهى الحليّ دون أن يجعلها ذلك أكثر فخراً أو تباهياً. كانت تقضي صبيحَتَها برفْقةِ عُلَماء يلقّنونها شتّى أصناف العلوم. وفي فترة بعد العشاء، كانت تعمل بقرب الملكة. وعندما يحِينُ وقت تناول العصرونيّات، تُقدّم لها كاسات من حبّاتِ الملبَّس وأكثر من عشرين مرْطباناً[2] منَ المُرَبّى: وهكذا شاع في كلّ مكان أنّها أسعد أميرةٍ في العالم.

وكان في البلاط نفسه عانسٌ وافرة الثراء تُدعى الدّوقَة نَكَد، سُميّت هكذا لكدَرها الدّائم وولعها بالدّمدمة والهمهمة والتذمّر والشكوى. كانت مرعبة على كلّ الأصعدة: كان شعرها أصهب بلوْنِ النار؛ وكانَ وجهها منتفخاً ومليئاً بالبثور. ومَن العينين اللتين كانتا لها سابقاً، لم يتبقّ إلاّ واحدة، دائمة الامتلاء بالرّمَص والوسَخ. كان فمُها كبيراً لدرجةٍ تخال معها أنّها ستلتهم الجميع؛ ولكن بما أنّها كانت درداء، فإنّ ذلك كان يحول دون خوف الآخرين منها. كانت حدْباءَ منَ الأمام ومنَ الخلف وتعرُجُ على الجانبين. إنّ أمثال هؤلاء

(1) يعني اسم «غراسيوزا» اللّطيفة والظّريفة والحسناء. واسم «برسينه» يوحي بالتعبير الشّائع «فتى الأحلام» وإن لم يكن يدلّ عليه مباشرةً. انظر بهذا الصّدد الفقرة المخصّصة لترجمة أسماء الأعلام في تمهيد هذا الكتاب.

(2) المرْطبان إناء من زجاج أو خزَف تُحفَظ فيه المربّيات وما إليها.

المسوخ يغارونَ من كلّ ذي خلقةٍ حسنة. كانت تكرَه غراسيوزا إلى حدّ لا يوصَف، وانسحبَت منَ البَلاط كيْ لا تسمَعَ أحداً يتكلّم عنها بالخير. انزَوَت في قصر تملكه ولم يكن بعيداً. وعندما كان يزورها أحدهم ويروي لها عن روائع الأميرة كانت تهتف غاضبةً:

- أنتم تكذبون، تكذبون، هي ليست ودودة. لديّ منَ السّحر في إصبعي الصّغيرة ما لا تستطيع أن تملكه في كلّ شخصها.

وفي تلك الأثناء مرِضت الملكة وتوفّيَت. أحسّت الأميرة غراسيوزا أنّها ستموت هي أيضاً من الألم على فقدانها أمّاً بهذه الطيبَة والحنان. وتحسّر الملك كثيراً على زوجة بهذه الطّيبة والحنان. ومكث أكثر من سنة محتبساً في قصره. وأخيراً بعد أن خشي الأطبّاء على صحّة الملك، أشاروا عليه بأن يتنزّه ويروّح عن نفسه. ذهب إلى الصّيد. وبما أنّ الحرارةَ كانت مرتفعة دخلَ إلى أحد القصور الضخمة التي وجدها على طريقه لكي يرتاح.

وما إن أُخبرَت الدّوقة نكَد بمجيءِ الملك (لأنّ القصر كان قصرها) حتّى هُرِعَت لاستقباله وقالت له إنّ المكان الأكثر برودة في المنزل كان قبواً كبيراً مقوَّساً ونظيفاً جدّاً ورَجَتْهُ أن يقصده. نزل الملك إلى القبو معها وإذ رأى مائتي برميلٍ مصطفّة أحدها على الآخر، سألها عمّا إذا كانت قد احتفظت بكلّ هذه المؤونة الضّخمة لها وحدها.

قالت:

- نعم يا موْلاي، لي وحْدي. وسأكونُ بغاية السّرور أن أذيقك منها؛ تجد فيها مختلف صنوف المشروبات وأشهاها.

وعندئذٍ أمسكت نكَد بمطرَقةٍ صغيرةٍ وطرَقت على أحد البراميل، طق، طق، وخرج منَ البرميل ألف قطعةِ نقدٍ ذهبيّة من

فئة «البستول».

قالت مبتسمة:

- ماذا يعني هذا؟

وطرقت البرميل الآخر، طق، طق، وخرج منه صاعٌ من قطعِ «اللويسيّات» الذّهبيّة المضاعفة.

قالت أيضاً وهي تبتسم ابتسامة أعرض:

- لا أفهم شيئاً من هذا.

وانتقلت إلى برميل ثالث وطرقته، طق، طق فخرجت منه لآلئ والماس غطّت الأرض.

هتفت:

- آه! لا أفهم شيئاً يا مولاي، لا بدّ أنّهم سرقوا لي شرابي الطيّب ووضعوا مكانه هذه التفاهات.

قال الملك مندَهشاً تماماً:

- تفاهات! عجباً يا سيّدة نكَد، هل تسمّين هذه تفاهات؟ هناك منها ما يشتري عشر ممالك كبيرة كباريس.

قالت:

- حسناً، اعلمْ أنّ كلّ هذه البراميل مليئة بالذّهب والأحجار الكريمة؛ سأجعلك سيّداً عليها شرط أن تتزوّجني.

أجاب الملك الذي كان يحبّ فقط المال:

- لا أطلب ما هوَ أفضل، منذ الغد إذا شئت.

قالت:

- ولكن ثمّة شرط آخر، أريد أن أكون وصيّة على ابنتك كما كانت أمّها، وأن تكون تابعة تماماً لي وأن تكونَ رهْنَ إشارَتي.

قال الملك:

- ستكونين وصيّة عليها، كوني متأكّدة. هاكِ يدي.
وضعت نكَد يدها في يدِ الملك. خرَجا سويّاً من القبو الثّريّ، الذي أعطته مفتاحه. عندئذٍ عادَ إلى قصره. غراسيوزا، إذ سمعت الملك أباها، هُرِعَت للقائهِ وقبّلته وسألته إذا كانت رحلة الصّيد موفّقة.
قال:
- أمسكتُ بحمامة لا تزال حيّة.
قالت الأميرة:
- آه يا مولاي أعطِني إيّاها، سأُطعِمُها.
- هذا غير ممكن. على أيّة حال سأوضّح لك ما قصدته بكلامي: التقيتُ بالدّوقَة نكَد واتّخذتها زوجة لي.
هتفت غراسيوزا وقالت كردّةِ فعلٍ أولى:
- أيّتها السّماء! أيعقل أن تدعوها حَمامة؟ بل قلْ إنّها بومَة بالأحرى.
قال الملك غاضباً:
- اصمتي، آمرك بأن تحبّيها وتحترميها كما لو كانت أمّك: اذهبي بسرعة وتزيّني لأنّني أريد أن أستقبلها منذ اليوم.
كانت الأميرة مطيعةً جداً. دخلت إلى الغرفة لكي ترتدي ثيابها. عرفت مربّيَتُها ألَمها من عينيها.
سألتها:
- ما بالك يا صغيرتي العزيزة؟ هل تبكين؟
أجابت غراسيوزا:
- للأسف يا مربّيتي العزيزة. منْ لا يبكي في مثل حالتي؟ سيتزوّج الملك، ولسوء حظّي المنكود ستكون عدوّتي اللّدود هي زوجة أبي. إنّها نكَد المرْعِبَة، كيف لي أن أراها في تلك الأسرّة التي

طرّزتها أمّي الطيّبة بيديها الاثنتين برهافة وإتقان؟ كيف لي أن أداعبَ قِرْدَةً تَتمنّى أن تَتسبّب بِمَوتي؟

أجابتها المربّية:

- يا طفلتي العزيزة، يجب على روحك أن ترتقي بك بقدرِ أصلك الشّريف. الأميرات مثلك عليهنّ أن يقدّمن المثل الصّالح أكثر منَ الآخرين. وأيّ مثل أجمل من إطاعةِ أبيكِ وإكراه النّفس لإعجابه؟ عِديني إذاً بألاّ تُظهري أمام نكَد معاناتك بسببها.

لم يكن باستطاعة الأميرة أن تخضع للأمر، لكنّ المربّية الحكيمة ذكرت لها أسباباً كثيرة ما ألزَمها في النّهاية بأن تستقبلها جيّداً وأن تُحْسن معاملتَها.

وارتَدَت على الفورِ ثوباً أخضر على خلفيّة ذهبيّة، تركَت شَعْرَها الذّهبيّ مسترسلاً على كتفَيها ومتموِّجاً مع الرّيح كما كانت الموضة في تلك الأيّام، ووضعت على رأسِها تاجاً منَ الورود والياسمين وكانت أوراقه كلّها منَ الزّمرّد. حتّى فينوس[1] كانت ستبدو أقلّ جمالاً من غراسيوزا. ومع ذلك، فإنّ التّعاسة التي لم تكن باستطاعتها تجاوزها بانَت على وجهها.

ولكن بالعودة إلى نكَد، كانت هذه المخلوقة البشعة منشغلة بتزيين نفسها. أمَرَت بأنْ يصنَعوا لها حذاءً يكون في إحدى القدمين أعلى منه في الأخرى بمقدار ذراع لكي تبدو أقلّ عرجاً. ووضعت حشوة لكي تخفي بها حدْبَتها. ووضعت عيناً مزجّجة من أفضل ما صُنِعَ واستطاعت العثور عليه؛ وطلت وجهها بـالمَساحيق لكي تصبح أكثر بَياضاً، وصَبَغَت شعرها منَ الأحمر إلى الأسود ثمّ ارتَدت

(1) فينوس: هي في الميثولوجيا الرّومانيّة إلهة الجمَال والجاذبيّة والحبّ، تقابلها في الميثولوجيا الإغريقيّة أفروديت.

ثوباً منَ السّاتان بِلوْنِ القطيفة مبطّناً بالأزرق وتنّورةً صفراء وشرائط بنفسجيّة. أرادت أن تعلن دخولها على صَهْوَة حصانٍ لأنّها سَمِعَت أنّ ملكات إسبانيا يفْعَلنَ ذلك.

وفيما كان الملك يوزّع أوامرَه وكانت غراسيوزا تنتظر لحظة الانطلاق لاستقبال نكَد، نَزَلَت وَحْدَها إلى الحديقة ومرّت بغابة قاتمَة مكتظّة بالأشجار وهناك جلست على العشب. قالت: «وأخيراً صِرْت حُرّة، أستطيع أن أبكي بقدرِ ما أشاء دون أن يَعتَرِض عَليَّ أَحد». وللحال أخذت تتنهّد وتبكي ذارفةً الدّموع مدراراً فبَدَت عيناها كنبْعَيْ مياهٍ متدفّقة. وهي على هذه الحالِ، لمْ تعدْ تفكّر في العودة إلى القصرِ عندئذ رأت وصيفاً مرتَدياً زيّاً منَ السّاتان الأخضر المزدان بريشٍ أبيض. كانَ له أجمل وجهٍ في العالم.

سَجَدَ على إحدى ركبَتيه وقال:

- يا أميرتي، الملك ينتظرك.

مكثت مندهشة أمام كلّ هذه المباهج التي يثيرُها مرأى الغلام. وبِما أنّها لا تعرفه ظنّت أنّه في عِداد الموكبِ الذي ذهب للقاءِ نكَد.

قالت له:

- منذ متى وظّفكَ الملك وصيفاً لدَيه؟

قال:

- سيّدتي، لست غلاماً في خدمة الملك، بل أنا غلامك ولا أريد أن أكون إلاّ في خدمتك.

أجابت مندهشةً تماماً:

- في خدمتي؟ لكنّي لا أعرفك.

قال:

- آه أيّتها الأميرَة، لم أجرؤ بعد على التعريف بنفسي لكنّ المآسي

التي تتهدّدك بسبب زيجَة الملك ترغمني على الكَلام معك في وقت أبْكَر ممّا كنت سأفعل. صمّمْتُ على أنْ أدَعَ للوقتِ ولخدماتي أن تشيَ بشغفي، و...

هتفت الأميرة:

- عجباً! كيف يجرؤ وَصيف أن يقول لي إنّه يحبّني! تلك هي الدّاهية الكبرى.

قال لها بِحَنان واحتِرام:

- لا ترتعبي يا غراسيوزا الجميلة. أنا برسينه، أميرٌ عُرِفَ عنّي ثرائي وعلمي، وهذا ما يدعوك لأن لا تجدي البتّة تفاوتاً بيننا أللهمّ إلاّ مزاياك وجمالك. أحبّك منذ وقتٍ طويل. وحيثما تكوني أكُنْ، من دون أن تريني. إنّ القدْرة على السِّحر التي ورثْتُها عند ولادتي كانت لي مصدر معونة كبيراً أمدّتني بمتعة أن أراك: سوف أرافقك اليوم إلى كلّ مكان بهذا الزيّ وآمُلُ ألاّ أكونَ دونَ نفْعٍ بالنّسبة لك.

وكلّما تكلّم نظرت إليه الأميرة بدهشةٍ متزايدة.

قالت له:

- هذا أنت، يا برسينه الجميل، هذا أنت الذي أرغب كثيراً في رؤيته والذي يُحْكى عنه أشياء مدهشة فعلاً! كم أنا سعيدة بأنّك تريد أن تكون من أصدقائي! لم أعُد أخشى نكَد الشرّيرة ما دمت تساندني.

وتبادلا أيضاً بعض الكلمات، ومِن ثمّ ذهبت غراسيوزا إلى القصر حيث وجَدَت حصاناً مُسْرَجاً كان برسينه أدخَله إلى الإسطبل، واعتقدوا أنّه لها. صعدَت فوقَه، وبما أنّ الجوادَ كان قفّازاً، أمسَكَه الغلامُ من لجامِه، واقتادَه، ملتفتاً في كلّ دقيقةٍ إلى الأميرةِ ليتمتّعَ برُؤيَتها.

وعندما ظهَرَ الحِصان الذي إقتيدَ إلى نكَد قرب حصان غراسيوزا،

بانَ كفَرسٍ بليدٍ صَراحةً، وكان غطاء سرج الحصان الجميل مُرصّعاً بالحِجارة الكَريمة الباهرة وغطاء سرج الحصان الآخر لا يستطيع مجاراته. كان الملك منشغلاً بألف شيء ولم ينتبه للأمر، لكنّ جميع الأسياد لم يكونوا يَرْنونَ إلاّ إلى الأميرة التي أعجبوا بجمالها وإلى غلامها المرتدي الأخضرَ الذي كان وحده أجمل من كلّ غلمان البلاط.

والتَقوا بنكَد أثناء الطّريق، في عربَةٍ مكشوفَةٍ، وكان قبحها وسوء خلْقتها لا يوصَفان. قبّلها الملك والأميرة. وقدّم لها حصانها لتصعد فوقه. لكنّها إذ رأت حصانَ غراسيوزا، قالت:

– كيف! لِهذِه المخلوقة حصانٌ أجملُ من حصاني! أفضّل ألاّ أصبِحَ ملكَةً أبداً وأعودَ إلى قصري الثّريّ على أن أعامَلَ بهذِهِ الطّريقة.

وعلى الفور أمَرَ الملك الأميرة بأن تترجَّل، وتوسّل إلى نكَد أن تشرّفه بصعودها على صهْوَةِ حصانها. أطاعَت الأميرة دون اعتراض. لم تنظر إليها نكَد وَلم تشكرْها؛ رُفِعَت على الحصانِ الجميل: كانت تشبه رزْمة غسيلٍ وسخ. كان هناك ثمانية نُبلاء من وُصَفاء[1] الملك يمسكونَ بها لئلاّ تقع عن الجواد. لم يكن ذلك يُرضيها. وراحت تُهَمْهِم وتتوعّد وهيَ تكزّ على أسنانها. سألوها عَمّا بها.

قالت:

– أريد، بما أنّني السيّدة، أن يمسك الغلام المرتدي الأخضر بلجام حصاني كما كان يفعل حينَ كانت غراسيوزا تعْتَليه.

أمَرَ الملك الغلام المرتدي الأخضر بأن يقود حصان الملكة. نظر برسينه إلى الأميرة، وهيَ أيضاً نظرت إليه دون أن يتفوّها بكلمَة واحدة: أطاعَ واستأنف موكب القصر كلّه المسير. كانت الطّبول

---

(1) كان وُصَفاء الملوك أو الأمراء والمشرفون على التّشريفات والاستقبال في قصورهم من طبقة النبلاء.

والأبواقُ تصدَحُ بنغماتٍ مُكرَهةٍ وكانت نكَد مسرورةً. بأنفها الأفطس وفمها المعوّج لم تكن لتتمنّى أن تكون مكان غراسيوزا.

ولكن في اللّحظةِ غير المتوقّعة، ها قد بدأ الجواد بالقفز والرّفس والعَدْوِ بسرعةٍ قصوى إلى درَجةٍ أنّ أحداً لَمْ يستطع إيقافه. وحَمَلَ نكَد بعيداً. أمسكت بسرجِ الجواد ووبره وراحت تزعق بكلّ قوّتها، وأخيراً سقطَت وقدمُها عالقة بالرّكاب وجرجرَها الجوادُ بعيداً على الحجارة والأشواك وفي الوَحل، حيث بقيت شبه مدفونة هناكاً وبما أنّ كلّ واحِدٍ في الموكب تبعَها فقَد وافاها الجميع في الحال. كانت قد ملأت الخدوش جسدها وأصابت الكسور رأسها في أربعة مواقع أو خمسة، وكذلك ذراعها. لم يحدث أنْ كانَ هناكَ عَروسٌ في مثْلِ هذه الحالِ المريعَة.

بدا الملك يائساً. لُمْلِمَت عن الأرض كما يُلمْلَم زجاج محطَّم. كانت قبّعتها في جانب وطار حذاؤها إلى جانبٍ آخر. حُمِلَت إلى المدينةِ ومُدّدت في السّرير وجيءَ إليها بأفضل الجَرّاحين. وعلى الرّغم من إصابتها الشديدة، لم تكفّ عن الشّتم والتوعّد.

كانت تقول:

- تلك خدعة ماكِرَة أرادَت غراسيوزا تدبيرَها لي. أنا متأكّدة من أنّها لَمْ تمْتطِ هذا الحصانَ الجميل والسّرير إلاّ لكي تثير حسدي وتتعمّد قتلي. إذا لم يوافق الملك على رأيي هذا فسوف أعود إلى قصري الثريّ ولن أراه ما دُمْت حيّة.

وَأُعْلِمَ الملك بغضب نكَد. وبما أنّه كان عاشقاً لمنفعته، فإنّ مجرّد التفكير بخسارة البراميل الألف من الذّهب والألماس جعله يرتعش خوفاً ويبادر لفعل أيّ شيء للاحتفاظ بها. هُرِعَ لدى المريضة الرثّة وجثا عند قدميها وأقسم لها بأنّها ما عليها إلاّ أن تمْلِيَ عليه عقوبةً

متناسبةً والذّنبَ الذي اقترفته غراسيوزا وأنّه سيترك لها أمر الانتقام منها. فقالت إنّ ذلك كانَ يَكْفيها وإنّها ستقوم باستدعائها.

وبالفعل جاؤوا إلى الأميرة يقولون لها إنّ نكَد ترسل في طلبِها. أصبحت شاحِبة، وراحت ترتجف مدْرِكة تماماً أنّها لم تستدعها إطلاقاً لتُلاطِفَها. نظرَت من جميع الجِهاتِ لِتَرى ما إذا كانَ برسينه سيظهر؛ لم ترَه فذهبت باتجاه جناح نكَد حزينة. ما كادَت تدخل حتّى أقفلت الأبواب. ثمّ انقضّت عليها أربع نساء يشبِهْنَ جنيّات الغضب بأمْرٍ من سيّدتِهِنّ ونزعن عنها ثيابها الجميلة ومَزّقْنَ قميصَها. وعندما بانَت كتفاها، لم تستطع تلك النسْوَة الشرّيرات احتمال وهجِ بياضهما. أغمضْنَ أعْيُنَهُنّ كما لوْ أنّ الثلج يبهرهن.

هتفت نكَد القاسية القلب من عمقِ سريرها:

- هيّا هيّا، تشَجّعن. اسلخْنَ جلدَها ولا تبْقينَ قطعةً واحدةً صغيرةً من هذه البشرة البيضاءِ التي تظنّها هي في غايةِ الجمال.

لو كانت على غير هذه الحال المريعة لَكانت تمنّت غراسيوزا أن يأتي برسينه الجميل. ولكن إذ رأت نفسها شبه عاريَة، كانت حيّية جدّاً ولا ترْغَب بالتالي أن يشهَدَ برسينه على عُرِيها فتحضّرَت لتتلقّى الضربات كنَعجةٍ بائسة. كانت جنيّات الغضب الأربع يَحمِلنَ في أيْدِيهِنَّ عِصِيّاً مخيفة. وكان لدَيْهِنّ أيضاً مكانس ضخمة لكي يَسْتَعِضنَ بها عن العصيّ مجْهِزات بذلِكَ على الفتاة دونَ رحمَة. ولدى كلّ ضربة كانت نكَد تقول:

- أقوى، أقوى، لا تُراعينَهَا.

لا أحدَ كان سيصدّق أنّه بعدَ كلّ ذلك الضّربِ ستخرج الأميرة في صورة أخرى غير صورة امرأة مسلوخة منَ الرأس حتّى القدَمين. ولكنْ مخطِئٌ مَنْ يعتبِرُ ذلك، لأنّ برسينه المتأنّق بَهَرَ أعيُنَ أولئك

النّسْوَةِ: كُنَّ يعتقدْنَ أنّ في أيديهنّ عصيّاً ولكنّها تحوّلت رياشاً من كلّ الألوان. وما إن بدَأْنَ بالضرب حتّى رأتها غراسيوزا وأقلعت عن شعورها بالخوفِ وقالت بصوت خافت جدّاً:

– آه يا برسينه جئت لتنجدَني بنخْوة ومروءة! ماذا كنت سأفعل من دونك؟

وضاربات السّوط ظلَلْنَ حتّى كلّت أيديهنَّ ولم يعد باستِطاعَتِهِنَّ أن يُحرّكنَ أذْرُعَهُنّ. لَفَفْنَها بِثِيابِها ووضَعْنَها خارِجاً وهُنَّ يطْلِقْنَ عليها ألفَ شتيمَة.

عادَت إلى غرْفتِها متظاهِرَةً بأنّها مريضة جدّاً: خلَدت إلى السّرير وأمَرَت بألاّ يبقى أحدٌ قربَها إلاّ مربّيَتَها التي روَت لها مغامرتها كلّها. ولشدّةِ ما استرسلت في روَايتها، نامَت وذهبت المربّية. وحينَ استيقظت، رأت في إحدى الزّوايا الغُلامَ المُرْتَدي الأخضر الذي لمْ يكن يجرُؤ على الاقتراب منها تعبيراً عن احترامه لها. قالت له إنّها لن تنسى في حياتها الأفضالَ التي أسْداها لها، وتوسّلت إليه ألاّ يترُكَها لقمَةً سائغةً لغضبِ عدوّتها، وأن يتفضّل بالانسحابِ من غرفتها لأنّها نُصِحَت دوماً بألاّ تبقى وحيدةً مع الفتيان. أجابها أنّ بإمكانها أن تلاحظَ بأيّ احترام يعاملها، وأنّ من صوائبِ الأمورِ أن يُطيعها في كلّ شيءٍ بما أنّها سيّدَته وحتّى على حسابِ راحَتِهِ الشّخصيّة. وعلى هذا غادَرَ الغرفةَ بعدَ أنْ نصَحَها بالتَظاهرِ بالمَرَضِ إثرَ المعاملة السيّئةِ التي تعرّضت لها.

وبلغَ السّرور من نكَد مبْلَغاً بحيث أنّها برئت من جراحِها بنصفِ المدّةِ اللازمَة لعلاجِها. وانتَهى العرسُ باحتفالٍ عظيم. لكنّ الملكَ كانَ يعرف أنّ نكَد تهوى، أكثر ما تهوى، أن تُمْدَح لجَمالها، فأوعزَ بأن يُرسَمَ لها بورتريه وأمَرَ بتنظيمِ مناظرة كلاميّة، كانَ يتوجّب فيها على

ستّة فرسان من أمْهَرِ فرسانِ البلاط أن يدعَموا، رغْماً عن الجميع، الرأي القائلَ إنّ المِلكَة نكَد كانت أجملَ أميرَةٍ في العالم. وجاء الكثيرُ مِنَ الفرسان والغرباء ليدعموا الرأي المعاكس. وكانت هذه المرأة الشّنيعَة المنظرِ حاضِرَةً تُراقبُ كلّ شيء، متربّعة على شرفةٍ كبيرةٍ مكسوّةٍ بالبروكار المَقصّبِ بالذّهب، وكان يَطيبُ لها أنْ تَرى كيفَ أنّ براعة فرسانها أكسبتها قضيّتها الباطِلة. كانت غراسيوزا خلفَها تجْتَذِبُ آلافَ الأنظار. ونكَد المجنونة المزهوّة بنفسها تظنّ أنّها محطّ أنْظارِ الجميع.

لمْ يعُدْ هناكَ مَنْ يجرؤ على الجِدالِ بخصوص جمالِ نكَد حتّى مجيءِ فارسٍ شابّ يحملُ صورة داخل علبَةٍ مِنَ الألماس. قالَ إنّه يدعمُ الرأيَّ القائل إنّ نكَد كانت الأقبح بينَ كلّ النساء، وإنّ تلكَ التي يوجد رسمها في العلبَة كانت الأجمل بينَ كلّ الفتيات. وفي الوقتِ نفسِهِ هاجَمَ الفرسانَ الستّة وطَرَحَهم أرْضاً. ثمّ فتَحَ العلْبة وقال لهم إنّه يريدُ تعزيَتَهم ومواساتهم بأن يُظْهر لهم ذلك البورْتريه الجميل. وكلّ واحد فيهم تعرّف إلى صورةِ الأميرَةِ غراسيوزا. انحَنى الفارس أمامها باحترام كبير وانسحبَ دونَ أن يقولَ اسمَه. لكنّ غراسيوزا لم تشكّ قطّ في أنّه برسينه.

كادت نكَد تختَنِقُ غيْظاً: انتفَخَت أوْداجُها. لم تعد تستطيع أن تلفظَ كلمةً واحدَة. أخذت تومِئُ بأنّها ناقمة على غراسيوزا. وعندَما استطاعَت أن تتكلّمَ طفِقَت تتظاهرُ بأنّها في حالِ ميؤوسٍ منها.

قالت:

- كيف تجرؤين على أن تنتزعي منّي جائزَةَ الجمال! كيف تجرؤين على أنْ توجَهي هذه الإهانَة لفرساني! لا، لا هذا لا يُطاق، يجب أن أنتقمَ لنفسي أو أموت.

قالت الأميرة:

- يا سيّدتي، أؤكّد لك أنّني لا دخل لي إطلاقاً بما جَرى. سأوقّع بدَمي إن شئت، وأشهَدُ على أنّكِ أجملُ امرأةٍ في العالم وبأنّني مسخٌ منَ البشاعَةِ.

أجابت نكَد:

- آه! أنتِ تمزحينَ أيّتها الظريفة الصّغيرة؛ ولكن سيجيء دورك وأريك ما تستحقّينه.

وأُعْلِمَ الملك بغضبِ زوجته وغيظها وبأنّ الأميرة تموتُ خوفاً وأنّها تتوسّل إليه أن يُشفقَ عليها لأنّها لوْ تَركَها للملكة فستُنزلُ بها أمَرّ العذابات. لم ينفَعل الملكُ حِيالَ توسّلاتِ ابنتِهِ وأجابَ فقط:

- سلّمتُ أمْرَها إلى الملكة وستفعل بها ما يحْلو لها.

كانت نكَد الشّرّيرَة تنتظر مجيء اللّيل بفارغ الصّبر. وما إنْ هبَطَ اللّيلَ حتّى أمَرَت بأن توثق الأحصنَةَ إلى عربتها وأرغمَت غراسيوزا على الصّعود، وبحراسة موكبٍ ضخم، اقتيدَت على مسافَة مائة ميل من هناك، إلى غابةٍ كبيرةٍ لا يجرؤ أحدٌ على اختراقها لأنّها مليئة بالأسوَدِ والدّببَة والنّمور والذّئاب. وعندما بلغ الحرس في توغّلهم وسطَ الغابة المرْعبة، أنزلوها وتركوها هناكَ رغمَ كلّ التّوسّلات إليهم لِيُشفقوا على حالها. قالت لهم: لا أطلب منكم إلاّ ميتَة سريعة. اقتلوني لكي تجنّبوني كلّ الآلام التي سأتعرّض لها. لكنّها كانت كمَن يتكلّم معَ الطّرشان ولم تبدرْ منهم إجابة واحِدة، وابتعَدوا عنها بسرعةٍ كبيرةٍ تارِكينَ هذه الفتاة الجميلة التعيسةَ وحدَها في الغابة. مشَت لبعضِ الوقتِ دون أن تعرف إلى أينَ كانت ذاهبَة، أحياناً تصطدم بشجرةٍ وأحياناً أخرى تسقط أرضاً أو تَعلقُ في الجنباتِ الشائكَة. وأخيراً، بعدَ أن شلّ الألمُ قواها، ارتَمَت أرضاً دونَ أن

تقوى على النّهوض. كانت تهتف أحياناً: «برسينه، أين أنت؟ هل يُعقل أن تكونَ قد تخلّيتَ عنّي»، ولم تكَدْ تُنْهي هذه الكلمات حتّى رأت دفعة واحدةً أجمل وأروعَ شيءٍ في الوجود: أضاء المشهد أمامها بإشراق بديع بحيث لم تبقَ شجرة في الغابة لم تعلّق إليها ثريّات كثيرة ممتلئة شموعاً: وفي آخر الممرّ لَمَحَت قصراً مبْنِيّاً كلّه من البِلّوْر يلمَعُ كالشّمس. تبادَر إليها الظنّ بأنّ لبرسينه دخلاً في ذلك السّحر الجديد. شعرت بفرحَةٍ ممزوجَةٍ بالخَشْيَة. قالت في نفسها: «أنا وحدي وهذا الأمير فتيٌّ ولطيف وعاشق، أدينُ له بحياتي. تبّاً لي! لقد ذهبْتُ بعيداً في خيالي! لنبتعد عنه: الموتُ ولا حبّه». قالت هذه الكلمات ونهضت بالرّغم من تعبِها ووهنِها، ومن دونِ أن تلتفتَ إلى القصر الجميل، مشَتَ في الجانبِ الآخر، مضطربةً ومشوّشة الذّهنِ غارقةً في الأفكارِ المتضاربةِ التي تعتَمِلُ في كَيانِها بحيثُ لم تعرف ماذا كانت تفعَل.

وفي تلك الحظة، سمِعَت ضجّةً خلفَها: تولاّها الخوف، خالَت أنّه حيوانٌ مفترس سيلْتهِمُها. التفتت وهيَ ترتجِف، ورأت الأميرَ برسينه جميلاً بجمالِ رسول الحبّ كوبيدون.

قال لها:

– هل تهرُبينَ يا أميرَتي؟ تخْشَيْنَ منّي فيما أنا أحبُّك! هل يُعقل أن تكوني على هذا الجهلِ باحترامي لكِ وعلى هذا الظنّ بأنّني قادرٌ على التّقليلِ منه حِيالكِ؟ تعالي، تعالي، دونَ ذعرٍ إلى قصرِ السِّحر، لن أدخُلَ إذا كنتِ تُمانعين. هناكَ ستجِدينَ أمّي الملكة وأخواتي اللّواتي يَكْنُنَّ لكِ حبّاً جمّاً لِما أرويهِ لهُنَّ عنكِ.

ولفرطِ ما كانت غراسيوزا مسحورة ومنصاعَة بالطّريقة الجذّابة التي كان عاشقها الفتيّ يتكلّم بها، لم تستطع أن ترفض الدّخولَ معه على مزلَجَةٍ ذهبيّةٍ مزْدانة بالرّسوم ويجرّها اثنان من الأيائل بسرعةٍ

كبيرة، ولم يمرّ وقت قليل إلاّ وجَعلَها برسينه تزور ألف مكان في تلك الغابة. بَدَت لها الأمكِنة بديعة. كلّ شيءٍ كانَ مرئيّاً بوضوح؛ كان هنالكَ رعاةٌ وراعيات يرتدون أزياء أنيقة ويرقصون على وقْعِ النّاياتِ والمَزاميرِ. ورأت في أماكِنَ أخرى، على ضفاف الينابيعَ، قرويّينَ معَ عشيقاتِهم يأكُلونَ ويُغنّونَ بفرَحٍ وسرور.

قالت له:

- كنت أظنّ هذه الغابة غير مسكونة، ولكنّ كلّ شيء فيها يبدو لي مأهولاً، وسط جوّ من البهجة والفرح.

أجاب برسينه:

- منذُ وجودِكِ هنا يا أميرتي، لم يعد في هذه العزلَةِ القاتِمَة سوى الملذّات والتّسليات المُمْتِعَة: أربابُ الحبّ يرافقونَكِ والأزهارُ تنْبُتُ عندَ موطئِ قدَمَيك.

لم تجرؤ غراسيوزا على أن تجيبَه. لم تكنْ تريد الخوضَ في حوارات كتلك، ورَجَتِ الأمير أن يصطحبَها إلى والدَتِه الملكة.

ولِلحالِ أمَرَ إيَّلَيه الاثنين بالذّهاب إلى قصر السِّحر. سمعَت عند وصولها موسيقى رائعة. وجاءت الملكة مع اثنتَينِ من بناتِها للقائها، وكنَّ فاتِنات، ثمّ قبّلنَها واصطَحَبْنَها إلى قاعةٍ كبيرةٍ جدرانها منَ البلّور الجندليّ: لاحظت على الجدران، وبدهشةٍ كبيرةٍ، أنّ تاريخ حياتِها، حتّى ذلك اليوم، كان مدوّناً هناكَ، بما فيه النّزهة التي حظيَتْ بها للتوّ معَ الأميرِ في المزلَجَة. هذا كلّه كان منْجَزاً بإتقان يعجز عن مضاهاته كلّ النّحاتين قاطِبة حتّى فيدياس وكلّ من تتباهى بهم اليونان القديمة.

قالت غراسيوزا لِبرسينه:

- لَدَيكَ عمّال ماهِرونَ وسريعونَ جدّاً. كلّما قمت بعملٍ أو بإيماءةٍ

أراهما منحوتَين على الجدار.

قال لها:

- هذا لأنّني لا أريدُ أن أخسَرَ شيئاً من كلّ ما يتعلّق بكِ يا أميرتي. للأسف! لست سعيداً ولا مسروراً في أيّ مكان بعيداً عنك.

لَمْ تُجبْه بشيءٍ وشَكرَتِ الملكةَ على حفاوَتِها في استقبالها. أولمت لها وليمة كبيرَةً فأكلت غراسيوزا بشهيّةٍ كبيرةٍ لأنّها كانت سعيدةً جدّاً بأنّها وجَدَت برسينه بدَلاً منَ الدّببَة والأسودِ التي كانت هي تخشاها في الغابة. ومع أنّها كانت منهكة، حثّها برسينه على زيارة دارٍ تلمعُ كلّها بالذّهب والرّسوم حيث تدور أوبرا تتحدّث عن حبّ بسيكيه وكوبيدون[1]، يرافقها الرّقص والأغاني الوجيزَة. جاء راعٍ صغير وغنّى هذه الكلمات:

أنت محبوبة يا غراسيوزا ورسولُ الحبّ نفسه
لم يحبّ معشوقتهُ بقدرِ ما حبيبُكِ يُحِبّكِ
تمثّلي على الأقلّ بالنّمورَ والدّببَة
التي أذْعَنَت لأصغرِ آلهَةِ الحبّ.

حتّى أكثرُ الضّواري وحشيّة
يَلينُ أمامَ الملذّاتِ التي يَعِدُ الحبُّ بها.

---

(1) بسيكيه Psyché: هي في الميثولوجيا الرّومانيّة أميرة ألْهَمَت كوبيدون الحبّ وبعدَ مغامراتٍ عدّة أصبحَت زوجَته. رُفِعَت إلى مرتبةِ إلهة. وقد وُضِعت في غرامهما أعمال أدبيّة وتصويريّة وأوبراليّة عديدة، بما فيها رواية عنوانها غراميّات بسيكيه وكوبيدون *Les Amours de Psyché et Cupidon* للشّاعر لافونتين La Fontaine صاحب الحكايات الشعريّة المعروفة، والذي عاصرتْه ماري-كاترين دونوا وتعرّضت لتأثيره كجميع كتّاب الحكايات في ذاك العصر.

الجميعُ يتحدّثونَ عنِ الحبّ ويستسلِمونَ لسِحْرِهِ
إلاّ أنتِ تتمنّعين وترْفُضينَ أنْ تحبّي.

احمرّت خجلاً أمام الملكةِ والأميرات من أن توصفَ على هذا النّحو. قالت لبرسينه أنّه سيشقّ عليْها أن يشارك الجميع أسرارهما. وأرْدَفت:

- أتذكّر بهذا الصّدد حكمة منظومة في أبيات، وهي تعجبني كثيراً:

لا تشِ بسرِّكِ لأحد
وكنْ واثقاً من أنّ للصّمت
سِحراً آسراً بالنسبة لي:
للعالم حِكَمُ غريبة،
أحياناً الملذّات الأكثر براءة
يخالها البعض آثاماً لا تُغتفَر.

سألها المعذِرةَ لأنّه قامَ بشيء لم يعجبها. انتهَت الأوبرا، وأمَرَت الملكة ابنَتَيْها بأن تصطحِبا الأميرة إلى جناحها. لم ترَ في حياتها شيئاً أجمَلَ منَ الأثاثِ أو أكثر أناقة منَ السّرير ومنَ الغرفة التي خصّصَت لتنامَ فيها. كان هناكَ أربع وعشرون فتاة في خدمَتِها يَرْتَدينَ ثياب الحوريّات. والأكبر سنّاً بينَهُنّ كانت في الثامنة عشرة وكلّ واحدةٍ تبدو آيةً في الجمال. وعندما وضعنها في السّرير بدَأنَ يعزِفْنَ موسيقى خلابَة لتَحْمِلها على النّوم. لكنّها تفاجأت من عدمِ قدْرَتها على إغماضِ عينيها. قالت:

- كلّ ما رأيته يسحر اللبّ. أيُعْقل أن يثير أميرٌ بهذا اللّطفِ والحذاقةِ الخوفَ في نفسي! لا أستطيع الابتعادَ عن هذه الأمكنة سريعاً!

كان ذلك الابتعادُ يؤلُمها كثيراً: لا يمكن للمرءِ إلاّ أن يتردّد حينَ يفكّرِ في مغادرَةِ قصرٍ بهذه الرّوعةِ ليصبحَ في قبضةِ نكَد البرْبَرِيَة. الفرقُ واضح. على أيّة حال، وجدت برسينه على قدْرٍ منَ الجاذبيّة لا يخوّلها البقاءَ في قصرٍ هوَ سيّده.

عندما نهضت، قُدّمَت إليها فساتينُ من كلِّ الألوان وزينة منَ الحجارَة الكريمة من كلّ الأنواع، من دانتيلاّ[1] وشرائط وقفّازات أكفّ وجوارب حرير؛ وكلّ ذلكَ بذوق رفيع ليس فيه عيب. وُضعت لها زينة منَ الذّهب المنحوت. لم تكن في حياتها متبرّجةً بمثلِ تلك الزّينةِ ولم تبدُ قطّ بمثْلِ ذلك الجمال. دخل برسينه إلى غرفتها مرتدِياً وشاحاً أخضر مذهّباً (كانَ الأخضر لونَه المفضّل لأنّ غرسيوزا تحبّه). ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع أن يجاري ذلك الأمير الشابّ في الفضيلة واللّطف. قالت له غراسيوزا إنّها لم تستطع النّوم وإنّ ذكرى مصائبها تعذّبها، وإنّها لا تستطيع الامتناع عن التفكير بالعواقب.

قال لها:

- ما الذي يشعرك بالخوف يا سيّدتي؟ أنت الملكة هنا. وأنت محبوبة جدّاً؛ هل تريدين أن تتخلّي عنّي لأجلِ عدوّتِكِ القاسيَة؟

قالت له:

---

(1) أي النّسيج المخرَّم، وكان يُعتبَر، في فترة كتابة هذه الحكايات بخاصّة، عنصرَ ترَفٍ أو ثراء. وقد ارتأينا دعوته على امتداد هذا الكتاب باسمه المستعار من اللّغات الأوربيّة، والذي صار شائعاً في عالَم الأزياء: الدّانتيلاّ.

- لو كنت سيّدة مصيري لكانَ القرار الذي تتخّذه هو الذي سأقبل به. لكنّي مسؤولة عن كلّ أفعالي تجاه والدي الملك. من الأفضل أن أتعذّب على أن أخلّ بواجبي تجاهه.

قال لها برسينه كلّ ما يستطيع قوله لكَي يُقْنِعَها بالزّواج به. لمْ تشأ الموافقة على ذلك. وقد أبقاها رغماً عنها ثمانية أيّام تفَنّنَ خلالها باختراعِ ألفِ متعَةٍ جديدةٍ لها لتسلِيَتِها.

كانتَ تقول غالباً للأمير:

- أريد فعلاً أن أعرف ما يجري في قصر نكَد وكيف تتحدّث عن المؤامرَة التي دبّرَتْها لي.

قال لها برسينه إنّه سيرسل سائسه، وكان رجلاً فطِناً، إلى القصر ليستطلع الأمور هناك. أجابت أنّها كانت مقتنعة بأنّه لا يحتاج لإرسال أحد للاستعلام عمّا يحدث وأنّه يستطيع أن يقول لها بنفسه حقيقة ما يجري.

قال لها:

- تعالي معي إذاً إلى البرج الكبير وستَرَيْنَ ذلك بنفسك.

وعلى هذا، اصطحبَها إلى ذروة برج كان عالياً جدّاً وكلّه منَ البلّورِ الجندليّ كباقي القصر. قال لها أن تضع قدَمها على قدمهِ وإصبَعَها الصّغيرة في فمِها، ثمّ أن تنظر ناحيَة المدينة. فرأت في الحال أنّ الدّنيئة نكَد كانت برِفْقةِ الملكِ وكانت تقول له:

- تلكَ الأميرة البائسةُ شنَقت نفسها في القبو. رأيتُها للتوّ، منظرها مثيرٌ للرّعب ويجب دفنها في الحال ومواساتك على هذه المصيبةِ الصّغيرة.

وأخذ الملك يبكي وفاةَ ابنته. ونكَد أدارَت لهُ ظهرها وانزَوَت في غرفتها، وأمَرَت بإحضارِ حطبَةٍ وُضِعَ لها قبّعة ولُفّت جيّداً ثمّ

وُضِعَت داخلَ النّعش. وبأمرٍ منَ الملك أقيمَت جنازةٌ كبيرةٌ شارك الجميع في تشييعها وهم يبكون ويلعنونَ الملكة نكَد متّهمين إيّاها بأنّها سبب هذه الوفاة. والتزمَ الجميع بمراسم الحِدادِ وسمعتهم يتحسّرونَ على فقدانها ويقولون بصوتٍ خافت.

– يا للأسف، أنْ تكونَ هذه الأميرة الجميلة اليافعَةُ قد قضت بسببِ الفظاعاتِ التي ترتكبها هذه المخْلوقة الخسيسَة! يجب تقطيعها إرْباً إرْباً!

امتنعَ الملك عن تناولِ الطّعام والشّرابِ وذرفَ كلّ دموعِ عينيه. وإذ رأت غراسيوزا أباها على هذا التّفجّع قالت:

– آه يا برسينه، لا أستطيع أن أحتملَ لوقتٍ أطوَلَ أن يظنّني أبي ميْتة. إذا كنتَ تحِبّني، أعِدني إلى هناكَ.

كانَ عليهِ الانصياعُ لأوامِرِها مهما كانت، ولَو كانَ ذلك يسبّبُ له امتِعاضاً كامِلاً.

قال لها:

– يا أميرَتي، سوفَ تتحسّرينَ كثيراً على مغادرتك قصر السّحر لأنّني لا أجرؤ على القولِ إنّكِ ستتَحَسّرينَ عليّ. أنتِ أقسى عليّ ممّا تقسو نكَد عليكِ.

عبثاً حاول إقناعها، أصرّت بعنادٍ على الرّحيل. استأذنَت من والِدَة الأمير وأختيه بالانصراف. صعَدَت معه على المزْلاج وبدأ الإيّلان يَعْدُوان. وعندما خرجت منَ القصر، سمعت خلْفَها ضجّة مُرَوّعَة، التفتَت خلفها فرأت الصّرحَ ينْهار إلى ألفِ قطْعَة.

هتفت:

– ماذا أرى! لم يعُدْ هناكَ قصر!

أجابَها برسينه:

- لا. قصري سيكونُ بينَ الأموات. ولَن تدخُلي إليه إلاّ بعدَ دَفنِك.

قالت غراسيوزا وهي تحاول تهدئته:

- أنت غاضب، لكن ألا تَرى حقّاً أنّني أكثر مدْعاةً للشّفقة منك؟

وعند وصولها، تصرّف بشكلٍ يصبح معه هوَ والأميرة غير مرئيّين. صعدَت إلى غرفةِ الملك وارتمَت عند قدمَيه. وعندما رآها خاف وأراد الهرب معتقِداً أنّها شبح. أمسكته وقالت له إنّها لم تمُت وإنّ نكَد هيَ التي اقتادَتها إلى الغابة الموحِشة وإنّها صعَدَت إلى أعلى شجرةٍ حيث اقتاتَت منَ الثّمار، وإنّهم دفنوا حَطَبَة مكانها وإنّها تطلب منه رحمةً بها أنْ يرسِلَها إلى أحدِ قصورِهِ لكي لا تكونَ عُرْضة لغضبِ زوجةِ أبيها.

شكّ الملك في صحّةِ ما قالَته وأرْسلَ حرّاسه لكي ينبش القبر ومكث مندهِشاً من مَكْرِ نكَد. إنّ أحداً سواه كانَ سيُرسلها إلى المشنقة في السّاحة، لكنّه كانَ رجلاً تعيساً ضعيفاً ليس لدَيه الشّجاعة على الغضب فعلاً. داعب طويلاً ابنته واستبقاها لتناول العشاء معه. وعندما ذهبَت وصيفات نكَد وأجيراتها ليخبرنها بعوْدَة الأميرة وبأنّها تتناول العشاءَ مع الملك، جُنّ جنونها وهُرِعَت إليهِ لتؤكّد له أنّ هذه الفتاة محتالَة وأمرته أن يتخلّى عنها ويطردها في الحال وألاّ تفكّرَ في العودَةِ إلى القصر طيلَة حياتها. وأضافت إنّ الظنّ بأنّها الأميرة غراسيوزا لم يكن إلاّ افتراضاً، وإنّها في الحقيقةِ تشبهها قليلاً، لكنّ الأميرةَ غراسيوزا انتَحَرَت، وإنّها رأتْها بأمِّ عينَيها تنتحر. إذا كنتَ تصدِّق خِدَعَ هذه الفتاة فهذا انتقاصٌ منْ قَدْرها ومنَ الوثوق بها. أمّا الملك، فمن دون أنْ ينْبِسَ بكلمَة تركَ لنكَد أمرَ التصرّف بالأميرة المنكودَة الحَظ ظانّاً أو متظاهِراً بالظنّ أنّها ليست ابنته.

منْتَشِيَةً منَ الفرح جرّتها نكَد بمعونَة نسائها إلى مخبأ، وهناك جرّدتها من ثيابها الغالية وكسَتْها بثوب رثّ منَ الخيشِ وألبستها في قدَمَيْها قبْقاباً ووضعَت على رأسها قلَنْسوةً من نسيج البتّ الغليظ. وأعطِيَ لها القليلُ من القشِّ سريراً والخبز الأسمر طعاماً.

وسطَ هذه الخيْبَة، طفِقَت تبكي بمَرارَةٍ وتتحسّر على مغادرتها قصر السّحر. لكنّها لم تكن تجرؤ على أن تستدعي برسينه لِينجدَها لظنِّها أنّها استغلّت نخْوَتَه كثيراً حِيالها، ولا تستطيع أن تؤمّل نفسَها بأنْه كان ما يزال يحِبّها بِما يكفي ليساعدها في محنتها. في تلك الأثناء أرسلَت نكَد الشرَيرَة في طلبِ إحدى الجنيّات التي لمْ تكن أقلّ خُبْثاً منها.

قالت لها:

- أحْتَجزُ هنا فتاةً محتالَة أشتكي من سوء تصرّفها. أريد أن أجعلها تتعَذّب وأرغِمَها على القيام دوْماً بِمَهامٍّ شاقّة لا يمكِنُها إنجازها، وهذا لكي أستطيع أن أنْهالَ عليها ضرْباً دونَ أن يكونَ لدَيها ما يعذِرها. ساعِديني على أن أختلِقَ لها في كلّ يومِ ألوانَ عذابٍ جديدة.

أجابت الجنيّة بأنّها ستفكّر في الموضوع وستعود في اليوم التّالي. لم تخلّ بوعدها. جلبَت معها شِلّةَ خيوط ضخمَة مثل أربعة أشخاص، والخيط فيها رفيعٌ لدرَجة أنّه ينقطع إذا نفخت فوقه، ومشبوك مثل وشيعة لا بِداية لها ولا نهاية. سُرّت نكَد كثيراً لرؤيتها وأرسلت في طلب سجينتِها الجميلة وقالت لها:

- لكِ هذه الشِّلّة يا فتاتي، هيّئي يديك الخرقاوين لتحُلّي هذه الخيوط وكوني متأكّدة من أنّكِ لوْ قطَعْتِ خيطاً واحِداً فسوفَ تهْلكين لأنّني سأسْلخُ جلدَكِ بنفسي. إبدئي متى تشائين، ولكن عليكِ أن تحلّيها قبلَ مغيبِ الشّمس.

ثمّ أغلَقت عليها الباب بثلاثة أقفال في غرفة. ولدى تأمّل الأميرة هذه الشِّلة الضّخمة، وبَعْدَما قلبَتْها وقلّبتها من جديد وقطَعَت ألف خيطٍ ليسْلَم خيط واحد، لم تلْبَث أن مكثت منذهلة ولم تعد تريد أن تحلّ خيطاً واحداً منها ورَمَتْها في وسطِ المكانِ قائلةً:

- إليكِ عنّي أيّتها الخيوط القاتِلة، ستكونينَ سبَبَ موتي. آه يا برسينه! برسينه! إذا لَمْ تُنَفّرْكَ قسوَتي عليك منّي، فأنا لا أطلب منكَ أن تأتي لنجدَتي بل على الأقل تعالَ لتتلقّى منّي الوداع الأخير.

وهنا أخذت تبكي بمَرارة لدَرَجَةِ أنّ بُكاءَها كانَ سيُؤثّر بمَن هوَ أقلّ إحساساً من عاشق. فتحَ برسينه الباب بالسّهولةِ نفسِها كما لوْ أنّه احتفظ بالمفتاحِ في جيبِه.

قال لها:

- ها أنا يا أميرتي مستعدّ دوْماً لخدمتك. لستُ قادِراً البتّة على التّخلّي عنكِ مع أنّكِ لا تعترفينَ بشغفي لكِ كما يجب.

ضَرَبَ بِعصاه السّحريّة ثلاثَ مرّاتٍ على شِلّة الخيوط، وعلى الفور اجتمعت الخيوطُ بعضها إلى بعض، وبضرْبتينِ أخريين حُلّت كلُّها بدِقّة مدهِشة. كانَ يسألها إذا كانتْ تتمنّى منهُ شيئاً آخر، وإذا كانت لا تناديهِ أبداً إلاّ في حالات ضيقِها.

قالت له:

- دعْ عنكَ لومي يا برسينه الجميل فأنا أصْلاً تعيسة بِما فيهِ الكفاية.

- ولكن يا أميرتي، الأمر متعلّق بك لكي تتحَرّري منَ الطّغيان الذي أنتِ ضحيّته. تعالي معي ولنصنع هناءتنا المشتركَة. مِمَّ تخشين؟

أجابته:

- أخشى ألاّ تُحبّني بِما يكفي. أريد أن يؤكّد ليَ الزّمن صدق مشاعرك.

فما كان من برسينه، وقد أهانته هذه الشّكوك، إلاّ أن استأذنَ منها بالانصراف ورحل.

كانت الشّمس على وشكِ أن تغيب ونكَد تتحرّق لأنْ تأتيَ السّاعة بفارغ الصّبر. وأخيراً لم يعد بإمكانها الانتظار وجاءت قبل الَموعد مع وصيفاتها جنيّات الغضب الأربع اللواتي كنَّ يُرافِقْنَها إلى كلّ مكان. وضَعَت المفاتيحَ الثّلاثة في الأقفال الثّلاثة وقالت وهيَ تفتحُ الباب:

- أراهِنُ على أنّ هذه الكَسولَة الجميلة لم تقمْ بأيّ عملٍ بأصابِعِها العشر. فهيَ تفضّل النّوم لكي تظلّ بشَرَتُها نَضرَة.

وعندما دخلت، قدّمَت لها غراسيوزا شِلّة الخيوط كما طَلبتْ. لم يكنْ لدَيها ما تقوله لها إلاّ أنّها وسّخَتْ الخيوط وأنّها فتاة قذِرَة ولذلك وجّهت لها صفْعَتينِ أصبحت وجنتاها على أثرهما زرقاوينِ ثمّ صفراوَين. تحمّلت غراسيوزا التّعيسة إهانةً لَمْ تكنْ قادرةً على صدِّها واقتيدَت إلى مخبئها حيثُ سجِنَت وأُحْكِمَ الإقفالُ عليها.

حزنتْ نكَد أيّما حزنٍ لكَوْنها لم تفلح مع شلّة الخيوط، فأرسلت في طلب الجنيّة وأمْطَرَتْها بِوابلٍ منَ اللّوم.

قالت لها:

- جِدي عَمَلاً أكثَرَ صعوبة تعجزعن إنهائه.

ذهبت الجنيّة وفي اليوم التالي أحضرَت برميلاً معبّأً بالرّياش. رياش من كلّ نوع، رياش بلابل وكناريّات وكعاتِر وحساسين وزقَيْقات ودُخَّلات وبَبْغاوات وبُوم وعصافير دوريٍّ وحَمام ونِعام ودجاج برّيّ وطواويس وقبّرات وحجال.

لن أستطيعَ تسْمِيَتَها كلّها. كانت هذه الرّياش مختلطَةً ببَعْضها البعض والعصافير نفسها لن تستطيع التعرّف إليها.

قالت الجنيّة وهي تتحدّث إلى نكد:

- هاكِ ما يمكنُكَ أن تمتحني به مهارة سجينتك وصبْرَها. مُريها بأن تنتقي هذه الرّياش، أن تضع رياش الطواويس على حِدَة، ورياش البلابل على حِدَة، وأن تجعلَ منْ كلِّ صنفٍ كومةً: وهذا ما قد تعجز حتّى جنيّة عن فعله.

نكَد أخذها الابتهاج عند تصوّرها ارتباكَ الأميرة التّعيسة. أرسلت في طلبِها وهدّدتها كما تفعل عادةً وسجنَتها مع برميل الرّيش في غرفةٍ لها ثلاثة أقفال وأمَرَتْها بأنْ تُنْهِيَ العملَ عندَ مغيبِ الشّمس.

أخذت غراسيوزا بعض الرّياش لكن كان يستحيل عليها أن تميّز فيما بينها فأرجعتها إلى الكومة. ثمّ أخذتْها من جديدٍ وحاوَلت مرّات عدّة وإذ رأت أنّها تحاول شيئاً مستحيلاً قالت بنبْرَةٍ وهيئةٍ يائستين:

- لِنمُتْ! إنّها تتمنّى موتي وهو الذي سيُنْهي مصائبي. يجب ألاّ أستدعي برسينه لنَجْدَتي: لو كانَ يحبّني لكانَ هنا قبل الآن.

هتف برسينه:

- أنا هنا يا أميرتي. قال وهو يخرج من عُمْقِ كومة الرّياش حيث كان مختبئاً. أنا هنا لكي أخرجَكِ من هذه الورْطَة التي أنتِ فيها. هل تشكّينَ، بعد كلّ هذه التّجارب، باهتمامي وبأنّني أحبّك أكثرَ من حياتي.

وهكذا ضرَبَ بَعَصاه ثلاث ضربات وخرجت الرّياش بالآلاف من البرميل وانتظَمَت من تِلْقاءِ نفسها في كوَمٍ صغيرةٍ حول الغرفة.

قالت له غراسيوزا:

- ما الذي لا أدين لكَ به! لولاكَ لَكُنتُ متّ. كن واثقاً من امتناني كلّه.

لَمْ ينسَ الأمير شيئاً في سبيلِ إقناعَها باتّخاذ قرارٍ حازم لصالحه. سألته أن يُمهلها. ومع أنّه كان عليه من جديدٍ أن يكبت مشاعره، إلاّ

أنّه منحَها ما طلبته.

جاءت نكَد ومكثت ذاهلة ممّا رأت. لم تعد تعرف ماذا عليها أن تتصوّر لكي تزعج غراسيوزا. لم تتورّع عن ضربها والقول لها إنّ الرّياش كانت مرتّبَة بشكلٍ سيّء. أرسلت في طلَبِ الجنيّة وغضبت غضباً شديداً حِيالها. لم تَجِرِ الجنيّة جواباً. وبقيت محْتارَة. وأخيراً قالت لها إنّها ستستعمل كلّ فنّها في صنع علبة ستتسبّب في ورْطةٍ كبيرةٍ لسجينتِها إذا حاوَلَت فتحَها. وبعدَ أيّامٍ جاءتها بعلبةٍ كبيرة.

قالت لنكَد:

– خذي هذه وأرسلي في طلب سجينتكِ لتحمِلها. إمنَعيها من فتْحِها. لكنّها لن تستطيعَ الامتناعَ عن ذلك، وستكونينَ مسرورة.

نفّذَت نكَد الأوامر، واستدعت غراسيوزا وقالت لها:

– خذي هذه العلبَة إلى قصري الفخم وضعيها على طاولةِ الغرفة لكنّي أمنَعُك، تحت طائلةِ الموت، من أنْ تنظري إلى داخِلها.

انطلقَت غراسيوزا مرتديةً قَبْقابَها ولِباسَها منَ الخَيْش وقلَنسوتَها الصّوف. مَن كانوا يلتقونَ بها كانوا يعدّونها كائناً سماويّاً متنكّراً، لأنّها كانت محبوّةً بجمالٍ عجيب. مرّت بغابةٍ صغيرةٍ تحفّ بها بريّة ظريفة. جلست لكي تتنفّس قليلاً. وضعت العلبة على ركبتيها وفجأةً اعْتَرَتْها الرّغبة في فتحِها. قالت: ما الذي بإمكانِه أن يحدث لي؟ لن آخذَ منها شيئاً لكنّي على الأقلّ سأرى ما في داخلِها. لم تفكّر أكثر في العواقبِ وفتَحتْها. ولِلحال خرج منها الكثير منَ الرّجالِ الصّغار والنّساء الصّغيرات والكمَنْجات والآلات والطبّاخينَ الصّغار والأطباق الصّغيرة، وأخيراً عملاق الفرقة الذي كان بعُلوِّ إصبع. وقفزوا أخيراً في الحقلِ وتفرّقوا إلى فرق عديدَةٍ وبدأوا أجملَ حفلٍ راقصٍ قُيِّضَ له أن يُقامَ: كانَ بعضهم يرقصونَ والبعض الآخر

يطْهونَ والآخَرونَ يأكلون؛ وكانت الكَمَنْجات الصّغيرة تعزِفُ بإبْداع. شعرَت غراسيوزا بادِئ الأمرِ بالمتعة وهي تنظر إلى هذه الأشياء الخارِقَة؛ ولكن عندّما ملّت منها قليلاً وأرادَت إرغامَها على العودة إلى العلبة، لم يُرِد أحدٌ مِنْهُم الامتثالَ لذلك. فرّ السّادَة الصّغارُ والسيّداتُ الصّغيرات، وأيضاً الكمَنْجات والطبّاخون واضعينَ طناجِرَهم على رؤوسِهم والسّفافيد على الأكتاف، وكانوا يتّجهونَ إلى الغابةِ عندما تدخُل غراسيوزا إلى الحقل، ويدخلون إلى الحقلِ عندما تتّجه إلى الغابة.

قالت غراسيوزا وهي تبكي:

- يا لكِ من طُرْفَة مزعجة! ستروقين جدّاً لعَدُوّتي! المصيبَة الوحيدة التي كان بإمكاني تدارُكُها نزلت بي بسبب غلطتي: لا، لا أستطيع أن ألومَ نفسي عليها أكثر منَ اللازم.

ثمّ هتفَت:

- برسينه، برسينه، إذا كانَ منَ الممكنِ أن يكونَ في قلبكِ حبّ لأميرةٍ بهذا التّهوّر، فتعالَ وساعدْني على تحمّل أزعج لقاء في حياتي.

لم تكد تتلفّظ باسم برسينه مرّتين حتّى حَضَر. رأتْهُ في زِيّهِ الأخضرِ الفاخر.

قال لها:

- يا أميرة، لولا نكَد الشرّيرَة لَمَا فكّرتِ بي قطّ.

فأجابته:

- آه! لك أن تحكُم على مشاعري بشكل أفضل. لست جاحدةً بالإحسان ولا ناكِرَةً للجَميل. يبقى صحيحاً أنّني أمتحِنُ ثباتَك في الحبّ، وأفعلُ هذا لكي أتَوجّهُ بالزّواجِ عندما أقتنِع به.

وإذا ببرسينه، الذي كانَ أسعَد منَ أيّ وقتٍ مضى، ينكز العلْبَةَ

بعصاه ثلاث مرّات، وفي الحال انتظَمَ فيها الرّجال الصّغار والنّساء الصّغيرات والكمنْجات والطبّاخون ومَشاويهم، كما لو أنّهم لم يخرجوا منها. كان برسينه ترك في الغابَةِ مرْكَبتَهُ؛ رَجا الأميرةَ باستخدامِها للذّهابِ إلى القصرِ الثّريّ: فهي بحاجةٍ إلى هذه العربة في الحالِ التي كانت عليْها. ثمّ جعلها غير مرْئيّة، وقادَها بنفسه واستمتع برفْقَتِهِ معها، وهذه المتعة، كما تقول الأخبار التي وصَلَت إليّ، لمْ تكن الأميرةُ غيرَ مكترثةٍ بها في أعماقِ قلبها لكنّها كانت تُعْنى بإخفاءِ مشاعِرِها.

وصلت إلى القصر الثّريّ، وعندما طلبتْ، قائلةً إنّها آتية من قِبَلِ نكَد، أن يُفتَحَ لها الدّيوان، انفجَرَ قهرمان القصر ضاحِكاً.

قال لها:

- ماذا، هل تظنّينَ أنّ فلاحةً مثلك، بمجرّدِ أنْ تكون ترَكتْ أغنامَها، تستطيعُ الدّخولَ إلى هذا المكانِ البديع؟ عودي من حيث جئتِ، هذه الأرضيّة لم يطَأها قبقابٌ قطّ.

توسّلت إليه غراسيوزا أن يكتبَ لها رسالةً قصيرةً يقول فيها إنّه رفضَ إدْخالها. امتثَلَ لطَلبِها. وحينَ خرجَت منَ القصر الثّريّ وجَدَت برسينه اللّطيف في انتظارِها وأعادَ اصطحابَها إلى القصر. سيكونُ منَ الصّعبِ أنْ أكتبَ كلّ ما قالَ لها أثناء الطّريق من كلماتٍ رقيقةٍ ومُجِلّة لإقناعِها بأن تضعَ حدّاً لعنائِها. فأجابتهُ بأنّه إذا دبّرَت لها نكَد خدعةً جديدةً فستقبلُ بذلك.

وعندما رأتها زوجةُ أبيها عائِدَةً، انقضّت على الجنيّة التي كانت أبْقتها عندها فخدَشَتْها بأظافرها وكادَت تخنقها لوْ كانت الجنيّات قابلة لأن تخنق. أظهَرَت لها غراسيوزا رسالة قهرمان القصر والعلبة فرَمَت الرّسالة والعلبة في النّار من دونِ أن تتكلّف عناءَ فتحِها. ولوْ أنّ غضبها تزايدَ أكثر لكانَت رمَت أيضاً الأميرةَ في النّارِ لكنّها لم تُردْ

إرجاءَ عذابِها لوقتِ أطوَل.

أمَرَت بحَفرِ حفرةٍ كبيرةٍ في الحديقَةِ، عميقةٍ بعُمْقِ بئر؛ فحُفِرَت وسُدّت بصخرة ضخمَة. راحَت هي تتنزّه وقالت لغراسيوزا ولكلّ منْ كان يرافقها:

- تلكَ صخرةٌ قيلَ لي إنّ تحتها كنزاً. هيّا ارفعوها بسرعة.

وتعاون الجميع على زحرحتها، وأرادوا أن تشاركهم غراسيوزا. ما إن أصبحت الصّخرة على الحافّة حتّى دفعت نكَد بغراسيوزا في البئر، وأطْبَقت الصّخرة فوقها.

فيما يخصّ هذه الحيلة، لم يكن هنالكَ رجاء يُرجى. فأين بإمكان برسينه أن يجدها في عمق الأرض؟ أدركت غراسيوزا جيّداً الصّعوبات التي تحول دونَ ذلك وندِمَت على أنّها تريّثت كلّ ذلك الوقت لتتزوّجه.

هتفت:

- ما أهوَلَ مصيري! أنا مدفونة حيّة! وهذه الميتة أفظع من أيّة ميتة أخرى. لقد انتقمْتَ منّي لتأجيلي الزّواج بك يا برسينه، لكنّ كلّ ما أخشاه هو أن تكون ملولاً كسائر الرّجال الذين يتغيّرون ما إن يتأكّدوا من أنّهم محبوبون. كلّ ما أردت هو أن أكونَ أكيدةً من حبّكَ. إن شكوكي الظّالمة هي السّبب في الحالِ التي وصلتُ إليها.

وأرْدَفت:

- إذا كان لا يزال بإمكاني الأمل بأن تتحسّر على خسارتي فستهون هذه الخسارة لعينيّ.

كانت تتكلّم هكذا لكي تخفّف من ألمِها، وإذا بها تحسّ بأنّ باباً صغيراً لمْ تلْحظه قد انفتحَ في الظّلام. وفي الوقت نفسه رأت أنواراً وحديقةً مليئةً بالأزهار والثّمار ونوافير الماء والمغاور والتّماثيل

والرّياض والمقصورات. لم تتردّد في الدّخول إليها. وتقدّمت في أحد الممرّات الكبيرة، مفكّرةً في النهاية التي ستتّخذها تلك المغامرة التي كانت لا تزال في بدايتها. وفي الوقت نفسه، اكتشفت القصر السّحريّ: لم يشقّ عليها التعرّف إليه نظراً لأنّه يتعذّر وجود قصر مصنوع كلّه منَ البلّور الجَنْدَليّ وحيث نقشت على جدرانه كلّ مغامراتها المستجدّة.

ظهر برسينه برفْقةِ أمّه الملكة وأخواته.

قالت الملكة لغراسيوزا:

- لا تُمانعي أيّتها الأميرة الجميلة. حانَ الوقت لتسْعدي ابني وتتخلّصِي منَ الحالِ المزْرِية التي تعيشينَ فيها تحت وطأةِ استبداد الجنيّة نكد.

جَثَت الأميرة المُمْتَنّة على ركبَتيها وقالت لها إنّها تستطيع أن تتحكّم بمصيرها كيْفَما تشاء، وإنّها ستطيعها في كلّ شيء، وإنّها لم تنسَ نبوءة برسينه عندما غادرت القصر السّحريّ وقال لها إنّ ذلك القصر نفسه سيكون بين الأموات وإنّها لن تدخل إليه إلاّ بعد دفْنها. كانت تنظر بإعجاب إلى حكمته وبإعجابٍ أكبر إلى جدارته، وبذلك تقبَلُ به زوجاً. فارتَمى الأمير بدَورهِ عند قدَميْها. وفي الوقت نفسه صَدَحَ القصر بالأصوات والآلات وأقيمَ العرس في روْعةٍ ما بعْدَها روعة. وجميع الجنّيّات من مختلف الأمكنَة منَ العالم جِئنَ برفْقةِ مواكب باذخة. بعْضهُنَّ وصَلْنَ في عرباتٍ تجرّها بجعات، وبعضهُنّ في عرباتٍ تجرّها تنانين، وأخرياتُ وصَلْنَ على متْنِ الغيوم، وأخرياتُ أيضاً في كُراتٍ من نار. وبينهُنّ ظهرت الجنيّة التي ساعَدت نكد على تعذيب غراسيوزا. وعندما تعرّفت إليها، تعجّبت أشدّ العجب وتوسّلت إليها كي تنسى ما حصل ووعدتها بأنّها لن توفّر وسيلة لكي تعوّضَ

لها عن الآلام التي سبّبتها لها. ولكنّ ما حصلَ هو أنّها لم تشأ أن تبقى لتَحْضُرَ الوليمَة. فاستقلّت عرَبَتَها التي كانت تجرّها حيّتانِ مرعبتان، وطارت إلى قصر الملك. وهناك بحثَت عن نكَد ودكّت عُنُقها دونَ أن يستَطيعَ حرّاسها ولا وصيفاتُها رَدْعَها عن ذلك.

هذا أنت أيّها الحسَدُ المحْزِن والمشؤوم
أنتَ يا مَن تتسبّب بعذاباتِ البشر
وتُعكّر في أجمل حياةٍ
أصفى أيّامها.

أنتَ الذي أشعَلْتَ في نفس نكَد الجائرة
هذا الحقد حيالَ غراسيوزا
أنتَ الذي انهَلْتَ عليها بالضّربات
التي جعَلَتها شقيّة.

آه! ماذا كان سيحلّ بها
لو أنّ عاشقها برسينه الثابت في حبّه
لمْ يخَلّصها من بَراثِنِ الموتِ مرّاتٍ ومرّات.

كانَ يستحقّ المكافأة
التي هيّأتها له نَخْوَتَه
حينَ يكونُ الحبّ مخلِصاً
يلقى العاشقُ نفسَه عاجلاً أمْ آجلاً في أحضانِ السّعادةِ الكاملة.



«الجميلة بشعرها الذهبيّ»، للرسّام جوزيف مارسيل بروتون
Joseph Marcel Breton, 1904

الجميلة بشعرها الذهبيّ

كان يا ما كان، كانَ هناك ابنةُ ملكٍ، وكانت على جمال ليس له مثيل. ولِشِدَّةِ جمالِها أَطْلقوا عليها اسمَ الجميلةِ ذات الشعر الذهبيّ لأنّ شعرها كان أرقّ من النّضار، أشقر إلى حدِّ العجَب، متمَوِّج الخُصْلاتِ ومُستَرسِلاً حتى أخمص قدميها. كانت تخرجُ دوماً متدثّرةً بشعرِها المقصّبِ يتوِّجُ رأسَها إكليلٌ منَ الأزهار، ومرتديةً ملابسَ مطرَّزةً بالألماسِ واللآلِئِ. ما مِنْ رجلٍ يستطيعُ أنْ يَرى جمالَها دونَ أنْ يقعَ في حُبِّها.

وكان هنالك ملكٌ شابّ مجاورٌ لها، حَسنُ المظهَر، وافرُ الثّراء. حينَ بلغَهُ ما يُقالُ عنِ الجميلةِ ذات الشّعرِ الذهبيّ، ورُغمَ أنّه لمْ يرَها بعْد، شَرَع يحِبُّها بِجنونٍ فاقداً الرّغبةَ في الأكلِ والشّربِ، عاقِداً العَزْمَ على إيفادِ رسولٍ إليها ليَطْلبَ يدَها للزَّواج. أمَرَ بتجْهيزِ عربَةٍ ملَكيّةٍ فاخرةٍ لرَسوله وزوّدَهُ بأكثرَ من مائةِ حصانٍ ومائةِ خادمٍ، وأمَرَه بأنْ يصطحِبَ الأميرةَ لدَى عودَتِه.

استأذَنَ الرسولُ الملكَ بالانصرافِ وانطلقَ إلى مهمّتِهِ. حينَذاك، لمْ يكنْ أهلُ البلاطِ يتحدّثونَ إلاّ عنِ الأميرةِ التي ستَعودُ بصُحبَةِ الرّسول. ولمْ يكنْ الملك ليشكَّ في أنَّ الجميلةَ ذات الشّعرِ الذهبيّ ستمتثِلُ لرَغْبتِهِ. فأمَرَ بأنْ تُخاطَ لها الفَساتينُ الجَميلةُ ويُجهَّزَ لهَا الأثاثُ البَديع. وفيما كانَ العمّالُ منكبّينَ على تنْفيذِ الأوامِر، وصلَ الرّسولُ عنْدَ الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ وبَلّغَها بإيجازٍ الرّسالةَ القصيرة التي عُهِدَ بها إليهِ. لكنَّها، إمّا لأنّها لمْ تكنْ في ذاكَ اليوم على مزاجٍ صافٍ وإمّا لأنّها لمْ تستسِغ الإطراءَ الذي سمعَتْهُ، أجابَتَ الموفَد بأنّها تشكرُ

الملِكَ لكنَّها غيرُ راغبةٍ في الزواج.

غادر السفيرُ قصرَ هذهِ الأميرَةِ وبهِ حزْنٌ شديدٌ لأنَّهُ لمْ يصْطحِبْها مَعهُ مُعيداً جَميعَ الهَدايا التي كان الملك قدْ أرسَلها لها، لأنَّ الأميرةَ عاقلةٌ وتدرِكُ جيّداً أنّهُ يتوجّبُ على الفَتيات ألاّ يأخُذْنَ شيئاً منَ الفتيانِ: لِذا امتنعَت قطعاً عنْ قبولِ حبّاتِ الألماسِ الجميلةِ وباقي الهدايا. واكتفتْ فقط، إرضاءً للملكِ، بأن تأخذَ حفنةً من دبابيسِ الشَّعر الإنكليزيّة.

عندَما وصَلَ الرّسولُ إلى مدينةِ الملكِ الكبيرةِ، حيثُ كانَ الجميعُ في انتظارهِ بفارغِ الصَّبرِ، حزِنوا حينَ رَأوا أنّه لم يصطحب معهُ الجميلَةَ الذهبيّةَ الشّعرِ. وطفِقَ الملكُ يبْكي كطفلٍ صغير، وأخَذوا يواسونَهُ دونَ أنْ يُفْلِحوا في تبْديدِ حزْنِه.

كانَ هناكَ فتىً شابٌّ في القصرِ مشرقٌ كالشّمس، وكانَ الأحسنَ مظهَراً في المَملكَةِ كلّها: ونظراً لظرْفِهِ ووَسامَتِهِ سُمِّيَ «محبوب». وكانَ فعلاً محْبوباً منَ الجميع ما عَدا الحاسِدينَ الذينَ كانوا غاضِبينَ منْ أنْ يُنْعِمَ الملكُ عليهِ وأنْ يعهدَ إليهِ بأعمالِهِ كلّ يوم.

التقى محبوب بجمع منَ النّاسِ يتحدّثونَ عنْ عودَةِ الرسول قائلينَ إنّه لم يفعلْ شيئاً يَسْتحِقّ الذّكر. قالَ لهم دونَ أن يتوخّى حَذره:

- لوْ أرسَلني الملِكُ إلى الجَميلَةِ الذّهبيّةِ الشّعرِ لكُنْتُ على يقينٍ منْ أنّها ستأتي مَعي.

ما كادَ يُنهي الشابُّ كلامَه حتّى ذهبَ أولئك النّاس الأشرار ليَشوا للملِكِ بما قالهُ:

- مولانا، ألا تعرفُ ما يقولهُ محبوب؟ يقولُ إنّكَ لو أرسلتهُ إلى الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ لكانَ اصطحَبَها. أرَأيتَ خُبْثَهُ؟ يدّعي أنّهُ أجملُ منكَ وأنّها لوْ رأتْهُ لأغْرِمَت بهِ وتبِعَتهُ حيثُما يذهب.

فغضِبَ الملكُ غضباً شديداً جَعلهُ يَخرجُ عنْ طوْرِهِ. وقال:

- هكذا إذاً! صاحِبُنا الظّريفُ الجميلُ يَهْزَأ منْ شَقائي! ويُفْرِطُ في تعظيم نفسهِ. مَنْ يحسبُ نفسهُ يا ترى؟ اذهبوا وضَعوهُ في برجِيَ الكبير واَترُكوهُ هناكَ حتّى يموتَ منَ الجوع.

ذهَبَ حرّاسُ الملِكِ للقبضِ عَلى محبوب الذي لمْ يَعُد يتذَكَّرُ ما قالَهُ. اقتادوه إلى السّجن ونكّلَوا بهِ. ولَمْ يعُدْ لهذا الفتى المِسكينِ إلاّ القليلُ منَ القشّ لينامَ وكانَ مصيرُهُ الهَلاكَ لوْلا نبعٌ صغيرٌ ينسابُ منْ أسفَلِ البُرجِ، كانَ يرتَوي منْهُ قليلاً مرطّباً فمَهُ الذي جفّفَهُ الجوع.

ذاتَ يوم، لَمْ يعدْ بإمكانِهِ الاحتِمالُ فقالَ متَنَهِّداً:

- ممَّ يشتَكي الملك؟ لا أحدَ مِن رعاياهُ يُظهِرُ لهُ تفانياً أكثرَ منّي. لمْ أتسبَّب له قطّ بأيّةِ إهانَة. وكانَ الملكُ مارّاً بالَقرْب منَ البُرْج عنْ طريقِ الصّدفةِ فتنبَّهَ لِشَكْوى ذاكَ الذي أحبَّهُ كثيراً. فتوَقّفَ ليُصغيَ إليهِ بالرغم من اعتراضِ مرافِقيهِ الذينَ يكْرَهونَ محبوباً. قالوا للمَلك:

- موْلاَنا، أيّ متعةٍ تجِدُ في وقوفِكَ هناكَ؟ ألا تعرِفُ أنّهُ مَكّار!

أجابَ الملك:

- أتْرُكوني هنا. أريدُ أنْ أسمَعَه.

بعدَما أصْغى إلى شَكْواه، اغروْرَقَت عيناهُ بالدّموع.

فتَحَ بابَ البُرجِ وناداه. جاءَ محبوب يلُفّهُ الحزنُ وخرَّ ساجِداً على رُكبَتَيْهِ أمامَهُ وقبّلَ قدَميهِ وقال:

- موْلاي، ماذا فعلتُ لكَ لكَي تُعامِلني بهذِهِ القسْوَة؟

أجابَهُ الملك:

- سَخِرْتَ منّي ومِن رسولي. قلتَ إنّي لَوْ أرسلتُكَ إلى الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ لكانت رَضِيَتْ في الحالِ أن تأتيَ معك.

أجابهُ محبوب:

- صحيحٌ يا مولاي. كنتُ سأحدّثها عن خصالكَ الحميدة وشِيَمِكَ الحسنَة، وأنا على قَناعَةٍ بأنَّها لنْ تستطيعَ مقاوَمتَك. وفي هذا الصّدَدِ لمْ أقُلْ شيئاً بإمكانِهِ أنْ يبْدوَ لكَ بغيضاً.

وجَدَ الملكُ أنَّ محبوباً ليسَ مُخْطِئاً: نظَرَ شزَراً إلى أولئك الذينَ اغتابوا صديقه المؤتمَنَ على أسراره، واصطحبَهُ معهُ، نادِماً أشَدّ النّدمِ على الشّقاءِ الذي تسبّبَ لهُ بهِ.

بعْدَ أن أولَمَ له عشاءً فاخراً، دَعاهُ إلى ديوانِهِ وقال لهُ:

- محبوب، لا أزالُ أحبُّ الجميلةَ ذاتَ الشّعرِ الذّهبيّ، وتمَنّعُها لم يُخمِد هِمّتي لكنّي لا أعرِفُ كيفَ عليَّ أنْ أتصرَّفَ لكيْ ترغبَ في الزّواجِ بي: أتوقُ إلى أنْ أرسِلكَ لأرى ما إذا كنتَ تَستطيعُ النّجاحَ في هذهِ المَهمّة.

أجابَهُ محْبوب إنَّهُ مستعِدّ ليُطيعَهُ في كلِّ شيء، وإنَّهُ سيرحلُ منذُ الصّباح التّالي.

فقال الملك:

- آ! أريدُ أنْ أحيطَكَ بركبٍ كبيرٍ.

فأجابَ:

- ليسَ هذا بضروريّ. لا يَلزَمُني إلاّ حصانٌ قويّ، ورسائلُ مِنْ قِبَلِك.

قبّلهُ الملِكُ لأنّهُ كانَ مَسروراً لرؤيَتِهِ متأهّباً للرَّحيلِ بهذه السّرعة.

وفي نهارِ الاثنينِ صَباحاً، استأذَنَ منَ الملكِ بالانصرافِ، ومن أصدِقائِهِ، لكَيْ يذْهبَ إلى مُهمّتِهِ وَحيداً مِن دونِ أبّهَةٍ وَلا صَخَب. لمْ يكنْ يفكّر إلاّ في إيجاد الوسائلِ التي تتيحُ لهُ أنْ يُلزِمَ الجميلَةَ بأنْ تتزوّج الملك. كانَ لديْهِ في جعْبتِهِ ظرفٌ وأدواتُ الكتابة، وما إن تُراوِدُهُ خاطرَة جميلةٌ ليضعَها في خطبتِهِ حتّى كانَ ينزلُ منْ على

الحصانِ ويجلسُ تحتَ الأشجارِ ليكتُبَ، كي لا ينسى شيئاً.

ذاتَ صباح غادرَ فيهِ عندَ بزوغِ النّهارِ، مجتازاً بَراريَ شاسِعةً، خطرَتْ لهُ فكْرةٌ جميلةٌ جدّاً فترَجّلَ عنْ حصانِهِ وجلسَ لصْقَ أشجارِ الصّفصافِ والحَوْرِ المزْروعَةِ على طولِ جدوَلٍ صغيرٍ يسيلُ عندَ حافّة الحقلِ. وبعدَ أن كتبَ، نظرَ إلى كلِّ الجهاتِ من حولِهِ مسحوراً لوجودِه في ذلك المكانِ البعيد. فلمحَ على العشب سمكةَ شبّوطٍ ذهبيّةً ضخمةً تتثاءَبُ عاجزةً عنْ الحِراكِ: أرادَت أَن تلتقطَ بَعوضاتٍ صغيرةً فقفزت خارجَ الماء بقوّةٍ وهَوَتْ على العشبِ حيثُ شارَفت على الموْتِ. أشفقَ محبوب عليها، ومعَ أنّهُ كانَ يومَ قِطاعَةٍ[1] وأنّه كان يستطيعُ أن يَتّخِذها طعاماً لعَشائِه، أمسكها ورَماها برفقٍ في الجدوَلِ. وما إنْ أحسَّت صاحِبَتُنا سَمكةُ الشبّوطِ ببُرودَةِ الماءِ حتّى ابتهجت وانزَلَقت إلى عمْقِ الماءِ ثمّ عادَت إلى حافّةِ الجدوَلِ ممتلِئةً حبوراً وجَذلاً. قالت:

– محبوب، أشكرُكَ على هذه النعمةَ التي حبوْتَني بِها، لولاك لكُنْتُ ميْتَة. أنت أنقَذْتني، سأجازيكَ بالمِثْل.

بعدَ هذا الإطراءِ الصّغيرِ، غاصَت السّمكةُ في الماء، وظلّ محبوب لوهْلةٍ مندَهشاً من نَباهَتِها وأَدَبِها الرّفيع.

وفي يوم آخر، فيما كان يتابع رحلته، رأى غراباً في مأزق خطير: كان ذلك الطائر المسكين يطاردهُ نسرٌ ضخمٌ يهوى التهامَ الغُربان. كانَ على وشَكِ أنْ يُمسكَ بهِ ويبتلِعَهُ كحبَّةِ عدَسٍ لوْلا أنَّ محبوباً لم يعطف على ذاكَ الحيوان.

قال:

– ها إنَّ الأقوياءَ يضطهدونَ المستضعفين: أيّ حقّ يملكُ النّسر

(1) أيّام القِطاعة هي تلك التي ينقطع فيها المرء عن تناول اللّحم والدّهن، لأسباب دينيّة.

في أن يأكلَ الغراب؟

امتشقَ قوسَه الذي يحمِلهُ دوماً وأخذَ سهماً ثمّ صوّبَ جيّداً نحو النّسر، وطقْ! اخترقَ السّهمُ جسدَهُ من جهةٍ إلى جهةٍ فسقطَ النّسر صَريعاً، وطارَ الغرابُ لِيَحطّ على شجرةٍ مبتهِجاً.

قال له:

- محبوب، أنتَ فعلاً شهمٌ لأنّكَ أنقذْتني، أنا لستُ إلاّ غراباً بائساً، لكنّي لن أكون ناكراً للجميل، سأجازيكَ بالمثل.

أعْجب محبوب بتَعَقّلِ الغرابِ، وتابعَ سيرَه. وعندما أوشكَ على الدّخول في غابةٍ كبيرةٍ، والصّباحُ بازغٌ لتوّه لدَرَجةِ أنّهُ بالكادِ رأى طريقَهُ، سمعَ بومةً تصرخُ يائسةً كيما يأتي أحد لنجدتها.

قال محبوب:

- ياه! هي ذي بومَةٌ في شقاء، ربّما وقعت في شَرَكِ مِصْيَدَة.

تحرّى الجهات كلّها. وأخيراً وجدَ شِباكاً كبيرةً كان قد وضعها صيّادو العصافير ليلاً لالتقاط فراخ الطّيور.

قال:

- إنّه لأمْرٌ لا يُغتفَر! الناسُ خُلِقوا فقطْ ليعَذّب بعضهُم بعضاً أو ليطارِدوا حيواناتٍ مسكينةً لا تتسبّبُ لهم بضرَرٍ أو أذى؟!

ثمّ اسْتَلَّ سكّينَهُ وقطعَ الحبالَ الصّغيرَة. حلَّقتِ البومَةُ لكنَّها عادَت بسرعة، وقالت:

- محبوب، ليسَ منَ الضروريّ أن أدْليَ لكَ بخطابٍ طويلٍ لكيْ أفْهِمَكَ كمْ أنا ممْتَنّة لكَ فالإناءُ ينضحُ بما فيَه: كانَ الصيّادونَ سيأتونَ. وكنتُ عالقةً وكنتُ سأموتُ لوْ أنّكَ لم تأتِ لإنقاذي، قلبي شاكرٌ لك ما فعلتهُ لي، وسوفَ أجازيكَ بالمثل.

هاكُمُ المغامراتِ الثلاث الأكثر أهميّةً التي خاضها محبوب أثناءَ

تلك الرّحلة. كانَ مستعجلاً جدّاً في الوصولِ فلمْ يتأخّر في الذّهابِ إلى قصرِ الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذهبيّ.

كلّ شيءٍ في القصرِ كانَ رائعاً. رأى فيه حبّاتِ الألماسِ المتراكِمةِ كالحجارة؛ رأى الملابسَ الفاخِرَةَ، الحلوى، المالَ؛ كانت تلكَ أشياء أخّاذة. وفكّرَ في قَرارَة نفسه أنّه إذا تركَتْ كلَّ ذلكَ لتأتي إلى الملك سَيِّدِهِ فلا بدّ أنّهُ سيكونُ محظوظاً جدّاً. أخذ ملابسَ منَ الدّيباجِ وأرياشاً قرمزيّةً وبيضاء. سرَّحَ شعرَهُ، وتعطّر بـ «البَوْدَرة»، وغسَلَ وجهَهُ ووضَعَ منْديلاً فاخراً مطرَّزاً على عنُقِهِ، ومعهُ سلّة في داخلِها كلْبٌ صغيرٌ جميلٌ كانَ اشتراهُ عندما مرَّ بِبولونيا. كانَ محبوب من حُسْنِ المظهَر والظرفِ والأناقةِ في التصرّف لدرَجةِ أنّهُ حينَ مَثُلَ أمامَ مدخلِ القَصرِ، أظهرَ له جميعُ الحرّاسِ احتراماً كبيراً؛ وهرْوَلوا ليَقولوا للجَميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ إنَّ محبوباً، المرسَل من الملكِ الأقرَبِ إليها جواراً، يطلبُ رؤيَتَها.

عندما سمعت باسم محبوب، قالت الأميرة:

- اسمه يَحْملُ معنىً جميلاً. أراهِنُ أنّهُ جميلٌ ويَروقُ للجميع.

قالتْ لها جميعُ وصيفاتها:

- حقّاً إنّه لكذلك يا سيّدتي، رأيناهُ منَ العِليّةِ حيثُ كنّا نجهّزُ نَسالة الكتّان، وطيلةَ الوقتِ الذي استغرقهُ وقوفهُ تحتَ النوافذِ لم نستطع فعْلَ شيء.

أجابَت الجميلةُ ذاتُ الشّعر الذّهبيّ:

- أمرٌ جميلٌ أنْ تتَلَهَّيْنَ بالنّظَر إلى الفتيانِ! هيّا، اجلُبنَ لي فستانيَ الفضفاضَ منَ السّاتان الأزرق المطرّز، وصفّفنَ شعريَ الأشقر، واضفرْنَ لي إكليلاً جديداً منَ الأزهار، واجلبْنَ لي حذائي ذا الكعبِ العالي ومروَحتي. نظّفن غرفتي وعرشي، لأنّني أريدُ أن يَقولَ الناس

في كلّ مكانٍ إنّني الجميلةُ ذاتُ الشّعرِ الذّهبيّ.

وها إنّ جميعَ النّساءِ سارَعْنَ لتَزْيينِها وكأنّها ملكَة. كُنَّ على عجَلةٍ كبيرةٍ منْ أمْرِهِنَّ ما جَعَلهُنَّ يصطدم بعضهنّ ببعضٍ ويُراوِحنَ في أمْكنَتِهنّ. وأَخيراً مرّت الأميرةُ في الرّواقِ المُزْدانِ بالمَرايا الكبيرةِ لِترى ما إذا كانَ ينْقُصُها شيء. ثمّ اعتلتْ عرشَها المصنوعَ منَ الذّهبِ والعاجِ وخشبِ الأبَنوس، الذي تتصاعدُ منهُ رائحةُ الرّاتنج العطريّ. وأمَرَتْ وصيفاتِها بأنْ يعْزِفْنَ على آلاتِهِنّ ويُغنّينَ بصوت ناعم كيْ لا يُزْعِجْنَ أحداً.

اصطحِبَ محبوب إلى صالةِ الاستقبالِ. أخذَتْهُ نَشْوَةُ الإعجابِ ما جعَلَهُ يشعرُ مراراً أنّه عاجزٌ عنِ الكلام ومعَ ذلكَ استَجْمَعَ شجاعَتَهُ وألقى خطابَهُ بشكْلٍ رائع: توَسَّلَ إلىَ الأميرةِ لكي تعفيَهُ منْ مغبَّةِ العودَةِ وحيداً من دونِها.

قالت له:

- أيُّها اللّطيفُ محْبوب، جميعُ الأسبابِ التي تلوْتَها عليّ مقنعةٌ جدّاً، وأؤكّدُ لكَ أنّهُ يسرُّني فعلاً أن أستجيبَ لكَ أكثر من أيّ شخصٍ آخر. لكن يجبُ أن تعلمَ أنّني منذ شهرٍ ذهبتُ للتّنزّهِ على ضفّةِ الجدوَلِ معَ جميعِ وَصيفاتي. وبما أنّهُنَّ كُنَّ يقدّمْنَ لي وجبةَ الطّعامِ الخفيفة، نزعتُ قفّازي فسحبْتُ معَهُ خاتماً وسقطَ لسوءِ الحظّ في الجدَول. كنتُ أحبُّ ذلك الخاتم أكثر من مملكتي. لذا أترُكُ لك أنْ تحْكمَ بنفسِكَ على الحزنِ الذي ألَمَّ بي عَقِبَ هذه الخسارة. وعاهدْتُ نفسي أنّني لن أصغِيَ لأيّ طلبِ زواجٍ إلاّ إذا أعادَ لِيَ الرسولُ الذي يقتَرِحُ عليَّ الزّواج، خاتمي. فانْظر الآنَ ما بإمْكانِكَ أنْ تفعلَهُ بهذا الخصوص لأنّكَ لوْ حدّثتني خمسةَ عشَرَ نهاراً وخمسَ عشرةَ ليلةً فَلنْ تقنِعَني بأَنْ أغيّرَ شعوري.

مَكثَ محبوب مندهشاً منْ هذا الجواب. انْحَنى أمامَها بإجلالٍ واحترام كبيرَينِ ورَجاها أن تقبلَ منهُ الكلبَ الصّغيرَ والسلّة والمنديلَ. لكنّها أجابتْه أنّها لا تريد هدايا البتّة وأن يفكّرَ جديّاً فيما قالتْهُ لهُ للتوّ.

عندما عادَ إلى منزِله، خلدَ للنوم دونَ أن يتناوَلَ عشاءهُ. وكذلكَ كلبُهُ الصّغير الذي يُدعى نطناط لَم يُرد أيضاً تناوُلَ عشائهِ: جاءَ واضْطَجَعَ قربَهُ. وطيلةَ اللّيل لَمْ يكفّ محبوب عن التنهّد.

كانَ يقول:

- أينَ أستطيعُ العثورَ على خاتم سقطَ منذُ شهر في النّهر؟ إنّه مشروعٌ جنونيّ! لم تقلْ ليَ الأميرة ذلكَ إلاّ لكي تجعلَ الأمرَ مستحيلاً.

تنهّدَ واغتمّ غمّاً شديداً. كانَ نطناط يستمع إليه فقال له:

- يا سيّدي العزيز، أتوسَّل إليكَ، لا تيأسْ من حسنِ طالعك. مَن هوَ محبوب مثلك يجب ألاّ يكونَ إلاّ سعيداً. لنذهبَ عند طلوعَ الصّباح إلى ضفّة النهر.

ربّتَ محبوب عليه بيدهِ مرّتينِ ولم يُجِب بشيء. لكن رازحاً تحتَ ثقْلِ حزنِه، غفا. ونطناط، عندما رأى الصّباح يطلعُ أخذَ ينَطْنِطُ بحماسٍ كبير فأيقظَ محبوباً وقال له:

- يا سيّدي، ارتدِ ثيابكَ ولْنخرج.

امتثَلَ محبوب للأمرِ طَوْعاً. نهضَ، وارتَدى ثيابَه ونزَلَ إلى الحديقَة، وفي الحديقة، ذهب دونَ أن ينتبهَ إلى ضفَّةِ النّهر، حيث كانَ يتنزّهُ واضعاً قبّعَتهُ على عينيهِ ومُصالباً يديه، غيرَ مفكّرٍ إلاّ برحيلِه حينَ سمِع فجأةً أحداً يناديه:

- محبوب! محبوب!

إلتفتَ إلى جميعِ الجهاتِ ولَمْ يرَ أحداً. ظنَّ نفسَه يحلم. تابعَ نزهتَهُ.

سمع النداء مجدّداً:

- محبوب! محبوب!

قال:

- من يناديني؟

نطناط، الذي كانَ صغيراً جدّاً وكانَ ينظُرُ إلى الماءِ عنْ كثَب، أجابه:

- صدّقْ أو لا تصدّقْ: ألمحُ سمكةَ شبّوط ذهبيّة !

وللحال ظهرت سمكة الشبّوط الضخمةُ وقالت له:

- لقد أنقذتَ حياتي في حقلِ أشجارِ الميس وكنت سأقضي أجَلي هناكَ لولاكَ؛ وعدتك بأن أعوّضَ عليكَ ذلكَ، خذْ يا عزيزي محبوب، هذا هوَ خاتمُ الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذهبيّ.

انحنى وأخذهُ من فمِ صاحبتنا سمكة الشبّوط، وشكرَها ألفَ مرّة.

وبَدَلَ أن يعودَ إلى منزلِه، ذهبَ توّاً إلى القصرِ معَ نطناط الصّغير الذي كانَ مسروراً جدّاً لأنّه جاءَ بسيّدهِ إلى ضفّةِ النّهر.

وجاء الحرّاس ليقولوا للأميرةِ إنّه يطلبُ رؤيتَها.

قالت:

- وا أسفاه على الصبيّ المسكين، أتى يستأذِنُ منّي بالانصراف. يعتبِرُ أنّ ما أريدُهُ مُستحيل، وسيذهَبُ إلى سيّده ليقول ذلك.

أُدْخِلَ محبوب إلى الملكةِ فقدَّمَ لها خاتمَها وهوَ يقول:

- سيّدتي الأميرة. ها إنّ أمْرَكِ مُطاع، هل تتَفَضّلين الآنَ بقبول سيّدي الملك زوجاً لك؟

عندما رأت خاتمها الذي لا ينقصهُ شيء، مكثت منذهلةً وخالَتْ نفسها تَحْلُم.

قالت:

- في الحقيقةِ يا محبوب الظّريف، لا بدّ أنّ إحدى الجنيّاتِ تَدْعَمكَ لأنّ ما فعلتَه مستحيلٌ بطبيعةِ الحال.

قال:

- سيّدتي، لا أعرف أيّة جنيّة، لكنّي رغِبتُ فعلاً في إطاعَتك.

وأردفت:

- بما أنّكَ تظهِر رغبةً صادقةً وحُسن نيّة واضحاً، عليك أن تؤدّي لي خدمةً أخرى من دونها لا أستطيعُ الزّواج أبداً. هناكَ ملك، غيرُ بعيدٍ من هنا، يدعى غاليفرون، صمّم على الزّواج بي. أعلنَ لي عن مخطّطهِ مُرفَقاً بتهديدٍ مرعِبٍ وقالَ لي إنّه في حالِ رفَضتُه فسَيُدمّر مملكَتي. لكن سأصِفهُ لكَ وأنتَ احكمْ إذا كنتُ أستطيعُ أن أتّخذَهُ زوجاً لي: إنّه عملاقٌ وقامته أطول من برج عالٍ، يلتهمُ الرّجلَ كما يلتهمُ قردٌ حبّةَ كستناء. عندما يذهبُ إلى الرّيف، يحملُ في جيوبهِ مدافعَ صغيرةً ويستعملها كمسدّسات، وعندما يتكلّم بصوتٍ عالٍ يُصبح مَن هم قريبونَ منه صُمّاً. أرسلْتُ له جوابي بأنّي لا أريدُ الزواجَ به وأن يعذُرَني. ومع ذلك لا يمتنعُ عن مُطارَدَتي وقتلِ جميعِ رعاياي، لذا قبلَ كلِّ شيءٍ عليكَ أن تهزِمَهُ وتجلبَ لي رأسَه.

مكثَ محبوب مُنْذَهِلاً قليلاً من جرّاء هذا الطلب، وفكّر لبعضِ الوقتِ ثمّ قالَ:

- حسناً يا سيّدتي، سأحارب غاليفرون. أعتقد أنّني سَأُهْزَمُ لكنّي سأموتُ بصفَتي رجلاً شجاعاً.

بقيَت الأميرةُ مندهشةً فعلاً. حاولت المستحيل لثنيه عن القيام بمشروعه. لكنّه لم يَنثنِ عنه: خرجَ محبوب ذاهباً للبحثِ عن الأسلحة وكلّ ما يلزمه تحَسّباً للمواجهة. عندما حصَلَ على ما يريده،

وضع نطناط الصغير في سلّته وصعد على حصانه الجميل وذهب إلى بلاد غاليفرون. راح يسأل عن أخبارهِ لأولئك الذين كان يصادِفُهم وكانوا يقولون له إنّه كانَ شَيْطاناً حقيقيّاً ولا أحد يجرُؤ على الاقترابَ منه؛ كلّما سمع عن أخباره، ازدادَ خوفُه منه باطّراد. إلاّ إنّ نطْناط كانَ يطمئِنُهُ قائلاً:

- يا سيّدي العزيز، في الوقت الذي ستتواجَهانِ فيهِ وتتقاتَلانِ سأعضُّ له ساقَيه وسيُخفِضُ رأسَه لإبعادي عنْه، وعندئذٍ تقتُله.

أُعجبَ محبوب بفِطْنَةِ الكلبِ الصّغيرِ لكنّه كانَ يعرِفُ يقيناً أنّ نجْدَتَهُ لن تجْدِيَ نفعاً.

وأخيراً، وصلَ بالقربِ من قصرِ غاليفرون. كانت الطرقات كلّها مغمورةً بالعظام وهياكلِ النّاسِ الذينَ التَهَمَهم أوْ مزَّقَهم إرباً. لمْ ينتظر طويلاً حتّى رآهُ آتياً عبرَ الغابَة. كانَ رأسُه يعلو على أطولِ الأشجارِ وكان يغنّي بصوتٍ فظيع:

أيْنَ هم الأطفالُ الصّغار
لآكُلَهم بشهيّة
يَلزَمُني الكثيرُ والكثيرُ منهم
والكثيرِ والكثيرُ حتّى إنّ العالَمَ لا يكفيني.

وكذلك، أخذ محبوب يغنّي على النغمة نفسها:

اقتربْ، اقتربْ فأمامكَ محبوب
الذي سيَقتَلِعُ أسنانك
معَ أنّهُ ليسَ كبيراً بما يَكْفي

لكنْ ليهزمكَ هوَ كافٍ.

لمْ تكنْ القوافي منتظمَةً كما يجب لكنّهُ أنشَدَ الأغنيَة بسرعةٍ كبيرةٍ حتّى إنّها لَتُعَدُّ معجزَةً كيف أنّه لم يؤلّفها بشكلٍ أسوأ لِما انتابَهُ من خوف عظيم. عندما سمِعَ غاليفرون هذه الكلّمات نظَرَ إلى جميع الجهاتِ ولمحَ محبوباً والسّيفُ في يدهِ، ثمّ تلفّظ بشتيمَتَيْنِ أو ثلاثَ لإغاظتِهِ. لمْ يستلْزِمْهُ الأمْرُ أكثرَ من ذلك لأنَّ العملاقَ انتابَتْهُ سورةُ غضَبٍ مسعور. أَمسكَ هَراوَةً من حديد كلّها، وكانَ سيَصرَعُ محبوباً اللطيفً منَ الضربَة الأولى لولا أنّ غُراباً جاءَ وحطَّ على قمّةِ رأسِهِ، ونقرَ عينيهِ بمنقارِهِ حتّى فَقَأَهُما. أخذَ الدّم يسيلُ من وجهه، وبَدا وكأنّهُ يائسٌ يضرب في جميع الجهات. تحاشاه محبوب وطعنَهُ بالسّيف طعنات قويّة مغرزاً المهنّد حتى المقبض متسبّباً لهُ بألف جرح فنزفَ منه دم كثير وتهاوى أرضاً. وفي الحال، قطعَ محبوب رأسَه مغتبطاً مِن أن يكونَ حظّه بمثلِ ذلك اليُمن. والغراب الذي كانَ جاثِماً على غصنِ شجرةٍ قال له:

- لم أنسَ الخدمة التي أدّيْتَها لي حينَ قتَلت النسرَ الذي كانَ يُطاردُني. وعدتُك بأنْ أردّ لكَ الجميل: وأظنّني فعلتُ ذلكَ اليوم.

فأجابه محبوب:

- أنا الذي أدينُ لكَ يا سيّدي الغُراب بكلّ شيء. أنا خادِمُك.

وصعدَ للحالِ على حصانِهِ محمَّلاً برأسِ غاليفرون المخيف.

عندما وصلَ إلى المدينة، تبعَه الجميعُ وأخذوا يهتِفون: «هذا هوَ محبوب الشّجاع الذي صرع لتوِّه الوحش». سمعت الأميرة الصّراخ وراحت ترتجفُ من أن يأتي أحدهم ويبلّغَها وفاة محبوب، لذا لم تجرؤ على أن تسأل ماذا حصل له. لكنّها رأت محبوباً يدخلُ ومعهُ رأسُ

العملاقِ الذي لا يزال يثيرُ الهَلَعَ في نفسِها مع أنّه لم يعُدْ هنالكَ ما يُخشى منه.

قال لها:

– سيّدتي ها إنّ عدوّكِ قدْ قُتل. آمل إلاّ يعود هناك سبب لترفضي سيّدي الملك؟

قالت الجميلةُ ذاتُ الشّعر الذهبيّ:

– آه! مستحيل! سأرفضه إذا لم تجدْ، قبل رحيلي، وسيلةً لأن تجلب لِيَ الماءَ من المغارةِ المظْلِمَة.

«ثمّةَ مغارة عميقة بالقربِ من هنا ويبْلُغ مُحيطها ستّة فراسخ. يوجد عند مدْخلها تنّينانِ يمنعانِ الدّخول إليها. تتصاعَد من شدقَيهما نارٌ ومن أعينهما. ثمّ، عندما ندخل إلى المغارة نجدُ حفْرَةً كبيرةً يجبُ النّزول فيها: وهيَ مليئةٌ بالضفادعِ والأفاعي والحيّات. وفي آخرِ هذه الحُفرة، قبوٌ صغيرٌ يسيلُ منهُ نبع الجمال والصحّة: هذه هي المياه التي أريدُها. كلّ ما نغسله بها يصبحُ رائعاً: إذا كانت المرأة جَميلة، تبقى جميلة إلى الأبد، وإذا كانت قبيحة، تصبح جَميلة، وإذا كانت فتيّة تبقى شابّة، وعجوزاً تصبح شابّة. كما تَرى يا محبوبُ، لن أترك مَملكتي إذا لم تَجلب لي منها الماء».

قال لها:

– سيّدتي، أنتِ من الجمال بحيثُ لا تحتاجينَ لهذا الماء؛ لكنّني رسولٌ بائسٌ تريدينَ موتَه: لذا سأذهبُ لآتيكِ بِما تريدين وأنا على يقينٍ أنّني لن أرجعَ حيّاً.

لَمْ تغيّر الجميلةُ ذاتُ الشّعر الذّهبيّ رأيها، وانطَلقَ محبوب مع كلبه الصّغير نَطناط للذّهابِ إلى المغارةِ المظلمة لكي يأتيَ بماءِ الجمال. كان كلّ من التقى بهم على الطّريق يقولون له:

- إنّه لشيءٌ مؤسف رؤيةُ فتىً بهذا اللّطف يذهب إلى حتفه بهذا الحماس. يذهب وحيداً إلى المَغارة، لكنْ لو ذهب برفقة مائةٍ منَ الشّجعانِ لما استطاعَ الوصولَ إلى مُرادِه. لماذا لا تطلبُ الأميرة إلاّ الأمور المستحيلة؟

وكانَ يتابع السّير دونَ أن ينبسَ بكلمَةٍ وبهِ حزنٌ شديد، ووصَلَ إلى قمّةِ جبلٍ فجلسَ هناكَ ليرتاحَ قليلاً. وتركَ لحصانِهِ أن يرعى ولِنطناط أنْ يهرولَ خلفَ الذباب. كانَ يعرفُ أنّ المغارة المظلمة لم تكنْ بعيدةً من هناك. ونظرَ لِيَرى ما إذا كانَ سيَراها. وأخيراً لَمَحَ صخرةً مخيفةً سوداءَ كالحِبر، ومنها يتصاعدُ دخانٌ كثيف، وما هيَ إلاّ هنَيْهة حتّى خرجَ أحدُ التنّينينِ وكانَ يرسل ناراً من عينيهِ ومن شدقِه: كانَ جسده أصفرَ وأخضرَ وكانت لهُ مخالِبُ وذنبه ملْتفّ بأكثر من مائة دائرة، رأى نطناط كلّ ذلك فأصيب بهلع شديد ولم يعرف أين عليه الاختباء.

مصمّماً على الموت استلّ محبوب سيفَه ونزل الجبلَ وفي يده القارورة التي أعطتْه إيّاها جميلة الشّعر الذهبيّ لكيْ يملأها من ماءِ الجمال. قال لكلبِهِ نطْناط:

- انتهى أمري! لا أستطيع أبداً أنْ أحصلَ على هذا الماء الذي يحرسه التنّينان. حين أموت، املأ هذه القارورةَ منْ دمي واحملها إلى الأميرةِ لِتَرى الثّمنَ التي تكلّفني إيّاه ثمَ اذهب لرؤية الملك وارو له مصيبتي.

وفيما هو يتكلّم على هذا النّحو، سمعَ أحداً يناديه:

- محبوب! محبوب!

قال:

- من يناديني؟

ورأى بومةً في جوفِ شجرةٍ قديمةٍ تقولُ لهُ:

- لقد حرّرتني من شباكِ الصيّادين حيث علِقْتُ وأنقذتَ حياتي، وعدتُكَ بأنّني سأردُّ لكَ الإحسان وها قد آنَ الأوان. أعطني القارورة: أعرف جميع الدّروب في المغارة المظلمة. سأذهبُ لآتِيَكَ بماءِ الجمال.

بربِّكم! هل مَن هوَ أكثرُ حظّاً منه؟ أَتركُ لكم أن تحكموا على الأمر. سارع محبوب لإعطائها القارورةَ. ودخلت البومة من دونِ عراقيلَ إلى المغارة. وبأقلّ من ربع ساعةٍ عادت بالزّجاجة مسدودَةً بإحكام. اغتبطَ محبوب وشكرَهاَ من كلِّ قلبه، وصعَدَ الجبلَ من جديدٍ سالكاً طريق المدينةِ جذلان مسروراً.

توجّه توّاً إلى القصر. قدّم القارورة للجميلةِ التي لم يعُد لديها ما تقوله: شكَرت محبوباً وأعطت أمراً لتهيئةِ كلّ ما يلزمُ للرّحيل، ثمّ غادرَت برِفقتِهِ. وجدتْه من اللّطف والظّرف بحيث كانت تقول له أحياناً:

- لو أردتَ لجعَلْتُكَ ملِكاً ولما رحَلنا قطّ عن مملكتي. لكنّه أجاب:

- لا أريدُ أن أتسبّب بالكرب لسيّدي لقاءَ كلّ ممالك العالم، مع أنّني أجِدكِ أجملَ من الشّمس.

وأخيراً وصَلوا إلى مدينةِ الملكِ الكبيرة. كانَ الملك قد عرِف بمجيء الجميلةِ ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ فذهبَ لِلقائها وقدّم لها أجملَ الهدايا الممكِنة. وتزوّجها في جوٍّ منَ الابتهاج والجذل لم يكن أحدٌ يتكلّمْ فيه إلاّ عن ذلك الزّواج. لكنّ الجميلَة ذاتِ الشّعرِ الذّهبيّ التي كانَ يهواها محبوب في قرارةِ قلبِهِ لم تكنْ سعيدةً إلاّ حين تراه، وكانت تثني عليه دَوماً.

كانت تقول للملك:

- لولا محبوب لما أتيت. توجّب عليه أن يفعل أشياء مستحيلةً لخدمتي: عليك أن تكونَ ممتنّاً له. أعطاني ماء الجمال: لنْ أشيخَ أبداً، سأكونُ جميلة دوماً.

تنبه الحسّاد لأقوال الملكة فأسرّوا للملك:

- لا تغارُ فيما لديك ما يحملك على الغيرة! الملكة تحبّ محبوباً لدرجةِ أنّها تفقدُ الشهيّة في الأكلِ والشرب. لا تتحدّث إلاّ عنه وعن أفضالهِ عليك كما لو أنّ أيّ رسولٍ ستوفده لن يفعل ما فعلَه.

قال الملك:

- تنبّهتُ للأمر بحقّ. اذهبوا وضَعوه في البرج وغلّوا قدميه ويديه.

اقتيد محبوب، ومكافأةً على حسنِ خدمتهِ للملك، سُجِنَ في البرج والغلال في قدميه ويديه. لم يكن يرى أحداً إلاّ السجّانَ الذي كان يرمي له من الثّقب بقطعة خبز من الحِنطةِ السّوداء وبقصعة من الفخّار فيها ماء. ومع ذلك كان كلبه نطناط لا يفارقه أبداً، كان يواسيه ويأتيه بكلّ الأخبار المستجدّة.

وعندما عرَفت الجميلةُ ذات الشعر الذّهبيّ ما ألمّ به من إبعادٍ وسَجن، ارتمَت عند قدمي الملك وأخذَت تبكي متوسّلةً إليه بإخراجِ محبوب من السجن. لكنْ كلّما توسلّت إليه، ازداد غضبه مفكّراً: «هذا لأنّها تحبّه»، ويرفض أن يقوم بشيء لأجله. لم تعدْ تحدّثه عن الأمرِ وألمّ بها حزنٌ شديد.

تنبّه الملك إلى أنّها ربّما لا تجده جَميلاً ما يكفي فرغِبَ في أن يدْعكَ وجهه بماءِ الجمالِ لكي تحبّه الملكة أكثر. كانَ ذلك الماء في قارورةٍ على حافّة المدفأة في غرفة الملكة وكانت وضعَتْها هناكَ لتنظر إليها في أغلب الأحيان؛ لكنّ إحدى خادماتها أرادت أن تقتُل عنكبوتاً بمكنَسَتِها

فرَمَت لسوءِ الحظّ بالقارورة أرضاً وانكسرت وانداحَ منها كلّ الماء. كنَستِ الأرض بسرعة ولم تعد تعرف ماذا تفعل فتذكّرت بأنّها رأت في ديوان الملك قارورةً مشابهةً مليئةً بماءٍ صافٍ وكأنّه ماءُ الجَمال فأخذَتْه بلباقةٍ دون أن تقول شيئاً ووضعته على حافّة المدفأة في غرفة الملكة.

القارورة التي كانت في ديوان الملك كانت مملوءةً بماءٍ قاتلٍ يميتُ الأمراء والأسياد الكبار إذا كانوا مجرمين. فبدَلَ أن تُقطَعَ رؤوسُهم أو يُشنقون، تُدْعَكُ وجوههم ببعض ذلك الماء فيغفونَ ولا يَفيقون أبداً. ذات مساء أخذ الملك القارورة وفرَكَ بها وجهَه وفي الحالِ غفا ومات. كان الكلب نطناط أوّل العارفين بالخبرِ فلم يتوانَ عن الذهاب إلى محبوب وتبليغهِ بما جرى فقال له أنْ يذهبَ للقاءِ الجميلةِ ذاتِ الشّعر الذّهبيّ ويذكّرها بالسّجينِ التّعيس.

تسلّل نطناط خفيةً بينَ الجمعِ الغفيرِ لأنّ الغوغاءَ عمَّت القَصر بسبب وفاةِ الملك. قال للملكة:

- سيّدتي، لا تنسي محبوباً المسكين.

وللحال تذكّرت الآلام التي تسبّبت له بها وبإخلاصهِ الكبير. خرجت دون أن تقولَ لأحدٍ وتوجّهت توّاً إلى البرج وهناكَ نزعت بنفسها أغلاله الحديديّة من قدمَيهِ ويديه. ووضعت على رأسه تاجاً ذهبيّاً وعلى كتفَيْهِ المعطف الملكيّ وقالت له:

- تعالَ يا محبوب اللّطيف أجعلك ملكاً وأتّخذك زوجاً لي.

ارتمى عند قدميها وشكرَها. وفرح كلٌّ منهما بذلك القران الذي جمعهما. أقيمَ أجمل عرْسٍ في الوجود. وعاشت الجميلةُ ذاتُ الشّعر الذّهبيّ طويلاً مع الجميل محبوب في سعادة ورضاً متبادلين.

إذا صدفَ وسألكَ بائسٌ صُدفةً

مساعدتهُ
فَلا ترفض أن تهبَّ لنجدتِهِ بكلِّ نخوة
لأنّ كلّ معروفٍ يلْقى ثوابه عاجلاً أم آجلاً.

عندما أنقذَ محبوبٌ، باندفاعٍ كبير
سمَكةَ الشبّوطِ والغرابَ، وحتّى البومَةَ نفسها،
وما نفّرته منها قباحتها،
فإنّهُ بذلكَ احتفظَ بحريّتِهِ!

هلْ كانَ أحَـدٌ ليُصدِّقَ
أنّ تلكَ الحيواناتِ يومـاً
ستقودُهُ إلى قمّةِ المجْدِ
حينَ أرادَ أن يُسعِفَ الملكَ في حبِّهِ الحنون؟

وبالرّغم من كلِّ إغواءاتِ الجمالِ السّاحرِ
والرّغباتِ التي بدأَ يثيرُها في نفسهِ
احتفظَ لسيّدهِ بإخلاصٍ دائم
كابحاً تنهيداتِ الحبّ.

ومع ذلكَ ودونَ سبَبٍ رأى نفسهُ متّهماً.
لكنْ، حينَ حالَ دونَهُ والسعادة عراقيل كثيرة
دانتْ له السّماء بمعجزةٍ
لأنّ السّماء لا ترفضُ للفضيل طلباً.

العصفور الأزرق

كانَ يا ما كان، كانَ هناك ملكٌ وافرُ الثّراء أرضاً ومالاً. توفّيت زوجته وغدا لا يتعزّى بسبب وفاتها. انزوى ثمانية أيّام كاملة في غرفةٍ صغيرةٍ ولتفجّعه راحَ يلطُمُ رأسَه بالجدار. خشيَ مَن حوله أن يَقتل نفسه فغلّفوا الجدران بالبطّانيّات لئلا يؤذِيَ نفسه. وصمّمَ جميع رعاياه على الذّهاب لرؤيته وقالوا له كلّ ما يستطيعونه لمواساته في حزنه. حضّر البعضُ كلماتٍ مفخّمةً وجادّةً والبعض الأخر نوادرَ ظريفةً ومبْهِجةً: لكنَّ كلّ ما كانَ يُقال لم يخلّف أيَّ أثرٍ في نفسه. وأخيراً مثُلت أمامهُ امرأةٌ متدَثّرةٌ بالكثير من أوشحة الحِدادِ والبراقع والعباءات والملابس السّوداء الطويلة، وكانت تبكي وتنتحبُ بصوتٍ قويٍّ عالٍ حتّى ذُهل الملك. قالت له إنّها لا تنوي إطلاقاً كما يَفعل الآخَرون التخفيف من ألمه، لا بل جاءت إلى هناك لكي تزيده حزناً لأنّه لا شيء أعْدل من أن يبكِيَ الزوجُ زَوْجَةً فاضِلة. أمّا هي، وكانت حظيَت بأفضلِ زوجٍ من بين كلّ الأزواج، فإنّها تفي زوجَها حقّه ببكائِها عليه ما بقيت في عينيها دموع. وهنا ضاعفت من صُراخها، وحذا الملك حذوَها، فبدأ في البُكاء والعَويل.

استقبلها أفضل من الجَميع وحدّثها عن خِصال العَزيزة المتوفّاة الحميدة وزايدت عليه بخصال زوجِها المرحوم. وراحا يتحدّثانِ ويتحدّثان ولم يعد لديهما ما يقولانه عن ألمهما. وعندما رأت الأرمَلَة الأريبة أنّ الأحاديثَ نضَبَت، رفَعت قليلاً أوشحَتها فمتّعَ الملك المألوم نظرَه برؤيَة هذه المفجوعةِ المسكينة التي راحت، في اللّحظة المناسبة، تقلّب بغنجٍ عينين كبيرتين زرقاوين تظلّلهما أهدابٌ طويلة

سوداء: كانت بشرتها لا تزال نضرة. نظر إليها الملك باهتمام كبير، وشيئاً فشيئاً أخذ حديثهُ عن زوجته يتضاءلُ حتّى انعدَم تماماً. كانت الأرملةُ تقول إنّها ترغب في أن تبكيَ زوجها على الدّوام فتوسّل إليها الملك ألاّ تديم شَجَنَها إلى الأبد. وفي الختام، تعجّب الجميعُ من زواجهِ بها ومن أنّ الأسوَدَ تغيّر إلى أخضرَ وإلى لونٍ ورديّ: يكفي غالباً أن نعرف مكمَنَ الضّعف عند النّاس لندخل إلى قلوبهم ونفعل بها كلّ ما نشاء.

لم يكنْ لدى الملك إلاّ ابنة وحيدة من زواجهِ الأوّل وكانت لجمالها تُعدّ ثامنَ عجيبةٍ من عجائبِ الدّنيا السّبع. كان اسمها فلورين لأنّها تشبه بنضارتها وجمالها فلورا إلهة الأزهار الأسطوريّة. كانت تَهوى فساتينَ التّفتا الخفيفة المزدانة ببعضِ المشابكِ المصنوعةِ من الأحجارِ الكريمةِ، وتزيين شعرها الجميل بالكثير من أكاليلِ الزّهرِ ما يضفي على مظهرها سحراً أخّاذاً. كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوّج الملكُ من جديد.

أرسَلت الملكةُ الجديدةُ في طلبِ ابنتِها ترويتون التي كانَت قد تَربّت عندَ عرّابَتِها[1] الجنيّة سوسيو. لكنّ ذلك لم يُضْفِ عليها لا جمالاً ولا ظرفاً: كانت سوسيو تحبّها حبّاً جمّاً ولم تألُ جهداً لمعالجة المشكلة لكنّها لم تُفْلِح. كانت تُدعى ترْويتون لأنّ وجْهها المليء ببقع النمش أشبه بسمكةِ التروتة، وكانَ شعرُها الأسود دهنيّاً جدّاً ووسِخاً جدّاً يؤنفُ لَـمْسُه، وجلدُها الأصفر يرْشحُ زيتاً. وكانت الملكة تحبّها إلى حدّ الجنون ولا يحلو لها التحدّث إلاّ عن سحر ترْويتون. وبما

(1) يساعد العرّابُ الأبوَين في تنشئة الطّفل، ويكون الطّفل بمثابة ابنه الرّوحيّ (ابنه بالمعموديّة في التقليد المسيحيّ). ينطبق الأمر نفسه على البنات، ويمكن أن تضطلع امرأة بدور العرّابة.

أنّ فلورين كانت تتمتّع بكلّ أنواع المزايا التي تجعلها تتفوّق على ترْويتون، يئست الملكةُ وأخذَت تفتّش بكلّ الوسائلِ الممكنةِ لكي تسيء إلى حَظوَتها في عيني الملك. لمْ يكن يمرّ يوم إلاّ وتنْصب الملكةُ وترْويتون شركاً للأميرة فلورين التي كانت رقيقةً فطنةً وتسعى دوماً لأن تتعالى على هذه الصّغائر.

وذات يوم قال الملك للملكة إنّ فلورين وترْويتون أصبحتا في سنّ الزّواج، وإن أوّل أميرٍ يأتي إلى البلاط، يجب تدبّر الأمر لتزويجه بإحدى الفتاتين.

أجابت الملكة:

- أريدُ أن تكون ابنتي هي أوّل من يقترن برباط الزواج لأنّها أكبرُ سنّاً من ابنتك، وبما أنّها ألطفُ منها ألفَ مرّة، فليس هناك ما يُقال بهذا الشأن.

فقال لها الملكُ الذي لم يكن يحبّ الشّجار إطلاقاً إنّه يرغب في ذلك فعلاً وإنّ لها الكلمةَ الفصل في ذلك.

بعد مُضيّ فترةٍ قصيرة، عُلِمَ أنّ ملكاً يدعى «فتّان» سوفَ يصلُ إلى القصر. لم يسبق لأمير أن حَمَلَ اللّطفَ والبهاءَ إلى ذلك المستوى. كان اسماً على مسمّى بفكرِهِ وشَخصه. عندما عرفت الملكة بهذه الأخبار، وظّفت جميعَ الموشّينَ والخيّاطين والعمّال لكي يُجروا الترتيبات اللاّزمة لترْويتون. توسّلت للملك ألاّ تحظى فلورين بأيّة فساتين جديدة، وأمَرَتْ خادماتها وقد كسَبَتْهُنَّ إلى جانبها أن يسرقنَ كلّ ملابسها وقبّعاتِها وأحجارِها الكريمةِ يوم وصول الملك فتّان. وعندما أرادت فلورين أن تتزيّن لم تجد شريطاً واحداً. أدركتْ من يقف خلف هذه المساعي الحميدة فأرسلتْ إلى البائعين للحصول على أقمشةٍ فأجابوها أنّ الملكةَ حَظَرَت عليهم أن يعطوها أقمشة.

فظلّت والحالة هذه في فستانٍ رثٍّ متّسخٍ جدّاً وكان خَجَلها عظيماً ما دفعَها للانزواء في ركنٍ منَ القاعة لدى وصولِ الملك فتّان.

استقبلته الملكة بحفاوةٍ كبيرة. قدّمت له ابنتها التي كانت تشعّ أكثرَ من الشّمس والتي زادتها كلّ زينتها تلك قبحاً، أكثر ممّا هيَ عليه عادةً. أشاحَ الملك بنظرِه عنها. أرادت الملكة أن تقنع نفسها بأنّها تعجبه جداً وأنّه يتصرّف على ذلك النحو لأنّه يخاف من الارتباط فجعلتها دَوماً نُصب عينيه. سأل عمّا إذا لم تكن هنالك أميرة أخرى تدعى فلورين.

قالت ترْويتون وهي تشير إليها بإصبعها:

- نعم. ها هيَ مختبئةٌ لأنّها تفتقر إلى الشجاعة.

احمرّت فلورين خَجَلاً، ما زادها جَمالاً إلى حدّ أنّ الملك مكث منذهلاً أمام جمالها. نهض بسرعةٍ وانحنى بإجلالٍ عميقٍ أمام الأميرة.

قال لها:

- سيّدتي، إن جمالكِ الذي لا يُضاهى يزيّنك فلا تحتاجين معه لأيّة معونة خارجيّة.

أجابته:

- مولاي، أعترف لك أنّني لستُ معتادةً على ارتداء رداءٍ متّسخٍ كهذا وسيكون من دواعي سروري ألاّ تكترث لأمري.

هتف فتّان:

- هذا مستحيل، مستحيل أن توجد مثل هذه الأميرة الرائعة في مكان وأن ينظر المرء إلى سواها!

قالت الملكة مغتاظة:

- بجدّ! كم يطيب لي سماعكَ تقول هذا! صدّقني يا مولاي أنّ فلورين لديها من الدّلع ما يكفي ولا تحتاجُ لنقولَ لها غزلاً يزيدها

غُنْجاً.

وفي الحال أدركَ الملك فتّان الدوافع التي حدَتْ بالملكة لأن تتفوّه بمثل هذا الكلام. ولكن بما أنّه كان حرّ الطبع، تمادى في التعبيرِ عن إعجابهِ بفلورين وتحدّثَ إليها ثلاثَ ساعاتٍ متتالية.

بلغ اليأسُ من الملكة مبْلغاً، وابنتها ترْويتون لم تكنْ تتعزّى لأنّها لم تستطع أن تكون الأثيرة فأخذتا تشكوان للملكِ وأرغمتاه على أن يوافق، خلال إقامة الملك فتّان، على سَجنِ فلورين في أحدِ الأبراجِ لكي لا يلتقيا مُطلقاً. وبالفعل، ما إن عادَت فلورين إلى غرفتها حتّى حَمَلها أربعةُ رجالٍ مقنّعين إلى أعلى البرج وتركوها هناك في تلك الكربة الشديدة. عرفت أنهم لا يعاملونها هكذا إلاّ ليمنعوها من أن تعجِبَ الملكَ الذي فتنها منذ اللحظة الأولى والتي ترغب فيه زوجاً أشدَّ الرّغبة.

لم يكن فتّان يعرف شيئاً عن العنفِ والإكراهِ اللذين يُمارسانِ على الأميرة، لذا كان ينتظرُ بشديدِ اللّهفةِ وعلى أحرّ منَ الجمر السّاعة التي سيراها فيها مجدّداً. أراد أن يتحدّث عنها إلى أولئك الذين وضعهم الملك في تصرّفه زيادةً في تكريمِه، ولكن، بأمرٍ منَ الملكة، قالوا له كلّ السّوء الذي يستطيعون إليه سبيلاً: إنّها كانت دلعة وغير متوازنةٍ ومزاجيّة وإنّها كانت تعذّب أصدقاءها وخدّامها وإنّه لا يمكنُ لأحدٍ أن يكون بقذارتها وإنّها كانت من البُخل بحيث تفضّل أن ترتدي ملابسَ راعيةٍ بسيطةٍ على أن تشتريَ الأقمشةَ الفاخرةَ بالمالِ الذي يُعطيها إيّاه الملك والدُها. وإزاءَ كلّ هذه التفاصيل، كان فتّان يتألّم ويأخذ منه الغضبُ مأخذاً لا يستطيع التحكّم به.

قال في نفسه:

- لا، منَ المستحيل أن تكونَ السّماءُ قد وضعت روحاً سيّئة في

التّحفةِ التي صنعَتها الطبيعة. أوافق على أنّها لم تكن نظيفةَ الثّياب عندما رأيتها لكنّ الخجَل الذي كانت تبديه يثبّت فعلاً أنّها قلّما كانت معتادةً على أن تكونَ بهذا المظهر. عجباً! كيف بإمكانها أن تكونَ سيّئةً مع كلّ هذين التّواضع والرقّة البادين للعيان واللذين يسحران الألباب؟ الأمر بَديهيّ. أغلب الظنّ أنّ الملكة تسعى للذمّ فيها: ليست زوجة الأب سدىً؛ والأميرة ترْويتون هي الغبيّة القبيحة وليس أمراً مستغرباً أن تحسُدَ أكثر المخلوقات كمالاً.

وفيما كان يفكّر على هذا النّحو، حدسَ أفراد الحاشية الذين كانوا يُحيطون به من سيمائه أنّه غير مسرور بأنّ يذمّوا فلورين. وكان هناكَ بينهم منْ هوَ أحذقُ منَ الآخرين فغيّر نبرتهُ وكلامهُ ليقفَ على حقيقةِ مشاعر الأمير وأخذ يقول أجمل الأشياء عن الأميرة. ولدى سماعه هذه الكلمات استيقظ وكأنّه كان في سباتٍ عميق وخاضَ الحديثَ والبهجةُ تغمر مُحيّاه. أيّها الحبّ، أيّها الحبّ، كم يصعب إخفاؤكَ! تظهر في كلّ مكان، على شفتي العاشِقِ وفي عينيه وفي نبرة صوته. حين نحبّ، كلّ شيءٍ ينطق بما نحسّ به: الصمتُ أو الحديث، السعادة أو الحزن.

الملكة المتلهّفة لمعرفةِ ما إذا كان الملك فتّان قد تأثّر بما قاله الواشون، أرسلتْ في طلب من كانت ائتمَنَتهم على سرّها وأمضت بقيّة اللّيل تستجوبهم. وكلّ ما كانوا يقولونه كان يثبت الرأي الذي كوّنَته: الملك يحبّ فلورين. لكن ماذا أقول لكم عن الكآبة التي ألمّت بهذه الأميرة المسكينة؟ كانت مضطجعة أرضاً في أعلى ذلك البرج الرّهيب الذي اقتادها إليهِ الرجالُ المقنّعون.

كانت تقول:

– كنت سأشفق على نفسي أقلّ لو أنّهم وضعوني هنا قبلَ أن أرى

هذا الملك الحبيب: الفكرة التي احتفظتُ بها عنه ليس لها إلاّ أن تزيد شقائي. لا شكّ أنّ الملكة تُعاملني بهذه الوحشيّة فقط لتمنَعني من رؤيته أكثر. وا أسفاه! أن أدفع باهظاً ثمن هذا القليل من الجمال الذي حبتني به السماء على حساب طمأنينتي بالذات!

ثمّ بكَت بمرارةٍ شديدة، بكاءً مرّاً كان سيجعلُ عدوّتها بالذات تشفق عليها لو أنّها عاينت آلامها.

وهكذا مضت تلك اللّيلة. الملكة التي كانت تريد أن تلزم الملك فتّان الزواج بابنتها عبرَ كلِّ مظاهرِ الاهتمامِ التي تبديها تجاهه، أرسلت له ملابس من ثراء وروعة لا يضاهيان، مصنوعة على طراز البلاد، وشعارَ جماعة فرسان الحبّ، التي أجبرت الملك على تأسيسها يوم زفافها. كان الشّعار قلباً من ذهب مطليّاً بلون النار ومحاطاً بأسهم عديدةٍ ومخترقاً بسهم عليه هذه الكلمات: «سهمٌ واحدٌ يجرحني». أمرَت الملكة بأن يُنْحَت لفتّان قلبٌ من الياقوتِ الكبير كبيضةِ نعامة وكلّ سهم كان من ألماسة واحدة بطول الإصبع والسّلسلةُ التي عُلّقَ إليها هذا القلبُ مصنوعةٌ منَ اللآلئ، وأصغر لؤلؤةٍ فيها تزِنُ رطلاً. وأخيراً، لم تعرف البشريّة منذ وجودها مثيلاً لهذه الهديّة.

مكثَ الملك لدى رؤيتهِ ذلك القلب مندهشاً، ما أخرَسه لبعض الوقت. قُدّم له في الوقت نفسه كتابٌ كانت أوراقهُ من جلْدِ العِجلِ، مزدان بمُنَمْنَمات رائعة، غلافه منَ الذّهب وموشّى بالأحجارِ الكريمةِ وفيه قوانين جماعة فرسانِ الحبّ مكتوبةً بأسلوب هو غاية في الرهافة والأناقة، يقولون فيه للملك إنّ الأميرة التي رآها ترجوه أن يكون فارسَها وإنّها تبعث له بهذه الهديّة. وإزاء هذه الكلمات تجرّأ على التباهي بأنّها هي من يُحبّ.

هتف قائلاً:

- عجباً! هل تكنّ الأميرة فلورين لي مثل هذا العطف المتدفّق وهذا التفاني؟

فقالوا له:

- مولانا، أنت مخطئٌ في الاسم. نَحنُ آتون من قِبَلِ الأميرة المحبوبة ترْويتون.

قال الملك ببرودةٍ وجديّة:

- ترْويتون هي التي تريدُني فارساً لها! أنا آسف لعدَم قدْرتي على تقبّل هذا الشرف. لكنّ ملكاً ليس سيّد نفسه بما يكفي ليلتزم بالعهود التي يريد. أعرف تعهّدات الفرسان وأريد أن أتمّها كلّها، وأفضّل عدمَ تقبلّ الهِبةِ التي تقدّمها لي على أن أكون غير جديرٍ بها.

وفي الحال، وضع القلبَ والسلسلةَ والكتابَ في السلّة نفسها وأرسلها إلى الملكة التي كادت تختنق غضباً هيَ وابنتها إزاء الاحتقار الذي تلقّى به الملك الغريب هذه الحظوة المميّزة.

عندما استطاع الذهابَ إلى الملك والملكة، توجّه إلى جناحهما آملاً أن يجدَ فلورين هناك. بحث عنها في كلّ الاتّجاهات ولكن دون جدوى. وما إن سمعَ أحدهم يدخل الغرفة حتّى التفتَ برأسه فجأةً إلى الباب: كان يبدو قلقاً وحزيناً. شعرت الملكة الماكرة بذلك وبما يجول في نفسه لكنّها تظاهَرَت بعدَم الانتباه. لم تكنْ تحدّثه إلاّ عن حفلاتِ اللّهو وكان هوَ يجيبُها غير مكترث بما تقول. وأخيراً سأل عن مكانِ الأميرة فلورين.

قالت الملكةُ بافتخار:

- مولاي، الملك والدها حَظَرَ عليها الخروج من غرفتها حتّى تتزوّجَ ابنتي.

فأجابها الملك:

- وما هوَ الداعي لإبقاءِ هذه الفتاة الجميلة أسيرة؟

قالت الملكة:

- أجهل السّبب. وحين أعرفه أستطيع أن أعفيَ نفسي من قوله لك.

أحسّ الملك بغضبٍ عارم. نظر إلى تزْويتون شزراً وفكّر في قَرارة نفسه أنّه بسبب ذلك المَسخ الصّغير حُظِرَت عليه لذّة أن يرى الأميرة. ترك الملكة بسرعة: لأنّ حضورها كان يتسبّب له بشقاءٍ كبير.

وعندما عاد إلى غرفته، قال لأمير شابّ رافقهُ وكانَ يحبّه كثيراً بأنّه يعطيه كلّ ما يريدهُ في العالم إذا استطاع أن يكسب إلى جانبه إحدى وصيفات الأميرة لتدبّر له لقاء يكلّمها فيه ولو للحظات. ولم يطل الأمر حتى وجد الأمير سيّداتٍ في القصر ائتمنَهُنَّ على سرّه، وقد أكّدت له واحدة أنّه في المساء نفسه ستنتظره فلورين عند نافذة صغيرةٍ منخفضةٍ تشرف على الحديقة حيث بإمكانها التحدّث إليه، شريطة أن يأخذ جانباً كبيراً منَ الحيطَة والحَذر لئلا يعْلَم أحدٌ بالأمر. «لأنّ الملك والملكة، على حدّ قولها، قاسيان جدّاً وسوف يتسبّبان بموتي إذا اكتشفا أنّني مهّدت الطريق لحبّ فتّان». سُرَّ الأمير لأنّه استطاع الوصول بالمسألة إلى هذا الحدّ، ووعَد الوصيفة بكلّ ما كانت تريده وهُرِعَ ليُعلم الملك بالأمر معلناً وقت الموعد. لكنَّ الوصيفة الشّريرة لم تتوان عن الذّهاب وإخبار الملكة بما جرى والانصياع لأوامرها. وفي الحال فكّرت في أنّه يجدر بها أن ترسل ابنتها لتنتظره أمام النافذة الصغيرة. وعلّمتها ما عليها أن تفعله والتزمَت تزْويتون بما أمْلَته والدتها عليها مع أنّها كانت غبيّة حمقاءَ بطبيعتِها.

كان الظلام دامساً وكان مستحيلاً أن يلاحظ الملك الخدعة التي دُبّرت له. فاقتربَ من النّافذة وبهِ فورةُ فرحٍ لا توصف.

قال لترْويتون كلّ ما كانَ سيقولهُ لفلورين ليقنعها بشغفه حيالها. وترْويتون، اغتنمت المناسبة لتقول له إنّها أتعسُ إنسانٍ على وجه الأرض لأنّ لديها زوجة أب متوحّشةً وأنّها ستتعذّب طالما أنّ ابنتها لمْ تتزوّج. فطمأنها الملكُ قائلاً إنّه إذا اختارتْه زوجاً فسيكونُ سعيداً أن يتقاسمَ معها عرشه وقلبه. وهنا، انتزع خاتمه من إصبعه ووضَعَه في إصبع ترْويتون مضيفاً أنّ ذلك هوَ العُربون الأبديّ عن صدقه وأنّها ما عليها إلاّ أن تختار التوقيت للرحيل على وجه السّرعة. استجابت ترْويتون على أفضل وجه لاستعجاله. لاحَظ الملك أنّها لم تكن تقول شيئاً ذا قيمةٍ وكانَ ذلك سيُتْعِسهُ لولا أنّه كان مقتنعاً أنّ خشيتها من أن تباغتها الملكة قيّدَت من تفكيرِها وشتّتَتْه. لم يتركها إلاّ شرط أن تعود إلى المكان ذاته في السّاعةِ نفسِها من الغد، فوَعدته بذلك بكلّ تأكيد.

بعد أن علمت الملكة بالنجاح الذي تكلّل به ذلك اللّقاء، منّت نفسها بكثير منَ الوعود والآمال. وفي اليوم المتّفق عليه أتى الملك ليأخُذها في كرسيّ طائرةٍ تجرّها ضفادعُ مجنّحة: أحدُ أصدقائه السّحرة قدّم له هذه الهديّة. خرجت ترْويتون خفيةً من بابٍ ضيّق، والملك الذي كان في انتظارها عانقها وعاهَدها مائة مرّة على وفاءٍ أبديّ. لكن، بما أنّه لم يكن في مزاج يؤهّلهُ لتحمّل طيران أطول في كرسيّه الطّائرِ دون أن يتزوّج الأميرَةَ التي يحبّ، سألها أين ترغبُ في أن يُقام العرسَ. فقالت له إنّ عرّابتها جنيّة تدعى سوسيو وهي شهيرةٌ جداً وإنّها ترغبُ في الذّهاب إلى قصرها. لا يعرف الملك الطريق، وما عليهِ إلاّ أن يقولَ لضفادعهِ الضّخمةِ لتقلّها إلى القصر، فهي تعرف خارطة العالم بأسره. وهكذا بوقتٍ قصيرٍ أوصلت الضفادعُ الملكَ وترْويتون عند سوسيو.

كان القصر مشعشعاً بالأضواء وكان باستطاعةِ الملك لدى وصوله أن يكتشف خطأه لو أنّ الأميرةَ لم تتستّر بوشاحها. طلبت رؤية عرّابتها. أخذتها على حدة وروَت لها كيف استطاعت أن تخدع فتّان وتوسّلت إليها أن تعمل على تهدئته.

قالت السّاحرة:

- آه يا ابنتي، لن يكون الأمر سهلاً: إنّه يعشق فلورين وأنا متأكّدة من أنّه سيخيّب آمالنا.

وفي تلك الأثناء، كان الملك ينتظرهما في صالة جدرانها من الألماس الصافي الشفّاف ورأى من خلالها سوسيو وترْويتون تتحدّثان سويّة. خالَ نفسه يحلم.

قال:

- ماذا! هل خُدعت؟ هل جاءت الشياطين بهذه العدوّة في غفلة منّا؟ هل أتت لتعكّر علينا صفْوَ زواجنا؟ عزيزتي فلورين محتجبة عن ناظري! لا بدّ أنّ والدها تعقّبها!

وفكّر بألفِ شيءٍ محزنٍ لكنّ المنظرَ الذي رآه فاق كلّ أحزانه: رآهما تدخلان القاعة وقالت له سوسيو بنبرةٍ حازمة:

- أيّها الملك فتّان، هذه هيِ الأميرة ترْويتون التي عاهدتَها على الزّواج. أنا عرّابتُها وأتمنّى عليكَ أن تتزوّجها في الحال.

هتفَ قائلاً:

- أنا أتزوّجُ هذا المسخ! هل تَظنّينَ أنّني مطيعٌ بطبْعي لأقبل عرضاً كهذا؟ اعلمي أنّني لم أعِدها بشيء، وإذا قالت لكِ العكس، فهيَ...

قاطعته سوسيو:

- لا تكملْ، لا تكُنْ وقِحاً وتقلّل من احترامي.

أجابَ الملك:

- أقبل بأن أحترمَكِ بقدرِ ما توحي جنيّة بالاحترام، شريطةَ أن تعيدي لي أميرتي.

قالت ترْويتون وهي تظهِر له خاتمه:

- ألستُ أميرتَكَ يا مَنْ خُنْتَ الوَعد؟ لَمِن أعطيتَ هذا الخاتمَ عُربوناً على عهدك؟ لَمِن تحدّثت أمام النافذةِ الصغيرةِ إنْ لمْ يكنْ إليّ؟

أردف قائلاً:

- كيف! هل خُيِّبَ ظنّي وخُدِعتُ؟ لا، لا، لن يُغرَّر بي. هيّا، هيّا يا ضفادعي، أريد الرَّحيل في الحال.

قالت سوسيو:

- هوه! ليس بمقدوركَ فعْلُ ذلكَ إذا لمْ أوافق.

لَمَسَتْهُ فعَلِقَت قدَماهُ بالأرْضيّة وكأنّ أحداً سمّرَهُما.

قال الملك:

- حتى لو رجَمْتُموني، حتى لو سلخْتُم جلدي، لن أكونَ إلاّ لفلورين، لقد اتّخذْتُ قراري. بعدَ ذلكَ، تستطيعينَ أنْ تستغْملي قدُراتكِ بقدرِ ما تَشائين.

جاءَتْه سوسيو بالكلام المعسول وبالتّهديد، بالوعود والتّوَسّلات. بكَت ترْويتون وصَرَخت وانتَحبَت وغضبَت وهدأت. ظلّ الملكُ صامتاً ينظر إليهما باحتقارٍ وأيّ احتقار، لم يردّ بشيءٍ على كلّ ثرثرتِهما الفارِغَة.

ومرّ هكذا عشرونَ نهاراً وعشرون ليلةً دون أن تتوقّفا عن الكلام، دون طعام، دونَ نوم، دون جلوس. وفي النهاية، بعد أن هدّ سوسيو التّعبُ وأخذ منها كلّ مأخَذ قالت للملك:

- حسناً، أنت عنيدٌ ولا تريدُ الاستماعَ إلى صوتِ العقلِ. اختَرْ:

إمّا أن تقضي سبع سنواتٍ تكفّر عن ذنبكَ لأنّك أخلفتَ وعدكَ لابنتي بالتبّني وإمّا أنْ تتزوّجها.

الملك الذي احتفظَ بصمته الطّويل هتفَ فجأةً:

- افعلي بي ما تشائينَ شرطَ أن تعتِقيني من هذه الفتاة المكربة.

قالت ترْويتون غاضبة:

- أنت المُكرب! أجدك مليكاً ظريفاً في صُحبة أفرادِ موكبِكَ القذِرين، تأتي إلى بلادي لتهينَني وتنْكثَ بوعدك. لو كانت لديكَ ذرّة شرفٍ واحدة، هل كنتَ تصرّفتَ على هذا النّحو؟

قالَ الملكُ بنَبْرَةٍ ساخرة:

- هي ذي ملامة جميلة حقّاً! انظروا أيّ خطأٍ ارْتكبتُ لأنّني لم أتّخذ مثلَ هذهِ الفتاةِ الجميلةِ زوجَةً لي!

هتفَت سوسيو غاضبة:

- لا، لا، لن تكونَ زوجتك. ليسَ عليكَ إلاّ أن تطيرَ من هذهِ النّافذة، إذا شئتَ، لأنّك ستكونُ عصفوراً أزرق لسبع سنوات.

وفي الحال، تغيّرت هيئةُ الملك. اكتسَت ذراعاه بالرّيش وتشكّلت أجنحته. أصبحت ساقاهُ وقدماهُ سوداء صغيرة. ونبَتَت لهُ أظافرُ معقوفة وصَغُرَ بدَنُهُ واكتَسى كلّه بريشٍ طويلٍ رقيقٍ يُمازِجُهُ لونٌ أزرقُ سماويّ. استدارت عيناهُ وبرَقَت كشموس. لم يعد أنفه إلاّ منقاراً عاجيّاً، ونبَتت له على رأسه قُنبرة بيضاء على شكل تاج؛ أخذ يغنّي ويَسحر بغنائه ويتكلّم أيضاً. صرخ صرخةً أليمةً لرؤيتِه يتحوَل على هذا الشّكلِ وطارَ بسرعةٍ هرباً من قصر سوسيو المشؤوم.

حلّق من غصنٍ إلى غصنٍ وهوَ يرزَحُ تحتَ ثقل كآبته، ولم يختَر إلاّ الأشجارَ المكرّسة للحبّ أو للحُزن، تارةً يغطّ على أشجار الآس وطَوْراً على السّروِ. وأنشَدَ ألحاناً شجيّةً يأسف فيها لحظّه التّعيسِ

ولبؤس فلورين.

كانَ يقول:

- في أيّ مكان خبّأها الأعداء؟ ماذا حلَّ بهذه الضحيّة المسكينة؟ هلْ تترك وحشيّة الملكة لها متنفّساً؟ أينَ أبحث عنها؟ هلْ حُكِمَ عليَّ أنْ أمْضيَ سبعَ سنواتٍ من دونها؟ ربّما في هذه الأثناء سيزوّجونها وسأفقدُ إلى الأبد الأمل الذي يزيّنُ حياتي.

كانت هذه الأفكار المختلفة تضني العصفور الأزرق وتجعله راغباً في الاستسْلام للمَوت.

من جهةٍ أخرى، أرسلت الجنيّةُ سوسيو ترْويتون إلى الملكة التي كانت قلقةً جدّاً على مجريات العرس. لكنّها حينَ رأت ابنتَها روَتْ لها ما جرى، انتابَها غضبٌ مسعورٌ ارْتَدّت عواقبُه على فلورين المسكينة.

قالت:

- يجب أن تدفع الثّمنَ غالِياً لأنّها عَرَفَت كيفَ تدخل إلى قلب الملكَ فتّان.

صعَدَت إلى البرج برفقةِ ترْويتون التي زَيّنَتْها بأفخرِ ما لدَيْها منْ ثياب: كانت تحملُ على رأسِها تاجاً منَ الألماس وتمسِك ثلاث فتيات من بناتِ أثْرى بارونات الدّولة بذيلِ عباءتها الملَكيّة. وقد حملت على إبْهامها خاتَم الملكِ فتّان الذي لا حَظَتْهُ فلورين يومَ تحدّثا سويّة. كانت متفاجئةً جدّاً لرؤيةِ ترْويتون في المظهرِ الباذخ ذاك.

قالت الملكة:

- ها إنّ ابنتي تأتي لتحملَ إليكِ هدايا زواجِها. الملك فتّان تزوّجها ويُحبُّها حتّى الجنون، لم يسبق لعَروسينِ أن كانا بهذا السّرور.

وللحال، بُسِطت أمامَ الأميرة أقمشةٌ من ذَهبٍ وفضّةٍ وأحجارٍ كريمةٍ ودانتيلاّ وأشرطة، في سلالٍ كبيرة مفتولةٍ ومجْدولةٍ بخيوطٍ

من ذهب. وأثناءَ تقديمِهِنَّ لها كلّ هذهِ الأشياء، لم تتوانَ ترْويتون عن استعراض خاتَم الملكِ في إصبعها والتباهي به. وعندئذ بدا جليّاً للأميرَة فلورين أنّ شَقاءها محتوم. استصرختهنّ لكي ينزَعْنَ من أمام عينيها كلّ تلك الهدايا المشؤومة. لن تستطيعَ منذ تلك اللحظة إلاّ أن تلبسَ الأسود، أو بالأحرى إلاّ أن ترغبَ في الموتِ حالاً. فقدَت وعْيَها. والملكةُ المتوحّشةُ، وقد سُرّت لنجاح خدعتِها، لمْ تسمحْ بأنْ يأتِيَ أحدٌ لنجدَتها: تركَتْها وحيدةً في أتعَسِ حَالٍ ممكِنة، وراحت تروي بِمكْرٍ على الملكِ أنَّ ابنَتَهُ تتصرّف بنزق غريب وأنّه يجب الحؤول دون خروجها من البرج. قالَ لها الملك إنّ باستطاعتها التحكّم بهذه المسألةِ على طريقتها وإنّه سيكونُ دوماً راضياً عن الإجراءاتِ التي تتّخذها.

عندما عادَت الأميرة إلى رشدِها وفكّرت في التصرّفات التي تقابَلُ بها وبالمُعاملةِ السيّئةِ التي تتلقّاها من زوجَةِ أبيها، وبالأملِ الذي فقدته إلى الأبدِ بالزّواجِ بالملكِ فتّان، تزايَدَ ألمها فبَكَت طيلةَ اللّيل؛ وفي غمرة اليأس تلك، وقفت أمامَ نافذَتها وعبّرَت عن حسْرَتها برقّة مؤثّرة. وعندما اقتربَ النّهار، أقفَلت النّافذة واستمرّت في البكاء.

في اللّيلة التالية، فتحت النافذة وأطلقتْ تأوّهاتٍ عميقة وانتحبت نَحيباً ذارِفةً سيلاً منَ الدّموع: وحينَ طلَعَ النّهار، اختبأت في غرفتِها. في تلك الأثناء لم يكفّ الملك فتّان، أو بالأحرى العصفور الجميل الأزرق عن التحليقِ حول القصر. شعر أنّ أميرتَه العزيزة كانت مسجونةً هناكَ وأنّ شكواها الحزينة لا تقلّ حزناً عنْ شكواه. اقتربَ منَ النّوافذِ بقدرِ ما يَستطيعُ لينْظُرَ إلى الغرف. لكنّ الخشيَة منْ أن تراهُ ترْويتون وترتابَ في أمرِهِ كانت تمنعهُ من تحقيق رغبتَه.

قال في نفسه:

- حياتي في خطر: إذا عَرَفَت هاتان الشّريرتان مكاني فسوف

ترغبانِ في الانتقام. عليَّ الابتعاد أو أعَرّض نفسي لمخاطر شديدة.

هذه الأسباب أرغمته على اتخاذ الحيطَة والحذَر، ولَم يكنْ يغنّي عادَةً إلاّ ليلاً.

كان هناكَ قبالَة النّافذة حيثُ تتّكئ فلورين سَروة شامخةً باسقة. وكانَ العصفور يأتي ليَجْثمَ على أغصانها. لَمْ يكَد يغطّ حتّى سمعَ صوتاً يشتكي قائلا:

- هل سأتعذّب طويلاً بَعد؟ ألنْ يأتيَ الموتُ لنَجدَتي؟ هؤلاءِ الذين يخشوْنَه يأتيهم باكراً، فيما أنا أرغبُ به ولكنّ الموت الذي لا يرحم يهربُ منّي. آه أيّتها الملكةُ الهمَجيّة ماذا فعلتُ لكِ لكيْ تحْبِسيني في هذا السّجنِ المرعب؟ أليسَ لديكِ أمكنةٌ أخرى لتسْجُنيني فيها؟ ما عليكِ إلاّ أنَ تجعليني شاهِدةً على السّعادة التي تتذوّقها ابنتكِ، وهي غيرُ جديرة بها، مع الملك فتّان!

لم يَسْهُ العصفور الأزرق عن كلمةٍ واحدةٍ من هذِه الشّكوى؛ ومكثَ منذَهِلاً منها وانتظرَ طُلوعَ النّهار بفارِغ الصّبر لكي يرى السيّدة الكئيبة. لكنّها، قبلَ أنْ يطلعَ النهار، أقفلَت النّافذة وانزَوَت في الدّاخل.

لَمْ يتوانَ العصفورُ الفضوليّ عن العودةِ في اللّيلةِ التّالية. كانَ القمر يرسلُ أشعّتهُ السّاطعة: رأى فتاة عند نافذةِ البرجِ تبدأ تلاوةَ حسراتها. كانت تقول:

- أيّها القدر، أنتَ الذي وعدتني بالملك، أنت الذي أعدْتَ لي محبّة والدي، ما الذي فعلْتهُ لكَ لكيِ تغرقني دفعةً واحدة في أشدّ العذاباتِ إيلاماً؟ هل في سنٍّ فتيّة مثل سنّي يُبْتَدأ في تحمّل تقلّباتك؟ عدْ أيّها الهمَجيّ إذا كانَ ممكِناً، أسألك، طلباً واحداً، هوَ أن تُتمّ مصيري المشؤوم.

كان العصفور الأزرق يسمعُ، وكلّما سمع، ازدادت قناعَتهُ بأنّ أميرتَه الحبيبة هيَ مَن كانت تشتكي. قال لها:

- يا فلورين الحبيبة، تحفة أيّامنا، لماذا تريدين أن تنْهي بهذهِ السّرعة أيّامك؟ آلامكِ ليست منْ دونِ دواء.

هتفت:

- مَرحى! من يتكلّم بمثلِ هذه الطّريقة المُواسيَة؟

أرْدَف العصفور:

- ملك تعيشٌ يحبُّكِ ولنْ يحبَّ غيركِ أبداً.

أضافت:

- ملكٌ يحبّني؟ هل هذا أيضاً فخٌّ نَصَبَتْهُ لي عدُوّتي؟ ولكنّها ماذا ستجني حقيقةً؟ إذا كانت تريد اكتشاف مشاعري فأنا مستعدّة لأبوحَ لها بأسرار حبّي.

أجاب:

- لا يا أميرتي، العاشق الذي يتحدّث إليكِ ليسَ قادِراً على خِيانتِكِ.

ولَمْ يُنْهِ كلماتِهِ تلكَ حتّى طارَ نحو النّافذة. خافت فلورين من عصفورٍ عجيب كذلك العصفور، يتكلّم بكلّ ذلك الذّكاء كما لو كانَ إنساناً معَ أنّ صوته عذب كصوتِ البلبل، لكنّ جمالَ ريشهِ وأقوالِه طمأنها.

هتف:

- هلْ تسمَحينَ لي برؤيتكِ مجدّداً يا أميرتي؟ هل أستطيع أن أتذوّق سعادةً مكتملةً كهذِهِ دونَ أن أموت فرحاً؟ لكنْ وا حَسْرَتاه! هذه الفرحة يعكّرها أسْرُكِ والحالُ التي وضعتْني فيها الشّريرةُ سوسيو لسبعِ سنوات.

قالت الأميرة وهيَ تداعبُهُ:

- ومَن أنتَ أيّها العصفور الفتّان؟

أضاف الملك:

- قلتِ اسمي وتتظاهرينَ بعدَمِ التعرَفِ إليّ.

قالت الأميرة:

- ماذا! أعظَمُ ملكٍ في الدّنيا! ماذا! الملك فتّان هوَ العصفور الصّغير الذي أحمله بين يدي؟

أضاف:

- هوَ بعينه يا للأسف يا حلوتي فلورين. وإذا كان هناكَ من شيءٍ يعزّيني فهوَ أنّني فضّلت هذا الشّقاء على أنْ أتخلّى عن العشقِ الذي أحملهُ لكِ.

قالت فلورين:

- تحمله لي! آه! إيّاك أن تسعى إلى خداعي! أعرف، أعرف أنّكَ تزوّجت ترْويتون. رأيت خاتَمكَ في إصبَعِها: رأيتها تلتمعُ بالألماسِ الذي أهديتها إيّاه. أتت لتشمَت بي في سجني الحزين مزَيّنة بتاج نفيس ومتدثّرَةً بمعطفٍ ملكيّ ألبستها إيّاه بيديك فيما أنا أرسف فيَ سلاسلي وأغلالي.

فقاطعها الملك:

- هل رأيتِ ترْويتون بهذهِ الهيئة؟ هلْ تجرّأت هي وأمّها على أن تقولا لكِ إنّ هذه الجواهرَ منّي؟ أيّتها السّماء! هل يعقَل أنْ أسمعَ أكاذيبَ مروّعة كهذهِ وأعجزُ عن الانتقام لنفسي في الحالِ كما أتمنّى؟ اعلمي أنّهما أرادتا خداعي، واستغلّتا اسمَكِ وورّطَتاني في خطفِ تلكَ القبيحَةِ ترْويتون؛ لكن ما إن عرفتُ خطئي، أردْتُ هجْرها، واختَرْتُ أن أكونَ عصفوراً أزرق سبع سنوات متتالية على أن أنكثَ

العهدَ بالوفاء الذي قطَعتُهُ لكِ.

شعرَتْ فلورين بلذّةٍ كبيرةٍ لسماعها ما يقولهُ حبيبها اللّطيف فنسيت مآسي سجنها. ما الذي لم تقُلْه له لكي تواسيَه من آلام مغامرته العاثرةِ ولتقْنِعَه بأنّها لن تبادلهُ بأقلّ ممّا بادَلها به؟ طلع النهار، وكان معظمُ العاملينَ قد استفاقوا ولا يزالُ العصفورُ الأزرقُ والأميرةُ يتبادَلانِ أطرافَ الحديث. افترقا بشقّ النفس بعد أن تواعَدا على أنّهما طيلة اللّيالي سيتحدّثان على النّحو ذاته.

كانت فرحة اللقاءِ ما بعدَها فرْحة وليس هناكَ عبارات تستطيعُ وصفها. وكلٌّ من ناحيَتِهِ شكرَ الحبَ والحظّ. إلاّ أنّ فلورين كانت تقلقُ بخصوص العصفور الأزرق:

كانت تقول:

- مَن سيَضْمَن لهُ الحمايَة منَ الصيّادين أوْ من براثنِ النّسور الحادّةِ أوِ الصّقورِ الجائعةِ التي ستلْتَهِمُهُ كما لو أنّه لم يكنْ ملكاً عظيماً؟ أيّتها السّماء! ماذا سيصيرُ بحالي إذا دفعت الرّيح ريشاتِه الخفيفةَ الرّقيقةَ إلى سجني وحملت لي نبأ المصيبةِ التي أخشاها؟

وعلى هذا جافى النّوم الأميرةَ المسكينةَ فالحبّ يجعل الأوهامُ تبدو وكأنّها حقائق. وما بدا مستَحيلاً في وقتٍ سابقٍ يُضْحي يسيراً في زمَنِ الحبّ. أمضت النّهار تبكي حتّى حانَت ساعَةَ المكوثِ أمام النافذة.

العصفور السّاحر، المختبئ في جوفِ شجرةٍ شغلَ كلّ نهاره بالتّفكير في أميرته الجميلة.

كانَ يقول:

- ما أسعَدَني لأنّني وجدتها! ما أعْذَبها! كمْ أشعرُ بعمقِ المحبّةِ التي تكنّها لي!

كان ذلك العاشق الحنون يعدّ دقيقة بدقيقة نهاية العقوبةِ التي

تمنَعهُ منَ الاقترانِ بمعشوقته، بشغف ولهفة لا مثيلِ لهما. وبما أنّه أراد أن يحيطَ فلورين بكلّ مظاهر الحنوّ والاهتمام التي كان قادراً عليها طارَ حتّى المدينة الرئيسيّة في مملكته؛ ذهبَ إلى قصره ودخلَ إلى ديوانهِ عبرَ نافذةٍ مكسورةٍ وأخذَ أقراطاً من الماسِ لم يكن لجمالها واكتمالها مثيل في العالم. وحملها مساءً إلى فلورين وتوسّل إليها أن ترتديها.

قالت له:

- سأقبل، إذا جئتَ لرؤيتي نهاراً. لكن بما أنّني لا أتحدّث إليك إلاّ ليلاً فلن أضَعها.

وعَدها العصفور بأنّه سيحسنُ تدبير وقته، وأنّه سيأتي إلى البرج ساعة تشاء: وفي الحال وضعت الأقراط ومضت اللّيلة في الحديث كاللّيلة السّابقة.

في اليوم التالي، عاد العصفور الأزرق إلى مملكتهِ؛ ذهب إلى قصره ودخل إلى ديوانه عبر الزّجاج المكسور وجلبَ منه أنْفَسَ الأساور التي شوهدَت حتّى ذلك اليوم: كانت منحوتةً منْ زمرّدةٍ واحدةٍ ومجوّفةً في الوسطِ لكي تدخلَ فيها اليد والذّراع.

قالت الأميرة:

- هل تظنُّ أنّ مشاعري حيالك تحتاج لأن تزيدها الهدايا؟ آه! أنت لا تعرفني جيّداً!

أجاب:

- لا يا سيّدتي، لا أعتقد أنّ التّفاهات التي أهْديكِ إيّاها ضروريّة لكي تحتفظي بحنانكِ لي. لكنّ حناني سيُخدَشُ إذا أهملتُ مناسبةً ولمْ أظْهر لكِ اهتمامي. وحينَ أغيبُ عنْ نظرِكِ فإنّ هذه الجواهرَ البسيطة تذكّرُكِ بي.

قالت له فلورين بهذا الصّدَدِ ألفَ شيءٍ لطيفٍ وأجابها بألفِ شيءٍ

لا يقلّ لطفاً.

في اللّيلة التالية، لم يفت العصفور العاشق أن يجلب لجميلته ساعةً ذاتَ حجمٍ معقولٍ منحوتةً في لؤلؤةٍ ومشغولة بإتقان يفوق الدّرر فرادة.

قالت بودّ:

- غير مُجدٍ أن أتمتّعَ بساعَة؛ عندما تكونُ بعيداً عنّي تبدو لي السّاعات لا متناهيَة. وعندما تكونُ برِفقَتي، تمرّ وكأنّها في حلم: وهكذا لا أستطيع أن أُقيسها بشكلٍ صائب.

هتف العصفور الأزرق:

- يا للأسف يا أميرتي، لديَّ الشعور نفسه، لا بل وأكثر، صدّقيني.

أجابته:

- بعدَ كلّ الذي تقاسيه من أجلِ أن تحتفظَ لي بحبّك، أعتقدُ أنّك حملت الصّداقة والاحترام إلى أرفع مَقام.

ما إن يبزغُ النهار حتّى يطير العَصفور متغلغلاً في شجرته حيث يقتاتُ منَ الثّمار. أحياناً كانَ يغنّي ألحاناً جميلة تسحرُ العابرين. كانوا يسمعونَها ولا يَرونَ أحداً يغنّيها، وهكذا جرى الاعتقاد أنّها أرواح تغنّي. وبات هذا الاعتقادُ شائعاً بحيث إنّ أحداً لم يعدْ يجرؤ على الدّخول إلى الغابة. وأخذ الناس يروونَ ألف مغامرةٍ خرافيّة جرت هناك. وباتَ الرعب المعمّم يشكّل الأمن الخاص بالعصفور الأزرق.

لا يمضي نهار إلاّ ويقدّم فيه هديّة لفلورين: تارةً عقداً منَ اللآلئ أو خواتم من أكثر الخواتم بريقاً وإتقاناً، ومشابكَ من ألماس ومخارز وباقاتٍ منَ الأحجار الكريمة تُحاكي لونَ الأزهار وكتُباً مسلّيَةً وميداليّات، وأخيراً حظِيَتِ الأميرةُ بكوْمَةٍ منَ النّفائسِ العجيبة. لم تكن تتزيّن بجواهرها إلاّ ليلاً لكي تُرْضيَ الملك، وفي النّهار، بما أنّه لم

يكن لديها مكانٌ لتضعها فقد حرصت على إخفائها في حصيرة القش.

مضت سنتانِ على هذا النّحوِ دونَ أنْ تتذَمّرَ فلورين مرّةً واحدة من أسْرِها. وكيفَ لها أنْ تتذمّر؟ كانت تُسَرُّ بالتحدّث طيلة اللّيل إلى مَن تحبّ ولمْ يسبق لعاشقّين أن قالا مثل هذه الأشياءِ الجميلةِ. ومعَ أنّها لم ترَ أحداً، ومع أنّ العصفورَ يمضي النّهار في جوفِ الشّجرةِ، كانت لديهما آلاف الأشياء الجديدةِ لكي يرْوِيَها أحدهما للآخر، أشياءَ لا تنضب، كانَ قلبهما وذهنهما يبتدعان الأحاديث بوفرة.

ومع ذلك فإنّ الملكة الماكرة التي كانت تحتجزُها بهذه الوحشيّة في السجن، تقوم بجهودٍ غير مُجْدِيَة لتزويجِ ترْويتون. أرسلت موفَدين لعرضها على جميع الأمراء الذين كانت تعرف أسماءهم: ما إن يصلون حتَى يُصرَفون في الحال.

وكانوا يقولون لهم:

- لو كان الأمر يتعلّق بالأميرة فلورين لكنّا استقبلناكم بسرور، ولكن فيما يخصّ ترْويتون فبإمكانها أن تبقى عذراء إلى أجل غير مسمّى.

لدى سماعهما هذه الأخبار استشاطت هي ووالدتها غضباً إزاءَ الأميرةِ البريئةِ التي تضطهدانها. كانتا تقولان:

- ماذا! بالرغم من أسرها تعترض هذه المغرورة طريقنا؟ كيف السّبيل إلى الصّفح عن الحِيَل الخبيثةِ التي تدبّرها لنا. لا بدّ أنّها تبعثُ برسائل خفيّة إلى البلدان الأجنبيّة. أقلّ ما يُقال إنّها مجرمة بحقّ المملكة. لنعاملها على هذا الأساس ونُفتّش عن كلّ الوسائل المُمْكنة لحمْلها على الاعترافِ بذنبها.

أنهيَتا مشاوراتهما في وقتٍ متأخّر. كانت السّاعة تتجاوزُ منتصف اللّيل حين صمّمتا على الصعود إلى البرج لاستجوابها. كانت برفقة

العصفور الأزرق عند النافذة متزيّنةً بجواهِرِها ومسرّحَةً شعرَها الجميل بأناقةٍ لا تناسب الأشخاص الأسيانين. غرفتها وسريرها كانا مفترشين بالأزهار وبعض كُرات التّبخير من إسبانيا التي أحرقتها للتوّ تنشر رائحةً عذبَة فوّاحةً. أصغَت الملكةُ عند الباب. خالَت أنَها تسمع لحناً من دَورين مفعم بالكلمات الرقيقة. كانت فلورين تملك صوتاً سماويّاً:

كمْ محزنٌ مصيرنا
وكم يُشقينا العذاب
لأنّنا يحبّ واحدُنا الآخرَ حبّاً ثابتاً
وعبثاً يحملونَ علينا الضّغينة
وبالرّغم من أعدائنا الذين لا يهادنون
فإنّ قلبَينا متّحدان أبداً.

أعقبت بعض التنهّداتِ ذلك الاحتفال الموسيقيّ الصّغير.
- آه يا ترْويتون لقد خُدِعْنا!
هتفت الملكة وهي تفتح البابَ عنْوة مقتحمةً الغرفة.
ماذا صار بحال فلورين لدى رؤيتها ذلك المشهد؟ سارعت إلى إغلاق النافذة قليلاً لكي تفسحَ المجال للعصفور الملكيّ بالطيران، إذ كانت مهمومة بنجاته أكثر ممّا بنجاتها هي. لكنّه شعر أنّه عاجز عن الابتعاد: كانت عيناه الثّاقبتان تكشفانِ له الخطر المحدق بالأميرة. رأى الملكة وترْويتون. أيّ حزنٍ رهيب انتابه لأنّه لا يستطيع الدفاع عن عشيقته! اقتربتا منها وكأنّهما اثنتان من جنيّات الغضب تريدان التهامَها.

هتفت الملكة:

- نعرف المؤامرات التي تحيكينها ضدّ المملكة. لا تعتقدي أنّ مقامكِ سينقذك من العقاب الذي تستحقّينه!

أجابتها الأميرة:

- ومع من أحيك المؤامرات يا سيّدة؟ ألست سجّانتي منذ سنتين؟ هل رأيت أشخاصاً غير هؤلاء الذين أوفدتهم إليّ؟

وفيما هي تتكلّم كانت الملكة وابنتها تُمْعِنانِ النّظرَ إليْها بِدَهشةٍ كليّة منبهرتين بجَمالها الرّائع وزينَتها المُدْهِشَة.

قالت الملكَة:

- ومن أينَ لكِ يا آنسة هذه الأحجار الأشدّ سطوعاً منَ الشّمس؟ هل تريدينَ أنْ تُقْنِعينا أنّ هُناك مَناجم في هذا البرج؟

أجابت فلورين:

- لقد وجدتها؛ هذا كلّ ما في الأمر.

نظرَت إليها الملكة بانتباهٍ لكي تخترقَ سرّ قلبها وما يعتمِلُ داخلَه.

قالت:

- لا يمكنكِ أن تخدعينا. هل تظنّينَ أنّ بإمكانكِ إقناعَنا بهذه السهولة. ولكن أيّتها الأميرة، نعرفُ ماذا تفعَلينَ منذُ الصّباح حتّى المساء. لقد أُعْطيتِ كلّ هذه الجواهر بهدفٍ واحدٍ هو إرغامُكِ على بيعِ مملكةِ أبيكِ.

فأجابتها الأميرةُ بابتِسامةٍ هازِئة:

- أنا فعلاً في حالِ تسمحُ لي بتسليم المملكة! أميرةٌ بائسةُ الحظّ أسيرة الأغلالِ منذُ فترةٍ طويلةٍ، وتملك كلّ قدرة لتدبيرِ مؤامرةٍ منْ هذا النّوع!

أردفَت الملكة:

- ولِمَن إذاً سرَّحْتِ شعركِ كفتاةٍ صغيرة غنجةٍ. غرفتكِ مفعمةٌ بالعطور ومظهركِ بديعٌ حتّى إنّكِ لو كنتِ في البلاطِ لما تزيّنتِ على هذا النّحو؟

قالت الأميرة:

- لديّ الكثير من الوقت. ليس أمراً عجيباً أن أخصِّصَ بعضَ السّويعاتِ للاعتناءِ بملابسي. فكلّ الوقتِ الباقي أمْضيهِ في البُكاءِ على مصائبي التي لا يمكنُ لأحدٍ أن يحسدني عليها.

قالت الملكة:

- لنرَ، لنرَ ما إذا كانت هذه الفتاةُ قد وقّعت معاهدةً معَ الأعداء. راحَت تفتّش بنفسها وفي كلّ مكان وأمسكت فِراش القش وأفرَغَتْهُ ووَجَدَتْ فيهِ كميّةً هائلةً منَ الألماسِ واللآلئِ والياقوتِ والزمرّدِ والزبرجد وحارت في مصدرها. صمّمت على أن تضعَ في مكانٍ ما أوراقاً مشبوهة لتورِّطَ الأميرةَ واستغلّت سهوها القليلِ لتخبّئ بعضها في المدخنةِ. ولكنْ لحسنِ الحظّ كانَ العصفورُ الأزرقُ جاثماً على أحد الأغصان ويرى أفضَل منَ الوشَق ويسمَعُ كلّ شيء، هتفَ:

- حاذري يا فلورين إنّ عدوّتكِ تريد تخوينكِ!

أثارَ ذلك الصّوت غيرُ المتوقّعِ رُعْباً كبيراً في نفس الملكة فلمْ تجرؤ على فعلِ ما خطّطت لأجله.

قالتِ الأميرة:

- أرأيتِ يا سيّدة، إنّ الأرواحَ التي تطيرُ في الهواءِ تؤازرُني.

قالت الملكة بسخطٍ شديد:

- أعتقدُ أنّ الشياطين هي التي تساندك؛ ولكن بالرغمِ منها

سيعرفُ أبوكِ كيفَ ينتقم لنفسه.

هتفَت فلورين:

- إنْ شاءت السماءُ أنْ يُنزِلَ بي والدي سخطَه، فأنا أخضعُ لإرادَتها! لكنِ أخشى ما أخشاه هو غضبكِ أنت يا سيّدة.

تركَتْها المَلِكَة مضطَرِبَةً لكلّ ما رأت وسمِعت. أقامَت مجلِساً لِتَرى ما يتوجّبُ عليها فعلُهُ لمواجهةِ الأميرة. قيلَ لها إنّه إذا كانت هناك جنيّة أو ساحر يشفعان لها فإنّ السرّ الحقيقيّ لإغاظتِهما هوَ التسبّب لها بآلام جديدة، وإنّه من الأفضلِ السّعي للكشفِ عن المؤامَرَةِ التي تدبّرها. وافقت الملكةُ على هذه الفكرةِ وأرسلتْ إلى غرفةِ الأميرةِ فتاةً شابّة تتظاهَر بالبراءةِ لتنامَ قربَها. تلقّت الأمرَ بأن تقولَ لها إنّها وُضِعَت قربَها لخدْمَتِها. لكن ما الهدَفُ من تدبيرِ خدعةٍ فاضحة كهذه والإتيان بهذه الجاسوسة لتزيد المصائب مصيبةً أخرى؟

قالت في نفسها:

- ماذا! ألن أعودَ للتحدّث معَ هذا العصفور الذي هوَ أعزّ من نفسي؟ كانَ يساعدُني على تحمّل مآسيّ، وكنت أخفّف من مآسيه. كانَ حناننا يكفينا. ماذا سيفعل؟ وماذا سأفعل أنا نفسي.

كانت تفكّر في هذه الأمور والدّموع تنهالُ من مآقيها سَيلاً عرماً. لم تعدْ تجرؤ على الوقوف عندَ النافذة الصّغيرةِ مع أنّها تسمعه يحَلّقُ من حولها. كانت تتحرّق تحرُّقاً مُميتاً لكي تفتح له النافذة لكنّها كانت تخشى أن تعرّضَ حياةَ ذلك العشيق الغالي للخطر. أمضت شهراً كاملاً دونَ أن تظهر على النافذة. شعر العصفور الأزرق باليأس. وكم من شكوى خالجَتْهُ! كيف السّبيلُ للعيش دونَ أميرته؟ لم يسبق له أن شعر بآلام الغياب ولا بآلام تحويله إلى عصفور على هذا النّحو.

كانَ يبحث عبثاً عن مداواةِ الغيابِ والامتِساخ[1]. وبعدَ أن قدحَ ذهنَهُ في التّفتيش عن حلّ، لَمْ يجدْ شيئاً يتعزّى به.

وأخيراً بعد مرور شهر من السّهر ليل نهار، أحسّت الجاسوسة، الموكَل إليها بمراقبة الأميرة، بالنّعاس يهدّها تماماً فاسترسلت في نومٍ عميق. لاحَظت فلورين ذلكَ ففتَحَت النافذةَ وقالت:

أيّها العصفورُ الأزرق، يا لون الوقت
طِرْ إليّ حالاً.

كانت هذه كلماتها بالذات ولَمْ نرد أن نغيّر منها شيئاً. سمعها العصفور على الفور وطار إلى النّافذةِ في الحال. ما أجملَ فرحةَ التّلاقي! كم منَ الأشياءِ لديهما ليقولاها! وتجدّدت وعودُ الصّداقة والإخلاص ألف مرةٍ ومرّة. لم تستطع الأميرة الامتناعَ عن ذرفِ الدّموع ما جعَلَ عشيقَها يتحنّن عليها كثيراً ويواسيها بقدرِ ما يستطيع. وأخيراً وافَت ساعة الافتراق من دون أن تفيق السجّانة من نوْمِها. فتوادعا وداعاً يثيرُ في النّفس انفعالاً مؤثّرا. وفي اليوم التالي غفت الجاسوسةُ أيضاً فأسرعت الأميرة في الوقوفِ أمام النّافذة وقالت كما في المرّة الأولى:

أيّها العصفور الأزرق، يا لونَ الوقت
طِرْ إليّ حالاً.

وعلى الفورِ، أتى العصفور ومضت اللّيلةُ كسابقتها دونَ ضجّةٍ

---

(1) نكتب «المسخ» و«الامتِساخ» عندما يُمسَخ إنسان إلى كيان حيوانيّ قبيح، ونكتب «تحوّل» و«تحويل» عندما ينقلبُ المرء طائراً أو شيئاً آخر جميلاً.

ولا صوت، وكانَ عاشقانا مسحورين. وكانَ يطيبُ لهما القول إنّ الرّقيبَة مُسْتَمتِعة جِدّاً بالنّوم وإنّها ستفعلُ كذلكَ كلّ ليلة.

وبالفعل، مرّت اللّيلةُ الثالثة بِسعادة تامّة، ولكن في اللّيلةِ التّالية، سمعت النائمةُ ضجّة فأصغت دونَ أن تتظاهَرَ بشيء، ثمّ نظرَت بإمعانٍ كبيرٍ ورأت في ضوءِ القمرِ أجملَ عصفورٍ في العالم يتحدّث إلى الأميرة، ويداعبها بميسمه وينقرها بعذوبة؛ وأخيراً سمعت أشياء عديدة من أحاديثهما ومكثت مندهشةً جدّاً لأنّ العصفورَ كانَ يتكلّم كعاشقٍ وكانت الجميلةُ فلورين تبادله بكلام يفيض شعوراً ورقّة.

طلعَ النّهار وتودّعا. وكما لو أنّهما استشعرا بالمصيبة الوشيكة، افترقا بألمٍ شديد. ارتمت الأميرَة على سريرها والدّموع تغمرها وعادَ الأمير إلىَ جوف شجرتِهِ. وهروَلَت السجّانة إلى الملكة. وأعلمَتْها بكلِّ ما رأته وسمِعَتْه. أرسلت الملكة في طلبِ ترْويتون ووصيفاتِها. وتشاوَرْنَ كثيراً سويّة ووصَلْنَ إلى خلاصةَ مفادُها أنّ العصفور الأزرق كان هو الملكَ فتّان.

هتفت الملكة:

- يا للعار! يا للعار يا ترْويتون! تلكَ الأميرة الوقِحَة التي ظننتُها أسيانة، تتمتّع قدر ما يحلو لها بالأحاديثِ الشيّقة مع ملكنا الجاحد! آه! سأنتقمُ منها بطريقةٍ داميَةٍ وعنيفةٍ وسيَذيعُ الخبر في كلّ مكان.

توسّلت إليها ترْويتون بعدم تضييع دقيقةٍ واحدة. وبما أنّها كانت تظنّ أنّها معنيّة بالموضوع أكثَرَ منَ الملكة، كانت تتحرّق شوقاً ولذّة عندما تفكّر في كلّ ما ستفعلانه للتنكيل بالعاشقِ وعشيقته.

أرسلتِ الملكةُ الجاسوسةَ من جديد إلى البرج وأمرَتها بعدم إظهار أيّ ريبةٍ أو فضولٍ والظهور بمظهر النّائمة كالعادة. خلدَت للنوم في ساعةٍ مبْكِرة وأخذت تشخرُ بصوتٍ قويّ، والأميرةُ المسكينة الخَائبَةُ

فتَحَت النّافِذَة وَهَتفت:

أيّها العصفور الأزرق يا لونَ الوقت،
طِرْ إليَّ حالاً.

لكنّها نادَت طيلة اللّيل دونَ جدوى. لم يظهر العصفور. لأنّ الملكةَ الشرّيرةَ طوّقت السّروة بالسّيوف والسكاكين ومَواسي الحلاقة والخناجر، وعندما جاء العصفور على وجه السّرعة علق بها فقطّعت هذه الآلات القاتلة قائمتيه، وسقط على آلات أخرى قطّعت له جناحيه. وأخيراً، مجرّحاً ومَطعوناً من كلّ جهة، فرّ بشقّ النفس حتّى شجرته تاركاً وراءهُ أثراً طويلاً منَ الدم.

ليتَكِ كنتِ هناك أيّتُها الأميرةَ الجميلة لتواسي ذلك العصفور الملكيّ! لكنّها كانت ستموت لو رأته في مثلِ هذه الحالِ المُزرية. خمدت في داخله الرغبة في المقاومَة للبقاء على قيدِ الحياة لاقتناعه أنّ فلورين هي التي دبّرت له هذه الحيلةَ الخبيثة.

كان يقول بألم:

- آه أيّتها الهمَجيّة هل هكذا تبادلينَ العشقَ الأنقى والأرقّ الذي تسنّى لعاشق أنْ يظهِرَه حتّى الآن؟ إذا كنت تريدين موتي فلمَ لم تطلبي ذلك منّي بنفسك؟ كان الموتُ سيطيبُ بين يديك! كنت آتي للقائك بكثيرٍ منَ الحبّ والثّقة! كنت أتعذّب لأجلك وأتعذّب دون أن أشتكي! ماذا! هل ضحّيت بي لأعتى النساء! لعدوّتنا المشتركة! هل صنعتِ سلامك معها على حسابي. هذه أنت، فلورين، أنت من تطعنيني! استعرت يد تزويتون وغرزت الخنجر عميقاً في صدري!

كانت هذه الأفكار المشؤومة تُضنيهِ بشدّة وتجعله يشتهي الموت.

لكنّ صديقه السّاحر الذي كانَ قد أقلّه على متن المركبة التي تجرّها الضّفادع المجنّحة إلى قصر السّاحرة سوسيو ثمّ عاد ليصطحبه دون أن يجد له أثراً، انتابَه قلق شديد عليه فجالَ الأرض كلّها ثماني مرّات بحثاً عنه ولكن دون جدوى. كان يقوم بجولته التاسعة عندما مرّ بالغابة حيث علق العصفور، ووفقاً للقواعد التي كانَ يتّبعها، نفخَ في بوقَه طويلاً ثمّ صاح بكلّ ما أوتيَ من قوّة خمسَ مرّات:

- أيّها الملك فتّان، أيّها الملك فتّان، أين أنت؟

تعرّف الملك إلى صوت صديقه المفضّل وقال:

- اقتربْ من هذه الشّجرة وانظرْ إلى الملك التعيس الذي كنت تحبّه غارقاً في دمه.

دُهشَ السّاحر تماماً ونظر إلى كلّ الجهات دون أن يرى شيئاً.

قال الملك بصوت واهن سقيم:

- أنا عصفور أزرق.

وعلى هذه الكلمات، وجده السّاحر دون مشقّة في عشّه الصّغير. إنّ أحداً سواه كان سيتعجّب أكثر منه بكثير، لكنّه لم يكنْ يجهل أيّة حيلة من فنّ السّحر والعرافة: كفاهُ أن يتلفّظ كلمات قليلة لكي يوقف الدّم الذي كان لا يزال ينزف. ثمّ قطف بعض الأعشاب من الغابة ورقى عليها كلمتين مبهمتينِ من الطّلاسم، فشفيَ الملك تماماً وكأنّه لم يُجرَح قطّ.

ثمّ توسّل إليه أن يخبرَه بأيّة طريقةٍ أصبحَ عصفوراً ومَن تسبّب له بجروحه القاتِلة تلك. روى الملك غليل فضوله وقال له إنّ فلورين هي التي فضحَت سرَّ زياراته الغراميّة لها، وأنّها لكي تقيم السّلام مع الملكة وافقت على تجهيز السّروة بالخناجر والمواسي التي جرحته. صرخ يحتجّ ألف مرّة على غدر هذه الأميرة وقال إنّه كانَ سعيداً لوْ

ماتَ قبلَ أن يعرفَ خبث قلبها. والسّاحر أيضاً صبّ جامَ غضبه عليها وعلى كلّ النساء، ونصح الملك بنسيانها.

قال له:

- أيّ شقاء سيكونُ من نصيبكَ لو تسنّى لك أن تحبّ هذه الجاحدة لوقتٍ أطول؟ بعدما فعلته معك يجبُ أن تحترس من كلّ شيء.

لم يستطعِ العصفورُ الأزرقُ أن يوافقه الرأي، كان لا يزال يحبّ فلورين حبّاً شديداً. والسّاحر العارف بمشاعره رغم الجهد الذي يبذله الأمير لإخفائها، قال له بطريقة طريفة:

حينَ ترزح تحت ثقْلِ شقاء لا يرْحم
عبثاً يُرْكَنُ إلى الكلامِ والتّعقّل
حينئذٍ لا تَسمع إلاّ صَوتَ ألمك
وتصمّ أذنيكَ عنْ نُصحِ كلّ صديق.

دعِ الزّمن يأخذُ مجراه
لكَلّ شيءٍ أوانهُ
وإذ لم تحنِ السّاعة بعد
يضيعُ عذابك سدى.

وافقَ العصفورُ الملكيّ على قولِ صديقه وتوسّلَ إليه أن يصطحبه إلى القصر ويضعَهُ في قفصٍ في مأمَنٍ من مخالبِ الهرّ وكلّ سلاح قاتل.

قالَ لهُ السّاحر:

- ولكن هل ستبقى أيضاً خمسَ سنواتٍ في مثلِ هذه الحالِ المزْرِية

والتي قلّما تليقُ بمقامك والمهامّ المترتّبة عليك؟ ثمّ إنّ لديك أعداءً يقولونَ إنّك مُتّ؛ يريدون اجتياحَ مملكتك: وأخشى فعلاً أن تكونَ قد خسرتَها قبلَ استعادتك شكلك الحقيقيّ.

أجاب:

– ألا أستطيع الذّهابَ إلى قصري وأمارس الحكم كما كنت أفعل عادة؟

هتف صديقه:

– آه، إنّ المسألة صعْبة! من أطاع إنساناً لم يستطع أنْ يطيعَ ببّغاءً، ومَن خشيَكَ ملِكاً مُحاطاً بمظاهِرِ العظمةِ والأبّهة سوفَ ينتِف ريشك كلّه حينَ يراكَ عصفوراً صغيراً.

هتفَ الملك:

– آه يا ضعفاً بشريّاً، آه يا ظواهرُ برّاقة! مع أنّك لا تعنينَ شيئاً للاستحقاق والفضيلة، فأنتِ لا تتوانينَ عن امتلاكِ جوانبَ مخيّبة لا يمكن إنكارها! ثمّ أردفَ: «حسناً، لنَكن حكماء، لنحتقر كلّ ما لا يمكننا الحصولُ عليه: عندئذٍ لن يكونَ خيارنا الأسوأ».

قال السّاحر:

– لا أستسلمُ بسهولة، آمل العثور على بعضِ الوسائلِ الناجعة.

فلورين، فلورين الحزينة، اليائسة من عدم رؤيةِ الملك كانت تمضي النهارات واللّيالي عند النافذة مكرّرةً دون توقّف:

أيّها العصفور الأزرقُ، لون الوقت
طِرْ إليّ حالاً.

لم يعدْ حضور جاسوستها يمنعها من مناداته. وصلَ بها اليأس

مبْلَغاً لم تعد معه تُراعي شيئاً.

هتفت:

- ماذا صارَ بحالكَ أيّها الملك فتّان؟ هل جعلك أعداؤنا المشتركون تكابدُ التّبِعات التي لا تَرحم لِبغضِهم المسعور؟ هل استسلمتَ لضراوَةِ كيدِهم؟ يا حسرة لا أكاد أحملها! يا أسفي عليك! أتراك متّ؟ ألم يعد بإمكاني رؤيتك أو إنّك سئمتَ من بَليّتي وتركتني لَمصيري القاسي؟

كم منَ الدّموع، كم من الشّهقاتِ أعقبت هذه المُناجَيات الرّقيقة! كم أصبحت الساعات بطيئةٍ بفعل غيابِ عشيقٍ لطيفٍ عزيز! انهارت الأميرة ومَرِضت وهزلت وتبدّلت وعجزت عن الوقوف على قدمَيها. باتت مقتنعة أنّ أسوأ الأمورِ حصلت للملك.

وكان الظّفر من نصيب الملكة وابنتها ترْويتون. أشعرهما الانتقام بلذّة تفوق الشّقاء الذي تسبّبت الإهانة لهما به. والحقّ يقال، عن أيّة إهانة نتحدّث؟ ألأنّ الملك فتّان لم يقترن بتلك الفتاة التي تشبه المسخ ويملك ألف سببٍ لاحتقارها؟ بَيْدَ أنّ والدَ فلورين، وقد تقدّمت به السنّ، مرِضَ ومات. وعندئذٍ دارَت الدّوائر على الملكة الشّرّيرة وابنتها. باتَ الجميع ينظرُ إليهما بوصفهما محظّيتي الملك اللّتَينِ أفرَطتا في استغلالِ هذه الحظوة، عندئذ هُرِعَ الشّعبُ المتمرّد إلى القصر يطالب بالأميرةِ فلورين منادياً بها كملكة. أرادت الملكة الغاضبة أن تعالج المسألة بتعالٍ؛ ظهرت على إحدى الشّرفات مهدّدةً المتمرّدين. وما لبث أن عمّ العصيانُ البلاد. واخترقَ المهاجمونَ أبوابَ جناحِها ونَهبوهُ وصرعوها بضرباتِ الحجارة. فرّت ترْويتون عند عرّابتها الساحرة سوسيو بعد أن تعرّضت لمخاطرَ لا تقِلّ أهميّة عن تلك التي واجهت والدتها.

اجتمع كبار المملكة على وجه السّرعة وصعدوا إلى البرج حيث كانت الأميرة سقيمةً جدّاً: كانت تجهلُ وفاة والدها وعذاب عدوّتيها. عندما سمعت كلّ ذلك الصّخب، أيْقَنَت أنّهم لم يأتوا إلاّ لاقتيادِها إلى الموت. لم يُخِفْها الأمرُ فالحياةُ باتت لعنةً منذ أن فقدت العصفورَ الأزرَق. لكنّ رَعاياها ارتموا عندَ قدمَيْها وأعْلموها أنّ طالِعَها تبدّل. لم تنفعل لِما حصل. حَملوها إلى القصرِ وتوّجوها ملكة.

وكان الاهتمامُ اللامُتناهي بصحّتِها أضف إليه رغبتها في الذّهابِ للبحثِ عن العصفور الأزرق قد ساهَما كثيراً في استعادتها عافيتها ونشاطها وأمدّاها عاجلاً بالقوّة، فعَيّنت مجلساً يُديرُ شؤونَ المملكة في غيابها ثمّ أخذت معها ألف ألف حجرٍ كريمٍ ورحلت ذاتَ ليلةٍ وحيدةً دونَ أن يعلمَ أحدٌ وجهتها.

لم يكن السَاحر الذي يهتمّ بشؤون الملك فتّان يمتلك المقدرة الكافيَة ليزيل سِحر سوسيو، لذا ارتأى أن يذهبَ للقائها ويقترحَ عليها تسويَة ما لقاءَ أنْ تُعيدَ إلى الملكِ هيئته الطّبيعيّة. حملته الضفادع إلى الجنيّة التي كانت تتحدّث في تلك اللحظة إلى ترْويتون. كان السّاحر والجنيّة، بحكم عملهما المتشابه، يعرفُ كلٌّ منهما الآخر منذ خمسمائة أو ستّمائة سنة وخلالها توافقا وتخاصما ألف مرّة. استقبلتْه سوسيو بحفاوَة وسرور. قالت له:

- ماذا يريد منّي شريكي؟ (هكذا كان يُلقّب بعضهم بعضاً) هل ثمّة خدمة يطلبها مني؟

قال السّاحر:

- نعم يا صديقتي. أنت وحدك بإمكانك تنفيذ طلبي. الأمر يتعلّق بأفضل أصدقائي، بملكٍ جعلتِه منكودَ الحظّ.

هتفت سوسيو:

- ها!ها! فهمتُ قصدكَ يا شريكي. لقد أثارَ غضبي. لكن ليسَ مِن عفوٍ يُرجى له إذا لم يتزوّج ابنتي الرّوحيّة. انْظُرْ إليها كم هي جميلة وظريفةً: ليشاورْ نفسه.

ارتأى السّاحر أن يبقى صامتاً. وجدها قبيحَة. ومع ذلك لم يكن بإمكانه عقد النيّة على الرّحيل من دونِ أن يحسم الأمر معها لأنّ الملك تعرّض لمخاطر جمّة منذ أن وُضع في قفص. فالمسمار الذي كان القفص معلّقاً إليه انقطع فسقط القفص، وتعذّب العصفورُ الملكيُّ المنتوفُ الرّيشِ كثيراً من جرّاء تلك السّقطة. ثمّ إنّ هُرَيراً، القطّ الصّغير الذي كان في الغرفة عند وقوع الحادث، خدشَه بمخلبِهِ في عينه فصار أعوَر. وفي إحدى المرّات، أُغفِلَ عن تقديم الماء له، وكان على وشكِ أن يصاب بوَرَم في لسانِهِ لولا أن أنْجِدَ ببعضِ قطَراتِ ماء. وكانَ هناكَ قردٌ خبيث فَرَّ من سجنهِ وأمسَك بريش العصفور عبر قضبان القفص وأشفق عليه ليس بأقلّ ممّا يفعل حيال أبي زُرَيق أو شحرور. لكنّ الأسوأ من ذلك كلّه هو أنّه كان على وشك أن يفقدَ مملكته؛ كان ورثته يحيكونَ حيَلاً جديدة ليثبّتوا أنّه توفّي. وأخيراً، عقد السّاحر اتّفاقاً مع صاحبتهِ سوسيو بأن تصطحب ترْويتون إلى قصر الملك فتّان وتبقى هناك بضعة أشهر يتّخذ الملك خلالها قراره بالزّواج بها وعندئذٍ ستعيدُ له هيئتَه السّابقة، وإذا امتنعَ عن الزّواج تُعيده عصفوراً.

أعطَت السّاحرة لترْويتون ملابس منسوجَة من ذهب وفضّة ثمّ أصعدتها خلفها على ظهر تنّين وذهبتا إلى مملكة فتّان الذي وصلَ لتوّه مع صديقه السّاحر الوفيّ. وبثلاث ضرباتٍ من عصاها السّحريّة، رأى فتّان نفسه كما كان، جميلاً ولطيفاً وحاضر البديهة ومهيباً. لكنّه دفعَ باهظاً ثمنَ خفض المدّة الزّمنيّة لعقوبته. كان يرتعش خوفاً لمجرّد التّفكير أنّه سيتزوّج ترْويتون. حاول السّاحر أن يقنعه بأفضل

الحجج التي يستطيع إليها سبيلاً ولكنّها لم تُحْدِث أيّ وَقْع في نفسه وكان مهتمّاً بسَيرِ الأمور في مملكته أقلَّ من اهتمامه بالوسائل لإطالة المدّة التي حدَّدتها سوسيو للاقتران بترْويتون.

وفي تلك الأثناء بدأت الملكة فلورين رحلتها متنكّرة بزِيّ فلاحة: بعثرت شعرها وشعّثته لإخفاءِ وجهها، واعتمَرت قبّعة منَ القشّ على رأسها، وعلّقت كيسَ قماشٍ إلى كتفها. أحياناً كانت تسافر مشياً على القدمَين وأحياناً على ظهر حصان، تارةً بحراً وتارةً برّاً: استقلّت كلّ وسائلِ النقل الممكنة. لكنّها لم تكن تعرف أيّ اتّجاه تأخذ وكانت تخشى دوماً أن تذهب إلى جهة فيما يكون ملكها الحبيب في جهةٍ أخرى. وذات يوم توقّفت عند ضفّة سبيل ماء حيث المياه الفضيّة تجري على الحصى الصّغيرة. رغِبَت في غسل قدمَيها. جلست على العشب ورفعت شعرها الأشقر بشريطٍ ووضعت قدمَيْها في الجدول. كانت أشبه ما تكون بديانا[1] المستحمّة بعد رحلة صيد. وكانت مارّة في ذلك المكان عجوز قصيرة القامة مقوّسة الظهر متّكئة على عصاها الضّخمة. توقّفت وقالت لها:

- ماذا تفعلين وحدك هنا يا حلوَتي؟

قالت الملكة:

- يا سيّدتي، لديّ صحبة لا يُستهانُ بها: أحزاني وهمومي وآلامي.

وما إن نطقَت بهذه الكلمات حتّى اغرورَقت عيناها بالدّموع.

قالت العجوز:

- ماذا! أنتِ بهذا الشباب وتبكين! آه يا بنيّتي، لا تحزني. قولي لي بصدقٍ ممَّ تشكين وآمُل أن أخفّف عنك.

أرادَت الملكة حقّاً أن تُفرجَ مَكنونات صدرها فروَت لها المتاعب

(1) ديانا: هي في الميثولوجيا الرّومانيّة إلهة الينابيع والغابات والصّيد.

التي صادفَتْها وكيف تصرّفت الساحرة، وأخيراً صرّحت لها أنّها تسعى للعثور على العصفور الأزرق.

نهضت العجوز الحَدباء وأعادت تشكيل هيئتها فتبدّل وجهها دفعةً واحدة لتصير جميلةً شابّة في لباس مدهش. نظرت إلى الملكة وعلى مُحَيّاها ابتسامة لطيفة، قالت لها:

- يا فلورين يا من ليس لجمالكِ مثيل. إنّ الملك الذي تبحثين عنه لمْ يَعُد عصفوراً. أعادت له شقيقتي سوسيو هيئته السّابقة. إنّه في مملكته. لا تحزني سوف تصلينَ إلى هناك وتبلغين مُرادَكِ. هاكِ أربع بيضات، اكسريها عندما تحتاجين إلى عون في الحالات الطارئة وسوف تنجدك.

وعلى هذه الكلمات، اختفت.

شعرت فلورين بالعَزاء والرّاحة لِما سمِعته. وضعت البيض في حقيبتها واتّجهت إلى مملكة فتّان.

بعدَ أن مَشَت ثمانية أيّام وثماني ليالٍ دون توقّف وصلت إلى أسفل جبلٍ شاهق الارتفاع وكلّه من عاج. كان الجبل مسطّحاً بحيث إنّ أحدًا لا يستطيع أن يضع قدمَيه عليه دون أن يسقط. قامت بألف محاولة للتسلّق ولكن دون جدوى. شعرت بالتّعب واليأس إزاء ذلك الحاجز الذي لا يمكن تخطّيه، فاضطجعت عند سفح الجبل مصمّمة على الاستسلام للموت. عندئذٍ تذكّرت البيضات التي أعطتها إيّاها السّاحرة. أخذت بيضةً وقالت:

- لنرَ ما إذا كانت السّاحرة هزِئت بي عندما وعدتني بأن تمدّني بالمعونات التي أحتاجها.

ما إنْ كسَرَت البيضة حتّى وجدت كلاليب من ذهب زنّرت بها قدميها ويديها. وعندما تجهّزت بها، صعدت جبل العاج دون أيّة

مشقّة لأنّ الكلاليب كانت تنغرز فيه وتَحول دون سُقوطِها. وعندما أصبحت في أعلى الجبل، واجهت أيضاً متاعب جديدةً في النّزول: كأنّ الوادي كلّه صفحة مرآةٍ مصقولة. وكان هناك من حول المرآة أكثر من ستّين ألف امرأة تتمرأى فيها بلذّة قصوى، لأنّ هذه المرآة كانت بعرضِ فرْسخينِ وارتفاع ستّة فراسخ. كانت كلّ امرأة ترى صورتها في المرآة كما تشتهي: الصّهباء تبدو فيها شقراء، والسّمراء مزيّنة بشعر أسود، والعجوز تخال نفسها شابّة، والشابّة لا تَشيخ؛ وأخيراً كانت كلّ العيوب مخفيّة تماماً، وكان الجميع يقصد المرآة من أركان العالم الأربعة، وكان المنظر يميتُ من الضّحك: رؤية إيماءات العبوس والدّلال التي كانت تفعلها أولئك الغَنِجات. وتلك المرآة كانت تجتذب الرّجال أيضاً وتروق لهم فتجعل البعض ينبت لهم شعر جميل وتزوّد البعض الآخر بقوام أطول وأكثر رشاقة، أو تضفي عليهم هيئة الأبطال وطلعةً أبهى. والنّساء اللّواتي كان الرّجال يسخرون منهنّ رُحْنَ يسخَرْنَ منَ الرّجال أيضاً. وكان يُطلق على ذلك الجبل ألف اسم مختلف، ولم يسبق لأحد أن توصّل إلى بلوغ قمّته، لذا عندما رأت السيّدات فلورين أطلقْنَ صرخات يأس طويلة. كنّ يقُلْنَ:

- أين تذهب هذه المتهوّرة؟ لا شكّ أنّها تفتقر إلى النّباهَة لكي تمشي على مرآتنا: خطوة واحدة ويتحطّم كلّ شيء.

أحدثت النّساء جلبة مرعبة. لم تعد الملكة تعرف ماذا تفعل لأنّها كانت استشعرت خطراً كبيراً يحفّ بنزولها إلى الوادي. كسرَت بيضَة أخرى فخرجت منها حمامتان تجرّان عربة اتّسعت ما يكفي لتجلس فيها فلورين بارتياح؛ ثمّ حطّت الحمامتان برفقٍ وأنزلتا الملكة دون أن يحدث لها أيّ مكروه، قالت لهما:

- يا صديقتيّ، لو سمحتُما وأرشدتُماني إلى قصر الملك فتّان، ولن

أنسى لكما هذا المعروف.

وظلّت الحمامتان المهذّبتان المطيعتان تواصلان الطّيران ليلاً ونهاراً إلى أن بلغتا أبواب المدينة. ترجّلت فلورين وقبّلت كلاًّ منهما قبلة رقيقة أغلى من تاج.

آه! كم كان قلبها يخفق بقوّة حين دخلتْ! لطّختْ وجهها كي لا تعود معروفة. وسألت المارّة أين بإمكانها رؤية الملك. أخذ بعضهم يضحك. قالوا لها:

- تريدين رؤية الملك؟ هه! ماذا تريدين منه يا وجه القذارة. اذهبي اذهبي ونظّفي نفسك، فمظهركِ لا يليقُ بمقابلته.

لم تُجب الملكة بشيء: ابتعدت بهدوءٍ وسألت كلّ أولئك الذين التَقت بهم أين بإمكانها أن تقف لِتَرى الملك.

قالوا لها:

- سيأتي غداً إلى المعبد بِرِفقة الأميرة ترْويتون. لأنّه وافق أخيراً على الزّواج بها.

أيّتها السّماء! ما هذا الخبر! ترْويتون، ترْويتون الخسيسة على وشَك أن تتزوّج الملك! فكّرت فلورين بالموت، لم يعد لديها القوّة لتتكلّم أو تمشي: جلست تحت أحد الأبواب على حجارة متستّرةً بشعرها وقبّعتها القشّ. قالت:

- يا لحَظّي المنكود! أجيء إلى هنا لكي أضيف إلى انتصار عدوّتي انتصاراً وأجعل نفسي شاهدَةً على سعادتها! إذاً بسببها كفّ العصفور الأزرق عن المجيء لزيارتي! من أجل هذا المسخ المقرِف كشفَ عن أكثر الخيانات دناءة، فيما أنا كان يحطّمني الألم ويتأكّلني همٌّ بقائه على قيد الحياة! لقد تبدّل الخائن. لم يعد يتذكّرني وكأنّه لم يرني قطّ، ترَكَني لعذابي من جرّاء غيابه الطّويل دون أن يهتمّ لغيابي.

شعرت الملكة بحزن شديد؛ بحثت عن مكان تأوي إليه وخلَدَت للنّوم دون عشاء لأنّ الحزن أفقدها الشهيّة إلى الطعام. نهضت مع الصّباح وهُرِعَت إلى المعبد. لم تدخل إليه إلاّ بعد أن صبرت ألف مرّة على صدّ الحرّاس والجنود لها. رأت عرشَ الملك وعرش ترْويتون التي صارَ يُنظر إليها منذ تلك اللحظة على أنّها الملكة. يا للألم الذي يَعْتَري شخصاً بالغ الرهافة كالملكة فلورين! اقتربت من عرش غريمتها. وقفت متّكئة إلى عمودٍ من رخام. أطلّ الملك في الطّليعة، أجملَ وألطفَ ممّا كان طيلة حياته. ثمّ ظهرت ترْويتون في ثيابٍ فاخرةٍ ولكن في بشاعَتِها المخيفة. نظرت إلى الملكة مقطّبة حاجِبيها.

قالت لها:

- من أنت، لكي تجرؤي على الاقتراب من شخصيَ الكريم ومن عرشيَ المذهّب؟

أجابت:

- اسمي وجه القذارة. أتيت منَ البعيدِ وفي حوزتي أشياء نادِرة أبيعها.

وللحال فتّشت في كيسها القماش وأخرجت منه أساورَ زمرّد كان الملك فتّان أهداها إيّاها.

قالت ترْويتون:

- يا لطيف! يا لطيف! هاكم أساور جميلة من زجاج! هل تبيعينها بخمسة قروش؟

قالت الملكة:

- أظهريها يا سيّدتي للعارفين وبعدها نعقد صفقة البيع.

ترْويتون التي كانت تحبّ الملك بحنان أكبرَ ممّا تحبّ كلبة سيّدها، اغتبطت جدّاً كونَها وجدَت مناسبة للتّحدّث إليه فتقدّمت

حتّى عرشه وأرَتْه الأساور راجِيَة إيّاه أن يقول شعوره. لدى رؤية الأساور، تذكّر تلك التي قدّمها لفلورين؛ شحب لونه وتنهّد واستغرق وقتاً طويلاً في التفكير دون جواب. وأخيراً، خشي أن تنتبه لاضطرابه، فبذل جهوداً للحفاظ على مظهرٍ عاديّ وأجاب:

- أعتقد أنّ ثمن هذه الأساور يساوي ثمن مملكتي. كنت أظنّ أنْ ليس لها إلاّ مثيلٌ واحدٌ في العالم ولكن ها إنّي أرى العكس.

عادت ترْويتون وسحنَتُها أكثر اكفهراراً من مَحارة. سألت الملكة عن الثمن الذي تريده لقاء تلك الأساور ولكن من دون مبالغة.

قالت:

- سيشقّ عليك كثيراً أن تدفعي ثمنها لي يا سيّدتي. منَ الأفضل اقتراح تسويَةٍ أخرى: إذا سمحتِ لي أن أنامَ ليلة في غرفة الأصداء الموجودة في قصر الملك، أعطيتك زمرّداتي.

قالت ترْويتون وهي تضحك مثل مجنونةٍ كاشفةً عن أسنانٍ أطول من أنيابِ الضّواري:

- بسرورٍ عميق.

لم يستعلم الملك عن مصدر تلك الأساور ليس لأنّه غير مكترث بتلك التي تقدّمها (علماً أنّها لم يكن من شأنها أن تثير فضوله) بل لأنّه يشعر بجفاء يفوق الوصف إزاء ترْويتون. بَيْدَ أنّ منَ المفيدِ أن نعلمَ بهذا الشأن أنّه حينَ كان الملك عصفوراً أزرق كان قد حدّث الأميرة أنّه يوجد تحت جناح قصره غرفة تدعى غرفة الأصداء وأنّها مصنوعة ببراعة فائقة بحيث أنّ كلّ ما يُقال فيها حتى لَوْ كانَ خافِتاً جدّاً يُسمع من الملك عندما يخلد للنوم في غرفته. وبما أنّ فلورين أرادت أن تأخذ عليه خيانته لم تستطع أن تتخيّل وسيلةً أفضل من تلكَ الغرفة.

اصُطحِبَت إلى الغرفة بأمرٍ من ترْويتون: وهناك بدأت شَكواها

وحسراتها.
قالت:
- المصيبة التي أردتُ الارتياب فيها ليست إلاّ واضحةً كعين الشّمس. أيّها العصفور الأزرق. نسيتني، وأحبَبْتَ غريمَتي الخسيسة! الأساور التي تلقّيتها من يدِكَ الخائنة لم تستطع أن تعيدني إلى ذاكرتك لإمعانك في إبعادي عنها!
وعندئذٍ قطعت الشّهقات كلماتها، وعندما استجمعت قواها لتتكلّم من جديد، ازدادت شكواها باطّرادٍ، متواصلة حتى طلوع الصّباح. سمعها خدّام الغرف طيلة اللّيل تنتحب وتتنهّد فقالوا ذلك لترْويتون التي سألت فلورين عن سبب الضجّة التي كانت تحدِثها. فقالت لها إنّها كانت غارقة في نوم عميق وإنّها عادةً تحلم وتتكلّم بصوتٍ عالٍ. أمّا الملك فلم يسمعها قطّ وذلك بسبب مصادفة غريبة وهي أنّ الملك مُذ أحبّ فلورين جافاه النوم، لذا ما إن يخلد ليرتاح إلى فراشه حتّى يعطونه أفيوناً يساعده على النوم.
أمضت الملكة ردحاً من النهار في قلق غريب.
كانت تقول:
- إذا سمعني كيف بإمكانه أن يُظهرَ مثلَ هذه اللاّمبالاة؟ وإذا لمْ يسْمَعْني فماذا أفعل لكي أتوصّل إلى إسماعه ما أقول؟
لم تعُد في حوزتِها أشياء نادرة خارقة، والأحجار الكريمة لا شيء يُدهشِ في جمالها فهي دوماً متشابهة. ولكن كان يلزَمُها شيء ما يثير فضولَ ترْويتون: لجأت إلى البيضات التي أعطتها إيّاها السّاحرة. كسرَت واحدة فخرجت منها عربة صغيرة منَ الفولاذ المصقول المزيّن بقِطَع الذّهب تجرّها ستّ فئران خضراء يقودها جرذ زهريّ اللون، والحوذيّ كان أيضاً من فصيلةِ الجرذان ولونه ضارب إلى

الرّمادي الفاتح. كان في تلك العربة أربع دُمْيات متحرّكة أكثر نشاطاً وظرفاً من كلّ تلك التي تظهر في معارض سان جرمان وسان لوران. كانت تقوم بأشياء مدهشة، وبالتحديد كان هناك دميتان مصريّتان صغيرتان تتفوّقان على الراقصة الشهيرة ليانس في رقصة السَّرَبَنْدَة[1] ورقصة الرِّجل.

مكثت الملكة منسحرةً بهذه التحفة الجديدةِ لفنّ السّحر والعرافة. لَمْ تَنبس بكلمة حتّى المساء الذي تقوم فيه ترْويتون بنزهتها. وَلَجَت فلورين ممّراً وأخذت تُجْري الفئران التي تجرّ العربة والجرذان والدّمى المتحرّكة. ذلك الاختراع الجديد أدْهشَ ترْويتون كثيراً فهتفت مرّتين أو ثلاثاً:

- يا وجه القذارة، يا وجه القذارة، تريدين خمسة قروش ثمناً لعربتك التي تجرّها الفئران؟

قالت فلورين:

- إسألي الأدباء والعلماء في هذه المملكة عن قيمة هذه التّحفة وسأحتكِم إلى تقدير الأكثر علماً ومعرفة بينهم.

ترْويتون التي كانت حاسِمَة في كلّ شيء، أجابتها:

- من دونِ أن تُزعجيني لوقتِ أطوَل بحضوركِ القذر، قولي لي ثمنَها.

قالت:

- أن أنام مرّةً أخرى في غرفةِ الأصداء. هذا كلّ ما أطلبُهُ.

أجابت ترْويتون:

- اذهبي أيّتها الغبيّة المِسكينة، لن نرفض طلبك.

ثمّ استدارت إلى وصيفاتها وقالت لهنّ:

---

(1) السَّرَبَنْدَة: رقصة إسبانيّة بسيطة ثلاثيّة الإيقاع.

- هي ذي فتاة حمقاء لا تعرفُ كيف تكسَبُ مَغْنَماً من أشيائِها النّادِرَة!

وافى اللّيل. قالت فلورين كلّ ما يُمْكِنُها تصوّرهُ من أعْذَبِ الكلام وأرقّه، ولكنّها قالتْهُ عبثاً كما فعلت سابقاً، لأنّ الملكَ كانَ يتناوَلُ في كلّ مرّةٍ أفيوناً لينام. وكانَ خدّام الغرف يقولونَ فيما بينَهم:

- لا شكّ أنّ هذه القرويّةَ مجنونة: عَمّ تتحدّث طيلة اللّيل؟

وقال آخرون:

- ومع ذلك، فإنّ هنالكَ ذكاءً وشغفاً في ما تقوله.

كانت تنتظر طلوع النّهار بلهفةٍ لكي تَرى ما الوَقْع الذي تُحْدِثُه خطاباتُها في نفسِ الملك.

قالت:

- ماذا! هذا البرْبَريّ يصمّ أذنيه عن سماع صوتي! ألم يَعُد يسمعُ عزيزتَه فلورين؟ آه! أنْ أظلّ على حُبّهِ لَهُوَ ضعفٌ كبيرٌ من جانبي! كم أستحقّ فعلاً علامات الاحتقار التي يبْديها لي!

لكنّ كلّ هذه الأفكار غيرُ مجْدِيَة لأنّها لا تستطيعُ الشّفاء من حبّها له. لم يعُد في حقيبتها إلاّ بيضة واحدة يمكنها أن تستعينَ بها. كسرتها فخرَجت منها فطيرة محشوّة بستّةِ عصافيرَ مُحاطة بشرائح الدّهن مطهوّة ومحضّرة على أفْضل وجه. وفوق ذلكَ كانت العصافيرُ تغنّي بطريقةٍ عجيبةٍ وتتنبّأ بالمستقبلِ وتعرفُ الطبّ أفضلَ من آسكليبيوس[1]. بقيت الملكة منسحرَةً بذلك الشّيءِ الرائع وذهبَت معَ فطيرَتِها النّاطِقة إلى المدخَل أمامَ غرفةِ تزويتون. وفيما هي تنتظِرُ مرورها من هناك، اقتربَ أحدُ خدّام غرفةِ الملك منها وقال لها:

- يا وجهَ القذارَة، هل تعرفينَ، لوْ أنّ الملكَ لا يتناوَلُ الأفيونَ

(1) هو إله الطبّ في الميثولوجيا الإغريقيّة.

لكي ينامَ لكنْت أزعجتِه بكلامك بكلِّ تأكيد؟ لأنّكِ تثرثرينَ طيلّةَ اللّيلِ بطريقةٍ مذْهِشة.

لَمْ تعُد فلورين متفاجئة منْ أنّهُ لم يَسمَعْها. بحثت في حقيبتِها وقالت له:

- لا أحسب حقّاً أنّني أقطَعُ على الملكِ راحَتَه. إذا لمْ تُعْطِهِ أفيوناً هذه اللّيلة وتركتني أنامُ في غرفةِ الأصداءِ، فإنّ كلّ هذه اللآلئَ والألماساتِ ستكونُ من نصيبك.

وافقَ خادِم الغرفةِ وأعطاها كلمته. وبعدَ مُضيّ لحظاتٍ قليلة جاءَت ترْويتون. لمحَت الملكةَ مع فطيرتِها وهيَ تَتظاهَر بالرّغبَةِ في أكلِها.

قالت لها:

- ماذا تفعلينَ هنا يا وجْهَ القذارة؟

أجابت فلورين:

- سيّدتي، آكلُ منَجّمينَ وموسيقيينَ وأطبّاء.

وفي الوقت نفسه، بدأت العصافيرُ كلّها في الغناءِ منْشِدَةً لحْناً رائِعاً أرْوَعَ منَ الحوريّات. ثمّ صاحَت العصافير:

- أعطينا القطعَةَ النّقديّة الفضيّة ونَتنبّأ لكِ بمستقبَلِكِ.

كانَ هناك فرْخ بطّ صوتُهُ أعلى منَ الآخرين يقول:

- كَانْ، كَانْ، كَانْ، أنا طبيبٌ أشفي جميعَ الأمْراض وكلّ أنواعِ الجنون ما عَدا اعتلال الحبّ.

وإذا بترويتون، التي أدهشتها هذه الرّوائع أكثر من أيّ شيء رأته في حياتها، تقول وهي تشتم:

- تبّاً لكِ، هذه فطيرَة ممتازة! أريدُ الحصولَ عليها؛ هيّا، هيّا، قولي لي ماذا أعطيكِ لقاءَها؟

قالت:

- السّعر المعْهود: النّوم في غرفةِ الأصداء ولا شيءَ أكثر.

قالت:

- خذي، سأعطيك قطعة ذهبيّة (لأنّها كانت على مزاجٍ طيّب لحصولها على الفطيرة).

عندئذٍ عمدت فلورين، الأكثر فرحاً من أيّ يوم مضى، لأنّها كانت تأمل أن يسمعها الملك، عمدت إلى الانسحاب وهي تشكرها.

ما إن هبط اللّيل حتّى اصطحبها الحرّاس إلى غرفة الأصداء، وكانت تتمنّى بحماسٍ كبيرٍ أن يفِيَ خادم الغرفة بقوله ويعطي الملك بدلاً من الأفيون شيئاً ما من شأنه أن يجعله مستيقظاً: وعندما ظنّت أنّ الجميع ناموا بدأت شكواها المعهودة.

كانت تقول:

- كم منَ المخاطر واجَهْتُ لكي أعثُرَ عَليك فيما كنتَ تهربُ منّي وتريد الاقترانَ بترْويتون! ماذا فعلتُ لك أيّها القاسي القلب لكي تنسى وعودك؟ تذكّر امتِساخك وعطفي عليك وأحاديثي الرقيقة.

وأعادت استذكار الأحاديث كلّها بذاكرة تُثبت أنْ لا شيء أغلى عندها من هذه الذكرى.

لم يعُد بإمكان الملك النوم وكان يسمع بكامل الوضوح صوت فلورين وكلّ كلماتها دونَ أن يفهمَ مصدرَها. لكنّ قلبه المغمورَ بالحنان أعاد له بشغفٍ صورة أميرته التي لا مثيل لها، فأحسّ بافتراقه عنها بالألم نفسه حين جرّحته السكاكين على السّروة. أخذ يتكلّم من جانبه كما فعلت فلورين من جانبها.

قال:

- آه! أيّتها الأميرة العَديمة الرّحمة بالنسبة لعشيقٍ كان يحبّكِ

بشغف! هل يُعْقل أن تكوني ضحّيتِ بي على مذبح عدوّتينا المشتركتين؟

سَمِعَت فلورين ما كان يقوله ولَمْ تتوانَ عن إجابته وإبلاغه بأنّه إذا أراد التحدّث إلى وجه القذارة فسيقدر على استيضاح جميع الأسرار التي لم يستطع جلاءها حتّى ذلك الوقت. على هذه الكلمات، نادى الملك المتلهّف أحد خدّام غرفته وسأله إذا كان بإمكانه العثور على وجه القذارة وجلبِها إلى هنا. فأجابه الخادم أنْ لا شيء أسهل من ذلك لأنّها كانت تنام في غرفة الأصداء.

احتار الملك في أمره. كيف بالإمكان الظنّ أن تكون ملكة عظيمة مثل فلورين متنكّرة بزيّ فتاة قذرة؟ وكيف الظنّ أيضاً أنّ الفتاة المدعوّة وجه القذارة تملك صوت الملكة نفسه وتعرف أسراراً خاصّة جدّاً أللهمّ إنْ لَمْ تكنْ هيَ نفسها الملكة؟ نهضَ والشكّ يعْتمل في داخله وارتدى ثيابه على وجه السّرعة ونزل عبرَ سلّم خفيّ إلى غرفة الأصداء التي كانت الملكة قد نزعت مفتاحها لكنّ الملك كان لدَيه مفتاح يفتحُ كلّ أبواب القصر.

كانت ترتدِي ثوباً رقيقاً من التّفتا الأبيض تحت ملابِسها الرثّة. وكان شعرها الجميل يغطّي كتفيها. كانت مضطجعة على سرير صغير وفي الغرفةِ مصباح بعيد قليلاً ينشر نوراً خافتاً. دخَل الملك بغتةً وقدْ تغلّب على ضغينته، وما إن تعرّف إليها حتّى جاء ليرتَميَ عندَ قدَميْها وبلّل يديها بدموعِه. أحسّ أنّه سَيموت فرَحاً وألماً وأنّ رأسه كان مزدحماً بأفكار متلاطمة. واضطربت الملكة أيضاً لدى رؤيته. انقبض قلبها، وبالكاد استطاعت التنهّد. شخصت إلى الملك دون أن تقول له شيئاً، وعندما تسلّحت بالقوّة للتحدّث إليه لم تمتلك القدرة لتبوح له بمآخذها عليه. فإنّ فرحة اللقاء به مجدّداً أنَستها لبعض الوقت كلّ

مواضيع الشّكوى التي اعتَمَلت في نفسها تجاهه. وأخيراً، استوضحا مسائلهما وبرّرا وجهات النظر لديهما فاستيقظ حنانهما الهاجع في قلبيهما. لكنّ كلّ ما كان يزعجهما هو السّاحرة سوسيو.

ولكن في تلك اللّحظة وصل السّاحر، الذي كان يحبّ الملك، وبصحبتِهِ جنيّة شهيرة: كانت بالضبط تلك التي أعطت البيضات الأربع لفلورين. بعد المجاملات الأولى، أعلن السّاحر والجنيّة أنّهما وحّدا قدرتَيهما لصالح الملك والملكة، وأنّ سوسيو لم تعد تستطيع فعل شيء تجاههما، وبذلك لن يعيق زواجهما أيّ تأخير.

منَ السّهل تصوّر فرحَة هذينِ العشيقين الشّابّين: ما إن طلع الصّباح حتّى أذيع الخبر في كلّ القَصر وكان الجميع مغتبطاً برؤية فلورين. هذه الأخبار تناهَت إلى مسامع ترْويتون فهُرِعَت هذه لدى الملك، ويا لدهشتها عندما رأت هناك غريمتها الجميلة! ما إن أرادت أن تفتح فمها لتتفوّه ببعض الشّتائم حتّى ظهر السّاحر ومعه الجنيّة فحوّلاها إلى سمكة تروتة، ليبقى لها على الأقلّ جزء من اسمها ومن طبعها المُكثر من التّوبيخ. وفَرّت وهي لا تزال تهمهم حتّى حظيرة الحيوانات حيث رافقتها القهقهات السّاخرة منها مجهزةً على كلّ أمَلٍ لديها.

وهكذا فإنّ الملك فتّان والملكة فلورين، وقد تخلّصا من ذلك الشّخص اللّعين، لم يعودا يفكّران إلاّ بالاحتفال بعرسهما، الذي لم يغب عنه لا التأنّق ولا الأبّهة. ويسهل تصوّر الغبطةِ التي غمرَتهما بعد كلّ ذلك الشّقاء الطّويل.

عندما تاقت ترْويتون إلى الزّواج بفتّان

وأرادت، دونَ أن تستطيع نيْلَ إعجابه،
أن ترتبط بهذا الرّباط
الذي وحدَه الموت قادر على حلّه
لكَمْ كانت متهوّرةً في ذلك للأسف!

لا شكّ، كانت تجهل أنَ زواجاً كهذا
لا يكلّله الحبّ بجناحيه
يصبح عبوديّةً مشؤومَة
وأجد أنّ فتّان كانَ حكيماً برفضه.

في رأيي، منَ الأفضل بكثير
أنْ يكون المرء عصفوراً أزرق لا بَل وأن يصير بومَة
على أن يكابدَ ألماً ما بَعْدَه ألم
برؤيةِ من يكرهه شريكاً لحياته.

هذه الزيجات الآثمة وما أكثرها في عصرنا:
عسى أن يحول ساحرٌ لبقٌ دونها
مانعاً كلّ قرانٍ قائم على مصلحةٍ أو نزوة
بين قلبين تاعسين غير متحابّين.

الأمير عفريت

كان يا ما كان، كان هناكَ ملك وملكة ليس لديهما إلاّ ابنٌ يُحِبّانِهِ بشغفٍ رغمَ هيئتِهِ القبيحَة جدّاً. كان أضخم من أكثر الرّجال سُمْنَةً وأقصرَ قامَة من أقصرِ قزَم. لكن لم تكن قباحَة الوجهِ وتشوّه الخِلْقَة بشيءٍ مقارَنةً مع سوء الخُلُق. منذ سنيّهِ الأولى كان عنيداً كحمارٍ، مثيراً استياءَ الجميع وخيبَتَهم. لاحَظَ الملك ذلك، لكنّ أمّه الملكة كانت تحبّه بجنون. ولقد ساهمَتْ في إفسادِهِ بمجامَلاتها الفاضحَة التي كانت تكشف له عن مدى ما له عليها من سلطان. فإذا أرادَ أحدٌ التودّد لها لم يكن عليهِ إلاّ أن يقولَ لها إنّ ابنها جميل وذكيّ. أرادَت أن تعطيهِ اسماً يوحي بالاحتِرامِ والخشيَة. وبعدَ أن بحثت طويلاً، أسمَتْه: غضبان.

وعندما صارَ بِعُمرِ أن يؤتى له بِمُرَبٍّ، اختارَ الملك أميراً كان يملك حقوقاً قديمة على المملكة وكان سيدافع عنها كرَجُلٍ شجاع لو أنّ أعماله كانت أفضَلَ حالاً، ولكن منذ زمَنٍ طويل لم يعد يفكّر بالأعمال، بل كان كلّ دأبه منصَبّاً على تربية ابنه الوحيد بمقتضى الأصول. لم يكن أحدٌ يُضاهي ذلك الأميرَ في جمالِ سجيّتِهِ وذكائه المتوَقّد العميق وروحِهِ المطيعَة الوادِعَة. كان كلّ ما يقوله مَصوغاً بشكلٍ ملفتٍ ويتّسم بالطرافة. كان شخصهُ بأكمَلِه كامِلاً.

وقد اختارَ الملك ذلك السيّد الكبير ليرشدَ الأميرَ غضبان في صِباه. وأمَرَ ابنه بأن يكونَ مُطيعاً منْصاعاً لأوامر مربّيه. لكنّ غضبان كان عصيّاً يمكن ضربه بالسّياط ألف مرّة دون أن يُصارَ إلى تأديبه. كان لدى مربّيه ابن يدعى لياندر وكان محبوباً مِنَ الجميع. كانت السيّدات

ينظرْنَ إليه بعينِ الودّ والإعجاب، لكنّه لم يتعلّق بأيّة واحدة منهنّ. فَكُنّ يدعونَه الجَميلَ اللاّمُبالي. كنّ يُخاصِمْنَه ويُجابِهْنَه لكن دون أن يستطعنَ تغييرَ تصرّفاته. وهو لم يكن يفارق غضبانَ إطلاقاً. ولم تكن تلك الصّحبَة تلطّف من النفور الذي يثيره غضبان لا بل تزيد منه. لم يكن هذا الأخير يقترب منَ السيّدات إلاّ ليقولَ لهنّ كلماتٍ جارِحَة: تارةً يقول عنهُنّ إنّ ثيابَهُنّ رديئة وطَوْراً بأنّهن يبدونَ ريفيّات. كان يتّهِمُهُنّ أمام الجميع بأنّهنّ متبرّجات، ولم يكن يحبّ أن يعرف عن أسرارهنّ إلاّ ليحكيَها للملكة فتؤنّبُهُنّ أو تجعَلُهُنّ يَصُمْنَ عن الطّعام لمعاقَبَتِهِنّ. كلّ ذلك كان السّبب في كرههِنّ الفظيع لغضبان. وكان غضبان يُلاحظ ذلك جيّداً فيوجّه المَلامَة دوماً لِلياندَر اليافع قائلاً له وهوَ ينظر إليه شزراً:

- أنت محظوظ جدّاً فالسيّدات النبيلات يمْتَدِحْنَكَ ويُوافِقنَ على ما تقوله. وليس يتصرّفْنَ معي على نحوِ مماثل.

فيجيبُه بتواضع:

- يا سيّدي، إنّ الاحترام الذي يُبْدينَه لك يَمْنَعُهُنّ منَ التقرّب منك.

ويقول غضبان:

- حسناً يفعَلنَ لأنّني سأضربُهُنّ ضرْباً مبرحاً لأعلّمَهُنّ كيف يؤدّين واجباتِهنّ.

وذات يوم وصَلَ فيه سفراءُ من مكانٍ بعيدٍ جدّاً؛ فمكث الأمير برفقة لياندر في أحَد الممرّات وأخذا يراقبانهم وهم يمرّون. ما إن لَمَحَ السّفراءُ لياندر حتّى تقدّموا وانحنوا أمامه بإجلالٍ كبيرٍ معبّرين بإيماءاتِهم عن مقدارِ إعجابهم به. ثمّ نظروا إلى غضبان فظنّوا أنّه قزَم تابعٌ له. فأمْسَكوه من ذِراعِهِ وفتَلوه مرّات رغمَ استيائِهِ منهم.

كان لياندر في غَمْرَةِ اليأس. استَماتَ ليقول لهم إنّ غضبان هو ابن الملك فما كانوا يستمعون إليه. ولِسوءِ الحظّ كان التّرجمان قد ذهبَ لينتظِرَهم عند الملك. وإذ عرِف لياندر أنّهم لا يفهمون شيئاً من إشاراته أخذ يُغالي في تواضعه أمام غضبان، وإذ ذاكَ خالَ السّفراء وكذلك مرافقوهم أنّ تلك لعبة فضَحِكوا حتّى التَوَت خواصِرُهم، وأرادوا أن يمازحوا غضبان بنَقْفاتٍ على الخدّين والأنف كما هو معمولٌ به في بلادهم. عندئذٍ، استلّ ذلك الأمير اليائس سيفه القصيرَ الذي لم يكن يتعدّى طولُه مهفّة اليد، وكاد أن يرتكب حماقة لو لم يأتِ الملك للقاءِ السّفراء ومكثَ منذَهِلاً تماماً من موقف ابنه الغاضب. اعتذر منهم، لأنّه كان يعرِفُ لغتَهم، فأجابوه إنّ الأمر ليسَ بخطيرِ وأنّ ذلك القزمَ الصّغيرَ المرعِبَ الذي يرافقه سيّء المزاج ليس إلاّ. فحزِنَ الملك حزناً شديداً لأنّ هيئة ولده القبيحَة وتصرّفاتِهِ الغريبَة جعلَت الآخرين لا يُلقونَ له بالاً.

عندما غابوا عن نظره، أمسك غضبان بلياندر من شعْرِه وانتزَعَ منه حفنة أو حفنتين. وكان سيخنقه لو أنّه استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً. وحَظَرَ عليه الظّهورَ ثانيةً برِفْقَته. شعَرَ والد لياندر بالإهانَة من جرّاء تصرّف غضبان فأرسَلَ ولدَه إلى قصرٍ كانَ يملكه في الرّيف. وهناكَ وجد لياندر ما يشغله فهوَ يَهوى صَيدَ العصافيرِ والأسماكِ والنزهات. كما أنّه يُتقنُ الرّسم ويقرأ كثيراً ويعزِف على أدواتٍ عدّة. وألفى نفسَه سعيداً لكونِهِ غيرَ مرغَم على التودّد إلى أميرِه النزق، وبالرّغم منَ الوحدَة فإنّه لم يشعر بالمَلَلِ قطّ.

وذاتَ يوم شديد القيظ، ذهب يتنزّه في حدائقِ القصر، ثمّ دخلَ إلى غابةٍ صغيرةٍ مُدْغِلَةٍ باسِقة الأشجار فاستظلّ بفيئِها هانئاً. وأخذ يعزِف على المزمارِ لكي يتسَلّى. وعندئذٍ أحسّ بشيءٍ يلتفّ مرّاتِ

عدّة على ساقهِ ويضغط عليها بقوّة. فنظَرَ إلى ساقِهِ لِيَتحرّى عن الأمر وتفاجأ برؤيَة أفعى ضخمَة. تناول منديلَه وأمسكَها من رأسِها هامّاً بقتلِها ولكنّها التَفَت أيضاً حولَ باقي جسده وذراعه محدّقَة إليه وكأنّها تطلب الرّحمة. وحينئذٍ وصَلَ أحد البساتنة في القصر فصرَخَ منادِياً سيّدَه ما إن لَمَحَ الأفعى:

- يا سيّدي أمسكها جيّداً، منذ ساعة وأنا أطاردُها لأقتلها؛ ليس هناك ما هو أشدّ دهاءً ومكراً منها، وهيَ تعيث خراباً في رِياضِنا.

نظرَ لياندر مرّة أخرى إلى الأفعى المرقّشة بألفِ لونٍ مدهش؛ ألفاها تتابع التّحديق إليه ولا تهمّ بأيّة حركة للدّفاعِ عن نفسِها.

قال للبستانيّ:

- بِما أنّك أردْتَ قتلَها وجاءَت لتلتجئَ إليّ، فأنا أمنعكَ من أن تتسبّب لها بأيّ أذى. أريد أن أُطعِمَها، وعندما تخلع جلدَها سأتركها تذهب في سبيلها.

عاد إلى المنزل ووضعها في غرفةٍ كبيرَةٍ احتفظ بمفتاحِها وجلَبَ لها النّخالَة والحليب والأزهار والأعشاب لإطعامِها وتدليلها: يا لها من أفعى محظوظة! وكان يذهب أحياناً لرؤيتِها. ما إن تراه حتّى تأتي إلى لقائه زاحِفَة وتقوم بكلّ الحركاتِ الظّريفة الرّشيقة التي يمكن لأفعى القيام بها، ما أدهَشَ ذلك الأمير لكنّه لم يكن يعيرها اهتماماً كبيراً.

حزنَت كلّ سيّدات البلاط لغيابه. كنّ يتحدّثنَ فقط عنه ويرغبْنَ في عودَتِه.

كنّ يَقُلْنَ:

- يا للأسف! لم يعد هناك شيء ممتع في القصر منذ رحيل لياندر. غضبان الشرّير هوَ السّبب. أمِنَ المعقولِ أن يُضمِرَ له الشرّ ولا ذنب

له سوى أنّه مُحِبّ وَمُحَبّ أكثر منه؟ وهل ينبغي أن يشوّه قامَته ووجهَه لكي يَروقَ له؟ أتُراه يجب أن يلوِيَ عِظامَه ويشقّ فمَه حتّى أذنَيه لكي يصبِحَ شبيهَه؟ أو أن يُصَغّرَ عينيه ويقتلِعَ أنفه؟ إنّ غضبان هوَ فعلاً قردٌ ظالم لئيم! لن يفرَح أبداً في حياتِه لأنّه لن يجِدَ من هو أقْبَحَ منه!

ومهما يكن الأمراء أشراراً إلاّ أنّهم يَجِدون دوماً مَدّاحينَ يتمَلّقونَهم، لا بل إنّ الأمراء الأشرار مُحاطونَ بالمتزلّفين أكثر من سواهم. وكان لغضبان مَدّاحوه. ثمّ إنّ سلطانه على أمّه الملكة جعله مَهيباً. رووا له ما قالته سيّدات القصرِ فانتابَه غضب مسعور ودخلَ إلى غرفة الملكة قائلاً لها إنّه سيقتل نفسَه أمام عينيها إذا لم تجد طريقة تقضي فيها على ليانْدر. أجابته، وكانت تكرَه لياندر لأنّه أجمل من ابنها السّعدان، أنّها تعتبره خائناً منذ زمَنٍ طويل وتفكّر بوسيلة للقضاءِ عليه. فلِيَذهَب غضبان مع أصدِقائهِ الحميمينِ إلى الصّيد، وعندئذٍ سيأتي ليانْدر فيُعلّموه عاقبةَ أن يكون محبوباً من الجميع.

ذهب غضبان إلى الصّيد؛ وعندما سمِعَ لياندر نباحَ كلاب وصدْحَ أبواقٍ في الغابات المحيطة بقصرِهِ، امتطى حِصانه وذهبَ لِيَرى ماذا هُنالك. اندهش كثيراً لِلّقاءِ غيرِ المتوقّع بالأمير غضبان. ترجّل عن حِصانِه وحيّاه بإجلال. استقبَلَه غضبان أفضل ممّا كان يتوقّع وقال له أن يَتْبَعَه. ولِلحال التفَت وأشار للقَتَلة بأن يقضوا عليه. ولكنّه ما إن ابتعَد مسافة كبيرة حتّى خرج أسَد ذو ضخامَة هائلة من عمقِ عرينه وانقضّ عليه ورَماه أرضاً. عندئذٍ لاذ مرافقوه بأذيال الفرار وبقيَ لياندر وحدَه يصارِع ذلك الحيوان الضّاري. هاجَمَه والسّيف بيدِه، وأوشَك أن يلتَهِمَه الوحش. وهكَذا أنقذ بنُبْلِه ومهارَته ألدّ أعدائهِ. أُغميَ على غضبان مِنَ الخوف وأغاثه لياندر بعناية مدهشة. وعندما عاد إلى رشدِهِ قليلاً، قدّمَ له حصانَه لِيَعْتَليَه. لو لم يكن غضبان

جاحِداً لَشَعَرَ في الحالِ بامتنانٍ عظيم وأبدى جزيل الشكْر ولَبادَرَ لفعلِ أشياءَ جميلة أو لقولِ كلام طيّب. لكن لا شيء من هذا كلّه. لم تبدر منه التفاتة واحدة إلى لياندر ولم يستخدم حِصانَه إلاّ ليَلحَق بالقتَلَة ويأمرهم مجدّداً بأن يقتلوه. فأحاطوا بلِياندر وكان سيُقتَل لا محالَة لولا تَحَلّيهِ بشجاعَةٍ فائقة. احتَمى بشجرة مستنداً إليها لكي لا يُهاجم من الخلف وانقضّ على أعدائه كمن فقد كلّ أمل في الحياة. ظنّ غضبان أنّه مات فَسارَعَ بالمجيء ليتَمَتّع بمنظرِهِ ميتاً لكنّ مشهداً آخر كان بانتظارِهِ: رأى كلّ أولئك السّفَلَة يلفظون أنفاسَهم الأخيرَة. عندئذٍ تقدّم لياندر نحوه وقال له:

- يا سيّدي إذا كانوا يريدون قتلي بأمرٍ منك فاعذرني لأنّني دافعت عن نفسي.

فأجابَه الأمير غاضِباً:

- أنت وقِحٌ وإذا رأيتك مرّة ثانية فسَآمُر بقتلك.

لم يُجب لياندر بشيء بل عادَ إلى القصر حزيناً جدّاً وأمْضى اللّيل يفكّر بِما سيتوجّب عليه فعْله لأنّه لم يكن وارداً لديه أن يواجِه ابن الملك. وصمّمَ على القيام برحلَة حول العالم، لكنّه، وهوَ على أُهْبَة الرّحيل، تذكّر الأفعى فحمَلَ إليها الحليب والفواكه. وعندما فتح الباب، أبصَرَ نوراً سنيّاً يلتمعُ في إحدى زوايا الغرفة. ذهب ليتحرّى عن الأمر ودُهِشَ من وجودِ سيّدة جليلة بهيّة يَشي مظهرها بنبالة مولِدِها. كان ثوبها من السّاتان القرمزيّ المطرّز بالألماس واللآلئ. تقدّمَت نحوَه بلطْفٍ وقالت له:

- أيّها الأمير الشّاب، لا تبحَث هنا عن الأفعى التي أحْضرْتَها، لقد رحَلَت. لقد حللتُ محلّها لكي أعوّضَ لك عمّا تدين به إليك. ولكن يجب أن أكلّمَك بوضوحٍ أكبر. اعلمْ أنّني الجنيّة لطيفة، هذا

هو اسمي، وأنا شهيرَة بالحِيَلِ التي تقوم على البَراعَة والدّعابة؛ نحن نعيش مائة عام دون شيخوخة ولا مرَض ولا أحزان ولا هموم. بعدَ انقضاءِ مائة عَام، نصبح أفاعي لمدّة ثمانية أيّام نواجه خلالها فقط مصيراً مشؤوماً لأنّه لا يمكننا التكهّن بالمصائبِ التي تُحدقُ بنا ولا الحؤول دونَها. وإذا صدف وقتلَنا أحدٌ لا نعود إلى الانبعاث مجدّداً، وبعد انقضاء الثّمانية أيّام هذه، نعود إلى هيئتِنا السّابقة ونستعيد جمالنا وقدراتنا وكنوزنا. أنت تعلم الآن يا سيّدي الواجبات المترتّبَة عليّ تجاهَك ومنَ العدلِ أن أردّ لكَ الجميل. قلْ لي ما تتمنّاه فأجعله يتحقّق في الحال.

مكث الأمير الشّاب مندهِشاً عاجزاً عن الكلام لوقتٍ طويلٍ فهوَ لم تكن له أيّة علاقة بالجنيّات حتّى ذلك الحين. انحنى أمامها بإجلالٍ عميقٍ وقال لها:

- سيّدتي، بعدَ الشّرف الذي أوْلَيْتِني إيّاه لخدمتك، يبدو لي أنّه ليسَ لديّ ما أطلبه منك.

أجابت:

- يحزنني فعلاً ألاّ تطلُبَ منّي تقديمَ خدمَة لك. فكّر أنّني أستطيع أن أجعَلَكَ ملِكاً عظيماً، أو أطيلَ عمركَ أو أجعَلَك محبوباً أكثر، أو أهِبَكَ مناجِمَ منَ الألماس ومنازِلَ مليئة ذهباً. أستطيع أن أجعَلَكَ خطيباً مفوّهاً أو شاعراً أو موسيقيّاً أو رسّاماً. أستطيع أن أجعلَك تهوى نساءً أو تزيد ذكاءَك. أستطيع أن أجعَلَك عفريتاً فضائيّاً ومائيّاً وبريّاً.

وعندئذٍ قاطَعَها لياندر وقال:

- اسمَحي لي يا سيّدتي أن أسألَك بِمَ يُفيدُني أن أكونَ عفريتاً؟

أجابَت الجنيّة:

- بألْفِ شيءٍ نافع وجميلٍ. تستطيع الاختفاءَ ساعَة تشاء وتجتازَ في لحظةٍ فضاءَ الكونِ الرّحب. ترتفع دون أن يكون لدَيكَ أجنحَة وتذهب إلى آخر الأرض دون أن تموت وتخترِقَ لجج البحر دون أن تغرَق. تدخل حيثما تشاء رغم النّوافذ والأبواب المغلقَة، وما إن تَرى اللّحظة ملائمَة حتّى تستطيع الظّهورَ بمظهرك الطّبيعيّ.

هتف:

- آه يا سيّدتي أختار أن أكون عفريتاً. أنا على أُهْبَة القيام برحلة وأتخيّل ملذّاتٍ لا نهاية لها يمنحني إيّاها العفريت وأفضّل أن أصيره على كلّ الأشياء الأخرى التي عرَضتِها عليّ بسخاء.

أجابت لطيفة وهيَ تمرّر يدها ثلاث مرّاتٍ حول عينيه ووجهه:

- كنْ عفريتاً محبوباً، كن عفريتاً مُحبّاً، كن عفريتاً ذكيّاً.

ثمّ قبّلته وأعطَته قبّعة صغيرَة حمراء مزدانَة بأرياش الببّغاء. قالت له:

- عندما تنزعها تُصبح مرئيّاً.

أدْخَلَ لياندر مبتهِجاً القبّعة الصّغيرَة الحمراء في رأسه ورغِبَ في الذّهابِ إلى الغابة ليقطِفَ وروداً بريّة كان رآها من قبلُ ولَفَتت نظرَه. انتقَلَ إلى الغابة عبر النّافذَةِ مرَفرِفاً مثل عصفور. لكنّه أحسّ بشيءٍ منَ الخوف عندما رأى نفسه يعلو ويجتاز النّهر. خاف منَ السّقوطِ فيه وأن تعجزَ قدرَة السّاحِرَة عن حِمايتِه لكنّه ألفى نفسَه لحسنِ الحظّ عند أسفل شجرة الورد فقطَف ثلاث وردات وعاد في الحالِ إلى الغرفة التي كانت لا تزال الجنيّة موجودَة فيها فقدّمَها لها مبتهِجاً بالتّجرُبَة النّاجِحة التي قامَ بها. قالت له أنْ يحتفظ بتلك الوردات لأنّ الوردة الأولى تزوّده بالمال الذي سيحتاج إليه؛ والوردة الثّانية تنبئه بوفاء عشيقَتِهِ له إذا وَضعها على صدْرِها؛ والوردة الثّالثة

تقيه شرّ الأمراض. ثمّ، من دون أن تنتظِرَ عبارات الشّكر تمنّت له رحلَة موفّقة واختَفَت.

ابتهجَ أيّما ابتهاجٍ بالهِبَةِ الجميلة التي مُنِحَت له للتوّ.

كان يقول في نفسه:

- مَن كان سيفكّر أنّ إنقاذي لأفعى مسكينَة من بينِ يدَي البستانيّ سيعود عليّ بهذه المنافع النّادرَة العظيمَة؟ آه كم سيكون ذلك مدعاة للسّرور وكم منَ اللحظاتِ الرّائعة تنتظرُني! كم سأعرف منَ الأشياء! ها أنا غير مرئيّ. وستكون لديّ القدرة على معرفة أكثر المغامرات سريّة.

فكّر أيضاً أنّه يُحْسِن صنيعاً إذا انتقمَ قليلاً من غضبان وسرعانَ ما جَهّزَ أمتِعَتَه واعتَلى أجمَلَ حصانٍ في اسطَبْلِهِ ويُدعى أشهب، متبوعاً ببعضِ خدّامِهِ المرتدين الكسوَة الموحّدَة، وذلك لكي يشيع خبر عودَتِهِ بسرعَة أكبر.

ينبغي أن نعلم أنّ غضبان، الذي كان كذّاباً، قال إنّه لولا شجاعته لكان لياندر قتله أثناء الصّيد؛ وإنّه قتلَ كلّ مرافقيه، لذا يريد أن يُصار إلى محاكمته. وكان أبوه الملك قد ألحفت عليه الملكة بالمطالَبة بِلا كلَل، فأعطى الأوامِرَ بالذّهابِ لاعتِقالِ لياندر وبأن يُخطر غضبانَ بذلك؛ لأنّ غضبان كان أجبَنَ من أن يذهَب لإحضارِهِ بنفسه. هُرِعَ إلى غرفة والدته وقال لها إنّ لياندر وصل للتوّ وإنّه يتوسّل إليها كي يُصارَ إلى اعتقالِه. ولم تتورّع الملكة، وهي لا ترفض لابنها طلباً، عن الذّهاب إلى الملك. تبِعَها الأمير المتلهّف لمعرفة القرار الذي سيؤخذ دونَ أن ينبِسَ بكلِمَة. توقّف أمامَ الباب مقرّباً أذنَه ومبعِداً خصلات شعرِهِ ليتسنّى له الاستماع بدقّة أكبر. وعندئذٍ دخل لياندر في قاعة القصر الكبيرَة؛ اعتمرَ القبّعة الحمراء فأصبحَ غير مرئيّ. ما إن لمَحَ غضبان

يُصيخ السّمع حتّى أخذ مسماراً ومطرقة وسمّرَ أذنَه إلى الباب.

أخذ غضبان يتخبّط يائساً وَيَسْتَشيط غيظاً ويقرع الباب مثل مجنونٍ مطْلِقاً صرخاتٍ مروّعة. هُرعَت الملكة لدى سماعِها الصّوت لتفتَحَ الباب. كادَت تقتلع أذنَ ولَدِها. كان ينزف وكأنّه نُحِرَ للتوّ وعلى وجهه تكشيرَة مرعبة. حضَنَته الملكة المفجوعة واضَعَةً يدَها على أذنِهِ وقبّلتها وضمّدتها. أمسَكَ عفريت حزمَة منَ القضبانِ تُستخدَم لجَلْدِ كلابِ الملك الصّغيرَة وأخذ يضرِب بها يدي الملكة و«خَطْمَ» ابنَها فصرَخَت مطالِبَةً بأن يُقبَض على المعتدي ويُصرَع. نظَرَ الملك من حوله وهُرِعَ الجميع ولم يجِدوا أحداً. وأخذوا يتهامَسونَ بأنّ الملكة جُنّت من الألم لرؤيتها أذُنَ غضبان مقطوعَة. وكان الملك أوّل مَن صدّقَ ما يُقال فَتحاشَاها عندَما أرادَت الاقتراب منه: كان ذلك المشهد ممتِعاً جدّاً. وأخيراً وجّهَ العفريت الصّالح ألفَ ضربَةٍ أخرى لغضبان، ثمّ خرج منَ الغرفةِ ومرّ في الحديقة جاعِلاً نفسَه مرئيّاً. ذهبَ بكلّ جسارَة ليقطِفَ منَ الكرَزِ والمشمش والفراولة والأزهار الموجودَة في بستان الملكة: كانت تُصرّ على أن تسقيَها بنفسها وكلّ مَن مسّها قُضِيَ عليه فوراً. فوجِئ البساتنة بتصرّفِهِ كثيراً وجاؤوا يقولون لجلالتَيّ الملك والملكة إنّ الأميرَ لياندر يجرّد الأشجارَ من ثمارِها والرّوضة من أزهارِها.

هتفت الملكة:

- يا للوَقاحَة! يا صغيري غضبان! يا طفلي العزيز، تناسَ لبعضِ الوقتِ ألَمَ أذُنِكَ وسارِعْ لمعاقبة هذا الوغد. خذ حرّاسَنا وفرسانَنا وجنودَنا وحاشيَةَ الملك. تقدّمْهم واقبضْ عليه ومزّقْه إرَباً.

مدفوعَاً بأمّه ومصحوباً بألفِ رجلٍ مدجّجين بالسّلاح، دخلَ غضبان إلى الحديقة ورأى لياندر تحتَ شجرة فرَماه بحجرٍ كَسَرَ

ذِراعَه وهاجم باقي فريقه بأكثر من مائة برتقالة. أرادوا الرّكض باتّجاهه ولكنّه غابَ عن نظرِهم في الحال. انزلَقَ خلف غضبان الذي كانت ذِراعِهِ المكسورة توجعه، وَمَرّرَ حبْلاً بينَ ساقَيهِ فسقَطَ على أنفه فرُفِعَ وحُمِلَ إلى سريرِه متهالكاً من الألم.

شعر لياندر بالرضا والتشفّي لانتقامه ذاك فعادَ إلى حيث ينتظره رجاله. أعْطاهم مالاً وأعادَهم إلى قصره، غيرَ راغِبٍ في اصطِحابِ أحدٍ معه لأنّه يريد إبقاء أسرار القبّعة الصّغيرَة الحمراء والورود طيّ الكتمان. امتطى حِصانه الجميل الذي يُدعى أشهَب وسارَ على غير هدى مجتازاً غاباتٍ وسهولاً ونجوداً وأوْدِيَة لا عدّ لها. كان يرتاح من وقتٍ لآخر ليأكل أو يَنام دونَ أن يصادف في طريقه ما هو جدير بالاهتمام. وأخيراً وصَلَ إلى غابة فتوقّف فيها ليستظِلّ بأفيائها قليلاً لأنّ حرارة الطقس كانت مستعرة.

وفي وقتٍ ما، سمع تنهّداً ونحيباً فالتفت من كلّ الجهات ولَمَحَ رجلاً يركض ثمّ يتوقّف ويصرخُ، ثمّ يصمُتُ ليعود وينتزِعُ شعرَه ويَلطُمُ نفسَه دونَ توقّف. فقالَ في نفسه إنّه لا شكّ رجلٌ تعيس مختلّ العقل. بدا حسنَ الهيئةِ يافعاً، ويرتدي ثياباً بديعَة لكنّها ممزّقة تماماً. فاقترَبَ منه الأمير وقد أثارَ مشهَدُ الرّجلِ استعْطافَه قائلاً:

- أراكَ في حالٍ يُرْثى لها ما يدْفَعُني إلى أن أسألَكَ عن السّبب مقدّماً لك خَدَماتي.

فأجاب هذا الشاب:

- آه يا سيّدي! إنّ حالتي ميؤوسٌ منها. اليوم ستُقدم عَشيقَتي الغالية ضحيّة لشيخٍ طمّاعٍ لدَيهِ مال كثير لكنّه سيجعَلها أتعس امرأة في الوجود.

قال لياندر:

- وهل تحبّك؟

فأجابَ:

- نعم تحبّني.

وتابعَ الأمير:

- وأين مكانها؟

فأجابَ العاشق:

- في أحَدِ القصورِ عندَ تخوم هذه الغابة.

فقال لياندر:

- حسناً، انتظرني هنا، قليلاً وآتيكِ بأخبارٍ تُثلج صدرك.

وعلى الفور، اعْتَمَرَ القبّعة الحمراء الصّغيرَة وتمنّى أنْ يصيرَ في القصر. لم يكدْ يصل إليه حتّى سمِعَ موسيقى السّمفونيّة العذْبَة. ولَدى وصوله كانت الكمَنجاتُ والآلات الموسيقيّة تدوّي في أرجاءِ القصر. دخلَ إلى قاعة استقبالٍ فسيحة مليئة بأقارب الشّيخ والآنسَة الشّابة وأصدقائها. كانت ولاً أظْرَف، لكنّ شحوبَ وجهها والكآبَة البادِيَة عليه والدّموع التي تنهمر من عينيها من وقت لآخر تَشي بتعاسَتِها.

حينئذٍ تحوّلَ لياندر إلى عفريت. انتحى ركناً لمراقبة الحضور. رأى والدَي الفتاة الجميلة يؤنّبانها بصوتٍ خفيض على السّيماء العابسَة التي كانت تتّخذها. ومن ثمّ عادا إلى مكانيهما. وقف عفريت خلف الأم ثمّ اقترَبَ من أذنها وقال لها:

- بَما أنّكِ ترغِمينَ ابنتَكِ على الزّواج بهذا السّعدان الهرِم، فثقي أنّك ستلقين عقابك وتموتين قبلَ انقضاءَ ثمانيَة أيّام.

ذُعِرَت المرأة لسَماعِها الصّوت الذي لم ترَ أحداً ينطق به والتّهديد الذي وجّهه إليها فأطْلَقَت صرْخَة عالية وسقطَت أرضاً. سألها

زوجَها عمّا بها. هتفت قائلة إنّه سيُقْضى عليها إذا تمّ زواج ابنتِها وإنّها لن تسمَحَ بذلك الزّواج لِقاءَ كلّ كنوزِ العالَم. أرادَ الزّوج الهزء منها واصِفاً إيّاها بأنّها تتصرّف وكأنّها رائية. لكنّ عفريتاً اقترَبَ منه قائلاً:

- أيّها الشكّاك العجوز إذا لم تصدّق زوجَتَك فإنّ هذا سيُكَلّفُكَ حياتَك أنت أيضاً، أبْطِلْ زواجَ ابنتِكَ وزوّجها بسرعةٍ مَن تحبّ!

وكان لهذه الكلمات أثرها النّاجع. وَطُرِدَ العريس في الحال. قيل له إنّ إبطالَ الزّواج جاء تنفيذاً لأوامر صدَرَت من علٍ. ارتاب في ما يُقال وأرادَ المماحَكة. لكنّ عفريتاً صاحَ في أذنِهِ صيحَة استهزاءٍ «هُو!» «هُو»! فَخالَ الشّيخ أنّه سيُصاب بالصّمم، ومشى عفريت بقوّةٍ على قدَمَيه المصابتين بالنّقْرس وهَشّمَهما.

وجيء بالعشيقِ الذي كان يغالب يأسه في الغابة. كان عفريت ينتظره بلهفةٍ لا توازيها إلاّ لهفة العشيقة الشابّة. أوشَكَ العاشق وحبيبته أن يجنّا فرَحاً. والوَليمَة التي أُعدّت لزفافِ الشّيخ كانت من نصيب العاشقينَ السّعيدَين. تخلّى لياندر عن قبّعة العفريت وظهَرَ فجأةً عندَ بابِ القاعَة وكأنّه غريب اجتذَبَته ضجّة العيد. وما إن لَمَحَه العريس حتّى هُرِعَ يرتمي عند قدَميه شاكراً ممتنّاً وداعياً إليه بكلّ الخير. أمضى لياندر يومين في ذلك القصر، ولو أرادَ لَكانَ جعلَ الزّوجين يُفلِسان لأنّهما كانا يقدّمانِ إليه كلّ ما يتمنّاه المرء. ولم يتخلّ عن صحبتهما الرّائعَة إلاّ على مضض.

تابَعَ سفَرَه وذهَبَ إلى مدينة كبيرَة كانت الملكة فيها تهوى أن تضمّ إلى حاشيتها أجمَلَ أفراد رعيّتها وأرفعهم مقاماً. لدى وصولِه، جعلَ لياندر لنَفسِهِ أكبر موكب وُجِدَ حتّى ذلكَ الحين. ثمّ هزّ وردَته السّحريّة فتدفّق منها المال. ونظراً لجماله وشبابه وذكائه، والمهابة الفريدة التي يثيرها في النّفوس فقد استقبَلَته الملكة وجميع الأميرات

معبّراتٍ له عن تقديرِهنّ واحترامهنّ.

وكان ذلك القصر من أكثر القصور عِشقاً للغزَل والحبّ. كلّ مَن لا يُحبّ فيه يُصبِح هُزأة. أراد لياندر أن يتماشى مع العادة المتّبَعَة وفكّر بأن يعيش مغامَرَة عاطفيّة عابرة قبل رحيله. رَنا إلى إحدى وصيفات الملكة ويَسمّونَها الشّقراء الجميلة. كانت فتاة كاملة الجمال لكنّها في منتهى البرودَة والجديّة لدرَجَة أنّه حارَ في التّصرّف الذي يجب اتّباعه ليَروق لها.

أقام لها حفلاتٍ ساحرة، حفلة راقصَة وملهاة في كلّ ليلة. وأتى لها بتُحَفٍ نادِرَة من سائرِ جهات الدّنيا، ولكنّ هذا كلّه لم يكن يؤثّر بها. وكلّما أبَدَت عدم اكتراثها به، زادَ في إصرارِه على أن يروقَ لها، متشبّثاً بمَسعاه ممعناً فيه لظنّه أنّها لم تعرف الحبّ بَعد. ولكي يتأكّد من ظنّه، أراد أن يمتحن ورْدَته فوضعَها على صدرِ الشّقراءِ ممازحاً إيّاها. وفي الحال أصبَحت الوردَة النّضرَة المتفتّحة يابِسَة ذابلَة فكان ذلك كافياً ليعرف لياندر أنّها تهوى أحدهم. استشعَرَ ذلك بقوّة وأراد أن يقتنِعَ ويَرى الأشياءَ بأمّ عينيه، فلبسَ قبّعة العفريت ودخل مساءً إلى غرفة الشّقراء. رأى أحد الموسيقيّين يدخل إليها وكان شديد البشاعة. ثمّ أنشد ثلاثة أو أربعَة مقاطع ألّفَها على شرَفِها كانت في منتهى الرداءة فيما استمعت إليها الصبيّة وكانّها أجمَل أغنيَة أطربتها في حياتها. وراح الموسيقيّ يحرّك وجهه بطريقة غريبَة وكأنّه أحد الممسوسين فيما كانت تبدي إعجاباً مُبيناً بجماله وتثني عليه لِشدّة هيامها به. وأخيراً سمَحَت لذلك القذرِ بأن يقبّل يدَها على سبيل الامتنانِ للعناء الذي تكبّدَه. أحسّ عفريت بالإهانة فارتمى على العازف الوَقِح ودَفعَه بكلّ قوّته عن إحدى الشّرفات فتهشّم ما تبقّى له من أسنانَ.

لو أنّ صاعِقَة نزلَت بالشّقراءِ لَمَا دُهِشَت على هذا النّحو. ظنّت أنّ ذلكَ حصل بفعلِ روحٍ شرّيرَة. خرج عفريت منَ الغرفة غير مرئيّ، وللحالِ عادَ إلى منزِله وكتَبَ إلى الشقراء كلّ المَلامات التي تستحِقّها. ومن دونِ أن ينتظرَ جوابَها رحلَ تارِكاً مرافقيه في عُهدَة ساسةِ خيولِه ومعاونيه، ومكافِئاً باقي أتباعه. أخذ حصانه الوفيّ أشهب واعْتَلاه مصمّماً كلّ التّصميم على الإقلاع عن الحبّ بعدَ تلك المغامرة.

ابتعَدَ لياندر بسرعَةٍ قياسيّة وأحسّ بالشّجنِ لوقتٍ طويل لكنّ تعقله والغياب أشفياه. ذهبَ إلى مدينة أخرى حيث علِمَ لدى وصولِه أنّ احتفالاً كبيراً يجري لأجلِ فتاةٍ سيتمّ إلحاقها بالكاهِنات رغم أنّها لم تكن تريد ذلك. تأثّر الأمير لحالَتِها. بَدا له أنّ قبّعته الصّغيرَة الحمراءَ لا تنفعه إلاّ بتصحيح الأخطاءِ العامّة وتعزية الحزانى. هُرِعَ إلى المعبد. كانت الطّفلة اليافعَة متوّجَة بالزّهرِ ومرتدية الأبيض وشعرُها يُغَطّيها بالكامل، يقودُها اثنان من إخوتِها من كلّ جانب ممسِكين بيَدِها، وتتبَعهم أمّها مصحوبَة بحشْدٍ هائل منَ الرّجال والنّساء. كانت أقدَم الكاهنات تنتظر عند باب المعبد. وفي الحالِ صرخ عفريت بكلّ قوّته:

- توقّفوا توقّفوا أيّها الأخَوان السيّئانِ وأيّتها الأمّ العديمَة الفِطْنَة. إنّ السّماء تعارِض هذا الاحتفال الذي يجري بالإكراه؛ إذا تجاوزتم حدّكم فسوف تُهَشّمونَ كالضّفادع.

نظروا إلى كلّ الاتّجاهات ليَرَوا مصدَرَ الصّوت المتلفّظِ بهذه التّهديدات المرعبَة. قال الأخَوان إنّه عشيق شقيقتهما المختبئ في إحدى الحُفَر ليتظاهرَ بأنّه العرّاف. لكنّ عفريتاً غضِبَ وأخذ عصاً طويلة ووجّه إليهما مائة ضرْبَة. كانت العصا تعلو وتهبط على أكتافهما وكأنّها مطرَقَة تضرب السّندان. لم يكن من مجال للشكّ في أنّ

الضّربات كانت حقيقيّة. أصيبَت الكاهنات بالذّعرِ وهَرَبْن. وحَذا الجميع حَذوَهُنّ. بقيَ عفريت مع الشّابة الضحيّة. خلَعَ بسرعَة قبّعته الصّغيرَة وسألها بمَ يُمكنه أن يخدُمَها. قالت له بجرأة قلّ نظيرُها نسبةً إلى فتاةٍ في مثلِ سنّها إنّ هنالك فارِساً تهتمّ لأمْرِهِ ولكنّه يحتاج إلى المال، فهزّ لياندر وردَة الجنيّة لطيفة وترك لها عشرَة ملايين: فتزوّجا وعاشا سعيدَين.

أمّا المغامَرَة الأخيرَة التي عاشَها فكانت الأظرَف. عندَ دخولِه إلى غابةٍ كبيرَة، سمعَ صرخات فتيّة شّاكيَة وكأنّ أحداً يجري تعنيفه. نظرَ إلى كلّ الجهاتِ وأخيراً لَمَحَ أربعة رجالٍ مدجّجين بالسلاح يقتادونَ فتاة تبدو في الثالثة عشرَة أو الرّابعة عشرَة من عمْرِها. اقترَب بأقصى سرعته وصاح بهم:

- ماذا فعَلت لكم هذه الطّفلة لكي تعامِلوها وكأنّها جارية؟

قال الأكثر نفوذاً بينهم:

- وما دَخْلكَ أنت؟

أضاف لياندر:

- آمُرُكَ بأن تتركَها في الحال.

فهتفوا ضاحكين:

- نعم، نعم، أوامِرُكَ مُطاعَة.

ارتَمى الأمير أرضاً ووَضَع القبّعة الصّغيرَة الحمراء لأنّه وجَدَ أنّه ليس مضطّراً لأن يُهاجمَ وحيداً أربعة رجالٍ أقوياء قادرين على الإطاحة باثنَي عشَرَ رجُلاً.

عندَما اعتَمَرَ قبّعته الصّغيرَة واختفى عن الأنظار، قال السّارِقون:

- لقد لاذَ بالفِرار، لا يستَحقّ الأمر عناءَ البحث عنه، لنمسكْ فقط بحصانه.

وبَقِيَ أحدهم مع الصّبيّة لحراسَتِها فيما هُرِعَ الثّلاثة الآخرونَ خلف الحصان أشهب الذي جعلهم يتكبّدون عناءَ اللّحاقِ به: واصلَت الفتاة الصّغيرَة الصّراخ والشّكوى.

قالت:

- وا أسَفاه! يا أميرَتي الجميلة، كم كنتُ سعيدَةً في قصرِكِ! كيف بإمكاني العيش بعيداً عنك؟ لو أنّكِ تدرِكينَ التجربة المريرة التي أمرُّ بها لأرْسلت أمازونيّاتكِ[1] ليُنْجِدْنَ مشمشة التّعيسَة.

ما إن سمعها لياندر حتى أمسكَ بذراعَ السّارق، الذي كان يمسك بالفتاة، وأوثقه إلى إحْدى الأشجار دون أن يتسنّى له لا الوقت ولا القوّة للدّفاع عن نفسه، لأنّه لم يرَ مَن قيّده. وعلى أثرِ الصّرخاتِ التي أطلقَها هُرِعَ إليه أحد أصدقائهِ لنجدَتِهِ لاهِثاً وسألهُ مَن أوْثَقَه إلى الشّجرة.

قال:

- لا أعرف، لم أرَ أحداً.

قال الآخر:

- تقول هذا لكي تبرّر نفسك، لكنّي أعرف منذ وقتٍ طويل أنّك جبانٌ رِعْديد. أريد أن أعامِلَكَ كَما تستحقّ.

ووجّه إليه عشرينَ ضربة من سوطِه.

استمتع عفريت كثيراً بصراخه ثمّ اقترب منَ السّارق الثّاني وأمسَكَه من ذِراعيهِ وأوْثَقَه إلى الشجرة قُبالَة صديقه الذي سرعانَ ما قال له:

- حسناً أيّها الرّجل الشّجاع مَن جاءَ إذاً وقيّدَ وثاقك؟ ألسْتَ

---

(١) أمازونيّة: امرأة من سلالة خرافيّة منَ المُحارِبات، وقد صارت التّسمية تُطلَق على كلّ امرأة محاربة.

جباناً كبيراً أنت أيضاً؟

لم ينبس الآخر بكلِمَةٍ بل خَفَضَ رأسَه خجِلاً غير قادرٍ على أن يفهم كيف قُيّدَ إلى الشّجرة ولم يرَ أحداً.

ومع ذلكَ اغتَنَمَت مشمشة (هذا هو اسم الفتاة) تلك الفرصَة لكي تهرُبَ دونَ أن تعرِفَ حتّى وجهَتَها. وما إن رأى لياندر أنّها قد غابَت عن ناظرَيه حتّى نادى ثلاثَ مرّاتٍ أشهبَ الذي شعرَ بأنّ سيّده يريد منه أن يوافيه في الحال فوجّه رَفسَتَينِ إلى السّارقينِ اللّذينِ لِحقا به، فحطّم رأسَ الأوّل وثلاثة أضلُع للثّاني. لم يعد أمامَ عفريت إلاّ اللّحاق بمشمشة لأنّه وجدها جميلَة جّداً. فتمنّى أن يكونَ حيث تكون الصبيّة فتمّ له ما تمنّى. وجَدَها منْهَكة لا بَل في غايَة الإنهاك مستندَة إلى الأشجارِ غير قادرَةٍ على التقاطَ أنفاسِها. وعندَما شاهدَت أشهبَ المتّجهَ برَشاقَةٍ نحوَها، هتفت:

- حسناً، حسناً، هذا حصانٌ جميل سيوصِل مشمشة من جديد إلى قصر الملذّات.

كان عفريت يسمعها فِعلاً لكنّها لا تَراه. اقترَبَ، فتوقّف أشهب وارتمَت فوقه الفتاة. ضمّها عفريت بين ذراعَيهِ ووضعَها برِفقٍ أمامه. آه كم خافَت مشمشة عندَما شعرَت أنّ أحدَهم يضمّها دونَ أن تراه! لم تجرؤ على الحراك، أغمَضَت عينيها خشيَة أن ترى روحاً شرّيرَة ولم تنبس بكلمَة واحدة. الأمير الذي كان يملك في جيوبهِ أطيبَ حبّات الملبّس أراد أن يضعَ منها في فمِها لكنّها كانت تشدّ على أسنانِها وشفتَيها.

وأخيراً نزَعَ قبّعَته وقال لها:

- ولكن يا مشمشة لا حاجَة لأن تخشيني إلى هذا الحدّ. لَكَم أنتِ خجولة: أنا الذي انتَشَلتكِ من أيدي السّارقين.

نظرت إليه فعَرفته.
قالت:
- آه يا سيّدي أدينُ لكَ بحياتي. صحيح، خفتُ كثيراً لوجودي مع أحَدٍ غيرِ مرئيّ.
أجاب:
- لستُ غيرَ مرئيّ ولكن يبدو أنّ عينيكِ كانتا تؤلمانِكِ فمَنَعَتْكِ من رؤيَتي.
صدّقته مشمشة مع أنّها تملك ذكاءً كبيراً. بعدَ أن تحدّثا لبعضِ الوقتِ كيفما اتّفق، رجاها لياندر أن تقول له كم عمرِها ومن أين هي وما هي الصّدْفَة الّتي أوقعتها في قبضة السّارقين.
قالت:
- أنا مَدينة لكَ بالكثيرِ ولا أستطيع أن أرفض لك هذا الطّلبَ وأرْضي فضولَك. ولكن يا سيّدي أتوسّل إليكَ أن تُعْنى بالإسراعِ في إيصالي أكثر ممّا بالاستِماعِ إليّ:
- كان هناكَ جنيّة لا أحَدَ يُضاهيها في المعرفة أحبّت بإضْرارِ أحَدَ الأمراء. ومع أنّها كانَت أوّل جنيّة يعتَريها ضعف الحبّ، فهي لَم تتوانَ عن الاقتِرانِ به رغمَ اعتراضِ جميع الجنيّات اللّواتي كُنّ يستَعرِضْنَ لها باستمرار الخطأ الذي تقتَرفُهُ بحقّ نظام الجنّ. فرفضْن أن تسكنَ معهنّ، وكلَّ ما استطاعَت فعْلَه هوَ أن تبني لنَفْسِها قصْراً كبيراً قريباً من مملكتِهِنّ. لكنّ الأميرَ الذي تزوّجَته سئِمَ منها وتملّكه اليأس لحدسها كلَّ ما يفعله. ما إن تتنازَعُهُ أقلّ رغبةٍ لامرأة أخرى حتّى تسحَرَها وتجعلها مهما تكن جميلة أشدّ النساء قبحاً.
«وانزعج ذلك الأمير من شغف الجنيّة المفرط به فرحَلَ ذاتَ صباحٍ في إحدى العربات السِّراع وابتعَد، ابتعَد كثيراً واختبأ في كهفٍ

داخلَ أحَدِ الجبالِ لكي تفقد له كلّ أثر. لكنّ ذلك لم ينفع لأنّها تبعَته وقالت له إنّها كانت حبلى، واستَحْلَفَته أن يعود إلى القصر، ووعدَته بأن تعطِيَه المالَ والخيولَ والكِلابَ والأسلِحَة وبأنّها ستقيم مسابقات في الفروسيّة وستهيِّئ له جميع وسائل اللّهو. لكنّ كلّ ذلك لم يستطع إقناعَه. كان عنيداً بطبْعِه وماجِناً؛ وبدرت منه مائة كلمَة نابيَة ناعتاً إيّاها بالجنيّة العجوزِ وبالمُستذئبَة.

قالت له:

- أنتَ محظوظٌ جدّاً لكَوْني أكثر تعقّلاً من جنونك؛ أستطيع أن أجعلَ منكَ، لو شئتُ، هرّاً يموء إلى الأبَد على المزاريبِ أو ضفدَعاً بَشِعاً يتخبّط في الأوحال، أو يَقطينة، أو بومَة. لكنّ الشرّ الأكبر الذي يمكنني أن أقترِفَه بحقّكَ هوَ أن أتْرُكَكَ لِنزَواتك. إبقَ في وِكْرِكَ وفي كهفِكَ المظلِم مع الدّببَة ونادِ على راعِياتِ الجَوارِ فتعرف بمرور الوقتِ كيف تميّز بينَ الوضيعات وبين جنيّةٍ مثلي تستطيع أن تَسِمَ نفسَها بمظاهر الفتنة التي تريدها.

ودخلَت على الفورِ إلى عرَبَتِها المجنّحَة وغادَرَت بأسرعَ من الطير. وفوْرَ عودَتها، نقلَت قصرَها وطرَدَت منه الحرّاسَ والضبّاطَ واتّخذت لها حرَساً من الأمازونيّات ونشرتهُنّ حول جزيرَتها لكَي يحْرُسْنَها ويَمْنَعْنَ أيّ رجُلٍ منَ الدّخولِ إليها وسمّت ذلك المكانَ جزيرَة الملذّاتِ الهانئة. كانت تقول دوماً إنّه لا يمكن أن يكون هناكَ ملذّات حقيقيّة وسَطَ معْشَرِ الرّجال. ورَبّت ابنَتَها على هذا المبدأ. وكانت ابنتها على جَمالٍ لا مثيلَ له وهيَ الأميرَة التي أخدِمها أنا. وبِما أنّها مملكة الملذّات فإنّ الشّيخوخة لا يمكن أن تدْرِكنا في قصرِها. وكَما ترى، عُمري يُناهِزُ المائتي عام. عندما كبرَت سيّدَتي ترَكَت لَها والدَتُها الجنيّة جزيرَتَها؛ ولقّنتها المبادئ الجوهريّة لتعيش سعيدَة. ثم

عادَت إلى مملكةِ الجنّ، وأدارت أميرَة الملذّات الهانئة شؤون مملكتَها بطريقَةٍ رائِعَة.

«لا أتذكَر، مُذ أتيت إلى العالم، أنْ رأيت رجالاً آخرين غير اللّصوص الذين اختطفوني، وأنت يا سيّدي. أولئك النّاس قالوا لي إنّ واحِداً بَشِعاً مشوّه الخلقة يُدعى غضبان أرسَلهم لأنّه وقع في غرام سيّدتي بعد أن رأى رَسمها. كانوا يَحومونَ حولَ الجزيرَة ولم يجرؤوا على الدّخول إليها: ذلكَ أنّ أمازونيّاتنا متيَقّظاتٌ دوماً ولا يدَعونَ أحداً يقترب منها. لكن بِما أنّني أعتني بطيورِ الأميرَة، أفلتت منّي ببّغاؤها الجميلة وطارت، فخِفتُ أن تعاقبني وخرجتُ دونَ حذرٍ منَ الجزيرة أبحث عنها فأمسكوا بي وكانوا اصطحبوني معهم لولاً نجدَتُكَ».

قال لياندر:

- إذا كنتِ منَ النّوعِ الذي يقدّر المعروف، أفَلا أستطيع أن آملَ، يا مشمشة الجميلة، أن تَدخليني إلى جزيرة الملذّات الهانئة لكي أرى الأميرة الرّائعَة التي لا تشيخُ أبداً؟

قالت له:

- آه يا سيّدي، سنَهْلَكُ أنا وأنتَ إذا قمْنا بهذه الخطوة! منَ السّهل التخلّي عن خيرٍ لا تعرِفه. لم تزُر هذا القصر من قبل، افرضْ إذاً أنّه غير موجود.

أجاب الأمير:

- ليسَ بالسّهولَة التي تتصوّرينَها أن ينتزِعَ شخصٌ من ذاكِرَتِهِ الأشياءَ التي يستَحْسِنُها. ولا أوافقُ معكِ أنّ الحصولَ على ملذّاتٍ هانئة يُحتّم إلغاءَ جنسِ الرّجالِ منها.

أجابته:

- سيّدي، لا يعود لي البتّ بهذا الشّأنِ. لا بَل إنّني أعترِفُ لكَ أنّه إذا كانَ جميع الرّجالِ يُشبهونَكَ فأنا ميّالَة للتّأكيد على أنّ الأميرَة ستسِنّ قوانينَ جديدة. ولكنّ أربَعة من الرّجال الخمسَة الذين أُتيح لي اللّقاء بهم كانوا أشراراً جدّاً، لذا فأنا أستنتج أنّ عدَدَ الأشرارِ يفوقُ عددَ الأخيار ولذا يجب إبعادُهم جميعاً.

وإذ هيَ تتحدّث على هذا النّحو، وَصَلا عند ضفّة نهرٍ كبيرٍ فقفَزَت مشمشة على الأرض برِشاقة.

قالت للأمير وهيَ تنحَني له إجلالاً:

- وَداعاً يا سيّدي أتمنّى لكَ الكثيرَ منَ السّعادَة وأن تكونَ الأرض كلّها بالنّسبة لكَ جزيرة الملذّات: انسَحبْ من هنا بسرعَةٍ خشيَةَ أن تلمَحَكَ الأمازونيّات.

قال لها:

- وأنا أيضاً يا مشمشة الجميلة، أتمنّى أن يكون قلبكِ رقيقاً لتتذكّريني من وقت إلى آخر.

وَلِلحال ابتعد وتوغّلَ عميقاً في إحدى الغابات القريبة منَ النّهر. نزَعَ السّرجَ واللّجامَ عن أشهَب لكي يستطيع التنزّه ورَعْيَ العشب: وضع القبّعة الصّغيرة الحمراء وتمنّى أن يكون في جزيرة الملذّاتِ الهانِئة. تحقّقت أمنيته في الحال ووجَد نفسَه في المكان الأجمَل في العالم والأقلّ ارتياداً.

كان القصر منَ الذّهب الصّرف وترتفع فوقَه رسوم منَ البلّورِ والأحجارُ تمثّل دائرة البُروج وكلّ رَوائع الطّبيعَة والعلوم والفنون والعناصر، البحر والأسماك، الأرض والحيوانات، رحَلات الصّيدِ التي قامَت بِها ديانا مع حوريّاتِها، مآثر الأمازونيّات، مِتَع الحياة الرّيفيّة، قطْعان الرّاعيات وكلابهنّ، شؤون الحياة الرّيفيّة، الزّراعَة،

مواسِم الحصاد، الحدائق، الأزهار، النّحل. ووَسَطَ مختلفِ تلك المشاهدِ والصّور ليسَ من رجُلٍ واحدٍ أو صبي أو ملاك حبّ صغير. كانت الجنيّة غاضبة جدّاً على زوجِها الطّائش فلعنت جنس الرّجال برمّته وغدْرهم.

قال الأمير في نفسه:

- لم تكذب عليّ مشمشة. حتّى مفهوم الرّجل استُبعِدَ في هذه الأمكنَة. لنرَ ما إذا كان الرّجال يفوتهم الكثير لعَدَم وجودِهم فيها.

ودخلَ إلى القصرِ وعندَ كلّ خطوَة كان يصادفُ أشياءَ عجيبَة. ما إن ينظر بعينيهِ إلى ناحيَةٍ ما حتّى يشقّ عليه كثيراً الإشاحَة بوجهه عنها. كان الذّهب والألماس نادِرينَ ليسَ فقط بالنّسبة لنوعِيّتهما بَل أيضاً لطرائقِ استخدامهما المتقَنة. أنّى التفت رأى فتيات يافعات رقيقاتِ الهيئة بريئاتٍ ضاحِكات وجَميلات كضوءِ النّهار الصّافي. ثمّ اجتاز عدداً كبيراً منَ الأجنِحَة الفسيحَة بعضها مليء بقطَعٍ جميلةٍ من الصّين رائِحَتها المقرونَة بغرابَة الألوانِ والرّسوم راقت له بشكلٍ لا متناهٍ، وبعضها جدرانه مصنوعة منَ الخزَفِ الشفّاف لدرَجَة أنّه يمكن رؤية الضّوءِ من خلالها، وبعضها الآخر من بلّوْرِ الصّخرِ المنقوش، أو منَ العنبرِ والمُرجانِ واللاّزورد والعقيق، وجناح الأميرَة كان مزْداناً كلّه بالمرايا الكبيرَة لأنّه ليسَ ينبغي الإفراط في مضاعفة مكان ساحر كذاك بالإكثار من المرايا الصّغيرة. كانَ عرْشها مصنوعاً من لؤلؤةٍ واحدة محفورَة كصدَفة تجلس فيها بارتِياح. وكان مُحاطاً بالشّاعِدِ المزخرَفَةِ المزدانَةِ بالياقوتِ والألماس، ولكنّ كلّ هذا لم يكن شيئاً إزاءَ جمال الأميرَة الذي لا يُضاهى. كانت هَيئَتها الطّفوليّة تجمع نضارة الصِّبا إلى جلال النّضج. لا شيءَ كانَ يُساوي رقّة نظراتِها وحيويّتَها: كانَت كاملة الأوصاف بحقّ. كانت تبتسم بجاذبيّة

لوَصيفاتها اللّواتي ارْتَدَينَ ثيابَ الحوريّات لكي يُسَلّينَها.

وبما أَنّ مشمشة كانت غائبة، سألَتْهُنّ أينَ هيَ فأجابَت الحوريّات إنّهنَّ فتّشْنَ عنها دونَ جدوى وإنّها متوارية عن الأنظار. وكان عفريت متحرِّقاً إلى الكلام، فحاكى صوت الببّغاء (لأنّه كان هناكَ ببّغاوات عديدة في الغرفة)، وقال:

- أيّتها الأميرَة الفاتنَة، مشمشة ستعود عمّا قريب؛ كان يُحْدِق بها خطَر داهم، خطرُ أن تُخْتَطفَ لو لم يعثر عليها أميرٌ شاب.

مكثت الأميرَة مندَهِشَة ممّا قاله الببّغاء لأنّه أجاب بدقّة تامّة.

قالت له:

- أنتَ جميل جدّاً، أيّها الببّغاء الصّغير، ولكن يبدو لي أنّك تخطئ، لذلك عندما ستأتي مشمشة فسَوفَ أقول لها أن تجلِدَك.

أجابَ عفريت وهوَ يصطَنِعُ صوت الببّغاء:

- لَن يجْلِدَني أحد، سوف تخبركنّ عن رغبَةِ ذلك الغريبِ في زيارَة القصرِ لكي يطرد من أذهانكُنّ الأفكار السيّئة المتجَذّرَة فيها ضدّ جنسِه.

هتفت الأميرَة:

- في الواقع أيّها الببّغاء إنّه لَمِنَ المؤسفِ ألاّ تكونَ بمثْلِ هذا اللَطف في كلّ يوم، لو كنتَ كذلكَ لأَحْبَبْتُكَ كثيراً.

فأجابَ عفريت:

- آه، إذا كان الحديث كافياً لإثارَةِ الإعجابِ فلن أكفّ لحظة عن الحَديث.

أردَفت الأميرة:

- ولكن بربّكنّ ألا تَرين أنّه ببّغاء ساحر؟

قال:

- إنّه عاشق أكثر منه ساحراً!

وفي تلك اللّحظة دخلت مشمشة وجاءت ترتمي عند قدَمي سيّدَتها الجميلة. أخبرتها عن مغامَرَتها ووصفَت لها الأمير بإعجاب وبهجة.

وأضافت:

- كنت سأمقت الرّجال جميعاً لو لم أرَ ذاكَ الرّجل. آه! يا سيّدتي كم هوَ فاتن! إنّ هيئتَه وجميعَ تصرّفاتِه فيها نُبْلٌ وذكاء. وبما أنّ كلّ شيءٍ يقوله مثير للإعجاب، أظنّ أنّني أحسنت صنيعاً بأنْ لم أَصطحبه معي.

لم تُجب الأميرة بشيءٍ لكنّها تابَعَت تسأل مشمشة عن الأمير: هل تعرف اسمَه أو بلادَه أو أصْلَه، من أين هوَ آتٍ وإلى أين هوَ ذاهب. ومن ثمّ استسْلَمَت لحُلْم عميق.

كان عفريت يتفحّصً كلّ شيءٍ وتابع الكلامَ كما بدأ.

قال:

- مشمشة جاحِدَة يا سيّدتي، هذا الغريب المسكين سيموت حزناً إذا لم يركِ.

أجابت الأميرة وهيَ تتنَهّد:

- لِيَمُت إذاً، وبما أنّكَ تقدّم حِججاً وكأنّكَ شخص ذكيّ وليسَ بِصفتِكَ طيراً عاديّاً، فأنا أَحظُر عليك أن تتحدّث إليّ عن هذا الغريب.

كان لياندر مبتهجاً لرؤيةِ تأثيرِ روايَة مشمشة ورواية الببّغاء على الأميرة؛ كان ينظر إليها بلذّةٍ تجعَله ينسى العهودَ التي قطَعها بألاّ يحبّ أبداً في حياتِه: لأنّه لا مجالَ للمقارنَةِ بينها وبين الشّقراء الغنِجة.

قال في نفسِه:

- هل منَ المعقولِ أن تظلّ تحفَةَ الطّبيعَةِ هذه، معجزة أيّامِنا، إلى ما لا نهاية له في هذه الجزيرة دون أن يجرؤ أيّ فانٍ على الاقترابِ منها! ولكن ما همّي إذا كان الرّجال الآخرون مبعَدينَ منَ الجزيرة ما دُمْتُ لحُسنِ الحظّ موجوداً فيها وما دُمْتُ أراها وأسْمَعها وأتأمّلها وأحبّها منذ الآن بجنون.

كان الوقت متأخّراً. عبرت الأميرة في صالون من المرمَر والرّخام السمّاقيّ، حيث كانت نوافير عديدة متدَفّقة تُشيعُ جوّاً منَ النّداوَةَ اللّذيذة. ما إن دخلت حتّى بدأت الموسيقى تُعزَفُ وقُدّمَ عشاء مهيب. كان هناكَ في جوانبِ القاعةِ أقفاص طويلة مليئة بعصافير نادرة تعتني بها مشمشة.

تعلّم لياندر خلال رحلاتِهِ طريقة الغناءِ مثلَها حتّى إنّه قلّدَ طيوراً غير موجودَةٍ في الأقفاص. استمعت الأميرَة متعجّبَة ونظرَت من حولها ثمّ نهضَت عنِ المائِدَةِ واقترَبَت من الأقفاص. عندئذٍ زقزق عفريت بصوتٍ أقوى وأعلى متّخِذاً صوتَ طائرِ الكناري، فقال هذه الكلمات وفْقَ لحنٍ مرتجَل:

إنّ أجملَ أيّام حياتنا
تمضي دونَ بهجَة
إذا غاب الحبّ عنها
ونعيشها بحزن
أحبّوا أحبّوا برِقّة
فكلّ شيء هنا يدعو إلى الحبّ
اختاروا عَشيقاً
لأنّ الحبّ نفسه يتوسّل إليكم أن تفعلوا.

وإذا بالأميرة، وقد ازدادَت دهشَتها، تستدعي مشمشة وتسألها ما إذا كانت علّمَت أحدَ كنارِيّاتها أن تغنّي. أجابَتها بالنّفي ولكنّها أضافَت أنّها تظنّ أنّ طيورَ الكناري تستطيع أن تبزّ الببّغاءَ بالذّكاء. ابتسَمَت الأميرة وتخيّلت أنّ مشمشة أعْطَت دروساً لمعشَرِ الطّيور. وعادَت إلى المائدَةِ لتكمل عشاءَها.

كان لياندر قد قام برحلة طويلة فشعر بالجوع. اقترَب منَ المأدُبَةِ الكبيرَةِ وقد اجتذبته رائحَة الطّعام اللذيذة. كان لدى الأميرة هرّ أزرق اللّونِ تحبّه كثيراً. أمْسَكته إحدى وصيفاتها بينَ يدَيها وقالت لها:

- سيّدتي، ألَفتَ انتباهكِ إلى أنّ الهرّ الأزرقَ جائع.

فأُجْلِسَ إلى المائدَةِ وأمامَه صحنٌ صغيرٌ ذهبيّ وُضِعَت عليه فوطة منَ الدّانتيلاّ المثنيّة بعناية، وعُلّقَ إلى عنقهِ جُلجُل ذهبيّ وعَقدٌ منَ اللآلئ وبدأ يأكل بأبّهة كأنّه راميناغروبيس[1].

قال عفريت في نفسه:

- يا للهول! هذا الهرّ الضّخم الأزرق الذي ربّما لم يُمسك بفأرَةٍ من قبلُ والذي، بكلّ تأكيد، لا ينتمي إلى سُلالةٍ نبيلَةٍ مثلي، أُعْطِيَ الشّرَف بأن يأكلَ مع أميرَتي الجميلة! أريد فعلاً أن أعرف إذا كان يحبّها بمقدارِ حبّي لها وإذا كانَ منَ العدلِ أن أغتذي من الهواء فقط فيما هوَ يلتَهِمُ ألَذّ المآكل.

وانتزَعَ برفقٍ الهرَّ الأزرقَ وجلَسَ في الكنبَةِ ووضعَه في حضنه. لا

(1) رامينا غروبيس، ويُختصَر أحياناً إلى ميناغروبيس: هو اسم أمير القطط في بعض حكايات لافونتين، وكانت الكلمة تُستخدَم في الفرنسيّة القديمة لوصف رجل بدين وثريّ كثير الاعتداد بنفسه.

أحدَ كانَ يرى عفريت: وكيف بالإمكانِ رؤيَته؟ فهوَ يعتَمِرُ القبّعة الصّغيرَة الحمراء. كانت الأميرة تضع في الصّحن الذّهبيّ صغارَ الحِجالِ والسّماني والتدرج، وكانت هذه الطّيور كلّها تختفي بلحْظة وكان كلّ البلاطِ يقول: «لم يأكل الهرّ الأزرق يوماً بهذه الشهيّة من قبل». كان هناك يخنات رائعة؛ تناولَ عفريت شوكة، وممسكاً بقائمَة الهرّ، حاول أن يقرّب أطباق اليخنات: كان يتهادى أحياناً في جذب قائمَته قليلاً. لم يكن الهرّ الأزرَق يفْهَم المُزاحَ فيبدأ بالمواءِ ويريد أن يخدِش كمثلِ قطٍّ يائس. وكانت الأميرة تقول:

- لنقرّب هذه الفطيرة أو هذا اللّحم المقليّ من أزرق (هكذا تسمّيه)، انظروا كيف يصرخ المسكين ليحصل منها على حصّته.

فأخذ لياندر يضحَك بصوتٍ خافتٍ مستمتعاً بتلك المغامرة المسلّية، لكنّه شعر بعطشٍ كبير لأنّه لم يكن معتاداً إطلاقاً على الجلوس طويلاً إلى مآدب مماثلة دون شرب. فأمسكَ بطّيخة صفراء ضخمة بقائمة الهرّ ورَوى بعضاً من عَطَشه. شارَفَ العشاء على الانتهاءِ فهُرِعَ إلى الصّوانِ وأخذ زجاجتيّ شرابٍ طيّب الرائحَة.

دخلت الأميرة إلى ديوانِها. قالت لمشمشة أنْ تتبَعَها وتُغلِقَ الباب. وتبعهما عفريت دون أن يلحظه أحد. قالت الأميرَة لصديقتِها الحميمة:

- اعترفي بأنّكِ بالَغتِ عندَما رسَمتِ لي صورة ذاك المجهول. ليسَ بالإمكانِ، على ما يبدو لي، أن يكون جديراً بأن يُحَبّ كما وصَفتِه!

فأجابت:

- أؤكّد لكِ يا سيّدتي، إذا كان هناك نقصٌ في ما قلته فهذا لأنّني لم أصفه كما يستحقّ فعلاً.

تنهّدَت الأميرة وصمَتَت لوَهْلَة ثمّ استأنفَت الكلام.

قالت:

- أنا ممتنّة لكِ لأنّك رفضتِ اصطحابَه معك.

أجابت مشمشة (وكانت صريحَة حاذِقَة وتخترق أفكارَ سيّدتها):

- ولكن يا سيّدتي، إذا أتى وتأمّل روائع هذه الأمكنة الجميلة فَأيّ سَوْء في ذلك؟ هل تريدين أن تظلّي إلى ما لا نِهايَة له في ركْنٍ معزولٍ محجوبة عن باقي الفانين؟ بِماذا تفيدك هذه العَظْمَة والأبّهة والرّوعة إذا لم يكن أحد يَراها؟

قالت الأميرَة:

- اصمُتي، اصمتي أيّتها الثّرثارة الصّغيرَة، لا تعكّري أبداً صفو الرّاحَة التي أتمتّع بها منذ ستّمائة سنة. أوَ تظنّينَ أنّني لو كنت أعيش حياة قلِقة مضطربَة سيكون بإمكاني أن أستمرّ كلّ هذه السّنوات؟ ليسَ هنالِكَ إلاّ الملذّات البريئة والهانئة التي من شأنها أن تبقيني بمنأىً عن العذاب. ألَم نقرأ في أجمل القصص عن التّغيّرات التي تحصل في أكبرِ الدّول، وانقلابات الحظّ، ومتاهات الحبّ، وآلام الغياب والغيرَة؟ فَما الذي يتسبّب في كلّ هذه الأخطار وهذه الفواجع؟ إنّها العلاقات التي يقيمُها النّاس بعضهم مع بعض. أنا، وبفضل رعاية أمّي، بمنأىً عن كلّ هذه المصائب. لا أعرف مَرارَة الحبّ ولا الرّغبات العقيمَة ولا الحسد ولا الهوى ولا الكره. لِنَعشْ، لِنَعشْ دوماً في اللامبالاة نفسِها!

لم تجرؤ مشمشة على الإجابة؛ انتظَرَت الأميرة بعض الوقت ثمّ سألتها إذا كان لدَيها ما تقوله. فأجابت إنّها تعتقد أنّ من غيرِ المجْدي إرسالها رَسمها إلى قصور عدّة. لن يؤدّي هذا المسْعى إلاّ إلى زيادَة عدد الرّجال التّعَساء لأنّ كلّ واحدٍ سيرغب في الحصولِ عليها وبِما أنّهم لن يستطيعوا إلى ذلكَ سبيلاً فسيكون اليأس مآلهم.

قالت الأميرة:

- إلاّ أنّني أعترِف لك رغمَ ذلكَ أنّني أودّ أن يقع رسْمي بينَ يدي ذلك الغريب الذي تجْهَلين اسمه!

أجابت:

- آه يا سيّدتي لو تعرفين كم يتحرّق شوقاً لرؤيتك؟ هل تريدين زيادة شوقه؟

هتفت الأميرَة:

- نعم؛ في داخلي نزوة غرور كنت أجْهَل وجودها لغاية الآن وهي تحرّك فيّ الرغبة في أن يَرى رسمي.

كان عفريت يصغي إلى الحديث بحذافيره. كلمَة بكلِمَة. وكان يبثّ فيه الأمل تارةً واليأس طوراً.

تأخّر الوقت. دخلت الأميرة إلى غرفتِها لتخلدَ إلى النّوم. كان عفريت يودّ فعلاً أن يتبَعَها إلى غرفة زينتِها. ولكن، حتّى لو كان ذلك في مُسْتَطاعه، فإنّ الاحتِرامَ الذي يُكنّه لها كان سيمنَعه من القيام به. لا ينبغي له أن يسمح لنَفسِه إلاّ بما تمليه عليه آداب السّلوك. وكان عشقه منَ الرّهافة والرقّة بحيث كان يتعذّب لأدنى شيء.

دخلَ إلى ديوانٍ قريب من غرفة الأميرة ليكون له على الأقلّ متعَة الاستماع إليها وهي تتحدّث. كانت في تلك اللّحظة تسأل مشمشة عمّا إذا كانت رأت أشياءَ خارِقة خلال رحلتِها الصّغيرَة.

قالت لها:

- يا سيّدتي، مررت بغابة رأيت فيها حيوانات تشبه أطفالاً صغاراً، وكانت تقفز وترقص على الأشجار مثل سناجب. إنّها قبيحَة جدّاً لكن ليسَ لِبَراعَتِها مثيل.

قالت الأميرَة:

- آه كم أودّ الحصولَ عليها. لو كانت أقلّ رشاقة لأمكننا الإمساك بها.

كان عفريت قـد مَرّ بتلك الغابة، فأدرَكَ أنّها تتحدّث عـن القرود. وللحال رَغِبَ في الحصول عليها فكان له ما شاء: دزينة منها، بينها الضّخم والصّغير ومن ألوانٍ عديدة مختلفة، فوضَعَها بمشقّة كبيرة في كيسٍ كبير، ثمّ تمنّى أن يكون في باريس حيث سمعهم يقولون إنَه يمكّننا الحصول على كلّ ما نريد لقاءَ المال. فذهَبَ إلى دوتيل، وهوَ بائع تُحَف، واشترى عربَة صغيرَة كلّها من ذهـب وأوْثَقَ إليها ستّة قـرودٍ خضرٍ وألْبَسَها بَرادِعَ صغيرة من الجـلدِ بِلَونِ النّارِ مزيّنة بالذّهب. ثمّ ذهب لدى بريوشيه، وهو محرّك دمى شهير، ووَجَد عنده قردَين حاذِقَين جدّاً: الأكثر ذكاءً يدعى بريسكامبيل، والثّاني برسيفوريه[1]، وكانا أنيقَين جدّاً ومهذَّبَين. ألبسَ بريسكامبيل ثياباً ملكيّة ووضعَه في العربَة وكانَ برسيفوريه حـوذيّه. أمّا القرود الأخرى فكانت ترتدي ملابس خدّام الملوك. وكان منظرهم ولا أظرَف. وضـع العربَة والقرودَ المحتذية جزماتٍ في الكيسِ نفسـه. لم تكن الأميرة نامَت فسمِعَت في الرّواق ضجّةَ عربَةٍ صغيرَة، وجاءَت حوريّاتها ليخْبِرْنَها عن وصولِ ملكِ الأقزام. وفي الوقت نفسه دَخَلت العربة إلى غرفتِها يُرافِقها موكب القرود؛ ولم يتوانَ قرود الرّيف عن القيـام بخِدَعٍ وبهلوانيّات تساوي تلك التي يقوم بها بريسكامبيل وبرسيفوريه. كان عفريـت، والحقّ يقال، يقود اللّعبة كلّها: يسْحَب قردَ العربة الصّغيرة الذي كان يمسك بعلبة

(1) بريسكامبيل هو اسم أحد أشهر الممثّلين الهزليّين الفرنسيّين في القرن السّابع عشر، وبرسيفوريه (ومعناه «مقتحم الغابات») اسم أحد أبطال روايات الفرسان في الفترة ذاتها.

مزدانة بالألماس فيقدّمُها هذا الأخير بأناقة متناهية إلى الأميرة. فتُسارِع إلى فتحِها وتجد في داخلها رسالة قرأت فيها الأبيات التّالية:

كم منَ المَفاتن! وكَم منَ الملَذّات
فيك أيّها القصر اللّذيذ، كم أنتَ ساحِر
لكنّكَ لسْتَ ساحِراً
بقدرِ تلكَ التي أعشقُها.
طوبى لكِ أيّتها السّكينَة
التي ترفرفُ فوقَ هذا المكانِ الرّيفيّ
من أجلك أفقدُ حريّتي
ولا أجرؤ على الكلامِ عنها ولا على التّعريف بنفسي.

مِنَ السّهلِ رؤيَة الدّهشَة التي اعْتَرَت الأميرة. وفي تلك اللّحظة أشارَ بريسكامبيل إلى برسيفوريه لكي يأتيَ للرّقص معه. إنّ أشهَر قرود المشعبذين لا تداني هذينِ مهارَةً. لكنّ الأميرَة التي انشغلَ بالُها وأرادت أن تعرفَ مصدَرَ تلك الأبيات، لم تلبث أن صرَفَت المهَرّجينَ بأبْكَرَ ممّا كانَ بإمكانها أن تفعَلَ، مع أنّ القرودَ سلّتْها كثيراً باديءَ الأمر وأضحكتها حتى البكاء. أرادت الاختلاء بنفسها والاستسلام كليّاً لأفكارها علّها تكشف ذلك السرّ المحيّر ولكن دون جدوى.

سُرّ لياندر لأنّ الأميرة قرأت بإمعانٍ أشعارَهُ واستمتعت بمشاهَدَة القرود، لكنّه أراد أن يخلد إلى الراحَة قليلاً لأنّه كان متعباً جدّاً. خشي أن يختارَ جناحاً تسكُنُه إحدى حوريّات الأميرة. فبَقِيَ لبعضِ الوقتِ في الرّواقِ الكبيرِ للقصر ثمّ نزلَ ووجَدَ باباً مفتوحاً. دخلَ دونَ ضجّةٍ إلى جناحٍ في الأسفل، هو الأجمل والأظرَف منظراً

إطلاقاً: كان هنالِكَ سريرٌ منَ الشّاشِ الذّهبيّ والأخضر المَكَشْكَش المزدانِ بشرائط منَ اللآلئِ وشرّابات منَ الياقوتِ والزمرّد. كانَ لَا يزال هنالِك بعض الضّوء فيستطيعُ تأمّلَ ذلك السّرير الفخم الوثير. وبعدَ أن أحْكَمَ إقفالَ الباب، غفا، لكنّ ذكرى أميرته الجميلة أيقظَته مرّات عدّة ولم يستطع الامتِناعَ عن إطلاقِ تنهيدات العشق باتّجاهِها.

نهضَ باكِراً جدّاً وأمْضى وقتَه متلَهّفاً لِلقائِها حتّى عيلَ صبره، والتفتَ إلى كلّ الجهات، فلمَحَ لوحَة مجهّزَةً وألواناً. فتذكّرَ في الحال أنّ أميرَته تحدّثت إلى مشمشة عن رَسْمِها. ومن دونِ أن يُضيّعَ لحظةً واحِدَة (لأنّه كان يرسُمُ أفضلَ من أبْرَعِ الرسّامين) جلَسَ أمامَ مرآة كبيرَة وقامَ برَسمِها؛ ورَسَمَ ضمنَ إطَارٍ بيضاويّ الشكل صورَةَ الأميرَة وقد استَحْضَرَها في خياله بحيويّةٍ لا يحتاجُ معها لرؤيتها للقيام بذلك الرّسم الأوليّ. ثمّ راح يُكمِل عمَلَه دون أن تلاحِظَ ذلكَ. كانت الرّغبَة في إثارَة إعجابها حافِزَه للعمل، لذا لم يسبق له أن أنجز رسماً بهذا الإتقان. ورسَمَ نفسه جاثياً على ركبتهِ حامِلاً رسم الأميرَة بيَد، وَباليَدِ الأخرى لُفيفَة كتَبَ عليها:

- إنّها أرْوَعُ في قلبي.

عندَما دخلت إلى ديوانها، دُهِشَت لرُؤيَتِها رسمَ رجل. وحدّقَت به بدَهشَةٍ متعاظِمَة لا سيّما وأنّها تعرّفَت إلى رَسْمِها أيضاً؛ كما أثارَت الكلمات التي كُتِبَت على اللّفيفة فضولها بشاكلةٍ لا تُوصف وحملتْها على أجنحة الحلم. كانت وحيدَة في تلكَ اللّحظَة ولا يمكنُها إلاّ أن تصف ما يجري لها بأنّه أمر خارِق. لكنّها عادت وأقنعَت نفسَها بأنّها مشمشة هيَ التي دبّرَت لها تلك المفاجأة. بقيَ لها أن تعرِفَ ما إذا كانت صورَة ذلك الفارس صنيعَ خيالِها أم هي صورة كائن حقيقيّ. نهضَت فجأةً وهُرِعَت تُنادي مشمشة. كان عفريت قد دخلَ مع

قبّعتِهِ الحمراء الصّغيرَة إلى الدّيوان متحرّقاً جدّاً لسَماع ما سيَحدث.

قالت الأميرَة لمشمشة أن تلقِيَ نظرَة على ذلك الرّسم وأن تعبِّرَ عن شعورِها. ما إن نَظَرَت إليه هذه حتّى هتَفَت:

- أؤكّد لكِ يا سيّدَتي أنّه رسْمُ هذا النّبيل الغريب الذي أدينُ له بحَياتي. أجل إنّه هوَ بعينه، لا أستطيع الشكّ بذلك؛ هذه هيَ ملامِحه، قامته، شعرُه، سيماؤه.

قالت الأميرَة مبتسِمَة:

- تتظاهَرين بأنّكِ مندَهِشَة لكن أنتِ وضَعْتِهِ هنا.

أجابت مشمشة:

- أنا، يا سيّدتي! أقسمُ لكِ أنّني لم أرَ في حياتي هذه اللّوحَة. هلْ منَ المعقولِ أن أكونَ منَ الوقاحَةِ بحيث أخفي عليكِ شيئاً يتعلّق بك؟ وبأيّة معجزة استطَعت القيام بهذا الرّسم، فأنا لا أعرف الرَسمَ ولم يسبق لرَجُلٍ أن دخلَ إلى هذه الأمكنة. ومع ذلك ها هوَ مرسومٌ إلى جوارك!

قالت الأميرَة:

- تملّكَني خوفٌ مُريعٌ: لا بدّ أنّ شيطاناً حَمَله إلى هنا.

قالت مشمشة:

- سيّدَتي، أليَسَ ملاك الحبّ هو من جاء به؟ إذا كنتِ توافقينني الرأي، فأنا أجرؤ على تقديم نصيحَة لكِ: لنحرِقْهِ الآن.

قالت الأميرة متنهّدَة:

- يا للأسَف! يبدو لي أنّني لا أستطيع تزيين ديواني بأفضل من هذا الرّسم.

نظرَت إليه وهيَ تتفوّه بهذه الكلمات. لكنّ مشمشة ظلّت مصرّة على رأيِها القائل بحرقِ شيءٍ جاء إلى هناك بفعلِ قدرَةٍ سحريّة.

قالت الأميرَة:

- وهذه الكلمات: إنّها أروع في قلبي، هل نُحْرِقُها أيضاً؟

أجابَت مشمشة:

- يجب ألاّ نوفّرَ شيئاً، ولا حَتّى رسمَكِ.

وسارَعَت على الفورِ لتحضرَ ناراً. اقترَبَت الأميرَة منَ النّافذَة لأنّها عاجزَة عن رؤيَةِ رسم يُحدِث فيها تأثيراً كبيراً. لكنّ عفريت لم يَتَحمّل فكرَة أن تُحْرَقَ اللّوحَة فاغتنَمَ تلك الفرصة لأخْذها والهرَب دونَ أن تنتبِهَ لذلك. ما كادَ يخرج منَ الدّيوان حتّى التَفَتَت لتنظرَ مرّة أخرى إلى الرّسم السّاحِرِ الذي راق لها كثيراً. ولشدّ ما كانت دَهْشَتها عندَما رأت أنّه اختَفى. بحثَت في كلّ الجهات. عادَت مشمشة فسألَتها إذا كانت هيَ التي انتزَعَته. أكّدَت لها أنْ لا. وهذه الحادِثَة الأخيرَة أثارَت فيهما الرّعب.

وفي الحال، خبّأ الرّسمَ وعادَ على عقبَيه. كان يجد متعة كبيرَة في سَماع الأميرَة الجميلة ورؤيتِها مراراً. كان يأكل كلّ يوم على طاولَتِها معَ الهرّ الأزرَق الذي لم يكن يبشّ به. ومع ذلكَ كانَ ينقصُهُ الكثير لكي يُحِسّ بالرّضا لأنّه لم يكن يجرؤ على التحدّث إليها ولا على أن يُظهر نفسَه أمامها، ثم إنّه منَ النّادِرِ أن يُحَبّ شخص غير مرئيّ.

كانت الأميرَة تهوى الأشياءَ الجميلة، وفي الحالة العاطفيّة التي كانت تمرّ بها شعرَت بحاجَة إلى التّسليَة. وذاتَ يوم كانت برفقَة جميع حوريّاتها فقالت لهنّ إنّها ستَسْتَمْتِع كثيراً بمعرِفَة كيف كانت أزياء النّساءِ في مختلَفِ القصورِ في العالم لأنّها تريد أن ترتدي بالطّريقة الأكثرِ أناقة. ما جعَلَ عفريت يصمّم على القيام بجوْلَةٍ حول العالم. ارتدى قبّعته الصّغيرَة الحمراء وتمنّى نفسَه في الصّين، وهناك ابْتاعَ أجملَ الأقمِشَةِ واحتفَظَ بِطِرازِ الثّياب. ثمّ طارَ إلى سيام حيث فعَلَ

الشّيءَ نفسَه. وَجالَ على النّواحي الأخرى منَ العالم في ثلاثةِ أيّام. وكلّما حمّلَ الثّيابَ كان يأتي إلى قصرِ الملذّاتِ الهانئة لكي يُخفِيَ في إحدى الغرف كلّ ما كان يُحْضرُه. وعندَما جمّع عدَداً منَ المقتنيات النّادرة التي تفوق الوصف (لأَنّ المالَ كان متوفّراً لديه دون عناء إذ كانت وردَته السّحريّة تزوّدُه به باستمرار)، وذهبَ يشتري خمس دمى أو ستّاً جلَبَ لها ملابِسَها من باريس؛ فَباريس هيَ المكان حيث الموضَة تتطوّر باستمرار. وكان هناكَ أزياء بكافّة الأساليب وبروعَةٍ لا مثيلَ لها. وضعها عفريت في ديوان الأميرَة.

عندَما دخلَتْ إلى الدّيوان لم يسبق لها أن اعترَتها مثْل تلك الدّهشة اللّذيذة: كانت كلّ دمْيَةٍ تُمسكُ بهديّة، إمّا ساعاتٍ أو أزرارَ الماسِ أو عقوداً. والدّميَة الأكثر تميّزاً كانت تحمِل علبة وُضعت فيها الرّسوم الشّخصيّة. فتَحَتها الأميرَة ووَجَدَت فيها رَسْمَ لياندر، فعَرفته لأنّها تحتفظ بِذكرى رسمِهِ الأوّل. صرخَت بصوتٍ عالٍ، ثمّ نظَرَت إلى مشمشة وقالت لها:

- لا أفهمُ شيئاً ممّا يجري منذ بعضِ الوقتِ في هذا القصر: طيوري مفعَمَة ذكاءً. لا أتمنّى شيئاً إلاّ ويتحقّق، وأرى مرّتينِ رَسْمَ ذاكَ الذي أنقذكِ من أيدي اللّصوص. وانظري إلى الأقمِشَةِ والألماسِ والمطرّزاتِ والدانتيلاّ والتُّحَف التي لا تنتهي. مَن هيَ إذاً الجنيّة، مَن هوَ الجنيّ الذي يُعْنى بأن يؤدّي لي هذه الخدَمات الرّائعَة؟

وإذ سَمِعَها لياندر تتكلّم، كتبَ هذه الكلمات على ألواحِ الكتابَة ورَماها أرضاً عندَ قدمَي الأميرَة:

لا، لستُ جنيّاً وَلا جنيّة،
أنا عاشقٌ تعيس

لا يجرؤ أن يَظهَرَ لعَينيكِ،
على الأقلّ اندُبي حظّي!
الأمير عفريت

كانت ألواح الكتابة ملْتَمِعَة بالذّهب والألماس. ما إن رأتها حتّى فتَحَتها وقرأت ما كتَبَ عفريت بدهشَةٍ لا مثيلَ لها.

قالت:

- هذا الكائن غير المرئيّ هوَ مسخ إذاً لأنّه لا يجرؤ على الظّهور. لكن، لو كانَ صحيحاً أنّه متعلّق بي لَكانَ متحَفّظاً وَلَما أراني هذا الرّسم المؤثّر. لا بدّ أنّه لا يحبّني فيجرؤ على تعريضِ قلبي لهذه التّجربة؛ أو أنّ لدَيهِ فكرة عاليَة عن نفسه فظنّ نفسَه جديراً بالحبّ وأكثر.

أجابت مشمشة:

- سمعتُ يا سيّدتي أنّ العفاريتَ مكوّنة من هواءٍ وَنارٍ وأنّها لا تملك جسداً وأنّ ما يحرّكها هو روحها وإرادَتها فقط.

أجابت الأميرة:

- هذا يُريحُني جدّاً لأنّ عاشِقاً مماثلاً لا يمكِنُه أن يعَكّرَ صَفْوَ أيّامي.

كان لياندر مبتهجاً لسَماعِه الأميرة ورؤيَتِها منشَغِلة إلى هذا الحدّ برَسْمِه. تذكّر أنّه كان هناك، في مغارةٍ غالباً ما تذهب إليها الأميرَة، قاعدة تمثالٍ مخصّصة ليوضَع فوقها تمثال ديانا غير المنجز. فاستقرّ عليها مرتدِياً ثوباً رائعاً، ومكلّلاً بالغار، وحامِلاً في يدِهِ قيثارَة يعزفُ عليها بأكثر براعةً من أبولون[1]. انتظَرَ بفارِغِ الصّبرِ أن تأتي إلى المغارَةِ

(1) أبولون: إله النّور والموسيقى والفنون والآداب في الميثولوجيا الإغريقيّة. وكان تجسيداً للجمالِ الذّكوريّ.

كما تفعل كلّ يوم لِتَحلم هناك بالرّجل المجهول. ما قالته لها مشمشة عن لياندر مقروناً بمتعةِ النّظرِ إلى رَسْمه لم يترُكا لها أيّة راحة. باتت تحبّ الوِحْدَة ومِزاجُها المرِح تغيّرَ كثيراً لِدَرَجة أنّ حوريّاتِها بتنَ لا يَعرِفْنَها.

عندما دخلت إلى الكهف أشارَت إليهنّ ألاّ يَتْبَعْنَها فابتعَدَت حوريّاتها، كلّ واحدةٍ في ممرّ منفصِل. ارتمَت على سريرٍ منَ العشبِ الأخضرِ. تنهّدَت وذَرَفَت بضعَ دمعاتٍ وتحدّثت إلى نفسِها ولكن بصوتٍ خافت لم يستطع عفريت سَماعَه. كان قد وضعَ القبّعة الحمراء الصّغيرة فلَم ترَه ثمّ نزَعَها فرأتْه بدهشَة فائقة. ظنّت أنّه تمثال لأنّه تظاهَرَ باتّخاذ الوضعيّة نفسِها دون تغيير. نظرَت إليه بفرَح مشوبٍ بالخشية. وتلك الرّؤية غير المتوقّعة كانت تدهِشُها، ولكنّ في العمقِ كانت اللذّة تطردُ الخوف، واعتادَت على رؤية هيئةٍ قريبةٍ جدّاً منَ الحقيقة، وعندئذٍ دَوْزَنَ الأميرُ قيثارَتَه وِفقاً لصوتِه وغنّى هذه الكلمات:

خطيرٌ هوَ المكوث في هذا المكان
إذ يُصبِحُ فيه عديم الاكتراثِ حسّاساً
عَبثاً ادّعَيتُ أنّني لن أغرم مُجَدّداً،
فهنا أنّى لي ذلك!
لماذا يُقال إنّ هذا القصر
هوَ مكانُ المَلَذّاتِ الهانِئة؟
ما إن دخلْتُه حتّى فقَدْتُ حريّتي
ولكي أحْمِيَ نفسي، تبدو مساعيَّ عقيمَة
أَسْتَسْلِم لحبّي المضطرم

وأريد أن أكونَ هنا حتّى آخرِ يومٍ لي.

مَهما يَكن جميلاً صوت لياندر، لم تستطع الأميرة أن تقاوِمَ الخوفَ الذي تَمَلّكَها. شحُبَت فجأةً وسَقَطَت مغمِيّاً عليها. ذُعِرَ عفريت وقفزَ عن القاعِدَة أرضاً وأعادَ ارتداءَ قبّعتِهِ الصّغيرة الحمراء لكي لا يراه أحد. أخذ الأميرة بين ذِراعَيهِ وأغاثَها بكلّ اندفاعٍ وَحَماس. فتحَت عينيها الجميلتين ونظرَت إلى جميعِ الجِهاتِ باحثةً عن مُغيثها لكن دون جدوى. ثمّ شعرَت بأحَدٍ قربَها يمسِكُ بيدَيها ويقبّلهما ويبلّلهما بدموعِهِ فمكثَت صامتة طويلاً ولم تجرؤ على الكلام. وكانت روحُها المضطربَة تتأرجح بينَ الخشيَة والرّجاء. كانت تخشى ذلك الجنيّ لكنّها تحبّه في الوقت نفسه عندما يتّخذ هيئة المجهول. وأخيراً هتفت:

- أيّها العفريت، أيّها العفريت الغاوي، أتُراكَ تكونُ ذاكَ الذي أتَمنّاه؟

ولدى سماعِ عفريت هذه الكلمات، كان على وشك أن يُعلن عن نفسِهِ لكنّه لم يجرؤ على القيامِ بذلك.

قال في نفسِهِ:

- إذا كنت أخيفُ المرأة التي أعشقها، وإذا كانت تخشاني فهذا يعني أنّها لن تستطيع أن تحبّني.

جعلَته هذه الأفكارُ يلوذ بالصّمت وأرغَمَته على الانسِحابِ إلى زاويَة في الكهف.

فالتفتت الأميرَة، وقَد ظنّت نفسَها وحيدَة، ونادَت مشمشة وروَت لها عجائبَ التّمثالِ المتحرّكِ وأنّ صوتَه كان سماويّاً، وأنّها خلالَ غيبوبَتِها أغاثَها الجنيّ على نحوٍ رائع.

قالت:

- يا خسارَة أن يكون مشوّهاً وقبيحاً! لأنّه أمِنَ المعقولِ أن تكونَ هناكَ تصرّفات أجمل وأحَبّ من تصرّفاته؟

فأجابت مشمشة:

- وَمَن قال لكِ يا سيّدَتي أنّه كان كما تصوّرتِه؟ ألَمْ تكن بسيكيه[1] تظنّ أنّ الحبّ أفعى؟ ما أشبه مغامرتِك بمغامَرَتها، ولسْتِ أقلّ جمالاً. إذا كان كوبيدون[2] هوَ مَن يحبّكِ أفَلا تقَعينَ في غرامه؟

قالت الأميرة وهيَ تحمرّ خجلاً:

- إذا كان كوبيدون والمجهول شخصاً واحِداً فإنّي لَأريدُ حقّاً أن أغْرَمَ بكوبيدون. ولكن للأسف ما أبعدني عن مثلِ هذه السعادَة! أنا متعلّقة بوهم، وهذا الرّسم المحتّم للمجهول، مقروناً بما قلته لي عنه، يرميني في حالٍ تتناقض والتّعاليمَ التي تلقّيتُها من والدَتي، ولا أستطيع بالتّالي إلاّ الخوف منَ العقاب.

قالت مشمشة وهيَ تقاطِعُها:

- ولكنِ مهلاً يا سيّدتي، أليسَ لديكِ ما يكفيكِ من متاعب؟ فلِمَ التحسّب لمَصائبَ لن تحدُث أبداً؟

منَ السّهلِ تخيّل مقدارِ اللذّة التي أثارَتها هذه المحادثة في نفس لياندر.

إلاّ أنّ غضبان، ذلك الصّبيّ البالغ الشّبَه بأحد الأقزام، والذي كان لا يزال مغرَماً بالأميرة دونَ أن يَراها، كان ينتظر بلَهْفَةٍ عودَة رِجالِهِ الأربعة الذين أرسَلَهم إلى جزيرَة الملذّات الهانِئة وعادَ

(1) بسيكيه Psyché: أميرة في الميثولوجيا الرّومانيّة ألْهَمَت كوبيدون الحبّ وبعدَ مغامراتٍ عدّة أصبحَت زوجَته. رُفِعَت إلى مرتبةِ إلهة. سبقت الإشارة إليها.

(2) كوبيدون: هو في الميثولوجيا الرّومانيّة إله الحبّ، يوازي إيروس لدى الإغريق. يُعتبَر رسول الحبّ ويُرسَم غالباً في هيأة طفل جميل يحمل قوساً وعلى أهبة إطلاقِ سِهامه.

منهم رجل واحدٌ وأخبرَه عن كلّ شيءٍ. قال له إنّ الجزيرَة تحْميها الأمازونيّات، وإذا لم يجهّز هو جيشاً ضخماً لمهاجمة الجزيرة فلن يدخلَ أبداً إليها.

كان الملك والده قد توفّيَ لتوّهِ فوجَدَ نفسَه سيّداً على كلّ شيء. فجمَعَ أكثر من أربعِمائةِ ألف رجلٍ وسارَ على رأسِهم. كانَ جنرالاً مهيباً فعلاً: يمكن القول إنّ القردَين بريسكامبيل وبرسيفوريه كانا أفضل منه منظراً. كان حصان القتالِ لديهِ لا يزيد ارتفاعُهُ على متر. وعندَما لمحَت الأمازونيّات ذلك الجيش الضّخم جِئنَ لِيُعْلِمنَ الأميرة التي أرسلت في الحال مشمشة الوفيّة إلى مملكة الجنيّات لكي تتوسّل إلى أمّها أن تقولَ لها ما الذي يجب فعله لِطرْدِ غضبان القصير من مملكَتِها. لكنّ مشمشة وجَدَت الجنيّة غاضبة جدّاً.

قالت لها:

- لست بغافلة عمّا تفعله ابنتي. الأمير لياندر في قصرِها، يحبّها وتحبّه. إنّ كلّ الاحتياطات التي اتّخذتها لم تستطع حمايتها من استبداد الحبّ؛ ها هيَ واقِعَة تحت سطوَتِهِ المشؤومَة. واأسَفاه! الحبّ المتوحّش لم يكتفِ بعد بالعذابات التي تسبّب لي بها، لا يزال يتحكّم بأغلى ما عندي! تلكَ هيَ حِكمَةَ القدَر ولا أستطيعُ الوقوفَ في وجهِها. انصرِفي يا مشمشة لا أريد أن أسْمَعَ شيئاً عن هذه الفتاةِ التي تُضنيني حالَتها!

جاءت مشمشة تُعْلِمُ الأميرة بهذِهِ الأخبارِ السيّئة، ما أغرَقَها في يأسٍ كبير. كان عفريت قربَها دونَ أن تَراه ويُعذّبه ألمها المُبرح. لم يجرؤ على التحدّث إليها في تلك اللّحظة؛ لكنّه تذكّرَ أنّ غضبان كان شديد التعلّق بالمال؛ وإذا قُدّمَت ثروة ضخمة فقد يتراجَعُ عن مخطّطاتِه.

ارتَدى عفريت ثوبَ أمازونيّة وتمنّى أن يكون في الغابة ليَستَعيدَ حِصانَه. ما إن نادى على جَواده أشهب حتّى جاءه قافزاً ومَنْطنِطاً لأنّه كان سَئِمَ كثيراً لابتِعادِ سيّده العزيز عنه. لكن عندَما رآه مرتدِياً ثوباً نسائيّاً لم يتعرّف إليه وخَشيَ أن يكون في الأمر خدعة ما. وصَلَ ليّاندر إلى معسكر غضبان فاعتَقدَ الجميع أنّه أمازونيّة لجَمالِه الفائق. ذهبوا يقولون للملك إنّ سيّدَة شابّة تطلب التحدّث إليه من جانب أميرَةِ الملذّات الهانِئة. أخذ معطَفَه الملكيّ بسرعَة وجلسَ على عرشِهِ فبدا كضفدَعَة ضخمَة تتظاهَر بأنّها ملك.

ألقى ليّاندر خطبتَه وقال له إنّ الأميرَة تُفَضّل حياة هادِئة وهانئة على متاعب الحرب وقد أرسَلته لكي تقدّم له منَ المالِ بقدرِ ما يشاء شَرْطَ أن يترُكَها بِسَلام. وإذا ما رُفِضَ هذا الاقتراح، فلَن تألو جهداً للدّفاع عن نفسِها. أجاب غضبان أنّه يريد فعلاً أن يشفق عليها وأن تمنَحه شَرَفَ حمايتِها، وَما عليها إلاّ أن تُرسِلَ إلى مملكتِه مائةَ ألفِ ألفِ ألفِ مليون ليرة ذهبيّة وعندَئذٍ سوفَ يعود إلى مملكته. قال له ليّاندر إنّ عدّها سيَسْتَغرق وقتاً طويلاً جدّاً وإنّه ما عليه إلاّ أن يقول كَمْ غرفة يريدها مليئة بالمال، وإنّ الأميرَة منَ السّخاء والجبَروت بحيث تعطي دون حساب.

مكث غضبان مندَهِشاً من هذا العرض فبدَلَ أن يُطلَبَ منه إخفاض القيمَة، يُقترَح عليه زيادَتها. فكّر في نفسِه بأنّه يجب أخذ كلّ المال الذي يستطيع ثمّ اعتقال الأمازونيّة وقتلِها لكي لا تعودَ إلى سيّدَتها.

قال لِليّاندر إنّه يريد ثلاثين غرفة كبيرَة مليئة كلّها بالقطع الذّهبيّة وإنّه يعطي كلمَته كملك بأنّه سيتراجَع عن حملتِهِ الحربيّة. اقتيدَ ليّاندر إلى الغرف التي يُفترَض به أن يَمْلؤها ذهباً. أخذ الوردَة السّحريّة

وهزّها باستمرار. فتكدّسَت اللّيرات واللويسيّات والرّيالات الذّهبيّة[1]... كلّ ذلك انْهَمَرَ مثلَ مطر غزير: لا شيءَ في العالم أجملَ من ذلك المنظر.

ابتهَجَ غضبان وأخذته نشوَة، وكلّما رأى ذهباً زادَت رغبَته في الإمساكِ بالأمازونيّة وبالأميرَة. وما إن امتلأت الغرَف الثّلاثون حتّى صرَخ بحُرّاسه:

- اقبضوا، اقبضوا على هذه اللصّة فهيَ تجلب لي مالاً مزيّفاً.

أرادَ جميع الحراس الانقضاض على الأمازونيّة ولكنّ عفريتاً وضَعَ فوراً القبّعة الصّغيرة الحمراءَ واختفى في الحال. ظنّوا أنّه خرجَ فركضوا خلفه وتركوا غضبان وحيداً. وفي تلك الأثناء، أمسك به عفريت كمن يُمسك بفرْخ دجاجٍ، وأجهزَ عليه من دون أن يرى التّعيس القصير اليدَ التي كانت تمسِك به.

وعندما انتهى عفريت من أمر غضبان، تمنّى أن يكون في قصرِ الملذّات. كانت الأميرَة تتنزّه وهيَ تفكّر بحزنٍ في ما قالته والدتها وبالوسائلِ اللاّزمة لِدَحْرِ غضبان، وكانت تجد أنّ تلك الوسائلَ مستَعْصيَةَ لأنّها وحيدَة مع عددٍ صغيرٍ منَ الأمازونيّات اللّواتي لا يستطِعنَ الدّفاعَ عنها في مواجهةِ أربعمائة ألف رجل. وفي الحال سمِعَت صوتاً يقول لها:

- لا تخشَي شيئاً أيّتها الأميرة الرّائعة، لن يؤذيكِ غضبان بعد الآن أبداً.

تعرّفَت مشمشة إلى صوتِ لياندر فهتَفت:

(1) إنّ العُملات التي تذكرها الكاتبة، لا في هذه الحكاية وحدها بل في مجمل هذا الكتاب، هي خليط من عُملات فرنسيّة وغير فرنسيّة (إسبانيّة بخاصّة)، وتعود إلى حقَب مختلفة تجمع هي بينها على سبيل المبالغة وعلى هوى مخيّلتها الأدبيّة.

- أؤكّد لكِ يا سيّدتي أنّ اللامرئيّ الذي يتكلّم هو الغريب الذي قدّمَ لي النّجدَة.

بدَت الأميرَة مندَهِشَة ومبتَهِجَة.

قالت:

- آه إذا كانَ صحيحاً أنّ عفريت والغريب هما شخص واحد، أعترف أنّني سأُسَرّ كثيراً بالتّعبير له عن امتِناني وشكري!

قال عفريت:

- سوف أعمل كلّ ما في وسعي على استحقاقهما.

وبالفعل، عادَ إلى جيش غضبان حيث انتشر خبرُ موتِ هذا الأخير للتوّ. وما إن ظهَرَ لياندر هناكَ بلباسه العاديّ حتّى هُرِعَ الجميع نحوَه. أحاطَ به القادَة والجنود وهم يطلقون صيْحات الابتِهاجِ واعترفوا به مِلكاً عليهم وبأحقيّته في تولّي العرش. فأذِنَ لهم بأنْ يتقاسَموا بِسَخاء فيما بينَهم الغرف الثّلاثين المليئة ذهَباً بحيث يظلّ ذلك الجيش غنيّاً إلى الأبد.

وبَعدَ بضعَة احتفالات أكّدَت لِلياندر إيمان جنوده به، عادَ إلى أميرَته، آمِراً جيشَه بأن يذهب إلى مملكته على دفعاتٍ مُتتاليَة. كانت الأميرة قد خلَدَت للنّوم، والاحترام الكبير الذي يُكنّه لها ذلك الأمير كان يمنَعه منَ الدّخولِ إلى غرفتِها؛ انسَحَبَ إلى غرفتِهِ لأنّه كان ينامُ دوماً في الأسفل. وكان هوَ نفسه تَعِباً جدّاً وبحاجَة إلى الرّاحَة. ما جعلَه ينسى أن يغلِقَ الباب بعنايَة كما يفعل عادةً.

كانت الأميرة تختنق منَ الحَرّ والقلق. نهضت باكراً أبكَرَ منَ المعتاد مع الفجر ونزَلَت في ثيابِ النّوم إلى شقّتِها السّفلى، ولكن كَم كانت دهشتُها كبيرَة أن تجدَ لياندر نائِماً على أحَدِ الأسرّة! تسنّى لها الوقت كلّه لكي تنظرَ إليه دون أن يراها أحد وأن تتأكّد من أنّه الشّخص

الذي حصَلَت على صورَتِه في علبة الألماس.

قالت:

- ليسَ منَ المعقولِ أن يكونَ هذا عفريتاً! أفَتَنام العفاريت؟ هل هذا جسَد من هواء وَنار لا يشغل أيّ مكانٍ كما تقول مشمشة؟

لامَسَت شعره برِقّة واستمعَت إلى تنفّسِه، ولم تكن تستطيع الابتعادَ عنه. تارةً تشعر بالبهجة للعثور عليه، وتارةً أخرى يُشعرها وجودُه بالخطر. وأثناءَ استغراقِها في النّظر إليه بانتباه، دخلت أمّها الجنيّة مُحْدِثةً جلبَة رهيبة فاستيقظ لياندر مذعوراً. وكَم كانت دهشته كبيرَة وكَم كان حزنه شديداً لرؤيتِهِ أميرتَه في غمرةِ اليأس! كانت أمّها تجتذِبُها موجِّهة إليها أشدّ الملامات. آه يا للألم الذي أصاب قلبَي هذين العاشقينِ اليافعين! وجَدا نفسَيهما على وشَكِ الافتراقِ للأبد. لم تجرؤ الأميرة على قولِ شيءٍ للجنيّة الرّهيبة. نظرَت إلى لياندر وكأنّها تطلب منه نجدَة ما.

أدرك تماماً أنّه لا يستطيع إنقاذها من قبضة تلك الجنيّة الجبّارة، لكنّه سعى للركون إلى فصاحتِهِ وخضوعِهِ ليؤثّر في تلك الأمّ الغاضِبَة. هُرِعَ راكضاً خلفَها وارتَمى عندَ قدَميها. اسْتَحْلَفَها أن تشفقَ على ملكٍ شابّ لن يتغيّر حبّه لابنتِها وستكون ذروة غبْطَتِهِ متمثّلَة في جعْلِها سعيدَة. وتشجّعَت به الأميرَة وحَذَت حَذوَه وقبّلَت على الفورِ ركبتَي أمّها قائلة لها إنّها لا تستطيع أن تكونَ سعيدَة من دونِ الملك وأنّها تدين له بمعروفٍ كبير.

هتفت الجنيّة:

- أنتِ لا تعلمينَ شيئاً عن مغبّاتِ الحبّ ولا عن الخيانات التي يقدِر على اقترافِها هؤلاء المخادِعونَ المتودّدون. إنّهم لا يفتِنوننا إلاّ لكي يُسمّموا لَنا حياتَنا. لقد سبق لي أن عشت هذه التّجربة. فهل

تريدين أن يكون مصيركِ مُشابِهاً لَمصيري؟

أجابتها الأميرة:

- آه! يا سيّدتي أليسَ هناكَ من استثناء؟ ألا تبدو لكِ الضّمانات التي يقدّمها الملك في منتهى الصّدق؟ أوَ لا تحمينني من الأشياء التي تخشينَها؟

لم تأبه الجنيّة العنيدَة بالعاشقَين المتألّمَين المرتميَين عند قدميها؛ كان غيرَ مجْدٍ أن يبَلّلا يديها بدموعهما؛ بدت عديمَة الإحساس. وبالطّبع، لم تكن لِتُسامِحَهما لولا لم تظهر الجنيّة لطيفة في الغرفة أكثرَ سطوعاً منَ الشّمس. كانت ربّات الجمالِ والحِكمة والفنّ يرافقنَها وَخلْفَهنّ فريق من ملائكة الحبّ واللهو والملذّات يغنّون ألف أغنيَة عذبة جديدة. كانوا يتقافزون كجوقة أطفال.

قبّلت الجنيّةَ العجوزَ وقالت لها:

- يا أختي العزيزة، أنا مقتنعَة أنّكِ لم تنسَي الخدَمات الجليلة التي أدّيتها لكِ عندَما أردتِ الرّجوعَ إلى مملكة الجنيّات. لولاي لَما استقبَلْنَكِ، ومنذ ذلك الوقت لم أطلب منكِ أيّة خدمَة. ولكن أخيراً حان الوقت لتؤدّي لي خدمَة جوهريّة. اغفري لهذه الأميرَة الجميلة ووافقي على أن يتزوَجها هذا الملك الشّاب. أكفَل لكِ أنّه لن يتغيّرَ معَها. ستكون أيّامهما منسوجَة بالذّهبِ والحَرير. وهذا الزّواج سيملؤكِ رضاً ولن أنسى أبداً الفضل الذي سأدين لكِ به.

فقالت لها الجنيّة:

- إنّني أقْبل بتنفيذ كلّ ما ترغبين فيه يا عزيزتي لطيفة.

ثمّ التفتت إلى العاشقَين وقالت لهما:

- إقتربا منّي يا صغيريّ، تعالا لأعانقكما ولتنالا عربونَ مودّتي!

وعندَما أنْهت كلامها، قبّلت الأميرَةَ وعَشيقَها. طارت الجنيّة

لطيفة فرَحاً وأخذت تُنشد مع كلّ الفرقة أغاني الزّفاف. أيقظَت تلك السّمفونيّة العذبَة جميعَ حوريّات القصرِ فهُرِعْنَ مرتدِياتٍ أثواباً شفّافة لِيَستْعلَمْنَ عمّا يجري.

وأيّة مفاجأةٍ لذيذةٍ كانت في انتظارِ مشمشة! ما كادَت ترنو إلى لياندر حتّى تعرّفت إليه. وإذ رأته يمسك بيَدِ الأميرة لم تشكّ إطلاقاً بسعادَتهما المشتركَة. وذلك ما تأكّد لها عندَما قالت الأمّ الجنيّة إنّها ستنقل جزيرة الملذّات الهانِئة والقصر وكلّ الرّوائع التي يحتويها إلى مملكة لياندر؛ وإنّها ستقيم معهما وسوف تقدّم لهما خيراتٍ أكبر.

قال لها الملك:

- مَهْما أوحى لكِ سخاؤكِ من عطايا يا سيّدتي فإنّ منَ المستحيلِ أن تقدّمي لي هديّة تُضاهي الهديّة التي تلَقّيْتُها اليوم. أنتِ تجعلينَني أسْعَدَ الرّجالِ، وأشعرُ جيّداً أنّني أيضاً أكثر امتناناً.

راقت هذه المُجامَلة الصّغيرة للجنيّة كثيراً. كانت تنتمي إلى الأزمنة الخوالي حيث كانوا يتبادلون عبارات الثّناء على أدنى الأشياء نهاراً بكامله.

وَبما أنّ الجنيّة لطيفة تفكّر في كلّ شيء فقد أمَرَت بأن يُنقَل الجنرالات والقادَة الموجودون في جيشِ غضبان دون تمييز إلى قصر الأميرَة لكي يكونوا شهوداً على الاحتفالِ الأنيقِ الذي سيُقام. وعُنِيَت بالفعل بذلك الأمر. إنّ خمسَة مجلّداتٍ أو ستّة لن تكونَ كافيَة لوَصفِ المسرَحيّاتِ الكوميديّة وحفلات الأوبرا والمقطوعات الموسيقيّة ومباريات الخاتم[1] وحفلات المصارَعَة والصّيد والرّوائع الأخرى التي تضمّنَها ذلك الزّفاف السّاحر.

(1) في هذه اللّعبة يتبارى الفرسان للإمساك بخاتم معلّق إلى عمود وسط حلبة المباراة، فيكون الفائز هو من يلتقط الخاتم برأس رمحه فيما هو يعدو على ظهر جواده بسرعة.

ولكنّ الفريدَ في الأمرِ هوَ أنّ كلّ حوريّةٍ وَجَدَت، بين الشّجعانِ الذينَ جلبَتهم الجنيّة لطيفة إلى تلك الأمكنة الجميلة، زوجاً شغوفاً وكأنّهما يعرفانِ أحدهما الآخر منذ عشر سنوات، مع أنّهما تعارَفا منذ أربعِ وعشرينَ ساعة فقط. لكنّ العصا السّحريّة الصّغيرَة تُحْدِث نتائجَ أكثر عجباً أيضاً.

ماذا صارَ بِحالِ ذلكَ الزّمن السّعيد
حين نُجِّيَت البراءة
بقدرَةٍ جنيّة
من بَراثِنِ الأخطار الواضِحَة كَعَينِ الشّمس.
رأينا القدرة الجبّارة لقبّعَةٍ ووردة
وكم من التَحوّلات حصلَت بفضلهما.
رأينا كيف أنّ فانِياً كانَ يجولُ العالم
يَرى كلّ شيءٍ ولا يُرى
وكيف وجدَ في الفضاءات دَرْباً مجهولاً.
كان لِياندر يملِك ورداتٍ عجيبَة
الوردة الأولى تغدق عليه
ذاك المعدَن الثّمين الذي منه تولَد المَلَذّات
والوردة الثانية
تمنَحه صحّة لا شائبَة فيها
والوردة الثالثة، وهيَ في رأيي الأخطر،
تكشف له عن عاطفة المحبوب
وتريه ما إذا كان حبّه حقيقيّاً أم مُخادِعاً.
وا أسفاه، كان سعيداً من يقدر أن يغفل

عن امرأة تداهِنه وتغمِره بالقبلات
فيما هيَ لا تملك تِجاهَه إلاَ طيفاً من الحبّ.

الأميرَة روزيت

كان يا ما كان، كان هناكَ ملكٌ وملكَة رُزِقا بصبيّيْن جميلَين ممْتَلئين مشرقين كالنّهار بفضل عناية أبويهما ورعايتهما الدّؤوب. وكانت الملكة، كلّما رُزِقَت بطفلٍ، تدعو الجنيّات للاحتفالِ بولادَته متوسّلة إليْهِنّ أن يَتكهّنَّ بمستقبلِه.

وأنْجَبَت الملكة بنتاً صغيرة جميلة، وكانت في منتهى الجَمال، ولا يمكن رؤيَتها دونَ أن تُحَبَ. قدّمَت الملكة الأطايبَ للجنيّات اللواتي جئنَ لرؤيَتِها. وعندما تأهّبْنَ للرّحيلِ قالت لهنّ:

- لا تنسوا العادَة الصّالحَة التي دَرَجْتُنّ عليها. قلْنَ لي ماذا سيحصل لروزيت (هكذا سُمّيَت الأميرة الصغيرَة)؟

قالت لها الجنيّات إنهنّ نَسينَ كتابَ الطّلاسم في المنزل وإنّهنّ سيَأتين مرّة أخرى لزيارَتِها.

قالت الملكة:

- آه! هذا لا يُبَشّر بالخير. تتحاشَينَ أن تتَنَبّأنَ بشيءٍ قد يجلِب الحزن إلى نفسي. لكنّي أتوسّل إلَيْكُنّ أن تُعْلِمْنني بكلّ شيءٍ دون تردّد.

قدّمْنَ لها اعتذارَهُنّ، ورغِبَت الملكة في أن تعرِفَ أكثر عن الموضوع. وأخيراً قالت لها السّاحرَة الأصغر سنّاً:

- نخْشى يا سيّدَتي أن تتسَبّبَ رزويت بمأساةٍ كبيرَةٍ لأخَوَيْها وأن يقضِيا بسببِ مسألَةٍ تتعلّق بها. هذا كلّ ما نستطيع تكهّنه فيما يخصّ الفتاة الصّغيرَة. نحن مستاءات جدّاً لأنّنا ليس لدَينا أخبار أفضل ممّا أبلَغناكِ إيّاه.

وَذَهَبْن. وبقِيَت الملكة في حزنٍ شديدٍ، ما جعَلَ الملك يُلاحظ

حزنَها من سيمائها.

سألها عمّا بها. أجابَته إنّها اقتَرَبَت كثيراً منَ النّار وأنّها أحْرَقَت كلّ الكتّانِ الذي على مغْزَلِها. قال لها الملك:

- أهذا كلّ شيء؟

ثمّ صعَدَ إلى عِليّتِهِ وجَلَبَ لها منَ الكتّانِ ما لا تستطيع أن تنسجَه في مائة عام. لكنّ الملكة ظلّت على حزنِها. سألها ما بها.

قالت له إنّها فيما كانت على ضفّة النّهر، أوقعَت خُفَّها الذي كان من السّاتان الأخضر في مجرى الماء. فقال لها الملك:

- أهذا كلّ شيء؟

وأرْسَلَ في طلبِ إسكافِيّي المْلَكة وجلبَ لها عشرَة آلافِ خفٍّ منَ السّاتان الأخضر.

لكنّها ظلّت حزينَة، فسألها عمّا بها. فقالت له إنّها إذْ أكلَت بشهيّة كبيرَة، التَهَمَت خاتَمَ العرس الذي كان يزيّن إصبَعِها، فعرف الملك أنّها تكذب لأنّه سبَقَ له أنْ أخفى ذلك الخاتم. قال لها:

- يا زوجَتي العزيزة أنتِ تكذبين! هذا هوَ خاتمكِ الذي أخْفَيتُه في صرّةِ نقودي.

اللّعنة! لقد ضبَطَها بالجرم المشهود، فالكذب هوَ أقبَحُ رذيلَةٍ في العالم. رأت الملكَ حَرِداً. فباحَت له بما تنبّأت به الجنيّات عن روزيت الصّغيرَة. وقالت له إنْ كان لديهِ تصوّر لحلٍّ فلْيَقلْه. حزِنَ الملك كثيراً واعترَفَ أخيراً للملكة قائلاً:

- لا أعرف وسيلة أخرى لإنقاذِ وَلَدَيْنا سوى أن نُهْلِكَ روزيت.

لكنّ الملكة اعترَضَت هاتِفَةً أنْ لا حياةَ لها من بعْدِها، وسألته التّفكيرَ بحلّ آخر. في تلك الأثناء أُبلِغت الملكة بأنّ ناسِكاً طاعناً في السنّ كانَ يَقْطُنُ في غابَةٍ كبيرَةٍ وينام في جذعِ شجرَة، وكان الجميع

يذهبونَ لاسْتِشارَتِهِ من كافّة أنحاءِ العالَم.

قالت الملكة:

- عليّ الذّهاب إليه. الجنيّات تنبّأن لي بالشرّ لكنّهنّ نَسينَ إعْطائي الحلّ لتفاديه.

واعْتَلَت منذ الصّباح الباكر ظهْرَ بَغْلَةٍ صغيرة بيضاء ذهبيّة الحوافر، برِفقَةِ اثنَتَينِ من وصيفاتِها امتطت كلّ واحِدَةٍ منهما حِصاناً جميلاً. وعندما أصْبَحْنَ بالقرْبِ منَ الغابَة، نزَلَت الملكة ووصيفتاها عن ظهرِ الأحْصِنَة وذَهَبْنَ إلى الشّجرة حيث يقيم النّاسكُ الذي لم يكن يحبّ إطلاقاً رؤيَةَ النّساءِ لكنّه عندما تعرّف إلى الملكة قال لها:

- أهلاً وسهلاً بكِ! قولي ماذا تريدينَ منّي؟

فأخْبَرَته بِما قالت الجنيّات عن روزيت طالِبَةً مشورَتَه. أجابَها إنّه يجب إخفاء الأميرَة داخلَ أحَدِ الأبراج ومنْعها من الخْرُوج إطلاقاً. شكَرَته الملكة متصدّقَةً عليه بمبْلَغٍ كبير، وعادَت لتُخبِرَ كلّ شيءٍ للملك. وللحال أمَرَ ببناءِ برج كبيرٍ على وجْهِ السّرعَةِ. وأسْكَنَ فيه ابنتَه. وحتّى لا يصيبها الملل، كان الملك والملكة وأخَواها يزورونها كلّ يوم. وكانَ الابن البكر يُدْعى الأمير الكبير والثاني يدعى الأمير الصّغير، وكانا يُحِبّانِ أختَهما حبّاً جمّاً لأنّها كانت أجملَ فتاةٍ في العالم، وأقلّ نظرَة منها تُساوي مالَ الدّنيا. وعندَما بلَغَت الخامِسَة عشرَة من عمرِها قال الأمير الكبير للملك:

- ها قَد كبُرَت أختي وصارَت في سنّ الزّواج، ألا يجدر بنا تزويجها في أقرب وقت؟

وقال الأمير الصّغير الشّيءَ نفسَه للملكةِ ولكنّ جلالتيهما راوَغا بإجابَاتِهِما. إلاّ أنّ مرَضاً أصابَ الملك والملكة وتوفّيا في يومين متقاربَين. اتّشَحَ البَلاط بالسّواد وقُرِعَت الأجراس في كلّ مكان. لم

تكن روزيت تتعَزّى على وفاةِ والدَتها.

بعْدَما دُفِنَ الملك والملكة، أصْعَدَ مارْكيزات المملكة ودوقاتها الأميرَ الكبيرَ على عرْشٍ منَ الذّهبِ والألماس؛ تكلّلَ رأسه بتاج جميلٍ وارتَدى ثياباً منَ المخمَلِ البنَفْسَجِيّ الموشّى بالشّموس والأقمار. ثمّ هتف أفراد الحاشية ثلاث مرّاتٍ «يحيا الملك!»، وصار هَمُّ الجميع محصوراً في إقامَة المَسَرّات. واتّخذ الملك وأخوه القرار التالي:

- الآن وقد أصبحْنا السيّدَين في المملكة، يجب أن نُخْرِجَ شقيقَتنا منَ البرج الذي يُشْعِرُها بالسّأم منذ وقتٍ طويل.

لم يكن عليهما إلاّ أن يجتازا الحديقة للذّهابِ إلى البرجِ الذي بُنِيَ على ارتِفاع هائلٍ لأنّ الملك والملكة أرادا أنْ تسكنَ فيه دوماً. كانت روزيت تطرّزُ ثَوباً جميلاً على النّول أمامها. عندما رأت أخوَيْها نَهَضَت ثمّ أمسكَت بيدِ الملك وقالت له:

- صباح الخيرِ يا مولاي! أنت الآن الملك وأنا خادِمتك الوفيّة. أتوسّل إليك أن تُخْرِجَني منَ البُرج لأنّني أعاني فيه من سأم كبير.

وأخذت تبكي.

قبّلَها الملك وأمَرَها بأن تَكُفّ عن البكاء، وأخبرَها بأنّه أتى ليُخْرِجَها منَ البرج ويصطَحِبَها إلى قصرٍ جميل. كانت جيوب الملكِ مليئة بحبّات الملبّس التي أعْطى منها روزيت قائلاً لها:

- هيّا، لنخرُج من هذا البرجِ اللّعين! الملك سيُزَوّجكِ عمّا قريب، لا تحزني!

عندمَا رأت روزيت الحديقة الجميلة مليئة بالأزهار والثّمار والنّوافير، أصابها الذهولَ ولم تستطع أن تنبسَ بكلِمَة لأنّها لم ترَ حتّى ذلك الحين شيئاً بذلك الجمال. جالت المكان بنظَرِها. كانت تسير ثمّ تتوقّف لتقطِفَ الثّمارَ منَ الأشجار والأزهار في الرّياض.

كانَ كلبُها الصّغيرُ يُدْعى بصبوص، لأنّه كان مولعاً بالبَصبَصة، أي تحريك ذنَبه. وكانَ أخضر مثل ببّغاء. لديهِ أذنٌ واحدَة ويرقصُ حتّى يخطِفَ الأنفاس. جرى أمامَها وراحَ ينبَح ويقفز وينطنِط دونَ كلَلٍ، فأدخل بحرَكاتِهِ البْهجة إلى قلوب الجميع. وفجأةً أخذ يركض في غابةٍ صغيرَةٍ فتَبعَته الأميرَة وأصيبَت بالدّهشة لمّا رأت في تلك الغابة طاووساً كبيراً ينشر ريشَ ذنبه. بدا لها جميلاً جدّاً فلَم تستطع أنْ تشيحَ بنظَرِها عنه.

اقتَربَ الملك والأمير منها وسألاها ما الذي يُلْهيها فأشارَت إلى الطّاووسِ وسألَتهما ما يكون، فقالا لها إنّه طائرٌ يؤكَلُ أحياناً.

قالت:

- ماذا! كيف يجرؤ النّاس على قتلِ طائر بهذا الجمال وأكله؟ أُعلِمكما منذ الآنِ أنّني لن أتزَوّجَ أبداً إلاّ ملكَ الطواويس، وعندما أُصْبِح الملكة، سأُحرّم أكل هذا الطّائر.

تعجّبَ الملك ممّا تقوله شقيقَته عجَباً كبيراً. قال لها:

- ولكن يا أختي، أينَ تريدينَ أن نعثرَ لكِ على ملك الطواويس؟

- حيثما شئتَ يا مولاي! لكنّي لن أتزوّج أحداً سواه.

بعدَ أن اتّخَذَت هذا القرارَ اصطَحَبَها الأخوان إلى قصْرِهِما، وأُحْضرَ الطّاووس إلى غرفتِها. لم تكن أغلب النّساء في القصرِ قَد رأيْنَ روزيت من قبل فهُرعْنَ لإلقاءِ التحيّة عليها، منْهُنّ مَن جلبَ لها المرَبّيات، ومنهُنّ السكّر، وأخرَيات فساتين الذّهب وأشرطَة جميلة ودُمى وأحذِيَة مطَرّزَة ولآلئ وألماساً. وكانت من اللّباقة وحُسن التهذيب بحيث كانت تشكر الجميع وتنحني أمامهم بإجلالٍ واحترام، ما جعل الجميع، رجالاً ونساءً، يعودون إلى بيوتهم مسرورين. وفيما كانت تتحدّث إلى الأصدقاء، راحَ الملك والأميرُ

يفكّرانِ في طريقة للعثورِ لها على ملك الطّواويس إنْ كانَ يوجَد ملك طواويس في العالم. ثمّ فَطِنا أنّه يتوجّب عليهما أن يوصِيا بإنجازِ رسْم للأميرَة روزيت. وحين أُنْجِزَ، كان رسْماً في منتَهى الجَمال لا ينقُصُهُ سوى النّطق.

قالا لها:

- بِما أنّكِ لا تريدينَ إلاّ الزّواج بملكِ الطواويس فسنرحَل معاً ونذهب للبحث عنه في الأرض كلّها. اهتَمّي بشؤونِ المملكةِ بانتظارِ أن نعود.

شكرَتْهما روزيت على العَناءِ الذي سيتَكَبّدانِهِ من جرّاء تلك الرّحلة، وقالت لهما إنّها ستحكمُ المملكة كما يجب، وستَكون هوايتها أثناء غيابهما النّظر إلى الطّاووس الجميل وترقيص بصبوص. وبَكى الجميع لحظة الوداع.

ثمّ انطلَقَ الأميران في رحلتهما وكانا يسألانِ كلّ مَن يُصادِفانه:

- هل سَمِعْتم بمَلكٍ للطّواويس؟

وكان جواب الجميع هو:

- لا، لا! لم نسمع به.

ثمّ استأنَفا سَيْرَهما ذاهِبَينِ إلى مسافَةٍ أبعد باطّراد، ابتعدا أكثر من أيّ كان ووصلا إلى مملكة الخنافس. لم يرَيا خنافِسَ أكثر عدداً من تلك الموجودَة في تلك المملكة، وكانت تحْدِث طَنيناً هائلاً ما جعَلَ الملك يخاف من أن يُصابَ بِصَمَم. سأل الخنفساء التي بدَت له أكثرَ هدوءاً من سِواها، إذا كانت تعلم أين يوجد ملك الطّواويس.

قالت له:

- مولاي، إنّ مملكته تقع على مسافة ثلاثينَ ألف فرْسَخٍ من هنا. وأنتَ اتّخذْتَ الطّريق الأطْوَل للذّهابِ إليه.

سألها الملك:

- وكيف عرَفتِ هذا؟

أجابَت الخنفساء:

- هذا لأنّنا نعرِفكَ جيّداً ونذهب في كلّ سنة لتمضيَة شهرَينِ أو ثلاثَة في حدائقِ قصرك.

وأحاط الملك وأخوه الخنفساءَ بذراعيهما، كلٌّ من جهة. وتناوَلوا العشاء سويّة كَبادِرَةِ صداقَة. وكانا ينظُرانِ بإعجابٍ إلى كلّ أنحاءِ تلك البلادِ حيث أصغر ورقةٍ في الشّجرَة تساوي ليرَةً ذهبيّة. وبعدئذٍ استأنَفا رحْلَتهما من جديد، ولم يستغرِقا وقتاً طويلاً لَمَعْرِفَتِهما الطّريق. حينَ وصَلا، أيْقنا أنّ الطّواويس تغلغلَت داخل كلّ الأشجارِ وملأت كلّ الأمْكِنَة حتى بات زَعيقها ولَغْوها يُسْمَعانِ عن مسافة فرْسَخَين.

قال الملك لأخيه:

- إذا كان ملك الطّواويس طاووساً هو نفسه، فكيف تريد شقيقتنا الاقترانَ به؟ على المرءِ أن يكونَ مجنوناً لكي يوافقَ على أمرٍ كهذا. ثمّ أي نَسْلٍ ستُنجبُ لنا، هل سيكون أولاد أختنا فِراخَ طواويس؟

كذلكَ أحاط الأمير بخطورَة المسألة وقال:

- إنّها لَنَزْوَة غريبَة خَطَرَت لها. لا أعرف كيف تصوّرَتْ أنّ في العالم ملكاً للطواويس!

عندَما وصَلا إلى المدينة الكبيرَة، ألْفياها مزدَحِمَة بالرّجالِ والنّساءِ المصنوعَةِ ملابسهم من رياشِ الطّواويس وكانوا يضَعونَها في كلّ مكان وكأنّها أفخر زينَةٍ يمكنُ التزيّن بها. وفي طريقهما، التقيا بالملك الذي خرج يتنزّه في عربَةٍ صغيرَةٍ جميلَةٍ موشّاةٍ بالذّهب والألماس، يجرّها اثنا عشَرَ طاووساً بأقصى سرعَة. وكان ملك الطّواويس ذاك جميلاً جدّاً وقد افتتنَ الملك والأمير بجماله: شعْرُهُ أشقر طويل مجعّد،

ووجهه أبيض، ورأسه مكَلّل بتاج من ريشِ الطّاووس.

عندما رآهما عرِف أنّهما غريبانً لارْتِدائهما ملابسَ مختلِفَة عن تلكَ التي يَرتَديها أهل البلاد. وللتحقّق من ذلك، أوقف عربته وناداهما. اقترَبَ الملك والأمير منه وقد انْحَنَيا بإجلال.

قالا له:

- مولانا، نحن آتيان من مكانٍ بعيدٍ جدّاً لكي نطلعكَ على رَسْمٍ جميل.

وأخرجا من حقيبتِهما رسمَ روزيت الكبير. حين نظرَ إليه ملك الطّواويس قال:

- لا أستطيعُ أن أصدّقَ أنّ في العالم فتاةً بمثلِ هذا الجمال!

قال له الملك:

- إنّها مائة مرّةٍ أجمل في الحقيقة.

أجابَه ملك الطّواويس:

- لا بدّ أنكَ تسخَر منّي!

قال له الأمير:

- مولاي، إنّه أخي وهو ملكٌ مثلك. إنّ شقيقتَنا التي رأيتَ رسْمَها هي الأميرَة روزيت. جئنا نسألك إذا كنتَ تريدُ الزّواجَ بها. هيَ جميلة وفي غايَةِ التعقّل. وسوفَ نقدّم لها صاعاً من الرّيالاتِ الذهبيّة.

قال الملك:

- يُسْعِدني الزّواج بها. معي لن تفتَقِرَ إلى شيء. سأحبّها كثيراً. لكنّني أريد أن تكونَ جميلة بقدْرِ رَسْمِها وإلاّ قتلتكما.

قال أخَوا روزيت:

- حسناً نوافقُ على شَرطِك هذا.

أضاف الملك:

- توافقانِ؟ حسناً إذْهَبا إذاً إلى السّجنِ وابْقَيا فيه حتّى تأتيَ الأميرَة.

وانْصاعَ الأميران لطَلَبِ الملكِ دونَ تردّد لأنّهما كانا متأكّدين أنّ روزيت أجملُ منَ الصّورَة. حينَ أُدْخِلا السّجن، أكرمَهما عن طريق خَدمه وغالباً ما كان يذهب لزيارَتهما. ووضَعَ في القصر نُصبَ عينيه رَسمَ روزيت وقد هامَ به فما عادَ يستطيع النّوم لا في اللّيلِ ولا في النّهار.

وبما أنّ الملك وأخاه كانا في السّجنِ فقد أبرقا إلى الأميرَة برسالة وطلبا منها أن تجهّزَ أمْتِعَتها بسرعَةٍ وتستعدّ للرّحيل في أقرب وقتٍ ممكن، لأنّ ملك الطّواويس، الذي عثرا عليه أخيراً، ينتظِرها. لم يَذْكرا في الرّسالة أنّهما كانا أسيرَينِ مخافَة أن ينشغلَ بالُها عليهما. عندما وصلَتها الرّسالة، طارَت الأميرَة منَ الفرح. قالتِ للجميع إنّ أخوَيْها عثَرا على ملكِ الطّواويس وإنّه يريد الزّواجَ بها. أُشْعِلَت نيرانُ الفرَحِ ابتِهاجاً وقصَفَت المَدافِعُ وأكَل النّاس في كلّ مكانٍ حبّات الملبّس وكرعوا مشروباتٍ محلاّةً بالسكّر ومفعمة بِطَعْم القرفة والقرنفل والزّنجبيل. تركَت الأميرَة أجملَ دمْياتها لصديقاتهَا، وأوْدَعَت مملكَة أخيها بينَ أيدي الشّيوخ الأكثرِ حكمَةً في المدينة.

وأوْصَتهم بأن يُعْنَوا بإدارَةِ كلّ الأمورِ وأن يَكفّوا عن صرْفِ المالِ وأن يجمعوهُ لأجْلِ عودة الملك. وتوسّلت إليهم أيضاً أن يهتمّوا بطاووسِها إذ لم تشأ أن تصطَحِبَ معها إلاّ مربّيتها وأختها بالرّضاعَة، وكلبها الصّغير الأخضر بصبوص. ورَحَلْنَ على متنِ مرْكَبٍ في البحر، وحَمَلَت معها روزيت صاعَ الرّيالات الفرنسيّة القديمَة ومنَ الملابسِ ما يكفي لعشر سنواتٍ ولتغييرها مرّتينِ في

اليوم. كنّ يضْحَكنَ ويُغنّين. ثمّ سألت المربّيَة النوتيّ قائلَةً:

- هل قارَبنا الوصول، هل قاربنا الوصول من مملكة الطّواويس؟

وكان يقول لها:

- لا، لا زِلنا بعيدين.

وسألته مرّة أخرى:

- هلْ دَنَوْنا منها، هل دنَوْنا منها؟

قال لها:

- عمّا قريب، عمّا قريب!

وسألته مرّة ثالِثة:

- هل أوْشَكْنا على الاقتراب؟ هل أوْشكْنا على الاقتراب؟

فأجاب:

- نعم، نعم.

وعندما قال ذلك، ذهبت إلى أقصى المركب وجلَسَت قرْبَه ثمّ قالت له:

- إذا شئتَ فسَتصبِحُ ثريّاً إلى الأبَد.

أجاب:

- أرغبُ في ذلكَ فعلاً.

وتابعت:

- إذا شئتَ فسوفَ تغنَم ليراتٍ ذهبيّةً كثيرَة.

أجاب:

- لا أطلبُ شيئاً أفضل.

قالت:

- حسَناً، عليكَ في هذه اللّيلة وأثناءَ نوم الأميرَة أن تساعِدَني على رَمْيِها في البَحر. وبعدَ أن تغرَق سَأُلْبِسُ ابنتي ثيابها الجميلة

ونصطَحِبُها إلى ملك الطّواويس الذي سيُسْعِدُهُ جدّاً الزّواج بها، ومكافأةً على مساعَدَتِكَ لي سأهديك ما لا يحصى من قِطَع الألماس الخالص.

دُهِشَ النوتيّ من عرْض المرَبّيَة. قال لها إنّه لأمْرٌ مؤسف إغراق أميرَةٍ بمثلِ هذا الجمالِ وإنَّ ذلك يثير إشفاقَه. لكنّها أخذَت قنّينَة من أطيّب المشروبات وجعَلَته يَحْتَسيها بحيث لم يعد بِمَقدورِهِ أن يرفضَ لها طلَباً.

وافى اللّيل فخلَدَت الأميرَة للنّوم، وكانَ بصبوص الصّغير مضطجِعاً بهدوءٍ تحت قدَمَيْها دونَ أن يُحَرّكَ قوائمَه. واستغرَقَت روزيت في نوم عميق. عندئذٍ ذهبَت المربّية الشرّيرة لتأتيَ بالنّوتيّ. أدخَلَته إلى غرفةِ الأميرَة ثمّ، من دونِ أن يوقِظاها، حَمَلاها مع سريرها وفِراشِها وشراشِفِها وأغطِيَتِها، وساعَدَتها في ذلكَ أختُها بالرّضاعة، وقذَفا بها في البحر. كانت الأميرَة تغطّ في نوم عميق ولم تستيقظ أبداً.

ولِحُسْن حظّها، كانت فرشتها محشُوّةً بأريّاشِ الفينيق النّادِرَة جدّاً والتي تمْتازُ بأنّها تظلّ طافيَة على وجهِ الماء. ما جعَلَ الأميرة تسبح في مرْقدِها وكأنّها على متنِ قارب. ولكنّ الماء بَلّل شيئاً فشيئاً فراشَها فشَعَرَت بالرّطوبَةِ وخشِيَت أن تكونَ بالَت في فراشِها وأن تُزجَر على ذلك. وبما أنّها استَدارَت في سريرها، استيقظَ بصبوص، وكانت حاسّة شمِّهِ فائقَة فاشتمّ رائحَة أسماكِ موسى وأسماكِ القدّ قريبة جدّاً فبدأ بالنّباح المتواصلِ بحيث أيقظَ الأسماكَ الأخرى.

وبدآ يسبَحانِ. كانت الأسماك الضّخمَة تلطم رأسَها بسَريرِ الأميرَة الفالت من كلّ الجِهات فيَدورُ راقِصاً مثلَ فرّيْرَة. اللّعنة! كانت متفاجِئةً جدّاً ممّا يجري لها، قالت:

– هل يرقص مرْكَبُنا على الماء؟ لم أشعر في حياتي بانزعِاجٍ كهذه

اللّيلة!

وواصَل بصبوص نُباحَه ومقاوَمَته اليائسَة. كانت المربّية الشّريرَة والنوتيّ يسمَعانِ صراخَهما من مكانٍ بعيدٍ جدّاً ويقولان:

- ها إنّ هذا الكُلَيبَ المضحكَ يشرَب مع سيّدَتِه نخبَ صحّتِنا. لنُعَجّلْ بالوصول!

كانا يقترِبانِ من مدينة ملكِ الطّواويس، وكان الملك أرْسَلَ إلى شاطئ البحر مائة عربَةٍ تجرّها جميع أنواع الحيوانات النّادِرَة، من أسودٍ ودِببَةٍ وأيائلَ وذئابٍ وأحصنَةٍ وعجولٍ وحَميرٍ ونسورٍ وطواويس. كانت العربَة المخصّصة للأميرَة روزيت تجرّها ستّة قرودٍ زرقاءَ تقفز وترقص على الحَبلِ وتقوم ببَهلوانيّاتٍ جميلة، وهي مرْتَدِيَة بَدَلات منَ المخملِ القرْمُزيّ المزنّرِ بالشّرائطِ الذّهبيّة.

وشوهِدَت ستّون آنِسَة يافِعَة اختارَهُنّ الملك لتَسْلِيَتِها. كنّ جميعاً يرْتَدينَ ألواناً مختلفة كان فيها الذّهب والفضّة وما هو أنفَس منهما أيضاً. عُنِيَت المربّيَة بتزيينِ ابنتِها فكلّلت رأسَها بالماساتِ روزيت وألبَسَتها ثوبَها الجميل: لكنّها كانت رغمَ كلّ هذه الزينة أقبَحَ من قرْدَة. شعْرُها أسود دهنيّ وعيناها بهما حَوَلٌ، وساقاها ملتويَتان، وكان هناك حدبَة كبيرَة في وسط ظهْرِها. أضفْ إلى ذلك مزاجَها السيّئ المتجَهّم دوماً وكلامَها المُهَمْهِم.

عندَما رآها أفرادُ حاشيَة ملكِ الطواويس خارِجَة منَ القارب، مكَثوا مندهشينَ عاجِزينَ عنِ الكلام.

قالت:

- ما بِكم؟ هل كلّكُم نِيام؟ هيّا، هيّا اجلِبوا لي شيئاً آكله! أنتم حُثالَة رعاع، سآمُرُ بِشَنْقِكم جميعاً.

وعندَ سماعِهم كلامَها، هتَفوا قائلين:

- يا لها من حَيَوانٍ وضيع! إنّها شرّيرَة بقدرِ ما هيَ بَشِعَة! أيّة زوجَة للملك! ما كانت تستحقّ عَناءَ إحْضارِها من آخِرِ الدّنيا إلى هنا!

كانت ابنة المربّيَة تتصرّف وكأنّها الآمِرَة النّاهيَة فتوجّه الصّفعات واللّطَمات واللّكَمات إلى الجميع. وكان موكِبُها كبيراً جدّاً فمَشَت على مهْلٍ وتربّعَت مثل ملكةٍ في عرَبَتِها. كانت كلّ الطّواويسِ التي انتظرَتها تحتَ الأشجار لإلقاءِ التحيّة عليها لدى مُرورِها، تصرخ هاتِفَة: «تحْيا روزيت الجميلة!». لكن عندَما رأتها على هذا القبْح هتفَت قائلَةً: «تبّاً لها! ما أبْشَعَها!». فيما هيَ تستَشيطُ غيظاً واستياءً قائلَة لحرّاسِها:

- اقتلوا هذه الطّواويسَ البائسةَ التي تكيل لي الشّتائم!

وفرّت الطّواويس بسرعةٍ هازئةً بها!

أمّا النوتيّ التّعِس الذي رأى كلّ ذلكَ فكانَ يقولُ بصوتٍ خفيض للمربّيَة: «يا صاحبتي، لسْنا في وضعٍ نُحْسد عليه، على ابنتِكَ أن تكون أكثرَ جمالاً». فأجابته:

- أصمت أيّها الغبي! إنّك ستجلِبُ لنا الشّقاء.

وذهبوا لإبلاغ الملكِ أنّ الأميرَة تقارِب الوصول.

- ما قولكم، هل أخَواها على حقّ؟ هل هيَ أجمل من رَسْمِها؟

- موْلانا، يقولونَ إنّها جميلة بقَدْرِ رسْمِها.

قال الملك:

- لَكَمْ يُسْعِدُني هذا! لنَذهَب لرؤيَتِها!

ذلك أنّه سمعَ ضجّة كبيرَة في الباحَة. ها قد وَصَلتْ، لكنّه لم يستطع تمييزَ شيءٍ ممّا يقال إلاّ: «تبّاً لها! ما أبْشَعَها!». ظنّ أنّهم يتَحَدّثونَ عن قزَمَة أو عن بَهيمَةٍ اصطَحَبَتها معها لأنّه لم يخْطر ببالِهِ

أنّ هذه النّعوت تصِف الفتاة. كانوا يحمِلونَ رسمَ روزيت على طرَفِ عصاً طويلَة على مَرأى منَ الجميع. وسارَ الملك خلفَه بوَقارٍ برفقةِ كلّ بارموناته وطواويسه وخلفَهم سفراءُ الممالكِ المجاوِرَة. كانَ ملك الطواويس متلَهّفاً لرؤيَةِ عزيزَتِه روزيت.

اللّعنة! عندَما لَمحها كاد يقضي في مكانه وانتابَه غضَبٌ مسعور. مزّقَ ثيابَه رافِضاً الاقترابَ منها لفَرْطِ ما أخافَه مرآها.

قال:

- كيف؟ هذان السّافِلانِ اللّذانِ اعتَقَلتهما في السّجنِ يتجرّآنِ على الهزءِ بي وعلى أن يقترِحا عليّ الزّواجَ بتلك القردَة؟ سآمر بقتلِهما. والآن هيّا لنسجن تلكَ المدّعيَة المتبَجّحَة ومعها مربّيتها وذاكَ الذي يرافِقهما! لنضعهم داخلَ برجيَ الكبير!

أمّا الملك وأخوه السّجينان فقد عَرَفا أنّ شقيقتهما ستصِل عمّا قريبٍ فارتدَيا الثّيابَ الجميلَة لاستقبالِها.

وبَدَلَ أن يأتيَ الحرّاس لإخراجِهما منَ السّجنِ كما كانا يأمَلان، جاءَ السجّان مع جنودِهِ وأمرَ بإدخالِهما إلى كهفٍ مظلم تماماً مليءٍ بالحيواناتِ الشّريرَة حيث وصَلَ مستوى الماء حتّى عنقهما. قالَ أحدهما للآخر:

- يا للخَطْب! أيّ عرسٍ مشؤومٍ هذا يُحضَّر لنا! لكن مَن تسبّب لنا بهذه الطّامَة الكبرى؟

لم يستطيعا التكهّن بما كان يُدبّر لهما سوى أنّ الموتَ بانتِظارِهما، وكان منزعجين من ذلك أيّما انزعاج. مرّت ثلاثة أيّام لم يريا فيها وجْهاً لإنسانٍ، وفي اليوم الثّالث جاءَ ملك الطّواويس ليَكيلَ لهما الشّتائم عبرَ أحدِ الثّقوب.

صرَخَ بهما قائلاً:

- انتَحَلتَ صفة الملكِ وأخوك انتحلَ صفةَ الأمير لكي توقِعا بي وتُلزماني بالزّواج بشقيقتِكما. لكن لستُما إلاّ مجرّد متسوّلين لا تُساوِيانِ الماء الذي تشرَبانه. سأرسل قُضاتي ليتوَلّوا محاكَمَتكما، وإنّ رجالي يحضّرون منذ الآن الحبلَ الذي سيَلتفّ حولَ عنقكما.

أجاب الملك غاضِباً:

- يا ملك الطواويس، لا تتسَرّع في حكمِكَ علينا في هذه المسألة، فقد تندَم بشأنها. أنا ملكٌ مثلك ولدَيّ مملكَة جميلَة وملابس وتيجان وأموالٌ كثيرَة. أقسم لكِ بِشَرَفي! آ، آ! طريف جدّاً ما تقوله عن إمكانيَة شنقِنا! هل سرَقنا شيئاً لك؟

عندما سمعَه الملك يتكلّم بكلّ ذلك الحَزم، احتارَ في ما يتوجّب عليه فعلُه. خطَرَ له أن يدَعهما يرْحَلانِ مع شقيقتِهما، لكنّ مستشاره، وكان متملّقاً حقيقيّاً، حثّه على الانتقام قائلاً له إنّه إذا لم ينتقم فإنّه سيصيرُ أضحوكَة الجميع وسَيُعْتبَر ملكاً صغيراً لا حول له ولا قوّة. عندئذٍ توعّدَ بألاّ يغفرَ لهما وأمَر بأن تُجْرى محاكَمَتهما.

لم تدم اجراءات المحاكَمَة طويلاً. تطلّبَ الأمر فقط رؤيَة رَسم الأميرَة الحقيقيّة، الأميرة روزيت ومقارَنتها معَ الفتاةِ التي تدّعي أنّها هي ليُصارَ إلى الحكم عليهما بقطع الرّأسِ بتُهْمَةِ الكذِب، فهُما وعَدا الملك بأميرَةٍ جميلَةٍ ولَم يحظَ إلاّ بفلاّحَة قبيحة. حينئذٍ ذهبَ الحرّاس إلى السّجنِ لتِلاوَةِ الحكم عليهما فصَرخا قائلينَ إنّهما لم يكذِبا أبداً وإنّ أختهما أميرَة وهي أجمل من ضوء النّهار. لا بدّ أنّ في الأمرِ خطأً ما لذا فهما يطالبان فقط بمهْلَةِ سبعةِ أيّام لعَلّهما يستطيعانِ إثباتَ براءتِهما وتجنّبَ المصير المشؤوم الذي ينتظرهما.

كان ملك الطّواويس غاضباً جدّاً وشقّ عليه كثيراً أن يمنحَهما حظوَة كهذه. لكنّه أخيراً امتثَلَ لطَلَبهما. وفيما كانت تلك الأحداث

تتسارَع في البلاط، يجب قولُ شيءٍ عمّا جرى للأميرَةِ التّعيسَة روزيت. فمنذ طلوعِ النّهار، أُصيبت بالذهول، وكلبُها أيضاً، إذ رأيا أنّهما في عرْضِ البحرِ دونَ مركبٍ ولا نجدَة. أخذت الأميرة تبكي وتزيد في البكاء ما أثارَ شفقَة الأسماكِ جميعاً. لم تكن الأميرة تعرِف ماذا تفعَل وَلا ما سيَصيرُ بحالِها.

راحَت تقول:

- لا شكَ أنّني رُميتُ في البحرِ بأمْرٍ من ملكِ الطّواويس. لقد نَدِمَ على رَغبَتِهِ في الزّواج بي فأرادَ إغراقي ليتخلّصَ منّي. إنّه لإنسانٌ غريبُ الأطوار! كان بإمكاني أن أحبّه كثيراً وأن يكون زواجنا سعيداً!

وأخذَت تزيدُ في البكاءِ لأنّها لم تستطع الامتناعَ عن حبّه. وظلّت يومَينِ على هذه الحال عائمَةً وسطَ الماءِ ومبْتَلّة حتّى العَظم فأصابَها زُكامٌ مميت. كانَت مجمّدة الأوْصال ولولا وجودُ بصبوص الصّغير قربَها ليدفئَ قلبَها قليلاً لَكانت ماتَت ألْفَ ميتَة.

وأحَسّت بجوعٍ ينْهَشُ أحشاءَها نَهْشاً. وَجَدَت محاراً فأخذَت منه بقدرِ ما تستطيعُ والتهَمَته. لم يكن بصبوص يُحبّ المَحار ولكنّ للظروف أحكامها. وعندَما جاء اللّيل، تولّى روزيتَ خوفٌ كبيرٌ وقالت لكَلْبِها:

- بصبوص، انبَحْ دوماً لئَلاّ تأكلنا أسماك موسى.

وواصَلَ نباحَهُ طيلَةَ اللّيل، ولم يكن سرير الأميرَة بعيداً عن الشّاطئ حيث كان هناكَ شيخٌ طيّبٌ يعيش وحيداً في كوخٍ صغيرٍ لا يزورهُ أحد. كانَ فقيراً جدّاً وغير مكترثٍ بخيْراتِ هذا العالَم.

لدى سَماعِهِ بصبوص ينْبَح، تفاجأ لأنّ الكلابَ لم تكن تمرّ من هناك. ظنّ أنّ بعضَ المسافرين جَنَحَت بهم سفينَتهم. خرج ليدُلّهم

على الطّريق على سبيلِ فعلِ الخير، وفجأةً لَمَحَ الأميرَة وبصبوص يسبَحانِ في البحر. وحينَ رأتْه الأميرَة مدّت ذِراعَها وصاحَت به:

- أيّها الشّيخ الطيّب، ساعدني لأنّني سأقضي نَحْبي هنا. منذ يومينِ وأنا أصارِع الموت.

عندَما سمعَ نبْرَة التّعاسَة في صوْتِها رقّ لحالِها ودخَلَ إلى منزلِهِ ليأتيَ بخطّافٍ طويل فتقدّم في الماءِ حتّى غمَرَه إلى عنقه وأوْشَكَ مرّتَين أو ثلاثاً أن يغرَق، وأخيراً، وبَعْدَ جُهْدٍ جهيد، جذَبَ السّريرَ إلى الشّاطئ. سُرّت روزيت وبصبوص كثيراً لأنّهما أصبحا على اليابِسَة.

وشكَرَت الرّجل الطيّبَ كثيراً وأخذَت غطاءَه لتتَدَثّرَ به، ثمّ دخلَت حافيَةَ القدَمينِ إلى الكوخ حيث أشْعَلَ لها الشّيخ ناراً صغيرَة منَ القشّ اليابس. وأخرجَ منَ الخزانَةِ أجملَ الثّيابِ التي كانت لزَوْجَتِهِ المتوَفّاة وخفّيْنِ وجوْرَبينِ لترتديها الأميرَة. وهكذا بدَت الأميرَة في ثوبِ الفلاحَةِ جميلَة كضوْءِ النّهار، وراحَ بصبوص يرقصُ من حولِها لتَسْلِيَتِها.

من أغطِيَةِ سريرِ روزيت التي كانت منسوجَة بخيوطِ الذّهب والفضّة ومن فراشِ سريرِها السّاتان، لاحَظَ الشّيخ أنّها سيّدَة نبيلة. رجاها بأن تقُصّ عليه ما جرى لها ووعَدَها بأنّه لن يبوحَ لأحَدٍ بشيء إذا كانَت هذه رغبَتَها. رَوَت له كلّ ما حَدَثَ لها وهيَ تبكي بحَرارَة لأنّها كانَت تظنّ أنّ ملكَ الطواويس هوَ الذي أمَرَ بإغراقِها.

قال لها الشّيخ:

- وماذا سنفعل يا بنيّتي؟ أنتِ سيّدَة نبيلَة جدّاً ومعتادَة على أفضل أصنافِ الطّعام وأنا ليسَ لديّ إلاّ خبز أسوَد وَلِفت. ستتناوَلينَ طعاماً رَديئاً. وإذا شئتِ سأذهَب لأقول لملكِ الطّواويسِ أنّكِ عندي. أنا أكيدٌ من أنّه سيتزوّجُكِ.

قالت روزيت:

- آهٍ منه، إنّه شرّير، سوف يُهلِكُني. لكن، إذا كان لديك سلّة صغيرَة فسنعلّقُها إلى عنقِ كلبي ليأتيَ لنا بالمؤونَة، وإلاّ فإنّ المصيبَة ستحُلّ بِنا.

أعطى الشّيخ سلّة للأميرَة وعلّقَها إلى عنقِ بصبوص وقالت له:

- اذهَب إلى أفضَلِ طعام أُعِدّ في المدينَة واجلب لي ما تجِدُهُ فيه.

هُرِعَ بصبوص إلى المدينةَ وبما أنّه لم يكن هنالِكَ أفضلُ من قِدْرِ الملكِ فقد دخَلَ إلى المطبَخِ واكتشفَ قِدْرَ الطّعام وأخذَ بلباقَةٍ كلّ ما يوجَد فيها وعادَ إلى المنزلَ.

قالت له روزيت:

- عُدْ إلى غرفَة المؤونَةِ المجاوِرَة للمطبَخ وائتِني بأفضلِ شيء.

وعادَ بصبوص إلى غرفةِ المؤونَة وأخذَ منها كلّ أنواعِ الفواكه والمربّيات والمشروبات وحَمَلَ منها الكثيرَ فرَزَحَ تحتَ ثقلِ حملِه. وعندَما أرادَ ملكُ الطّواويس تناول العشاء، لم يكن هناكَ شيء في قِدْرِ الطّعام ولا في غرفة المؤونَة.

تبادَل الجميع النّظرات وانتابَ الملكَ غضبٌ مسعور.

قال:

- حسناً، لن أتناوَلَ العَشاء! ولكن هذا المساء، لِنَضعِ السّفافيد على النّار، أريد الحصول على أفضلِ المَشاوي.

وعندَما وافى المساء، قالت الأميرَة لبصبوص:

- اذهَب إلى المدينَة وادخل إلى أفضلِ مطبخٍ وائتِني بأفضَلِ المشاوي.

ونفّذَ بصبوص ما أوْصَته به سيّدَته. وبما أنّه لم يجد مطبَخاً أفضل من مطبخِ الملك فقد دخلَ إليه بهدوء. وفيما كانَ الطّهاة غافلين، أخذ

الطّريدَة التي كانت موضوعَة على السّفود. ولِمجرّدِ رؤيَتِها، كانت تثيرُ الشهيّة.

وأعادَ بصبوص سلّتَه ملأى إلى الأميرَة. وأمَرَته بالعودَة في الحال إلى المطبخ مجدّداً، وجلب لها كلّ أنواعِ الفواكه المطهوّة والسّكاكر المخصّصَة للملك. لم يكن الملك قد تعشّى بعد. أحسّ بجوعٍ كبير وأرادَ تناول عشائهِ باكراً ولكن لم يكن هناكَ شيء للعشاء، فانتابَه غضبٌ مسعور وذهَبَ للنّوم دونَ عشاء.

في اليوم التّالي، وعندَ حلولِ وقتِ الغداء والعشاء، حصَلَ الأمر نفسُه، بحيث إنّ الملك بقيَ ثلاثة أيّام دونَ أكلٍ أو شراب. وكلّما جلَسَ إلى المائِدَة، وجَدَها فارِغَة. أصيبَ مستشارُهُ بالهَلَع وخَشيَ أن يموتَ الملك فاختبأ في زاوِيَةٍ صغيرَة منَ المطبخ وراقَبَ بإمعانٍ القِدْرَ التي كانت تغلي. ففوجئَ برؤيَتِهِ كلباً صغيراً أخضر بأذُنٍ واحِدَة يدخل على مَهْلٍ ويكشفُ غطاء الطّنجرَة ويضع اللَحمَ في سلّته. تبِعَهُ ليَعرِف وِجْهَتَهُ ورآه يخرج منَ المدينة.

استمرّ في تتبّعهِ فوجَدَ نفسَه أمام كوخ الشّيخ الطيّب. وَسارَعَ في الحالِ لإبلاغِ الملك بما رآه، وبأنّ حَساءَ الملكِ وشِواءَهُ كانا يذهبانِ مساءً وصباحاً إلى كوخ فلاح فقير. ذُهِلَ الملك للخَبَرِ وطَلَبَ أن يُقتادَ الفلاح إلى القصر. أرادَ المستشار الذّهابَ بنفسِهِ إلى الكوخ مصطَحِباً معه رُماةً، فألفَوْه يتناول العشاءَ معَ الأميرَة من طعامِ الملك، فأمَرَ باعْتِقالهما وأوْثَقوهما بحبالٍ ضخمَة.

لدى وصولهم، ذهبوا لإبلاغ الملك الذي قال:

- غداً ينتهي اليوم السّابع الذي منحْتُه لهذَينِ الوَقِحَين. سآمُرُ بقتلِهما مع سارقي طَعامي.

ثمّ دخَلَ إلى غرفةِ العدل. سجَدَ الشّيخ على ركبتيهِ أمامه وقال إنّه

سيخبِرُه بكلّ شيء. وأثناءَ كلامِهِ، أخذ الملك يرنو إلى الأميرة الجميلة وشعَرَ بالإشفاقِ لرؤيَتِها تبكي.

وفيما كان الشّيخ يبوح للملك بأنّها هيَ الأميرة روزيت وأنّه قد أُلقِيَ بها في البحر، وَثبَ الملك، بالرّغم منَ الوَهْنِ الذي كان أصابَه لبقائه طويلاً دونَ طعام، ثلاثَ قفَزاتٍ باتّجاهِ الأميرَة وسارَعَ لتقبيلِها وفكّ الحِبالِ التي تقيّدها وقالَ لها إنّه يحبّها بجنون. وفي الحال أرسَلَ في طلَب الأميرَينِ اللّذيْنِ ظنّا أنّهما يُقْتادانِ لتنفيذِ حكم الإعدام بحقّهما فوَصَلا وعلى وَجْهَيْهما أمارات الحزنِ الشّديد، مطأطئاً رأسَهُ وجيءَ أيضاً بالمربّيَةِ وابنَتِها. وعندما تقابل الجميع، قفزَت روزيت لتُعانِقَ أخَوَيْها، وارتمَت المربّيَة وابنتها والنوتيّ ساجِدينَ أرضاً يطلبونَ المغفرَة.

كانت الفرحَة كبيرَة لدرَجة أنّ الملك والأميرَة غفَرا لهم. ونالَ الشّيخ الطيّب مكافأةً سخيّة وأبْقِيَ في القصرِ مدى الحياة. وأخيراً فعَلَ ملك الطّواويس كلّ ما في وسعِهِ ليُرْضيَ الملك وأخاه معبّراً عن ألمِهِ لإساءَته معامَلَتهما، وأعادَت المربّيَة إلىَ روزيت ملابسَها الجميلة وصاغَها منَ الرّيالات الذّهبيَة، وَدامَ العرس خمسةَ عشرَ يوماً. وكانَ الجميع سعيداً بِمَن فيهم بصبوص الذي لم يعد يأكل إلاّ أجنحَة الحِجال.

السّماء تسهَرُ علينا وحين يُحْدِق
بالبَراءَةِ خطَرٌ داهم
تعرف السّماء كيف تدافع عنها
وتُخَلّصها من بَراثِنِ الشرّ وتنتقم لها.

ما إن نرى روزيت الخجول
أشبَه ما تكون بألسيون[1] في مَهْدِهِ الصّغير
عائمَة على الماءِ تتقاذَفها الرّياح
على غير هدى
لا يسَعنا إلاّ أن نشعر بالإشفاقِ الخفيّ حِيالها
والجزعِ لئلاّ تَلقى نِهايَة مشؤومة
وسَطَ الأمواجِ العاتية
أو أن تغدو لقمَة سائغة
لحوتٍ جائع.
لولا نجدَة السّماء لكانت حتماً لقَيتْ حتْفَها.
ولا ننسَ فضل بصبوص الذي تصدّى
لأسماكِ القدّ وأسماكِ موسى
وكيف جلب القوت لسيّدتِه:
مَن منّا لا يريد الحصول على كلبٍ مماثل؟

روزيت التي أُنجِدَت منَ الغرق
غفرَت وسامَحت أولئك الذينَ تسبّبوا بكبيرِ الأذى لها؛
آهٍ أنت يا مَن تُهان
وتريد أن تنتقم
اعلمْ أنّه لأمرٌ جميلٌ أن تغفرَ الإساءة
بعدَ أن قدِرْتَ على هزيمَة أعدائك
كذا يكون انتقامك عادِلاً،
لأنّ الفضيلة تعتزّ بك والجريمَة كُسِرَت شوكَتُها.

---

(1) ألسيون: طائرٌ بحريّ أسطوريّ.



«الغصن الذهبيّ»، للرسّام جوزيف مارسيل بروتون

Joseph Marcel Breton, 1907

الغصن الذّهبيّ

كان يا ما كان، كان هناكَ ملكٌ يوحي مِزاجُه الصّارم الحزين بالخشيَة أكثر ممّا بالحبّ. لم يكن يظهر علناً إلاّ فيما نَدر. وكان يأمر بقتلِ أفرادِ رعيّته لأقلّ شبْهة. سُمّيَ الملك المتجَهّم لأنّه كان يقطّب حاجِبيهِ دوماً. وكان لدى الملك ابنٌ لا يشبهه أبداً بشيء. لم يكن لذكائهِ مثيل وكذلك لم يكن هناك مَن يفوقه لطْفاً وجلالاً وحذقاً. ولكنّ ساقَيهِ كانتا ملتويَتَينِ وحَدَبَتُه أعلى من رأسه. وكانت عيناه بهما حَوَل، وكان فمُه ملتَوياً.

وأخيراً بالإمكانِ القول إنّه كان مسخاً صغيراً أو بالأحرى جسداً مشوّهاً يَحتَضن روحاً ولا أروع. ومَعَ ذلك، وبفعلِ تأثير فريد، كان يستطيع أن يدفع بالآخرين لكي يحبّوه حتّى الجنون إن أرادَ حيازةَ إعجابهم. كان ذكاؤه متفوّقاً على كلّ ما عَداه وليسَ في الإمكانِ أن يستَمِع إليه المرء ويبقى على عدم الاكتراث به.

أرادَت الملكة أن يُدعى فركوح[1]، إمّا لأنّها تهوى هذا الاسمَ وإمّا لأنّه كانَ فعلاً مشوّهاً تماماً، فقالت إنّ هذا الاسمَ يليق به أكثر من أيّ شيءٍ آخر. وكان الملك المتجَهّم الذي يفكّر في عظمَته أكثر ممّا بسعادة ابنه قد أختارَ له ابنة ملك مجاور جبّار جعلته الدول التي ضمّها إلى ولايته مَهيباً من جميع سكّان المعمورَة.

فكّر الملك العابس أنّ تلك الأميرَة ستكون مناسبة جدّاً لابنه الأمير فركوح لأنّها لن تعيب عليه تشوّهه وقُبْحَه فهي تساويه قباحَة

(1) فركوح: تصغير تحبّبيّ لفركاح أو مُفَرْكَح، وهو بحسب معجم لسان العرب مَن تَباعَدَ ما بين إلِيَتَيه وكان فيه شوَه.

وتشوّهاً. كانت تسير في ما يُشبه طشْتاً، لأنّ ساقَيها مخلّعتان وكانت تُدعى المُخَلَّعة. وكانت المخلّعة المخلوق الأظرَف روحاً. يبدو أنّ السّماءَ حاولت أن تعوّضها عن الخطأ الذي اقترفته الطّبيعَة بحَقّها.

بعد أن طلب الملك المتجهّم رسْماً لتلك الأميرة ووضعَه في غرفة كبيرة تحت ظلّة، أرسل في طلب الأمير فركوح وأمَرَه بالنظر إلى تلك الصّورة بحنان لأنّها صورة زوجته المقبلة. رَماها فركوح بنظرة خاطفة ولم يلبث أن أشاحَ عنها بصَرَه باحتقارٍ، ما أشعرَ والده بالإهانة.

قال له بنبرَة حادّة غاضبة:

- ألست مسروراً؟

أجابَه:

- لا يا سيّدي، لن أسَرّ إطلاقاً بزواجي بِمُقعَدة.

قال الملك المتجهّم:

- لا يضيرك أن تجد عيوباً في هذه الأميرة فيما أنت لست إلاّ مسخاً صغيراً مخيفاً!

فأجابَه الأمير:

- ولهذا السّبب بالذّات لا أريد الاقتران بمسخ آخر. لديّ منَ الآلام ما يكفيني فهل تريد أن تزيدَها بشَريكَةٍ مماثلة؟

أجاب الملك بنبرَة محتقرة:

- تخشى أن تُديمَ نَسْلَ القرود! مَخاوِفُكَ عقيمَة. ستتزَوّجُها، يكفي أن آمُرَكَ لِكَي تُطيعَني.

- لم يُجب فركوح بشيء. انحَنى باحترام كبير واستأذَنَ بالانصراف.

لم يكن الملك المتجهّم معتاداً أن يُجابِهَه أحَد، فساءَه جداً اعتراض ابنه له. فأمَرَ بسَجْنِه داخل برجٍ بُنِيَ خصّيصاً للأمراء العاصين. لكن

لم يوجد متمرّد عاصٍ كابنه منذ ما يربو على مائتي سنة. وكانَ كلّ شيء في البرج في فوضى تامّة والغرف والأثاث قديمَة باليَة. كانَ الأمير يهوى القراءة فطلبَ كتباً ليقرأها وسُمح له باستعارتها من مكتبة البرج. بادئ الأمر اعتقد أنّ ذلك الإذن له بالقراءَة كان كافياً للتّرويح عن نفسه. حين همَّ بقراءة الكتب وجَدَ لغتها قديمة جداً ولم يفهم منها شيئاً. وضعَها جانباً ثمّ عادَ إليها مُحاوِلاً أن يفقهَ شيئاً منها أو أن يتسَلّى بها على الأقلّ.

كان الملك المتجهّم مقتنعاً أنّ ابنه الأمير سوف ييأس من وجوده في السّجنِ ويُذعنُ في النّهاية للاقتران بالأميرَة المخلّعة. أرسَلَ موفدين إلى الملك جاره ليَطلب يدَ ابنتِهِ التي وعدَها بسعادة لا مثيل لها. وسُرَّ والد الأميرة لأنّه وجَدَ الفرصّة ملائمَة جدّاً لتزويجِها لأنّه كان منَ الصّعوبة بمكان أن تجِد أحداً يَقبَل بفتاة مُقعدة، فوافق على اقتراح الملك المتجهّم مع أنّ رسمَ الأمير فركوح الذي أُحْضرَ له لم يكن مشجّعاً. أمَرَ بِدَورِه أن يوضَعَ الرّسم في صالةٍ رائعَة. أرَسَلَ في طلبِ ابنتهِ لتراه فخفضَت بَصَرَها وبدأت في البكاء. استنكر الأب النّفورَ الذي أبْدَته ابنته فأخذ مرآة وضعَها قبالتها قائلاً لها:

- آه يا ابنتي لماذا تبكين؟ انظري إلى نفسك في المرآة وسَتَرَينَ بَعدَها أنّكِ لستِ محقّة بالبكاء!

قالت له:

- لو كانت لديّ تلك الرّغبة الجامِحَة في الزّواج لكنت وافقت في الحال. لكنّي لا أريد أن أشرك أحداً بمصيبتي وأرضى بتقبّلها وحيدَة. لا أريد أن أزعج أحداً بمنظري المكرب. فلأبقَ طيلة حياتي الأميرة التّعيسَة المخلّعة. فأنا قانعة بمصيري أو على الأقلّ لن أتذمّرَ أبداً.

مهما تكن الذّرائع التي قدّمتها لوالدها مقنِعَة فإنّ الملك لم يصغِ السّمع إليها وفرض عليها الرّحيل مع الموفدين الذين جاؤوا في طلبِها.

ندَعها هنا تقوم برحلتها على محْملٍ كمُقعَدةٍ تعيسَةٍ حقّاً، لننتقلَ إلى البرج ونرى ما يفعَله الأمير. لم يجرؤ أحد من حرّاسه على التحدّث إليه. تلقّوا الأوامر بحَملِه على السّأم من وضعهِ وبتقديم طعام رديء له وإرهاقه بمعاملتهم السيّئة له. كان الملك المتجهّم يعرفُ كيف يجعل الآخرين يطيعونَه، إذا لم يكن حبّاً به فعَلى الأقلّ خشيَةً منه. لكنّ الحرّاسَ كانوا يُكنّون مودّة للأمير وهذا ما دفعهم للرأفة به.

وذات يوم، وفيما كان يتنزّه في رواقٍ طويل مفكّراً بحزنٍ بمصيره ذاك، الذي جعله يولد بهذه البَشاعَة والقباحَة ويُدفَع للزّواج بأميرة تفوقُه بشاعَة، ألقى نظرة على النّوافذ فوجَدَها مطليّة بألوان مفعَمَة بالحيويّة وبرسوم معبّرَة. وبما أنّه كان يستسيغ مثل هذه الأعمال الجميلة، أمعَنَ النّظرَ إليها. لم يفهَم شيئاً منَ الرّسوم لأنّها كانت تعود إلى أحداث حصلَت منذ قرونٍ عدّة. لكن ما لفَتَ انتباهَه بشكلٍ خاصّ هوَ رجل يشبهه إلى حدٍّ بعيد وكأنّه صُنوه. كان ذلك الرّجلُ مرسوماً في أعلى البرج الرّئيس وكان يبحث في الجدار فوجَدَ مفتاحاً ذهبيّاً وفتحَ به إحدى الغرف. وكان هناكَ أشياء أخرى كثيرة أدهشَت خيالَه. وعلى أغلبِ النّوافذ شاهَدَ دوماً الرّسمَ الذي يشبهه فقال في نفسه:

– ما الذي حدا بهم لِيَرسموا شخصاً يشبهني تماماً رغمَ أنّي لم أكن قد ولِدت بعد؟ ولِمَ خطَر للرسّام أن يرسمَ رجلاً مثلي؟

ثمّ رأى على تلك النّوافذ سيّدة جميلة ذات ملامح متناسِقَة وسيماء ذكيّة ولم يستطع أن يشيحَ ببصرِه عنها. وفي النّهايَة، كان هناك آلاف

الأشياء والأهواء معبَّراً عنها بوضوح لدرجة أنّه استطاع تبيانها فقط من خلال تمازج الألوان.

لم يخرج منَ الرّواق إلاّ حينَ مالَت الشّمس وتعذّر عليه تمييز هذه الرّسوم. عندما عاد إلى غرفته، أخذ مخطوطة قديمَة وقعَت صدْفَة بين يدَيه وكانت أوراقها منَ الورقِ القضيم[1] المزيّنة جوانبه بالرّسوم، أمّا الغلاف فمنَ الذّهب المطَعّم بالأزرق والمزدان بالأرقام. مَكَثَ مندَهِشاً لأنّه رأى في المخطوطة الرّسوم نفسَها التي رآها على النّوافذ في الرّواق. حاوَلَ أن يقرأ ما كان مكتوباً لكنّه لم يفلح كثيراً. ثمّ رأى في إحدى الصفحات موسيقيّينَ شرعوا في الغناءِ وفي صفحة أخرى أناساً يلهون بالورق وطاولة الزّهر، وكانت أوراق اللّعب والنّرود تروح وتجيء. ثمّ رأى احتفالاً يرقص فيه الجميع وكانت جميع السيّدات متزيّناتٍ ومدهشات الجمال. وظلّ يقلّب الصفحات أيضاً فاشتمّ رائحة مأدُبة شهيّة حيث راح المدعوّون يأكلون، وكان أطوَل واحدٍ فيهم بِحجم نصفِ ذراع. التفتت إحدى المدْعُوّات إلى الأمير وقالت له:

- في صحّتكَ يا فركوح، فكّر في أن تعيدَ لنا ملِكَتنا. إذا فعلتَ ذلكَ فستؤول مآلاً حسناً، وإذا أخلَلْتَ به فستجِد ما لا يُرْضيك.

وعَلى أثرِ هذه الكلمات، انتابَ الأمير خوفٌ شديدٌ لأنّه منذ بعض الوقت كان قد بدأ بالارتجافِ بحيث تركَ كتابَه جانباً وسقطَ في الجانب الآخر كالقتيل. وعلى أثرِ الضجّة التي أحْدَثَها سقوطه، هُرِعَ حرّاسه. كانوا يُحِبّونَه حبّاً جمّاً وفعَلوا كلّ ما بوسعهم ليوقظوه من غيبوبته.

وعندما عادَ إلى رشده ورأى نفسه قادراً على الكلام سألوه عن

(1) الجلد الأبيض يُكتب فيه.

حاله فقال لهم إنّه يأكل بشكلٍ سيّء جداً ولن يستطيع الصّمود. قال لهم أيضاً إنّ رأسه مليء بالتخيّلات فهوَ يتخيّل ويرى ويسمع أشياء مدهِشَة في ذلك الكتاب ما يجعل الخوف يتمَلّكه. قدّم له الحرّاس الرّاثونَ لحاله الطّعام بالرّغم من كلّ المحظورات التي ألزَمهم باحترامها الملك المتجهّم. بعدَ أن تناول الطّعام، أخذ الكتاب من جديد في حضورهم، فلم يرَ الرّسوم المتحرّكة التي سبَقَ أن رآها واقتنع بأنّه كان يَهذي.

وفي اليوم التّالي، عادَ إلى الرّواق فرأى من جديدِ الرّسومَ على النّوافذ تتحرّك ويتجوّل أشخاصها في ممرّات بينَ الأشجار ويصطادون أيائلَ أو أرانب بريّة أو أسماكاً، ويبنون منازل صغيرة منمنمة، وكان رسمَه لا يزال في كلّ مكان، ولباسه مشابِهاً للذي يرتديه؛ رأى نفسه يصعَد إلى أعلى البرج ويجد المفتاح الذهبيّ. كان قد أكلَ جيّداً ولا مجالَ للظنّ بأنّه يتوهّم أشياءَ غير حقيقيّة.

قال في نفسه:

- كلّ هذا يكتنفه الغموض المطبَق، وهذا ما يَدفعني لأسعى بكلّ ما أُوتيتُه من وسائل لأعرف أكثر عن سرّ الرسوم التي أراها. ربّما استطعت إلى ذلك سبيلاً إذا صعدت إلى أعلى البرج.

وهذا ما فعله: قرَعَ الجدارَ فبَدا له أنّ هنالِك مَكاناً أجوَفَ فيه. أمسكَ مطرَقَة وفتَحَ ثغرَة فيه فوجد مفتاحاً ذهبيّاً مصنوعاً بإتقان لكنّه حار في أيّ قفل يضعه. وعندئذٍ لمحَ في زاوية منَ الحصنِ خزانه عتيقة منَ الخشبِ الرّديء. أراد أن يفتَحَها لكنّه لم يستطع العثورَ على القفل في أيّ جانبٍ من جوانبها.

طفق يبحث دون جدوى إلى أن رأى أخيراً ثقْباً صغيراً وفي الحال وضع فيه المفتاح الذهبيّ وفتحَ الخزانة جاذباً دَرْفتها بقوّة. كانت

جميلة رائعة منَ الدّاخل بقدر ما كانت قديمَة مهلهلة منَ الخارج: جميع أدراجِها منَ البلورِ الصّخريّ المنحوتِ ومنَ العنبرِ والأحجار الكريمة. كلّما فتَحَ دُرجاً رأى داخلَه، عند الجوانب ومن فوق ومن تحت وفي العمق، أدراجاً أصغر منفصلة بعضها عن بعضٍ بعرْقِ اللؤلؤ، وكلّ درجٍ فيها مليء بأجمل الأسلحَة الممكنة وبتيجانٍ فخمَة ورسوم رائعَة. سُحِرَ الأمير بما رآه، وراحَ يفتحُ الأدراج دون توقّف وأخيراً وَجَدَ مفتاحاً صغيراً قُدّ من زمرّدَة واحدة ففتَحَ به باباً صغيراً من ذهب كان في عمق الدّرج وأدهشته علبَة كبيرة منَ الياقوت فانتزَعَها بسرعةٍ منَ الخزانة، ولكن ماذا صارَ بحاله عندما وجدَها مليئة دماً وكانت يَدُ الرّجل المقطوعَة فيها لا تزال تحمل قلادة تمثّل رسماً شخصيّاً؟

عندَما رأى فركوح ذلك، ارتجف وانتصَبَ شعر رأسِهِ وخانَته ساقاه الواهِيَتان. جلَسَ أرضاً وهوَ لا يزال يحمل العلبة مشيحاً بنظرِه عن اليدِ المشؤومَة. شعر برغبَةٍ لإرجاعِها إلى مكانها، لكنّه فكّرَ أنّ كلّ ما جَرى حتّى ذلك الحين كان مكتنَفاً بالأسرار المستعصية على الفهم. تذّكر ما قالته له إحدى المدعوّات في الصورة عن المهمّة التي عليه الاضطلاع بها. كانَ يخشى المستقبل بقدْر ما يخشى الحاضر. لكنّه خجل من خوفه ذاك ووجده غير لائق بذكائه، فتحامَل على نفسه وألقى نظرة باتّجاه اليد قائلاً:

– أيّتها اليد المشؤومَة! ألا تستطيعينَ ببعض الإشارات أن تخبريني عن التّجربة المروّعة التي قاسيتِها؟ إذا أردتِ أن أخْدِمَكِ فبإمكانك أن تعتمدي على نخوَتي.

بَدَت اليَد مضطربة لسَماعِها هذه الكلمات. حرّكَت أصابعَها وقامَت بإشاراتٍ ثمّ سَمِعَها تتكلّم وكأنّ لساناً مفعَماً بالذّكاء يتحدّث

إليه.

قالت اليد:

- اعلَمْ أنّك تستطيع فعلَ كلّ شيءٍ لذلك الذي فرّقني عنه ذاك الغيور المتوحّش. أمامك هذا الرّسم الجميل الذي كان سبب شقائي. اذهبْ دون تأخير إلى الرّواق وانتبه إلى المكان الذي ترسِل فيه الشّمس أشعّتَها الأكثر توهّجاً. ابحَثْ وستجد كنزي.

وعندئذٍ توقّفت اليَدُ عن الحراك. طرح الأمير عليها أسئلة عدّة لكنّها لم تُجب بشيء.

قال لها:

- أين أضعك؟

قامَت له بإشارات جديدة فَهِمَ منها أنّه يجب وضعها في الخزانَة. فعَلَ ما أمَرَته به. ثمّ أغلقَ كلّ شيءٍ وأعاد المفتاحَ إلى مكانه في الجدار. ثمّ نزَلَ إلى الرّواق وقد شعر أنّه بات متآلِفاً مع الخوارق.

لدى وصوله بدأت النوافذ تُحْدِث أزيزاً واهتزازاً متواصلين. نظرَ إلى حيث ترسِل الشّمسُ نورها الأكثر توهّجاً فرأى صورَة مراهق في غاية الجمال والنّبل فَسُحِرَ بمَرآه. وحينَ رفَعَ تلك اللوحة، وَجَدَ تلْبيسَة منَ خشب الأبنوس المطعّم بخيوط الذّهب كما في باقي الرّواق. لم يعرف كيف بإمكانه انتزاعها ولا إذا كان يفترض به ذلك. نظرَ إلى النّوافذ ورأى التلبيسَة تُنزَع فنَهَضَ للفورِ ووجَد نفسَه في ردهة منَ الرّخام السمّاقيّ مزدانَة كلّها بالتّماثيل. ثمّ صعد درَجاً طويلاً منَ العقيق ودرابزينه منَ الذّهب المشغول. ودخلَ إلى صالون مفروش باللاّزورد ثمّ اجتازَ أجنَحة لا عديدَ لها وهو مسحور بجودَة الرّسوم وغِنى الأثاث إلى أن وصَلَ أخيراً إلى غرفة صغيرة مزدانة بالفيروز ورأى على سريرٍ منَ القماش الشفّاف الأزرق المذهّب امرأة

تبدو وكأنّها نائمة. جمالها لا مثيل له، شعرُها أسود سواد الأبنوس ويبرز بياض بشرتها. بدَت مضطرِبَة في نوْمِها ويُخالج وجهَها إرهاقٌ وإعْياء.

خَشيَ الأمير أن يوقظها فاقتربَ برفقٍ منها وسمِعها تتمتمُ فأصخَى سمعه بانتباه واستطاعَ تمييزَ هذه الكلمات القليلة التي تقطعها التنهّدات:

- أوَ تظنّ أيّها الغدّار أنّني أستطيع أن أحبّك بعد أن أبعدتني عن حبيبي ترازيهان؟ ماذا؟ أتجرؤ أمام ناظري أن تفرّقني عن يدٍ عزيزةٍ عليّ وعن ذراع يجب أن تثير فيك المهابة؟ هل بهذه الوسيلة تسعى لإثبات حبّك لي واحترامك؟ آهِ يا ترازيهان يا حبيبي الغالي ألَن أراكَ بعد اليوم؟

لاحظ الأمير أن الدّموعَ تبحث عن معبَرٍ لها بينَ أهْدابِها المُطْبَقة وتنهمِر على خدّيها. كانت تشبه قطرات النَدى عند الفجر.

مكثَ عند أسفل سريرها جامِداً حائراً في أمره: هل يفترَض به إيقاظها أمْ ترْكها مستغرقة في ذلك النوم الحزين. فهِمَ من كلامِها أنّ ترازيهان كان عشيقَها وأنّه هوَ الذي وجَدَ يدَه مقطوعَة في أعلى البرج.

وعندئذٍ، وفيما كانت تحتدم في رأسه الأفكار المشوّشة، سَمِعَ موسيقى رائعة، من غناء البلابل وصغار الكناري، وكانت زقزقاتها مضبوطة الإيقاع بحيث تفوق أجمل الأصوات البشريّة. ثمّ اقتحَمَ الغرفة نسرٌ هائل. كان يطير برفقٍ ويحمل في بَراثِنِه غصناً ذهبيّاً مثْقَلاً بالياقوت على شكلِ حبّات كرز. حَدّقَ بالجميلة النّائمَة وكأنّها شمسُه[1]، ثمّ بسَطَ جناحَيه الكبيرتين محلّقاً أمامها مرتفعاً حيناً

(1) معروف عن النّسر أنّه يعاين الشمس مباشرةً ويدرّب صغارَه على التّحديق بها بدون إغماض العينين.

ومنخفضاً حيناً حتّى قدَمَيها.

وبعد بضع لحظات، التَفَتَ نحوَ الأمير مقترِباً منه ووضعَ في يده الغصن الذهبيّ المزدان بحبّات الكرز. عندئذٍ أطلقت العصافير المزقزقة أصواتاً ثقَبَت قبابَ القصر. واسترجع الأمير في فكره مختلف الأحداث التي تتابعَت وعرف أنّ تلك المرأة مسحورَة وأنّ مغامرة مجيدة كانت مقدّرة له. تقدّم نحوَها ثمّ سجد على ركبته ولَمَسَها بالغصن قائلاً:

– أيّتها الفتاة الجميلة الفاتنة النّائمَة بفعل قدرةٍ أجهلها. أستحلفك باسم ترازيمان أن تعودي إلى حياتك الطّبيعيّة التي يبدو أنّك فقدتِها وتمارسي مهامّها كالعادة.

فتَحَت السيّدة عينيها وهتفت عندَما رأت النّسر:

– توقّفْ أيّها العشيق السّاحر، توقّفْ!

لكنّ العصفور الملكيّ أطلق صرخة حادّة مؤلِمَة وطار معَ عصافيره الصّغيرة المغرّدَة بأجمل الألحان.

وآنَذاك، التفتت السيّدة إلى فركوح وقالت له:

– أصغيت إلى قلبي بَدَل أن أظهرَ لكَ امتناني. أعرف أنّني أدينُ لك بكلّ شيء، وأنّك تعيدُني إلى الضّوءِ الذي فقدتُه منذ مائتي عام. إنّ السّاحر الذي أُغرِمَ بي وتسبّبَ لي بعَذاباتٍ جمّة خَصّكَ بهذه المغامرةِ الكبيرة. أنا قادرة على خدمتكَ وأرغبُ في ذلكَ بشكلٍ جارف. قلْ لي ماذا ترغب ولَدّيّ منَ السِّحرَ ما يَكفي لأجْعَلَكَ سعيداً.

أجاب الأمير:

– سيّدتي، إذا كانت معرفتكِ عميقة بخفايا القلوب فسيسهل عليكِ أن تعرِفي أنّه بالرّغمِ منْ أنّ الحياةَ حرَمَتني من أشياءَ كثيرَة فأنا راضٍ بِما قُدِّرَ لي.

أضافت الجنيّة:

- هذا بفضلِ روحِك الطيّبة. لكن، في جميع الأحوال لا تجعلني جاحِدَة بحقّك فهذا يُخْجِلني. قلْ لي ماذا تتمنّى فأنا قادرَة على كلّ شيء، اطلبْ فقط.

أجاب الأمير:

- أتمنّى أن أعيدَ لكِ ترازيمان الجميل الذي تُطلِقينَ لأجلهِ هذه التأوّهات المتكرّرَة النّابِعَة منَ القلب.

قالت له:

- إنّه لنُبْل منكَ أن تؤثِرَ مصالحي على مصالحك. هذا الأمر الجلل سيتمّ على يدِ امرأةٍ أخرى. وسيكون لكَ دَخْل فيه بشكلٍ أو بآخر. لن أوضِحَ لكَ أكثر من ذلك. والآن لا تتأخّر قلْ لي بماذا أخْدِمكَ ولا تحرِمْني هذه المتعة لوقتٍ أطوَل.

قال الأمير مرتَمِياً عندَ قدَمَيها:

- وما رأيكِ يا سيّدَتي؟ ألا ترينَ هيئتي المرْعِبَة؟ يسمّونني فركوح على سبيل التهكّم. اجعليني أقلّ إثارةً للسّخرية.

قالت الجنيّة وهي تلمسه ثلاث مرّاتٍ بالغصن الذهبيّ:

- اذهب! اذهب، ستكون كامِلاً تمامَ الكمال، لن يُضاهيَكَ أحدٌ لا قبلك ولا بَعْدَكَ جمالاً. ادعُ نفسَكَ «فريداً» وسوف تحمل هذا الاسم بجدارَة.

قبّلَ الأمير رُكبتي المرأة امتناناً وكان صمْته يُعبّر عن فرحَتِهِ ويجعلها تحدُس ما يدور في خلْده. دَعَته للنهوض. تمرأى في المَرايا التي كانت تزيّن هذه الغرفة. ولم يعد «فريد» يتعرّف على فركوح. طالت قامته ثلاث أقدام وانسَدَلَ شعره خصلات كثيفة على كتفيه واتّسمَت هيئته بالنّبْلِ والظرف، باتت ملامحه متناسقة وعيناه مفعمَتين ذكاءً وأخيراً،

باتَ الصّنيعَة الفذّة لجنيّة خيّرَة ومرهفة الإحساس.

قالت له:

- آه ليْتَه سُمِحَ لي أن أكشفَ لكَ عن مصيرك! ليتَ باستطاعَتي أن أنبئكَ بالحواجز التي سيضعها القدر في طريقك وأعلّمكَ السّبيل لتَجَنّبِها! كم سأكون راضيَة بأن أُلحِقَ الخدمَة التي قدّمْتُها لكَ لتَوّي بهذه التي أتَمَنّاها! لكنّي لو فعَلتُ لتسبّبْت بالإهانَة للجنيّ السّامي المَقام الذي يُرشدك. هيّا أيّها الأمير، اذهب من هذا البرج وتذكّر أنّ الجنيّة حليمَة ستكون دوماً صديقة لك.

ما قالت هذه الكلمات حتّى اختفى القصر ومعه الرّوائع التي رآها الأمير. وجدَ نفسَه في غابة كثيفة تبعد أكثر من مائة فرسَخ عن البرج الذي احتبسه داخله الملك المتجهّم.

لنتركه يخرج من ذهوله، ولْنَعرفْ أمْرَين. الأمر الأوّل يتعلّق بالحرج الذي أحسّ به الحرّاس المساكين الذين فوجئوا بأنّ أميرَهم لم يطلَب طعاماً لعشائِه فدخلوا إلى غرفته ولمّا لم يجِدوه تولاّهم الذّعر واليأس وبحثوا عنه في كلّ مكان. كانوا خائفين من أن يأمر الملك، الذي كان رهيباً في أحكامه، بإعدامهم. تشاوروا فيما بينَهم علّهم يجدون حيلةً تجنّبهم العقاب: واتّفقوا على أن يندَسّ أحدهم في السّرير متظاهراً بأنّه الأمير، وأن يُقال للملك إنّ الأميرَ في غاية الاعتلال ثمّ يبلّغونه لاحقاً بأنّه توفّي. وعندئذٍ يكفّنون عوداً خشبيّاً مكان جثّته ويدفنون النّعش في التراب فيتخلّصونَ منَ الوَرْطَة التي تنتظرهم. بَدا لهم هذا الحلّ مثاليّاً ودامِغاً وبادَروا على الفورِ إلى تنفيذه. جُعِلَت لأصغر الحرّاس حَدَبَة كبيرة واضطجَعَ في السّرير متظاهراً بأنّه الأمير.

قيلَ للملك إنّ ابنه كان مريضاً جدّاً. ظنّهم يقولون ذلك ليُحَنّنوا

قلبه لكنّ الملك أمْعَنَ في قسوَته. وهذا بالضّبط ما كان يتمنّاه الحرّاس المذعورون. وكلّما عظّموا له فَداحَة مرض الأمير، أمْعَنَ الملك في استخفافه.

أمّا الأميرة المخلّعة فقد وصَلَت موضوعة على محْمَل تجرّه عربة صغيرَةٍ يبلغ ارتفاعها ذراعاً. تقدّمَ الملك المتجهّم لِلقائِها وعندما رأى تشوّهها الفظيع وجِلدَها المحرْفش مثل سمكة القدّ وحاجبيها الملتصقتين وأنفَها المفلْطَح وفمَها المُتطاول حتّى أذنَيها، لم يستطع الامتناع عن القول:

- تعرفين أيّتها الأميرة، لا يحقّ لكِ أن تحتقري ابني. صحيح أنّه قبيحٌ جدّاً، لكنّه، إن أرَدْتَ الصّدق، أقلّ قباحَة منكِ.

قالت له:

- مولاي، لا أملكُ من الخيلاء ما يكفي لكي أشعرَ بالإهانَة إزاءَ ما تقوله لي من أشياءَ مُذلّة. لكنّي لا أظنّها مع ذلك وسيلة تقنعني بأن أحبّ أميركَ الفاتن. لكنّي أعلن لك أنّني، بالرّغم من أنّني مقعَدَة وبالرّغم منَ العيوبِ التي أتحَفَتني بها الطّبيعَة، لاَ أريد الزّواجَ به وأفضّلَ لقبَ الأميرة المخلّعة على الملكة زوجة فركوح.

استشاطَ الملك المتجَهّم غضباً من جوابِها وقال لها:

- أؤكّد لكِ أنّ الشّعور متبادَل. لكنّ والدِكِ الملك وهوَ وليّ أمركِ عهدَ لي بالعناية بكِ فأصبحْتُ الآن وليّ أمرك.

قالت:

- إلاّ أنّ هنالكَ أشياء يمكننا الاختيار بشأنها. أحضَروني إلى هنا رغماً عنّي. خذْ عِلماً بأنّني سأعتبرك عدوّي الألَدّ إن أرغمْتَني بالقوّة على الموافقة.

غادرَها الملك مستشيطاً غضباً وأمر بأن تُسكنَ في جناحٍ في

قصره وتُحاط بالسيّدات اللّواتي تقوم مهمّتهنّ على إقناعها بالاقتران بالأمير.

في تلك الأثناء سارَعَ الحرّاسِ يقولون للملك إنّ ابنه توفّي تداركاً لأن يُفْتَضَحَ أمرهم ويعرف الملكُ بهروبه. لدى سماعهِ هذا النبّأ شعرَ الملك بألَمٍ شديد وكان مَن رآه يستغرب أن يكون قادراً على إبداءِ مثل هذه المشاعر. راحَ يصرخ ويزعَق، وإذ اعتبرَ المخلّعة مسؤولة عن الخسارة التي مُنِيَ بها للتوّ أرسلها إلى البرج حيث كان احتبَسَ ولدَه العزيز المتوفّى.

اعترى الأميرة المسكينة الحزن والذهول في آنٍ لأنّها وجدَت نفسَها سجينة. كانت مفعمةً شَجاعةً وتحدّثت عن الظّلم الذي أُلحِقَ بها من جَرّاء تلك المعاملة المُمْعِنَة في القسوة. ظنّت أنّهم سينقلون أقوالها للملك لكن لا أحَد كان يجرؤ على إعلامه بموقفها. ظنّت أيضاً أنّها تستطيع أن تكتبَ لوالِدِها لتُخبره عن المعامَلة السيّئة التي تلحَق بها وتناشده أن يأتي لإعتاقِها. لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً لأنّ رسائلها كانت تُصادَر وتُسَلّم للملكِ المتجهّم.

كانت تعيش على ذلك الرّجاء لذا شعرت بحزنٍ أقلّ. كانت في كلّ يوم تذهب إلى الرّواق لتنظر إلى الرّسوم المختلفة التي تزدان بها النّوافذ، ولا شيء كان يبدو لها أعجَب منها لا سيّما وأنّها رأت رسمها بينها وهي مقعدة في طشتِها. قالت في نفسها:

- منذ أتَيتُ إلى هذه البلاد والرسّامونَ يلْتَذّون برَسمي؛ ألا توجَد هيئات مضحِكَة إلاّ هيئتي؟ أم إنّهم يريدون أن يرسُموني لكي يُبرِزوا الفرق بيني وبين جَمال هذه الراعِيَة الشابّة الفاتِنَة؟

رأت بعدئذٍ صورة راعٍ بهيّ الطلعة جميل المحيّا. أخذت تقول:

- ما أتْعَسَ حظّي حرمَتني الطّبيعَة من كلّ حظْوَة! ما أسْعَدَ هؤلاء

الذين حَبَتْهم الطّبيعَة بالجمال!

قالت هذه الكلمات وأخذت الدّموع تنهمِر من عينيها؛ ثمّ نظرَت إلى نفسِها في إحدى المرايا والتَفتت فجأةً فذُهِلَت عندما رأت خلفها عجوزاً قصيرَة معتمرَة قلنَسْوَة أشدّ قباحَة منها، وكان الطّشت الذي تجرجر نفسها فيه مليئاً بالثّقوبِ لشدّة عتقه.

قالت لها المرأة العجوز البَشِعَة:

- أيّتها الأميرة يمكنكِ أن تختاري بين الفضيلة والجمال. حسَراتك أثّرَت فيّ كثيراً. إذا أردتِ أن تكوني جميلة فستكونين غنِجة ومدّعيَة وأنيقة جدّاً. وإذا أردْتِ أن تبقي كما أنتِ فستكونين حكيمَة ومحترَمَة ومتواضِعَة جدّاً.

نظَرَت الأميرة إلى محدّثتها وسألتها ما إذا كان الجَمال لا يتلاءم معَ الحِكمَة. قالت المرأة المُسِنّة:

- بلى، ولكن فيما يخصّكِ أقِرَّ أنّه لا يمكنكِ أن تحْصُلي إلاّ على ميزَةٍ واحِدَة: إمّا الجمال وإمّا الحكمَة.

فهتفت الأميرة بلهجَةٍ حازِمَة:

- حسناً، أفضّل بشاعَتي على الجمال.

أردَفَت العجوز:

- عجَباً! تفَضِّلينَ أن تخيفي هؤلاء الذينَ يَرَوْنَكِ؟

قالت الأميرة:

- نعم يا سيّدتي، أختار بالأحرى جميع المصائب على أن أفتقِرَ إلى الفضيلة.

قالت الجنيّة لها:

- لقد أحْضَرتُ عمْداً قفّازيَّ الأصفر والأبيض. إذا نفَخْتِ في اللّون الأصفر فستكونين شبيهَة بهذه الرّاعيَة الرّائعَة التي بَدَت لكِ

فاتِنَة وسوف تَحْيَيْنَ معَ الراعي الذي استوقَفَكِ رسمُهُ أكثرَ من مرّة. وإذا نفخْتِ في الأبيض فسوفَ يكون بإمكانِكِ أن تواصِلي سيركِ قدُماً على درب الفضيلة بشجاعَة وثبات.

أضافت الأميرة:

- حسناً يا سيّدتي، لا تمنَعي عنّي هذه النّعْمَة فسوف تواسيني وتعوّض لي عن كلّ الاحتقارِ الذي ألْقاه.

أعْطَتها العجوز القصيرَة قفّازَ الفضيلة والجمال فنفخت دون تردّد في اللّون الأبيض وشكرَت الجنيّة التي اختفت في الحال.

كانت مبْتِهجَة بالخِيار الحَسَنِ الذي قامَت به. ومَهما تكن لدَيها أسبابها لتَحْسد الرّاعية المرسومَة على الجدران لجَمالِها، فكّرَت، في محاولة منها لِمواساة نفسِها، في أنّ الجمال يعبُرُ كالحلم، وأنّ الفضيلة كنز أبديّ وجمال لا يزول لا بل يَدوم أكثر منَ الحياة نفسها. كانت تأمَل دوماً أن يأتي والدُها على رأس جيش ضخم ويخرجَها منَ البرج. كانت تنتظر لحظة رؤيتِهِ بفارِغ الصّبر وتتحرّق للصّعودِ إلى أعلى البرج مرتقبةً الاستغاثة الوافدَة إليها. ولكن، ما السّبيل إلى بلوغ هذا العلوّ في مثل حالتها هي التي تذهب إلى غرفتِها أبطَأ من سلحَفاة وتحْمِلْها وصيفاتها إذا أرادت الصعود إلى أيّ مكان؟

ومَعَ ذلكَ، وجَدَت سبيلاً لبلوغ قمّة البرج بفضل ساعَة الحائطِ الكبيرة التي كانت في أعلاه فنَزَعَت منها أثقالَها ووضعَت نفسَها في مكانها، وعندَما أعادوا تشغيلَ السّاعَة رُفِعَت إلى فوقُ تلقائيّاً. نظرَت بسرعةٍ منَ النّافذة التي تطلّ على الرّيف ولكنّها لم ترَ أيّة نجدة آتِيَة فزحفت لكي ترتاحَ قليلاً. وفيما كانت تتّكئ إلى الجدار الذي كان الأمير فركوح، أو بكَلام أدقّ الأمير الذي أصبح يُدعى «فريداً» لجماله، أقول كان هَدَمَه ثمّ عاد فسوّاهُ بشكلٍ سيّء، انهارَ الجصّ

ووقَعَ المفتاح الذهبيّ أرضاً محْدَثاً رنيناً قربها فأمسكته وقلّبته لِترَى الهدَف من استعماله. وبِما أنّها كانت فائقة الذكاء، أدْرَكَت في الحال أنّه ملائم لفتح الخزانة التي لا يوجد فيها قفل ظاهر. ففتحَتها وسُحِرَت كالأمير بكلّ ما وَجَدَته فيها من أشياء نادِرَة وأنيقة. كان هنالكَ أربعة آلاف دُرج مليئة كلّها بالجواهر القديمَة والحديثة. وأخيراً وجدت الباب الذهبيّ والعلبة المصنوعَة منَ الياقوت واليدَ السّابحَة في الدمّ. ارتجَفَت لمَرْآها وأرادَت أن ترميَها ولكنّ قوّةً خفيّة منعَتها من ذلك. قالت بحزنٍ:

- واحَسرَتاه! ماذا سأفعل؟ أفضّل الموتَ على البَقاء أكثر مع هذه اليَد المقطوعَة.

وفي تلك اللّحظَة، سمعَت صوتاً عَذْباً وناعِماً يقول لها:

- تشجّعي يا أميرَتي، فهذه المغامَرَة ستكون مصدر سعادتك.

أجابت مرتجِفَة:

- آه، وماذا بإمكاني أن أفعَل؟

قال الصّوت:

- يجب أن تحملي هذه اليَد إلى غرفتك وتخفيها تحت سريرك؛ وعندما ترَينَ نسراً عليك أن تُعْطيها له دون تأخير ولو للحظة واحدَة.

بالرّغم من خوفِها الكبير، أحَسّت الأميرَة أنّ لِذلك الصّوتِ نبرَة مقْنِعَة، ولَم تتردّد في إطاعَتها. أعادَت الأدراجَ إلى أمكنتِها ووضعَت فيها النّوادِرَ كما وجَدَتها دونَ أن تلمِسَ أيّاً منها. انتبَهَ حرّاسها، وكانوا يخشونَ أن تفرّ منهم بدَورِها، إلى غيابها عن غرفتِها فأخذوا يفَتّشونَ عنها وفوجئوا من العثور عليها في مكانٍ لا يمكنها الصّعود إليه، بحَسَب قولهم، إلاّ بِسحرٍ ساحر.

ظَلّت ثلاثة أيّامٍ وهيَ لا تجرؤ على النّظرِ إلى العلبة ولا إلى فَتْحِها

لأنّ اليَدَ المقطوعَة كانت تخيفها بشدّة. وأخيراً، ذات ليلة، سمِعَت ضجّة قربَ نافِذَتها ففتحَت السّتارَة ولَمَحت في ضوءِ القمرِ نسراً محلّقاً. نهضَت وفقَ السّرعة التي يَسمَح لها بها وضْعها وجرْجَرَت نفسَها على أرض الغرفة لتفتَحَ النّافذة.

دخلَ النّسر مصفّقاً بجناحَيه بصخَبٍ علامَة على ابتِهاجه. لم تتأخرّ في إعطائه اليد فأخذَها بينَ مخالبه وبعد قليل غابَ عن نظرِها وظهر بدلاً منه رجل شابّ وكان أجملَ الرجال وأحسنَهم خلقة: جبينه مكلّل بتاج وثيابه مزدانَة بالأحجار الكريمة وفي يده رسْم؛ ثمّ بادرَها بالكلام قائلاً:

- يا أميرَتي، منذ مئتي سنة وأنا سجينُ هذه الأمكنة تحت تأثير ساحرٍ غدّار. أُغرم كلانا بالجنيّة الرّائعَة حليمة لكنّها اختارَتني بدلاً منه فشعرَ بغيرَة قاتلة، وكانت فنون سحره تتخطّى قدرتي. وإذ أرادَ أن يتسبّبَ بموتي، قال لي بنبْرَة مطلقة الحَزم بأنّه يمنعني من رؤيتها ثانية. وكان مثل هذا الحظْر منافياً لحبّي وللمنزلة التي أحتلّها: هدّدْتُه، وكذلك شعرتِ الجميلةُ التي أنا عاشقٌ لها بأنَّ تصرّف السّاحر مشين حيالها فحَظَرَت عليه الاقتراب منها. وحينئذٍ صَمّم الساحر المتوحّش على معاقبتنا نحن الاثنين.

«ذات يوم وفيما كنت أجلس قربها مسحوراً بالرّسم الذي أعطتني إيّاه أتأمّله وأجده ألف مرّة أقلّ جمالاً منها في الواقع، ظهر السّاحر وفَصَلَ، بضرْبَةِ سيفٍ واحِدَة، يدي عن ذراعي. أحسّت الجنيّة حليمة (لأنّ هذا كان اسم مليكتي) بالألم الذي أصابني على أثر هذه الضربة أكثر منّي، فَفقدت رشدها وتهاوت على سريرها. وفي الحال، اكتَسَيتُ بالرّيش وتحوّلتُ إلى نسر.

«كان يُسمح لي بالمجيء كلّ يوم لرؤية الملكة الجنيّة، دونَ أن أقدر

على الاقترابِ منها ولا على إيقاظِها، ولكنّي كنت أتعزّى بِسَماعِها تطلِق تأوّهات تعبّر عن شوقها لي وتتحدّث في حلمِها عن ترازيمان حبيبها الغالي.

«كنت أعرف أيضاً أنّه بعد مرور مائتي سنة سوف يُوقظ أحد الأمراء الجنيّةَ حليمَة من رقادها، وأنّ أميرة سوف تعيد يدي المقطوعَة ومعَها هيئتي الأولى. إنّ إحدى الجنيّات التي تهتمّ لعزّتك أرادت أن يكون الأمر على هذا النّحو. إنّها هيّ التي احتَفَظت بيدي في خزانة البرج. وإنّها هيَ التي زوّدتني بالقدرة لكي أعبّرَ لكِ اليوم عن امتناني. اطلبي وتمنّي أيّتها الأميرة الشيء الأحبّ إليك وسيُلبّى طلبكِ في الحال».

أجابت الأميرة (بعد لحظات قليلة منَ الصمت):

- إذا كنتُ لم أجبْكَ بالسّرعةِ اللازمَةِ أيّها الملك العظيم، فهذا ليسَ نتيجَة تردّدي بل لأنّي، وأعترِف لكَ بذلك، لستُ متمَرّسَة في هذه المغامَرات الخارِقَة كهذه التي تحصل لي، وأتصوّرها حلماً أكثر منها حقيقة.

أجاب ترازيمان:

- لا، يا سيّدتي، ليسَ وهْماً ما يحصل لك، وسوف تشعرين بتأثيراته ونتائجِهِ ما إن تقولين لي الأمنيَة التي تشتهينَها.

قالت:

- إذا طلبتُ كلّ ما أنا بحاجَة إليه لأكون كاملة، فسيَصعب عليكَ تحقيقه مهما بلغت قدرتك. لكنّي أكتفي بالأساسيّ: أن تجعَل روحي جميلة بقدر ما جسدي قبيح ومشوّه.

هتف الملك ترازيمان:

- آه أيّتها الأميرة، إنّه لَمَدْعاةُ سرورٍ لي أن تقومي بهذا الخِيار

الصّائب والنبيل. سيصبح جسدكِ بِجَمالِ روحكِ وفكرك.

لَمَسَ الأميرة بِرَسم الجنيّة، فسمِعَت عظامَها تُطقطق ورأتْها تتطاوَل وتعود منتظِمَة. نهضت فَباتت طويلة القامَة، جميلة، مستقيمة، بيضاء البَشرة متناسِقَة الملامِح، واتّسمت سيماؤها بالكِبر والتّواضع، والرّهافَة والظرف في آنَ.

هتفت:

- يا للمعجزة! أيُعْقَل أن أكون أنا؟

أردَفَ ترازيمان:

- نعم يا سيّدتي هذه أنت؛ إنّ اختيارك الحَكيم للفضيلة أنعمَ عليك بهذه الهيئة الجميلة. إنّها لَمُتعة كبيرَة لي، بعدَ كلّ ما أدينُ بهِ لك، أن أكونَ مقدّراً للمساهمة في تبدّلك هذا! لكن آن لك أن تتخلّي عن لقب المخلّعة وتتّخذي اسم «سناء» الذي تستحِقّينَه نظراً للسّناء المنبعث منك.

واختَفى في الحال؛ ووجدت الأميرة نفسَها، دون أن تعرَفَ كيف وبأيّة وسيلة، عند ضفّة نهرٍ صغير في مكان وارف لا أظرف تُظَلّله الأشجار.

لم ترَ هيئتها الجديدة بعد. وكانت مياه النّهر صافيَة فرأت على صفحَتِها أنّها تشبه الرّاعية نفسها التي أُعْجِبَت برسمها على نوافذ الرّواق، ما أثارَ دهشتها إلى أقصى حدّ.

وبالفعل، كانت ترتدي، مثلَ الرّاعيَة، ثوباً أبيض مزداناً بدانتيلاّ مصنوعة بإتقان، وأنصَع بياضاً من أيّة دانتيلاّ سبَق لفلاحَة أن ارتدتها. وكان حزامُها محبوكاً من الورود الصّغيرة والياسمين، وشعرها مزيّناً بالأزهار. وجَدَت بالقرب منها عصاً مذهّبَة وقطيعاً من الخراف ترعى على طول الضفّة، وتعرف صوتها. حتّى كلب

القطيع بدا وكأنّه يعرفها، وجاء يداعبُها.

واستغرقت في أفكارِها مستعرضةً الخوارقَ الجديدة التي تحصل لها، وكم سرَحْت بعيداً! وُلِدَت وعاشت حتّى اليوم على أساس أنّها أقبَح الكائنات جميعاً رغم أنّها كانت أميرة. واليوم أصبحت أجمَلَ من كوكب النّهار لكنّها لم تعد سوى راعِيَة ولم تستطع إلاّ التأثّرَ من جرّاء فقدانها لقبَها.

هزّت هذه الأفكار المختلفة كيانَها فأنهكتها، وتولاّها النعاس. كانت سَهِرَت طيلة اللّيل (كما قلت آنِفاً) وأتعبتها الرّحلة التي اجتازت خلالَها مائة فرسَخ في غفلة منها. كانت خِرافها وكلبها المتجمّعَة حولها تبدو وكأنّها تحرسها وترعاها بعنايَة. لم يكن بمستطاع الشّمس أن تزعجَها مع أنّها كانت في أشدّ سطوعِها لأنّ الأشجار الكثيفة تحْميها منَ القيظ والأعشاب النّضِرَة النّاعِمَة تبدو جذلى باحتضانها كلّ ذلك الجمال.

هناك كانت تُرى أزهار البنفسَج
بارزةً وسط الأعشاب الطّريّة
مثيرةً بعطرها الفوّاح
غيرةَ الأزهار الأخرى.

استرسلت العصافير في زقزقاتٍ عَذْبَة واحتبس النّسيم أنفاسَه خشيَة أن يوقظَها. لمحَ أحَدَ الرّعيان، وقد أنْهكته حرارة الشّمس، ذلك المكان من بعيدٍ فهُرِعَ إليه مسرعَاً. لكنّه حين رأى الصبيّة اليافعة سناء، أصيب بدهشة عميمة ولو لم يكُ هناكَ شجرة يستند إليها لتَهاوى بِطوله أرضاً. وفي الواقع، لقد تعرّف إليها، إنّها الفتاة

نفسها التي أعْجِبَ بجمالها المرسوم على نوافذ الرّواق وفي الكتاب ذي الورق الصقيل.

لا شكّ أنّ القارئ أدرك أنّ ذلك الرّاعي هو الأمير فريد. لقد استوقفته قدرة مجهولة في تلك النّاحِيَة وقد أعجب به كلّ مَن صادفه لأنّ لباقَته وسِحْنَته المشرقَة وروحَه اللطيفة كانت تميّزه عن سائر الرّعيان وكأنّه وُلِدَ نبيلاً في الأصل.

حدّق بسناء متملّياً من ملامحها شاعراً بلذّة لا عهد له بها. خَرّ على ركبتيه ساجِداً قربها خاشعاً أمام جمال الفتاة الكامل الذي لا عَيْبَ فيه. ووجد نفسَه صَريعَ هواها، هوَ الذي لن تمتنع عليه أيّة فتاةٍ منذ ذلك الحين. كان لا يزال مستغرقاً في أحلامِه حين استيقظت سناء. ما إن رأت فريد قربَها بلباسِ راعٍ متأنّق حتّى تذكّرته لأنّها كانت شاهدَت صورته في البرج.

قال لها:

- أيّتها الرّاعيَة اللطيفة، أيّة صدفة سعيدَة قادَتْكِ إلى هنا؟ أتيتِ وَلا شكّ لكي نثني على فضائلك وتكوني قبلة أمانينا. آه! كم أنا متلهّف لتكريمك بقدرِ ما تستحِقّين!

قالت له:

- لا أيّها الرّاعي. لا أدّعي البتّة شرَفاً لا أستحقّه. أريد أن أبقى راعيَة بسيطَة. أحبّ قطيعي وكلبي. للوحدة مفاتِنها بالنسبة إليّ ولا أنشد غيرها.

- ماذا! جئتِ إلى هذه الخلوة أيّتها الرّاعية الشابّة بِنِيّةٍ أن تختبئي عن بني البشر!

ثمّ أضاف:

- هل منَ المعقول أن تتّقي شرّنا إلى هذا الحدّ؟ على الأقلّ استثنيني

أنا، لأنّني أوّل من وضع نفسَه رهن إشارتك.

أردَفت سناء:

- لا، لا أريد أن أراكَ أسوةً بالآخرين مع أنّني أشعر بتقديرٍ خاصّ لك. ولكن دُلّني على راعيةٍ حكيمةٍ أستطيع اللّجوء إليها. لأنّني غريبة هنا ولست في سنّ تسمَح لي بالبقاء وحيدة. إنْ أرشدْتني إليها فسأكون ممتنّة لك.

سُرَّ فريد لهذه المهمّة. اقتادَها إلى كوخ لا أظرف في نّظافته وبَساطته وتسكُنُه امرأة عجوزٌ لا تَخْرجُ نادِراً لأنّهَا باتت شبْهَ عاجزةٍ عن السّير.

قال فريد وهو يقدّم لها سناء:

- اهْتَمّي أيّتها الأمَ الطيّبَة بهذه الفتاة التي لا مثيل لها فإنّ حضورَها وحْدَه سيعيدُ إليك الشّباب.

قبّلتها العجوز وتأهّلت بها بِمَوَدّة قائلة لها أن تعذِرَها على إسكانها هذا المكان الذي لا يليق بها. ولو اقتضى الأمر لأسكنَتها قلبها.

قالت سناء:

- لم أكن أعتقد أنّني سألقى هنا استقبالاً بهذه الحرارة وهذا التّهذيب. لكنّي أؤكّد لكِ يا جدّتي الطيّبة أنّني مسرورة بأن أكون قربك.

ثمّ توجّهت إلى الرّاعي وقالت له:

- من فضلكَ لا تحجب عنّي اسمك لأنّي أريد أن أعرف لمن أدين بهذا المعروف.

أجاب الأمير:

- يسمّونني فريداً. لكنّي منَ الآن فصاعِداً لا أريد اسماً آخر سوى أنّني عاشقك.

قالت العجوز القصيرة:

- وأنا، أتمنّى أيضاً أن أعرف اسمَ الراعيَة التي أستضيفها.

قالت لها إنّ اسْمَها سناء. بدَت العجوز مُعْجَبَة بهذا الاسم الفاتن وأطْرى كذلك فريد على هذا الاسم كثيراً.

خشِيَت الراعيَة العجوز أن تشعر سناء بالجوع فقدّمَت لها في قصْعَة نظيفة جدّاً حليباً محلّى مع خبزٍ أسمَر وبيض طازج وزبدَة مخضوضة حديثاً وجبنة بالقشدة.

وهُرِعَ فريد إلى كوخه وجلبَ لها منه فراولةً وبندُقاً وكرزاً وفواكه أخرى مزيّنة بالأزهار. وحتّى يتسنّى له الوقت ليَبقى مدّةً أطْوَل معها، سألها أن تأذَنَ له بأن يُشاركَها الطّعام. ما كان أصعب عليها أن ترفض له ذلك الطّلب وكيف لها ذلك! مهما تكن البرودَة التي تصطنعها فإنّها كانت تشعر أنّ حضوره يسرّها كثيراً.

وعندما غادرها، فكّرَت فيه طويلاً وفكّر هوَ فيها أيضاً. كان يراها كلّ يوم ويقودُ قطيعَه إلى المراعي التي تَسوق قطيعَها إليها، ويُغنّي لها كلماتٍ مليئة شغفاً وعاطِفة وهو يعزف على النّاي والمزمار لكي يَحْمِلَها على الرّقص وكانت ترقص برَشاقة وبَراعَة أثارتا إعجابه. وكلٌّ من ناحيته كانَ يفكّر في هذا التّسلسل المدهش للمغامرات التي حدَثَت له وكلٌّ بدأ يقلق، وكان فريد يبحث عنها في كلّ مكان بِدَأبٍ وصَبر.

وأخيراً، كلّما وَجدَها وحيدَة
كانَ يُكَلّمها عن الحبّ
ويَصِفُ لها لوْعَتَه وشغَفَه
وما يجْمَع بين قلبيهما من حُبّ رقيق
فعرفت أنّ هذا الشّعور الذي لا تعرف أن تصِفَه

وكانت تحسّ به ناحِيَته دونَ أن تعرِف السّبب
كانَ شرارَة حبٍّ،
عندئذٍ أدْرَكَت الخطرَ
الذي يتهدّد براءَتَها
وقلبها لَمّا يختبِر الحبّ بعد.
فعَمِلت على تَحاشي رؤية ذلك الرّاعي اللّطيف
ولكنّ تمنّعها ذاك
شقاءٌ لا يُحْتَمَل
وكان قلبُها يتنَهّد غالباً في سرّه
ويَلومُها على ظلم حبيب بهذا الخفر!
وفريد، لم يكن يستطيع أن يفهَم
ما سبب تغيّر تصرّفها الظّالم حِيالَه!
فسعى جاهداً لمعرفة السّبب
ولكن عبثاً
لأنّ سناء رفضت التقرّبَ منه أو سَماعَه!

كانت تتفنّن في تجنّب رؤيته وتَلوم نفسها باستمرار على ما تشعر به ناحيته. كانت تقول في نفسها:

- ماذا! هل أعاني شقاءَ الحبّ وأقع في هوى راعٍ تعيس! ما هذا المصير الذي ينتظرني؟ لقد آثرتُ الفضيلة على الجمال. يبدو أنّ السّماء، لكي تُكافئني على هذا الاختيار أرادَت أن تجعَلني جميلة لكنّي كم أشعر بالتّعاسَة لكَوني صرت كذلك! لولا هذه المفاتن غير المجْدِيَة التي أمْلِكها لما سعى الرّاعي الذي أتجنّبه إلى اللّحاق بي ولَما كنت أحْمَرّ خجلاً منَ المشاعر التي أكنّها تجاهَه.

وهكذا كانت دموعها تنهمر إثر هذه الأفكار التي تضنيها، ويتفاقم عذابُها لدى تمثّلها العذابَ الذي يُقاسيه راعيها اللّطيف بسببها.

ومن جهته، كان الحزن يُثقل كاهله. رغبَ في أن يُعْلِمَ سناء بنبلِ مولده معتقِداً أنّ شعوراً بالغرور سيُساوِرها وأنّها ستستجيب إليه إذ ذاك بمراعاة أكبر. لكنّه ما لبِثَ أن اقتنَع أنّها لن تصَدّقَه وأنّها إذا طلبَت منه إثباتاً على كلامِه فهو غير قادرٍ على تقديمه لها.

هتفَ:

– أيّها القدَر القاسي! كنت رغم قباحَتي سأخْلفُ أبي وكم يُصلِح المُلكُ منَ العيوب. أمّا اليوم فلا يُجْديني أن أمْثلَ لا أمامه ولا أمام رَعاياه لأنّ أحَداً منهم لن يعْرِفَني. ما أغرب الخير الذي صَنَعته معي الجنيّة حليمَة حينَ جرّدتني من اسمي وبشاعَتي وجعلتني راعياً وأسيرَ راعِيَة فاتنة لا تَرْحَم وتضيق ذرعاً بي.

ثمّ أضاف وهو يتنهّد:

– يا نجمة حظّي التعس، اجعَليني أكثرَ حظّاً أو أعيدي لي عاهاتي ومعها تهاوني الأوّل.

تلك هيّ الحَسَرات التي اعتملت في نفسَي العشيق والعشيقة دون أن يعرف أحدهما حقيقة الآخر. لكن بِما أنّ سناء كانت تثابِر على تَحاشي فريد فإنّه صمّم ذات يوم على التحدّث إليها وسعى في سبيل ذلك لإيجادِ ذريعَةٍ لا تنفّرها منه فأخذ حَمَلاً صغيراً وزَيّنَه بالشّرائطِ والأزهار ثمّ وضَعَ له عَقْداً منَ القشّ الملوّنِ المشغولِ بإتقان بَدا معه كأنّه تحْفَة فنيّة. وكان هو يرتدي ثوباً منَ التّفتا ورديّ اللون مزداناً بدانتيلاّ إنكليزيّة الصّنع ويتقلّد عصاً مزيّنة بالشّرائط، ويحمل جراباً.

لم يكن أحدٌ لِيَجرؤ على الظّهورِ إلى جانبه لا سيلادون[1] ولا جميع أمثاله قاطِبَة. وجَد سناء جالسَة على ضفّة جدوَلٍ يسيل ببطء تحيط به غابة كثيفَة. وكانت خِرافها ترعى متفرّقة إذ أنّ الحزنَ العميق للرّاعيَة لم يكن يسمح لها بأن تولي عِنايَتها لقَطيعها. اقترَبَ منها فريد بخجَلٍ وقدّم لها الحمَلَ الصّغير وهوَ ينظر إليها بحَنانٍ قائلاً:

- ماذا فعلتُ لكِ أيّتها الرّاعيَة الجميلة فَنَفَرْتِ منّي على هذا النّحوِ المرعب؟ تستكثرين عليّ أن ترميني بالتِفاتة؟ لماذا تهربينَ منّي وتصدّينني؟ هل يبدو لكِ شغفي بكِ مُهيناً إلى هذا الحدّ؟ وهل هنالك ما هوَ أنقى وأوْفى منه؟ ألم تكن كلماتِي وتصرّفاتي حِيالك مفعَمَة دوماً بالاحتِرام والوَرَع؟ ولكن يبدو جليّاً أنّ قلبَكِ منشغل بشخصٍ آخر.

فأجابته على الفور:

«أيّها الرّاعي، أتسألني عن حذري
وخوفي من رؤيتك؟
ألا يعني هرَبي منكَ
أنّني أخاف حبّك أكثر من أيّ شيء؟
لو كانَ نفوري منكَ هوَ الذي يُبعِدني عنكَ
لكنْتُ ابتعدْتُ دون شقاء.
لكنّ عقلي يردَعني عن الجري بينما يستحثّني الحب؛
وكلّ شيءٍ يُرَوّعُني؛ في هذه اللّحظة بالذّات
أشعر أنّ نظراتكَ تصيبُني وأكاد أسقط صريعة الحبّ.

---

(1) سيلادون بطَل روايَة أستريه Astreé الشّهيرَة التي كتَبَها أونوريه دورفيه Honoré d'Urfé في القرن السّابع عشر، وهي أوّل رواية طويلة في الأدب الفرنسيّ، وتروي قصّة غرام الرّاعيَة أستريه والرّاعي سيلادون Céladon، العاشق العذريّ العفيف.

لكنّ الواجب الصّارم يدعوني للهرب سريعاً أيّها الرّاعي
وكم نبطئ في الهرَب ممّن نحبّ!
وداعاً؛ ويلٌ لي إن كنتَ تحِبّني!
لأنّك تشَوّش عليَّ راحَتي، فَحاذرْ أنْ تَلحَق بي
ربّما من دونك يستحيل عليّ العيش
ومعَ ذلكَ حذارِ أن تتبع خطايَ.

ما كادت سناء تُنهي كلامَها حتّى ابتعَدَت وأراد الأمير العاشق اليائس اللّحاق بها لكنّ ألَمه المتفاقم جعله يَسقط فاقد الرّشد عند أسفل إحدى الأشجار. آه منكِ أيّتها العفيفة صاحبة الفضيلة القاسيَة المتوَحّشَة، لماذا تخْشَينَ رجلاً أغْرِمَ بكِ منذ الطّفولة؟ ليس في مقدورِه الإساءَة إليك وشغفُه بكِ عذريٌّ وبريء. لكنّ الأميرة كانت ترتاب بنفسها وبه. أحياناً لا تستطيع الامتناع عن تقدير فضائل الرّاعي الفاتن حقّ قدرها ولكنّها تعرف في الوقت نفسه أنّه يجب تجنّب الوقوع في تجربة الحبّ الجارف.

لم يحَمّل أحَدٌ نفسَه الشّقاء الذي حمّلتْه هيَ نفسَها. كانت تبتعد مكْرَهَة عن الكائن الأرقّ والأعزّ الذي رأته في حياتها. التفتت أكثر من مرّة لِتَرى ما إذا كان يلحَق بها. لَمحَته يسقط جامِداً بلا حراك. كانت تحبّه لكنّها امتنعت عن إغاثته غير مبالية بما تحمل لها هذه الإغاثة من عَزاء. عندَما أصبَحَت في السّهل رفَعَت نظراتِها المفعمة بالحسرات وصالَبَت ذراعَيها قائلة:

– أيّتها الفضيلة! أيّها المجد! أيّتها العَظَمَة! أضحّي لك براحَتي. أيّها القدَر! يا ترازيهان أنا أتخلّى عن جمالي المشؤوم. أعدْ لي بَشاعَتي، أو أعدْ لي، دون أن أشعر بالعار، العشيق الذي تخلّيت عنه!

ثمّ توقّفت عن الكلام غيرَ واثقة من رغبتِها في مواصَلة الهرَب، أو العودَة على عَقبَيها. كان قلبها يحدّثها بأن تعودَ إلى الغابة حيث ترَكَت الرّاعي فريد لكنّ فضيلتها انتصَرَت على عاطفتها. فاتّخذَت القرار الصّعب بألاّ تعود لرؤيته.

مُذ نُقِلَت إلى تلك الأمكنَة كانت تسمعهم يَتَحدّثون عن ساحِرٍ شهيرٍ يَسكن في قصرٍ بَناه مع شقيقته عندَ تُخوم الجزيرة. كانوا يتحدّثون عن معرفتهما الواسعة، هو وشقيقته، والآيَات التي يقومان بها في كلّ يوم. فكّرت أنّها بحاجَة إلى قدرةِ ساحرٍ لكي تمحو من قلبها صورَة الرّاعي الفاتن؛ ومن دون أن تقول شيئاً للعجوزِ المحْسِنَة التي استضافَتها وعامَلتها كأنّها ابنتها، انطلقت في رحلتها منشغلة بهمومِها فلَم تنتبه إطلاقاً للمخاطر التي تحْدق بفتاة جميلة وشابّة تسافر وحيدة. لم تكن تتوقّف لا في النّهار ولا في اللّيل ولا تأكل ولا تشرب، لا يشغلها إلاّ همّ وحيد هوَ أن تصلَ إلى القصر لِتُشْفى من عاطفتِها. ولكنّها لدى مرورِها في إحدى الغابات سمِعَت أحدهم يغنّي. خالَت أنّها تسمَع اسمَها وتتعرّف إلى صوتِ إحدى رفيقاتِها. توقّفت لتَسمَعَ الأغنيّة التي تقول هذه الكلمات:

كانَ الرّاعي فريد أجمل الشبّان في قريته
يُحبّ الراعية سناء،
وكانت لطيفة ويافِعَة وجميلة أيْ فاتِنَة باختصار.
وكان ذلك الرّاعي يقول لها بألفِ طريقةٍ مشاعرَه حيالَها،
لكنّ الشابّة المتمنّعَة
تجهل ما هوَ الحبّ.
كان قلبها المفعَم بالحزن .

يصبو مع ذلك إلى الرّاعي الغائب:
ما يعني عاطفتها تجاهه
فلا نتوق لأحد لا نكترث به.
فيما مضى لم يكن لراعيَتَنا مثلُ هذه الشّجون؛
وكان حبيبَها يتبَعها إلى كلّ مكان
(ولم تكن تُنشد أفضل من ذلك)
وغالباً ما كانا يضطجِعانِ على العشب النّاعم
فيغنّي لها أشعاراً من تأليفه
وتستمع الحلوَة إلى عزفِ نايِهِ بلذّة
لا بل تحفظ أغانيه عن ظهر قلب.

قالت وهيَ تذرِف دموعَها:

- لا، هذا كثير! أيُّها الرّاعي الثرثار، تتباهى بمراعاتي البريئة لك! وتتجرّأ على الادّعاءِ بأنّ قلبي الرّقيق سَيَهون أمام حبّك وينسى الواجب الذي يناديه! لقد بُحْتَ برَغباتكَ الآثِمَة، وها أنت السّبب في أنّهم باتوا يتغنّون بي في الغابات والسّهول!

وشعرَت نحْوَه بغضَب شديد وصمّمت على أن تنظر إليه منَ الآن فَصاعِداً بعدَم اكتراثٍ لا بَل ربّما بحقد.

أردَفَت:

- من غير المُجْدي أن أذهبَ بعيداً لأفتّش عن دواءٍ لآلامي؛ ليسَ لديّ ما أخشاه من راعٍ لا يستحقّ اهتمامي به. سأعود إلى القرية معَ الرّاعيَة التي سمِعتها للّتوّ.

نادَتها بكلّ قواها ولكنّ أحَداً لم يجبْها، ومع ذلك فقد سمعَت من وقتٍ لآخر أغاني بالقرب منها. فأخذتها الرّعدة واضطربت. وفي

الواقع، كانت تلك الغابة ملْك السّاحر ولا يمكن لعابرٍ أن يمرّ فيها دون أن يتعرّض لمغامرةٍ ما.

سارَعَت سناء، المتردّدَة أكثر من أيّ وقتٍ مَضى، للخروج مِنَ الغابة. كانت تتساءل:

- هل تضاءَلت خشيَتي من الراعي فما عدت أكترث لرؤيته من جديد؟ أم إنّ قلبي المتعلّق به يسعى لخداعي؟ آه، لنَهرب، لنَهرب بعيداً، إنّه أفضل حلّ لأميرة تعيسَة مثلي.

وتابَعَت طريقها نحو قصر السّاحر. بلغته ودخلت إليه دون عوائق تُذكر. اجتازَت باحات كبيرة اجتاحتها الأعشاب والأشواك العاليَة جدّاً وشعَرَت أنّ أحَداً لم يأتِ إلى هناك منذ مائة سنَة. أبعدَتها بيديها فخدشتهما الأشواك في أكثر من مكان. دخلت إلى إحدى القاعات وكان النّور لا ينفَذ إليها إلاّ من ثقبٍ صغير: كانت تفترشها أجنِحَة الخفافيش، وتدلّت من سقفِها دزينَة مِنَ الهرَرَة كالثريّات وراحت تموء لدَرَجَةٍ أنّ مَن يَسمَعُها يفْقِدُ صبره. ووُضعت على طاولة طويلة اثنَتا عشرة فأرة ضخمَة موثقة من أذنابِها وأمام كلّ واحدة منها قطعة من الشّحم لا يمكنها بلوغُها. وهكذا كانت الهررة تنظر إلى الفئران دون أن تسَتطيع التهامها، والفئران ترتعد من الهررة وتموت جوعاً وأمامها قطَع الشّحم الشهيّة.

وفيما كانت الأميرة تراقب عَذاب تلك الحيوانات رأت السّاحر يدخل مرتَدياً ثوباً طويلاً أسود. كان يضع على رأسه تمساحاً بمثابة قبّعة، ولم يسبق لها أن رأت في حياتِها قبّعة مخيفة كتلك. وكان ذلك الشّيخ يرتدي نظّارات ويحمل في يده سوطاً من عشرين أفعى طويلة وكلّها لا تزال حَيّة. آه! يا للهلع الذي انتاب الأميرة! كم تحَسّرَت في تلك اللحظة على الرّاعي وخرافها وكلبها! لم تفكّر إلاّ في الهرَب.

ومن دون أن تقول كلمَة لذلك الرّجل المرعب، هُرِعَت نحوَ الباب لكنّها رأت نفسها محاطة بخيوط العناكب فنزعتها عنها فاكتست بشبكة أخرى من خيوط العناكب فنزعتها لكنّها اصطدَمَت بثالثة. وفي كلّ مرّة كانت تتخلّص من نسيج العناكب تجد نفسها عالقة وسطها من جديد وهكذا دواليك. إلى أن شعرَت الأميرة بالإنهاك ولم يعد بإمكانها مواصلة ذلك العناء.

لم تعد ذراعاها تطاوِعانها لتُزيحَ عنها خيوط العناكب تلك التي لا تنتهي. أرادَت الجلوسَ أرضاً لترتاحَ قليلاً فاخترقت جسدَها الأشواكُ فنهضت ورأت لِزاماً عليها عبور ما نسجتْه العناكب دونَ مناص. كان الشّيخ الشرّير ينظر إليها وهو يقهقه عالياً لِحَدّ الاختناق ضحِكاً. وفي النّهايَة ناداها قائلاً لها:

- سوف تمضين هنا بقيّة حياتك ولن تجدي مَخْرَجاً. تبدينَ لي شابّة وأجمل من اللّواتي رأيتهُنّ في حياتي. إذا شئتِ أتزوّجكِ وأمنحكِ هذه الهررة الاثنتي عشرة التي رأيتها معلّقة إلى السّقف لتفعلي بها كلّ ما تشائين، وستكون لكِ أيضاً هذه الدزينة من الفئران على الطّاوٰلة. الهررة كانوا في الماضي أمراء والفئران كنّ أميرات. هؤلاء الأميرات المحتالات رُقْنَ لي (لأنّني كنت دوماً لطيفاً وأنيقاً) ولكن لم يردنَ أن يبادلنني الحبّ.

وهؤلاء الأمراء كانوا خصومي وأسعد حظّاً منّي. فأخذتني الغيرَة ووجدت وسيلة لاجتِذابهم إلى هنا وحالما أمسكتُ بهم حوّلتُهم إلى هررة أو إلى فئران. والمُسَلّي في الأمر أنّهم يتباغضون على قدر ما كانوا يتحابّون وأنّه لا يمكننا أن نجِد طريقة للثأر أنجع من هذه وأشدّ إيلاماً.

هتفت سناء:

- آه يا سيّدي اجعلني فأرة فلَست أستحقّ مصيراً أفضل من هؤلاء الأميرات التعيسات.

قال السّاحر:

- ماذا تقولين أيّتها الرّاعيَة الصّغيرة، ألا تريدين أن تحبّيني؟

قالت:

- اتّخَذتُ قراري بألاّ أحبّ أبداً.

أضاف:

- آه منكِ ومن سذاجَتِكِ! سوف أطْعِمُكِ أشهى المآكل وسأروي لكِ القصص وأقدّم لكِ أفخرَ الثّياب في العالم ولن تذهبي إلاّ في عربة أو على هودَج وسيَدعونَكِ السيّدة.

أجابت الأميرة من جديد:

- صمّمتُ على عدم الحبّ.

هتف السّاحر غاضباً:

- حذارِ ممّا تقولينه. سوف تندَمينَ على ذلك لوقتٍ طويل.

قالت سناء:

- لا يهمّني. قرّرت ألاّ أحبّ أبداً.

قال لها وهو يلمِسها:

- حسناً أيّتها المخلوقة المستخفّة بي، بما أنّكِ لا تريدينَ أن تحبّيني فيجب أن تكوني من جنسٍ خاصّ. لذا، ستكونين في المستقبل جنساً حائراً لا لحْمَ له ولا دَم ولّا عِظام، ستكونين خضراءَ لأنّك لا زلتِ في رَيعانِ شبابكِ المخضرّ، ستكونين خفيفة ومرحَة، وتعيشين في البراري كما عشتِ وسنَدعوكِ جَرادَة.

وفي اللحظة نفسها، أصبحَت الأميرة سناء أجمل جرادَةٍ في العالم. وإذ باتت تتمتّع بالحريّة توجّهت توّاً إلى الحديقة.

وما إن أصبحت قادرة على التحسّر على مصيرها حتّى هتفت بألم:

- آه يا طشْتي، يا طشْتي العزيز ماذا صارَ بحالك؟ أهذه نتيجة وعودك يا ترازيمان؟ هل هذا إذاً ما كُتِبَ لي منذ مائتي عام؟ جمال لا يدوم أكثر ممّا تدوم أزهار الرّبيع، ومسك الختام ثوب منَ الجِداد الأخضر وهيئة صغيرَة، جرادَة لا لحمَ لها ولا عظمَ ولا دَم! ما أتعسني! واحسرتاه! لو احتفظتُ بالتّاج لأخفى كلّ عيوبي ولَكنتُ وَجدتُ زوجاً يليق بي؛ ولو كنت بقيت راعِيَة لَما تمنّى فريد اللطيف إلاّ امتلاكَ حبّي: لقد ثأر على أيّة حال كما يجب من احتقاري الظّالم له. ها أنا جرادَة مقدّرة للغناءِ ليلاً ونهاراً فيما قلبي المفعَم مرارةً يدعوني للبكاء!

هكذا تحدّثت الجرادَة مختبئة بين الأعشاب الطريّة التي تحفّ بضفاف الجدول.

ولكن في تلك الأثناء ماذا كان يفعل الأمير فريد وقد غابت عنه راعيته الفاتنة؟ تركَته بقسوَةٍ لا يمكنه احتمالها وكان الألم الذي أصابَه ينتزع منه كلّ قوّة ويمنعه من اللحَاق بها. قبل أن يوافيها، أغميَ عليه وبقيَ طويلاً فاقِدَ الرّشدِ عند أسفلِ الشّجرة حيث رأته سناء يسقط. وأخيراً، إمّا أنّها نداوة التّربة أو أنّ قوّة جبّارَة مجهولة جعلته يعود إلى رشده: لم يجرؤ على الذّهاب في ذلك اليوم إلى كوخِها. استرجَع في ذهنِه الأبيات الأخيرة التي قالتها له:

ما يُشقينا ليسَ الهرب ممّن نكرهه
بل الابتعاد عن عشيق
عطوفٍ في ريعانِ الصّبا وأهلٍ للثّقة.

كانت هذه الكلمات تمدّه بالرّجاء المُخادع، فعلّل نفسَه بأنّ الوقت والاهتمام بها سيجعلانها تكُنّ له بعض الامتنان. لكن عندما ذهب إلى كوخ الرّاعيَة العجوز حيث أوَت سناء وعلِمَ أنّها مختفية منذ العشيّة شعرَ أنّه سيموت قلقاً. ابتعد رازحاً تحت ثقلِ الأفكار التي تتنازعه وجلس عند ضفّة النّهر حزين الفؤاد. أوشكَ مائة مرّة أن يرتمي في النّهر واضِعاً حدّاً لحياته وآلامه. وأخيراً أخذ خنجراً وحفرَ هذه الأشعار على جذع شجرة غبَيراء[1]:

أيّها النبع الرّقراق، أيّها الجدول الصّافي
أيّتها الوديان الظّريفة وأنتِ أيتّها السّهول الخصبَة
أيّتها الخلوَة التي كنت أجِدها في منتهى الجمال
وا حسرَتاه! كم تزيدين من آلامي!
إنّ الفتاة الرّقيقة التي أحبّها
والتي تستعيرينَ منها كلّ مفاتنك
تركتكِ إلى غير رجْعَة هاربةً من عاشقٍ تَعِس
لن تَرَيني بعدَ اليوم إلاّ ذارِفاً دموعي.
وعندما ينبلج الفجر معْلِناً للفانينَ طلوع النّهار
فسوفَ يراني غارقاً في أشجاني
وستكون الشّمس شاهدَة في كلّ لحظةٍ على دموعي
وعندما ستغرب في البحر
لن تغرب معها آلامي.
أنتِ أيّتها الشّجرة الرّقيقة، اعذريني إن كنت أجرح جذعك
وأحفر عليه همومي

(1) شجر حرجيّ يؤخذُ منهُ خشبٌ لِصُنعِ الأثاث.

إنّها مجرّد كلماتٍ بسيطة تشي بِما
فعَلَته بي تلك الفتاة الظّالِمَة.
إنّ حدّ خنجري لا يسلِبكِ الحياة
وستزدادينَ جمالاً من أحرف اسمها.
ولكنّ الموت كلّ ما أتمناه
إذا ما فقدتُ سناء.

وَلم يستطع متابعة الكتابة لأنّ امرأة عجوزاً قصيرَة القامَة دَنَت منه. كانت ترتدي جفجفاً[1] وثوباً منفوخاً وبرنُساً مخمَليّاً له قلنسوة وتطوّق شعرها بشبكة رقيقة. كان مظهرها القديم يتّسم بشيءٍ منَ المَهابَة.

قالت له:

- يا بُنَي، تطلق حسراتٍ مُرّة! أتوسّل إليك أن تُفْصِحَ لي عَمّا يؤلمك.

قال لها فريد:

- وَيلٌ لي! ماذا أقول لكِ يا جدّتي؟ أتحسّر على راعِيَة رائعَة الجمال هرَبَت منّي. وصمّمتُ على اللّحاق بها في جميع أقطار الأرض حتّى أجدها.

قالت له وهيَ تدلّه على طريق القصر حيث أصبَحَت سناء المسكينة جرادَة:

- اذهبْ من هذه النّاحيَة يا بنيّ. لديّ شعور أنّك لن تفتّش عنها طويلاً.

شكَرَها فريد وتوسّلَ إلى رسول الحبّ السّماويّ أن يساعدَه.

(1) جفجف: طوق منَ القماش المكشكش كان يُلْبَس حولَ العنق.

لم يلتقِ الأمير بشيء على الطّريق يستأهل أن يستوقفه. لكن حين وصلَ إلى الغابة القريبة من قصر السّاحر وشقيقته، خال أنّه رأى الرّاعيَة فسارَعَ للّحاقِ بها فابتَعَدَت.

صاحَ بها:

- سناء، سناء يا محبوبتي، توقّفي قليلاً، من فضلك أصغي إليّ.

لكنّ الطّيفَ كان يُمْعِن في الابتعاد عنه وأمضى هو نهاره يلاحقه. عندما وافى اللّيل، رأى أنواراً كثيرَة في القصر: سُرَّ معتقداً أنّ الرّاعية قد تكون فيه. فهُرِعَ إليه. دخلَ دون أن يعترضه شيء. صعدَ ووجَدَ في قاعة استقبالٍ بديعةٍ جنيّة عجوزاً طويلة القامَة ونحيلة بشكلٍ مخيف. عيناها أشبه بمصباحَين مطفأين، وخَدّاها غائرَان، وذراعاها كأنّهما قُدَّتا من خشب، وأصابعها مثل مَغازِلَ، ويغطّي هيكلَها العظميَّ جِلدٌ مسودٌّ ويابس. وإلى ذلك كلّه كانت تضع الحُمرَة على شفتيها وخالات اصطناعيّة على خدّها وشرائطَ خضراءَ ووردية في شعرها وترتدي معطَفاً منَ الدّيباج الفضيّ وتعتمرُ إكليلاً منَ الألماس، وكانت مطوّقة بالحليّ في كلّ موضعٍ من جسدها.

قالت له:

- وأخيراً أيّها الأمير، تصل إلى مكانٍ تمنّيتكَ فيه منذ زمن بعيد. لا تفكّر بعدَ اليوم براعِيَتِكَ الصّغيرَة. إنّ شغفاً من طرف واحد لا يليق بك. أنا ملكة الشّهب والنّيازك. أتمنّى لك الخيرَ وأستطيع أن أغدقَ عليك نِعَماً لا متناهيَة إذا أحببتَني.

فصاحَ الأمير مرتاعاً وهو ينظر إليها باشمئزاز:

- أن أحبّك؟ أحبّك أنت يا سيّدة! ماذا تظنّين! وهل أستطيع التحكّم بمشاعري! لا، لا يمكنني أن أخونَ مَن أحبّ. ثمّ افرضي أنّني رغبت في أن أُبدِلَ حبيبتي فلن أستبدلها بك. بما أنّكِ ملكة

الأجواء اختاري شيئاً يلائمك: أحبّي الهواء أو الرّياح أو دَعي الفانينَ بسَلام.

غضبَت الجنيّة المكابِرَة وبضربتينِ من عَصاها ملأت القاعة بالمسوخ المرعبة وتوجّب على الأمير الشّابّ أن يثْبِتَ مهارَته وشجاعته إزاءها. كانت بعض المسوخ تبدو متعدّدة الرّؤوسِ والأذرع وبعضها الآخر على هيئة قنطورس[1] أو حوريّة وبعضها أسود بوجه إنسان أو أشبه ما تكون بأبي الهول أو بتّنانين مجَنّحة. لم يكن في حَوْزَةِ فريد إلاّ عَصاه وحربة صغيرة تسلّح بها عندما بدأ رحلته. كانت الجنيّة الطّويلة القامَة توقف من وقتٍ لآخر القتال وتسأل الرّاعي ما إذا كان راغباً في حبّها فيقول لها دوماً إنّه منذورٌ لحبٍّ ثابت لا يتغيّر. بعد أن سئمَت الجنيّة من عنادِهِ، أظهرت له سناء ثمّ قالت له:

- حسناً. هل ترى عشيقتكَ في آخر الرّواق، إذا رفضت أن تتزوّجني فستمزّقها هذه النّمورِ إرباً أمام ناظرَيك.

هتف الأمير وهو يرتمي عند قدمَيها:

- رُحماك يا سيدتي! أقبل الموت طوعاً لأنْقِذَ عشيقتي الغاليَة. أديمي حياتَها وخذي حياتي.

أجابت الجنيّة:

- لا مَجال لأن تموت أيّها الخائن فالمسألة متعلّقة بك.

وفيما كانا يتحدّثان سمع الأمير صوت الرّاعيَة وكأنّها تنتحب وتشكي. كانت تقول له:

- هل تريد أن تتركني للنّمور كي تفترسني؟ إذا كنت تحبّني فلتَنَفّذْ ما تقوله لكَ الملكة.

تردّد الأمير التّعيس. ثمّ هتف:

---

(1) القنطورس: كائن خرافيّ نصفه إنسان ونصفه فرس.

- أينَك يا حليمة الجنيّة؟ أوَ تتخلّينَ عنّي بعد كلّ الوعود التي قطعتِها لي؟ هيّا تعالي أنجدينا.

ما إن تلفّظ بهذه الكلمات حتّى سمعَ صوتاً في الفضاء يتلفّظ بوضوحٍ بالكلمات التالية:

- دَعِ القدَر يفعل فعله، لكن كنْ وفيّاً وابحَث عن الغصن الذّهبيّ.

إنّ الجنيّة الطويلة القامة التي ظنّت أنّها انتصرت بلجوئها إلى كلّ تلك الخدع، قد شعرت باليأس أمام ذلك الحاجزَ الجبّار يعترض طريقها، الحاجز الذي نصَبته رعاية الجنيّة حليمَة.

قالت:

- ارحَل عنّي أيّها الأمير البائس العنيد. بِما أنّ قلبك مفعَم بالحبّ فسأحوّلك إلى جُنْدُب، صديق الحَرّ والنّار.

وعلى الفور تحوّل الأمير الرّائع الجمال إلى جُندب صغير أسود قدَره الاحتراق حيّاً في أوّل مدخنة أو فرن يصادفه لو لمْ يتذكّر الصّوت الخيّرَ الذي شجّعه.

قال:

- يجب أن أبحث عن الغصن الذّهبي وعندئذٍ لن أعود جندُباً. آه لو أنّني أعثر على الرّاعيَة فماذا سينقصني بعد لأكونَ في ذروة الغبْطَة؟

وسارَعَ الجندب للخروج منَ القصر المشؤوم. ومن دون أن يعرف وجهته، سلّم أمرَه لرعاية الجنيّة الجميلة حليمَة ثمّ انطلق دون تردّد لأنّ جندُباً ليس عليه أن يخشى لا السّارقين ولا الصّدفَ السيّئة. واتّخذ من أوّل ثقب في شجرةٍ مأوى له؛ وهناك صادف جَرادَة حزينة للغاية تأبى الغناء. لم يفطَن الجندب إلى أنّ الجرادَة كانت في الأصل فتاة مليئة بالذّكاء والحكمَة. قال لها:

- إلى أين تذهب صاحبتي الجرادَة؟

فأجابته على الفور:

- وأنت يا صاحبي الجندب، إلى أين أنتَ ذاهب؟

باغَت هذا الجوابُ الجندبَ العاشقَ بشكلٍ غريبٍ فهتَفَ قائلاً:

- ماذا! هل تستطيعين الكلام؟

فأجابته:

- وهل تظنّ أنّ الكلامَ حِكرٌ فقط على الجنادب دونَ الجرادات؟

قال الجندب:

- أستطيع الكلامَ لأنّني رجل.

قالت الجرادَة:

- وأنا أيضاً أستطيع الكلامَ، لا بل أقدر عليه أكثر منك، لأنّني فتاة.

قال الجندب:

- وهَل طالعكِ مصيرٌ مشابهٌ لمصيري؟

أجابت:

- بالطّبع. ولكن قلْ لي إلى أين تذهب؟

أضاف الجندب:

- سأكون في غاية السرور أن نكون معاً. سمِعْتُ صوتاً أجهله يقول لي: «دع القدَرَ يفعَل فعلَه وابْحَث عن الغصنِ الذهبيّ». بدا لي أنّ هذا القول لا يمكن أن يُوجَّه إلاّ لي. ومن دونِ تردّد انطلقْتُ رغمَ أنّني أجهل وجهتي.

ثمّ قطَع حوارَهما مجيءُ فأرَتينِ كانتا تركضانِ بأقصى سرعَتِهما، وإذ لَمَحَتا ثقباً في أسفل الشّجرة ارتميَتا فيه مُدْخلتينِ رأسيهما أوّلاً وكادَتا تخنقان الجندب وصاحبته الجرادَة. وانحشرَتا بقدر ما تستطيعان في

زاويَة صغيرة.

قالت الفأرَة الأضخم:

- آه يا سيّدَتي. تؤلمُني خاصِرَتي لِكثْرَةِ ما ركضتُ. كيف حال جلالتك؟

أجابت الفأرة الأصغر سنّاً:

- انقطع ذنبي ولَو لم أفعل ذلك لكنت ما زلت موثقة إلى طاولة ذلك السّاحر الهرِم. ولكن هل رأيت كيف طارَدَنا؟ ما أسعَدَنا لأنّنا نَجَوْنا من قصرِه الجهنّمي!

قالت الفأرة الغنِجة:

- لكنّي خائفة قليلاً من الهررة والمصائد يا أميرَتي، وأتحرّق شوقاً للوصول في أقرب وقتٍ إلى الغصن الذّهبيّ.

قالت جلالة الفأرة:

- هل تعرفين إذاً الطّريق؟

أجابت الأخرى:

- بالطّبع أعرفها يا سيّدتي! كما أعرف طريق بيتي. هذا الغصن عجيب. إنّ ورقة واحدة من ورَقاته تكفي لتكوني طيلة حياتك ثريّة، وتزيل السِّحر وتُعيد الجمال وتديمُ الشّباب. يجب استئناف المَسير قبل طلوع النّهار.

قالت الجرادَة:

- يا سيّدتيّ لو سمحتما، يشرّفنا أن نرافقكما أنا وهذا الجندب النّزيه. لأنّنا مثلكما نحجّ لبلوغ الغصن الذّهبيّ.

وتبادَلوا عبارات الثّناء من كلّ جانب وبالَغوا فيها. كانت الفأرتان أميرتين أوثقهما ذلك السّاحر اللّعين إلى الطّاولة. وكذلك كان الأدب الذي يظهره الجندب والجرادَة يعبّر أفضل تعبيرٍ عن أصلهما النّبيل.

واستيقظ الجميع في وقت مبكّر جدّاً وانطلقوا بصمتٍ لئلا يسمَعَهم الصيّادون. وهكذا وصَلوا إلى الغصن الذّهبيّ. كان مزروعاً وسطَ حديقة بديعَة، وبدَلَ التراب كانت الممرّات مليئة بلآلئ صغيرَة مشرقيّة مستديرَة كحبّات البازلاّء، وكانت الورود منَ الألماس الورديّ وأوراقها منَ الزمرّد، وأزهار الرمّان كانت منَ الياقوت الأحمر، وأزهار الآذَريون منَ الياقوت الأصفر، والنّرجس الآسيّ منَ الألماس الأصفر، والبنفسَج من اللازورد والياقوت الأزرق، والترنجان من الفيروز، والتوليب من الجمشيت وعين الهرّ[1] والألماس. وأخيراً كانت تلك الأزهار الجميلة المتنوّعَة أشدّ سطوعاً منَ الشّمس.

هناك إذاً (كما سبَقَ وقلت لكم) كان موضع الغصن الذّهبيّ، الغصن نفسه الذي تلقّاه الأمير فريد منَ النّسر والذي لَمَسَ به الجنيّة حليمَة عندما كانت واقعة تحت السّحر. أصبح أكثر علوّاً من أعلى الأشجار ومُثْقَلاً بحبّاتِ الكرز المصنوعَة منَ الياقوت.

ما إن اقتربَ منه الجندب والجرادَة والفأرتان حتّى عادوا إلى هيئاتهم الأولى. ما أعظم فرحَتهم! يا للغبطة التي شعر بها الأمير العاشق عندَما رأى الرّاعيَة الجميلة! كان على وشك أن يعبّر لها عن سعادته بهذه المفاجأة الرائعة عندما ظهرت الجنيّة حليمَة برفقة الملك ترازيبان وسطَ مظاهر الأبّهَة التي لا مثيلَ لها حيث كان كلّ شيء يتجاوب مع روعَة الحديقة. وكان هناكَ أربعة من ملائكة الحبّ يحملون بسِهامهم سرادقاً صغيراً منَ الدّيباج الذهبيّ والأزرق وفي داخله تاجان يلمَعان بالجَواهر.

هتفت الملكة وهي تمدّ لهما ذراعيها:

---

(1) عين الهرّ: حجر لبنيّ كريم متغيّر الألوان.

- تعالا أيّها العاشقان اللّطيفان، تعالا وتسلّما من أيدينا التّاجَين اللذَين تستحقّانهما بفضل خصالكما الحميدة وأصلكما النبيل ووفائكما المتبادل. إنّ معاناتكما ستتحوّل إلى مسرّات.

ثمّ أردَفت:

- أيّتها الأميرة سناء، هذا الرّاعي الذي كنت خائفة من حبّه هو الأمير الذي اختاره والدك ووالده زوجاً لك. لم يمت في البرج فاقبليهِ زوجاً ودَعي لي أمرَ السّهر على راحتكِما وسَعادتكما.

ارتَمَت الأميرة على الجنيّة حَليمَة وطوّقت عنقها وهي في غاية السّرور. وعندما رأت دموعَها عرفت أنّ فرحَتها ألزَمَتها الصّمت وانتزعَت منها القدرة على الكلام. وارتمى فريد أيضاً عند قدمَي تلك الجنيّة الشّهمَة وأخذ يقبّل يديها باحترام ويقول كلماته عفوَ الخاطر. وداعبها ترازيهان كثيراً. وروَت لهم الجنيّة حليمَة بكلمات مختصَرَة أنّها لم تتخلّ عنهما أبداً. وأنّها هيَ التي اقترحَت على سناء أن تنفخ في القفّاز الأصفر والأبيض، وهي التي اتّخذت هيئة راعيَة عجوز لتَسْكن الأميرة عندها، وهيَ التي أعلمَت الأمير الوجهة التي عليه اتّخاذها للحاق بالرّاعيَة.

ثمّ أضافَت:

- في الحقيقة واجَهْتُما مَصاعب كان بإمكاني أن أجنّبكما إيّاها لو كنت قادرة على ذلك. ولكن، في النّهاية، يبدو أنّ ملذّات الحبّ يجب أن يُدْفَع ثمنها باهظاً.

وعندئذٍ سُمِعَت سمفونية عذبَة دوّت أصداؤها في كلّ جانب. سارَعَت ملائكة الحبّ لكي تضع التّاج على رأسَي العاشِقين الشّابّين. وأقيمَ حفل الزّفاف. وفي تلك الأثناء، استحلفت الأميرتان اللتان تركَتا لتوّهما هيئة الفأرة، استحلفَتا الجنيّة أن تستخدِمَ قوّتها

لكي تُعتِقَ الفئران والهررة التعيسة الحظّ من قصر السّاحر.

قالت لهما:

- هذا اليوم ليسَ كالأيّام ولن أستطيع فيه أن أرفض لكما طلباً.

وفي الحال، ضربَت ثلاث مرّاتٍ الغصنَ الذّهبيّ فظهر كلّ أولئك الذين اعتُقِلوا في القصر واسترجَعَ كلٌّ واحِدٍ منهم هيئته الأصليّة وسارعَ لمُوافاة محبوبه. وإذ كانت الجنيّة السخيّة تريد أن يكون العيد في كلّ مكان، أعطتهم الخزانة في أعلى البرج لكي يتقاسموا محتوياتها فيما بينهم. وهذه الهبة كانت تُساوي أكثر من عشر ممالك في ذلك الزّمان. ومنَ السّهل تخيّل رضاهم وامتنانهم. واختتَمَت الجنيّة حليمَة والملك ترازيمان ذلك العمل العظيم بمنّة تفوق كلّ ما منحاه حتّى الآن بإعلانهما أنّ القصر وحديقة الغصن الذّهبيّ يخصّان مستقبلاً الملك فريد والملكة سناء. وكان مائة ملك يدفعون الجزيَة لهما وكانت مائة مملكة تابعَة لهما.

عندما قدّمتْ جنيّة معونتها لِلأميرة سناء
كانت الأميرةُ قادرة على أن تسألها
أن تهبَها الجمالَ الفاتن
وكنوزَه النّادرة،
فلأجل الجمال والحفاظ عليه
يُبذل كلّ غالٍ ورخيص،
لكنّ سناء لم تستسلمْ
لإغواء جمال الجسد
بل آثرَت جمالَ الفكر والرّوح،
ذلك أنّ الورود والزّنابق المتفتّحَة على وجهٍ ساحر

تذبل كغيرها منَ الزّهور بلحظة واحدة
فيما جمال الرّوح خالدٌ لا يموت.

الـفأرَة الـصّغيرَة الـطيّبَة

كانَ يا ما كان، كان هناكَ ملك وملكة متحابّانِ إلى أبْعَدِ حدّ، وكلّ منهما يُذَكّي سعادَةَ الآخر. كان قلبُهما ومشاعِرهما على وِفاقٍ تامّ. كلّ يوم، كانا يذهَبانِ إلى الصّيد لِيَصطادا الأرانب البريّة والأيائل، إلى جانبِ الأسماكِ من صنف سمَكِ موسى والشبّوط. وفي الحفلاتِ الرّاقِصَة، كانا يؤَدّيانِ رقصات متنوّعة منها رقصة الخطوات الثلاث ورقصة الطّاووس. وفي الولائم الكبيرَة، يأكلانِ اللّحمَ المشويّ وحبّات الملبّس. وكانا يذهَبانِ أيضاً إلى المسرَح والأوبرا، ويضحَكانِ ويغنّيانِ ويؤلّفانِ ألف مسرَحيّةٍ ليَتَسَلّيا. وفي النّهايَة، يمكن القول إنّهما كانا أسعَدَ زوجينِ في الوجود لا بل عبرَ الأزمِنَةِ كلّها.

وكانَ أفراد الرّعيّة يحْذونَ حَذْوَ الملك والملكة، فيتَنافَسونَ فيما بينَهم على أسباب اللّهو والتّرفيه. ولهذا كلّه سُمّيَت تلك المملكة بلادَ البهجَة (والملك نفسه كان يُدعى بهيجاً). وحَدَثَ أنّ ملكاً مجاوِراً للملكِ بهيج كانَ يعيش بشكلٍ مختلف تماماً، عدوّاً معلناً للملذّاتِ، لا يهوى إلاّ التنكيل بالناس وتبريحهم ضرباً. كانَت سِيماء وجهه متَجَهّمَة ولحيَته طويلة وعيناه غائرَتين. كانَ نَحيلاً وجافّاً، يرتَدي دوماً الأسوَد، وكانَ شعره مشعّثاً ودهنيّاً ومتّسِخاً. لا يثيرُ إعجابه إلاّ القتل وصَرْع المارّة. وكان يعمد إلى شنِق المجرِمين بنفسه متَلَذّذاً بتعذيبهم.

وحينَ يعلَم أنّ أمّاً حنوناً تحبّ كثيراً ابنَتها الصّغيرَة أو ابنَها الصّغير، كان يُرسل في طلَبِها ويقطَع ذراعَ ولَدِها بحضورِها أو يدكّ عنقه. لذا سُمّيَت بلادُه بلادَ الدّموع. وتناهت إلى أسماع الملك اللّئيم

الأخبار عن الهناء الذي يعيش في كنفه رعايا الملك بهيج ورضاهم عليه، فضمَر له حَسَداً كبيراً وصَمّمَ على أن يجهّزَ جيشاً ضخماً ويذهبَ لمحارَبتِه إلى أمد غير محدّد حتّى يموت أو يَسقطَ صَريعاً. وأرْسَلَ إلى كلّ ناحِيّة يَطلُب تزويده بالمُحاربِينَ والأسلحَة. وأمَر بصُنْع المدافع. وكانَ كلّ واحِدٍ يرتَجِفُ خوفاً قائلاً: «مَن سينْقَضّ عليه المَلك فلَن يوفّرَه أبداً». وعندَما جهّزَ كلّ شيءٍ، زحفَ إلى بلدِ الملكِ بهيج الذي ما إن وصَلَته تلك الأخبار السيّئة حتّى سارَعَ للدّفاعِ عن نفسه. كانَت الملكة مذعورَة حتّى الموت وتقول له وهي تبكي:

- مولاي، علينا الهرَب، لنُحاول أن نجمع منَ المالِ ما أمْكَنَ ونذهب بعيداً إلى أقاصي الأرض.

فيجيب الملك:

- تبّاً لكِ يا سيّدَتي! أنا لا تنْقُصُني الشّجاعَة. أفضّلُ الموتَ على أن أكونَ جباناً.

وجَمَعَ جنودَه وودّعَ الملكة بكلِماتٍ لطيفَة ثمّ امْتَطى حِصاناً جميلاً وانطَلَق. عندَما توارى عن ناظِرَيها، أخذَت تبكي بِمَرارَة. ثمّ جمَعَت يديها قائلة:

- واحَسْرَتاه! إنّني حبْلى، وإذا قُتِلَ الملك في الحرب فسأغدو أرْمَلة وأسيرة وسيَتَسَبّب لي الملك الشرّير بألفِ أذى.

منعَتها تلك الفكرَة منَ الأكلِ والنّوم. كان الملك يكتب لها كلّ يوم. وذات صباح، وفيما كانَت تَسْرح بنظَرها إلى ما وراءَ الأسْوار، رأت ساعِياً يركض بأقصى سرعته. فأخَذَت تناديه:

- يا هذا!، أيّها السّاعي، ما هيَ الأخبار؟

هتفَ قائلاً:

- توفّي الملك. وخسرنا المعرَكة. سيَصل الملك الشرّير بعدَ لحظات.

فسقَطَت الملكة التّعيسَة فاقِدَة الرّشد. حُمِلَت إلى السّرير وكانت جميع وصيفاتها قربَها ورُحْنَ يبكين. بكَت واحِدَةٌ أباها وثانيةٌ ابنَها. كنّ ينْتَزِعْنَ شعورَهُنّ وكانَ مرآهُنّ مثيراً للشّفَقَة أكثر من أيّ شيءٍ آخر. وفجأةً سُمِعَ صوت يقول: «اقتلوهُم، اهجموا على اللّصوص».

كانَ الملك الشّرّير يصِلُ بصحْبَة رعاياه البائسينَ وكانوا يقتلونَ دونَ ذنب كلّ من يُصادِفونَهم في طريقهم. ودخَل إلى قصرِ الملكِ مسَلّحاً تماماً ثمّ صعَدَ إلى غرفةِ الملكة. وعندما رأتْه يدخل، اعْتَرَاها خوفٌ لا يوصَف فاندَسّت في السّرير ودفَنَت رأسَها في الغطاء. ناداها مرّتينِ أو ثلاثاً لكنّها لم تنْبِس بكلِمَةٍ فاغتاظ، اغتاظَ كثيراً وقال:

-حذارِ أن تسخري منّي! هل تعلَمين أنّني أستطيع أن أذْبَحَكِ في الحال؟

وحسرَ عنها الغِطاء ونزعَ قبّعتها فانسَدَلَ شعرُها الجميلُ على كتِفَيها. لَوى يدَها ثلاث مرّات وحَمَلها على ظهرِهِ وكأنّها كيس قمْح ثمّ أصْعَدَها على حِصانِهِ الأدهم الضّخم. توسّلَت إليه كي يُشْفِقَ عليها فَسَخِرَ منها قائلاً:

- اصْرُخي واشتَكي ما شئت فهذا يُضْحِكني ويُسَلّيني.

واصطَحَبَها إلى بلادِهِ وتوَعّدَها طيلَة الطّريقِ مكرّراً أنّه مصمّم على شنْقِها. لكنْ قيلَ له إنّ ذلكَ سيَكونُ مؤسِفاً لأنّها حبلى.

وعندَما عَرَفَ بالأمر، خطَرَ ببالِهِ أنّها إذا أنجَبَت بنتاً فسيزوّجها ابنه. ولكي يعلمَ جنس الولد في أحْشائها، أرسَل في طلب جنيّةٍ كانت تقْطن بالقربِ من مملكته. جاءت إليه فأوْلَمَ لها أفضلَ ممّا يفعل عادَة. ومن ثمّ اصطَحَبَها إلى أحَدِ الأبراج حيث أسكن الملكة التّعيسَة في غرْفَةٍ صغيرَةٍ جدّاً مفروشة بتواضُع كَبير. كانت مضطجَعة أرضاً على فراشٍ بَخْسٍ حيث كانت تبكي لَيلاً ونهاراً. عندَما رأتها الجنيّة

رقّت لحالِها. انْحَنَت أمامَها إجلالاً وقالت لها بصوتٍ خفيضٍ وهي تقبّلها:

- تشجّعي يا سيّدتي، آلامُكِ ستنْتَهي وآمل أن أساهِمَ في إنْهائِها.

حَمَلت هذه الكلمات القليل منَ العزاءِ إلى قلبِ الملكة، فداعبَتها وتوسّلَت إليها لتُشْفِقَ على أميرَةٍ بائسَة كانت تتمتَّع بثرْوَةٍ كبيرَةٍ ثمّ رأت نفسها في الحَضيض. كانَتا تتبادَلان أطرافَ الحديث عندَما قال الملك الشرّير:

- هيّا! يكْفي مجامَلات. جئتُ بكِ إلى هنا لِتَقولي لي ما إذا كانَت هذه الأمَة حبلى بصبيٍّ أو بنت.

أجابت الجنيّة:

- إنّها حبْلى ببنتٍ وستكون هذه البنت أجمل أميرَةٍ في العالم ومثالَ الفطنة والنباهة.

وتمنّت لها الخير والعزّة بِلا حدود.

قال الملك الشرّير:

- إذا لم تكن جميلة وفطنة فسأشْنُقُها إلى عنقِ أمّها ثمّ أشنق أمّها وأعلّقهما إلى شجرَةٍ من دونِ تردّد.

وبعدئذٍ خرج مع الجنيّة غير آبهٍ بالملكة الفاضلة التي كانت تبكي بِمَرارَة وهي تقول في نفسِها:

- يا وَيْلي! ماذا أفعَل؟ إذا أنجبتُ فتاةً جميلَة صغيرَة فسيُزَوّجها ابنَه القرد. وإذا كانت قبيحَة فسيَقْتلنا كِلَينا. أيَّ إجراء فظيع من الإجراءين سيتّخِذ بحَقّي؟ ألن أقدِرَ على إخفائها في مكانٍ ما بحيث لا يراها أبَداً.

اقترَب ميعادُ مولِدِ الأميرَة وازدادَت هموم الملكة.

لم يكن هناك أحدٌ تشتَكي إليه وتتعزّى بوجوده. لم يكن السجّان

الذي يحْرُسها يعْطيها إلاّ ثلاثَ حبّاتِ بازلاّء مطْهوّة في الماءِ تتناوَلها طيلَة النّهار مع قطْعَةٍ من الخبزِ الأسود.

أصبَحَت أشدّ نُحولاً من سمَكة الرّنكة وهزُلَ جلدُها على عظْمِها. وذات مساءٍ، وفيما كانت تنسِجُ على مغزلها (لأنّ الملك الشّرّيرَ كان بخيلاً جدّاً وجعَلها تعْمَل ليلَ نهارَ). رأت فأرَةً صغيرَةً تدخل عبرَ الثّقبِ وكانت جميلَة جدّاً.

قالت لها:

- يا ظريفتي عمَّ جئتِ تبْحثينَ هنا؟ يا للأسف، ليسَ لديّ إلاّ ثلاث حبّاتِ بازلاّء، هي طعامي اليوميّ. إذا كنتِ ترغبينَ في غير الصّيام فارحلي عن هذا المكان.

أخذَت الفأرَة تهَرْوِل في أرجاءِ الغرفةِ وترقص وتنطنِطُ مثل قرْد صغير. سُرَّت الملكة كثيراً بالنّظرِ إليها فأعْطتْها البازلاّء الوحيدَة التي بَقْيَت في حَسائها.

قالت لها:

- هيّا خذي يا ظريفَتي، ليسَ لديّ إلاّ هذه وأعْطيكِ إيّاها بطيبَةِ خاطر.

ما إن أعْطَتها الحبّة حتّى رأت على الطّاوِلة حَجَلاً شهِيّاً مطْهوّاً بشكْلٍ رائع ومرطبانينِ منَ المربّى. قالت:

- لا يَضيع المعروف أبداً.

وأكَلَت قليلاً لأنّ شهيّتَها تضاءلَت لكُثرِ ما صامَت.

أعْطَت ملبّساً للفأرَةِ فقَضَمَته ثمّ راحَت تقفز بحيويّة أكبر ممّا فعَلَت قبلَ العَشاء. وجلَب السجّان إلى الملكة في الصّباح الباكر حبّاتِ البازلاّء الثّلاث ووضَعَها في طبقٍ كبيرٍ ليسْخَرَ منها. فجاءت الفأرَة الصّغيرة والتَهَمَتها ثلاثتها بهدوءٍ وأكلَت الخبز أيضاً. وعندما

أرادَت الملكة أن تتناوَل عشاءَها لم تجد شيئاً فغضِبَت منَ الفأرَة، وقالت:

- إنّها فأرَة صغيرَة شرّيرَة. إذا تابَعَت على هذا المنوال فسأموت منَ الجوع.

وعندَما أرادَت أن تغطّيَ الطّبَق الكبير الفارغ وجَدَت فيه كلّ ما لذّ وطاب. شعَرَت بالارتِياح وأكَلت بشهيّةٍ، ولكن أثناءَ ذلكَ خطَرَ لها أنّ الملك الشرّيرَ سيَقتل ابنَتَها في غضونِ يومينِ أو ثلاثة فأقْلَعَت عن تناول الطّعام وراحَت تبكي. ثمّ قالت وهيَ ترفعُ نظَرَها إلى السّماء:

- أهذا معقول! أما من وسيلَةٍ للهرَب؟

وفيما هي تقول ذلك، رأت الفأرَة الصّغيرَة تلهو بعيدانٍ طويلةٍ منَ القشّ؛ أخذتها الملكة منها وبدأت تحبِكها.

قالت:

- إذا كانَ لديّ ما يكفي منَ القشّ فسأصنَع منه سلَة وأضَعُ فيها ابنَتي الصّغيرَة وأعْطيها منَ النّافذة لأوّل شخصٍ مُحسِن يريد الاعتناءَ بها.

وبدأت تعمل بِدَأبٍ كبير. لم يكن القشّ ينقصها، وكانت الفأرة تأتي به إلى الغرفة دوماً حيث تتابعُ القفز. وفي أوقاتِ الوجَبات، كانت الملكة تقدّم حبّات البازلاّء الثّلاث وتجِد بدَلاً منها أصنافاً لا تُحْصى منَ اليَخْنات. أدهَشَها ذلك كثيراً وراحَت تفكّر باستمرار بمصدَرِ تلك الأشياء الشهيّة. ذاتَ يوم، نظرَت الملكة عبرَ النّافذة لكَي تقدّرَ طولَ الحَبْلِ الذي يفترَضُ أن تُعلّق إليه السلّةَ لكي تُنزِلَها فلمَحَت في الأسْفَلِ امرأةً عجوزاً قصيرَة القامَة تتّكئ إلى عَصاها.

قالت لها:

- أعرف مقدارَ ألمك. إذا شئتِ فأنا أستطيع أن أساعدك.

قالت لها الملكة:

- واهاً يا صديقتي العزيزَة. ستُدْخِلينَ السّرور إلى قلبي لو أتيتِ كلّ مساءٍ إلى أسفَلِ البرج. وسأنزِلُ لكِ طفلَتي المسكينَة وتُطعِمينَها. وإذا أصبَحْتُ ثرِيّة فسأُجزِلُ لكِ العطاء.

قالت العجوز:

- لا يهِمّني المال. أنا شرِهَة ولا شيء يَطيبُ لي مثل فأرَةٍ دَسِمَةٍ ممتَلِئة. إذا وجَدْتِ واحِدَة في مسكَنِكِ الحقير فاقْتُليها وارْميها لي. لن أكونَ جاحِدَة للجميل، وسأعنى بطفلتك خيرَ عناية.

وإذ سمِعَتها الملكة أخذت تبكي ولم تُجبْ بشيء. تريّثت العجوزُ قليلاً لتسألَ عن سبَبِ بكائها.

قالت:

- هذا لأنّه لا يأتي إلى غرفتي إلاّ فأرَة واحِدَة وهيَ جميلة جدّاً ولا يسَعني التّصميم على قتلِها.

قالت العجوز بنبْرَةٍ غاضبَة:

- ماذا تقولين؟ أتُحِبّينَ فأرَة صغيرَة قارِضَة أكثرَ منَ الطّفلِة التي ستُنْجبينَها؟ حسناً يا سيّدتي، لن أشفِقَ عليك. ابقي بصحْبَتِها وأنا، ما همّني! سأحْصل على الفئرانِ من دونك.

وذهَبت وهيَ تُغَمْغِم. ومَعَ أنّ الملكة حصَلَت على وجْبَةٍ لذيذَة ومع أنّ الفأرة جاءَت لترقُص أمامها، إلاّ أنّها أبْقَت بصَرَها منخفِضاً وسالَت الدّموع على خدّيها. وفي تلك اللّيلَة بالذّات، أنجبَت أميرَةً كانَت آيَة في الجمال، وبدَلَ أن تصْرُخَ كالأطفال الآخَرين، بدأت تضحَك لوالِدَتِها وتمدّ لها يدَيها الصّغيرَتين وكأنّها تفهَم كلّ شيء. داعَبَتها الملكة وقبّلتها بكلّ ما أوتيَتْ من حنانٍ. ثمّ فكّرَت بحزن:

- يا ظريفتي، يا حلوَتي، يا ابنَتي الغاليَة! إذا وقَعْتِ بينَ يدَي الملكِ الشرّير فسَيُقضى عليّ.

ووضَعَتها في السلّة ووضَعَت على قماطِها ورَقة كتبت عليها:

«هذه الصّغيرَة المسكينة البائِسَة تُدعى جولييت».

فتَحَت الملكة السلّة من جديد فوجَدَت الأميرَة وقد ازدادت جمالاً. قبّلتْها وذرفتْ دمْعاً مِدْراراً دونَ أن تعرِفَ ماذا تفعل. ولكن ها إنّ الفأرَة الصّغيرَة أتَت واندسّت في السلّة مع جولييت.

قالت الملكة:

- آه أيّتها الفأرَة الصّغيرَة، كم يكلّفني غالياً أن أنقذَ حياتَك! ربّما كنتُ سأفقِد جولييت العزيزة. إنّ امرأة أخرى سِوايَ كانت ستَقْتلَكِ وتَرْميكِ إلى العجوزِ الشّرِهَة. لكنّي لم أستطع القبولَ بذلك.

حينئذٍ قالت الفأرَة:

- لا تنْدَمي على ما فعَلْتِهِ يا سيّدتي، فأنا جَديرَة بِصَداقتِكِ خلافاً لِما تظنّين.

ذُعِرَت الملكة وكادَت تموت رُعْباً لِسَماعِها فأرَةً تتكلّم على هذا النّحو. لكنّ خوفها ازدادَ عندما رأت خطْمَها الصّغيرَ يتَحوّل إلى وجْهٍ وقوائمَها تنقلب إلى يدَينِ وقدَمينِ ويكبُرُ حجْمُها فجأةً. وأخيراً لم تجرؤ الملكة على النّظرِ إليها لكنّها أدْرَكَت أنّها الجنيّة التي أتَت لزِيارَتِها مع الملك الشّرّيرِ والتي لاطَفَتها كثيراً.

قالت لها:

- أردْت أن أمْتَحِنَ طيبَةَ قلبِكِ فعرفْتُ أنّه لَكذلك وأنّكِ قادِرَة على الصّداقة. نحن معشَرَ الجنيّات نملِك كنوزاً وثرَواتٍ هائلَة ولا نبحَث عن حلاوَةِ العيشِ إلاّ عبرَ الصّداقَة ونادِراً ما نَجِدُها.

قالت الملكة وهي تُقَبّلها:

- هلْ يُعقَل أيّتها السيّدة الجميلة أن تلقى الجنيّات كلّ هذهِ المشقّة في إيجادِ أصدقاء فيما هنّ في منتَهى الثّراء والقوّة؟

أجابَت:

- نعم، لأنّ الآخرينَ لا يحبّونَنا إلاّ بِداعي المصْلَحَة، وهذا لا يؤثّر فينا. لكن، عندَما أحْبَبْتِ فيّ الفأرَة الصّغيرة فذلك لم يَكن بِدافِع المنفعة. أردتُ أن أمْتَحِنَكِ أكثر فاتّخّذْتُ هيئةَ المرأة العجوزِ. أنا المرأة التي كلّمَتْكِ في أسفلِ البرج ووَجَدْتُ أنّكِ تُخْلِصينَ الودّ لي.

ثمّ قبّلت الملكة وقبّلت ثلاثَ مرّاتٍ فَمَ الأميرَة الصّغيرَة القرمزيّ. وقالت لها:

- يا بنَيّتي، أهبُكِ أن تكوني تعزيَة والدتكِ، وأن تكوني أشدّ ثراءً من والدِكِ وأن تعيشي مائة سنَة محافظَةً على جمالِكِ وصحّتِكِ فلا تجاعيد ولا شيخوخَة.

شكَرَتها الملكة مبتَهِجَةً وتوسّلت إليها أن تأخذ جولييت وتعتني بها مضيفَةً أنّها تعْطيها إيّاها لتَكونَ ابنتَها. وافقت الجنيّة على طلبِها وشكرَتْها ووضعَت الصّغيرَة في السلّة وأنزَلَتْها إلى الأسفل. لكن بعد أن توقّفت قليلاً لتسْتَعيدَ هيئةَ الفأرَة الصّغيرَة وتنزَلِقَ على الحبلِ خلفَها، نظرت إلى السلّة فلم تجد الطفلة، وعندئذٍ صعَدَت عندَ الملكة من جديدٍ وهيَ ترتَعِش منَ الذّعرِ وقالت لها:

- كلّ شيءٍ ضاعَ سدىً. جاءَت عدوّتي كانْكالين لتخطِفَ الأميرَة! اعْلَمي أنّها جنيّة متوحّشَة وتكرَهُني. ولسوءِ الحظّ، إنّها أقْدَم منّي وتفوقني قدرَة. لا أعرف بأيّةِ وسيلَةٍ أستطيع انتزاعَ جولييت من براثِنِها الشرّيرَة.

عندما سمِعَت الملكة هذه الأخبار الحزينَة، كادَت تموت ألماً. بكَت بكاءً مرّاً متوسّلَةً إلى صديقتِها أن تحاوِلَ استعادة الصّغيرَة من جديدٍ

مَهْما يكن الثّمَن. وفي تلك الأثناء جاءَ السجّان إلى غرفَةِ الملكة وأيقَنَ أنّها لم تعد حبلى فأبْلَغَ الملكَ بذلك وهُرِعَ ليُطالِبَ بالطّفلة لكنّها قالت له إنّ جنيّة لا تعْرِفُ اسمَها جاءَت وأَخذَتها منها بالقوّة. فأخَذَ الملك الشرّير يرفِسُها وقَضمَ أظافِرَها حتّى اللّحم.

قال:

- وعدْتُكِ بأن أشنُقَكِ وسَأفي بوعْدي الآن.

وعلى الفور اجتذَبَ الملكةَ المسكينَةَ إلى الغابة وتسلّقَ شجرَةَ ساعِياً إلى شنْقِها. عندئذٍ، جعلَت الجنيّة نفسَها غيرَ مرئيّةٍ ودَفَعَته بعُنْفٍ وأسْقطَته من أعلى الشّجَرَة فانكسَرت أربَع من أسنانه. وفيما سعى مرافِقوه إلى إسْعافه، اختَطَفَت الجنيّةُ الملكةَ في عرَبَتِها المجَنّحَة وحَمَلَتها إلى قصْرِها الجميل. هناك أوْلَتها عنايَة فائِقَة، ولو كانَت الأميرَة جوليِيت معَها لاكتَملت سعادتها. لكن لم يكن في الإمْكانِ اكتشاف المكان الذي وضَعَتها فيه كانْكالين، معَ أنّ الفأرَة الصّغيرَة بَذَلَت جُلّ جُهْدِها. وأخيراً مرّت السّنون وتضاءَلَ معَها حزنُ الملكة الكبير. كانت خمسة عشر عاماً قد تصرّمَت عندَما سمِعوا أنّ ابنَ الملك الشرّيرِ سيتزوّجُ راعيَةَ دِيَكة روميّة لكنّ الفتاة كانت ترفض الزّواج به.

أمْرٌ عجيبٌ فعلاً أن ترفضَ راعيَة للدّيَكةِ الرّوميّة أن تصيرَ ملكة. ومع ذلكَ جُهّزَت ثياب العرس وأجْرِيَت الاستعداداتُ الباذِخَة له وبدأ النّاس يتوافَدونَ من كلّ ناحيَةٍ ومن أمكنَةٍ تبعدُ مائة فرْسَخٍ عنِ المملكة. وجاءَت الفأرَة الصّغيرَة لحضورِ العرس لأنّها كانَت تريد رؤيَة راعيَة الدّيَكة الرّوميّة وتتحَرّى عنها. دخلَت إلى القنّ فوجَدَتها ترتدي ثوباً فضْفاضاً منَ الكتّان، وتضَع خرْقَة وسِخَة على رأسِها، وكانت حافيَة القدَمَين. قرْبَها على الأرضِ ثيابٌ من ذهبٍ وفضّةٍ

وألماسٍ ولآلئ وشرائط ودانتيلاّ؛ وكانَت الدّيوكُ الرّوميّة تروحُ عليها وتجيءُ فتُلَطّخُها بالوحل وتملؤها ذروقاً. والرّاعيَة جالسَة على صخرَةٍ كبيرَة. وكانَ ابن الملكِ الشرّيرِ، وهوَ مشوّه الجسم وأعوَر وأعْرَج، يقول لها بنبْرَةٍ قاسيَة:

- إذا تمَنّعْتِ عنّي فسأقتلُكِ.

وكانَت تجيبُهُ بفخر:

- لن أتزوّجَك، أنتَ قبيحٌ جدّاً، تشبهُ أباكَ القاسي. اتركْني بِسَلام معَ دِيَكتي الرّوميّة الصّغيرَة. أحبّها أكثرَ من كلّ مظاهِرِ الأبّهة والملابس الثّمينَة التي تتبَجّح بها.

نظرَت إليها الفأرَة الصّغيرَة بإعجابٍ لأنّها كانت جميلة بهيَّة كالشّمس. وما إن خرجَ ابن الملكِ الشرّير حتّى أخذَت الجنيّة شكلَ راعيَةٍ عجوز وقالت لها:

- صباحُ الخيرِ يا ظريفَتي. ها إنّ ديوكَكِ الرّوميّة في حالٍ جيّدَة.

رَفَعَت راعيَة الدّيَكة اليافِعَة بصرها إلى تلك العجوز، وكانت نظراتُها مليئة بالعذوبَة. قالت لها:

- يريدون أن أتخلّى عنها لأجْلِ تاجٍ خسيسٍ فبمَ تنصحينَني؟

قالت الجنيّة:

- يا بُنَيّتي، التّاج جميل جدّاً، يظهَر أنّكِ لا تعرِفينَ لا ثمَنَه ولا قدْرَه.

فعاجَلَتها الرّاعيَة بالقول:

- بلى، أعرفُهُ وأرْفضُ الخضوعَ مع أنّي لا أعرِف مَن أنا، وَلا أين أبي أو أمّي. فأَنا لا أهلَ لي ولا أصدِقاء.

قالت الجنيّة الحَكيمَة:

- لكن لديكِ الجمال والفَضيلَة يا بنَيّتي وهُما أغلى من عَشرِ ممالك.

أخْبِريني من فضلكِ، كيف جئتِ إلى هنا ما دامَ ليسَ لديكِ لا أبٌ ولاَ أمٌّ ولا أهلٌ ولا أصْدِقاء؟

- هناكَ جنيّة تدْعى كانْكالين هيَ السّبب في وجودي هنا. كانَت تضربُني وتلْطِمُني دونَ أيّ سبب. وذات يوم هرَبْتُ وَلم أكن أعرف مكاناً أذهَبُ إليه فتوقّفتُ في إحدى الغابات. وكان ابن الملك يتنزّه هناك فسألني إذا كنتُ أرغَب في العمل لدَيه في مزرَعَةِ الدّجاج. فوافقتُ وبدأت أغْنى بديَكته الرّوميّة. كانَ يأتي في كلِّ لحظَةٍ ليتَفَقّدَها وتلك ذريعَة ليَراني. ويا لُمصيبَتي، أخذ يحبّني رغم أنّي لا رغبَة لي أبداً في ذلك، وازدادَ حبّه لي وبدأ يزعِجُني كثيراً.

أدْرَكَت الجنيّة لدى سَماعِها هذه القصّة أنّ الرّاعيَة كانت الأميرَة جولييت. قالت لها:

- يا ابنتي، ما اسمُك؟

- اسمي جولييت، أيّة خدْمَة؟

ولَدى سَماعِها الاسم تيَقّنَت الجنيّة منَ الحقيقة فغمَرَتْها وداعَبَتْها بحَنانٍ وكأنّها لا تصدِّق عينيها. ثمّ قالت لها:

- جولييت، أعرفكِ منذُ زمن طويل. يسرّني جدّاً أن تكوني بهذِهِ الفطنةِ والجَمال. لكنّي أريدُكِ أن تكوني أكثرَ نظافة لأنّكِ تبْدينَ وسِخَة كحيوانٍ بريّ. خذي هذه الثّياب الجميلة ورَتّبي هِنْدامَكِ.

فما كان من جولييت المطيعَة جدّاً إلاّ أن نَزَعَت عنها على الفورِ الخرقة المتّسِخَة التي كانت تضعها على رأسِها. هزّت رأسَها فانْسَدَلَ شعرها الأشقر الغزير والرّقيق كخيوطِ الذّهبِ مُلامساً الأرض. ثمّ غَرَفَت في يدَيها النّاعِمَتَينِ ماءً منَ النّبع الذي كان يسيل قريباً من القنّ ونَظّفَت به وجهها الذي أضاءَ كلؤلَؤةٍ مشرِقيّة. بدا وكأنّ وروداً تفتّحَت على خدّيها وفمِها. كانَت تنبَثِقُ من أنفاسها العذبة رائحَة

الزّعترِ البريّ. كان جسدُها مستقيماً رشيقاً كالقصَب. أمّا بشرَتها فكانت أشبَه ما تكون بالثّلج في الشتاء وبالزّنبَقِ في الصّيف. وعندَما تزيّنَت بالألماسِ والفساتين الجميلة، نظرَت إليها الجنيّة وكأنّها آية من الجمال، وقالت لها:

- مَن تظنّينَ نفسَكِ يا جولييت العزيزة؟ هي ذي أنتِ في كاملِ أناقتك.

أجابَت:

- في الحقيقَة، أشعر أنّني ابنةُ ملكٍ عظيم.

قالت الجنيّة:

- وهل سيسرّك لوْ كنتِ كذلك؟

أجابَتها جولييت وهيَ تنْحَني إجلالاً:

- نعم يا جدّتي، سأكون في غاية السرور.

قالت الجنيّة:

- حسناً، افرحي منذ الآن، وسأقول لكِ أكثر في الغد.

وذهبَت في الحالِ إلى قصْرِها الجميلِ حيث كانت الملكة منشغِلَة بِنَسْجِ الحرير.

هتفت الفأرَة الصّغيرَة:

- هل يمْكنُكِ يا موْلاتي أن تعْطيني مِغزَلَكِ ومكوكَ الحياكة لِقاءَ الأخبارِ الطيّبة التي ستسمَعينَها؟

أجابَت الملكة:

- وا أسفاه، منذ وفاةِ الملك بهيج وخسارَة ابنَتي جولييت وكلّ أخبارِ هذا العالم لا تساوي عندي دَبّوساً.

قالت الجنيّة:

- مهلكِ، مهلكِ، لا تحزَني، الأميرَة في خيرٍ وعافيَة. رأيتها للتوّ،

إنّها جميلة جدّاً وإليها يعود القرار في أن تُصبِحَ ملكة أو لا.

وأخبرَتها القصّة كلّها من أوّلها إلى آخرها، وبَكَت الملكة فرَحاً لمعْرِفَتِها أنّ ابنتَها جميلة جدّاً، وحزناً لأنّها راعيَة ديوكٍ روميّة.

قالت:

- عندما كنّا ملوكاً كباراً في مملكتنا وكنّا نقيم المآدِبَ والولائمَ والحفَلات لم يكن باستِطاعتنا، أنا والمرحوم العاثر الحظّ، أن نظنّ أنّ ابنتَنا ستكون راعيَة ديوكٍ.

- إنّ كانْكالين المتوحّشة هي التي، عندَما عرفت أنّني أحبّك، جعلتْكِ في هذه الحالِ لكي تنتقِمَ منّي. لكنّ ابنتكِ ستَخرُجُ من مِحْنَتِها، أُعاهدكِ على ذلك.

قالت الملكة:

- لا أريد أن تتزوّج ابنَ الملك الشرّير. لنَذهب منذ الغدِ لجَلْبِها واصطِحابِها إلى هنا.

بَيْدَ أنّ ابنَ الملكِ الشرّير كان مستاءً جدّاً من جولييت فجلَسَ تحت إحدى الأشجارِ وبدأ يبكي بقوّةٍ ويزْعَق. سمِعَه والده. فاقتربَ منَ النّافذَةِ وصاحَ به:

- لماذا تبكي وكأنّكَ طفلٌ صغير أبْلَه؟

أجاب:

- لأنّ راعيَة الدّيَكة ترفضُ أن تحبّني.

قال الملك الشرّير:

- ماذا تقول! ترفض أن تحبّك. ستُحبّك وإلاّ فستموت.

ثمّ نادى على جنودِهِ قائلاً لهم:

- اذهَبوا واجلِبوها. سوف أتسَبّب لها بآلامٍ كبيرَة. وستندَم على عنادِها.

وذهبوا إلى القنّ ووجَدوا جولييت ترتدي فستاناً جميلاً منَ السّاتان الأبيض مطرّزاً بالذّهب وموَشّى بالألماس الأحمر وبأكثر من ألفِ ذراع منَ الشّرائط في كلّ مكان. لم يشاهدْ أحدٌ فتاةً بمثلِ هذا الجَمال. لم يجرؤوا على التحدّث إليها ظنّاً منهم أنّها أميرَة.

قالت لهم بتهذيب كبير:

- من فضلِكم، قولوا لي عمّن تبحثون هنا.

قالوا:

- سيّدَتي، نبحَث عن بائسَةٍ صغيرَةٍ تدعى جولييت.

قالت:

- للأسَف، إنّها أنا، فماذا تريدون منّي؟

وأخذوها بسرعَةٍ وأوْثَقوا قدَمَيها ويدَيها بحِبالٍ غليظةٍ مَخافَة أن تهرُبَ واصطحَبوها مقيّدة على هذا النّحو إلى الملك الشّرّير الذي كان برفْقَةِ ابنه. عندَما رآها على ذلك الجمال الباهر أحسّ رغماً عنه بالتأثّر. لا شكّ أنّها كانت ستثير شفقَته لو لم يكن الإنسانَ الأشدّ شرّاً وتوحّشاً في العالم.

قال لها:

- هكذا إذاً أيّتها اللّصّة الصّغيرَة، أيّتها الضفدَعَة! ألا تريدينَ أن تحبّي ابني؟ إنّه مائة مرّةٍ أجمل منكِ. نظرَة واحِدَة منه تُساوي كلّ شَخْصك. هيّا أحِبّيهِ الآن أو أسْلُخُ جلدَك!

ارتَعَشَت الأميرَة مثل حمامَةٍ صغيرَةٍ وخرّت ساجدَة على رُكْبَتَيها أمامه وقالت له:

- مولاي، أتوسّل إليكَ ألاّ تسلخَ جلدي. هذا يؤلم كثيراً. اترُكْ لي يوماً أو يومَين أفكّر في ما يتوَجّب عليّ فعله. وبعد ذلك تصنع بي ما تشاء.

أرادَ ابنه اليائس أن يسلخَ جلدِها. واتّفقا معاً على أن يَسْجِناها في برْجٍ لا ينفذ إليه نور الشّمس. وحينئذٍ جاءَت الجنيّة الطيّبة في العربَة المُجَنّحَة مع الملكة وعلِمَتا بكُلّ ما جرى. وفي الحال بدأت الملكة تبْكي بِمَرارَة قائلةً إنّها تعيسَة الحظّ دوماً وإنّها تفضّل أن تموت ابنتُها على أن تتزوّج ابن الملك الشرّير.

قالت الجنيّة:

- تشَجّعي. سأرْهقهم وأهلِكُ نعمَتهم. وَثِقي أنّكِ ستَحْظَيْنَ بالسّعادَة وستنتقمين.

ثمّ ما إن ذهبَ الملكَ لينام حتّى اتّخذت الجنيّة هيئة الفأرَة واندسّت تحت المخدّة. وما إن خلَدَ للنّوم حتّى قَضَمَت له أذنَه فغَضِبَ كثيراً والتَفَت إلى النّاحِيَة الأخرى فقَضَمَت له أُذُنَه الأخرى. فنادى على الحرّاس ليقتلوا الفاعلَ وليُسعِفوه. جاؤوا فوَجَدوا أُذُنَيهِ الاثنَتَينِ مقضومَتَينِ وتنزِفانِ بشدّة بحيث عجزوا عن إيقاف الدّم. وفيما كانوا يبحثونَ في كلّ مكانٍ عن الفأرَة، فعلت الشيء نفسَه مع ابن الملك الشرّير. فنادى على الحرّاسِ وأراهم أُذُنَيهِ المسْلوختَين تماماً، فضَمّدوا جِراحه. وعادَت الفأرَة الصّغيرَة إلى غرفة الملكِ الشرّير الذي كان غفا قليلاً وقضَمَت له أنفه وعمِلَت على قرضِ وجهه. وضعَ يديهِ عليه فعضّته وخدَشَته، وأخذ يصرخ:

- النجدة فأنا هالك لا محالة!

دخلت إلى فمِهِ وقضَمَت لِسانه وشَفتَيهِ وخدّيه. دخلَ الحرّاس فوجدوا منظرَهُ مُريعاً ولم يعد يستطيع الكلام لشدّةِ الألم في لسانه. أشار لهم بأنّ الفاعِلَ فأرَة. فتّشوا الفِراش والمِخدّة والزّوايا كلّها، فلم يجدوها. كانت قد هُرِعَت إلى غرفة الابنِ لتفعَل ما هوَ أسوأ وأكلت له عينَه السّليمَة (لأنّه كان أعوَر). نهض كالمَسعور والسّيف في يده.

باتَ أعمى. هُرِعَ إلى غرفة والدِه الذي استَلّ سيْفَه وأخذ يلعَن ويشتم متَوَعّداً أنّه سيقتل الجميع إذا لم يمْسِكوا بالفأرَة.

عندَما رأى ابنه على تلك الحال منَ اليأسِ، زَجَرَه. أمّا الابن فكانَت أذناه ملتهِبتينَ ولم يتعرّف إلى صوتِ والده فانقضّ عليه. فَما كانَ منَ الملكِ الشرّيرِ الغاضب إلاّ أن وجّه إليه ضربَةً من سيفِهِ فبادَرَه ابنه بأخرى وسقط كلاهما أرْضاً وأخذا ينزِفانِ مثلَ ذبيحتَين. وكانَ كلّ أفرادِ رعِيّتِهما يكرهونهما حتّى الموت، فأوْثقوا أقدامَهما بالحبال وجذبوهما إلى النّهر وهم يغبِطونَ أنفسهم على أنّهم تخلّصوا منهما. وهكذا توفِّيَ الملك الشرّير وابنه. وعندئذٍ ذهبَت الجنيّة الطيّبَة لتأتي بالملكة واتّجَهَتا إلى البرجِ الأسوَدِ حيث سُجِنَت جولييت خلف أربعينَ باب.

ضرَبَت الجنيّة بِعَصاها السّحريّة[1] ثلاث مرّاتٍ على البابِ الرّئيسيّ فانفتَحَ ومعَه جميع الأبوابِ الأخرى. وجدَتا الأميرَة في غايَة الحزنِ لا تنْبسُ بكلِمة. فارْتَمَت عليها الملكة وعانَقَتها قائلَة لها:

- يا ظريفَتي، أنا والدَتك الملكة بهيجة.

روَت لها قصّة حياتها. رُحْماك يا ربّ! عندَما سمِعَت جولييت تلك الأخبار المُبْهِجَة جُنّت منَ الفرَحِ وارتَمَت عند قدَمي الملكة وقبّلت ركبَتيها وبلّلت يدَيها بالدّموع وقبّلتها ألف مرّة. ولاطَفَت الجنيّة بحنانٍ فقدّمَت لها هذه الأخيرة سِلالاً مليئةً بالجَواهرِ النّفيسَة التي لا تُقدّر بثمَن، وبالذّهب والألماس والأساوِر واللآلئ وصورَةِ الملك بهيج مُحاطَةً بإطارٍ منَ الأحجارِ الكريمَة، فوضعَتها أمامَها.

---

(1) هي في العادة عصاً مأخوذة من شجرة بندق، إذ يعدّ المشعبذون والسّحرة فروع هذه الشّجرة قادرة على فتح الأبواب المغلقة والكشف عن مخابئ الكنوز بأن تنثني كلّما مرّ بها السّاحر أمام مخبأ كنز.

قالت الجنيّة:
- والآن جاء وقت الجِدّ. لِنَذهَب إلى قاعَةِ القصرِ الكبيرَة ولنَخْطب في الشّعب.
مشَت الجنيّة في الطّليعَة بوجْهٍ جديّ صارم وكانَ ثوبها يتَجَرْجَر وراءها بذيْلٍ أطوَل من عشر أذرع. وارتدت الملَكة فستاناً منَ المُخمَلِ الأزرَقِ المطرَّزِ كلّه بالذّهب، وذيله كفستانِ الجنيّة. كانتا جلَبَتا ثيابَهما الجميلة معهما، ووضَعَت كلّ منهما تاجاً على رأسها. تبعَتْهما الأميرَة جوليت المشعّة جمالاً وتواضُعاً. انْحَنَت إجلالاً لكلّ مَن صادَفَتْهم في الطّريق، صغاراً كانوا أم كباراً.
وسارَعَ الشّعب للّحاقِ بهنّ ليعرِفَ من هنّ أولئك السيّدات الجميلات. وعندما امتلأت القاعَة، قالت الجنيّة الطيّبة لأفرادِ الرّعيّة الذين كان يحْكمهم الملك الشرّير إنّها تريد أن تنصّب ابنة الملك بهيج، التي يَروْنَها أمامهم، ملكة عليهم. وستكون حياتهم سعيدة في ظلّ حكمها. لِذا حثّتهم على مبايَعَتِها. قالت لهم أيضاً إنّها ستبحَث لها عن زوجٍ كاملِ الأوصافِ مثلها يهوى الضحَكَ دوماً ويطرُدَ الكآبَةَ منَ القلوب. ولدى سماعِ هذه الكلمات، هتف الجميع:
- نعم، نعم، نرْغَب في الضّحك. منذ زمَنٍ طويلٍ والحزن والبؤس يلفّان مملكتنا.
وعلى الفور، عَزَفَت مائةُ آلةٍ مختَلِفَةٍ الموسيقى من كلّ جانب. وأعطى كلّ واحِدٍ يدَه لقريبه ورقصوا رقصَة دائريّة منشِدينَ الأغاني من حولِ الملكة وابنتِها والجنيّة الطيّبَة.
- نعم، نعم، نريد أن نَضحَكَ ونلهو.
وهاكم كيف كانَ الاستقبال. كانت الفرحة تعمّ الأجواءَ إلى حدٍّ يفوق الوصف. أقيمَت المآدِب فأكلوا وشرِبوا وناموا هنيئاً. وعندما

استيقَظَت الأميرَة الشابّة قدّمَت لها الجنيّة أجمَلَ أمير، بعْدَ أن ذهَبَت للبَحثِ عنه على متنِ عرَبَتِها المجنّحَة إلى أقاصي الدُّنيا. كانَ ودوداً مثل جوليت. أحبّته من أوّلِ نظرَةٍ وسُحِرَ بها. أمّا الملكة فطارَت فرَحاً. أقيمَت وَليمَة رائِعَة وجُهِّزَت ملابس بديعَة. وكانَ عرسٌ تكلّلَ بمَباهِجَ وأفراحٍ لا حدّ لها.

تلكَ الأميرة التّاعِسَة
التي رأيتَ مَصائِبَها للتوّ
المتروكَة لِسجنِها
كم كانت سَتُعاني من قسوة القدَر الغاشم
وتبكي ابنتَها جوليتَ منذ ولادَتِها،
لكنّ امتنانَها وعِرفانَها بالجَميل
حَنّنا قلبَ تلك الجنيّة العاقِلة فلم تألُ جهداً
لِتَسيرَ بالملكَة وسطَ الأخطارِ الكبيرة التي تتهدّدُها
إلى بَرّ الأمان.
ما هيَ إلاّ قصّة خرافيّة حكَيتُها
لأسَلّي قارِئها
ومعَ ذلكَ نجد فيها عبرةً حقيقيّة:
لا تنسَ مَن أسدى إليكَ معروفاً
وأظهرْ عربونَ امتنانِكَ له.
إنّها أعظمُ الفضائل
تمسّ القلوب وتفوز بها.

الخروف

فِي ذاكَ الزّمن السّعيد حين كان ما يزال ثمّة جنيّات، كان يسودُ ملكٌ لدَيهِ ثلاث بناتٍ جميلاتٍ ويافعاتٍ وفضيلات. لكنّ الصّغرى كانت الأكثر ودّاً والأحبّ إلى القلوب. سُمّيَت باهرة. كان الملك والدها يغدِق عليها منَ الفساتين والشّرائط في ظرفِ شهرٍ ما يغدِقه على الأُخريَين في ظرف سنة. وكان لديها قلب في منتهى الطّيبَة ما يدفَعُها إلى تَقاسُمِ كلّ شيءٍ معَ أختيها لدرَجَة أنّ الوِئام كان قويّاً بينَهنّ.

كان لدى الملك جيران أشرار، أعلنوا عليه الحربَ بعْدَما ملّوا السّلام معه. خشيَ الملك أن يُهْزَم إذا لم يُدافع عن نفسه فحَشَدَ جيشاً كبيراً وباشر حمْلَته. بقيَت الأميرات الثّلاث مع مربّيَتِهنّ في أحَدِ القصورِ حيث كانت تتوافد إليهنّ كلّ يوم أخبار طيّبَة عن الملك، كاحتَلاله مدينة أو انتصاره في معركة. وأخّيراً، قامَ بحملاتٍ عدّةٍ هزَمَ فيها آخرَ المطافِ أعداءهُ وطردَهم من وِلاياته. ثمّ سارَعَ للعودَةِ إلى قصرِهِ لكي يرى من جديدٍ ابنته الصّغرى باهرَة التي كان يحبّها كثيراً.

صنَعَت الأميرات الثّلاث لأنْفُسِهِنّ ثلاثة أثواب منَ السّاتان، الأوّل أخضر والثّاني أزرق والثّالث أبيض. وكانت الأحجارُ الكريمَة التي تزيّنها تتلاءَم والأثواب. فالثّوب الأخضر زُيّنَ بالزمرّد والأزرَق بالفيروز والأبيض بالألماس. وبذلك الهِنْدام سارَعْنَ لِلقاءِ الملك وهنّ يُنْشِدْنَ هذه الأبيات التي نُظِمَت احتِفالاً بانتصارِه:

بعدّ الكثيرِ منَ المعاركِ البارزَة
كمْ يُسْعِدُنَا رؤيَة والِدِنا ومَلِكِنا من جديد
فلنَبْتَدِعْ ملذّاتٍ ولنَحْتَفلْ بألْفِ عيد
ولِيَخضَعْ كلّ أحَدٍ هنا لشريعَته
لنحاولْ أن نبرهِنَ على مدى حبّنا له
برعايتنا المُحكَمة وأغانينا الفرحِة.

وعندَما رآهنّ على هذا الجمال وهذه البهجَة، قبّلهُنّ بحنانٍ وداعَبَ باهِرَة ودلّلها أكثر من شقيقتيها. وأقيمَت وليمَة بديعَة؛ جلس الملك وبناته الثّلاث على المائدَة. وَبما أنّه كان يستخلِص العِبَرَ من كلّ شيء، قال للكبرى: «هيّا، قولي لي لماذا اختَرْتِ ثوباً أخضر؟» فقالت له: «يا سيّدي، بِما أنّني عرَفت بمَآثِرك، ظنَنْت أنّ الأخضرَ يعبّر عن فرحَتي والأمل بعودَتك». فهتف الملك: «نِعْمَ ما تقولين». ثمّ أردَف قائلاً للوسطى: «وأنتِ يا ابنتي لماذا اختَرْتِ ثوباً أزرَق؟» فأجابته الأميرَة: «يا سيّدي، هذا لكي أشيرَ إلى أنّه يجبُ أن أتضرّعَ للآلِهَة لكي يُعينوك، وأنّني حين أراك، إخالُ أنّي رأيت السّماء وأجملَ الكواكب». قال الملك: «عجباً! تتكلّمينَ كالعرّافات. وأنتِ يا باهِرَة، لماذا اخترتِ أن تلبَسي الأبيض؟» فقالت له: «يا سيّدي، لأنّ الأبيضَ يُلائِمُني أكثرَ منَ الألوانِ الأخرى». غَضِبَ الملك إذ ذاك غضباً شديداً وصرخَ قائلاً: «ماذا تقولين؟ أيّتها الغَنْجَة الصّغيرَة، ألم تكن لديكِ إلاّ هذه النيّة؟» فقالت له الأميرَة: «كنت أنوي أن أثيرَ إعجابك، يبدو لي أنّه لا يجب أن تحدوني نيّة أخرى». ووجَدَ الملك، الذي كان يحبّها، أنّ الجوابَ ملائمٌ وأنّ هذه الصّيغة الذكيّة التي تفوّهت بها تروقُ له، وأنّ منَ اللّياقَة ألاّ يفْصِحَ الانسان دفعَة واحدَة عمّا يخطر بباله. ثمّ

قال: «مهلكنّ، ابْقَيْنَ معي، لقد تعَشّيْتُ جيّداً ولا أريد أن أخْلد إلى النّوم باكِراً. لِذا اروينَ لي الأحلامَ التي رأيْتُنّها في اللّيلة التي سبَقت عودَتي».

قالت الابنة البِكر إنّها حلمَت أنّه جَلبَ لها ثوباً تَلمَع أحجارُه الكريمَة أشدّ سطوعاً منَ الشّمس. وقالت الوسطى إنّها حلمَت أنّه جلبَ لها مكوّكاً ومغزَلاً ذهبيّاً لكي تَخيطَ له قمْصاناً. وقالت الصّغرى إنّها حلمَت بأبيها وهو يزوّج أختَها الوسطى، وإنّه في يوم العُرس كانَ يحملُ في يده إبريقاً ذهبِيّاً ويقول لها هيَ: «تَعالَي يا باهِرَة، تعالَي أصبّ لكِ الماءَ لتغسلي يديكِ».

استاءَ الملك من هذا الحلم وقطّبَ حاجبيه واتّسَمَت سيماؤه بأبشَع تكشيرَةٍ ممكنَة. وعرَفَ الجميع أنّه كانَ غاضباً. دخلَ إلى غرفتِهِ واندَسّ في فِراشِهِ فجأةً. واستَعادَ في فكرِهِ مراراً حلمَ ابنته. «تلك الصّغيرَة الوقِحَة، قال في نفسِه، تريد أن تَجعلَني خادِمَها! لا أتَعَجّبُ من أنّها اختارَت الثّوبَ الأبيض السّاتان دونَ أن تفكّر بي، تظنّني غيرَ جديرٍ باهتمامها، لكنّني أريد أن أتدارك مكائدها قبل حصولِها».

ونَهَضَ مستشيطاً غضباً. ومع أنّ النّهارَ لم يكن طلعَ بعد، أرسَلَ في طلبِ قائدِ حُرّاسِهِ وقال له: «لقد سمِعْت باهِرَة تتحدّث عن الحلم الذي رأتْه فهو يرمزُ إلى أشياء غريبَة تُحاك ضدّي. أريدُكَ أن تُمسِكَ بها الآن وتقتادَها إلى الغابة وتذبحها، وإلاّ جعَلتكَ تموت ميتَة فظيعَة». تعجّب رئيس الحرّاس أشَدّ العجَب لسَماعِهِ هذا الأمر البربريّ. لم يشأ معاكَسَة الملك مخافَة أن يؤجّجَ سخطه وأن يعهد بـهذه المهمّة لأحَدٍ سواه. قال له إنّه سوفَ يصطَحِبُ الأميرَة إلى الغابة ويذبحها.

وذهب على الفور إلى غرفَتِها، وانتظر طويلاً حتّى فتَحَ له الباب

لأنّ الوقت كان باكِراً جدّاً. قال للأميرَة باهِرَة إنّ الملك يريد رؤيتها فنهضَت على وجهِ السّرعة. فأمسكت موريتانيّة صغيرَة تُدعى باتيباتا بذَيلِ ثوبِها. وهُرِعَت في أثرِها قردَتها ودرْواسها[1] اللّذانِ يتبعانِها دوماً. كانت قردَتها تدعى غرابوجون ودرْواسها تان-تان.

أرغَمَها قائد الحرَس على النّزولِ وقال لها إنّ الملك كانَ في الحديقة يتنشّق الهواءَ في الخارج. دخلت إلى الحديقة. تظاهَرَ قائد الحرَس بأنّه يبحث عن الملك ولا يجده فقال لها إنّ الملك انتقَلَ ولا شكّ إلى الغابة. فتحَ باباً صغيراً واقتادَها إلى الغابة. بدأ النّهار يطلَع بِخَفَر. نظَرَت الأميرَة إلى مرشدِها. كانت عيناه تدْمَعانِ وكان حزنه شديداً يمنَعه منَ الكلام. سألته بنبْرَةٍ مفعَمَةٍ بطيبةٍ ساحِرَة: «ما بك؟، تبدو لي حزيناً جدّاً!».

فهتف قائلاً: «ومَن ذا الذي يقدِر على ألاّ يكون كذلك يا سيّدتي؟ والأمر الذي أعطي لي لم أتلقّ أمراً يُضاهيه فظاعةً حتّى الآن. يريدني الملك أن أذبَحَكِ هنا. وإذا توانيتُ عن ذلك سيأمر بقتلي. اعترى الشّحوب وجه الأميرة المسكينَة المرتعبَة وبدأت تبكي بصمت. بدَت كحَمَلٍ على وشَكِ أن يُذبَح. حدّقَت بعينيها الجميلتين إلى قائدِ الحرسِ ونظَرَت إليه نظرة خاليَة من الغضَب قائلةً له: «هل ستكون لديكِ الشّجاعَة لتقتلني، أنا لم أتسَبّب لكَ بأيّ أذىً ولم أقل للملك عنك إلاّ كلّ ما هوَ حَسن؟ لو أنّني على الأقلّ فعَلت شيئاً لأستحقّ كراهيَة أبي، لتحمّلتُ العواقِبَ دون اعتراض. ولكن واحَسْرَتاه لم أُبْدِ له إلاّ كبيرَ الاحترام والتعلّق الشّديدِ بهِ وكلّ ما يفعله بي ظلْمٌ ليسَ إلاّ». فقال لها قائد الحرس: «لا تظنّي يا أميرَتي الجميلة أنّني قادر على أن أنفّذَ له مثلَ هذه المهمّة الهمَجيّة. أفضّل بالأحرى أن

---

(1) درواس: كلب للحراسَة كبير الرأس أفْطَس الأنف.

أسلّمَ نفسي للموتِ الذي يتهَدّدُني. ولكن حتّى لو طعَنت نفسي فلن تكوني في أمان. عليّ أن أجِدَ الوسيلَة لكي أستطيعَ العودَة إلى الملك وإقناعه بأنّكِ لقيتِ حَتْفَك».

قالت باهِرَة: «ولكن بأيّة وسيلَةٍ؟ فهوَ يريدك أن تجلبَ له شواهدَ على قتلكَ لي، وإلاّ فلن يصدّقك أبداً؟». كانت باتيباتا قد سمِعَت الحوارَ كلّه وإنْ لم تلْحَظ الأميرَة ولا القائدَ وجودها، لشدّة حزنهما، فتقدّمَت بشجاعة وجاءَت ترتمي عند قدمَي باهِرَة. قالت لها: «سيّدتي، أتيت أقدّم إليك حياتي. أفتديك بحياتي. سأكون مسرورة جدّاً أن أموت كرمى لسيّدتي الطيّبة». فقالت لها الأميرة وهي تقبّلها:» آه! لا أقوى على ذلك يا باتيباتا العزيزة، بعد هذه الشّهادَة الرّائعَة عن مودّتك، لا يفترض أن تكون حياتك أقلّ أهميّة من حياتي». ثمّ تقدّمَت قرْدتُها غرابوجون وقالت: «معكِ حقّ يا سيّدتي أن تحبّي وصيفةً وفيّةً مثل باتيباتا. ربّما كانت تفيدك أكثر منّي. لذا أمنحكِ حياتي بفرَح على أمل أن أنال الخلود في مملكَة القرود». فقالت لها باهِرَة: «آه! أيّتها الظّريفَة غرابوجون، لا أستطيع تحمّل فكرَة أن أسْلبكِ حياتك». وعندئذٍ هتفَ تان-تان: «لا أستطيع أن أحْتمل، لكوني درواساً طيّباً، أن يَهِبَ سواي حياته لأجلِ سيّدته. عليّ أن أموتَ ولا أحَدَ غيري». وهنا دارَ جِدال صاخب بين باتيباتا وغرابوجون وتان-تان، قيلَت فيه شتائم مُشينَة. وأخيراً، سارَعَت غرابوجون قبل الآخرين بالصّعودِ إلى أعلى الشّجرة ورَمَت بنفسِها على رأسِها، فَماتت على الفور. وبالرّغم منَ الأسَفِ الذي تولّى الأميرة، وافقتْ، بِما أنّ غرابوجون قد توَفّيتْ، على أن يقدّم قائد الحرس شواهد من جسم القِرْدة على أنّها آتية من جسمها هيَ، ولكنّ غرابوجون كانت صغيرَة جِدّاً، فأدْرَكا بألَمٍ كبيرٍ أنّ الملك سيعرِف

حقيقة الأمر.

قالت الأميرَة: «وا أسفي عليكِ يا قردَتي الصّغيرَة العزيزة ها قَد لقيتِ حتْفَكِ، من دونِ أن يجعلَ موتكِ حياتي في أمان». فقاطَعَتها الوصيفة الموريتانيّة قائلة: «دَعي لي هذا الشّرف»، وأمسَكَت بسكّينٍ وأغرزَتها في عنقها. أرادَ قائد الحرسِ أن يأخذ شواهدَ من جسدها ولكنّها كانت سوداء جدّاً، ما جعلَه يتردّد لأنّ الحيلة لن تنطَلي على الملك. قالت الأميرَة وهيَ تبكي: «ألستُ تعيسَة في غاية التّعاسَة. أخسَر كلّ ما أحبّه ولا يتغيّر فألي السيّئ». فقال تان-تان: «لو أنّكِ قبلتِ ووافقتِ على اقتراحي لَما تأسّفت على أحدٍ غيري، ولَكان لي شرفُ أن أكون المأسوفَ عليه الوحيد».

قبّلت باهِرَة درواسها الصّغير وهي تبكي بكاءً مُرّاً يمزّقها ويكاد يقضي عليها. فابتعَدَت بسرعةٍ بحيث أنّها حين التفَتت، لم تعد ترى مرْشِدَها. وجَدَت نفسَها وسَطَ خادمتها وقردَتها ودرواسها الذين قضوا فداءً عنها[1]. لم تستطع الرّحيل قبل أن تدفنهم في حفرَةٍ وجدتها صُدفَةً في أسفلِ أحدِ الأشجار. ثمّ كتبت على الشّجرة هذه الكلمات:

هنا يرقد فانٍ وفانيّتان
ثلاثتهم متَساوونَ في الوَفاء
أرادوا الحِفاظَ على حياتي
فعجّلوا في موتِهم.

وأخيراً فكّرَت في سلامتِها. وبِما أنّه لم تكن سلامتها مضمونَة

(1) هذا يعني أنّ المؤلّفة تفادت، تحاشياً للتكرار وعلى سبيل الاقتضاب والتكثيف، وصفَ موت درواس الفتاة باهرة وابتعاد قائد الحرس الذي أشفق عليها ولم يشأ أن يميتها بنفسه.

إطلاقاً في تلك الغابة المجاورة جدّاً لقصرِ أبيها، لا سيّما وأنّ أوّل قادم كان يستطيع رؤيتَها والتّعرّف إليها، كما يستطيع الأسودُ والذّئابَ التهامَها وكأنّها دجاجة، بدأت تسيرُ بقدرِ ما تستطيع. لكنّ الغابة كانت فسيحَة جدّاً، والشّمس حارِقَة بحيث كادَت تختنق من الحرّ وتموت منَ الخوف والتّعب.

نظَرَت حولَها من جميع الجِهاتِ دون أن ترى تخوم الغابة. كانَ كلّ شيءٍ يخيفها، وكانت تظنّ دوْماً أنّ الملك يلاحِقها لكي يقتلها: منَ المستحيل تكرار شكواها الحزينة.

ومَشَت على غير هدى. كانت الجنَبات الشّائكَة تمزّق ثوبَها الجميل وتجرّح بشرَتها البيضاء. وأخيراً سمِعَت ثغاءَ خروف. قالت في نفسِها: «لا شكّ أنّ هناكَ رعاة في هذا المكان مع قطعانِهم باستطاعَتهم إرشادي إلى أحدِ الأكواخ حيث سأتنكّر بثوبِ فلاحَة». وأردَفَت قائلة: «يا للأسَف! ليس المقتدرون والأقوياء هم الأسْعَدَ على الدّوام. مَن كان سيظنّ في كلّ هذه الدّيار أنّني هارِبَة من وَجهِ أبي الذي يَنشد هلاكي دونَ سبب ولا ذنب اقترَفَته، وأنّني لكي أتجنّبَ شرّه عليّ أن أتنكّر!».

وإذ كانت مستغرِقَة في هذه الأفكار، تقدّمَت إلى المكان الذي سمعت فيه خروفاً يثغو. لكن ما أعظمَ دهشَتها عندما ألفَت نفسَها في مكانٍ فسيح للغاية ومحاطٍ بالأشجار، وفي وسطهِ خروف ضخم أشدّ بياضاً منَ الثّلج، ذهبيّ القرنَين ولديهِ حول عنقه عقد منَ الأزهار، وقوائمُه محاطَة بسَلاسل مزدانة بلآلئ ضخامَتها مدهِشَة وحبّات ألماس! كانَ مضطجعاً على أزهار أشجار البرتقال. وفوقه عُلّقَت خيمَة منَ القماش الذّهبيّ في الهواء لتقيَه الشّمسِ الحارقة. ومن حوْلِهِ مائة خروفٍ مزيّنٍ لا ترْعى العشب، بل منها مَن كان

يتناول القهوة أو المثلّجات أو الليموناضَة ومنها مَن يتناول ثِمارَ الفراولة والقشدة والمربّيات، وخراف أخرى تلعب بالورق. وكان للكثيرِ منها عقودٌ ذهبيّة مُزدانَة بشعاراتِ متأنّقة، وكانت آذانُها مثقوبَة، ومزيّنة بالأشرطَة والأزهار التي لا تُحصى. مكثَت باهِرَة منذَهِلَة بِما تَراه وجَمَدَت في مكانها تقريباً. تحرّت بعينيها عن راعي القطيع الخارِق عندما جاء الخروف الأجمل إليها قافزاً ومتوثّباً. قال لها: «اقترِبي أيّتها الأميرة الفاتنة، لا تَخْشَي حيواناتٍ وديعةً مسالِمَةً مثلنا». هتفت الأميرَة: «يا للمعجزَة! خرافٌ تتكلّم!» فأجابَها: «لكن أنَسيتِ يا سيّدتي أنّ قردَتَكِ ودرواسكِ كانا يتكلّمان بطلاقة هما أيضاً ولم يكن هناكَ ما يدعوكِ للدّهشَة!».

فقالت باهِرَة: «ثمّة جنيّة منَحَتْهما القدرَة على الكلام. وهذا ما جعَلَ المعجِزَة مألوفة أكثرَ بالنسبَة إليّ». فأجابَها الخروف وهوَ يبتسم للنّعجة: «ربّما حصَلَت لنا تجربة مشابِهَة. ولكن مَن قادَ خطاكِ إلى هنا أيّتها الأميرَة؟» فأجابته: «ألفُ مصيبَةٍ يا سيّدي الخروف. أنا أتعسُ إنسانٍ في العالم. أبحث عن ملجأ أتقي فيه شرّ والدي»، فأجابَها الخروف: «تعالي يا سيّدتي، تعالي معي فأقدّم لكِ ملجأً لن يكونَ معروفاً إلاّ منكِ وتكونين فيهِ الآمِرَة النّاهيَة». قالت باهِرَة: «يَسْتَحيل عليّ اللّحاق بكَ فأنا أكاد أموتُ تعباً».

وأمَرَ الخروفُ ذو القرنَينِ الذّهبيّينِ أن يؤتى له بعرَبَته. وبعْدَ قليل منَ الوقت شوهِدَت ستّ عنزاتٍ تجرّ يقطينَة ضخمَة إلى حدٍّ عجيب بحيث يستطيع شخصانِ الجلوسَ فيها براحَةٍ تامّة. كانت اليقطينَة مجوّفَة وفي داخلِها مخدّات ووسائد من المُخمَل والرّيش. جلَسَت الأميرَة فيها معجبَة بتلك المركبة الجديدة. ودَخَل السيّد الخروف إلى اليقطينَة معها، وعَدَت العنزات بكلّ قوّتِها حتّى وصَلَت إلى أحَدِ

الكهوفِ وكانت تسدّ مدْخَلَه صخرَة كبيرَة.

لامَسَ الخروف الذّهبيّ الصّخرةَ بقدَمِهِ فسَقَطَت على الفور. طلب من الأميرَة أن تدخل دونَ خوف؛ ظنّت أنّ ذلك الكهف ليسَ فيهِ ما يُخيف، وإلاّ لما كان شيء يُرغِمُها على النّزولِ منَ العربَة. ولكن لشدّةِ التوجّسِ الذي كان يعتريها، كانت قادِرَة على رَمْيِ نفسِها في بئر.

لمْ تتردَد إذاً في اللّحاقِ بالخروف الذي كان يمشي أمامَها. وجعَلَها تنزِل وتتوَغّل نزولاً حتّى ظنّت أنّها ذاهبة إلى أقاصي الأرض. وكانت تخاف أحياناً من أن يقودها إلى مملكة الأموات. وأخيراً، اكتشفَت فجأةً أنّها في سهلٍ فسيحٍ نُثِرَت فيه ألفُ زهرَةٍ مختلفةٍ تفوق رائِحَتها الطيّبة كلّ أريجٍ تنشّقته من قبلُ. كان هناكَ جَدولٌ غزير من ماءِ زهر البرتقال يجري حولَ نوافير من إكسير إسبانيّ وألفِ صنفٍ آخر منَ المشروبات الحلوة المعطّرة تنهمِر شلاّلاتٍ وسواقيَ صغيرَة ساحِرَة. كانَ ذلك السّهل مكسوّاً بأشجارٍ فريدة. وكان هناك ممرّات مليئةٌ بفراخ الحجالِ المشحّمَةِ والمطهوّةِ، كما لو أنّ أفضل طاهٍ أعدّها، متدلّيةً منَ الأغصان. وكانَ هناك ممرّات أخرى ملأى بطيور السّمن والخرانق[1] والدّيوك الرّوميّة والدّجاج والدّيوك البريّة والأرطلانات[2]. وفي بعضِ الأماكنِ، حيث بدا الجوّ أكثر قتامَة، كان ثمّة قدورٌ من حساءِ السّلطعون، وكبدِ البطّ، واليخنَة المصنوعَة من لوزة العجل، والمقانق البيضاء، والنقانق، والمدوّرات[3] والفطائر والمربّياتِ المكثّفة والرّخوة، وتلالٌ من قِطَعِ اللويسيّات النقديّة

(1) جمع خرنق، صغير الأرنب.

(2) الأرطلان أو بلبل الشّعير.

(3) مدوّرَة: فطيرَة مستديرَة باللّحم أو السّمك.

والرّيالات واللآلئ والألماس. ولكنّ الخروف لم يأبه بكلّ تلك الخيرات ولم يبدُ عليه أيّ تأثّر لمرآها. ذلك أنّ جميع المدوّنات تحدّثت عنه مؤكّدَةً أنّه احتفظَ بتجهّمِهِ وكأنّه أحد أعضاء مجلس الشّيوخ في روما.

وبما أنّ الفصلَ حين وصَلت باهِرَة إلى تلك الأمكِنَة الجميلة كان يتزامَن مع أجمل فصولِ السّنة، فإنّها لم ترَ قصوراً أخرى إلاّ سلسلة طويلة من أشجارِ البرتقال والياسمين وزهرِ العسَل[1] والورود المِسْكيّة التي كانت أغصانُها المتشابِكة تؤلّف حجيْراتٍ وقاعاتٍ وغرُفاتٍ مفروشة بأستار شفّافة ذهبيّة وفضيّة، ومَرايا كبيرَة، وثريّات ولوحات بديعَة.

قال السيّد الخروف للأميرة إنّها سيّدة على تلك الأمكِنَة، وإنّه منذ بضع سنواتٍ حصَلت له أحداث محزنة ومبكية، لكنّه بات واثقاً من أنّها وحدها قادرة على تعزيته. قالت له: «إنّ الطّريقة التي تتصرّف بها أيّها الخروف السّاحر تتّسِم بسَخاءٍ لا حدود له، وكلّ ما أراه هنا يبدو لي خارِقاً فأحتار في الحكم عليه».

ولم تكد تنهي كلامَها هذا حتّى رأت أمامَها جوقَة منَ الحوريّات ذوات جمالٍ رائع. قدّمْنَ لها ثماراً في سِلالٍ من العنبر. لكن عندَما أرادَت الاقترابَ منهنّ، ابتعدت أجسادُهُنّ وتلاشت شيئاً فشيئاً. بسطت ذراعَها لتلمِسَهنّ فلم تشعر بشيءٍ وأدرَكَت أنّهنَ أطياف. هتفت: «ما هذا؟ بصحبَة مَن أنا؟» وأخذت تبكي. تعمّد الخروف ترْكَها لبضع لحظات لكنّه عاد قربَها إذ رأى دموعَها تنهَمر وتملّكته الحيرَة فأوْشَكَ أن يموت عندَ قدَميها.

قال لها: «ماذا دهاكِ أيّتها الأميرَة الجميلة؟ هل قلّلْنا في هذه الأمكنَة

---

(1) زهر العسَل: جنس جنبة معترشة دائمَة الخُضْرَة.

منَ الاحترام الذي تستحِقّينَه؟». فأجابت: «لا، لا أشتكي من شيء، أعترف لكَ فقط أنّني لست معتادَة على العيش معَ الأموات ومعَ الخرافِ التي تتكلّم. كلّ شيءٍ هنا يُخيفُني. ومهما يكن الجميل الذي أدينُ لكَ به لاصطحابي إلى هنا، إلاّ أنّني أدين لكَ بمعروفٍ أكبر إن أنتَ أرْجَعْتني إلى الحياة العاديّة».

فأجاب الخروف: «لا تجزَعي، تفضّلي واسمَعيني بهدوءٍ وستعرفين حكايتي المحزنَة».

وطَفِقَ يروي لها: «وُلِدْتُ على العرش خلَفاً لملوكٍ كثيرين سَبَقوني وأمّنوا لي امتلاك أجمل مملكةٍ في الكون. كان أفرادُ رعيّتي يحبّونني، وكنتُ مَخشياً ومحسوداً من جيراني ومقدّراً بحقّ. كانوا يقولون إنّه لم يسبق لملكٍ مثلي أن كانَ جديراً بهذا اللّقب. كان لشخصي تأثير في كلّ من يرَاني.

كنت أهوى الصّيد كثيراً، وذات يوم طاب لي أن ألحَقَ إيّلاً فابتعَدْتُ قليلاً عن كلّ الذين كانوا برفقتي. رأيته فجأةً يرتَمي في إحدى البحيرات فدفَعْت حِصاني بطريقة فيها كان من التهوّر بقدر ما فيها من الجرأة. لكن حين تقدّمتُ قليلاً، شعرْتُ بدَلاً من برودَة الماء بحرارةٍ فائقة. جفّت البحيرة ومن فتحَةٍ فيها راحت تتصاعد نيران هائلة، وسقطتُ في قعْرِ هاويَة لا تُرى فيها إلاّ ألسِنَة اللّهب.

«ظننتُني هالِكاً، وعندئذٍ سمعت صوتاً يقول لي: «أيّها الجاحِد يبدو أنّك تحتاج إلى مثل هذه النيران لتدفئ قلبك». فهتفتُ: «مرحى! مَن يشتكي هنا من برودَتي؟». فأجابَ الصّوت: «شخصٌ تعيس الحظّ يُحبّك دون أمل». وفي الوقت نفسه انطفأت النيران. ورأيتُ جنيّة كنت أعرفها منذ الطفولة، وكانت سنّها وقباحَتها ترعبانني على الدّوام. كانت متّكئة إلى جارية شابّة ذات جمالٍ لا يُضاهى وفي يديها

وقدَمَيها سلاسل ذهبيّة تشير إلى وضعِها. قلتُ لها: «ما هذا الأمر العجيب الذي يحدُث هنا يا وسواسة (لأنّ هذا كان اسم الجنيّة)؟ هل هذا يحصل بأمرٍ منكِ؟» فأجابتني: «ما بالك! وبأمرِ مَن إذاً؟ ألَم تدرك حتّى الآن حقيقة مشاعري؟ هل عليّ أن أشعر بالعارِ من شرْحِها لك؟ عيناي الواثِقتانِ فيما مضى من سحرِهما وسطْوَتِهما، هل فقَدَتا كلّ سلطان؟ انظرْ إلى أيّ مدىً اتّضعتُ واعترفتُ لك بضعفي، لكنْ اعلمْ أنّك حتّى لو كنت رجلاً عظيماً فأنت أقلّ من نملة بالمقارَنة مع جنيّة مثلي».

«فقلتُ لها بنبرَةٍ نافِدَة الصّبر: «سأفعَل كلّ ما يحلو لكِ. ولكن في النّهاية ماذا تريدين منّي؟ هل تريدين تاجي، مُدُني، كنوزي؟»، فأجابت بازدراء: «يا لك من بائس، حين أريد يصبح طبّاخي أكثر جبروتاً منك. أريد قلبك. لقد طلبَته عيناي ألفَ ألفِ مرّة ولم تستمع إلى طلبهما، أو بالأحرى، لم تَشأ الاستماعَ إليهما. إذا كنتَ مرتبطاً بواحِدَة فسوف أدعكَ تحرزُ تقدّماً في غرامِيّاتك. لكنّي حرصت أشدّ الحرص على أن أنيرَكَ لكي تكتشف اللاّمبالاة التي تسود في قلبك». ثمّ أضافت وهي تزمّ شفتيها لتجعَل فمَها أكثر إثارَة وتُقلّب عينيها إغراءً: «حسناً، أحببْني، سأكون حبيبتك وسواسة، وسأضيف عشرين مملكة إلى مملِكتك، ومائة برج مليءٍ بالذّهب وخمسمائة برج آخر مليء بالفضّة، وباختصار سيكونُ لك كلّ ما تريد».

«فقلتُ لها: «يا سيّدة وسواسة، يصعب عليّ وأنا في عمق هذه الحفرَة التي تكْويني بلهيب نارها أن أعلِنَ الحبّ لشخص بمثل مقامك. أتوسّل إليكِ بكلّ المفاتن التي تجعلك محبوبة أن تعتِقيني، ومن ثمّ نرى معاً ما بإمكاني أن أفعل لإرضائك». فهتفتْ: «آه، أيّها الخائن!، لو كنت تحبّني لمّا سَعَيْتَ للعودة إلى مملكتك، ولَكنتَ

سعيداً في مغارة، وفي جحْرِ ثعلب، وفي الغابات، والصّحارى. لا تظنّ أنّني جنيّة مبتدِئة. أنتَ تفكّر في التملّص منّي، لكنّي أحذّرك بأنّ عليك البقاء هنا، وأوّل شيءٍ ستفعله هوَ أن تحْرس خرافي التي تتحلّى بالذّكاءِ وتتكلّم بِطلاقة كمثلك أنت».

«وعلى الفور، تقدّمتْ في السّهل حيث كنّا ودَلّتني على قطيعِها. لم أهتمّ به. وبدَت لي الجارية الجميلة التي كانت قربها رائعَة. خانتني نظراتي. انتبهَت وسواسة المتوحّشة لإعجابي بها فانقضّت عليها وغرزت في إحدى عينيها مشْبكَ شَعرِها وأمعنت في غرْزه حتّى فارَقَت تلك الفتاة الرّائعة الحياةَ في الحال. وعندما رأيتُ ذلك المشهد المشؤوم، ارتَميتُ على وسواسة منتَلاً سيفي وكنت سأضَحّي بها لأرواح موتى غالية عليّ لو أنّها لم تُجمّد بقدرَتها كلّ قدرة فيّ. كانت جهودي بلا طائل وسقطتُ أرضاً وأنا أبحث عن وسيلة لأقتلَ نفسي وأتحرّرَ منَ الحال التي وجدتني فيها. عندئذٍ قالت لي بابتسامَة هازِئة: «أريد أن أجعلكَ تعرِف قدْرَتي. أنتَ الآن أسَدٌ وسوف تصبِح خروفاً».

«ثمّ لَمَستني بِعَصاها السّحريّة فانْمسختُ إلى الخروف الذي تجدينه الآن أمامك. لم أفقد القدرَة على النّطق ولا مشاعر الألم التي تنتابني من جرّاء امتِساخي. قالت لي: «ستَظَلّ خروفاً لمدّة خمس سنوات وسيّداً مطلقاً على هذه الأمكنة الجميلة. وفيها أنا بعيدة عنك وفيها لا أعود أرى وجهك الجميل لَن أفكّر إلاّ بالحقدِ الذي أضْمِره لَك».

«واختَفَتْ. وإذا كان ثمّة شيء بإمكانه أن يلطّف عاري فهوَ غيابها. والخِراف النّاطقة هنا اعترفت بي مِلكاً عليها، وأخبرتني أنّها كانت فيما مضى أناساً لسوء حظّهم لم يروقوا من نواح عدّة للجنيّة المنتقمة فجعلتْ منهم قطيعاً. أمّا فترات عقوبتهم فَهيَ متفاوتة.

وبالفعل، من وقتٍ إلى آخر، يعودونَ إلى ما كانوا عليه ويتركون القطيع. هناك أيضاً منافسات أو عدوّات لوسواسة حكمتْ هي عليهنّ بالموت لقرْنٍ أو أقلّ ومن ثمّ يَعُدنَ إلى العالم. الجارية الشّابة التي حدّثْتكِ عنها هي في هذا العِداد.

«رأيتُها لاحِقاً مرّات متتالية عديدة واستمتعتُ بمرآها مع أنّها لم تتحدث إليّ وحين أردتُ الاقتراب منها ساءني أن أعرف أنّها لم تكن سِوى طيف. ولكنّي، إذ لاحَظت أنّ أحَدَ خرافي كانَ ملازِماً لذلك الطّيف الصّغير، عرفتُ أنّه كان عشيقها، وأنّ وسواسة التي تستفزّها مشاعر الحبّ أرادَت انتزاعَه منها.

«هذا ما دفعني للابتعاد عن طيف الجارية. ومنذ ثلاث سنوات لا يشغلني إلاّ استعادة حريّتي.

«وهذا ما يدفعني للذّهاب أحياناً إلى الغابة. رأيتكِ هناك أيّتها الأميرة الجميلة، تارةً على عربة كنتِ تقودينَها بنفسك ببراعة تفوق براعة الشّمس حين تجرّ مركباتها، وتارةً أخرى ممْتَطِيَةً حِصاناً يبدو شَموساً يتمرّد على كلّ مَن يريد أن يمتطِيه سواك، ثمّ رأيتكِ تركضينَ بخفّة في السّهل مع أميراتِ البَلاط وتفوزينَ بالجائزَة وكأنّك آتالانتا[1] أخرى. آه! أيّتها الأميرة، لو أنّني، خلال كلّ تلك الأوقات التي كان فيها قلبي يُخاطبكِ سرّاً وبصَمتٍ، تجرّأتُ على التحدّث إليك، لكنتُ قلت لكِ أرقّ القول وأعْذَبَه! ولكن أنّى لكِ أن تتلقّي تصريحاً بالحبّ من خروف بائسٍ مثلي؟»

كانت باهِرَة مضطربة من جرّاء كلّ ما سمِعَتْه حتّى تلك اللّحظة، ولم تكن تعرف بِما تجيبه. ومعَ ذلك، قالت له أقوالاً مجامِلة ترَكت في

---

(1) آتالانتا: شخصيّة أسطوريّة في الميثولوجيا الإغريقية، يُروى أنّها كانت صيّادة سريعة الجري، وقد وضَعَت على كلّ مَن يريد أن يتزوّجها شرطاً هو أن يسبِقَها في الرّكض.

نفسه شيئاً منَ الرّجاء، وقالت له إنّها باتت أقلّ خوفاً منَ الأطياف لأنّها لا بدّ أن تعود إلى الحياة يوماً. ثمّ تابعت: «يا للأسف! لو أنّ باتيباتا المسكينة وغرابوجون العزيزة وتان-تان الجميل الذين ماتوا في سبيل إنقاذي يستطيعونَ أن يلقوا مصيراً مشابِهاً، لما كنت أشعر بالسّأم هنا».

وبالرّغم من فقدانِ الخروفِ الحظوَةَ، فهو كان ما يزال يمتلك امتيازات مدهِشَة. قال للقيّم على الخِراف[1] (وكان خروفاً قويّاً ممتلئاً عافيَةً): «اذهبْ وأحضرِ الوصيفة الموريتانيّة والقردَة والدّرواس، فإنّ أطيافهم ستكون سلوى للأميرة». وبعد لحظة، رأتْهم باهِرَة، ومع أنّهم لم يقترِبوا بما يكفي لكي تلمسهم، إلاّ أنّ حضورهم حملَ إلى قلبها العزاء والسّلوان.

كان السيّد الخروف يتّسِم بكلّ الذّكاء وكلّ الرّهافة اللّذين يخوّلانه إجراء أحاديث طريفة. كان يحبّ باهرَة بشغفٍ كبيرٍ ما جعلَها تحترمُهُ بادئ ذي بدءٍ ثمّ تحبّه. إنّ خروفاً جميلاً، عذباً جدّاً وملاطِفاً، لا يمكنه إلاّ أن يثيرَ الإعجاب، لا سيّما عندما نعرف أنّه ملك وأنّ الامتِساخ لا بدّ أن ينتهي.

وهكذا أمضت الأميرة أيّامَها الحلوة بهدوءٍ منتظِرَةً مصيراً أفضل. لم يكن الخروف المتودّد يهتمّ إلاّ بها. كان يقيم الاحتفالات والحفلات الموسيقيّة وحفلات الصّيد، يساعده في ذلكَ قطيعُهُ، وحتّى الأطياف تؤدّي فيها أدوارَ شخوصِها.

وذات يوم وصَلَ سُعاة البريد، لأنّ الخروف كان يبعث دوماً رسُلاً لمعرفة آخر الأخبار. وكانت تصله أفضلَها. قيلَ له إن الأخت البِكر للأميرة باهِرَة سوف تقترِن بأميرٍ كبيرٍ وإنّ الاستعدادات التي

(1) واضح أنّ هذه الوظيفة تقابل وظيفة كبير سائسي خيول الملك.

تُقام للعرس لم يسبق لها مثيل. عندئذٍ هتفت الأميرَة الشابّة قائلة: «آه! ما أتعسَ حظّي، لن أستطيعَ مشاهدَة زفاف بهذه الرّوعة! ها أنا تحت الأرض مع الأطياف والخِراف فيما شقيقتي ستظهر متزيّنة كملكة. سيتغزّل الجميع بها وأنا سأكون الوحيدة التي لن أشاركَها فرْحَتَها». فسألها ملك الخِراف: «ممّ تشتكينَ يا سيّدَتي وهل منعتُكِ منَ الذّهاب إلى الزّفاف؟ ارحَلي متى شئتِ، لكن عِديني بأنّكِ ستعودين. وإذا لم توافقي على ذلك فسَترَيْنَني صريعاً عند قدمَيك، لأنّ الحبّ الذي أكِنّه لكِ هو من القوّة بحيث لا يمكنني أن أخسَرَكِ دونَ أن أموت».

رقّ قلبُ باهِرَة لحاله، فوعَدَت الخروفَ بأن لا شيء في العالم يمكنه أن يَحولَ دون عودَتها. وأمدّها الخروف بموكِب جدير بأصْلِها النّبيلِ. ارتدت ثياباً مذْهِشَة، ولم تنسَ شيئاً ممّا يستطيع أن يزيدَ جمالَها جمالاً. وصَعَدَت في عربة مصنوعَة من عروق اللؤلؤ، وتجرّها ستّة أحصنة طائرة غبْساء[1] وصلَت حديثاً من أقصى الدّنيا. وجعلَ الخروف عدداً كبيراً منَ الموظّفين المرْتدين ثياباً فاخرَة ومتْقَنَة الصّنع مرافِقين لها. لقد جاء بهم من مَكانٍ بعيدٍ جدّاً ليؤلّفوا الموكب.

وصلتْ إلى قصرِ والدِها الملك في اللّحظةِ التي كانَ يُقام فيها الزّفاف. ما إنْ دَخلَت حتّى أدْهَشَت كلّ مَن رآها ببهاءِ جمالها وسناءِ الأحجار الكريمة التي تزيّنها. لم تكن تسمع من حولِها إلاّ الهتاف والمدائح. نظر إليها الملك بانتباه ومتعة جعلاها تخشى أن يتعرّف إليها. لكنّه كان أُخْطِرَ بموْتِها فلم يخطر ببالِهِ قطّ أن تكون ابنته.

ومع ذلك، فإنّ خوفَها من أن تُعْتَقَلَ منَعَها منَ البقاءِ حتّى نهايَة الاحتفال. خرجت فجأةً، وتركَت دُرْجاً صغيراً منَ المرجانِ المزيّنِ

---

(1) غبْساء، مذكّر أغبَس، من الغُبْسة، وهو حسبَ لسان العرب لوْن بين السّواد والصُّفرة.

بالزمرّد، نُقِشَ عليه بحروفِ منَ الألماس: «أحجارٌ كريمَة للعروس».
وفُتِحَ الدُّرج في الحال، وما هي الجواهر التي لم تكن موجودَة فيه؟ إنّ الملك الذي كان يأمل موافاة المدعوّة ويتحرّق للتعرّف إليها، أصابَه القنوط لغيابها عن ناظِرَيه. أمَرَ فقط، في حالِ عودَتِها، أن تُغْلَقَ الأبوابُ خلْفَها وأن يتمّ إبقاؤها.

مَهما يكن غياب باهِرَة قصيراً إلاّ أنّه بدا للخروف بمثابة دهْر. كان ينتظرها عند ضفّة أحدِ الينابيع، في عمقِ أعماقِ الغابة. وهناك بسط أمامها ثروات هائلة لِيَهْدِيَها إيّاها امتناناً على رُجوعِها. ما إن رآها حتّى جرى نحْوَها، قافِزاً ومتوثّباً مثل خروفٍ حقيقيّ. وأغدَقَ عليها المداعَبات الحنونة واضطجَعَ عندَ قدَمَيها، وقبّلَ يديها وأخبرها بشجَنه ونفادِ صبره. كان شغفه يمدّه بفصاحةٍ فتَنَت الأميرَة.

وبعدَ فترَةٍ قصيرة، زوّج الملك ابنته الوسطى. علِمَت باهِرَة بذلك، وتوسّلَت إلى الخروفِ بالسّماح لها بالذّهاب، كما فعَلَت سالِفاً، إلى حفل يكتسي أهمّيّة قصوى بالنسبة لها. عندئذٍ أحسّ الخروف بألم يفوق طاقته على الاحتمال وبِشعورٍ خفيّ ينبئه بكارِثةٍ وشيكة. ولكنْ ليسَ في مقدورِنا تجنّب الشّقاء، ثمّ إنّ الخروف لم يكن قادراً على ردّ طلب للأميرة فمودّته لها كانت فوق كلّ الاعتبارات الأخرى. قال لها: «تريدينَ أن تتركيني يا سيّدتي، وما ألقاه من شقاء آتٍ من قدَري اللّعين وليس منكِ. أوافق على تحقيق أمنيتك ولا أستطيع أبداً أن أقومَ لكِ بتضْحَيَةٍ أعظم منها».

أكّدَت له أنّها لن تتأخّرَ أكثر منَ المرّة الأولى، وأنّها ستشعر بألم شديدٍ من جرّاء كلّ ما يبعدُها عنه، واستَحْلَفَته ألاّ يقلق. استخدَمَت الموكب نفسَه الذي رافقها من قبل، ووصلَت لدى بدء الاحتفال. وبالرّغمِ منَ الانتِباه الذي كان موجّهاً إلى الحفل، إلاّ أنّ حضورَها

انتزع صيحاتِ الفرحِ والإعجاب، واجتذَبَت أنظار جميع الأمراء نحوَها. لم يكونوا يملّون النّظر إليها ووجدوها على جمالٍ غيرِ مألوف.

شعَرَ الملك بالبَهْجَة العامِرَة لرؤيتِها مجَدّداً. لم ينزَع عينيهِ عنها إلاّ لكي يوجّه الأوامِرَ بإغلاقِ جميعِ الأبوابِ لاحتِجازِها. وعندما صار الاحتفال على وشَك الانتهاء نهضت الأميرَة بسرعَة وأرادَت الاختِفاء عبرَ الحَشْدِ، لكنّها أصيبَت بِدَهشَةٍ عميقَةٍ وحزنٍ شديدٍ عندما وجَدَت الأبوابَ مغلقة.

اقترَب الملك منها باحترام جليلٍ وخضوعٍ فشعرت بالاطمئنان. توسّل إليها ألاّ تغادر بسرعةٍ وتحْرِمَهم لذّةَ رؤيَتِها ومشارَكَتها في الوليمَة الفخمة التي كانت تقام للأمراء والأميرات. وقادها إلى باحة استقبالٍ بديعةٍ اجتمَعَ فيها كلّ أفرادِ الحاشيَة. واتّخذ هوَ نفسه طسْتاً منَ الذّهب وإبريقاً مليئاً بالماءِ ليغسِلَ يديها الجميلتين. وفي تلك اللّحظة بالذّات، شعرَت وكأنّها في حالةِ انخطافٍ فارتَمَت عندَ قدَميه وقبّلت ركبَتيهِ قائلة: «ها إنّ حلمي قد تحقّق، لقد ساعدتَني لأغتسِلَ يوم زفافِ أختي، دون أن يحْدُثَ أمرٌ بغيض».

وتعرّف إليها الملك بسهولة كبيرَة لأنّه ألفاها عندئذٍ تشبه تماماً ابنته باهِرَة. قال لها وهوَ يُقَبّلها ذارِفاً الدّموع: «آه يا ابنتي العزيزة! هل بإمكانِكِ نسيانُ الذّنب الفظيع الذي اقترفتُه حيالك؟ لقد أردتُ موتَكِ لأنّني ظنَنتُ أنّ حلمَكِ يعني خسارَة تاجي. وكان يعني هذا أيضاً: ها إنّ أختَيكِ تزوّجَتا ولكلّ واحِدَة منهما تاج، وتاجي أنا سيكون لكِ». وللحال، نهض ووضَعَ التّاجَ على رأسِ الأميرَة ثمّ هتف: «تحيا الأميرة باهِرَة!»، وهتف خلفَه البلاط كلّه. وجاءَت شقيقتا هذه الملكة اليافِعَة وعانقتاها بحَرارة ودَلّلَتاها كثيراً. طارَ فؤاد باهِرَة فرَحاً لدرجَة أنّها لم تعد تعرف ماذا تفعل: كانت تبكي

وتضحَك في الوقت نفسه، ثمّ تقبّل شقيقتَها الأولى وتتحدّث إلى الأخرى، وتشكر الملك. ووَسَط فرحة اللقاء تلك وما خالجها من انفعالات، تذكّرَت قائد الحرَس الذي كانت تدين له بالكثير، وسألت عنه بإلحاح ولكن قيل لها إنّه توفّي: فشعَرَت بألمٍ عميقٍ من جرّاء موته.

وعندَما جلَسَت إلى المائدَة، توسّل إليها الملك أن تخبرَه ما حدَث معها منذ اليوم الذي أعطى الأوامر المشؤومَة لقتلها. وللفور بدأت الكلام بطلاقة أدهشت الجميع.

ولكن، فيما تناسَت نفسَها بالقرب من الملك وشقيقتَيها، كانَ الخروف العاشق يحتسِبُ السّاعات التي تمرّ على عودَة الأميرَة دقيقة بعد أخرى ويتفاقم معها قلقه وانشغال باله، حتّى إنّه فقدَ السّيطرَة على رباطَة جأشِه. هتفَ: «لم تعد تريد العودَة، إنّ هيئتي البائِسَة كخروفٍ لا تروق لها. آه! يا لي من عاشِقٍ تعيس الحظّ ماذا سأفعل من دونِ باهِرَة؟ يا وسواسة، أيّتها السّاحرَة البرْبَريّة، أيّ ثأرٍ عظيم ثأرْتِهِ لنفسِكِ لعدم اكتراثي بك؟ وندبَ حظّه التعس طويلاً. وإذ رأى أنّ اللّيل كان يقترب وأنّ الأميرَة لم تعدْ بَعدُ فقد هُرِعَ إلى المدينة. وعندَما أصبحَ في قصرِ الملك، سألَ عن باهِرَة، ولكن بما أنّ الجميع بات عالماً بقصّته مع الأميرَة ورافضاً لعودَتها مع الخروف، فقد حُظِرَت عليه رؤيَتها وسُدّت كلّ المنافذ في وجهه. كانت شكواه ولوعته قادرتين على استعطاف أيٍّ كان، إلاّ الجنود الذين يحرسون باب القصر. وأخيراً، ارتمى أرضاً وقد رَزَحَ تحت وطأةِ ألمه، وفارَق الحياة.

كان الملك والأميرة باهِرَة غافلين عن المأساة الحزينة التي حصَلَت للتوّ. واقترَحَ الملك على ابنتِهِ الصّعود في العربة ليطوفا معاً في جولة

في أنحاءِ المدينة على ضوءِ آلافِ المشاعِلِ التي كانت عند النّوافذِ وفي السّاحات الكبرى. ولكن أيّ حزنٍ انتابَها عند خروجِها منَ القصر عندما رأت خروفها العزيز ممدّداً على الرّصيفِ جامِداً بِلا حراك؟ نزَلت منَ العربَة مسْرِعَة وهُرِعَت إليه، بَكت وانتحَبَت وعرفت أنّ عدَم التزامِها بالدقّة في موعدها تسبّب في وفاةِ الخروف العظيم. وفي خِضَمّ يأسِها، أوْشَكت أن تموت هيَ نفسها. فوافق الجميع على الفكرة القائلة إنّ الأشخاصَ الأرْفَعَ مَقاماً عرْضَة كالآخرين لضربات القدر وإنّهم يكابِدونَ أشدّ الآلام في اللّحظة التي يعتقدون فيها أنّهم في أوج السّعادَة:

غالِباً ما تتسبّب أجملُ هِباتِ السّماء
في هلاكِنا
نسألُ تمامَ النّعمة
فنستحقّها حزناً وألماً
كان السيّد الخروف سيتألّم أقلّ
لو لم يضرمْ في قلبه ذلك الحبّ المحتوم
فانتقمَت وسواسة منه ومن المرأة خصْمها،
كان شغفُه سببَ هلاكه.

كانَ في مقدوره أن يلاقي مصيراً أفضل؛
لكنّه لم يأبه للجنيّة وسواسة ولا لعطاياها،
كان يكرَه دون كذب ويحبّ دون تصنّع
ولا يشبه بشيءٍ رجالَ اليوم،
لا بَل إنّ نهايَتَه تبدو لنا في منتهى الفرادة

نهايةٍ لا تليق إلاّ بمَن هو مثلَه.
أنّى لنا أن نَرى في هذه الأصقاع خروفاً
يموت إذا أضاعَ نعجَته!



«رهيفة أو فتاة الرّماد»، للرسّام جوزيف مارسيل بروتون

Joseph Marcel Breton, 1904

رهيفة أو فتاة الرّماد

كانَ يا ما كان، كانَ هناكَ ملكٌ وملكَة لمْ يُفْلِحا في إدارَةِ شؤونِ مَمْلَكَتِهما فَطُرِدا منها. باعا تاجَيْهما ليَعيشا، ثمّ ثيابَهما وما لديهما من دانتيلاّ وكلّ الأثاثِ قطعَةً قطعَةً حتّى مَلَّهم تُجّار المستَعمَلات والرّثّاثون، ففي كلّ يوم كانا يبيعانهم شيئاً جديداً. وعندَما صارا في حالٍ منَ الفقرِ المُدقع، قال الملك لزَوْجَته:

- ها قَد أُبعدنا عن مَمْلَكَتنا، ولم يعُدْ لدَينا ما نَمْلكه. يجب أن نكسب رزقنا ونعيل أوْلادنا المساكين. فكّري قليلاً في ما نستطيعُ فعلَه لأنّني حتّى اليوم لمْ أعْرف إلاّ مهنَةَ الملكِ وهيَ مهنةٌ ليسَ فيها شظَف.

كانت الملكة ذكيّة جدّاً. طلبَت منهُ أن يمْهِلها ثمانيَة أيّامٍ للتّفكير. وعندَ انقضاءِ تلك المدّة، قالت له:

- يا سيّدي. لا تحزَن. ليسَ عليك إلاّ أن تعدّ الشّباكَ وتذْهب لاصطيادِ العَصافيرِ والأسْماك. وعندما تبلى الخيوطُ أحيكُ لك سواها. أمّا في ما يختَصّ ببَناتِنا الثّلاث فهُنّ كسولات صراحَةً ويعْتَقِدْنَ أنّهنّ لا يزلن من الأشراف ويُرِدْنَ أن يبْدونَ بمظهر الأميرات. يجب اصطحابُهُنّ إلى البَعيدِ البعيد، إلى مكانٍ لا يسْتَطِعْنَ العودَة منه أبداً. لأنّه يَسْتحيلِ علينا أن نؤمّن لهنّ ملابسَ تَليق بِذَوْقِهنّ.

أخذ الملكُ يبْكي عندما شعَرَ أنّه مضطرّ للافتراقِ عن بناته. كانَ أباً صالِحاً لكنّ الملكةَ كانت هيَ الآمِرَة النّاهِيَة. لِذا كانَ يوافِقُ دوْماً على كلّ ما تُريدُه. قال لها:

- انْهَضي صباحاً واصطَحِبي معكِ بناتكِ الثّلاث إلى حيث ترَيْنَه ملائِماً.

وفيما كانا يدَبّرانِ هذه المؤامَرَة، كانت الأميرَة رهيفة، وهيَ الأصغَر سنّاً بينَ البنات تستمِعُ إليهما من ثقبِ القفل. وعندَما علِمَت بخطّةِ والِدِها ووالِدَتها ذهَبَت بأسْرَعِ ما يمكن إلى مغارةٍ كبيرَةٍ بعيدَةٍ جدّاً عن المنزل حيث تسكُنُ الجنيّة ميرلوش[1] عرّابَتها.

أخذت رهيفة مقدار رطلٍ منَ الزّبدَة الطازَجَة وبيْضاً وحليباً وطحيناً لتصنَعَ كعْكَة شهيّة لِعَرّابَتِها فتُحسن هذه استقْبالَها. بدأت رحلَتَها ببَهْجَةٍ لكنّها كلّما تابَعَت سيرَها أحَسّت بالتّعب. حُفَّ حِذاؤها حتّى انثقبَ، وتجرّحت قدَماها الصّغيرَتان النّاعِمَتان بجروحٍ بالِغَةٍ إلى حدّ أنّ مَن يَراها كان يُشْفِقُ عليها، ولم يعدْ بإمْكانِها الاستمرار في المَسير. جلَسَت على العشب باكِيَة.

ومرّ من هناك حصان إسبانيّ جميل مُسرَج ومُلجَم. وكان منَ الألماس على غطاءِ سرجِهِ ما يكفي لشراءِ ثلاثِ مدُنٍ وأكثر. عندَما رأى الأميرة، بدأ يَرعى بهدوءٍ قرْبَها، ثمّ طوَى ركبتَيه وكأنّه ينحَني لها احتِراماً، فأمْسَكَتْه من لِجامِهِ في الحال، وقالت له:

- يا حصاني اللّطيف، هل لكَ أن تأخذَني إلى عندِ عرّابَتي الجنيّة، ستُسدي لي بذلِكَ خدمَةً جليلةً لأنّني منْهَكَة حتّى الموت. وإذا فعَلت ما أطلبه منك فسوْفَ أقدّم لك أجْوَدَ الشّوفان والشّعيرِ والقشّ الطّريّ لتَنام.

انْحَنى الحصان حتّى لامَسَت ركبتاه الأرض واعتَلَته الفتاة الصبيّة وراحَ يعْدو خفيفاً خفيفاً وكأنّه عصفور. إلى أن توقّف عندَ مدْخَلِ المغارَة وكأنّه يعرف الطّريق. وبالفعل كانَ يعرفه لأنّ ميرلوش، وقد حدَسَت أنّ ابنتها الرّوحيّة تُريدُ رؤيَتَها، أرْسَلت إليْها ذلك الحِصانَ الجَميل.

---

(1) هو بالأصل اسم السّمكة المعروفة بسمكة المؤرة.

لدى دخولِها، انْحنَت أمامَ عَرّابَتِها ثلاث مرّاتٍ ثمّ أمسَكَت أسْفَلَ ثوْبِها وقبّلته.

قالت لها:

- صباح الخير يا عَرّابتي، كيف حالك؟ هاك زبدةً وحَليباً وَطَحيناً وَبَيضاً جِئتكِ بها لكَي أصنَعَ لكِ كعْكة لذيذَة على طريقَة بلادِنا.

قالت لها الجنيّة:

- أهلاً وسهْلاً بكِ يا رهيفة. تَعالي أقبّلك.

وقبّلتها مرّتين. سُرّت رهيفة لتينك القبْلَتينِ لأنّ السيّدة ميرلوش لم تكنْ جنيّة كَغَيْرِها منَ الجنيّات. قالت لها:

- على هذا يا بنيّتي، أريدُ أن تكوني وصيفَتي. حُلّي شَعْري وأعيدي تَسريحَه.

حلّت الأميرَة شعْرَها وسرّحَته بأناقَةٍ رفيعة.

قالت ميرلوش:

- أعرف جيّداً لماذا أتَيْتِ إلى هُنا. استمَعتِ إلى الملكِ والملكةِ اللّذَين يريدانِ اصطِحابَكنّ أنتِ وأختيكِ لإهْلاككنّ، فأرَدتِ تجَنّبَ الكارثة. هيّا، خذي كبّة الخيوط هذه التي لا تنقطعُ أبداً. أوْثِقي طرَفَ الخيطِ ببابِ منزلكنّ وأمْسكيه بيدك. حينَ تتخلّى عنكنّ الملكة سيَسهل عليكنّ العودَة باتّباع الخَيط.

شكرَت الأميرَة عرّابَتَها التي ملأت لها كيساً منَ الثّياب الجميلَة المزْدانَة كلّها بالذّهب والفضّة. قبّلتها وَأُصْعِدَت الفتاة على الحِصانِ الجَميل، وفي غضونِ لَحْظَتينِ أو ثلاث أعادَها عندَ بابِ البيتِ الصّغيرِ حيث يَقْطُنُ جلالَتا الملك والملكة. قالت رهيفة للحصان:

- يا صديقي العزيز، أنت جميل وهادئ جدّاً. تمْضي بأسْرَع منَ النّور. أشكرُكَ على جُهْدك. عُدْ إلى حيث أتيْت.

دخلَت إلى المنزلِ خِفيَةً وخبّأت كيسَها تحت سريرها. رَقَدَت وكأنّ شيئاً لم يكن. وعندَما طلَعَ النّهار، أيقَظَ الملك زوجَتَه وقال لها:

- هيّا، هيّا يا سيّدَتي تحَضّري للسّفَر.

ونَهَضَت في الحال. انتعَلَت حِذاءَها الضّخمَ وارْتَدَت تنّورَةً قصيرَة وصداراً أبيض بِلا حِزام وأمْسَكَت بعَصا. اسْتَدْعَت كبْرى بناتِها وكانت تُدعى زهرة الحبّ، والثّانيَة وتدعى جميلَة اللّيل والثّالثة رَهَيفة لسَمعها المرهف.

قالت الملكة:

- حلُمْتُ هذه اللّيلة أنّ علينا الذّهاب لرؤيَةِ شقيقَتي. سوف تُطْعِمُنا ما لَذّ وطاب. وسنأكلُ ونلهو بقدرِ ما يحلو لنا.

زهرَة الحبّ التي كانَت يائِسة من هذهِ الحياة الموحشة قالت لأمّها:

- هيّا، يا مولاتي، لنَذهَبْ حيثُ شئتِ. المهمّ هو التنزّه وكلّ ما عَداه لا يهمّني.

وقالت شقيقَتاها مثلها. ثمّ استأذِنَّ منَ الملك، وها هنَّ أرْبعتُهُنّ باشرْنَ المَسير. وسرْنَ بعيداً، ما أشعَرَ رهيفة بخوْفٍ كبيرٍ من نَفادِ الخَيوط، فهُنّ اجْتَزْنَ ما يُقاربُ ألفَ فَرْسَخ، وكانَت تمشي خلْفَهُنّ دوماً ممرِّرَةً الخيطَ بلباقَةٍ بينَ الجنبات.

وعندَما ارْتأت الملكة أنّ بناتِها لم يعُد بإمكانِهنّ العثورُ على طريق العودَة، دخلَت إلى غابَةٍ كبيرَةٍ وقالت لهنّ:

- يا نَعَجاتي الصّغيرات، ارقُدْنَ هنا. وأنا سأحرسُكُنّ كالرّاعيَة التي تحرُسُ نعجاتها لئلاّ يأكلهنّ الذّئب.

واضطجَعْنَ على العشبِ وخَلَدْنَ للنّوم. غادرَتْهنّ الملكةُ معتقِدَةً أنّها لنْ تَراهُنّ أبداً من جديد. أغمَضَت رهَيفة عينيها لكنّها لم تَنَم.

قالت:

- لو كنت فتاةً شرّيرَة، لذهبتُ في الحال، تاركةً أخْتَيّ تموتان هنا لأنّهما تضربانني حتّى ينزِف منّي الدّم. لكن بالرّغمِ من كلّ خبْثِهما، لا أنْوي التخلّي عنْهما.

ثمّ أيقظَتهما وروَت لهما القصّة كلّها. وبدأتا بالبكاءِ متوسّلتينَ إليها لكي تصطحِبَهما معها ووعَدَتاها بأن تعْطِياها دُماهما الجميلَة وعُلَبَ أدواتها الفضيّة، وألعابهما الأخرى وحبّات الملبّس التي في حوزتهما.

قالت رهيفة:

- أعرف جيّداً أنّكما لن تنَفّذا وعودَكُما لكنّ هذا لن يمنَعَني من أن أكونَ أختاً حنوناً.

نهضَت وتَبِعَت الخيطَ وتَبِعَتها الأميرَتان، ووصَلْنَ في الوقْتِ نفسِهِ الذي وصَلَت فيه الملكة تقريباً.

عندَما توقّفْنَ عندَ البابِ سَمِعْنَ الملكَ يقول لزوجته:

- قلبي منْقَبِضٌ لرؤيتِكِ تعودين وحيدَة.

قالت الملكة:

- وماذا تريدين أن أفْعَل؟ كانَ وجود بناتِنا يُرْبِكُنا كثيراً.

قال الملك:

- ليْتَكِ اصطَحبْتِ معَكِ رهيفة. كان هذا سيُعَزيّني عن خسارَة شقيقَتيها لأنّهما كسولتان ولا تُحِبّانِ شيئاً.

قرَعْنَ على الباب: طق... طق... طق...

قال الملك:

- مَن هناك؟

فأجَبْنَ:

- بناتُكما الثّلاث، زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل ورهيفة.

أخذَت الملكَة ترتَجِف وقالت:

- لا تفتَح. لا بدّ أنّ هذه أشباحٌ، لأنّ منَ المُسْتَحيلِ أن تستطيع بناتنا العودَة.

كانَ الملك جباناً كزَوْجَته. قال:

- أنْتُنّ تخدَعنَني، لسْتُنّ بناتي.

لكنّ رهيفة كانَت لبِقَة وقالت له:

- يا أبتِ سأخفِضُ رأسي. انظر إليّ من ثقبِ الباب، وإذا لم أكن رهيفة فاجْلِدَني بالسّوط إذا شئت.

نظَرَ الملك من الثقب فتعرّف إلى ابنَتِه وفتَحَ لهنّ. تظاهَرَت الملكَة بالسّرور لرؤيتِهنّ. وقالت لهنّ إنّها نَسِيَت شيئاً ما وجاءَت لتبْحَثَ عنه لكنّها كانَت بالتّأكيدِ ستذهب لموافاتهنّ. تظاهَرْنَ بتصديقِها وصَعَدْنَ إلى عِليّةٍ صغيرَةٍ جميلَةٍ حيث رَقَدْن.

قالت رهيفة:

- والآن يا أختَيّ، وعَدتُماني بدُمية، أعطِياني إيّاها.

فقالتا لها:

- أيّتها الماكِرَة الصّغيرَة، ليس عليكِ إلاّ الانتظارُ إلى ما شاءَ الله. أنتِ السّبَب في أنّ الملك لم يتحسّر على فقْدانِنا.

وعَلى هذا، أخَذَتا مغزَلَيْهما وبدأتا تَضرِبانها ضرْباً مبْرِحاً. ذهبَت للنّوم لكنّها لم تستَطع لكثْرَةِ الجروحِ والنّدوب المتورّمة. عندئذٍ سمِعَت الملكة تقول للمَلك:

- سأصْطَحِبُهُنّ إلى الجهَة الأخرى، إلى مسافَةٍ أبْعَد، وأنا أكيدَة من أنّهنّ لن يعُدْنَ أبَداً.

وعندَما سمِعَت رهيفة بهذِهِ المؤامَرَة، نهضَت ببطءٍ لتَذهَبَ من جديدٍ لزيارَة عرّابَتِها. دخَلَت إلى قنِّ دجاجِ أهلِها واستَلَّت دجاجَتينِ وديكاً فلوَت عُنُقَه وأرْنَبَيْنِ، كانت الملكة تغَذّيها بأوراق المَلفوفِ لكي

تتلذّذَ بهما عندَما تَحينُ المناسَبَة. وضَعَت كلّ ذلِكَ في سَلّةٍ ورَحَلَت. لكنّها لَم تَكَد تسيرُ فرْسَخاً واحِداً متلَمّسَةً طريقَها وقَد انْتابَها خوفٌ شديدٌ حتّى جاءَ الحِصان الإسبانيّ وهوَ يعْدو شاخِراً وصاهِلاً. ظنّت أنّ أمْرَها انتَهى وأنّ بعضَ الرّجالِ المسلّحينَ سيمسِكونَ بها. لكنّها عندما رأت الحصانَ الجَميلَ وَحْدَه، امتطته مسرورةً لأنّه سيوصِلَها بسُرْعَةٍ إلى عرّابَتِها.

بعدَ مراسِمِ الاستقبال المعهودة، أعْطَتها الدّجاجَتين والدّيك والأرنَبَين وتوَسّلَت إليها أن تُساعِدَها بآرائها السّديدَة لأنّ الملكَة أقْسَمَتْ أن توصلهنّ إلى أقاصِي الأرض. قالت ميرلوش إلى ابنتها الرّوحيّة ألاّ تحْزَن. أعْطَتْها كيساً مليئاً بالرّمادِ وقالت لها:

- تحْمِلينَ الكيسَ أمامَك وتهُزّينَه وتَمْشينَ على الرّماد. وعندَما تريدينَ العودَة، ليسَ عليكِ إلاّ أن تنظري إلى آثارِ خُطاكِ لكن لا تصطحبي أختَيكِ. إنّهما ماكِرَتانِ جدّاً، وإذا أرْجَعْتِهما معكِ، فلا تعودي إلى زيارَتي.

استأذَنَت رهيفة بالانْصرافِ حامِلَةً معها، بأمْرٍ منها، علبَة صغيرَةً فيها منَ الألْماس ما يُساوي عشرات الملايين، فوضعَتْها في جيْبِها. كانَ الحِصانُ متأهّباً وأعادَها بسرْعَةٍ كالمعتاد. وعندَ طلوعِ النّهار، نادَت الملكَة على الأميرات فجئنَ. قالت لهنّ:

- ليسَ الملك في صحّةٍ جيّدَة. حلمْتُ هذه اللّيلة بأنّ عليّ الذّهاب لأقْطفَ له الأزهار والأعْشابَ في تلكَ البلادِ الشّهيرة حيث يَنْبُتُ أفْضَلُها وستُعيدُ له الشّباب. لِذا، لِنَذْهَب في الحال.

إنّ زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل اللّتين ظنّتا أنّ والدَتهما كفّت عن السّعيِ لإهلاكِهما، حزِنَتا لهذا الخبر، ومَعَ ذلكَ وَجَبَ الرّحيل. وذهَبْنَ بعيداً جدّاً. لم يسْبق لسفَرٍ أنْ طالَ إلى هذا الحدّ. لم تكنْ رهيفة

تقول شيئاً. سارَت خلفَ أختَيها والملكَة وراحَت تذرّ الرّمادَ الموجودَ في الكيسِ دونَ أن تُبَعْثِرَه الرّيح أو يَجرِفَه المطَر. وبما أنّ الملكَة باتت مقتنِعَةً أنَّهنّ لن يستَطِعْنَ الاهتِداءَ إلى الطّريق، فقد استغلّت رقادَ بَناتها الثّلاث العميق لكي تتْرُكَهُنّ وتعودَ إلى المنزل. وعندَ طلوعِ النّهار أيقَنَت رهيفة أنّ والدَتَها رحَلَت فأيْقَظَت شقيقَتَيها وقالت لهما:

- ها نحن وحْدَنا فالملِكَة رَحَلت.

أخذَت زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل تبكِيانِ وهما تنْتِفانِ شعْرَهما وتَلْطِمانِ وجْهَيْهِما بعنفٍ وصرَختا:

- يا ويلنا، ماذا سنفعَل؟

لكنّ رهيفة فتاة تتحلّى بخلُق رفيع فأشْفَقَت على أختَيها.

قالت لهما:

- اسمَعاني جيّداً. عندما أمَدّتني عرّابَتي بالوَسيلة للعَوْدَة، حرّمَت عليّ أن أهدِيَكما على الدّربِ وقالت لي إنّني إذا عصَيْتُ أوامِرَها فلَن ترغَبَ في رؤيَتي ثانيَةً.

ارْتَمَت جميلَة اللّيلِ على رهيفة وعانقتْها. ومثلَها فَعَلَت زهرَة الحبّ. داعَبَتاها بحَنان، وعُدْنَ ثلاثَتُهُنّ سويَةً إلى عندِ الملكِ والملكة.

تفاجأ الملكُ والملكَة برؤيَةِ الأميراتِ وتحدّثا طيلَة اللّيلِ عَمّا جرى، لكنّ الفتاةَ الصّغرى التي كانَت تدْعى رهيفة، ولسبَبٍ وجيهٍ إذ كان لها أذنان شديدتا الرّهافة، سمِعَت أنّهما يدَبّرانِ مكيدَةً جديدةً وأنّ الملكَة ستَرْحَل معهُنّ في اليومِ التّالي فهُرِعَت لتوقِظَ شقيقَتَيها.

قالت لهما:

- يا للأسَف، نحن هالكات. تريدُ الملكة قطْعاً أن تصطَحِبَنا إلى صحْراءَ تتْرُكَنا فيها. أنتما السّبب في إغضابي عرّابَتي. لا أجرؤ على الذّهابِ لزيارَتِها كما كنتُ أفعَل من قبل.

وبَقينَ في حيرَةٍ لا يعرفن الاهتداء إلى سبيلٍ، وقالت إحْداهُنّ للأخرى:

- ماذا سنفعل؟

وأخيراً قالت جميلَةُ اللّيلِ لأختيها:

- علينا أن نتَماسَك ونجد حلاًّ. لم تستأثر العجوزُ ميرلوش بالذّكاء وحْدَها. ما علينا إلاّ أن نملأ جيوبَنا بحبوبِ البازلاّء ونذرّها على طولِ الطّريق فتَهدِينا إلى طريقِ العودَة.

وَجَدَت زهرَة الحبّ الفكرَة رائعَة. جِئنَ بحبوبِ البازلاّء ومَلأنَ بها جيوبَهُنّ. أخذت رهيفة الكيسَ المليء بالثّيابِ الجَميلَة وعلبة الألْماسِ. وَما إن نادَت عليْهِنّ الملكَة للرّحيل حتّى كنّ مسْتَعْدّاتٍ جميعاً.

قالت لهُنّ:

- حَلمْتُ هذه اللّيلة أنّ هناك، في بلادٍ لن أسَمّيَها، ثلاثة أمَراء وَسيمين ينتظِرونكنّ للزّواجِ بكنّ. لِذا سأصطَحِبُكُنّ إلى هناك لأرى ما إذا كانَ حلمي سيَتَحقّق.

ذهبَت الملكة في المقدّمَة وتبِعَتْها بَناتُها اللّواتي بدَأنَ يُذْرينَ حبوبَ البازلاّء دونَما اكتراث لما سَيَجري لاحِقاً لأنّهنّ كنّ واثِقات من عوْدَتهنّ إلى المنزل. وفي تلك المرّة ذهَبَت الملكة مسافَة أبْعَدَ منَ المرّات السَابِقَة. ولكن ذاتَ ليْلَةٍ ظَلْماءَ ترَكَتْهُنّ وعادَت إلى الملك. وَصَلَت منهكَةً وشَعَرَت بالارْتِياحِ لتَحَرّرِها من ذلك العبءِ الذي كان يُثْقِلُ كاهِلَها.

نامت الأميرات الثّلاث حتّى الحادِيَة عشرة صباحاً وعندَما استَيْقَظْنَ، كانَت رهيفة أوّلَ مَن لاحَظَت غِيابَ الملكة. ومَعَ أنّها كانت تتَوَقّع ذلك فإنّها لم تتوَقّف عن البكاءِ لأنّها تثق بعرّابَتِها الجنيّة

أكثرَ من ثقتها بمَهارَةِ أختيْها.

قالت لهنّ والذّعْر يجْعَل أوْصالَها ترتجف:

- الملكة رحَلَت وعَلينا أن نَتْبَعَ آثارَها في أقرَبِ وقتٍ ممكن.

فأجابَت زهرَة الحب:

- اصمُتي أيّتها الفتاة الشقيّة الصّغيرَة. سنَجِد الطّريق متى شئنا، وأنتِ ما أنتِ إلاّ أختٌ مزعجة دائمة الاستعجال في غيرِ أوان.

لم تجرؤ رهيفة على الردّ. لكن، عندَما أردْنَ العثورَ على الطّريق، لم يكن هناكَ لا آثارٌ ولا طريق. جاءَت الحَمائم، وهيَ كثيرَة في تلك البلاد، والتَهَمَت حبوبَ البازلاّء. وأخذت الفتَيات في البكاءِ حتّى الصّراخ. وبعْدَ أن بقينَ يومَينِ دونَ طَعام، سألت زهرةُ الحبّ جميلةَ النّهار قائلةً لها:

- يا أختي، هل لديكِ شيءٌ يؤكَل؟

أجابَتها:

- لا.

وسألَت الشّيءَ نفسَه لرهيفة فقالت:

- ليسَ لديّ ما يؤكَل لكنّي وجَدْتُ بلّوطَةً للتوّ.

قالت إحْداهُنّ:

- هيّا! أعطيني إيّاها.

وأرادَت كلّ واحِدَةٍ منهُنّ الحصولَ عليها.

قالَت رهيفة:

- لنْ نشبَعَ أبداً ثلاثتُنا من بلّوطَة. لِنَزْرَعْها، وسوف نَعثُرُ على أخرى يُمْكِنُها أن تسُدّ جوعَنا.

وتوافَقنَ على تنفيذِ الفكرَةِ رغمَ أنّه كان أمراً مشكوكاً فيه أن تنبُتَ شجرَة في بلادٍ خالِيَةٍ من الأشجار ولا يُعْثَر فيها إلاّ على الملفوف أو

الخسّ. أخذت الأميرات يأكُلْنَ خسّاً وملفوفاً، ولو كنَّ أكثرَ تطلّباً لكنّ قَضَيْنَ أجلَهُنّ منذ زمن. كُنّ يخْلُدْنَ للنّوم في العَراء أغلب الأحيان. وفي كلّ صباحٍ ومساءٍ يذْهَبْنَ بالتّناوبَ ليَرْوينَ البلّوطة ويَقُلْنَ لها: «هيّا اكْبَري، اكْبَري أيّتها البلّوطَة الجَميلة!». وأخذَت البَلّوطَة تكبَرَ على مرأى منهُنّ. وعندَما علَت قليلاً، أرادَت زهرَة الحبّ أن تتسلّقها لكنّها لم تكنْ بعدُ صلْبَةً لتَحْمِلَها. شعرَت بأنّها تنثني تحتَ ثقلِها فنزَلَت على الفور. وفَعَلَت مثلَها جميلة اللّيل لكنّها لم تنجحَ. أمّا رهيفة الأكثر رشاقَة فيهنّ فمَكَثت في أعلاها لوقْتٍ أطوَلَ وعندئذٍ سألتها أختاها:

- هلْ ترَينَ شيئاً يا شقيقتي؟

أجابَتهما:

- لا، لا أرى شيئاً.

قالت زهرَة الحبّ:

- هذا لأنّ السّندِيانَة ليسَت عاليَة بما يكفي.

وهكذا واصَلْنَ الاهتمامَ بالبلّوطَة يسقينَها ويَقُلْنَ لها: «اكبَري إكبَري أيّتها البلّوطَة الجميلة». لم تتوانَ رهيفة عن تسلّقِ الشّجَرَة مرّتينِ في اليوم. وذاتَ صباح، وفيما كانَت في أعلى الشّجَرَة، اغتنمت جميلة اللّيل الفرصة وقالت لزَهْرَة الحبّ:

- وجَدت كيساً خبّأتْهُ شقيقَتُنا عنّا. ماذا يوجَدُ فيه يا تُرى؟

فأجابَتها زهرة الحبّ:

- قالت لي إنّ فيه قطعة دانتيلاّ قديمة تحتاج إلى رَتقها، وبعضَ حبَاتِ الملبّس.

كانت جميلة اللّيل نهِمَة وأرادَت أن ترى ما بداخلِ الكيس. ووَجَدَت فيه فعلاً كلّ قَطع الدانتيلاّ الخاصّة بالملك والمَلَكة لكنّها

كانت مستعمَلة لإخفاء الملابس الجميلة التي تملكُها رهيفة وعلبَة الألماس.

هتَفَت:

- ما هذا! أيُعْقَلُ أن يكونَ مَن هوَ محتالٌ أكثرَ منها؟ علينا أن نأخُذَ كلّ شيءٍ ونَضَعَ لها حجارَةً في محلّه.

وسارعْتا للقيام بذلك. فنزَلَت رهيفة عن الشّجرَة ولم تلاحظ ما فعلته بها شقيقتاها لأنّه لم يَخْطر لها أن تتزيّنَ في الصّحراء. لم تكن تفكّرُ إلاّ في السّنديانَة التي أصبَحَت أجمَلَ من كلّ أشجارِ السّنديان.

ذاتَ مرّة، بعدَما صعَدَت أعلى السّنديانة، وعلى جَرْيِ عادَتِها، سألَتْها شقيقَتاها إذا كانَت عثَرَت على شيءٍ. فهتَفَت:

- أرى منزِلاً كبيراً جميلاً جمالاً يفوقُ الوصف. جدْرانُه منَ الزّمرّدِ والياقوت وسقفُه منَ الألماس وَمَكْسوّ كلّه بأجراسٍ صغيرَةٍ ذهبيّةٍ، وأرى دَوّارات الرّيح تسيّرها الرّيح كيفما تشاء.

قالت لها:

- تكذِبينَ! ليسَ جميلاً بالقَدرِ الذي تصِفينَه.

فأجابَت رهيفة:

- صدّقاني، لسْتُ كاذِبَة. تَعالا وانظرا بنَفْسَيكما. لا زالت عينايَ مبْهورَتَينِ به.

صعَدَت زهرة الحبّ على الشّجرة وعندَما رأت القصر لم تستطع إلاّ التعبيرَ عن إعجابها. وما لبثت جميلة اللّيل الفضوليّة جدّاً أنْ صعَدَت بِدَوْرِها على الشّجرَة ومَكَثَت مفتونَة به كأخْتَيْها.

قالت:

- بالطّبع علينا الذّهاب إلى هذا القصر، ربّما وجَدْنا فيهِ أمراءَ وسيمين يَسْعَدونَ للزّواجِ بنا.

وطيلَة السّهرَة لم يتَحَدّثنَ إلاّ عن خطّتِهنّ. رقَدْنَ على العشبِ لكنْ عندَما بَدا لزَهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل أَنّ رهيفة نامَت، قالتَ الأولى للثّانيَة:

- أتعْرِفين ماذا علينا فعله يا شقيقَتي؟ لنَنْهَض ونرْتَدِ الثيابَ الفاخِرَة التي أحضرتها رهيفة.

قالت جميلة اللّيل:

- أنتِ على حقّ.

ثمّ نهضَتا وجَعّدتا شعرَهما وطلَتا وجهَيهما بـالذّرور، ثمّ وضعَتا عليهما خالاتٍ مصطنعةً للزّينة وارتدَتا الملابسَ الذّهبيّة والفضيّة المرَصّعَة كلّها بالألماس، ولم يكن هناكَ ملابسُ أروَعُ منها.

كانَت رهيفة تجْهَل السّرقة التي قامَت بها الشّقيقتان. أخذت كيسَها بهدَف أن ترتدي ثيابَها لكنّها مكثت حزينَة لأنّها لم تجد فيه إلاّ الحَصى. ثمّ انتبَهَت إلى أنّ أختَيها تزَيّنتا وبَدَت كلّ واحدة أبهى منَ الشّمس. بَكت وعاتبتهما على خيانتَهما لكنّهما أمْعَنَتا في الضّحكِ والسّخرِيَة.

عندئذٍ قالت لهما:

- هل يُعقل أن تكونَ لدَيكما الجرأة لاصطِحابي إلى القصر دونَ أن أتزَيّن وأبدو جميلة؟

أجابَت زهرة الحبّ:

- ليس لدَينا منَ الثّياب ما يفيض عن حاجتنا. سننهالُ عليكِ ضرْباً إذا أزعَجتِنا.

أردَفَت رهيفة:

- لكنّ هذه الثّيابَ التي ترتَدِيانِها هيَ لي وقد قدّمَتْها لي عرّابَتي وليسَ من حقّكما أخذها.

قالتا لها:

- إذا تكلّمتِ أكثرَ فسوف نَقتلكِ ونَدْفنكِ دونَ أن يعرِفَ بكِ أحد.

لم تجرؤ رهيفة المسكينة على إغاظَتِهما. تبعتهما بهدوء وسارَت مبتَعِدَةً عنهما مسافَة قليلة. وبَدَت كخادِمَةٍ لهما.

كلّما اقترَبَتا منَ المنزل بدا لهما أكثرَ جمالاً.

قالت زهرة الحُبّ وجميلة اللّيل:

- يا للرّوعة! كم سنتسَلّى! كم سنأكُل منَ الأطايب! سنجلس إلى مائدة الملكِ. أمّا رهيفة فسوفَ تغسل الأواني في المطبخ، لأنّها تبدو قذِرَة. وإذا سُئِلنا مَن هي فلنتجنّبِ القول إنّها أختنا ونحرصْ على ذلك أشدّ الحرص. لنقلْ إنّها راعيَة البقرِ في القريَة.

إنّ رهيفة التي كانَت شديدة الذكاء والجمال شعَرَت باليأسِ لمعامَلَتِهما إيّاها على هذا النّحو. وعندما أصبَحْنَ عندَ بابِ القصر، قرَعنَ الباب وفي الحالِ فتَحَت لهنّ امرأة عجوز مرعبة. كان لديْها عين واحدة وسطَ جبينِها لكنّها أكبر من خمس عيونٍ أو ستّ. وكانَ أنفها مسطّحاً وفمَها مرْعِباً، وكانت بشَرَتها سوداء ورؤيَتها تثيرُ الذّعرَ في النّفوس. أمّا طولُها فيَبْلغ خمس عشرة قدماً وعَرْضها ثلاثين.

قالت لهنّ:

- أيّتها البائِسات! ما الذي جاءَ بكنّ إلى هنا؟ هل تَجْهَلنَ أنّه قصر الغول وأنّكُنّ بالكادِ تكْفينَ لغذائه. لكنّي أفضَلُ من زوجي. ادخلْنَ. لن آكُلَكُنّ دفعَة واحدَة. سوف أسمَح لكنّ بالبَقاء على قيد الحياةِ ليَوْمَينِ أو ثلاثَة.

وعندما سمِعْنَ امرأة الغول تتكلّم على هذا النّحو، لُذنَ بالفرار معتَقدات أنّهنّ يستطِعنَ النّجاة بأنفسِهنّ. لكنّ خطوَة واحدة منها كانت تُساوي خمسينَ خطوَة من خطواتهنّ. جرَت خلفهُنّ وأمسكَت

بهنّ من شعورِهنّ أو من جلدَة أعناقهنّ ووضعتهنّ تحت ذراعيها ثمّ رَمَتهُنّ ثلاثتهنّ في قبْوٍ مليءٍ بالضَفادع والأفاعي. كُنّ يمْشينَ على عظام الضّحايا التي سبقَ أن التَهَماها هي وزوجها.

أرَادَت في الحال أن تلْتَهِمَ رهيفة وطلبت أن يُؤتى لها بالخلّ والزّيتِ والملح لأنّها تريد أن تجعلَ منها وجبَة سلَطَة. بيد أنّها سمِعَت خطواتِ الغول. لكنْ لأنّها وجَدَتْهُنّ بيضاواتِ البشَرَة جدّاً وناعِمات، قرّرت أن تأكلهنّ بمفردها فأخْفَتْهُنّ بسرعة تحت برميلٍ كبيرٍ لا يستطِعْنَ الرؤيَة فيه إلاّ عبْرَ ثُقب.

كانَ الغول أطوَلَ من زوجَتِه بستّ مرّات. إن تكلّم اهْتَزّ المنزل، وإن عطس، بدت عطْسَته وكأنّها أصواتُ رعد. لم يكنْ لدَيهِ إلاّ عين كبيرَة مخيفَة، وكانَ شعره كأشواكِ القنفذ ويتّكئُ إلى عصاً ضخمَة. وكان في يدِه سلّة مغطّاة فأخرجَ منها خمسة عشرَ طفلاً كان سرَقهم من الطّرقاتِ والتَهَمَهم وكأنّهم خمس عشرة بيضة طازجَة. وعندما رأته الأميرات الثّلاث جعلنَ يرتَجِفْنَ تحت البرميل ولم يجرؤنَ على البكاءِ بصوتٍ عالٍ مَخافَة أن يسمَعَهُنّ. لكنّهنّ كنّ يَقُلْنَ فيما بينَهُنّ بصوتٍ خفيض:

- سيلتَهِمُنا ونحن على قيد الحياة. كيف بإمكاننا الهرب؟

قال الغول لزوجَته:

- أتعرفين؟، أشمّ رائحَة لحمٍ طازَج. أريد أن تعْطيني إيّاه.

قالت الغولة:

- حسناً، دائماً تظنّ أنّك تشمّ رائحَة لَحْمٍ طازَج. لا بدّ أنّ خرافَك مرّت من هنا.

- آه! أنا لا أخْطئ. أشمّ رائِحَة اللّحمِ الطّازج بكلّ تأكيد. أريد أن أبْحَث في كلّ مكان.

قالت:

- إبْحَثْ ولن تَجِدَ شيئاً.

أجابَ الغول:

- بلى، سأجد، وإذا كنت تُخْفينَ عنّي شيئاً فسأقطعُ لكِ رأسكِ وأجعلُ منه كرَة.

أخافَها تهديدُهُ فقالت له:

- لا تغضَب يا غولي الصّغير العزيز، سأصارِحُك بالحَقيقَة. جاءَت اليومَ ثلاث فتياتٍ شابَاتٍ اتّخذْتَهُنّ أسيرات. لكن سيكون مؤسفاً أن تلتَهمَهنّ لأنّهنّ يعْرِفْنَ القيامَ بكلّ الأعمال. وَبما أنّني عجوز، فعليّ أن أرتاحَ. فكما ترى إنّ بيتَنا الجميلَ متّسِخٌ وخبزَنا لا يُخْبَز والحَساء لم تعد أنتَ تستَطيبُهُ ولم أعدْ أبدو في عينِكَ جميلة مذ أنهَكني العمل. سيَكُنّ خادِماتٍ لي. أتوسّل إليكَ ألاّ تلتَهِمَهُنّ في الوقتِ الحاضر. وإذا ما رغبت فيهنّ يوماً فسيكون لكَ ما تريد.

شقّ على الغولِ أن يَعِدَها بألاّ يَلتَهِمَهُنّ في الحال. كان يقول:

- دعيني أفعَل فلَن آكلَ سوى اثنَتَين.

- لا، لن تأكل.

- حسناً، سآكلُ الصّغرى.

قالت:

- لا، لن تأكل ولا واحدَة.

وأخيراً، وبعدَ الكثير من الأخذ والردّ، وعَدَها بألاّ يلتَهِمَهنّ.

قالت في نفسِها:

- عندَما يذهَب إلى الصّيدِ سآكُلُهُنّ وأقول له إنّهنّ هرَبن.

خرجَ الغول من القبو وقال لها أن تقودهنّ أمامه. كادَت الفتَيات المسكينات يَمُتْنَ منَ الخوف فطَمأَنَتْهُنّ زوجة الغول. عندما رآهُنّ

سألهنّ ما الذي يُحْسِنّ صنعَه. وأجَبْنَ أنّهنّ يعرِفْنَ الكناسَة والخياطَة والحِياكَة بامتياز، وكذلك طَهوَ يَخْناتٍ لذيذَة، وأنّ النّاس يأتون من آخرِ الدّنيا ليَشْتَروا منهنّ الخبز والحلْوى والفطائرَ التي يَصْنَعْنَها.

ازدادَ نَهَمُ الغولِ فقال:

- هيّا إذاً سارعنَ إلى العمل ما دمتنّ على هذا النشاط.

ثمّ سأل رهيفة:

- قولي لي: عندَما تضرمينَ النّار في الفرن، كيف تعرِفينَ أنّه باتَ حامِياً بِشَكْلٍ كافٍ؟

أجابَت:

- يا سيّدي، أرْمي فيه قطعَة زُبدَةٍ ثمّ أذوقُها بلساني.

قال:

- حسناً، أشعِلي الفرن.

كانَ الفرن كبيراً جدّاً مثل حَظيرَة، لأنّ الغولَ وزوجته يلتهمان من الخبز ما يُطْعِم أكثرَ من جيشين. أضرَمَت الأميرَة فيه ناراً رهيبَة فاضطرمَ مثلَ أتّونٍ حام. وكان الغول حاضراً ينتظِرُ أن ينضجَ الخبز. وفي تلك الأثناء الْتَهَمَ مائةَ حَمَلٍ ومائةَ جدْيٍ صغيرٍ لا يزال على الحَليب وكانَت زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل يُحَضّران العجين. قال السيّد الغول:

- حسناً، هل حميَ الفرن؟

أجابت رهيفة:

- تحقّق بنفسِك يا سيّدي.

ورَمَت أمامَه ألفَ حفنةِ زبدةٍ في عمقِ الفرنِ ثمّ قالت:

- يجبُ تحَسّسُهُ باللّسانِ، لكنّي صغيرَة جدّاً.

قال الغول:

- أنا كبير.

خفضَ رأسَه وتوغّلَ في العمقِ لدَرَجَةِ أنّه لم يعدْ يستَطيع الخروجَ فبقي هناك واحترَق حتّى عظامه. عندما اقترَبَت زوجته منَ الفرن، دُهِشَت لرؤيَتِها عِظامَ زوجِها وقد صارت جَبَلاً منَ الرّمادِ.

زهرَة الحبّ وجميلة اللّيل اللّتانِ رأتاها حزينَةً جدّاً حاوَلتا تعزيَتَها على أحسَنِ وجه. لكنّهما خشِيَتا أن يهدأ ألَمُها سَريعاً وأن تعودَ إليها شهيّتُها وَتَتَناوَلَهُنّ على أنّهُنّ وجبَة سلَطَةٍ كما سبَقَ لها أن أشارت. قُلْنَ لها:

- تشَجّعي يا سيّدتي. في جميعِ الأحوال، ستجدينَ ملِكاً أو مَركيزاً يتمنّى الزّواج بك.

ابتَسَمَت قليلاً فَبانَت أسنانها أطوَل من إصبَع. وعندما رأيْنَ مِزاجَها رائِقاً، قالت رهيفة:

- إذا تخلّيتِ عن جلودِ الدّببَةِ المخيفةِ هذه التي ترْتَدينَها وتلْبَسينَ على الموضَة فسوفَ نسرّح شعرَكِ أجْمَلَ تسريحَةٍ وتَبْدينَ بهيّة مثل كوكب.

قالت:

- لنرَ ماذا بإمكانكِ أن تفعَلي. لكن كوني واثقَة من أنّه إذا كانَ هناكَ سيّدات أجمل منّي فسَوفَ أفرُمكِ فرْماً كاللّحم الذي نحشو به الفطائر.

وعلى هذا، نزعَت الأميراتُ الثّلاث قبّعَتَها عن رأسِها وبدأنَ يسَرّحنَ شعرَها ويُجعّدْنَه وهنَّ يُسَلّينَها بهَذرِهِنّ وثرثرتِهِنّ. وفي تلك الأثناء أخذَت رهيفة فأساً وانهالَت عليها بضَرْبَةٍ كبيرَةٍ منَ الخلفِ على رقبَتِها فَصَلَت جسَدَها عن رأسِها.

شَعَرْنَ بفرْحَةٍ لا مثيلَ لها. صَعَدْنَ على سطْحِ المنزلِ لكي يقْرَعْنَ

الأجراس الذّهبيّة ومن ثمّ توجّهْنَ إلى الغرفِ كلّها وكانَت من لؤلؤٍ وألماس، وكان الأثاث فخماً جدّاً، وكم كانت غبطتهنّ عظيمة لرؤيَة كلّ ذلَك الثّراء. وأخَذْنَ يضْحَكْنَ ويُغَنّين. لم يكن شيءٌ ينْقُصُهُنّ، لا القمحُ ولا المرَبّى ولا الفواكه وكان هناكَ دُمى كثيرَة. ونامَت زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيلِ في أسرّةٍ منَ الدّيباج والمخمَلِ وقالتا فيما بينهُما: «ها نحْنُ أكثَرُ غِنىً مّا كانَ عليه والدُنا عندما كان له مملكة. لا ينقُصُنا سوى شبّانٍ نتزوّجهم. لن يأتيَ أحَدٌ إلى هنا لأنّ هذا المنزل يُعتبَرُ وَلا شكّ مَهلَكَةً. لم يعرف أحَدٌ أنّ الغولَ وزوجته لقِيا حَتْفَهُما. يجب أن نذهَبَ إلى أقرَبِ مدينَةٍ لكي نتَبَخْتَرَ بمَلابِسنا الجميلَة ولن يطولَ بنا الأمرُ حتّى نَجِدَ خُطّاباً صالحين يتمنّونَ الاقتران بأميرات».

وما إن ارْتَدتا ملابِسَهما حتّى قالتا لرهيفة إنّهما ذاهِبَتانِ للتّنزّهِ وإنّ عليها البَقاء في المنزِل لتقومَ بأعمالِ التّنظيفِ والغسيلِ، ولكي يكونَ كلّ شيءٍ لدى عودَتهما نظيفاً تَماماً. وإذا لم تنفّذ أوامرهما فسوْفَ تنهالانِ عليها ضرْباً مبرِحاً حتّى الموت. انقبَض قلب رهيفة المسكينة منَ الألم وبقيَت وحيدَةً في المنزل تكْنِسُ وتنظّف وتغسِل دونَ توقّف وهي تبكي. قالت في نفسها:

- ما أتْعَسَني! ليتَني لم أعصِ أوامِرَ عَرّابتي فَها كلّ المآسي انهالَت عليّ. سَرَقت شقيقتايَ ثيابي الجميلة وها هُما تتَزَيّنانِ بها. ولوْلايَ لكانَ الغولُ وزوجته على قيْدِ الحياة. ما استَفَدتُ من قتْلِهِما؟ ألم يكن منَ الأفضلِ أن يلتَهِماني بدَلاً من عيشتي البائسَة هذه؟

قالت ذلكَ ثمّ بكَت حتّى الاختِناق. وَصلَت أختاها محَمّلَتينِ ببرتُقالٍ منَ البرتغال ومرَبّياتٍ وسكّر وقالتا لها:

- آه لو تعلمين ما أرْوَعَ هذا الحفلَ الرّاقصَ الذي حضَرْناه! كان هنالِكَ حشدٌ كبيرٌ منَ النّاس! وكان ابن الملك يرقص فيه. وقد

احْتُفِيَ بنا كثيراً. والآن تَعالي وقومي بواجباتك: ساعدينا على خلع أحذِيَتِنا وامْسَحي الوَحْلَ عنها، فهذا واجبُكِ.

أطاعَت رهيفة الأمرَ، ولو أرادَت صدفةً أن تعترض على أيّ أمر كان لارْتَمَتا عليها وضرَبتاها حتّى الموت.

وكذلكَ في اليومِ التّالي عادَتا منَ الحفلِ وأخذَتا ترويانِ ما جَرى معهما من أشياءَ جميلَة. ذاتَ مَساء، وفيما كانت رهيفة جالِسَة بالقرب منَ النّار على كومةٍ منَ الرّمادِ، ولا تدْري ماذا تفعَل، أخذَت تبحَثُ في شقوقِ المدفأة. وفي معرضِ تفتيشِها، وجَدَت مفتاحاً صغيراً قديماً جدّاً وفي غايةِ القذارَة بحيث بذَلَت جهْداً حثيثاً لكي تنظّفَه. وعندما صار نظيفاً عَرَفَت أنّه مفتاحٌ من ذهب ويُفتَرَضُ به والحالَة هذه أن يكونَ مفتاحاً لدُرْج صغيرٍ جميل. وأخذَت في الحالِ تركُض في أرجاءِ المنزِلِ وتُدْخِلُ المفتّاحَ في الأقفالِ، وأخيراً وجَدَت صندوقاً يُعتبَر تحفَةً في جمالِه. فتَحَتْه وكانَ في داخِلِه ملابس وألماس ودانتيلاّ وألبِسَة داخِليّة وشرائط، وكلّها تُقدَّر بثروَةٍ طائلَة. لم تَقل شيئاً عن الكنزِ الذي وجدته. لكنّها انتظَرَت بفارِغِ الصّبرِ أن تخرُجَ شقيقتاها في اليوم التالي، وما إن غابتا عن ناظِرَيْها حتّى تزيّنَت وبدَت أجمَلَ منَ الشّمس.

مُتّشِحَة بذلك الزيّ، ذهبَت إلى الحفْلَةِ الرّاقِصَةِ نفسِها حيث كانَت شقيقتاها ترقصان. ومَع أنّها لم تكن ترتدي قِناعاً إلاّ أنّهما لم يتَعَرّفا عليها لتبَدّلِ شكْلِها. وما إن ظهَرَت بينَ الحشدِ حتّى تصاعَدَت دمْدَمَةُ أصواتٍ بعضُها إعجاباً وبعضها الآخر حسَداً. دُعيَتْ للرّقص وتفوّقَتْ على جميع السيّداتِ رقصاً وبزّتهنّ جمالاً. جاءَت سيّدة المنزلِ للاحتفاءِ بها وانْحَنَت أمامَها إجلالاً متوَسِّلَةً إليها أن تفْصِحَ عن اسمِها حتّى لا تنسى اسمَ فتاةٍ بهذه الرّوعة. فأجابَتها بتهْذيب إنّ اسمَها فتاة الرماد. لم يبقَ هناكَ رجلٌ إلاّ هامَ بها حبّاً، ولَم يتَوانَ شاعر

عن نظم الأشعارِ متغنّياً بها، وَلَمْ يُحْدِث اسمٌ ضجّةً كتلك التي أحدثَها في وقتٍ قصيرٍ اسمُها، ولم تكن تُسمَع إلاّ المدائح التي تُكال لها تتردّد أصْداؤها في كلّ ناحية. اتّجهَت جميعَ الأنظار صوْبَها تتأمّلها وهتَفَت الأفواه كلّها بالثّناءِ على حُسْنِها.

زهرَة الحب وجميلَة اللّيل اللّتان أثارَتا الإعجابَ دوماً حيثما ظَهَرَتا كادَتا تموتانِ حسَداً إزاءَ الاستقبالِ الذي لقِيَتْه تلك االضّيْفة الجديدَة. لكنّ رهيفة كانَت تتحاشى كلّ ذلك الحسَد بكِياسَةٍ مذْهِشة. كانَ يبدو من تصرّفاتها أنّها خُلقت لتكون الآمرة الناهية. زهرَة الحبّ وجميلة اللّيل اللّتان لم تكونا تريان شقيقَتَهما إلاّ ووجْهها ملطّخ بِسخام المدخنَة، وأكثر اتّساخاً من كلبٍ صغير، نسِيَتا تماماً كلّ تصوّرٍ عن جمَالِها ولَم تستطيعا التعرّف إليها. وراحتا تُطريان على جمالها كما فعَلَ الآخرون، وَما إن لاحظت رهيفة انتهاءَ الحفلِ حتّى خرجَت بسرْعَةٍ وعادَت إلى المنزل ثمّ خلعَت ملابسها على وجهِ السّرعَة مرتَدِيَةَ أسْمالَها من جديد. وعندَما وصلت شقيقتاها قالتا لها:

– يا رهيفة، لو تعلمين!، رأينا لتوّنا أميرةً شابّةً فاتنةً وليسَت قبيحةً مثلك. إنّها بيضاء كالثّلج وخدّاها كالورود وأسنانها كاللؤلؤِ وشفتاها كالمرجان. ثوبها يَزِنُ أكثر من ألفِ رطلٍ وكلّه من ذهبٍ وألماس. فما أجملها وما أرْوَعَها!

أجابَت رهيفة مهَمْهِمَة:

– هكذا كنت. هكذا كنت.

قالتا:

– ماذا تهَمْهِمين؟

فأجابَت رهيفة بصوْتٍ أكثر انخفاضاً:

– هكذا كنت.

دامَت هذه اللّعبَة الصّغيرَة طويلاً. لم يمْض يومٌ إلاّ وغيّرَت فيه رهيفة ثيابَها لأنّ الصّنْدوقَ كانَ مسْحوراً، كلّما أخذَت منه امتَلأ من جديدٍ بثيابٍ على الموضَة، حتّى إنّ السيّدات بدَأنَ يَخُطنَ أزياءَهُنّ وفْقَ ما ترتديه هيَ.

وذاتَ مساء، رقصَت رهيفة أكثرَ منَ المعتاد، وتأخّرَت بالانصرافِ قليلاً، وأرادَت أن تستدرِكَ الوقت الضّائعَ وتصلَ إلى المنزلَ قبل أختَيْها فراحَت تسيرُ بأقصى سرعَتِها فسقطَ منها أحد خُفَّيها اللّذين كانت تلْبَسهما، وكانا منَ المخمَلِ الأحمَرِ المزْدانِ باللآلئ. بذَلَت كلّ ما في وِسْعِها للعثورِ عليه ولكنّ اللّيل ادْلَهَمّ وكانَ جهْدها لا طائلَ منه. عادَت إلى المنزل بقدَم تنتعِلُ خُفّاً وأخرى حافيَة.

في اليوم التالي، كانَ الأمير حبيب، الابن البكر للملك، ذاهِباً إلى الصّيد فوجَدَ خُفّ رهيفة. أمَرَ بالتقاطه ثمّ نظرَ إليه معجَباً بصغرِه وجَمالِه. قَلّبَه من جميع الجهات، أعجبَه فَحَمَلَه معه. ومنذ ذلك اليوم، فقد كَلّ شهيّة للطّعَام. أصبَحَ نَحيلاً وتبَدّلت سِحْنَتَه فصار شاحِباً مثلَ سَفَرْجَلَة وحزيناً ومنْهَكاً. كانَ الملك والملكة يُحبّانِهِ كثيراً فأرْسَلا في كلّ ناحِيَة ليَجْلِبوا له الطّرائدَ الشهيّة والمُربّيات اللّذيذة. لكنّ ذلك كلّه لم يعنِ له شيئاً. نظَرَ إلى كلّ ذلك ولم يكن يجيبُ على أسئلة الملكة عندَما تتحدّث إليه. وأُرْسِلَ في طلَبِ الأطبّاء في كلّ مكان حتّى إلى باريس ومونبيلييه. وعندَما وصل الأطبّاء جيءَ بهم لرؤيَةِ الأمير، وبعدَ أن راقبوه لمدّةِ ثلاثَةِ نهارات وثلاث ليالٍ دونَ أن يَغيبَ عن ناظِرِهم، خلَصوا إلى النّتيجَةِ التّاليَة: إنّه مغرَم وسيَموت إذا لم يُشْفَ من سُقم الغرام.

كانَت الملكة تحبّه إلى حدّ الجنون. بَكَت بحُرْقَةٍ ولوْعَةٍ لأنّها لم تستطع أن تكتشف من هي تلكَ التي يحبّها لتُزَوّجَهُ إيّاها. وجاءَت

إلى غرفَتِهِ بأجَمَلِ الفتياتِ لكنّه أشاح بنظره عنهنّ. وأخيراً قالت له:

- يا ابني العزيز، سنَموت ألَمَاً عليكَ بسبب غرامكَ وإخفاءِ مشاعرِكَ عنّا. قلْ لَنا مَن تريد ونحنُ نزوّجُكَ إيّاها حتّى لو كانَت راعيَة بَسيطَة.

تشجّعَ الأميرُ إزاءَ وعودِ الملكة فسَحَبَ الخُفّ من تحت السّرير وأراها إيّاه قائلاً لها:

- هذا هوَ سبَب ألَمي يا سيّدَتي. وجَدْتُ هذا الخُفّ الظّريف الجميل عندَما كنت ذاهِباً إلى الصّيد. ولن أتزوّج إلاّ تلكَ التي بإمْكانِها انتعالُه.

قالت الملكة:

- حسَناً يا بُنَيّ، لا تحزَن سوف نُرْسِل للبَحث عنها.

ثمّ أخبَرَت الملكَ بما جرى فمَكَث مندَهِشاً وأمَرَ في الوقتِ نفسه بأن يُعلَنَ على وَقْع الطّبولِ والأبواقِ عن دعوَة جميع الفتياتِ والنّساءِ لكي يأتينَ لانتِعالِ الخُفّ، ومَن طابقَ مقاسُ قدَمِها مَقاسَه تزوّجَها الملك. وكلّ فتاةٍ سمِعَت الخبَرَ غسَلَت قدمَيها بكلّ أنواع الماءِ ومستحضرات التجميل والمَراهم. وثمّة سيّدات نتَفْنَ شعْرَ سيقانهنّ لكي تبدو بشراتُهُنّ أجملَ وأخرَيات امتنَعْنَ عن الطّعام أو جلَفْنَ أقدامَهنّ لكي تبدو أصغر. وذهبَن وفوداً وفوداً ليُجَرّبْنَ الحذاء ولم تقدِر أيّة واحِدَةٍ منْهُنّ على انتِعالِه. وكلّما توافدت الفتيات عبثاً ازداد حزن الأمير.

وذاتَ يوم أعدّت زهرَة الحبّ وجميلَة اللّيل العدّةَ للذّهاب. كانت زينتُهما مدهشة.

سألتهما رهيفة

- إلى أينَ أنتما ذاهِبتَان؟

فأجابَتا:

- نحن ذاهِبَتان إلى المدينَة الكبيرَة حيث يُقيم الملك والملكَة. وذلك لكي نُجرّبَ الخُفّ الذي وجَدَه ابن الملك. إذا لاءَمَ إحْدانا فسيَتَزَوّجُها وتصيرُ ملكَة.

قالت رهيفة

- وأنا، ألا أستطيع الذّهاب؟

قالتا لها:

- حقّاً، أنتِ مجرّد فتاةٍ بَليدَة لا نَفْعَ لها. اذهَبي، اذْهبي وارْوي نبتات الملفوف، فأنتِ لا تصْلُحينَ لشيء.

فكّرَت رهيفة على الفور أنّها ستلبَس أجملَ ثيابها وستذهَب لتجرّبَ حظّها كالأخرَيات لأنّها كانت تخمّن قليلاً أنّ الخفّ إنّما هو خفّها. لكنّ الأمرَ الذي كانَ يُشْقيها هوَ أنّها لا تعرف الطّريق. فالحَفْلَة الرّاقِصَة التي كانَت تُقام لم تكن أصلاً تجري في المدينة الكبيرَة. ارتَدت ثياباً رائعة. كان ثوبُها منَ السّاتان الأزرَق المزدان بالنّجوم والألماس. كانت الشّمس فوق رأسِها وكانَ القمر البدر فوقَ ظهرِها وكلّ ما فيها يلمَع لدَرَجَة أنّ من ينظر إليها لا يستطيع إلاّ أن يُطرِف بعيْنَيه. وعندما فتحَت البابَ لتُغادِرَ دُهِشَت تماماً لأنّها وجَدَت الحِصانَ الإسبانيّ الجميل الذي اصطحَبَها عندَ عرّابَتِها. داعبَتْهُ وقالت له:

- أهلاً وسهْلاً بك يا حصاني الصّغير. أنا مدينَة بالكَثيرِ لعَرّابَتي ميرلوش.

انخفضَ الحِصان فاعْتَلَتْه مثل حوريّة. كان الحصان مزداناً بجَلاجل ذهبيّة وأشرِطَة. كان غطاء السّرج واللّجام لا يقَدّرانِ بثَمَنٍ وَبَدَت رهيفة أجمَلَ بثَلاثينَ مرّة من هيلانة[1] الجميلة.

---

(1) هيلانة: هي في الميثولوجيا الإغريقيّة ابنة زفس وليدا، تزوّجت مينيلاس، وبسبب اختطاف الطّرواديّ بارّيس لها في غياب زوجها حدثت حرب طراودة التي ألهمت =

كانَ الحصان الإسبانيّ يعْدو بخفّةٍ وجلاجِلُه تَرِنُّ: دن دن دن. ما إن سَمِعَت زهرَة الحبّ وجميلة اللّيل الدَندَنات حتّى التَفَتتا وشاهَدَتاها آتِيَة. ولكن في تلك اللحظة هل في الإمكان تخيّل مقدار دهَشتِهما؟ تعرّفتا إليها، رهيفة فتاة الرماد. وكانَتا ملطّختينِ بالوَحْلِ وثيابُهما الجميلة ملطّخة أيضاً.

هتفت زهرَة الحبّ قائلَة لجميلة اللّيل:

- أختي، أؤكّد لك أنّها رهيفة فتاة الرماد.

وهتَفَت الأخرى قائلَة مثلها. مرّت رهيفة قربَهما ولَطّخَهُما الحِصان بالوحْلِ لدى مرورهِ جاعِلاً قناعاً من الوَحْلِ على وجْه كلٍّ منهما. أخذت رهيفة تضحَك وقالت لهما:

- يا صاحِبَتَي السموّ، إنّ رهيفة تحتقرُكما بقدرِ ما تستحِقّان!

ثمّ عبَرَت مثلَ سهم. تبادَلت جميلَة اللّيل وزهرَة الحبّ النّظرات حائرَتين.

أخذَتا تقولان:

- هل نحن في حلم؟ منْ زوّدَ رهيفة بالثّياب والحِصان؟ يا للرّوعَة، إنّ السّعادَة لَمِن نصيبِها، سوفَ تنتَعِلُ الخفّ ونحن ستكون رحلتنا غير مُجْدية.

وفيما كانَتا تهبّ يأسِهما، وصلَت رهيفة إلى القصر. كلّ مَن رآها حَسِبَها ملكة. امْتَشَقَ الحرّاس أسلِحَتهم وَقُرِعَت الطّبول وصدَحَت الأبواق وفُتِحَت الأبواب. أولئك الذينَ رأوها في الحفلِ تقدّموا باتّجاهِها وهم يقولون: «أفْسِحوا الطّريق، أفسِحوا الطّريق. إنّها فتاة الرّماد الجميلة، بِدْعَة الكون». ودَخَلت في تلك الملابس الفاخرة إلى غرفَةِ الأميرِ المُحْتَضَر. ندَت منه التِفاتة صَوْبَها فَسُحِرَ بِجَمالِها وتمنّى

= الأساطيرُ الموضوعة فيها آثاراً ادبيّة عديدة أهمّها ملحَمتا هوميروس الإلياذة والأوديسّة.

أن تستطيعَ قدَمُها انتِعالَ الخفّ. أدْخَلَت قدَمِها في الخُفّ بسهولة وأظْهَرَت الخُفّ الآخر الذي كانَت أحضرَته معها عمْداً. وفي الوقت نفسه بدأ الجميع يهتف: «تحيا الأميرَة!، تحيا الأميرة التي ستُصْبِح ملكَتَنا!». نهضَ الأمير من سريره وجاءَ ليقبّلَ يدَيها. وجَدَته جميلاً ومفْعَماً بالذّكاءِ؛ قال لها ألف عبارةِ مودّة. أخْطِرَ الملك والملكة بمجيءِ رهيفة فسارَعا للحضور. احتَضَنَتها الملكة بينَ ذراعيها وأخذَت تسمّيها بابنَتِها الظّريفَة ومِلكتِها الصّغيرَة وقدّمَت لها هَدايا رائعَة زايَدَ عليها الملك الكريم. وقصَفَت المدافعُ وعَزَفَت الكَمَنْجات والنّايات والآلات جميعاً. ولم يكن أحدٌ يتكلّم إلاّ على الرّقصِ واللّهو.

توسّلَ الملك والملكة إلى رهيفة بأن تتزوّجَ ابنَهما. قالت: «لا، يجب أوّلاً أن أرْوِيَ لكم قصّتي». ورَوَتْها باختِصارٍ شديد. عندما عرفوا أنّها وُلِدَت أميرَةً ازدادا بهجةً على بهجة. كادا يطيران فرَحاً. لكن عندَما ذكرت اسمَ الملك والدِها واسمَ الملكة والِدَتها، أدرَكا أنّهما هما اللّذانِ احْتَلاّ مملكتَهما وصارَحاها بذلك. عندئذٍ أقسَمَت أنّها لن تقبَلَ بذلك الزّواج ما لم يُعيدا مملَكة أبيها. فوعَداها بذلك لأنّه كان لديهما أكثرَ من مائة مملكة، وإذا تنازَلا عن واحدة فما ذلك بالأمْرِ الخطير.

وفي تلك الأثناء وصَلَت جميلَة اللّيلِ وزهرة الحبّ. وأوّل خبرٍ أُعْلِمَتا بهِ هوَ أنّ فتاة الرماد انتعَلَت الخُفّ. عندَئذٍ لم تعودا تعرِفانِ ماذا تفعلانِ ولا ماذا تقولان. أرادَتا العودَة دونَ رؤيَتها لكنّ رهيفة عندَما علِمَت بوصولِهما أمَرَت بإدْخالِهما، وبدَل أن تتجهّم في وجيهيما وَتُعاتِبَهما كما تستَحقّان، نهضَت وتقدّمَت باتّجاههما وقبّلَتهما بِحَنانٍ ثمّ قدّمَتْهما إلى الملكةِ وهي تقول:

- سيّدتي إنّهما شقيقتايَ وهما ودودَتان جدّاً. أتوسّل إليكِ أن تحِبّيهما.

وبقيَتا حائرَتينِ أمامَ طيبَة رهيفة فعَجزَتا عن التّفوّه بكلِمَةٍ. قالت لهما إنّ بإمكانِهما العودَة إلى مملكتِهما لأنّ الأمير يريد إعادَتَها إلى الأسرَة المالِكَة عائلتهنّ. وعنْدَ سماعِ هذه الكلمات سجَدَتا أمامَها وهما تبكيان منَ الفرَح.

وأقيمَ زفافٌ لا مثيلَ له. كتبَت رهيفة إلى عرّابَتِها وكانَت رسالَتها مرْفَقَة بهدايا كثيرَة بَعَثَتْ بها على متنِ الحصانِ الإسبانيّ الجميل، وفي الرّسالة رَجَتْها أن تبحث عنِ الملك والملكة لِتُعلِمَهما بزفافها وبوجوب العودَة إلى مملكَتِهما.

تكفّلت الجنيّة ميرلوش طوْعاً بهذِه المهمّة. وعادَ والد رهيفة ووالدَتِها إلى مملكَتِهما وكانت شقيقتاها ملكَتَينِ مثلَها.

إذا أردتَ أن تنتقِمَ من جاحِدٍ انتقاماً نبيلاً
فافعَل كما فعلَت الأميرةُ رهيفةُ وكن مثلها حَكيماً.
أغدِقْ إحسانَكَ عليهِ دونَ كفاف
لأنّ عَطاياك وأفضالك
هيَ بِمَثابَةِ انتقام خفيّ
يُهيّئ في قلبِهِ المضطرب لِعَذابه.
ما أقسى العقاب الذي أُنْزِلَ بجَميلة اللّيل وزهرة الحبّ
حين صفحَت عنهما رهيفة وأَمطرتْهما بالنِّعَم،
كان غفرانها أشدّ هَوْلاً من انقضاض الغولِ عليهما.
أُحْذُ حَذوَها في كلّ ظرف،
وفي ضغينَتكَ فكّرْ
أنّ القلبَ الشّهم
ليسَ لانتِقامَهِ سبيلٌ أكثرُ نُبْلاً.



«سعدی»، نقش غائر لکلیمان–بیار ماریلییه

Clément-Pierre Marillier, 1785

سعدى

كان يا ما كان، كانَ هناكَ فلاحٌ فقيرٌ شَعَرَ أنّ الموت قريبٌ فأرادَ أن يجنِّبَ ابنَه وابنتَه اللّذينِ يحِبّهما حبّاً جمّاً أيَّ خِلافٍ قد يثيرُهُ بينَهما موضوعُ الميراث.

قال لهما:

- جلبَت لي والدَتُكما على سبيلِ المَهْرِ[1] كُرْسيّينِ صغيرَينِ وحَصيرَة. وها هما، مع دجاجَة أملكها وأصيص قرنفلٍ وخاتم من فضّة أعطَتني إيّاه سيّدَة ذات شأنٍ أقامَت فترةً في كوخي الفقير.

قالت لي عندَ رحيلِها:

- أيّها الرّجل الطيّب، هذِه هِبَة أمْنَحُكَ إيّاها. اهتمَّ بسقيِ أزهارِ القرنفل واحتفظْ بالخاتم. سيكونُ لابنتِكَ جمال لا مثيلَ له. سمِّها سعدى وأعْطِها الخاتم وإناءَ القرُنْفل لمواساتِها في فقْرِها.

ثمّ أضافَ الرّجل الطيّب:

- وهكذا يا سعدى يا ابنتي، سيكون لك القرنفل والخاتم، أمّا الباقي فلأخيك.

بدا ابْنا الفلاح مسْرورين. توفّيَ الوالد. بكَيا عليهِ وتقاسَما الإرْث كما تمّ الاتّفاق. كانَت سعدى تظنّ أنّ أخاها يحبّها، لكنّها عندما أرادَت أن تأخذَ أحَدَ الكرسيّين لتجلِسَ عليه قال لها بنبْرَةٍ مجافيَة:

- احتفظي بالقرنفل والخاتم ودَعي لي كرسييّ بسلام. أحبّ أن يظلّ بيتي مرتّباً.

(1) في تقاليد الزّواج الأوربيّة، التي لم تعد مرعيّة تماماً، المرأة هي التي تهدي عريسها مَهراً وليس العكس.

أخذت سعدى، وكانَت فتاة في منتهى الرقّة، تبْكي بصَمْت. مكَثَت واقِفَة فيما كانَ بُودو[1] (وهذا هو اسم أخيها) متربّعاً على كرسيّهِ كأمير.

حانَ وقت العَشاء. أكلَ بودو بيضَةً طازَجَة من دجاجَتِه الوحيدَة، ورَمى قشرَتَها لأختِهِ قائلاً لها:

- خُذي، ليسَ لديّ شيءٌ آخر أعطيكِ إيّاه. وإذا لم يعجبكِ فاذهَبي واصطادي الضّفادِعَ في المستَنْقَع المجاور.

لم تجب سعدى بشيءٍ. وماذا عَساها تجيب؟ رفَعَت عينَيها إلى السّماء وبكَت من جديد. ثمّ دخلَت إلى غرفَتِها فألفَت رائحَة العطرِ تملؤها فعَرفَت أنّه أريجُ القرنفل. اقترَبَت بحزنٍ منَ الأزهارِ وقالت لها:

- أيّها القرنْفل الجميل المتنوّع الألوان الذي يُبْهِجُني منْظَره أيّما بهْجَة. أنت الذي تُفْرِح القلبَ الحزينَ بعطرِكِ العذْب الفوّاح. لا تخشَ شيئاً أبداً: لن أدَعَك تحتاج للماء ولَن أقسُوَ عليك بيَدي فأنزَعُك عن ساقَك. سأهتمّ بك لأنّك كنزي الوحيد.

أنْهَت كلِماتها، وعايَنَت ما إذا كانَت الأزهار عطْشى. وجدَتها يائسَة تماماً. أخذت إبْريقَها وهُرِعَت إلى النّبْع الذي كان بعيداً قليلاً. وبما أنّها مشَت بسُرْعَةٍ فقد جلسَت عند الضفّة ترتاح. لكنّها ما كادَت تجلس حتّى رأت سيّدَة مهيبَة تواكبها حاشيَة كبيرة تليق بها: كانَ هناكَ ستّ وصيفات يحمِلْنَ ذَيْلَ معطَفها فيما تستند إلى وصيفتين أخرَيين. كان حرّاسُها يمشونَ أمامَها لابسينَ المخمَلَ النّفيسَ الأرجُوانيّ المُطرّز باللآلئ، ويحْمِلونَ كنبَة منَجّدة بالقماش الذّهبيّ جلسَت عليها الملكة. وفي الحال نُصِبَ سُرادَق ومُدّت سُفْرَة مليئَة

(1) يقرّب ناشرو حكايات دونوا اسم بُودو Bedou هذا من المفردة bedon وتعني «سمين» أو «مكترش».

بالأواني الذّهبيّة والمزْهَريّات البلّوْريّة. وقدّموا لها عشاءً فاخِراً عندَ ضفّةِ النّبع الذي كانَت دمْدَمَته العَذْبَة تبدو وكأنّها تنسَجِمُ معَ غناء متعدّد الأَصوات، منشدةً هذه الكلمات:

غاباتُنا يُهَدْهِدُها النّسيمُ العَليل
والأزهارُ تَلْمَعُ على ضِفافِها
تحْتَ هذه الأغْصانِ الوارِفَة
تبوحُ العَصافيرُ المسْحورَة برَغَباتِها
أشْغِلوا وقْتَكم بالاسْتِماعِ إليها
وإذا أرادَ قلبُكم الحبّ
فهناكَ أشياءُ عذْبَة يمكِنُها أن تسْحَرَكم:
والذّهاب إليها مصدَرُ اعتِزاز.

انزَوَت سعدى بعيداً عن الموكب ولم تجرؤ على الحِراك مندَهِشَة بكلّ الأشياءِ التي تراها. وبعدَ انقضاءِ بعضِ الوقت، قالت هذه الملكة العظيمَة لأحَد سائِسيها:

- يبدو لي أنّني أرى راعِيَةً بالقربِ من تلكَ العُلّيْقَة. دَعْها تقترب.

وللحال اقترَبَت سعدى، ورغْمَ خجَلِها الطّبيعيّ لم تتوانَ عن الانحِناءِ احْتراماً للملكَة وبذَوْقٍ رفيع أدْهَشَ الذينَ رأوْها؛ أمْسَكَت بطرَفِ فسْتانِها وقبّلَته ثمّ وقفَت أمامَها خافِضَةً بصَرَها بخَفَر. اصطبَغَ خدّاها بحمْرَةٍ أبرَزَت بياضَ بشَرَتِها. وكانَ سهلاً أن تُستَشَفّ من تصرّفاتِها بساطتُها ورِقّتُها اللّتانِ تسْحَرانِ الشبّان.

قالت لها الملكة:

- ماذا تفعَلينَ هنا أيّتها الفتاةِ الجميلَة، ألا تخْشينَ اللّصوص؟

قالت سعدى:

- يا حسْرَةً يا سيّدَتي. ليسَ لديّ إلاّ ثوبٌ من الكتّان، فماذا سيَجْني اللّصوصُ من راعيَةٍ فقيرَةٍ مثلي؟

سألتها الملكة مبتسِمَةَ:

- ألَسْتِ ثريّة إذاً؟

قالت سعْدى:

- أنا فقيرة معْدمة. لم يورِثني أبي إلاّ أصيصَ قرنفلٍ وخاتَماً فضيّاً.

أضافَت الملكة:

- لكنّ لديكِ قلب. وإذا أرادَ أحدٌ أخذَه فهل ستُعْطينَه؟

أجابتها:

- لا أعرف ماذا يعني إعطاء القلبِ يا سيّدتي. سمِعْت دوماً أنّه من دونِ قلبٍ لا يمكن العيش، وأنّه إذا جُرِحَ فالموْت مُحْتّم. وبالرّغمِ من فقْرِ حاليَ فأنا لسْتُ مستاءَة منَ الحياة.

أرْدَفَت الملكة:

- أنتِ محقّة أيّتها الفتاة الجميلة في الدّفاعِ عن قلبك. هل تعَشّيْتِ جيّداً؟

قالت سعدى:

- لا يا سيّدتي. أخي أكلَ كلّ شيء.

أمَرَت الملكة بأن يُؤتى لها بملعَقَةٍ وشوكَةٍ وسكّين.

دَعَتْها للجلوسِ أمامَ الطّاوِلَة وقدّمَت لها أفضَلَ ما عنْدَها. كانَت الرّاعِيَة معجبَة أيّما إعجاب بالملكة وبِطِيبتِها فمَنَعَها انفِعالُها من أن تاكُلَ إلاّ قَدْراً يسيراً.

- أودّ فعلاً أن أعرفَ لماذا أتيتِ إلى النّبعِ في هذا الوقتِ المتأخّر؟

قالت:

- سيّدتي، جئتُ لأحْمِلَ الماء في الإبريقِ لأرْوي قرنفُلاتي.

وإذ تكَلمَت، انخفضَت لكي تأخذَ إبريقَها الذي كان قربَها. لكن عندَما أظْهَرَته للملكة تعجّبَت أشدّ العجب لأنّه بدا مذهّباً ومزداناً بحبّات ألماس كبيرَة ومليء بماءٍ تفوحُ منه رائحَة عَطِرة. لم تجرؤ على أخذِهِ لئَلاّ يكونَ إبريقَها.

قالت الملكة:

- خذيهِ يا سعْدى. اذْهبي واسْقي الأزهارَ التي تعْتَنينَ بِها. وَتَذَكّري أنّ ملكَة الغابات تريدُ أن تكونَ صديقتك.

وعلى هذه الكلِمات ارتمَت الرّاعيَة عندَ قدَمَي الملكة.

قالت لها:

- أشكُرُكِ جَزيلَ الشّكرِ على هذه اللفتّة الكريمَة التي خصّصتني بها. هل أستطيع أن أتوسّلَ إليكِ أن تنتظِري هنا للَحْظَة. أريد أنْ آتِيَكِ بنصْفِ ما أمْلِكُه: أصيص القرنفل الذي أتساءل أنّى له أن يكونَ بينَ يدَينِ أفْضَلَ من يديكِ!

قالت الملكة وهيَ تداعبُ خدّيْها برفق:

- أوافق على البقاءِ هنا حتّى تعودي!

أخذَت سعدى إبريقها الذّهبيَ وهُرِعَت إلى غرفتِها الصّغيرَة. لكنّ أخاها كان قد دخلَ أثناءَ غِيابها وأخَذَ أصيص القرنفل واضِعاً مَكانه نبتةَ ملفوف كبيرَة. عندَما لَمَحَت سعدى نبتةَ الملفوف التّعيسة تلك ألَمّ بها حزنٌ لا يوصَف ومكثَت محْتارَة: هل تعود إلى النّبع؟ وأخيراً حَزَمَت أمْرَها وخرّت ساجدة أمام الملكة.

قالت لها:

- سيّدتي، بودو أخي سرَقَ منّي أصيص القرنفل. لم يبقَ عندي إلاّ خاتَمي. أرجوكِ أن تقبَليهِ علامَة على امتناني لك.

قالت الملكة:

- إذا أخذْتُ خاتمَكِ أيّتها الرّاعيَة الجميلَة فسوفَ تُفْلِسين.

قالت بنَبْرَةٍ مفعَمَةٍ بالذّكاء:

- لكن يا سيّدتي ما دُمْتُ أمْلكُ رضاكِ فأنا غنيّة به.

أخذَت الملكة الخاتمَ من سعدى ووضَعَته على إصبَعِها. وعلى الفور، صعَدَت في عرَبَةٍ من المرجان مزدانَة بالزّمرّد تجرَها ستّة أحْصِنَة بيضاء، أشدّ بهاءً من عربة الشّمس. شَيّعَتْها سعدى بنظَراتها حتّى توارَت خلف طرقاتِ الغابة. هزّها ذلك اللّقاء بعمق. أوّل شيءٍ قامَت به لدى دخولِها إلى غرفتها هوَ أنّها رَمَت نبتة الملفوف منَ النّافذَة لكنّها فوجِئت إذ سَمعت صوتاً يصرُخُ بها: «ها قد انتهى أمري». لم تفهَم شيئاً من هذه الشّكوى لأنّ نبتات الملفوف لا تتكلّم عادَةً. ثمّ ما إن طلَعَ النّهار حتّى نزَلت سعدى إلى الأسفل لتبحث عن أصيص القرنفل الذي كان يشغَل بالَها اختفاؤهُ. وجَدَت نبتة الملفوف التّعيسَة فرَفَسَتها بقدَمِها وقالت:

- ماذا تفعلين هنا أنتِ يا مَن أرَدْتِ أن تأخذي مكانَ القرنفل في غرفتي؟

أجابَت نبتة الملفوف:

- حَملوني إلى هنا وإلاّ لما جئتُ من تلقاءِ نفسي.

ارتَعَشَت سعدى خوفاً. لكنّ نبتة الملفوف قالت لها أيضاً:

- إذا أردتِ أن تحْمِليني من جَديدٍ إلى زميلاتي، فأنا أقول لكِ باختِصارٍ إنّ القرنفلَ مخبّأ في حَصيرَةِ بودو.

أرادَت سعدى أن تُهْرَعَ في الحالِ لاستِعادَتِه لكنّها زرَعَت نبتة الملفوف بادئ الأمرِ ثمّ أخذت الدّجاجَة المفضّلة لدى أخيها وقالت لها:

- أيّتها الدّجاجة الشرّيرَة! سأجْعَلكِ تدْفَعينَ الثّمنَ لقاءَ كلّ الأحزان التي يتسبّب لي بودو بها.

قالت الدّجاجة:

- رُحْماكِ أيّتها الرّاعيَة، دعيني أعيش. وبما أنّ مِزاجي يطيب له القوقأة فسأخبركِ أشياءَ مذْهِلَة. لا تظنّي أنّكِ ابنَة الفلاح الذي أطعمَكِ وربّاكِ. لا يا سعدى الجميلة. إنّه ليس أباك. لكنّ الملكة التي أنجَبَتكِ كانَت أمّاً لستّ بنات. وكما لو أنّ في يدِها أن تنجبَ صبيّاً قال لها زوجُها وحَموها إنّهما سيَقتلانها إذا لم تنجِبَ لهما وريثاً.

حبَلَت الملكة التّعيسَة الحزينَة. احتَبسوها داخِلَ أحدِ القصور ووُضِعَ من حولِها الحرّاس، أو بال

أحرى الجلاّدون الذين تلقّوا الأمر بِقَتْلِها إذا أنْجَبَت فتاةً جديدَة. هذه الأميرَة المذعورَة من الموت الذي يتهدّدها لم تعد تأكل ولا تَنام. كانَ لدَيها أختٌ جنيّة. كتبَت لها تُعْلِمُها عن مخاوِفها. كانت الجنيّة حبلى وتعرف جيّداً أنّها ستُرزَق بصبيّ. وعندَما وضَعَت طفلَها عهدت إلى النّسائِمَ بسَلّةٍ وضعَت فيها ابنَها بعنايَةٍ كبيرَةٍ وأمَرَتها بأن تحمِلَ الأميرَ الصّغير إلى غرفة الملكة لكي تَسْتبْدِلهُ بالابنَةِ التي ستنجِبُها شقيقتها. لكنّ هذا الاحتراز لم ينفع بشيءٍ لأنّ الملكة التي لم يصلها أيّ خبَرٍ من أختِها الجنيّة أفادَت من حُسْنِ نوايا أحدِ حرّاسِها الذي أشفقَ علَيها وأنقذَها بواسطَةِ سلّمٍ من حبال.

وأكملت الدّجاجة:

- ما إن أبصرْتِ الملكة المحزونَة النّورَ حتّى سَعَت للاختِباء، ووصَلَت إلى هذا المنزل الصّغير شبه مَيْتَة منَ التّعب والألم. أنا كنتُ فلاحَة، قالت الدّجاجَة، ومرضِعَة جيّدَة. كلّفتني بك ورَوَت لي

مصائبَها التي كانت هي تنوء تحت ثقلِها فماتَت دونَ أن يتَسَنّى لها الوقت لأن ترشدنا إلى ما يجب أن نفعَله بك. ولأنّني أحْبَبْت طيلَة حياتي الثّرثرَة، لم أستطع الامتناعَ عن قصّ هذه الحادِثة. وذاتَ يوم، جاءت إلى هنا سيّدة جميلة روَيت لها كلّ ما أعرِفه. وعلى الفور لمسَتني بِعَصاها السّحريَة فأصبَحْتُ دجاجة وفقدت القدرة على الكّلام. وزاد في بليّتي أنّ زوجي كان غائباً في ذاك الحين فلم يعرف شيئاً عن امتساخي. لدى عودَتِه، فتّش عنّي في كلّ مكان. وأخيراً اعتقد أنّني غرقت، أو أنّ وحوش الغابات التهمتني. وهذه السيّدة نفسها التي آذَتْني أشدّ الأذى مرّت مجدّداً من هنا وأمَرَته بأن يُسَمّيَكِ سعدى وأهْدَته خاتَماً فضيّاً وأصيصَ قرنفل. ولكن صادف وجودها هنا مجيء خمسة وعِشرين جنديّاً من حرّاسِ الملك والدكِ يبحثونَ عنكِ وهم يضمِرونَ لكِ الشرّ. عندئذٍ قالَت بضْعَ كلمات وجعلَتْهم يتحوّلون إلى نبتات ملفوفٍ خضراء، ومن بينها تلك التي رمَيتِها مساء أمس من نافذتك. لم أسمعْها تتكلّم حتّى الآن ولم أكنْ قادِرَةً أنا نفسي على الكلام. أجْهَل كيف استعدنا أصواتنا.

مكثت الأميرَة مندَهشَة منَ الأخبار العجيبَة التي قصّتها عليها الدّجاجَة. كانت لا تزال مفعَمَة بالطّيبَة فقالت للدّجاجَة:

– تثيرينَ شفقَتي كثيراً يا مرضعتي المسكينة لأنّك صرتِ دجاجَة. أودّ بقوّةٍ أن أعيدَ إليكِ هيئتَكِ الأولى لو كانَ ذلكَ في مُسْتَطاعي. ولكن دَعينا لا نيأس من شيء. يبدو لي أنّ كلّ الأشياء التي أعلمْتِني بها للتوّ لا يمكنُها أن تظلّ على ما هي عليه. سأبحث عن قرنفلاتي لأنّها الشيء الوحيد الذي أحبّه.

ذهب بودو إلى الغابة. لم يتصوّر أنّ سعدى سوف يخطر لها أن تفتّش في حَصيرَته. سُرّت لابتعاده عن المنزل، وأمّلت النّفس بأنّها

لن تجدَ ما يعْتَرِض طريقَها. وإذا بها تَرى دفعَة واحِدَة مجموعة كبيرَة من الجرذان الهائلة الحجم المسلّحَة للقتال والمنتظَمَة كتائبَ وخلفها الحصيرَة الشّهيرَة وعلى جانبَيها الكرسيّان. وكان هناك فئرانٌ ضخمَة عديدَة تؤلّف جيش الاحتياط ومستعِدّاتٍ للقتالِ مثل الأمازونيّات.

مكثت سعدى مندَهِشَة ولم تجرؤ على الاقترابِ لئلاّ تنقضّ الجرذان عليها وتعضّها وتجعَلَها مُضَرّجَة بدِمائِها.

هتفَت:

- هل هذا معقول! هل ستبْقى يا قرنفلي، يا قرنفلي العزيز برِفْقَة معْشرِ السّوء هذا؟

وفجأةً فطِنَت إلى أنّ الماءَ العَطِرَ الموضوعَ في إناءٍ ذهبيّ قد تكون له مزايا خاصّة. فهُرعَت لتَجْلِبَه. ورَشّت بعض القطرات على جماعة الفئران وفي اللّحظَة نفسها لاذت تلك الحثالَة بأذيال الفرار لتختبئَ في حُجْرِها. وسارَعَت الأميرَة لأخذِ قرنفلاتها التي كانت على وشَكِ أن تموتَ لشدّةِ العطَشِ فسَكَبَت كلّ الماء الذي كانَ في الإناء الذّهبيّ متنشّقة شذاه بكثيرٍ منَ اللذّةِ، وعندَئذٍ سمِعَت صوتاً عذْباً يخرج من بين الأغصانِ ويقول لها:

- يا سعدى التي لا مثيلَ لجَمالِها، ها قد وافى النّهار السّعيد المنشود لأعبّرَ لك عن مشاعري. ثقي أنّ قدرَة جمالكِ تؤثّر حتّى في الأزهار.

ارتَجَفَت الأميرَة ودُهِشَت لسَماعِها نبتة الملفوف والقرنفل والدّجاجة تتكلّم ولِرؤيتها جيشاً منتظِماً منَ الجرذان. شحَبَت وأغمِيَ عليها. في تلك الأثناء وصلَ بودو: كانَ العمل والشّمس قد ألْهَبا رأسه. عندما رأى أنّ سعدى جاءت لتبحَث عن القرنفل ووجدَته، جرّها حتّى الباب ورماها خارِجاً. ما إن أحسّت بنَداوَة الأرضِ حتَى فتحَت عينيها الجميلتين ورأت قرْبَها ملكة الغابات

السّاحِرَة دوماً والبَديعَة.
قالت لسعدى:
- لديكِ أخٌ سيّئ. رأيتُ بأيّة قسوة طردك خارج البيت. هل تريدينَ أن أنتقِمَ لك؟
قالت لها:
- لا يا سيّدَتي. لستُ قادِرَة البتّة على الغضَبِ منه. وطبْعه لا يُمْكِنُه أن يغيّر طبعي.
أضافت الملكة:
- ولكن حدسي ينبؤني أنّ هذا الفلاحَ الضّخمَ ليسَ أخاكِ، فما رأيك؟
أجابَت الرّاعيَة بتواضع:
- جميع المظاهر تؤكّد لي أنّه أخي يا سيّدتي، وعَليّ تصْديقها.
تابَعت الملكة:
- عجَباً! ألم تسْمَعيهم يقولون إنّك وُلدت أميرَة؟
أجابَت:
- قيلَ لي ذلك منذ بعض الوقت. ومع ذلك أوَ يمكنني التباهي بشيءٍ لا أملك إثباتاً عليه؟
أضافَت الملكة:
- آه يا بُنَيّتي العزيزة، كم يعجِبُني موقِفك! أعرف الآن أنّ التّربيَة الغامِضَة التي تلقّيتِها لم تحجب أصلَكِ النّبيل. نعم أنت أميرَة. ولا تظنّي أنّه كان بمقدوري تجنيبكِ المشقّات التي كابَدتِها حتّى هذه السّاعة.
وقاطَعَ كلامَها وصولُ شابّ مراهق إلى ذلك المكان. كان أشدّ جمالاً منَ النّهار، يرتَدي سترَة طويلة ممزوجَة بالذّهب والحرير

الأخضر ومزدانة بأزرارٍ كبيرَة منَ الزّمرّد والياقوتِ والألماس. وكان إكليل منَ القرنفلِ يتوّجُ شعرَه الطّويل المنْسَدِلَ حتّى كتِفَيه. ما إن رأى الملكة حتّى سجَد على ركبَةٍ واحِدةٍ أرْضاً وحَيّاها باحترام. قالت الملكة:

- هذا أنت يا بنيّ! آه يا قرنفل الحبيب! إنّ الزّمنَ المشؤومَ لوقوعك تحت السّحر انتَهى للتوّ بفضلِ نجدَة سعدى الجميلة. يا لفرْحَتي برؤيتك!

واحْتَضنَته بقوّةٍ بينَ ذِراعيها ثمّ التَفَتت إلى الرّاعيَة وقالت لها:

- أيّتها الأميرَة الفاتنة، أعرِفُ كلّ ما أخبرَتْكِ إيّاه الدّجاجة. لكنّ ما لا تعرِفينَه أبداً هوَ أنّ النّسائمَ التي أوْكَلتُ لها أن تضعَ ابني في مكانك قد حملتْه إلى حديقة أزهار. وفيما ذهبَت النسائم لتجْلِبَ أمّك شَقيقتي، إذا بجنيّةٍ عارفة بأدهى فنون السِّحر، وكنتُ متَخاصمَة معها منذ وقتٍ طويل وكانت تتَحَيّنُ لحظة ولادة ابني، حوّلتُه فوراً إلى زهرة قرنفل. وبالرّغم من سِعَةِ علمي لم أستطع الحؤول دون هذه المصيبَة. وفي الحزنِ الذي ملكَ عليّ كياني، استعمَلت كلّ فنّي بحثاً عن حلٍّ فلَم أجد حلاًّ أفضل لسلامة الأمير قرنفل من أن أجلبَه إلى المكان الذي تربّيْتِ فيه، مُخَمّنَةً أنّه حينَ تسْقينَ الأزهار بالماء الطيّب الذي كنتُ احتفظتُ بها في إناءٍ ذهبيّ فسوف يتكلّم ويحبّك ولن يعَكّرَ راحَتَك شيء في المستقبل. كان معي أيضاً الخاتم الفضيّ الذي كان يتوجَب عليّ أن أتلقّاه من يدك، غيرَ غافِلَةٍ أنّه سيكونُ العلامَة التي سأعرف من خلالها أنّ ساعَة زوالِ قدرَة السِّحر قد اقترَبَت، وهذا بالرّغم منَ الجرذان والفئران التي جهّزَتْها عدوّتُنا لكي تمْنَعَكِ من لَمْسِ قرنفلاتك. وهكذا يا عزيزتي سعدى، إذا تزوّجكِ ابني وحملتِ هذا الخاتم، فستتوّجُ الغبْطَة الدائمَة حياتك. والآن لنرَ ما إذا

كنتِ تقدِرينَ على محبّة هذا الأميرِ لتتّخِذيهِ زوجاً لكِ.

أجابت الرّاعية وقد احْمَرَ خدّاها:

- سيّدتي، غمَرْتِني بفضلك. أعرف أنّكِ خالتي، وأنّه بفضلِ معرفتِكِ حوّلتِ الحرّاسَ المرْسَلينَ لقتْلي إلى نباتاتِ ملفوفٍ ومُرْضعَتي إلى دجاجة. وأعرِف أنّ اقتراحَكِ عليّ الزّواجَ بالأميرِ قرنفل هو أكبَرُ شرفٍ أستطيع نيله. ولكن هل أقدر أن أحدّثك عن ظنوني؟ لا أعرف مشاعره ناحيتي لكنّي بدأت أشعر لأوّل مرّة في حياتي أنّني لا أستطيع أن أكونَ سعيدَة إذا لم يحبّني.

قال لها الأمير:

- دَعي الشّكوكَ جانِباً أيّتها الأميرَة الجميلة. منذ زمنٍ طويلِ اعتملت فيّ المشاعر التي ترغبين في إثارَتِها الآن، ولَو كنتُ قادراً على النّطق لكنْتِ سمِعتِ كلّ يوم كلاماً أَسرّ به عن الشّغَفِ الذي يَكْويني بِناره، وأيّ كلام؟ لكنّي أمير تعيس كلّ ما ينشده هو أن تعيريه اهتمامك.

ثمّ قال لها هذه الأبيات:

عندما سُحرتُ وحُوِّلتُ إلى زهرة قرنفل
أوْلَيْتِني رعايتكِ الرّقيقَة واهتمامَك
كنتِ تأتينَ أحْياناً لتتأمّلي بإعجابٍ
الشكلَ الغريبَ لأزهاريَ اللاّمِعة.

لأجلكِ كنتُ أُشيعُ أريجي أعذبَه
وأظْهِرُ لعينيكِ جمالاً جديداً
وعندما أُبعدتِ عنكِ

أصابني يأسٌ قاتل
صرتُ سقيماً
أحيا فيّ الانتظار المؤلم
أنتظِر خفيَةً أن تأتي الفتاة فاتنتي.

كنتِ المواسيَة لآلامي
بيدِكِ الجميلة
رويتِ نُسُغي بماءٍ نقيّ
وأحياناً كانَ فمُكِ الفاتن
يطبَع قبُلاتٍ على أوراقي، وا حسرتاه!، مليئة بالحلاوة.

ولكي أتمَتّع بسَعادَتي بشكلٍ أفضَل
وأبَرْهِنَ لكِ عن حبّي وامْتِناني
كنتُ أتمنّى، في لحظةٍ أذوبُ لرقّتها
أن تُزيل عنّي قدرَةُ ساحر
هذه اللعنةَ الحزينة
واسْتُجيبَتْ أمْنِيَتي، ها إنّي أراكِ وأحبّكِ
وأستطيعُ أن أبوحَ لكِ بعذابي
ولكن وَيا لِشَقائي لقد تبدّلتِ
فأيّ أمنيَةٍ تمنّيتُ أيّتها السّماوات العادلة وماذا فعَلتُ!

بَدَت الأميرَة مسرورَة جدّاً لتوَدّدِ الأمير ومغازَلَتِه الرقيقة. أثنت كثيراً على هذا الشّعر المرتَجَل، ومعَ أنّها لَم تكن معتادَة على سماعِ الشّعر، فقد أطرتْ عليه كمن يتمتّعُ بذوْقٍ رفيع. أمّا الملكة، التي عيل

صبْرها ولم تعد تتحَمّلها في ثياب الرّاعيَة، فلمَسَتها بعصاها لتزيّنها بأجملَ الثّياب. ولِلحال تحوّل الخاتم الأبيض إلى ثوب من ديباج فضيٍّ مزْدانٍ بالعقيقِ الأحمَر؛ ومن تسْريحَتِها العالية انسَدَلَ وِشاحٌ طويلٌ شفّافٌ ممزوجٌ بالذّهب؛ وازدان شعْرَها الأسوَد بألف ألماسَةٍ؛ واتّخذت بشرَتها ذات البياض الباهر ألواناً مفعَمَة بالحياة لدرَجَة أنّ الأميرَ لم يستطع احتِمالَ بريقِها السّاطع.

هتف الأمير متنهّداً:

- ياه! كم أنت جميلة وفاتِنَة! ألن ترحميني من العذاب؟

قالت الملكة:

- لا يا بنَيّ، لن تقدر قريبَتُكَ أن تتجاهل حرارةَ توسّلاتنا.

وصادف ذلك مرور بودو الرّاجع من عمَله فرأى سعدى في جمالها البديع. لم يصدّق ما ترى عيناه. نادَته بكثيرٍ منَ الطّيبَة وتوَسّلت إلى الملكة لكي تشفِقَ عليه.

قالت الملكة:

- عجَباً! بعدَ كلّ المعامَلَة السيّئةِ التي كبّدكِ إيّاها!

فأجابت الأميرَة:

- أنا غير قادرَةٍ يا سيّدَتي على الانتقام!

قبّلتها الملكة وامتَدَحت شهامَة مشاعِرِها.

وأضافَت:

- ولكي أرضيَكِ سأعْتَني ببودو الجاحد.

ولِلحال أصبَح كوخه قصْراً مفروشاً بالأثاث ومليئاً بالمال. لكنّ الكرسيّيْنِ لم يتغيّر شكلهما ولا الحصيرَة، وذلك لتذكيره دوماً بماضيه. لكنّ ملكة الغابات طهّرتْ روحَه من أدرانها وهذّبت أخلاقه وحسّنت شكله. وعندئذٍ باتَ بودو قادِراً على الشّعورِ بالامتنان. وما

الذي لم يقُلْهُ للملكَة والأميرَة لكي يعبّرَ لهما عن امتنانِهِ بهذه المناسبَة؟

ثمّ، وبِضَرْبَةٍ من عصاها السّحريّة، أصبَحَت نبتاتُ الملفوف رجالاً والدّجاجَة امرأة. وحْدَه الأمير قرنفل كان مستاءً وكان يتَأوّه عِشْقاً بالقرب من أميرَتِهِ ويَسْتَحْلِفُها أن تأخذ قراراً لصالحه: وأخيراً وافقت على طلَبه. ولم ترَ في حياتِها من هو أجدَر بالحبّ من ذلك الأمير الشّاب. سُرّت ملكة الغابات لذلك القران الذي كان وشيكاً ولم تُهْمل شيئاً ليَكونَ زفافاً محاطاً بكلّ مظاهر الأبّهة. ودامَ الاحتِفال سنوات عدّة ودامَت السّعادَة بين ذينِك الزّوجَينِ الرّقيقَينِ دوام حياتِهما.

ليسَ لأيّةِ جنيّةٍ فضلٌ في ذلك:
نعرِف والدَي الأميرة اللّطيفة سعدى،
ونعرِف الفضائلَ السّامِيَة التي كانت تُزَيّنُها
وهيَ أعظمُ بِكَثيرٍ منَ الدّم النبيل الذي يجري في عُروقِها.
الاستحقاق وحدَه والفضيلة وحدَها
هما النبل الحقيقيّ.
وأنتَ أيّها المُتّشِحُ بالنُّبل
فيما لا تُظهِرُ إلاّ غروراً وضَعفاً
خُذْ منّي هذه العبرَة:
عبثاً تتباهى باسْمِكَ النبيل وعائلتكَ الأصيلَة
عبثاً تَرْفُلُ بالأرجوان اللاّمع البَرّاق
النّبيلُ النّبيلُ هوَ الفاضِلُ مهما كان أصله وَضيعاً.
ووَحْده الجَديرُ باللّقب
لكنّ أمْجادَكَ ومظاهركَ البرّاقة
أنّى لها أن تجعلكَ نبيلاً؟

لُعَيْبَــة

كان يا ما كان، كان هناك ملكة لا ينقصُها شيء لتكتمِلَ سعادَتها سوى أن تنجِبَ ولَداً. كان هذا مِحْوَرَ أحاديثها كلّه، وكانت تقولُ باستمرارٍ إنّ الجنيّة بَهارِج[1] (هذا هو اسمها) جاءت عند ولادتها، وكانت مستاءة من الملكة والدتها فغضبَت عليها ولم تتمنّ لها إلاّ الأحزان.

وذاتَ يوم، وفيما كانت تجلس حزينَة في ركنٍ أمام النّار، رأت عجوزاً صغيرَة بحجم اليدِ تنزلُ عبر المدخنة، وكانت تمتَطي ثلاثة أعواد من القصب وتحمل على رأسِها غُصْناً منَ الزّعرور البرّيّ[2]. كان ثوبُها مصنوعاً من أجنِحَة الذّباب وحذاءاها من قشرَتَي جوز. شرعتْ تتنزّه في فضاءِ الغرفَة وبعدَ أن دارَت ثلاثَ مرّاتٍ، توقّفَت أمام الملكة وقالت لها:

– منذ زمنٍ طويل وأنتِ تتكلّمين بالسّوءِ عنّي، وتتّهمينني بما ألَمَّ بكِ من أحزانٍ وتحمّلينَني مسؤوليّة كلّ ما يحدُث لك. أوَ تَظنّينَ يا سيّدَتي أنّني السّبب في أنّكِ لم تنجِبي أطفالاً؟ لذا جئت أبشّركَ بولادةِ ابنةٍ لكِ لكنّي أخشى أن تتسبّب لكِ بأشجان كثيرَة.

هتفَت الملكة:

---

(1) جمْع «بهرَجة»، وهو معنى اسم الجنّية الأصليّ: فانفْرلوش Franfreluche، يُشار به إلى الحلى الرّخيصة والبهرجة الزّائفة واللّمعان الكاذب.

(2) زهرة الزّعرور البرّي من الأزهار الشّائكة، ولذا يدعوها الفرنسيّون أيضاً «الشّوكة البيضاء»، كما تسمّيها الكاتبة في بعض المواضع «زهرة الشّوك». وقد حافظنا في ما يلي على هذه التّسمية الأخيرة لِما في تاج الأشواك هذا من دلالة مأسويّة تكثّف آلام لُعَيبة في الشّطر الأوّل من حياتها.

- أرجوكِ أيّتها النّبيلَة بَهارِج، لا تَحرميني شفقَتكِ وعوْنَك. أعِدُكِ بأن أؤدّي لَكِ كلّ الخدَماتِ التي أقْدِرُ عليها، شرطَ أن تكونَ الأميرَة التي تعدينَني بها تعْزِيَتي وليسَ شقائي.

أجابت الجنيّة:

- القدَر أقوى منّي. كلّ ما أقْدِر عليه تعبيراً منّي عن موَدّتي هوَ أن أعطيَكِ زهرة الشّوك هذه. علّقيها إلى رأسِ ابنتكِ ما إن تولَد فهي تحْميها من أخطار عدّة.

أعْطَتها زهرة الشّوك واختَفَت مثلَ البَرق.

بقيَت الملكة حزينةً سارحةً في أفكارها.

قالت:

- وأيّ أمنيَةٍ هذه؟ ابنة سَتتسَبّبُ لي بالدّموعِ والحسرات! ألَن أكون أكثَرَ سعادَةً إذا لم أنْجِبْها؟

بدّد حضورُ الملك الذي كانت تحبّه كثيراً بعضاً من أحزانها. حبلت الملكة، وكانَ كلّ همِّها أثناء حبلِها أن تذكّر وصيفاتها بأن تُعَلَّق زهرةَ الشّوك تلك إلى رأسِ الأميرَة عند ولادَتها وكانت تَحتفظُ بها في علبةٍ ذهبيّةٍ مرصّعَةٍ بالألماس، وكأنّها أثمَن ما لَديها في العالم.

وأخيراً أنجبَت الملَكة أجملَ مخلوقَةٍ وجِدَت حتّى اليوم. وسارَعَت الوصيفاتُ وشبَكْنَ إلى رأسِها زهرةَ الشّوك. وفي اللّحظةِ ذاتها، ويا للهول!، تحوّلت إلى قرْدَةٍ صغيرَةٍ وراحَت تقفزُ وتهَرْوِل وتنطنِط في الغرفةِ كأيّةِ قرْدة أخرى. وعندما رأت السيّدات هذا الامتِساخَ أطْلقْنَ صرخاتٍ مرعِبَة. أمّا الملكة التي أصابها هلَعٌ لا مثيلَ له فكادَت تموتُ يأساً. صرَخَت بهِنّ أن ينتزِعْنَ الباقةَ التي تحيطُ بأذنها. وشقّ عليهنّ كثيراً الإمساكُ بالقَرْدَة لِيَنْتَزِعْنَ عنها الأزهارَ المشؤومة ولكن عبثاً. كانت قرْدَة، قرْدَة حقيقيّة، تأنَفُ الرّضاعة ولا تتصرّف

كالأطفال، غيرَ راغِبَةٍ إلاّ في التهام الجوزِ والكستناء.

هتفَت الملكة بصوتٍ يَشي بألَمِها وعذابها:

- أيّتُها المتوحّشة بَهارِج! ماذا فعَلتُ لكِ لكي تعامِليني بهذهِ القسْوَة؟ ماذا سيصيرُ بحالي؟ أيّ عارٍ جلَبْتِه على نفسي! سيظنّ أفرادُ رعيّتي أنّني أنجَبْت مسْخاً. وماذا سيقولُ الملك عندما يرى هذه الطّفلَة، أيّ رعْبٍ سيَعْتَريه!

وأخذت تبكي وتتوسّل إلى النّسْوَة طالبَة نصحَهُنّ: ماذا بإمكانِها أن تفعَلَ إزاءَ هذهِ الكارثِةِ الطّارئة!

قالت الأكبر سنّاً بينَ الوَصيفات:

- سيّدتي، يجب إقناعُ الملكِ أنّ الأميرَة توفّيَت عندَ ولادَتها. أمّا هذه القرْدَة فيجبُ وضعُها في علبَةٍ ورَمْيُها في قعْرِ البحر. لأنّ احتِفاظَكِ ببهيمَةٍ مثلها لوقْتٍ أطوَل أمرٌ مرْعب.

صعبَ على الملكَة أن تُقرّ على قرار. ثمّ قيلَ لها إنّ الملكَ آتٍ لزيارَتها في غرْفَتِها فمَكَثَت في تشوّشٍ واضطِرابٍ شديدَين، ومن دونِ أن تسْتَرْسِلَ في التّفكيرِ أكثر، قالت لوصيفَتِها أن تفعَلَ بالقرْدة ما تشاء.

أُخِذَت إلى جناحٍ آخر وَوُضِعَت في علبةٍ وأمرَ خادِمُ غرفة الملكةِ برَمْيها في البَحر فانْطَلَق في الحال. وها إنّ خطَراً جاثِماً يُحْدِق بالأميرَة، فالخادِم وجَدَ العلبَة جميلة وأرادَ الاحتفاظَ بها. جلس على ضفّةِ النّهر وسَحَبَ القرْدَة منَ العلبَة مصمِّماً على قتْلِها لأنّه لم يكن يعرف أنّها أميرَته. وعندَما أمسَكَ بها، فوجِىء بسَماعِ جلبَةٍ كبيرَة. التَفَتَ فرأى عربَة مكشوفَة تجرّها ستّة من أُحاديّات القرن[1]، ملتمِعة بالذّهَب والأحجارِ الكريمَة ويتقدّمها جنودٌ محارِبون. وبانَت فيها ملكة

(1) أُحاديّ القرن حيوان خرافيّ له جسم فرس ورأس تيس، بقرن واحد يتوسّط رأسه.

متوّجَة في معطَفِها الملكيّ جالسَة على أرائكَ ذهبيّة مربّعَة تحتَضنُ ابنَها البالِغَ أربع سنوات.

عرفَ الخادِم تلك الملكةَ لأنّها كانت شقيقَة سيّدته. وكانت قد أتَت لتهنّئها بالمَولودِ الجديد. لكنّها ما إن علِمَت بوفاةِ الأميرَة الصّغيرَة حتّى تملّكَها حزنٌ شديد وانطلَقت عائدَة إلى مملَكتِها. كانت مسترسِلة في حلم عميق عندما صرخَ بها ابنها:

- أريد القرْدَةَ. أريد الحصولَ عليها.

التفتَت الملكة فأبصَرَت أجمَلَ قرْدَةٍ رأتْها حتّى ذلك اليوم. سعى الخادِم لإيجادِ وسيلَةٍ للهَرَب فمَنَعَتْه من ذلك وأمَرَت بأنْ يمْنَحوهُ مبْلَغاً منَ المال كبيراً. وبما أنّها وجَدَت القرْدَة ناعِمَة وظريفة كلُعبةٍ صغيرةٍ فقد أسْمَتها لُعَيْبَة. وهكذا، بالرّغم من قساوةِ قدَرِها، وقعَت الأميرة بينَ يدَي الملكة، خالتها.

وعند الوصول إلى المملكة، توسّل الأمير الصّغير إلى والدته أن تعْطيَه القرْدة لُعَيبَة ليلعبَ معها. أرادَ إلباسها كأميرة. خيطت لها كلّ يوم أثواب جديدة وعلّموها أن تمشي فقط على قدميها. لم يكن ممكِناً العثور على قردَة أجملَ وأظرَفَ منها: وجهها الصّغير أسود مثل السّبَج[1]، ولها لحية صغيرة بيضاء وخصلات ورديّة عند الأذنين؛ وقوائمُها منمْنمة مثل أجنحة فراشة. كانت عيناها مفعَمَتينِ بالحيَويّة وتشِيانِ بذكاءٍ كبير فلا يتفاجأ المرء لدى رؤيتهِ ما هي قادرة على فعلَه.

كانَ الأمير يحبّها كثيراً ويداعبُها دونَ توقّف ويحترس جدّاً كي لا تعضّه. وعندما يبكي، تبكي أيضاً. مرّت أربع سنواتٍ على وجودِها عند الملكة عندما بدأت تُتأتِئ وكأنّها طفل يريد أن يقول شيئاً. تفاجأ الجميع من ذلك وشدّ ما كانت دهشَتهم عظيمَة عندما بدأت فيما

(1) السَّبَج: خَرَز أسود.

بعد تتحدّث بصوتٍ عذب جليّ، وكانت كلّ كلمَةٍ تنطق بها واضحة مفهومَة. يا للعجب! قرْدَة ناطِقَة! قرْدَة مفكّرة! أرادَت الملكة أن تحصل عليها من جديدٍ لكي تتسلّى. واقتيدَت إلى جناحِ الملكة رغم حسْرَة الأميرِ الكبيرَة. انْهارَت دموعُهُ قليلاً فسارَعوا إلى مواساتِهِ بمنْحِهِ كلاباً وهررة وعصافيرَ وسناجِبَ وحتّى حصاناً صغيراً يُدعى كريكتان كان يرقص رقصة السّرَبَنْدَة. لكنّ كلّ ذلك لا يساوي كلمة واحدة تنطق بها لُعَيبَة.

أمّا لُعَيبَة فَشعرَت من جهتِها بأنّها مكْرَهَة على القيام بأشياء أكثر صعوبة ممّا كانت تفعل عند الأمير. توجّب عليها أن تجيبَ وكأنّها عالِمَة على مائة سؤالٍ شائك ويتطلّب ذكاءً، وأحياناً تعجز عن الإجابة عليها. وما إن يَفِد سفير أو مبعوث أجنبيّ إلى المملكة حتّى يتمّ إبرازها في ثوبٍ ضيّق منَ المخمَل أو الدّيباج مزدانٍ بياقة. وإذا كان القصر في حِدادٍ، كانت تجرّ خلفَها معطفاً طويلاً أسود تنوء تحت ثقله. ولم يعد لديها الحريّة في أن تأكل طعاماً على ذوقها. يصف لها الطّبيب ما يتوجَب عليها أكله وهذا لا يعجِبُها لأنّها قرْدة وُلِدَت أميرَة.

وزوّدَتْها الملكة بمعلّمين أخضَعوا فكْرَها لتَمارينَ كثيرَة. كانت ممتازَة في العزفِ على البيان. وصنعوا لها بياناً رائعاً من أصداف المحار. وأتى رسّامونَ من سائرِ أقطارِ الدّنيا وخصوصاً من إيطاليا ليَرْسُموها. وطارَت شهرتُها من قُطْرٍ إلى قُطر لأنّه لم يسبق لأحَدٍ أن رأى قرْدَةً تتكلّم.

كانَ الأمير جميلاً كَرُسوم ملائكَةِ الحبّ، ظريفاً وذكيّاً إلى حدٍّ الإعجاز. كانَ يأتي لرؤيَة لُعَيبَة ويتسلّى معها أحياناً ويسترسِلانِ في أحاديث مفعمَةٍ بالمُزاحِ والفكاهَة وأحياناً تصبح جديّة وعميقة. كانَ

لِلُعَيبَة قلب، وذلك القلب لم يتغيّر مع تحوّل هيئتِها الصّغيرَة. فتعلّقت بالأمير وتمادى الأمير في التعلّق بها بدوره. حارت لُعَيبَة التّعيسَة الحظّ فَي ما عليْها فعله. كانت تقضي اللّيالي في أعْلى مصراعِ الشّباكِ أو في زاوِيَةٍ منَ المدفأةِ وترفض الاندساس في سلّتِها المبَطّنَة بالرّيش، النظيفة، الناعِمَة. كانت مربّيَتُها (إذ كان لديها مربّية) تسمعها دوماً تتنهّد حيناً وتشكو أحياناً. تنامت كآبَتُها مثل عقلِها، ولم تنظر يوماً إلى مرآة من دون أن تعمل على كسرها غيظاً واستياءً. هكذا بحيث شاعَ أن يُقالَ بخصوصها: «بما أنّ القرْد يظلّ قرْداً، فلن تعرف لُعَيبَة كيف تتخلّص من المكر الملازم بصورة طبيعيّة لأبناءِ جنسِها».

كبُرَ الأميرُ وكانَ يهْوى الصّيدَ والرّقصَ والمَسرحيّات الفكاهيّة والأسلِحَة والكتب، ولم يعدْ يكترِث بأمْر القرْدة. أمّا من ناحيته فقد أخذت الأمور تتّخذ منحىً آخر. كانت القرْدة تحبّه في سنّ الثانية عشرة أكثر ممّا أحبّتْه عندما كانَ في السّادِسَة، وتلومُهُ على تجاهُلِهِ لها. أمّا هوَ فكان يَظنّ أنّه يؤدّي واجبَه حِيالَها إذا ما أعْطاها تفّاحّة صغيرَة أو حبّات كستناء مغلّفة بالسكّر. وأخيراً ذاعَ صيتُ لُعَيبَة في مملكةِ القرود. فرَغِبَ شَديم[1]، ملك القرود، في الاقترانِ بها، وتنفيذاً لهذه الخطّة، أرسَلَ وفداً مهيباً ليطلب يدها منَ الملكة. لم يصعب عليه أن يُفْصِحَ عن نواياه إلى رئيس الوزراء. لكنّ الأمرَ كانَ سيتّصِفُ بمَشقّةٍ لا حدودَ لها لولا نجدَة الببْغاواتِ وعصافيرِ الكُندش، التي تدعوها العامّة عقاعق تذكيراً بكونها طيوراً ثرثارَة. وبالفعل كانت تعقعق وتثرثر كثيراً، حتّى إنّ عصافير أبي زريق التي تتبَع الموكب ستستاء لو أنّها قوقأت أقلّ منها.

وترأّس الوفدَ قردٌ ضخمٌ يدعى ميرليفيش: أمَرَ بصنع عرَبَة من

(1) استخدمت المؤلّفة هنا الاسم magot وهو قرْد المغرب، واسمه لدى العرب هو «شديم».

المقوّى رُسِمَت عليها الغراميّات الشّهيرَة في امبراطوريّة القرود بين الملك شديم ومونيت[1] القرْدَة التي قضت دون رحمَة بين مخالب قِطّ متوحّش قلّما كانَ معتاداً على حِيَلِها. ورُسمَت أيضاً الحلويّات التي تذوّقَها شديم ومونيت خلال زواجهما، والحزن الشّديد الذي اعْتَرى الملك لدى وفاتِها وبأيّة لوعَةٍ بَكاها. كانت ستّ أرانب بيضاء من نوعٍ ممتازٍ تجرّ تلك العربَة التي سمّيَت على سبيل التكريم، «عربَة الموكب الملَكيّ». وتبعَتْها عربَة منَ القشّ مطليّة بألوانٍ عدّةٍ وفيها القرْدات المكرّسات لخدمةِ لُعَيبَة. يجْدرُ بِكم أن تشاهِدوا أزياءَهُنَّ وهِنْدامَهُن: لقد بَدَوْنَ وكأنّهُنَّ آتِياتٌ إلى عرس. وكان سائرُ الموكبِ مؤلّفاً منَ الكلاب الإسبانيّة والجراء السّلوقيّة والقطط الإسبانيّة وجرذان موسكو وبعض القنافذ وبنات عِرْس الظّريفة والثعالب النّهِمَة. كان بعضهم يقود العربات وبعضهم الآخر يحمل الأمتعة، وعلى رأسهم ميرليفيش الأشدّ وَقاراً من حاكم رومانيّ والأكثر حكمةً من كاتون[2]، مُعْتَلِياً خرْنَقاً[3] يعدو به بأسْرَع من الخَيل الإنجليزيّة.

لم تكن الملكة تعرفُ شيئاً عن ذلك الوفد الرّائع عندما وصلَ بجوارِ قصرِها. تناهَت إليها قهقهات الشّعب والحرّاس وأرْغمَتها على الإطلال برأسِها منَ النّافذة فرَأت أعجبَ موكِبٍ تشاهده في حياتِها. وللحال، تقدّم ميرليفيش الذي كان يواكبه عددٌ ملحوظٌ منَ القرود إلى عرَبَة القرْدات. بسَطَ قائمَته باتّجاه القرْدة الضّخمَة التي تُدعى جيغونيا، أي «أمّ الأولاد»، وأنزلَها منَ العرَبَة ثمّ أفلَت الببّغاءَ الصّغيرَة مترْجمَتَه. انتظرَ حتّى يمثُلَ الطّائر الجميلُ أمام الملكة ويسألَها

---

(1) الاسم «مونيت» Monette تصغير «مون» mone، وهو اسم قرْدة أفريقيّة.

(2) كاتب وسياسيّ رومانيّ توفّي في 149 قبل الميلاد.

(3) الخرنق هو صغير الأرنب البريّة.

الموافقة على مقابلته. حلّقت الببّغاء برفق في الهواءِ ثمّ جاءت لِتَحُطّ إلى النّافذة حيث كانت الملكَة تنظر إليها. قالت لها بصوتٍ لا مثيلَ لجَمالِه:

– سيّدتي، إنّ سيّدي الكونت ميرليفيش، وهو موفَد شديم الشّهير، ملك القرود، يسألكِ أن تستقبِليهِ لأنّه يريدُ أن يحدّثكِ في مسألَةٍ في غايةِ الأهميّة.

قالت لها الملكة وهي تداعبها:

– أيّتها الببّغاء الجميلة، ابدئي أوّلاً بتناولِ رقاقةٍ محَمّصَةٍ واشرَبي شيئاً. بعدئذٍ أوافقُ على أن تذهبي لتقولي للكونت ميرليفيش أنّني أرحّب بهِ في مَمْلَكتي، هوَ وكلّ مَنْ يرافِقه. إذا كانَ السّفَر من مملكةِ القِرَدة حتّى هنا لم يُتعِبْه، فبإمكانِهِ الدّخول الآن إلى قاعَة الاجتماعاتِ حيث سأنتظِرُهُ على عرشي معَ حاشِيَتي كلّها.

وعلى هذه الكلمات، خفضَت الببّغاء قائمَتها مرّتينِ وصفّقَت بجناحيها وأنشدَت لحْناً قصيراً تعبيراً عن فرْحَتِها. ثمّ عاوَدَت طيرانَها وحَطّت على كتِفِ ميرليفيش وهمَسَت في أذنِهِ الجَوابَ المُؤاتي الذي تلَقّته للتوّ. فتَأثّرَ لذلِكَ ثمّ، عن طريقِ مارغو العقعق الذي نصَّبَ نفسَه مُترجِماً مُساعداً، سألَ أحدَ ضبّاطِ الملكَة إذا كانَ في الإمْكانِ إعارتُهُ غرفَة ليَرْتاحَ فيها لبعضِ الوقت. وعلى الفور فُتِحَت غرفة استقبالٍ مرصوفة بالرّخام المُذَهّب المزدان بالرسوم، وكانت الأكثَرَ نظافةً في القصر. دخلَ إليها معَ قسم من حاشِيَتِه. لكن، بما أنّ القرودَ كائنات فضوليّة متطفّلة فقد ذهبتْ للتّنقيبِ في إحدى الزّوايا حيث وُضِعَت مرطابانات مربّى كثيرَة فالتَهَمتها بشراهَة. وأمسَكَ أحدُها بقصعَةٍ منَ البلّور مليئةٍ بالمشمش وآخر بقنّينةِ شراب. ثمّ أمسكَ ذاكَ بفطائرَ محشوّةً وآخر بحلوى اللّوْزيّة. أمّا جماعة الطّير التي كانت في

الموكب فكانت مستاءة من رؤيَة وليمَة ليس فيها بذور قنّب ولا ذرة بيضاء. وطارَ أبو زرَيق، وهوَ ثرثارٌ كبيرٌ بطَبيعَتِهِ، إلى صالةِ الاجتماع واقترَبَ بإجلالٍ من الملكة وقال لها:

- سيّدتي، أنا خادِمِ جلالتك. وبهذه الصّفة لا أستطيعُ أن أكونَ شاهد زور على الضّرر الذي أُلحِقَ بمُرَبَّياتكِ. إنّ الكونت ميرليفيش أكلَ منها ثلاثَ علبٍ من جهته: وها هو يلتَهِم الرّابعةَ دونَ أيّ احترام لجلالتكِ الملكيّة. شعرْتُ عندَئذٍ بغَصّةٍ في القلبِ وجئتُ أعْلِمُكِ بما يجْري.

قالت الملكة مبتسمَة:

- أشكرُكَ يا أبا زُرَيق الصّغير يا صديقي. لكنّي أعْفيكَ من أمرِ الاهتِمام الوَرِعِ بمرطباناتِ المربّى خاصّتي. أتخلّى عنها إكراماً للُعَيبَةَ التي أحَبّها من كلّ قلبي.

خَجلَ أبو زُرَيق مِنَ العصيان الذي أظهرَه للتوّ وانسَحبَ دونَ أن يَنْبسَ بكَلِمَة.

وبَعدَ بضْعِ لحَظات، شوهِدَ الموفَد يدخُلُ معَ حاشِيَتِه. لم يكن مرتدِياً على المَوضَة تماماً لأنّه، منذ عوْدَةِ فاغوتان، قرد المشعبذ الذي لَمَعَ كثيراً في المهرَجاناتِ الشّعبيّة، لم يأتِ إليهم أيُّ طرازٍ جيّد. كانت قبّعَتُه المقرّنة مزيّنَة بباقَةٍ منَ الرّياش الخضراء، وكانَ متَمَنْطِقاً بحَمّالَة سيوفٍ منَ الورَقِ الأزرَق المرَصّع بنثارٍ من الذّهبِ برّاقٍ، ومرتَدِياً جوارِبَ نصفيّة سميكَة وحامِلاً عصا.

وإذ كانت الببّغاء تجيدُ فنّ الشّعر فقد حَضّرَت خطبَةً منظومةً جادّةً للغايَة وتقدّمَت إلى أسفَلِ العَرشِ حيث تجلسُ الملكة. توجّهت إلى لُعَيبَة وقالت:

سيّدَتي، منَ الحبّ الذي يستَشعِرُ شديم أوارَهُ
لكِ أن تعْرِفي سحْرَ عيْنَيْكِ وسلطانَهما.
هذه القِرَدَة والهِرَرَة، هذا المَوْكِب الفخم
هذه العصافيرُ، كلّ شيءٍ هنا يتكلّم عن نارِ حبّه،
عندما وقعَت مونيت (وهذا هو اسم قردَتِهِ الغاليَة)
بَيْنَ براثِنِ قِطٍّ متوَحّشٍ مسْعور،
سيّدتي، لا يمكِنني إلاّ أن أقارِنَها بكِ
عندَما اختَطَفَها الموتُ من شديم، زوجها،
أقْسَمَ الملكُ مائة مرّة بِروحِ مَوتاه أنْ
يُعاهِدَها على الوَفاءِ والحبِّ الأبديّ.
سيّدتي، إنّ سِحْرَكِ طرد من قلبِهِ
الذّكْرى الرّقيقة لحبّهِ الأوّل.
وهوَ لا يفكّر إلاّ بكِ. لو كنتِ تعْرِفينَ سيّدتي
مِقدارَ حُبّهِ لكِ، إنّه بلا حدود
لا شَكّ أنّ قلبَكِ المطْبوعَ على الإشفاق
سيُخَفّفُ من آلامِهِ ويَحْمِل عَنْه نصفَ الحبّ.
كانَ فيما مَضى ضَخْماً سَميناً يقِظاً رَشيقاً
وَها قَد أضْحى اليَوْمَ قَلِقاً شاحِباً شديدَ النّحول
لَكَأنّ همّاً أبدِيّاً يتأكله،
سيّدتي، لَكَمْ يشعُرُ بالحُبّ يأسِرُ كيانَه!
الزّيتون والجوز اللّذانِ كانَ يأكُلُهما بِنَهَم
لمْ يعودا بالنّسبَةِ له إلاّ طعاماً غَثّاً
إنّهُ يُحْتَضَر، وإليكِ وَحْدَكِ نَلْتَجِئ
أنتِ وحِدَكِ بإمْكانِكِ إنقاذهُ منَ الموت

لن أخبرَكِ أبداً عَن المَزايا السّاحِرَة
لِشواطِئِنا البَهجَة
هناكَ حيثُ التّينُ والعِنَب غِلالُهُما وافِرَة
هناكَ حيثُ الثّمار الأشهى تَفيضُ في كلّ المَواسم.

ما كادَت الببّغاءُ تنْهي خطْبَتَها حتّى التَفَتَت الملكة إلى لُعَيبَة التي ظلّت من ناحِيَتِها مذْهولةً صامتَةً في حالٍ لا عَهْدَ لها بها. أرادَت الملكَة أن تعرفَ شعورَها قبل أن تعْطِيَ كلِمَتَها. قالت للببّغاءِ أن تبَلّغَ السيّدَ الرّسولَ أنّها من ناحِيَتِها ستؤازرُ ما يَنْشده ملك القرود. وبعدَ أن انتهى الاجتِماع، انسَحبَت إلى ديوانها وتَبعَتْها الملكة، قالت لها:

- يا قُرَيدَتي، أقِرُّ بأنّني سأتَحسّر كثيراً من جرّاء بُعْدِك عَني لكن ما من سبيلٍ لرَدِّ طلبِ شديم الذي يريدكِ زوجَة له لأنّني لم أنسَ بعدُ الحَمْلة التي جَهّزَها والِده وقِوامُها مائتا ألف قردٍ لمُسانَدَةِ حرب كبيرَةٍ كانَت تُشَنّ ضدّ والِدي. والتَهَموا حينَها عدداً كبيراً من رعايانا ما أجبَرَنا على عَقدِ سَلام مُهينٍ معهَم.

أجابَت لُعَيبَة بنَفادِ صَبر:

- هذا يعني يا سيّدتي أنّكِ صمّمْتِ على التّضحِيَةِ بي لهذا المسخ اللّعين تجنُّباً لغضَبه. لكن أرجو جَلالَتَكِ أنْ تمْهليني على الأقلّ بضعَةَ أيّام لأتّخِذَ قراريَ الأخير.

قالت الملكة:

- هذا عَينُ الصّواب. وَلكن إن أردْتِ أن أصْدِقَكِ القولَ، فأنا أعتقد أنّ عليكِ أن تتّخِذي قرارَكِ سَريعاً. خذي بِعَينِ الاعتِبارِ المَراسِمَ الاحْتِفاليّة التي يُعِدّونَها لكِ وفخامَةَ البِعْثَةِ الموفدة والوَصيفاتِ المرْسَلات. أنا متأكّدَةٌ منْ أنّ شديم لَمْ يفْعَلْ لمونيت ما يَفْعَله لكِ.

أجابَت لُعَيبَة الصّغيرَة بنبرَةِ ازدراء:

- لا أعرفُ ما الذي فعَلَه لمونيت لكنّي أعرِفُ جيّداً أنّ المَشاعِرَ التي يَكنُّها لي لا تُؤثّر بي كثيراً.

ولِلحال نهضَت وانْحَنَت بجَلالٍ أمامَ الملِكَة. ثمّ ذهبَت لِتبْحَثَ عنِ الأميرِ وتشكو له حالَها. ما إنْ رَآها حتّى هتَفَ:

- حسَناً يا لُعَيبتي، متى سَنَرْقُصُ في عُرْسك؟

قالت له بحزن:

- لا أعرِف يا سيّدي. لكنّ الحالَ التي أنا فيها مثيرَةٌ للشّفَقة وَما عُدْتُ أستطيعُ أن أكْتُمَكَ سرّي معَ أنّ ذلكَ يسيء إلى كَرامَتي. عليّ الاعترافُ أنّكَ الوحيدُ الذي أستَطيعُ أنْ أتَمَنّاه زوجاً لي.

قال الأميرُ مقَهْقِهاً:

- زوجاً لكِ! زوجاً يا قرْدَتي! أنا مسحورٌ بما تقولينَه لكنّي آمُلُ معَ ذلِكَ أن تعْذريني إذا لم أقْبَل بأنْ أكونَ شريكَ حياتَك لأنّنا من طينَةٍ مختَلِفَة فَلا القِوام متَشابه ولا المظهَر ولا التّصرّف.

قالت:

- أوافقُ على ما تقولهُ لا سيّما وأنّ قلبَينا ليسا متشابهَين. فأنْتَ جاحِد. منذ وقتٍ طويل وأنا ألاحِظُ ذلك. وإنّه لَأمْرٌ مسْتَغْرَبٌ أن أقدِرَ على حبّ أميرٍ قلّما يستَحِقّ ذلك.

قال:

- ولكن يا لُعيبَتي، فكّري في المشقّة التي سأجِدُها لدى رؤيتكِ جاثمَةً على أعْلى شجَرَةِ جمّيز وأنتِ تتعلّقين بطرفِ ذيلِك إلى أحد فروعها: صدّقيني، لنأخذ المَسألةَ على سبيلِ الهزْلِ وهذا لصالحِكِ وصالحي. تزوّجي ملكَ القرود شديم. وباسمِ الصّداقةِ الطيّبَة التي تجمَعُنا، ابعثي لي بأوَل قرْدٍ منْ نسْلِكُما.

فعقّبت لُعَيبَة:

- أنتَ محظوظٌ لكوْني لا أتَحَلى تَماماً بعقْلِ قرْدَةٍ لأنّ واحدةً غيري كانت فقَأت عينيكَ وعَضّت أنفَكَ واقتَلَعَت أذُنَيك، لكنّي أدَعُ للأيّام أن تحمِلَكَ على التّفكيرِ بشأنِ تصرّفكَ المُهين.

ولَم تسْتَطع متابَعَة كَلامِها. جاءَت مرَبّيتها للبَحْثِ عنها فالرّسولُ ميرليفيش ذَهَبَ إلى جَناحِها وفي حوْزَتِهِ هدايا بَديعَة.

كانَ هناكَ بيتُ عنكبوتٍ مطرّزٌ بيَراعاتِ حقولٍ، وقشرَةُ بيضَةٍ تَحْوي على الأمْشاطِ، وكبّة خيوط في شكلِ حبّة كرّز حمراءَ، وكلّ الثّياب الدّاخليّة كانَت مزْدانَة بدانْتيلاّ منْ وَرَق: وكانَ هناكَ أيضاً في سلّةٍ أصدافٌ عدّة متلائمَة فيما بيْنَها، بعْضُها يُسْتَعْمَل كأقْراطٍ للأذُنينِ وبعْضُها الآخَر كَمَشابكَ للشَّعر، وكُلّها تَلْمَع كالألْماس. والأفضَل من ذلِكَ كلّه دزينَة منَ العلبِ المَليئةِ بالمُرَبّى وَدُرْجٌ صغير زجاجيّ في داخِلِهِ حَبّتا بندُقٍ وزيتون، لكنّ المفتاحَ ضاعَ ولُعَيبَة قَلّما اكتَرَثَت لذلك.

أفْهَمَها الرَسولُ وهوَ يُهَمْهِم، وتلكَ هيَ اللّغَة التي يستخدِمونَها في مَمْلَكَةِ القرود، أنّ مَلِكَهُ تأثّرَ بسِحرِها كما لم تؤثّر به قرْدَة في حياتِهِ حتّى أنّه بنى لها قصْراً في أعلى شجَرَةِ تنّوب، وبَعَثَ لها بتلك الهَدايا، وبهذِهِ المربّيات اللّذيذَة، تعبيراً أمثل عن حبّه لها.

ثمّ أضاف:

- ولكنّ أكبَرَ بُرهانٍ، يا سيّدَتي، على عاطِفَتِهِ الجَيّاشة تجاهك، والذي يفترضُ أن يُؤثّرَ بكِ أكثرَ من أيّ شيءٍ آخَر، هو أنّه عُنِيَ بأن يبعَثَ لكِ برَسْمِهِ لكي يُسَرّعَ من رَغبَتِكِ في رؤيَته.

وللحال، بسَطَ رَسمَ ملكِ القرودِ جالِساً على قِرْمَة ضخمَةٍ ممْسِكاً تفّاحَة يأكلُها.

أشاحَت لُعَيبَة بنَظَرِها لكي لا تتأمّل لوَقْتٍ أطْوَلَ وجْهاً بهذِهِ البَشاعَةِ وزَمْجَرَت مرّتَينِ أو ثلاثاً لكي تُفهِمَ ميرليفيش أنّها تُكِنّ الاحْترامَ لسيّدِهِ لكنّها لم تقرّر بعْدُ ما إذا كانَت راغبَةً في الزّواج.

وَفي تلك الأثناءِ قرّرَت الملكة ألاّ تستَجْلِبَ غضَبَ القرود؛ وإذ ظَنّت أنّه لا يستوجِبُ القيامَ باحْتِفالاتٍ رَسْميّةٍ كثيرَةٍ لإرْسالِ لُعَيبَة حيث كانت تريد لها أن تذهَب، أمَرَت بإعْدادِ كلِّ شيءٍ لِرَحيلِها. وعندَما عَرَفَت لُعَيبَة بذلك، تَمَلّكَ اليأسُ قلبَها تَماماً، فاحْتِقارُ الأميرِ من جهَة ولا مُبالاة المَلكة من جِهَةٍ أخرى دَفَعاها لاتِّخاذِ القرارِ بالهَرَب. والأكثرُ من ذلكَ كلّه مثل ذلك الزّوجِ المقدّرِ لها. ولم يكن هرَبُها بالأمْرِ الصّعب، فمُنذ أنْ بدَأت تتكلّم فُكَّ وثاقَها، وكانَت تذهَبُ وتجيءُ بحُريّةٍ إلى غرْفَتِها وتدخل إليها سواءً منَ النّافذَةِ أو منَ الباب.

أسْرَعَت في إعْدادِ العدّة للرّحيلِ فقفَزَت من شجَرَةٍ إلى شجَرَةٍ ومن غصْنٍ إلى غصنٍ حتّى وصَلَت إلى ضفّةِ أحَدِ الأنهارِ. وحالَ إمْعانُها في اليَأسِ من أنْ تُدْرِكَ الخطَرَ الذي يُحْدِقُ بها حينَ أرادَت أنْ تَعْبُرَ النّهرَ سباحَة. ومن غيرِ تفكيرٍ، ارْتَمَت في النّهر وسُرْعانَ ما غارَت في الأعْماق. لكن أرْشدَتها بقيّةٌ من صَواب إلى مغارَةٍ بديعَةٍ لَمحَتْها مزَيّنَة بالأصْدافِ فَعاجَلَت للدّخولِ إليها واستَقْبَلَها هناك شيخٌ جليلٌ كانَت لحيَته البيضاء مسترْسَلة إلى خصْرِه. كانَ مضطجعاً على أصلات القصَب والدّلبوث وعلى رأسِهِ تاجٌ من زهرِ الخشْخاشِ والزّنبَقِ البريّ. اتّكأ إلى صخرَةٍ تسيلُ منها ينابيع عدّة ترفد ماءِ النّهر.

قالَ وهوَ يمدّ لها يدَه:

– مرحى أيّتها القردة الصّغيرَة! ما الذي جاءَ بكِ إلى هنا؟

أجابَته:

تزويجي منه.

أضافَ الشّيخ الجليل:

- أعرِف عن أخبارِكِ أكثر ممّا تظنّين. صحيح أنّكِ تمْقتينَ شديم ملك القرود، ولكن صحيحٌ أيضاً أنّكِ تحبّينَ أميراً شابّاً لا يأبه لأمْرِكِ.

هتَفَت لُعَيبَة متنهّدَة:

- آه يا سيّدي لا تحدّثني عن ذلك. إنّ ذكراه تزيدُ في آلامي.

تابعَ مضيفُ مملكةِ الأسماك؟

- لن يكونَ عصيّاً دوْماً على الحبّ فيها بعد. أعرِف أنّه مقدّر لأجْمَلِ أميرَةٍ في الكون.

تابَعَت لُعَيبَة:

- ما أتْعَسني! إذاً لن يكونَ لي أبداً.

ابتَسَمَ الرّجل الشّيخ الطيّب قائلاً لها:

- لا تحْزَني أبداً يا لُعَيبَة الطيّبة. الزّمَن يحْكُمُ كلّ شيء. احرصي فقط على الاحتفاظِ بالدُّرَج الصّغيرِ منَ الزّجاج الذي بعَثَه لكِ شديم والذي أبقَيْتِهِ صُدْفَةً في جَيْبك. لا أستَطيعُ أن أقولَ لك أكثرَ من ذلك: ها هيَ سلحَفاةٌ ماضية في طريقِها، اعتليها وستوصِلُكِ إلى حَيثُ يجب أن تذهَبي.

قالت له:

- بعدَ كلّ المعروفِ الذي أسْدَيته لي، لا يمْكِنني أن أتَجاهَلَ التعرّفَ إلى اسمك.

- يُسَمّونَني بيروكوا، والد بيروكي، هذا النّهر الذي تَرَيْنَ والذي هو ضخْمٌ وشهير.

صعَدَت لُعَيبَة على السّلحفاةِ بكَثيرٍ منَ الثّقةِ وَسارَتا لوقْتٍ طويلٍ

على الماء. وأخيراً، بعد شوطٍ بَدا لها طويلاً، بلغت السّلحفاة الضفّة. يصعُبُ إيجادُ شيءٍ أكثر أناقة من ترْسها وباقي العِتاد الذي كان أشبه ما يكون بسَرْجٍ على الطّريقةِ الإنكليزيّة. كانَ هناكَ في السّرجِ مسدّسان، وغِمْداهُما من أجسام سلطعونات.

وسافرت لُعَيبَة بثقَةٍ كامِلَة على ظهر السّلحفاة متسَلِحَة بوعودِ الحَكيم بيروكوا. وفجأةً سمِعَت جلَبَةً كبْرى. يا للهول! إنّه الرّسول ميرليفيش، معَ كلّ معاونِيه الميرْليفيشيّين، كانوا عائدين إلى مملكَةِ القرود، مطأطئي الرؤوس متحَسّرينَ على هَرَبِ لُعَيبَة. صعَدَ قردٌ منَ الفرقةِ إلى أعْلى شجرة جوزٍ لكي يَفْرِطَ الجوزَ ويُطْعِمَ صِغارَ القِرَدة. لكنه ما إن اعْتَلى قمّة الشّجرَة ونَظَرَ متلفّتاً حولَه حتّى لَمَحَ لُعَيبَة وهيَ تمْتَطي السّلحفاة المسكينَةَ التي كانت تسيرُ ببطءٍ في أرضٍ مكشوفَة. لمّا رآها بدأ يصرُخُ عالِياً فسألَه القرود المتجمّعونَ بلُغَتِهم ماذا هنالِكَ فحَدّثَهم عمّا رآه. فأفلتوا في الحالِ الببّغاواتِ وطيورِ العقعَق وطيور أبي زرَيق التي حلّقَت حتّى مكان لُعَيبَة، ووفقاً لتبليغِهم هُرِعَ الرّسول والقرودُ وباقي الموكب إلى لُعَيبَة واعتقَلوها.

يا للاستِياءِ الذي اعْتَرى لُعَيبَة! منَ الصّعْبِ أن يكونَ هنالِكَ استياءٌ أكبر وأشدّ إيلاماً. أُجْبرَت على الصّعودِ في «عرَبَة المحفل الملكيّ» وَأحيطَت في الحالِ بالقرودِ الأكثرِ تيَقّظاً، وبعض الثّعالب، وَديكٍ جَثمَ على أعلى العرَبة ليقومَ بالحِراسَة ليلاً ونهاراً. وكان هناكَ قردٌ يتَعَهّد السّلحَفاة ويحرُسَها وكأنّها حيوانٌ نادر: وهكذا تابعَ الموكِبُ سيْرَه رغمَ امْتِعاضِ لُعَيبَة التي كانت ترافِقُها السيّدَة جيغونيا، وهي كما يدلّ عليها اسمها قردَة ضخمة حادّة الطّباع وقليلة التهذيب.

وبعْدَ مرورِ ثلاثةِ أيّام دونَ حادِثةٍ تُذْكَر، تاهَ المرْشدونَ ووَصلوا جميعاً إلى مدينَةٍ كبيرَةٍ شهيرَةٍ لم يكونوا يعْرِفونَها. لكن لمّا لَمحوا حديقَةً

جميلَةً بوّابتُها مفتوحَة توقّفوا فيها ونَهَبوا كلّ شيءٍ وكأنّهم يغزونَ بِلاداً. هذا أخذ ينْهشُ الجوزَ وذاكَ يَزدَرِدُ الكَرَز وآخرُ يُجَرّد شجرَة خوخ. وأخيراً لم يتبَقّ قردٌ صغيرٍ إلاّ وسَعى إلى إيجادِ الرّزقِ وخزّنَ منه.

يجْدُرُ التّنويه إلى أنّ تلك المدينة كانت عاصِمَة المملكَة حيث وُلِدَت لُعَيبَة وكانت تسكنُ فيها والدتها الملكَة منذ أن ألّت بها المصيبَة لدى رؤيَتها وليدَتَها تتحوّل إلى قرْدَةٍ بفعْلِ زهرة الشّوك. لم تكن تحتَمِلُ أن ترى في وِلاياتها أيّاً من صنوف القرَدة، سواء من صنف النّسناس أو السّبوس أو الشّديم[1]، ولا أيَّ شيء يعيدُ إلى ذاكِرَتها تلك الحادِثة المشؤومَة التي تدعو للرّثاء. وكانَ يُنْظر إلى القرودِ في مَمْلكَتِها على أنّهم جنسٌ مثيرٌ للشّغب ومقلق للرّاحَة. فَيا للدّهشَةِ التي أصابَت الشّعبَ إذ رأى عربَة المقوّى وعربة القشّ المُلوّنة وسائرَ الموكب العجيب لا بَل الأعجَب مذ كانَت قصَصٌ ومذ كانت جنيّات!

طارَت الأخبار إلى القصر وارتَجَفت المَلكَة خَوْفاً ظنّاً منها أنّ أمّة القرود تريد أن تستوْلي على زِمام الحكم. فَسارَعَت إلى الدّعوَةِ لانعِقادِ المجْلِسِ وأمَرَت بإعدامِهم جميعاً بِصِفَتِهم مجرمين بتهْمَةِ القدْحِ في الذّاتِ الملكيّة. وإذ أرادَت ألاّ تضيّع الفرْصَة بإعْطاءِ أمْثولَة يتذكّرها النّاس في المستقبل، أرسلَت حرّاسَها إلى البستان وأمَرَتْهم بالإمْساكِ بجميع القرود، فرَمَوا بشباكٍ كبيرَةٍ على الأشجار واصطادوها. وبالرّغَم منَ الاحْترام المتوجّب عادةً للرّسولِ فإنّه عومِلَ باحتِقارٍ شديدٍ في شخص ميرلَيفيش ورُمِيَ دونَ رحْمة في أحد الأقبيةِ حيثُ احتُبِسَ هوَ وأصدِقاؤهُ مع القرْداتِ السيّدات والآنسات اللّواتي كُنّ يُرافِقْنَ لُعَيبَة.

---

[1] الأسماء الثلاثة تشير إلى عدد من صنوف القرَدة.

أمّا لُعَيبَة فأحسّت منَ جهَتِها بفرْحَةٍ غامِضَةٍ حِيالَ تلك الفوضى المستجدّة. فعندما يصلُ الخزيُ وفقدانُ الحظوَة إلى حدّ معيّن، تَهونُ الأشياءُ كلّها ويصبِحُ الموتُ نفسهُ الغايَة المنشودَة. وتلك هي الوضعيّة التي ألفتْ فيها لُعَيبة نفسَها، إذ كان قلبُها مشغولاً بالأميرِ الذي احْتقَرَها، وكانت قد هالتها فِكْرة الزّواج الوَشيكِ بملِكِ القرود شديم. لكنْ، يجب ألاّ ننسى أنّ ملابِسَها كانت رائعَة وتصرّفاتُها خارجة عن المألوف، ما جَعَلَ الذينَ أمْسَكوا بها يلاحِظونَ أنّها شيء فريد في نوعه. وعندما تحدّثت إليهم، زادَت دهشتهم لا سِيّما وأنّهم سبقَ لهم أن سمعوا عن لُعَيبَة العجيبَة. كانت الملكة التي عثرَت عليها تجْهَل كلّ شيءٍ عن امتساخها، وغالِباً ما كتبَت إلى شقيقَتِها لِتَقولَ لها إنّها تَمْلِكُ قُرَيْدَة رائعَة ورَجَتْها أن تأتِيَ لِرؤيَتِها. لكنّ الملكة الحزينة لم تكترث للأمْرِ أطلاقاً. وأخيراً بعد أنَ فُتِنِ الحرّاسُ بلُعَيبَة، حَملوها إلى صالَةٍ كبيرَةٍ وجَعَلوا لها عرْشاً صغيراً. وأُجْلِسَت عليهِ بصِفَتِها ملكةً وليسَ بصِفَتِها قُرَيْدَة أسيرَة. وإذ مرّت الملكة بالقاعَة مكَثَت مندَهِشَة ومنذَهِلَة أمامَ جَمالِ وجْهها وكلماتِ المُجامَلَةِ اللّطيفة التي بادرَتْها بِها، وأحسّت بقوّةٍ طبيعيّة تجْذِبُها، رغْماً عنها، إلى الأميرَةِ القرْدَة.

أخذَتها الملكة بينَ ذراعِيْها. وعندئذ ارْتَمَت المخلوقة الصّغيرَة على عنُقِها مدفوعَة بمشاعرَ لم تعرفها من قبل، ثمّ قالت لها أشياءَ في غايَةِ الرقّةِ والتّهذيبِ ما أثارَ إعجابَ كلّ مَن سمِعَها.

هتَفَت قائلة:

– لا يا سيّدتي، ليسَ الخوف من موتٍ وَشيك، وقد عَلِمْتُ أنّكِ تهَدّدينَ به أمّة القرودِ التّعيسَة، هوَ الذي يُرْعِبُني وَيُلزِمُني السّعْيَ لإيجادِ وسيلَةٍ لإعجابكِ والدّخولِ إلى قلبك. ليست نهايَةُ حياتي هي المصيبة الكبرى التي يمكن أن تحدث لي؛ ولديّ منَ المشاعرِ

التي تتخطّاني بحَيث لا أحرص إطْلاقاً على بقائي على قيدِ الحياة. المسألة هيَ أنّني أحبكِ يا سيّدَتي، وليسَ تاجُكِ هو الذي يؤثّر فيَّ بَل فَضائلُك.

برأيكم بِمَ يمكنُ الردّ على هذه القرْدَة التي تُجيدُ التّبْجيلَ والتّوْقيرَ إلى هذا الحدّ؟ ظلّت المِلكَة صّامِتَة كسمَكَةِ شبّوطٍ محمْلقَةً بعَينَيها ظنّاً منها أنّها تَحْلم وشعَرَت بتّأثّر كبيرٍ لِما قالَته القردة.

حملت القرَيْدَةَ إلى ديوانها، وعندَما أصبَحَتا وحْدَهما، قالت لها:

- لا تتأخّري لحظةً في قصِّ مُغامَراتِكِ عليّ لأنّني أشعُرُ فعْلاً أنّه من بينِ كلّ البَهائم التي تمْلأ الأقفاصَ والتي أحتفظ بها في قصري ستكونين أنتِ مَنَ أحِبّ أكثر. وأؤكّد لكِ أنّني إكراماً لكِ سأعْفو عنِ القرودِ التي تُرافِقُكِ.

هتَفَتْ:

- رويدك يا سيّدَتي! لا أطْلبُ منكِ أنْ تعفي عنْهم. إنّ قدَري اللّعين جعَلَني أولَدُ قرْدَةً وهذا القدَرُ نفسُهُ أمَدّني بِميزَةٍ ستَجْعَلُني أتَعَذّبُ حتّى مَماتي لأنّني في النّهايَةِ أحسّ بالألم حينَ انظرُ إلى نفسي في المِرآةِ صغيرَةً هكذا وقبيحَةً وسوداءَ، قوائِمي مكْسوّة بالوَبَر ولديّ ذيلٌ وأسنانٌ متأهّبَةٌ دوماً للعَضّ. لكنّي في الوقتِ نفسِهِ لا أفتَقِرُ إلى الذّكاءِ ولدَيّ ذوقٌ وأحاسيس مرهفة!

قالت الملكة:

- هل أنتِ قادِرَةٌ على الشّعورِ بالحبّ؟

تنهّدَت لُعَيبَة دونَ أن تُجيب.

أرْدَفَت الملكة:

- اسمَعي! عليكِ أن تقولي لي هل تُحِبّينَ قرْداً أو أرْنَباً أو سنْجاباً. لأنّكِ إذا لمْ تكوني مرتبطَةً بأحَدٍ فلَدَيّ قزَمٌ يُلائمُكِ جدّاً.

قابلت لُعَيبَة هذا الاقتِراحَ بتعابيرِ احتقارٍ، فانفجَرَت الملكَة ضاحِكَةً وقالَت لها:

- لا تغضَبي وقولي ما الذي أعطاك القدرة على الكلام.

فأجابَت لُعَيبَة:

- كلّ ما أعْرِفُهُ عن قصّتي هوَ أنّ الملكَة شقيقَتكِ عندَما غادرَت بعدَ وِلادَةِ الأميرةِ ابنَتِكِ ووَفاتِها، شاهَدَت وهيَ تمرّ عندَ شاطئِ البحْرِ أحدَ خدّامِكِ يُريدُ إغراقي فانتَشَلوني من بين يدَيهِ بأمْرٍ منها. وبِفَضْلِ معجزَةٍ أدْهَشَتِ الجَميعَ أيضاً أعْطِيَ لي الكلام والذّكاء. ثمّ زوّدوني بمُعَلّمين لقّنوني لغاتٍ عدّة والعزفَ على آلاتٍ موسيقيّة، وفي النّهايَة يا سيّدتي أصبَحْتُ أشعُرُ بخُزْيي وفقْداني الحَظْوَة و...

وعندئذٍ رَأت وجْهَ الملكَة شاحِباً ويندى عرَقاً بارِداً فهتَفَت:

- لكن يا سيّدتي ماذا دَهاكِ؟ ألاحِظُ انقِلاباً وتبَدّلاً كبيرَينِ في ملامِحِك...

قالت الملكة بصوتٍ واهنٍ غيرِ مفهوم:

- إنّني أُحْتَضر. أُحْتَضرُ يا ابنَتي العزيزَة التّعيسَة الحظّ! اليوم أستَعيدُكِ من جديد!

وإثرَ هذه الكَلِمات، فقَدَت رُشْدَها فارْتَعَبَت لُعَيبَة وهُرِعَت تطلبُ النّجْدَة. وسارَعَت الوَصيفاتُ بإعْطائِها ماءً وَحلِّ أرْبطَتِها ووضْعِها في السّرير. اندَسّت لُعَيبَة معَها في الفِراش ولَم يَنْتَبِهْنَ لها لِصِغَرِ حجْمِها.

وعندَما عادَت الملكَة من غيْبوبَتِها الطّويلَة التي داهَمَتْها إثرَ ما قالَته الأميرَة، أرادَت أن تختَلِيَ بالسيّداتِ اللّواتي يعْرِفْنَ سرَّ الولادَةِ المشؤومَة لابنَتِها. رَوَت لهُنّ ما جرى لها وبَقينَ حائِراتٍ وَلَم يَعْرِفْنَ بِماذا ينْصَحْنَها. لكنّها أمَرَتْهُنّ بأن يُرْشِدْنَها إلى ما يَحْسُنُ القيام به في

مناسبةٍ رهيبةٍ كتلك. قالت بعْضُهُنّ إنّه يجب خنقُ القُريْدَة، وأخرَيات إنّه يجب احْتِباسُها في حُفْرَة، أوْ رَمْيُها في البحر. فيما راحَت الملكة تبكي وتَشهق.

قالت:

- لديها ذكاءٌ مذْهش. يا لسوءِ حظّها! كيف حوّلتها باقة مسحورَةٌ إلى قرْدَة! لكنّها ابنَتي، إنّها دَمي، أنا مَن اجتذبْتُ سخْطَ الجنيّةِ الشّرّيرَةِ بَهارِج؛ هل مِنَ العدْلِ أن تتَعَذّبَ بسبب الحِقْدِ الذي تُضْمِرُهُ هذه الجنيّة لي؟

هتفت وصيفتُها العجوز:

- نعم، يا سيّدتي يجب أن تحْمي سُمعتك المجيدة. ماذا سيقولونَ عنكِ في المجتَمَع إذا صرّحْتِ أنّ ابنَتُكِ قرْدَة؟ من الخزي أن تَحْظى امرأة جميلَة مثلك بأطفالٍ مماثلين!

عيلَ صبْرُ الملكَة لسَماعِها هذا الكلام. لم تكنْ لا هيَ ولا الوصيفات الأخرَيات متحَمّساتٍ للتّخَلّص من ذلك المسْخِ الصّغير. وفي الخِتام قرّرَت أن تسْجنَ لُعَيبَة في أحَدِ القصورِ حيثَ سيُقَدّمُ لها أفْضَلُ الطّعام وتُحاطُ بأفْضلِ رعايَةٍ حتّى نهايَةِ أيّامِها.

عندَما سمِعَت لُعَيبَة أنّ الملكَة تُريدُ وضْعَها في سجنٍ، انسَحَبَت بهدوءٍ من السّريرِ وقفزت من النّافذَةِ لتحطّ على شجَرَةٍ في الحديقَةِ ولاذتْ بأذيالِ الفِرارِ حتّى الغابَةِ الكبيرَةِ تاركةً الجَميعَ في بلْبَلَةٍ من جرّاء اختفائها.

وأمْضت اللّيلَ في جوفِ سندِيانَةٍ حيث تسَنّى لها الوقت لكي تتأمّل قساوَةَ مَصيرِها: لكنّ الأمرَ الذي كانَ يتَسَبّب لها بألم أكبر هو اضطرارها للافتراقِ عن الملكة. ومعَ ذلكَ آثَرت أن تتعَمّدً الابتِعادَ وتظلّ حرّةً وسيّدةَ نفسِها على أنْ تفقِدَ حريّتَها إلى الأبد.

ما إن طلَعَ النّهار حتّى تابَعَت سَفَرَها دونَ أن تعرِفَ أين تُريدُ الذّهاب وهيَ تفكّر وتُعيدُ التّفكيرَ مِراراً بتلك المغامَرَةِ العَجيبَةِ التي كانت تَعيشها.

هتَفَت:

- يا للهُوّةِ التي تفصِلُ ما أنا عليهِ عَمّا يجبُ أن أكون!

وسالت الدّموع بغزارَةٍ من عينَيها الصّغيرَتين، عينَي القُرَيدة المسكينَة. ما إن طَلَعَ النّهار حتّى رحَلَت. كانَت تخشى أن تأمُرَ الملكة بأن يلْحَقوا بها، أو يقتادَها أحَدُ القردَةِ التي أُفْلِتَتْ مِنَ القبْوِ إلى الملك شَديم رَغماً عنها. وتابَعَت سيْرَها، سارَت طويلاً على غَيرِ هُدىً دونَ أن تتبَعَ طريقاً معيّنَةً أوْ دَرْباً وابْتَعَدَت حتّى وصَلَت إلى صَحْراءَ كبيرةٍ لا منْزِلَ فيها ولا شجَرَة وَلا ثَمَرَة ولا عشب ولا سبيل ماء. وتوَغّلَت فيها دونَ تفكير. وعندَما بدأ الجوعُ يَنْهَشُ أحْشاءَها أدْرَكَت، ولكن بعدَ فواتِ الأوان، أنّ ترْحالَها في مثلِ تلك الأصْقاعِ كان تَهوّراً كبيراً من قِبَلِها.

مرّ يَوْمانِ وَمَرّت ليْلَتانِ من دونِ أن تقدِرَ على العثورِ على دودَةٍ صغيرَةٍ أو ذبابَةٍ فتَمَلّكَها الخوف منَ الموت جوعاً. كانَت واهِنَة جدّاً بحَيْث فقدَت رُشْدَها واضطجَعَت أرْضاً. ثمَ تذَكّرَت الزّيتونَة والبُنْدُقَةَ اللّتَين كانَتا لا تزالانِ في العلبة الصّغيرة الزّجاجيّة فارْتَأت أنْ تجْعَلَ منها وجْبَةً صغيرَة. ابتَجَهَت لشعورها بذلك البَصيص منَ الأمَل؛ أمسَكَت حجَراً وكَسَرَت العلبة لتَلْتَهِمَ الزّيتونَة. لكنّها ما كادَت تغْرُزُ أسنانَها قليلاً فيها حتّى فاضَ منها زيتٌ عطْرِيّ مُنْداحاً على قائمتَيها الأماميّتين فأصبَحَتا أجْمَلَ يدَينِ في العالَم: لشَدّ ما كانت دهشتُها كبيرَة! أخذت من ذلك الزّيتِ ودَعَكَت جسْمَها كلّه! يا للعجَب! تحوّلت في الحالِ إلى فتاةٍ جميلَةٍ لا مثيلَ لجَمالِها.

شَعَرَت بعَينَيها تَتَّسِعان وارتَسَمَ فَمُها صغيراً وأنفُها مستقيماً وحسن التّكوين. تحرّقت شوْقاً ليَكونَ لدَيها مرآة. وأخيراً انتبَهَت إلى أنّ بإمْكانها أن تتمَرْأى على كَسْرَةِ زجاجٍ مِنَ الصّندوقِ الصّغير. آه، يا لفَرْحَتِها عندما رأت نفسَها! يا للدّهْشَةِ اللّذيذَة! وثيابُها كبُرَت معها. وكانَ شعْرُها مسرّحاً بشكلٍ رائعٍ ومنْسَدِلاً في ألفِ خصْلَة. وكانَ لِبَشَرَتِها نَضارَةُ أزْهارِ الرّبيع.

بعدَ أن اضمَحَلّت لحظاتُ دَهْشَتِها الأولى، شعَرَت بِجوعِها يَتَنامى وازدادَت حسَراتُها بشكْلٍ غريب.

قالت:

- عَجَباً! حتّى وَأنا بهذا الجَمالِ والشّبابِ، حتّى وأنا مولودَة أميرَةً عَلَيَّ أن أقْضيَ نَحْبي في هذهِ الأمْكِنَةِ الحزينَة. آه! يا للقَدَر الهَمَجيّ الذي قادَني إلى هنا! ماذا سيكونُ مصيري؟ أيّها القَدَرُ هل أردتَ أنْ تزيدَ في حُزْني فَحَوّلْتَني إلى هذا الشّكلِ الجَميلِ الذي لم أكن آمل أن أناله يوماً؟ وأنت يا بيروكوا، أيّها النّهر الجليل الذي أنْقَذَ حياتي بِنُبْلٍ، هلْ ستَتْرُكُني أموتُ في هذهْ العُزْلَةِ المُرْعِبَة؟

عبثاً استَنْجَدَت ابنةُ الملكة واستغاثَت. كلّ شيءٍ كانَ أصَمّ إزاءَ صَوْتِها. كانَ الجوعُ ينْهَشُ أحْشاءَها ويُعَذّبُها فأخَذَت حبّة البندُق وكسَرَتْها، لكنّها عندما رمَت القِشْرَة فوجِئَت إذ رأت مهَندِسينَ معماريّين يخْرُجونَ منها وبنّائينَ ومنَجّدين ونَحّاتين وشتّى أصنافِ العُمّال. صمّمَ بعضُهم قصْراً وشيّدَهُ آخرون وزَيّنَه البعض الآخر بالأثاث. وَطُلِيَت الغرفُ وزُرِعَت الحدائق. كان كلّ شيءٍ يلمَع بالذّهب واللاّزورد. ثمّ حُضِّرَت وليمَة رائعَة. كان هناك ستّونَ أميرَة يرْتَدينَ ثياباً أفخَرَ من مَلابِسِ المَلِكات، يَقْتادُهُنّ سائِسونَ ويتبَعُهُنّ خدَم، وقَد جئنَ ليُقدّمنَ لها المجامَلات وَيَدْعونَها إلى المأدُبَة

المُقامَة على شَرَفِها. وللحالِ تقدّمَت لُعَيبَة بسُرْعَة إلى الصّالون وهناكَ جلَسَت كمَلِكَةٍ وأكَلَت كَمَن يمضّه الجوع. وَما إن أنْهَت طَعامَها وَقامَت عن المائِدَةِ حتّى جاءَها حرّاسُ خَزَنَتِها بخمسة عشر ألف صندوق كبير مثل البَراميل، مليئة ذهباً وألماساً. سألوها أن تتفضّلَ وتدفعَ أَجْراً لّلعمّالِ الذينَ بَنَوا قصْرَها.

قالت إنّ ذلك هو عينُ الصّوابِ شرْطَ أن يبنوا لها أيضاً مدينَة وأن يتزوّجوا ويبقوا معَها. وافق الجميع. وأنْجِزَت المدينَة في ظرْفِ ثلاثةِ أرباعِ السّاعَة معَ أنّها كانَت أكبَرَ من روما بخمْسِ مرَات. تلكَ هيَ المعجَزاتُ التي تحَقّقت من حبّة بندق صغيرَة.

خَطَرَ للأميرَةِ أن تبعَثَ وفْداً عظيماً إلى الملكةِ أمّها وأن تُسمِعَ الأميرَ الشّابَ ابن خالتها بعْضَ المَلامات. وبانتِظارِ أن تأخذَ الإجراءات الضّروريّة بخُصوصِ ذلك، راحَت تتسَلّى برؤيَةِ مسابقاتٍ يقوم بها الفرسان وتغطي دوْماً الجائزَة للفائز، وبمشاهدة الألعابِ والمسرحيّات المضحكة وصيدِ الطّيورِ والأسْماك، لأنّ نهراً وُسِّعَ مجراه حتّى مملكتها. وذاعَ صيتُ حُسْنِ الأميرَةِ في أرْجاءِ المعْمورَة وأخذَ يتوافَد إلى قصْرِها ملوكٌ من كلّ جهاتِ العالَم وعَمالِقَةٌ أطْوَل من الجِبالِ وأقزامٌ أقْصَرَ من الجِرْذان.

وذات يوم، وبَيْنَا يُقامُ احتِفالٌ كبير، تَشاجَرَ فرسان فيما بينَهم فتَعارَكوا بالأيدي وأُصيب بعضهم بجراح. نزَلت الأميرَة الغاضِبَة من شُرْفَتِها لكي تتحَقّقَ منَ الذين افتعلوه. لكنْ عنْدَما نُزِعَ منهُم سِلاحُهُم، تعَرّفَت بيْنَهم إلى الأميرِ قريبِها الذي كادَ يقضي في الشّجار. وعندئذٍ انْهارَت وشعَرَت أنّها توشِكُ أن تقْضي نَحْبَها هيَ أيَضاً من فَرْطِ الألم وَهَوْلِ المُفاجَأة. أمَرَت بحَمْلِهِ إلى أجمَلِ جَناحٍ في القصر ووَفّرَت لهُ كلّ ما يلْزَم لشِفائِهِ: أمهر الأطباء والجرّاحِينَ،

وَالمَراهم، وأصناف الحَساء والشَراب. كانَت ابنَة الملكة تقوم هي نفْسها بِوَضْعِ الضّمادات وتجْهيزِها، وترْوي جِراحاته بِدموع عينَيها وهي بمثابة بَلْسَم. كان المَريض قد أصيبَ بِستِّ ضرباتِ سيفٍ وبمِثلِها من طعَناتِ الرّمحِ اختَرَقته من كلّ جانب. كان منذ زمنٍ طويلٍ يجول في أرجاء ذاك البلاط متنكّراً، وكان قد شَعَرَ بأنّه يُكابدُ سَطْوَةَ عيني لُعَيبَة الجميلتين وأنّه لا يمْكِنه الشّفاء من حسام لَحْظِها. منَ السّهلِ إذاً الحكم على جزءٍ يسيرٍ ممّا كانَ يحسّ بهِ حينَ قُدّرَ له أن يَرى على وَجهِ الأميرَة الحبيبَةِ ألَمها وتعاطفَها الكبير حياله. لن أتوقّف ها هنا لكي أكرِّرَ كلّ الكَلِماتِ التي أملتها عليه عاطفته ليشكرها على معامَلتِها الطيّبَةِ له. أولئك الذينَ تَسَنّى لهم سَماعُهُ دُهِشوا من أن يُظهِرَ رجلٌ في حلكَة المَرض هذا القدْرَ منَ الشّغَفِ والامْتِنان. لا بل إنّ ابنَة الملكةِ التي احْمَرّت خجَلاً أكثرَ من مرّة توسّلت إليه كي يصْمُت. لكنّ الانفعالَ والحَماسَ اللذَين اتّصَفَ بهما كَلامُه هَدّا قِواه إلى أبعَدِ حدّ فسَقطَ دفعَة واحِدَة في حالَةِ احتِضارٍ مرعب.

فَقَدَت الأميرة رباطة الجأشِ التي كانت تحلّت بها لغايَة ذلك الوقت، وأخذَت تصْرُخ وتنْتِفُ شعْرَها، وعَلا صراخُها فخالَ الجَميعُ أنّ قلبَها كان سهْلَ المَنال ما دامت قدرتْ على الشّعور بذلك القَدْر من الحَنانِ حِيالَ غريبٍ في فترةٍ قصيرَةٍ منَ الزّمَن. لم يكن أحدٌ في مَمْلَكَتِها يَعْلَم أنّ الأميرَ كانَ قريبَها وأنّها كانَت تحبّه منذُ نعومَةِ أظفارها.

كانَ منْطَلِقاً في رِحْلَةٍ عندَما توقّف أمام ذلك القصر. وَبما أنّه لمْ يكن يعْرِف أَحَداً ليُقَدّمَه للأميرة، اعْتَقَدَ أنْ لا شيءَ يفعَلهُ أفضل من أن يقومَ أمامَها بخَمْسَةِ استعراضاتٍ بطوليّةٍ أو ستّةٍ، أي أن يُثَبّطَ همّة الفرسانِ في المُباراةِ ولكن أيّاً منهم لم يَمْتَثِل. وحَصَلَ عِراكٌ صَرَعَ فيه

الأقْوى مَن هوَ أضعَف، والأضعف كان، كما قلتُ آنِفاً، الأمير.

هُرِعَت لُعَيبَة من فرط يأسها تَجولُ الطّرقات الرّئيسة دونَ عرَبَةٍ ولا حرّاس. حتى دخَلَت إلى غابَةٍ وسقَطَت مغمِيّاً عليها عندَ جذعِ شجرَة، حيث جاءت الجنيّة بَهارِج التي لا تَنامُ أبداً وتُفَتّشُ دوماً عن وسيلَةٍ للأذى، لتخْتَطِفَها مُمْتَطِيَةً غيْمَةً أشدّ سواداً من الحبرِ وتجري بأسْرَعَ منَ الرّيح. بَقِيَت الأميرَة لبعْضِ الوقتِ فاقِدَة الرّشد. وعندَما فاءت أخيراً إلى رُشْدِها، لم يكن لِدَهْشَتِها مثيلٌ لأنّها وجَدَت نَفْسَها فجأةً بعيدَةً عنِ الأرْضِ وقريبَةً جدّاً منَ القطب. كانَت أرْضيّة الغَمامَة لَيّنَةً لَدِنَةً بِحَيث بَدا لها إذ جالَت هنا وهناك فوقَها أنّها تمْشي على ريش. وإذ انفَتَحَت الغمامَة، شقّ عليها كثيراً أن تمْنَعَ نفْسَها منَ السّقوط. لم تجد أحَداً تشكو إليه مُصابَها، لأنّ بَهارِج الشّريرَة جعَلَت نَفْسَها غيرَ مرْئيّة: تَسَنّى للُعَيبَةَ الوقت لتفكّرَ بأميرها العزيز، وفي الحالِ التي تُرِكَت فيها استَسْلَمَت للمَشاعِرِ الأكثرِ إيلاماً للنّفس. هتَفَت:

– ما أتعسَني! كيف لا أزال قادِرَةً على العَيشِ بعدَ ذاكَ الذي أحْبَبْته! كيف لذرّةِ خوفٍ من موتٍ وشيكٍ يمكن أن تجِدَ مكانَها في قلبي! آه لو أنّ الشّمسَ تكويني بنارِها فإنّها بذلكَ تؤدّي لي خدمَة جليلة. ليْتَني أستطيعُ أن أغرَق في قوسِ قزحَ فكَم سأكونُ سعيدَة! ولكن وَيا للأسَف! فَلَكُ البُروج كلّه يصمّ أذنيه عنّي. القوسُ فقدت سِهامَها والثّور قُرونَه والأسَد أنيابَه! ربّما ستكونُ الأرض أكثرَ رحْمَة وتمنَحني صخْرَةً مسَنّنَةً أقتُلُ بها نفسي. آه يا أميري! يا قريبي العزيز، لو أنّك هنا حتّى تراني أقومُ بالقَفْزَةِ الأكثر مأساويّة التي بإمكانِ عاشقةٍ يائسَة أن تقفِزها.

وإذ تفوّهَت بهذهِ الكَلِمات، هَرْوَلت إلى آخرِ الغمامَةِ وارْتَمَت مثلَ

سهْم يُطْلَق بعنْف. كلّ الذين رأوْها ظنّوا أنّه القمَرَ يسقط. وبما أنّ القمَرَ كانَ في فترة نقصانه، فإنّ شعوباً عدّة كانَت تقدّسه ولم ترَه منذ فترةٍ لَبِسَت الحِدادَ مقتَنِعَةً أنّ الشّمسَ، بِدافِعٍ من غيرَتِها، قامَت بتلك الخدعة.

ومَهْما تكن رغبة ابنَةِ الملكة في الموتِ فإنّها لم تنجَح في ذلك. سقطَت في قنّينَة الزّجاج حيث تضعُ الجنيّات عادةً شرابهنّ الأثيرَ في الشّمس. ولكن أيّةَ قنّينَة! ليسَ هنالِكَ برجٌ في الكونِ أعْلى منها. لحُسْنِ الحظّ، كانَت فارِغَة وإلاّ لغَرِقَت الأميرة فيها مثلَ ذبابَة.

كان ستّة عَمالِقةٍ يحْرسونَها وتعرّفوا في الحالِ على الأميرَة. كانوا هم العَمالِقَة ذاتهم الذين يسْكنونَ في قصْرِها ويُجلّونها. وكانت بَهارِج الماكِرَة التي لا تفعَل شيئاً بالصّدفةِ قد نقَلَتْهم إلى هناك، كلّ واحِدٍ منهم على متنِ تنّينٍ مجنّح. وكان أولئك التّنانينُ يحرَسون القنّينَة عندَما ينامَ العَمالِقة. وعندَما سُجِنَت الأميرَة داخِلَ القنّينَة، مَرّت أيّام تحسّرت خِلالَها على أيّامها عندما كانت قِرْدَة. كانت تعيش كالحِرْباءِ من الهواءِ والنّدى.

كانَ سجنُ الأميرَةِ خافياً على الجميع. وعلى الأمير الشابّ أيضاً الذي لم يمُت وطالَبَ باستمْرارٍ بالأميرَة لُعَيبَة، لكنّه لاحَظَ منَ السّيماءِ الكئيبَةِ لكلّ أولئك الذينَ يخْدِمونَه أنّ هناكَ مصيبَةً عامّةً ألَمّت بالقَصر. إلاّ أنّ تحفّظهُ الطّبيعيّ منعَهُ منَ السّعْي لمَعرِفَةِ سبب ذلك الحزن. ولكن ما إن تَماثَلَ للشّفاءِ حتّى راح يُلحّ عليهم طيلَة الوقتِ لكي يُطْلِعوهُ على أخبارِ الأميرَةِ، لكنّ أحَداً لم يجرؤ على أن يُخْفِيَ عنهُ خسارَتَها. بعضهم رأوْها تدْخلُ الغابَةَ وناصَروا الرّأي القائلَ إنّ الأُسودَ الْتَهَمَتْها. وآخرون اعتقدوا أنّها قتَلَت نفْسَها يأساً. فيما ادّعى آخرونَ أنّها فقَدَت عقْلَها وراحَت تتسَكّع في أرجاءِ العالَم.

كانَ الرّأي الأخيرُ هو الأقلّ إثارَةً للرّعب، وكان من شأنِهِ أن يُعَزّزَ الأمَلَ قليلاً في قلبِ الأمير. لذا انطَلَقَ على ظَهْرِ حِصانِهِ كريكتان الذي سبَق أن تحدّثت عنه لكنّي سَهَوْت عن القولِ إنّه الابن البكرُ لِبوسفالس[1] وأحد أفضلِ الأحصنَةِ التي شوهِدَت في ذاكَ العصر. وضعَ لهُ اللّجامَ على عنقِهِ وجعلَه يعْدو على غيرِ هدى. كان يُنادي ابنَةَ الملك والأصْداءُ وحدَها تجيبُه.

وأخيراً، وصَلَ عندَ ضفّةِ نهْرٍ كبير. شعرَ كريكتان بالعَطَشِ فتقدّمَ لِيَشْرَبَ، والأمير، كَعادَتِه، أخذَ يصرُخُ بكلِّ قواه:

- لُعَيبَة، يا لُعَيبَة الجميلَة، أين أنت؟

سَمِعَ صوتاً بَدَت رقّته وكأنّها تبهجُ الماء نفسَه. قال له ذلك الصَوت:

- تقدّمْ وسَوْفَ تعرِفُ أينَ هيَ.

وعندَ هذه الكلمات، أعطى الأمير، الذي يوازي تهوّرُه عشقَه، ضرْبَتَي مهْماز للحصان كريكْتان فسَبَح ووَجَدَ لجّة تتدفّق فيها المياه المتَسارِعَة فارْتَمى في اللجّةِ مقتنِعاً فعْلاً أنّه كان على وشَكِ الغرَق.

ولِحُسْنِ الحظّ، وصَلَ عندَ مغارَةِ الشّيخ الطيّب بيروكوا الذي كانَ يحتفِلُ بعُرسِ ابْنَتِهِ مع النّهرِ الأغنى والأخطَر في المنطَقَة. كان جميعُ أرباب الأسماك مجتَمِعَين في المغارَة، وكانَت آلهة الموج والحوريّات يَعْزِفْنَ موسيقى ناعِمَة، يرقصُ عليها النّهر بيروكي مُرْتَدِياً ثوْباً شفّافاً رقصَة الزّيتون[2] معَ أنهار السِّين والتّايمز والفرات والغانج، كلّ تلك الأنهار التي أتَت ولا شكّ من مكانٍ بعيد لتَلْهوَ معاً. وكريكتان، الذي

(1) بوسفالس: هو جَواد الإسكندر المقدونيّ، بحسب الاساطير المنسوجة عنه.

(2) رقصة الزّيتون: رقصة ريفيّة سمّيت بهذا الاسم لأنّها يُقام بها عادةً بعد قطاف الزّيتون، يركض فيها الرّاقصون بعضهم وراء بعض ويدورون حول ثلاث أشجار أو ثلاث نقاط معيّنة في الحقل.

يعرِفُ اللّياقات، توقّف باحترام كبيرٍ عندَ مدخَلِ المغارَة، والأميرُ، الذي يُتْقِنُ آدابَ السّلوك بأفضلَ منه، انْحَنى بإجْلالٍ كبيرٍ سائلاً ما إذا كانَ مسْموحاً لِفانٍ مثلِهِ أن ينْضَمّ إلى ذلك الجمْعِ الجميلِ.

بادَرَ بيروكوا إلى الكَلامِ وأجابَ بلطفٍ بأنَّ حضورَه يُشرّفهم ويَسُرّهم.

وواصَلَ الكلامَ قائلاً:

- منذ أيّام وأنا أنْتَظِرُكَ يا سيّدي. أنا في خدْمَتك، وخدمة ابنَةِ الملكة العزيزَةَ عليّ. يجب أن تحرّرها منَ المَكان الذي وضَعَتها فيه بَهارِج المُنْتَقِمَة، لقد سجَنَتْها في زجاجَة.

هتفَ الأمير:

- يا للهول! ماذا تقول؟ ابنَة الملكة في زجاجَة؟

أجابَه الشّيخ الحَكيم:

- نعَم وهيَ تتعذّب كثيراً، ولكنّي أنبّهُكَ يا سيّدي. ليسَ يسيراً أنْ تهْزِمَ العمالِقَة والتّنانينَ الذين يحْرسونها اللهمّ إلاّ إذا اتّبعتَ نصائحي. يجبُ أن تترُك هنا حصانكَ المقدام وتصْعَدَ على متنِ دلفينٍ مجنّح ظللتُ أنا أُربّيهِ لك منذ زمنٍ طويل.

وأمَرَ بإحْضارِ الدّلفينِ مُسْرَجاً وملْجوماً، وكانَ يقومَ باستِدارات وانْحِناءاتٍ ما جَعَلَ كريكّتان يشعرُ بالغيرَة منه.

وسارَعَ النهر بيروكي وشركاؤه لتَسْليح الأمير فوضعوا له درْعاً من حَراشِفِ أسْماكِ الشّبّوطِ المذهّبَةِ وألبَسوهُ قبّعة من صدَفَةِ حلَزونٍ ضخمَة يُظَلّلها ذنَبُ سمَكَةِ المورَة وكان مرفوعاً على شكلِ قنزعَة. وقلّدَته حوريّة الينابيع بأنقليس يَتدَلّى منه سيفٌ مُخيفٌ مصنوعٌ من حسَكَةِ سمَكَةٍ طويلة. ثمّ أعْطِيَ له ترْسُ سُلحفاةٍ عَريضٌ فجعله درْعاً. وإزاءَ كلّ ذلك العِتاد، لم يعُد من سمكة صغيرة إلاّ وتعْتبرْه

ربّ الأسْماك لأنّه، والحقّ يُقال، كانَ لِذلك الأميرِ هيئةٌ قلّما نُصادِفُها لدى الفانين.

بَثّ فيه الرّجاء بِلِقاءِ الأميرَةِ السّاحِرَةِ التي يُحِبّها فرْحَة لمْ يشعُر بها منذ فَقْدِها. وتذكر المُدَوّنات الخاصّة بهذه الحكايَة الجديرة بالثقة أنّه أكَلَ بشهيّةٍ كبيرَةٍ عندَ بيروكوا وشكَرَ كلّ الجماعَةِ بكلِماتٍ مبتكَرة. ودّعَ حِصانَه كريكتان وصعَدَ على متنِ الدّلفينِ المجَنّحِ الذي انطلَقَ في الحال.

وجَدَ الأميرُ نفسَه عند آخرِ النّهارِ محَلّقاً على ارتِفاعٍ عالٍ جدّاً وأرادَ أن يرْتاحَ قليلاً فدَخَلَ إلى ممْلَكَةِ القمَر. الأشياءُ النّادِرَة التي ألفاها هناكَ كانت قادِرَة على استبقائهِ طويلاً لو أنّه كان أقلّ استعجالاً لإخراجِ ابنةِ الملكةِ منَ الزّجاجَةِ التي كانت تعيشُ فيها منذ بضعَةِ أشهر. كَادَ الفجرُ يلوحُ عندَما وجَدَها مُحاطَة بالتّنانينِ والعَمالِقَةِ الذين أبْقَتْهم السّاحِرَة قرْبَها بفضلِ قدْرَةِ عصاها الصّغيرَة. كانت تظنّ أنّه لا أحَدَ يمْلكُ القدرَة على تحْريرِها وكانت مطمَئنّة إلى حُرّاسِها الرّهيبين المتيَقّظينَ الذينَ كانوا يُعَذّبونَها.

نظرت الأميرَة الجميلة إلى السّماء بإشفاقٍ وأرْسلَت إليها شكْواها الحزينَة. وعندَئذٍ رأت الدّلفينَ المجَنّح وعلى متنِهِ الفارِسُ الذي أتى لإنقاذها. بدا لها ما تراه وكأنّه من نسج الخيال معَ أنّها تعرِف، من خلالِ تجربَتِها بالذّات، أنّ الأشياءَ الأكثرَ خرْقاً للمَألوفِ تبدو مألوفَة لبعْضِ الأشخاص.

كانَت تقول:

- هل وصَلَ دهاءُ بعضِ الجنيّاتِ إلى حدّ إرسالِ هذا الفارِس إلى الفَضاء؟ يا للأسَف، كم أرْثي لِحالِه إذا كانَ سيَنْتَهي في آخرِ الأمر مسجوناً مثلي في زجاجَةٍ أو دوْرَق!

وَفيما هيَ تفكّر على هذا النّحْوِ، خالَ العَمالِقَة عندما لَمحوا الأميرَ فوق رؤوسِهِم أنّه مجرّد طائرةٍ ورقيّةٍ، فهتفَ الواحِدُ تلْوَ الآخر: «أمسِكوا الحَبلَ حتّى نلْهو بها». لكن عنْدَما انْحَنَوا للإمْساكِ بالحَبلِ، انقَضّ عليهم ومزّقَهم إرَباً وكأنّهم أوراقُ لعِبٍ نَقطعها من نصفِها ونرْميَها في الفضاء.

سمِعَت الأميرَة الضجّة التي أحْدَثَتْها تلك المعْرَكَة الكبيرَة فالتَفَتَت وتعرّفَت إلى أميرِها الشابّ! أيّة فرحة غمَرَت قلبَها عندما تأكّدَت من سلامَتِهِ وبَقائِه على قيدِ الحياة! ولكن أيّ هلَعٍ اعْتَراها لدى رؤيتِها ذلك الخطرَ المُحْدِقَ بهِ وسَطَ العَمالِقةِ المخيفينَ والتّنانينِ التي تنقَضّ عليهِ! أطلَقَت صيْحاتٍ مرْعِبَة، وكاد خوفها عليه أن يتسبّبَ بمَوْتها.

لكنّ الضّرَباتِ التي وجّهَها الأميرُ بحَسْكتِهِ المسْحورَة التي زوّدَه بها بيروكوا كانَت محكمة. والدّلفينُ المجَنّح كان خفيفاً يعلو ويهبط مرافِقاً تحَرّكاتِ الأمير ومُسانِداً إيّاه بشكلٍ رائع. ولم يَمُرّ وقت طويل إلاّ واكتسَت الأَرض بأشْلاء تلك المسوخ. وحينَ رأى الأميرُ المتَلهّفُ ابنَةَ الملكةِ عبر الزّجاج كادَ يحطّم القنّينَة لوْلا أنْ خشيَ أن يتسَبّبَ بإيذائِها. اتّخذَ قرارَه بالنّزولِ إلى عمْقِ الزّجاجَةِ وعندَما صارَ في آخرِها، ارْتَمى عندَ قدمَي لُعَيبَة وقبّل يدَها باحترِام.

قالت له:

- سيّدي، يبدو لي ضروريّاً أن أعْلمك بالأسباب التي حَدَت بي للاهتِمام الكبيرِ بسَلامَتك. اعلَمْ أنّنا قريبان وأنّني ابنَة الملكَة خالتك وأنّني لُعَيبَة نفسها القردَة التي وجدْتَها عندَ شاطئِ البحر، والتي منذ ذلكَ الوقتِ توَلاها ضعف الحبّ حِيالَك وعبّرَت لك عن تعلّقِ بك كنتَ تمقُتُه.

هتَفَ الأمير:

- آه يا سيّدتي هل عليّ أن أصدِّقَ حدّثاً عجيباً كهذا؟ كنتِ قردَة. أحْبَبْتِني وأعرِف ذلك وكانَ قلبي قادِراً على رفضِ هذا الخيرِ الأعْظَم!

أجابَت ابنة الملكة مبتَسِمَة:

- علِمْتُ لتوّي أنّني كنتُ سأكوّنُ فكرَة سيّئة للغايَة عن ذوْقِكَ لو أنّكَ تعَلّقتَ بي بشكْلٍ أو بآخَر. ولكن يا سيّدي لنَرْحَلْ، تعِبْتُ من سجني وأخشى مجيءَ عدوّتي. لنذهَب عندَ الملكَة والِدَتي نَرْوي لها أشْياءَ كثيرَة عجيبَة لا بدّ أن تثيرَ اهتِمامَها.

قال الأميرُ العاشِقُ وهوَ يَصْعَد على دلفينِهِ المجَنّح محْتَضِناً الأميرَة بِذراعَيه:

- هيّا يا سيّدَتي، هيّا نذهَب إليها لترى في شخصك ألْطَفَ أميرَةٍ في العالَم.

ارتَفَعَ الدّلفينُ برفقٍ منطَلِقاً باتّجاهِ العاصمَة حيث كانت الملكَة تُمْضي حَياتَها التّعيسَة، ذلك أنّ هرَبَ لُعَيبَة لم يترك لها لَحْظَةَ راحَةٍ واحِدَة. لم تكن تستطيعُ الامتناعَ عن التّفكيرِ بها وتذكُّر أشياءَ جميلة قالتها لها. رغِبَت في رؤيَتِها من جَديد، رغم أنّها قرْدَة، وتُعْطي لِقاءَ ذلك نِصفَ مملَكَتِها.

عندَما وصل الأميرُ، تنكّرَ في زِيّ شيخٍ هرِمٍ وطلَبَ منَ الملكَة الموافقة على مقابلته.

قال لها:

- سيّدتي، أدرُس منذ نعومَةِ أظفاري فنّ العرافَة. وعليكِ أن تَحْكُمي بنفسكِ أنّني لا أجْهَل الحقدَ الذي تُضْمِرهُ بَهارِج لك، والتّبِعات السيّئةِ التي ترتّبَت على ذلك. لكنْ امسَحي دموعَكِ يا سيّدَتي. لُعَيبة تلك، التي رأيتِها في الماضي قبيحَة جدّاً هيَ الآن أجمَل

أميرَةٍ في الكوْن. ستَكونُ عمّا قريب بجوارِكِ إن أنتِ وافقتِ على مُسامَحَة الملكَة شقيقتكِ بسببِ الحرْب الشّرسَة التي تشنّها عليك، والتّوقيع على معاهَدَة سلام بِتزويجِ ابنتكِ بالأمير ابن أختك.

قالت الملكَة وهيَ تبْكي:

- لا أستَطيع أن أصدّقَ ما تقوله أيّها الشّيخُ الحَكيم. لعلّك ترْغب في التّخفيفِ من همومي. لقد فقدْتُ ابنَتي العزيزَة. فقدْتُ زوجي. وأختي تَدّعي أنّ مملَكَتي مِلْكٌ لها. وابنُها هوَ أيْضاً ظالمٌ مثلها، جَميعُهُم يُطاردونَني ولن أتَصالح معهم أبداً.

أردَف:

- للقدَرِ طرُقٌ لا تُدْرَك. أنا تَمّ اختياري لأعْلِمَكِ بذلك.

أضافَت الملكَة:

- هه! وماذا أسْتَفيدُ منَ المُوافَقَةِ على هذا الزّواج. تملِك بَهارِج قدرَة ومَكراً لا حَدّ لها، وسوفَ تقف دوماً في وجه هذا الزّواج.

أجابَ الرّجل الطيّب:

- لا تقلقي يا سيّدَتي. عِديني فقط بأنّكِ لن تعارِضي أبَداً هذا الزّواجَ الذي هو غاية المُنى.

هتَفَت الملكَة:

- أعِدُك بكلِّ ما تُريد شرطَ أن أرى ابنَتي الغاليَة من جديد.

خرَجَ الأميرُ وهُرِعَ إلى حيثُ تنتظرُهُ ابنة الملكَة. دُهِشَت عندَما رَأتْه متنكّراً على ذلك النّحو. ورأى لِزاماً عليه أن يخبِرَها أنّه منذ فترةٍ حصلَت خلافات كثيرَة بين الملِكَتين وأنّ التوتّر الشديد يسود علاقتهما، لكنّه استَطاعَ للتوّ أن يجْعَلَ خالَتَه توافِق على تَحقيق أمْنِياته. شعرَت الأميرَة بسُرورٍ عظيم وذهَبَت إلى القصر. لاحَظَ كلُّ مَن رآها تَشابُهاً كامِلاً معَ الملكَة وسارَعوا لِلّحاقِ بها ليعْرِفوا مَن تكون.

ما إن لَمَحَتْها الملكَة حتّى خفقَ قلبُها بقوّةٍ كبيرَةٍ وهذا أكبَر دَليلٍ على صِدْقِ الرّوايَة. ارْتَمَت الأميرَة عندَ قدَمَيْها واحْتَضَنَتها الملكَة بينَ ذِراعيها. مَكَثَتا لوقْتٍ طويلٍ دونَ كلام مكَفْكِفَتَيْنِ دُموعَهما بألْفِ قُبْلَةٍ مفعمةٍ حناناً، وأَسَرَّت الواحِدَةُ للأخْرى بكلِّ ما يُمْكِنُ قوله في مناسبَةٍ مُماثِلَة. بعدَئذٍ، التَفَتَت المِلكَة إلى ابنِ أخْتِها ثمّ استقْبَلَته على أفْضلِ وجْهٍ ونَفّذت ما وَعَدَتْ بهِ العرّاف. أرادَت التّكلّم لوقتٍ أطوَل لكنّ الضجّة التي كانَت تتناهى إليها من باحَةِ القصرِ أرْغمَتها على أن تطلّ برأسِها منَ النّافِذة. تفاجأت بوُصولِ أختِها الملكة وكانَت مفاجأة لذيذَة. ورأى الأمير والأميرَة أنّ بيروكوا المحْتَرَم كان يتْبَعها وكريكتان الطيّب كانَ هوَ أيضاً في الموكب. أُطلِقَت صرخاتِ الفرحَ والبهْجَة. وهُرِعَوا للتّلاقي بفَرْحَةٍ لا مثيلَ لها. وعُقِدَ قِرانُ الأميرِ والأميرَةِ في الحَالِ رَغماً من أنْفِ السّاحِرَة بَهارِج التي نال هذا الحَدَثِ السّعيد مَن معْرِفَتها ومَكْرها فأصيبت بارتباكٍ كبير.

اخشَ من عدُوِّكَ حتّى هداياه.
رُبَّ عَدُوٍّ يريدُ أن يلْزِمَكَ بصَداقته
مُدّعِياً أنّه يُحِبّك
فيما يَسعى سرّاً للانتقام منك.
الأميرةُ التي رَوَيْتُ لكَم قِصّتَها
كانت سَتعيشُ بهَناءَة
لَو وُهِبَت خِلقَة حَسَنَة.
وَلكنّ الجنيّة الظالِمَة بَهارِج
حَبتْها بِمَواهبَ مسمومَة
وحوّلَتها إلى قرْدَةٍ قبيحَة.

لكنّ هذا الامتِساخَ المشؤوم
لم يَستطع أن يَقيَها
سِهامَ الحبّ الحارق
ولم يَثْنِها عن الجرأة واختيار معشوقِها أميراً
أعرف الكثيرات مثيلاتها في أيّامِنا هذه
لهُنّ منَ القرْدَة قبْحُها
ويَزْعَمْنَ مع ذلك
أنّهُنّ يأخُذْنَ بألبابِ أعظم الرّجال
شرطَ أن يتدَخّلَ لِصالِحهنّ
ساحِرٌ مُحسِن
ويمْنَحَهُنّ، كما حَدَثَ للقردَةِ لُعَيبة،
شكلاً ظريفاً ليدفعَ بعجلةِ سعادتِهنّ قُدُماً.



"القزَم الأصفر"، للرسّام غوستاف ستال

Gustave Staal, 1860

القزَم الأصفر

كان يا ما كان، كان هناك ملكة لم يبقَ من الذريّة العديدة التي أنجبتّها إلاّ فتاة واحدة تساوي أكثر من ألفِ فتاة. لكنّ والدَتها، إذ رأت نفسها أرْملَة، ولا تملك شيئاً عزيزاً في هذا الوجود إلاّ تلك الأميرَة اليافعة، تملّكَها خوف رهيب من فقدانِها بحيث لم تكن تصحّح شوائبَها قطّ. وهكذا فإنّ الأميرَة التي رأت نفسَها تتحلّى بجمالٍ يفوق جمالَ سائر البشر، والتي قُدِّرَ لها تبوّؤ العرش، أصبَحَت معتدّة جدّاً بنفسِها وشديدة الغرور بمفاتِنها البازغة بحيث باتت تمْقت الجميع.

وكانت أمّها تدفعها، من خلال مُلاطفاتها ومجاملاتها، للاقتناع بأنّه ما من شيءَ يمكنه أن يكون جديراً بها: فكانت تُشاهَدُ دوماً مرتديةً أزياء كأزياء ربّات الأساطير من أمثال بالاس-أثينا أو ديانا، وتتبعها شريفات القصر الأكثر رِفْعَةً مرتدياتٍ ثياب الحوريّات. وأخيراً، ولكي تدفعَ بغرورها إلى أوجه، أطلقت عليها الملكةُ اسم آية الجمال. ثمّ أمَرَت أمْهَرَ الرسّامينَ برَسْمِها وأرسَلَت صورَتها إلى ملوك كثر، كانت على صَداقَة وثيقة بهم. وعندما رأوا رسْمَها، لم يستطع أحدٌ مقاوَمَة سطوةِ مفاتنها. أصيبَ بعضهم بالسّقم، وفقد بعضهم الآخر عقله، أمّا الأسعد حظّاً فقد وصَلوا إلى قصرها في صحّة جيّدة، ولكن كانوا ما إن تظهَر عليهم حتّى يصبحون أسرى سِحرها.

لم يسبق لبَلاطٍ أن شاع فيه الغزَل والأدب كمثلِ ذلك البلاط. كان عشرون ملكاً يتبارزون لينالوا إعجابَها. وبعدَ أن أنفقوا مئات

الملايين لكي يقيموا لها فقط حفلة واحِدَة، كانوا يظنّونَ أنّهم نالوا جزيلَ الاستحسان إذا حصلوا منها على عبارَة إعجابٍ واحدة. كانت الملكة مسحورة بمظاهر الوَلع والعشق المحيطة بها. لا يمرّ يوم إلاّ ويتلقّى القصر سبعة آلاف سونيتة[1] أو يزيد، وما يعادِلها منَ قصائد الشّكوى والغزل والأغاني يرسلها الشّعراء من جميع أنحاء المعمورة. كان كلّ ما يكتبه أدباء ذلك الزَمانِ من نثر وشعر يتمحور فقط حول آية الجمال. وكانت نيران الفرح توقَد على وقعِ هذه الأشعار مفرقعةً متأجّجةً أفضل ممّا على أيّة نار أخرى.

بلَغت الأميرَة سنّ الخامسة عشرة، ولا أحدَ كان يجرؤ على أن يتقدّم لطَلَب يدِها ويحظى بشرف الزّواج بها، ولم يكن أحد إلاّ ويرغب في أن يصيرَ زوجها. ولكن كيف السّبيل للتّأثيرِ في قلبِ من هذه الطّينة؛ حتى لو شنقوا أنفسَهم خمس مرّات أو ستّاً يومياً لكي ينالوا إعجابها فإنّها كانت ستعْتبر ذلك مزحَة سخيفة. كان عشّاقها يتحدّثون عن قسوة قلبها التي لا ترحم، والملكة التي كانت تريد تزويجها لم تكن تعرف كيف تتصرّف لإقناعها بذلك.

كانت تقول لها أحياناً:

- ألا تريدين التّخفيف قليلاً من هذه الكبرياء التي لا تُطاق والتي تحدوكِ لتنظري بعين الاحتقارِ إلى كلّ الملوك الذين يأتون إلى قصرِنا: أريد أن أزوّجَكِ واحداً منهم، ألن تفعلي ذلك كرْمى لي؟

فتجيبها آية الجمال:

- أنا سعيدة جدّاً على هذه الحال. اسمحي لي يا سيّدتي أن أعيش على سجيّتي مطمئنّة. إذا حدث مرّة وفقدتُ هذه الطمأنينة فلن

---

(1) سونيتة: قصيدة من أربعة عشر بيتاً.

تكوني أنت نفسك مرتاحة.

أجابت الملكة:

- نعم، سأغتاظ إذا أحببتِ أحداً أقلّ من مقامك. ولكن انظري لهؤلاء الذين يطلبون يدَكَ واعلَمي أنّه لا يوجد أحدٌ يضاهيهم منزلة في أيّ مكان.

كان هذا صحيحاً، ولكنّ الأميرَة المعتزّة كثيراً بنفسِها، ظنّت أنّها تستحقّ ما هو أفضل. وشيئاً فشيئاً بدأت، من خلالِ معاندتها للبقاء عازبة، تتسبّب بحزنٍ كبيرٍ لوالدتِها، ما جعل هذه تندَم، ولكن بعدَ فواتِ الأوان، على تماديها في تنفيذ كلّ رغبات ابنتها.

حارَت في أمْرِها وقرّرت الذّهاب بمفردها بحثاً عن جنيّة شهيرَة تدعى جنيّة الصّحراء، ولكنْ لم يكن منَ السّهلِ رؤيتها لأنّ أُسوداً كانت تحرسها. لا بل تكاد مقابلتها أن تكون أَمراً مستحيلاً لو أنّ الملكة لم تعرف، ومنذ وقتٍ طويل، أنّه يجب أن تُرمى للأسود حلوى مصنوعَة من طحينِ الذّرة البيضاء و«السكّر نبات» وبيض التّماسيح. عجَنَت بنفسِها تلك الحلوى ووضَعَتها في سلّةٍ صغيرَة حملتها بذراعها. وبعدما مشت ردحاً من الزمن أحسّت الملكة بالتعب، فهي غير معتادَة على ذلك، واضطجَعَت في أسفلِ إحدى الأشجار لترتاح من عناء المسير. ومن دونِ أن تدري، غفت، وعندَما استيقظت، أبصَرَت سلّتها فارغة منَ الحلوى. ولسوءِ الحظّ، سمِعَت زئير الأسودَ الضّخمَة التي اشتمّت أثرَها فأتت نحوها مُحْدثَةً جلبة كبيرة.

هتفت بألم:

- يا ويلي! ماذا سيصير بحالي؟ ستلتهمني الأسود.

وراحَت تبكي ولم تعد تقوى على القِيامِ بخطوَة واحِدَة سعياً

لإنقاذِ نفسِها. استندَت إلى الشجرة حيث رقدَتْ، وإذا بها تسمع صوتاً يقول لها: «إشت، إشت، هِمْ، هِمْ». فتلفّتت إلى كلّ الجهات، ثمّ رفعت بصرَها إلى فوق ولمحَت على الشّجرة رجلاً صغيراً يأكل البرتقال، وكان طوله يبلغ ذراعاً واحدَة.

قال لها:

– أوه! أيّتها الملكة، أعرفك جيّداً وأعرف الخوف الذي تشعرينَ به من أن تأكلكِ الأسود. لديكِ الحقّ في أن تخافي لأنّ الأسودَ التَهَمَت الكثيرين غيرك وما يزيد الطّينَ بلّةً أنّه لم يعد لديك حلوى.

قالت الملكة متنهّدة:

– لم يبقَ لي إلاّ أن أستسلم للموت، وا أسفاه كنت سأشعر بشقاءٍ أقلّ لو أنّ ابنتي العزيزة تزوّجت!

هتف القزَم الأصفر (هكذا كان يُسمّى بسبب لون بشرَتِهِ وشجرة البرتقال حيث يقيم):

– ماذا تقولين؟ ألديكَ ابنة؟ حقّاً إنّ هذا ليسْعِدني لأنّني أبحث لي عن امرأة برّاً وبحراً. اسمعي، إذا وعدتني بالزّواج بها فسأحميكِ منَ الأسود والنّمورِ والدّببَة.

نظرَت إليه الملكة ولم يكن خوفها من وجهه الصّغير المرعب يقلّ عن خوفِها منَ الأُسود. ظلّت ساهِمَة ولم تجب بشيء.

هتف بها قائلاً:

– ماذا؟ هل تتردّدين يا سيّدتي. يبدو أنّكِ فقدتِ حبّكِ للحياة!

وفي الوقت نفسه لَمَحَت الملكة الأُسودَ في قمّة إحدى التّلال تُهرَع نحوَها. وكانَ لكلّ واحدٍ منها رأسانِ وثمانية أرجلٍ وأربعة صفوف

من الأسنان، وكان جلدُها أقسى منَ الحَراشف وأحمَر كالسّختيان[1].

لدى مرآها، ارتعَشَت الملكة المسكينة كالحمامَة لدى رؤيتها صقراً كاسِراً، وصرَخت بكلّ قوّتها:

- يا سيّدي القزَم، إنّ آيَة الجمال هيَ لك.

قال بنبْرَةٍ محْتَقرَة:

- أوه! آيَة الجمال مفرطة الجمال، أنا لا أريدها، احتفظي بها لنفسك.

تابَعَت الملكة بنبرةٍ مفجوعَة:

- أيّها السيّد!، لا ترفضها، إنّها أجمل أميرَة في الكون.

أجاب:

- حسناً، أقبلُها على سبيلِ الإحسان، ولكن تذكّري الوعد الذي وعِدتني به.

وللفور انفَتَحَت شجرَة البرتقال وارتَمَت الملكة داخِلها بكلّ كيانِها فانغلقت عليها قبل أن تدركها الأُسود.

كانت الملكة في اضطرابٍ عَميم ففاتها أن ترى باباً صغيراً محفوراً في تلك الشّجرَة. وأخيراً لَمحَته وَفَتَحَته. كان يطلّ على سهل من القرّاص والأشواك، وتحيط به حفرَة موحلَة، وعلى مسافة أبعد قليلاً كان هناك بيت صغير سقفه منخفض جدّاً مكسوّ بالتّبن: خرجَ منه القزم الأصفر بهيئةٍ مرِحَة، كان ينتعل قبقاباً ويرتدي مِسْحاً أصفر. وبَدا أصلعَ كبير الأذنين وأشبه ما يكون بصعلوك صغير.

قال للملكة:

- أنا في غاية السّرورِ أيّتها السيّدة حَماتي، أن ترَي القصرَ الصّغيرَ

---

(1) سختيان: جلد الماعز المدبوغ والملوّن.

حيث ستعيش معي آية الجمال. بإمكانها أن تطعِم من هذا القرّاص والشّوكِ حماراً يحمِلها على ظهره ويجول بها في نزهَة. بإمكانها أن تحتَمِيَ تحت هذا السّقف الرّيفيّ من وطأةِ الفصول وتشرَب من هذا الماء وتأكل من بعض الضّفادع التي تتغذّى فيه بشراهَة. وأخيراً سوف تحظى بي نهاراً وليلاً بقرْبِها، جميلاً، دائمَ النّشاط، ومكتمل الذّكورَة كما ترينني، لأنّني سأغضب إذا كانَ ظلّها سيرافقها أفضل منّي.

نظرَت الملكة التّعيسة الحظّ دفعَة واحِدَة إلى الحياةِ المثيرَة للشّفقة التي يَعِدُ بها القزَم ابنتها العزيزة. وبما أنّها لم تستطع تحمّل هذه الفكرة المُريعَة فقد سقطَت بطولِها فاقدَة الوعي وغير قادرَةٍ على الردّ بكلِمَة: ولكن فيما هيَ على تلك الحال أعيدَت إلى سريرِها سليمَةً معافاةً مرتديةً قَلَنْسُوة رائعة للنّوم وشعرها معقود بأجمل شريط. نهضَت الملكة وتذكّرَت ما حَدَث لها. لم تصدّق شيئاً منه لأنّها ألْفَت نفسَها في قصرِها وسَط وصيفاتِها، وابنتها إلى جانبِها. لم يكن يبدو عليها أنّها زارَت الصّحراءَ وواجَهَت أخطاراً كبيرَة وأنّ القزَمَ خلّصَها من وَرْطَةٍ محتومَة لِقاء تزويجِهِ بابنتِها آية الجمال. ومَعَ ذلكَ فإنّ قبّعتَها المزدانَة بدانتيلاّ نادرة والشّريط في شعرِها فاجآها بقدرِ ما فاجأها الحلُم الذي خالَت أنّها رأته. ولشدّة قلقِها، أصابَتها كآبة عميقة فعجِزَت عن الكلام والأكلِ والنّوم.

انشغل بالُ الأمَيرَةِ عليها وكانت تحبّها كثيراً. توسّلت إليها مرّاتٍ عدّة لتقول لها ما بِها لكنّ الملكة كانت تبحَث دوماً عن ذرائع فتجيبها تارّةً بأنّ ذلك عائدٌ لسوءِ صحّتِها وطوْراً أنّ أحد جيرانِها كان يتهَدّدُها بِشَنّ حرْبٍ كبيرَة عليها. رأت آية الجمال أنّ إجاباتِها

كانت مقْنعة ولكنّها أحسّت أنّ شيئاً آخرَ يشغَل بال الملكة في الحقيقة وأنّها تتفنّن في التستّر عليه. أحسّت بأنّ القلق يسيطر عليها فاتّخَذت القرار بالذّهابِ للقاء جنيّة الصّحراء التي طبقت شهرتها وسِعة معرفتها الآفاق. كانت راغِبَة هي أيضاً في طلبِ مَشورَتها لكي ترى ما إذا كان عليها أن تظلّ عازبة أو تتزوّج لأنّ الجميع كانوا يحثّونها بإصْرارٍ على اختيار عريسٍ لها: عُنيَت هيَ نفسها بِتحضير حلوى من شأنِها التّهدئة من روْع الأُسود. تظاهَرَت بأنّها ستخلد للنوم باكِراً وخرجَت عبرَ درج سريّ ووجهها مغطّى بمنديلٍ أبيض يصلُ حتّى قدمَيها. وهكذا سارَت وحيدَة إلى المغارَة حيث تقطنُ تلك الجنيّة البارعة.

ولكن، حين وصَلت إلى شجرَة البرتقالِ المشؤومَة التي سبَق أن تحدّثتُ عنها، رأتها مكسوّة تماماً بالثّمارِ والأزهار فأخذتها رغبة في أن تقطِفَ منها. وضَعَت سلّتها أرضاً وقطَفَت برتقالاً أكلت منه. وعندَما أرادَت استرجاعَ سلّتِها والحلوى داخلها، لم تجد شيئاً. شعرت بالكرب والحزن. وفجأةً رأت قربها القزَمَ الصّغير المخيف الذي حدّثتكم عنه.

قال لها:

- ماذا دهاكِ أيّتها الصبيّة الحلوة، لماذا تبْكين؟

أجابَته:

- وا أسَفاه! ومَن لا يبكي في مثلِ حالتي؟ لقد فقدْتُ سلّتي وحلواي وهما كانتا ضروريّتين جدّاً لي لكي أصِلَ بسَلامٍ إلى جنيّة الصّحراء.

قال هذا القرد الصّغير:

- حسناً! ماذا تريدين أيّتها الصبيّة الحلوَة، أنا قريبُها وصديقها وبمثلِ براعتها إن لم أكن أكثر براعة.

أجابت الأميرَة:

- الملكة والِدَتي أصابها منذ بعض الوقت حزن مخيف يجعلني أخشى كثيراً على حياتِها. يساورني الظنّ بأنّني ربّما كنت السّبب لأنّها تتمنّى أن أتزوّج. وأعترِف لكَ أنّني لم أجد حتّى الآن من هوَ جديرٌ بي. لهذه الأسباب مجتمِعَة عليّ أن أتحدّث إلى الجنيّة.

قال لها القزم:

- لا تتكبّدي مشقّة الذّهابِ إليها. أنا أقدَرُ منها على تقديم النّصح لكِ في هذه المواضيع. الملكة أمّكِ يُشجيها أنّها وعَدَت بكِ للزّواج.

قالت وهيَ تقاطِعه:

- الملكة وعَدَت بي للزّواج! بالله عليك! لا شكَ أنّكَ مخطئ. كانَت ستُخبرني بذلك ولا يحقّ لها أن تورّطَني دون أن تأخذ موافقتي.

قال لها القزم جاثياً فجأةً على ركبتيه:

- أيّتها الأميرة الجميلة، آمل أن يروق لكِ هذا الاختيار عندما أُعلِمُكِ بأنّني أنا مَن هوَ مقدّر لهذه السّعادة الكبرى.

هتفت آية الجمال وهيَ تتراجَع خطواتٍ إلى الخلف:

- أمّي تريدكَ صهْراً لها! هل صارت يا ترى بمثْلِ جنونك!

قال القزم غاضِباً:

- قلّما أهتمّ لهذا الشّرف على أيّة حال! ها هيَ الأسود تقترب وبثلاث نهَشاتٍ من أنيابِها ستنتقم لي من جرّاء احتِقارِكِ المُجحف لي.

وعلى الفور، سمِعَت الأميرَة التّعيسَة الأسودَ تفِد مطلِقةً زئيراً متواصِلاً.

هتفت:

- ماذا سيصير بحالي؟ ماذا؟ هل سأنْهي أيّامي الحلوَة على هذه الشّاكِلة؟

نظر إليها القزَم الشّرّير وضَحِكَ باحتقارٍ قائلاً لها:

- على الأقلّ ستَحْظَيْنَ بِمَجْدِ أن تموتي عازبة. ثمّ إنّك لن تكوني عقدتِ زواجاً غيرَ متكافئ مع قزَم بائس مثلي.

قالت له الأميرَة وهي تجمَع يديها الجميلتين:

- عَفْوَك، لا تغضَب، أفضّل الزّواجَ بكلّ أقزامِ الكونِ على أن أقضيَ نَحْبي بهذِهِ الطّريقة المريعَة.

أجاب:

- انظري إليّ جيّداً أيّتها الأميرة قبلَ أن تعْطيني كلمَتكِ لأنّني لا أدّعي اختِطافكِ عنوَة.

قالت له:

- لقد نظرت إليك في الحقيقة. الأُسود تقترب وخوفي يزداد؛ أنقذْني، ألا أنقذْني وإلاّ فإنّني سأموت خوفاً.

وبالفعل، لم تكد تُنهي هذه الكلمات حتّى سقطَت مغمِيّاً عليها، ومن دونِ أن تعرِفَ كيف، وجَدَت نفسها في سريرِها مرتديةً أجمل ملابس النّوم ومتزيّنةً بأجمل الأشرطَة وفي إصبعها خاتم صغير مصنوع من شعرَة واحَدَة صهْباء. كان مثبّتاً بقوّة بحيث يستحيل انتزاعه من إصبعِها.

عندما رأت الأميرَة كلّ هذه الأشياء وتذكّرَت ما حدثَ معها اللّيلة الماضية، غرِقت في كآبَةٍ عميقة فتفاجأ أهل البلاط وشعروا بالقلق عليها. وأدركت الملكةِ خطورة الأمر أكثر من أيّ إنسانٍ

آخر فسألتها آلاف المرّات ما بِها لكنّها كانت تصرّ بعنادٍ على إخفاء مغامرَتِها. وأخيراً، عيل صبر الرّعايا في ولايات المملكة لأنّهم أرادوا أن يفرحوا بأميرتهم، فاجتمعوا وأرسلوا وفوداً للقاء الملكة، وللتوسّل إليها لتختارَ زوجاً لابنتها في أقرَبِ وقتٍ ممكن. أجابَت بأنّ ذلك هو جلّ ما تتمنّاه، ولكنّ ابنتَها عازفة عن الزّواج؛ لذا نصَحَتهم بالذّهابِ لمقابلتِها وإسْداءِ النّصْح إليها لعلّها تتخلّى عن موقفها ذاك. فانصاعوا لرغبتها وذهبوا في الحال. كانت آية الجمال قد خفّفَت كثيراً من غلوائها منذ لقائها بالقزَمِ الأصفر. لم تكن تتصوّر وسيلَة أفضل لإنقاذها من تلك الورْطَة إلاّ إذا اقترنت بملِكٍ عظيم، وعندئذٍ لن يجرؤ ذلك القرد الصّغير على منافستِهِ على الفوز بقلب الأميرة. وهذا ما دفعها للتجاوب مع مطلبهم أكثرَ ممّا كانوا يأملون. ومعَ أنّها تؤثر البقاء عازبة طيلة حياتِها إلاّ أنّها أعلنت موافقتها على الزّواج بملك مناجمِ الذّهب وهو رجل كليّ القدرَة، بهيّ الطلّعة، كان يحبّها بشغَفٍ عميقٍ لبضعِ سنوات خلت، لكنّه لغاية ذلك الوقت لم يستطع أن يثنيَها عن موقِفِها.

منَ السّهلِ إذاً تصوّر مقدار فرحَتِهِ عندَما علِمَ بهذا الخبر السعيد، وباستياء جميع خصومِهِ لأنّهم فقدوا إلى الأبد الرّجاءَ الذي كان يغذّي شغَفَهم: فإنّ آية الجمال لن تتمكّن من الزّواج بعشرين ملكاً هي التي شقّ عليها كثيراً أن تختار واحداً، لا سيّما وأنّ غرورها لم يكن لِيُهادِنَ، وأنّها كانت مقتنِعَة تماماً بأنّه لا أحد في العالم يليق بمقامها.

وأُجْرِيَت الاستعدادات اللازِمَة لأِعظم احتفالٍ في الكون: وأرسل ملك المناجم أموالاً لا حدّ لها على متن السّفنِ التي ملأت البحر. وبعث إلى القصور الأكثر أدباً وتأنّقاً، وخاصّةً القصرَ الملكيّ

في فرنسا، بموفدين لبأتوا بالزّينة الأكثر ندْرَة لتَزْدانَ بها الأميرَة. لكنّها، وأكثر من أيّة امرأة أخرى، لم تكن بحاجة لزينة لتُبرزَ جمالها لأنّ جمالها كان كاملاً مكتفياً بذاته. أمّا ملك مناجم الذّهب فصار يلازم الأميرَة الفاتنة على الدّوام لا سيّما وأنّ زواجه بها بات وشيكاً.

كانت مصلحَتها تقتضي التعرّف إلى شخصيّته وطباعه عن كَثَب فاكتشفت لديه فضائل كثيرة، وذكاءً متوقّداً، وعواطف جارفة، وأحاسيس مرهَفة؛ وباختصارٍ لمست لديه روحاً رائعة في جسدٍ كاملٍ، وبدأت تبادله بعضاً من المشاعر التي يُحِسّ بها نحوَها. يا للّحظاتِ السّعيدة التي نَعِما بها إذ أيقنا أنّ أمامهما الوقت كلّه ليغرفا بسخاء من ذلك الحنان الذي يجمعهما وهما في أحضان أجمل حديقة في الدّنيا: وغالباً ما كانت متع الوصال معزّزة بتلك التي تمنحها الموسيقى. وراحَ الملك العاشق الولهان ينظمُ الأشعارَ والأغاني للأميرَة. وهاكم أغنية وجَدتْها هي جميلة جدّاً:

لدى رؤيَتِك، تتزَيّن هذه الغابات بالأوراق،
وتلتَمِع المروجُ بألوانِها الفاتِنَة،
وعلى وقْعِ قدَميْكِ يعانق النّسيمُ الأزهارَ فتتفتّح،
تحتدم زقزقة العصافير العاشقة بين الأغصان،
وكلّ شيءٍ في هذه الخلوةِ السّاحِرَة يضحَك،
كلّ شيءٍ يتعرّف إلى ابنةِ الحبّ.

كان العاشقانِ في أوج السّعادة. وخصوم الملك الذين كانوا يحسدونه على حسن طالعه، غادروا البَلاط يائسين وعادوا إلى

ديارِهم والحسرة تملأ قلوبهم، عاجزينَ عن أن يكونوا شهوداً على زواجِ آية الجمال. وَدّعوها بطريقةٍ مؤثّرَة جدّاً ما دَفَعها إلى أن ترثي لِحالِهم.

قال لها ملك مناجِم الذّهب:

- آه يا سيّدتي، ما هذا الاختِلاس لِحَقّي اليوم! تمنحينَ شفقتَكِ لِخُلاّنٍ يتعزّون عن آلامِهم بنظرة واحِدَة من عينيك.

أجابت آية الجمال:

- تلومني على التّعاطفِ الذي أُبديه لأمراء تخلَّوا إلى الأبد عن كلّ أملٍ بالفوز بي، وكنتُ سألومك على قسوتك لولا أنّها برهانٌ آخر على رَهافَتِكَ آخذُه أنا بعينِ الاعتبار: ولكن يا سيّدي، حالَتهم مختلِفة كليّاً عن حالتك. يجب أن تشعر ببالغ السّرور، لأنّهم لا شيء لدَيهم يستطيعون أن يفتخِروا به. فلا تتمادَ في غيرتك كثيراً.

فما كان من ملك مناجِم الذّهب، وقد احتارَ كليّاً إزاءَ الطّريقة المهذّبة التي كانت تتعامل بها الأميرة مع أمرٍ كان يمكنُ أن يتسبّب لها بالحزن، إلاّ أن ارتمَى عند قدمَيها وقبّل يديها طالِباً منها المغفرة ألف مرّة.

وأخيراً وافى ذلك اليوم المنشود الذي طال انتظاره: كان كلّ شيءٍ جاهِزاً لزفاف آية الجمال، وأعلنت الآلات والأبواق عبر المدينَةِ كلّها إيذانَ ذلك الاحتفال الكبير. كُسِيَت الشّوارِعُ بوَرَقِ الجدرانِ وفُرِشَت بالأزهار. وهُرِعَ الشّعب المحْتَشِد إلى ساحَة القصرِ الكبيرَة. لشدّة فرح الملكة فارق النّوم عينيها ونهضَت منذ الفجر الباكر لكي تُعْطِيَ الأوامرَ الضّروريّة، وتختار الأحجار الكريمَة التي يُفترَض بالأميرَة أن تتزيّنَ بها. وكان الألماس هوَ الطّاغي: حذاؤها منَ

الألماس، وثوبها منَ الدّيباج الفضيّ المرقّش بخيوط الشّمس الذهبيّة الباهظة الثمن. لا شيءَ كانَ أبهى من زينَة الأميرة إلاّ جمالها الذي فاق الشّمسَ بهاءً: كان رأسُها مزيّناً بتاج نفيس وشعرها مسترسِلاً حتّى قدَمَيها، وجلال قامَتِها بارزاً وسطَ كلّ أُولئك النّساءِ اللّواتي رافَقْنَها. وكان ملك مناجِم الذّهب يضاهيها اكتمالاً وجمالاً. كانت فرحَته بادِيَة على وجهه وفي جميعِ أفعاله. لا أحدَ قارَبه إلاّ وَعادَ محمّلاً بعطاياه الكثيرَة؛ كان وضعَ حول صالة الولائم ألف برميلِ ملآن ذهباً وأترع بليراتٍ ذهبيّةٍ حقائبَ كبيرة من المخمَلِ المطرّزِ باللآلئ. وكلّ واحد كان يستطيع أن يأخذ مائة ليرة تُعطى لكلّ من يمدّ يديه دون تمييز، ما جَعَل ذلك الاحتفال الجانبيّ، من بين العديد من الاحتفالاًت الأخرى المسلّية والممتِعَة التي يحْفَل بها ذلك الزّفاف، يجتذِب إليه أشخاصاً كثيرين قلّما كانوا يأبهونَ للمتع الأخرى.

تقدّمَت الملكة والأميرة لكي توافيا الملك. عندئذٍ رأتا ديكَينِ روميّينِ ضخمَينِ يدخلانِ في الرّواقِ الطّويلِ حيث سارَتا، وكانا يجرّانِ صندوقاً في غاية الرّداءة، وخلفهما امرأة عجوز طويلة القامة طاعِنَة في السنّ ومهلهلة بقدر ما هيَ شنيعَة القبح. كانت تتّكئ إلى عكّاز وترتدي ياقة مجعّدة منَ التّفتا السّوداء وعباءة منَ المخمَلِ الأحمر وثوباً منفوخاً رَثّاً. قامَت بثلاثِ دوراتٍ معَ الدّيكينِ الروميّينَ من دونِ أن تنبسَ بكلِمَة ثمّ توقّفت وسَط الرّواق وهزّت عكّازَها بطريقةٍ متوعّدَة؛ وهتفت:

– تبّاً لكِ أيّتها الملكة! وتبّاً لكِ أيّتها الأميرَة! تريدان أن تنكُثا بالوعد الذي أعطيتماه لصديقي القزَم الأصفر دون عقابٍ على ما فعلْتُماه! أنا جنيّة الصّحراء: .أفلا تعرفانِ أنّه من دونِهِ ومن دونِ

شجرَة البرتقال التي يملكها، كانت أُسودي الضّخمَة ستلتهمكُما؟ لا نتحمّل في مملكة السّحر مثلٍ هذه الإهانات. فكّرا بسرعَة بِما يتوجّب عليكما أنْ تفعَلاه لأنّني أُقسم بغطاء رأسي، رأس السّاحرة، أنّكِ ستتزَوّجينَه أو أحْرِق عُكّازي.

قالت الملكة وهيَ تبكي:

- آه! أيّتها الأميرة، ماذا تقول، بماذا وعَدتِ؟

فأجابَت آية الجمال بألم:

- آه يا أمّي! بماذا وعَدتِ أنتِ نفسك؟

استاءَ ملك مناجِم الذّهب ممّا يجري ومن تلك العجوزِ الشّرّيرة التي أتت لتعترضَ الطريق أمام إتمام فرحته. فاقترَب منها والسّيف في يدِهِ وغرزَه في صدْرِها قائلاً لها:

- أيّتها البائِسَة، ابتعِدي عن هذه الأمكنَة إلى الأبد وإلاّ لانتقمتُ من شرّكِ بقتلك.

ما كادَ يلفظ هذه الكلمات حتّى طار غطاء الصّندوق وحطّ على الأرضيّة محْدِثاً ضجّة مرعِبَة وخرجَ منه القزم الأصفر ممتطياً قطّاً إسبانيّاً وأتى ليقف بين جنيّة الصّحراء وملك مناجِمِ الذّهب.

قال له:

- أيّها الشّاب المتهوّر، لا تفكّر بإهانَةِ هذه الجنيّة العظيمة، لا دَخلَ لكَ إلاّ بي وحْدي، أنا خصْمُكَ وأنا عدوّك. الأميرة الخائنَة التي تريد الزّواجَ بكَ أعطتني كلِمَتها وأعطيتُها كلمَتي. انظرْ وستجد في إصبَعِها خاتَماً من شعرة من شعري. حاولْ أن تنتزِعه منها وسَترى عبرَ هذا المسْعى الصّغير أنّ قدرَتَك أقلّ من قدْرَتي.

قال له الملك:

- أيّها المسخ البائس، هل لديك الجرأة على أن تقول إنّك تهوى هذه الأميرَة التي حظيت من السّموات بهذا الجمال الباهر، وأن تدّعي أنّك تريد الزواج بها؟ هل فكّرت بأنّك قرد ووجهك البَشِع يُؤنَف من النّظر إليه. سأقتلك لكنّك لست جديراً حتّى بهذه الميتة.

فغضبَ القزم الأصفر المُهان في صميم قلبه، وما كان منه إلاّ أن غرز المهمازَ في بطنِ هرّه فبدأ هذا يموء مواءً مرعِباً ويقفز هنا وهنالك مخيفاً الجميع إلاّ الملك الشّجاع الذي كان يُحاصِر القزم عن قرب. عندئذٍ أخرَجَ هذا الأخير سيفاً قصيراً كان متمنطَقاً به ونزِل إلى ساحَة القصر متحدّياً الملك ومُحْدِثاً ضجّة غريبة.

تبِعَه الملك الغاضب بخطواتٍ كبيرَة. وما إن تواجَها وخرج أفراد الحاشية كلّهم على الشّرفات حتّى أصبَحَت الشّمس فجأةً حمراءَ وكأنّها مدمّاة، ثمّ أعتمتْ بحيث كادت الرّؤية تنعدِم. بَدت الرّعود والبروق وكأنّها تريد أن تدمّر الأرض، وظهر الدّيكان الرّوميّان بالقرب منَ القزم الشرّير وكأنّهما عملاقان أعلى منَ الجبل وقذفا من منقاريهما وعيونهما ناراً متدفّقة متأجّجة وكأنّها حِمَم لاهِبَة. إلاّ أنّ كلّ هذه الظّواهر لم تكن قادرَة على إحداثِ الرّعب في قلبِ الملك الشّاب الشّهم. فقد أظهر بَسالَة نادرة طمْأنت كلّ أولئك المهتمّينَ بسَلامَته وربّما تسبّبت بإحراج شديد للقزم الأصفر: لكنّ شجاعته خانته عندَما رأى حالَ أميرَتِه العزيزة: امتطَت جنيّةُ الصّحراءِ، ورأسها مكسوّ بأفاعٍ طويلة، على طريقة تيسيفون[1]، ظهرَ عنقاءَ مُغرِبة[2] مجنّحة ثمّ أمسكت رمحاً ورَمَت بِهِ الأميرَة فتهاوت هذه بينَ ذراعي

(1) تيسيفون: إحدى إلهات الغضب والانتقام في الميثولوجيا الإغريقيّة.

(2) عنقاء مُغرب أو عنقاء مُغربة: طائرٌ أسطوري نصفه نسر ونصفه أسد.

الملكة غارِقة في دَمِها. كان وقْع الرّمح على تلك الأمّ الحنونَة أشدّ إيلاماً منه على ابنتِها، فأطلقَت صراخاً ونَحيباً يفوقان الوصف. ففقدَ الملك شجاعَتَه وجُنّ جنونه. تخلّى عن المعركَة وهُرِعَ إلى الأميرَة لكي يُغيثها أو لكي يموت معها. لكنّ القزم الأصفر لم يترك له الوقت للاقترابِ منها بل اندَفَعَ مع قطّهِ الاسبانيّ على الشرفة حيث كانت وانتزعَها من يدي الملكة وجميع النساء ثمّ قفزَ على سطح القصر واختفى معَ فريسَته.

وفي غمرة الحيرة والذّهول، نظرَ الملك بيَأسٍ مطلَقٍ من حوله وشعر بتعاسَة كبيرَةٍ لأنّه لم يستطع أن يقدّم أيّ حلّ للمأساة العارمة التي كانت تحدُث أمامه. وما زادَ الطين بلّة هوَ أنّه شَعَرَ أنّ عينيهِ حُجِبَ عنهما الضّوء واكتَسَتا بالظّلمَة وأنّ قوّة هائلة حمَلَته في الفضاء الرّحب. يا لانعِدام الحظوة! أيّها الحبّ، أيّها الحبّ المتوحّش، أبهذهِ الطّريقة تعامل أولئك الذين يعترِفونَ بكَ منتصراً؟

ولكنّ الجنيّة الشرّيرَة، جنيّة الصّحراء التي أَتَت مع القزَم الأصفر كَي تساعِدَه في اختِطافِ الأميرَة، أُعجبت بشجاعة الملك الشّاب فَرَقَّ قلبُها العديم الإحساس وأرادَت أن تجعله فريستها فاصطحبته إلى ظلمة كهفِها المخيف حيث أثْقَلَته بالسّلاسِلِ ثمّ ربَطته إلى إحدى الصّخور.

كانت تأمل أن يحمله الخوف منَ الموتِ على نسيان آيَة الجمال ويلزِمَه بأن يفعل ما تشاء. وما إن وصلَت إلى كهفها حتّى أعادت إليه بصرَه دونِ حريّته، ثمّ، مستعيرَةً من فنّ السّحر النّعَمَ والمفاتِنَ التي حرَمَتها منَها الطّبيعَة، بدَت أمامَه بهيئة حوريّة جعلَتها الصّدفَة تأتي إلى تلك الأمكنَة.

هتفت قائلة:

- ماذا أرى؟ هذا أنتَ أيّها الأمير السّاحر... أيّ حَظّ سيّءٍ تسبّب لك بهذا الضّنى واستَبْقاكَ في هذه الخلوَة الحزينة؟

أجاب الملك المخدوع بالمظاهِرِ الكذّابَة:

- واحسْرَتاه أيّتها الحوريّة الجميلة، أجْهَل ماذا تريد منّي جنيّة الغضبِ الجهنّميّة التي قادتني إلى هنا. ومع أنّها حرَمَتني نعمة النّظر عندما اختطفتني ولم تظهَر منذ ذلك الحين، فأنا لم يفتني أن أتعرّف في صوتِها إلى جنيّة الصّحراء.

هتفت الحوريّة الزّائفة:

- آه! أيّها السيّد، إذا كنتَ بين يدي هذه المرأة فلن تخرج منَ الوَرْطَة إلاّ بزواجِكَ بها. قامَت بهذِهِ الحيلة مع أكثرِ من بطلٍ وهي يستحيل أن تلين في مواقفِها أو تتراجع عنها.

وفيما كانت الحوريّة تتظاهر بالتّعاطفِ مع حزنِ الملك، لَمَحَ قدميها اللتينِ كانَتا شبيهَتينِ بقوائم عنقاء مُغرِب: كانت تلك العلامَة التي يُستدلّ بها دوماً على الجنيّة في مختلفِ تحوّلاتِها لأنّها لا تستطيع تغيير تلك البراثن.

تظاهر الملك بعدم الانتباه وتحدّث إليها بنَبْرَةٍ حَميمَة. قال لها:

- لا أشعر بأيّ نفورٍ حيال جنيّة الصّحراء لكنّ الأمر الذي أستهجنه حقّاً هو وقوفها إلى جانب القزم الأصفر ضدّي وإبقائي مقيّداً مثل مجرم. ماذا فعلتُ لها؟ ذنبي أنّني أحببتُ أميرَةً فاتنة. لكنّني أشعر بأنّني، إنْ هي أعادَت إليّ حريّتي، فإنّ امتناني لها سيُلزِمُني بألاّ أحِبّ سواها.

قالت الحوريّة بنبرَة خائبة:

- هل تقول الصّدق؟

أجاب الملك:

- لا تشُكّي في ذلك. لا أعرف إطلاقاً فنّ التملّق. وأعترِف لكِ أنّ جنيّة تستطيع أن تُرضي غروري أكثرَ من أميرَة عاديّة. لكنّي، وإن كنت أشعر بالحبّ حِيالَها، إلاّ أنّني لن أُظهِرَ لها إلاّ الحقدَ حتّى أعودَ حرّاً وسيّدَ نفسي.

انخدَعَت جنيّة الصّحراءِ بهذه الكلمات، فاتّخذت القرار بنقلِ الملكِ إلى مكانٍ جميلٍ بقدرِ ما كانت عزلته في تلك الأماكن مرعبة. وأرْغَمَته على الصّعودِ في عرَبَتِها التي أوثَقت إليها البَجَع بدَلَ طّيور الخفّاش التي كانت تقودُها عادَةً، وطارَت من قُطْبٍ إلى آخر.

لكن ماذا صارَ بحالِ ذلك الأمير، عندما اجتازَ على هذا النّحوِ فضاءَ الهواء الرّحب، ولَمَحَ أميرَته الغاليَة في قصرٍ من الفولاذ كلّه، وجُذْرانه التي تصْفعُها أشعّة الشمس تصبِحُ كمَرايا متوهّجة تحرق كلّ مَن يقترِب منها؟ رآها في غابةٍ صغيرة، مضطجعَة عند ضفّةِ أحَدِ الجَداول، مسنِدَةً يداً إلى رأسِها وبيَدِها الأخرى بدت وكأنّها تمسَحُ دموعَها. وإذ رفعَت عينيها نحوَ السّماء مستغيثةً بها، رأت الملك يمرّ بصحبَة جنيّة الصّحراء التي استعملت فنّ السّحر وهي الخبيرَة فيه لتبين على هيئة جميلة في عينَي الملك الشاب، والتي بَدَت في عيني الأميرَة أروَعَ شخصٍ في العالم.

هتفَتْ:

- ماذا! أليس يكفيني ما أنا عليه من تعاسَة في هذا القصرِ المنيعِ الذي نقلَني إليه القزم الأصفر المرعب؟ هل على شيطانِ الغيرَة أن يأتيَ لمطارَدَتي حتّى هنا لِيزيدَ من بلِيّتي؟ هل كان لزاماً عليّ أن

أخوضَ هذه التجربَة الغريبة لأعلمَ بخيانَة ملكِ مناجَم الذّهب لي؟ لقد ظنّ، وقَد غِبْت عن ناظِرَيه، أنّه تبرّأ من كلّ العهودِ التي قطَعَها على نفسه تجاهي. ولكن مَن هيَ هذهِ المرأة العجيبة التي تنافسني على قلبه ويبزّ جمالُها المشؤوم جمالي؟

وفيما هي تتكلّم على هذا النّحو، شعَرَ الملك العاشق بألمٍ مميتٍ لكونه أُبعِدَ بهذه السّرعَة عن حبيبتِهِ قِبْلَة أمانيه. ولو أنّه لم يكن يعرف قدرة الجنيّة حقّ المعرفة، لكانَ بَذَلَ كلّ مسعىً للتخلّص منها، إمّا بقتْلِها أو بأيّ وسيلةٍ أخرى يمليها عليه حبّه وبَسالَتُه: ولكن ما العَمَل إزاءَ جنيّة تملك كلّ ذلك الجبروت؟ وحدَهما الوقت والفطْنَة بوسعهما أن يحرّراه من قبْضَتِها.

لَمَحت الجنيّةُ آيَةَ الجمال وتحرّت في عينَي الملك لكي تنْفَذ إلى الأثر الذي خلّفّه مرآها في قلبه.

قال لها:

– ما من شخص مخوّل أكثر منّي لكي يقول لك ما تريدين معرفته. إنّ اللّقاءَ غير المتوقّع بأميرَةٍ تعيسَة كنتُ متعلّقاً بها قبلَ تعلّقي بك أثارَ انفعالي قليلاً. ولكنّكِ أسمى منها مقاماً بكثير في روحي، وأنا أفضّل الموت على أن أخونَك.

قالت له:

– آه أيّها الأمير، هل أستطيع الافتخار بأنّني ألهمتكَ مشاعِرَ جميلة ناحِيَتي؟

قال لها:

– الوقت سوف يقنِعُكِ يا سيّدتي. لكن إذا أردتِ أن تقنِعيني بأنّني أحظى بجزءٍ قليلٍ من رأفَتِكِ فلا ترفضي أن تقدّمي يدَ المساعَدَة

لآية الجمال.

قالت الجنيّة مقطّبةً حاجِبَيها وناظِرَة إليه شزراً:

- هل فكّرْتَ مليّاً بِما تطلبه؟ هل تريدني أن أستخدِمَ علمي لمواجَهة القزم الأصفر الذي هوَ صديقي المفضّل، وأن أنتشِلَ من بينِ يَدَيهِ أميرَة صلفة لا أستطيع النّظر إليها إلاّ بصِفَتِها عدوّتي؟

تنَهّد الملك دونَ أن يُجيبَ بشيء؛ فماذا كان بإمكانِهِ أن يجيبَ ذلك الكائن الخارق النّافذ البصيرَة؟

وَصَلا إلى مرْجٍ واسع، منمّق بألف زهرَة مختلفة ويحيط به نهر عميق وجداول عدّة تسيل منِ النّوافير بهدوء تحت أشجار ملْتفّة وارفة الظلال. وكانَ يُلمَح في البعيد قصر بديع جدرانه منَ الزمرّد الشفّاف. وللحالِ خفضَت البجعات التي كانت تقود الجنيّة رؤوسَها للمرور تحت إحدى الباحات المعمّدة التي كانت أرضها مرصوفَة بالألماس وقببها بالياقوت الأحمَر. ومن كلّ جانب جاءت حشود من الناس لاستقبالِها مرَحّبينَ مهَلّلينَ بهتافات الفرَح. وأخذوا ينشدونَ هذه الأغنيَة:

عندَما يريد الحبّ أن يفوز بأحَدِ القلوب
فعبثاً تُبذَل الجهود لمقاومته
بل هيَ تزيد على مَجْدِه مجداً
لأنّ أكبرَ الظّافِرين هم فيه أوّل المنهزِمين.

كانت جنيّة الصّحراءِ مفتونَة لسَماعِها الأغاني المحتَفِلة بغراميّاتها. قادَت الملك إلى أجملِ جناحٍ وُجد في تاريخِ الجنيّات، وتركته هناكَ

بضعَ لحظات لكي لا يَشعرَ بأنّه أسير بشكلٍ مطلق. شكّ في أن تكون ابتعَدَت وأدرَكَ أنّها مختبئَة في مكانٍ ما تراقِبُ ما يفعله، ما أرْغَمَه على الاقترابِ من مرآةٍ كبيرَة فتوجّه إليها قائلاً:

- أيّتها المستشارَة الوفيّة اسمحي لي بأن أرى ما يمكن فعْله لكي أبدو ظريفاً في عينيّ جنيّة الصّحراء الفاتنة لأنّ رغبتي في أن أروق لها تشغل بالي باستمرار.

ولِلحالِ سرّحَ شعره وطلى جسمه بالذّرور ووضعَ على وجهه خالاً اصطناعيّاً صغيراً[1]، ثمّ إذ رأى على إحدى الطّاوِلات ثوباً أجملَ من ثوبه، ارتداه على الفور.

أحسّت الجنيّة بأنّها في نشوَة منَ الفرح ولم تستطع تمالك نفسِها. قالت له:

- أعْلِمُكَ بأنّني آخذ بعينِ الاعتبار الجهودَ التي تبذلها لتَروقَ لي. لقد وجَدتَ السرّ حتّى دون أن تفتّشَ عنه. أنت احْكمْ بنَفسك، إذا أرَدْتَ سَهُلَ لك كلّ شيء.

لم يوفّر الملك، الذي كانت له أسبابه، كلاما معْسولاً لم يقلْه للجنيّة العجوز، ونالَ شيئاً فشيئاً الحريّة للذهاب والتنزّه على طولِ شاطئ البحر. ولقد استخدمت الجنيّة سحرها الرّهيب لتجعل البحر عاصِفاً بحيث لا يتجاسَر قبطان على الإبحار فيه. وهكذا لم يكن عليها أن تخشى شيئاً للتّساهل الذي أبدته حِيال سجينِها. أحسّ الملك بعزاءٍ قليل لأنّه سيكون قادراً ولو لبعض الوقت على الحلم وحيداً دون أن تقطَعَ خلوَتَه السجّانَةُ الشرّيرة.

وبعْدَ أن مَشى طويلاً على الرّمل، انحنى وكتبَ هذه الأشعار

---

(1) في الواقع قطعَة قماش منَ التّفتا السوداء بحجمِ جناح الذّبابَة توضَع كزينَة على الوجه.

بِعَصاً كان يحْمِلها في يده:

وأخيراً، أستطيعُ البكاء بحريّة
عساني أخفّف من آلامي
واحَسْرَتاه! غابت عن ناظري
مفاتِنُ الحسناءِ التي سحَرَتني.

أمّا أنتَ أيّها البحر العاصف، أيّها البحر الرّهيب
أنت يا من تجعل ضفافَك منيعَةً على الفانين
وتتلاعَب بأمواجك الرّياحُ المسعورَة
تدفَعُك تارةً نحوَ الجحيم السّفليّة وطوْراً إلى السّموات
إنّ قلبي لأقَلّ هدوءاً
ممّا يبدو لك.

يا آيَة الجمال! آه! أيّها القدَر الهمَجيّ
فقدَتُ حبيبتي
أيّتها السّماء! سجني يفرّقني عنها
أيّتها السّماء لِماذا تؤجّلينَ موتي؟

يا إلهَ الأمواج
لقد سبقَ أن شعرْتَ بقدرَة الحبّ،
فاخرجْ من كهوفِك العميقة
وأسْعِف عاشقاً صارَ إلى اليأس.

وأثناءَ الكتابة، سمَع صوتاً جَذَبَ انتباهَه رغماً عنه، ولمّا رأى الأمواج تتضحّم، نظر إلى كلّ الجهاتِ وعندئذٍ لَمَحَ امرأة ذاتَ جمال خارق، متدثّرَة بشعرِها الطّويل الذي تداعِبُه النّسائم ويعوم على صفحة الماء. كانت تَحمِلُ في إحدى يدَيها مرآة وفي الأخرى مُشْطاً، جسدَها ينتهي بذيلِ سمَكَةٍ طويل وَزَعانف. مكث الملك مندَهشاً من ذلك اللّقاء الخارق. وما إن استطاعَت الكلام حتّى قالت له:

- أعرف الحالَ المحزنةَ التي تعيش فيها لابتعادِكَ عن أميرَتك، والشّغف الغريب الذي تكنّه لك جنيّة الصّحراء. إذا شئت فسوف أنتشلك من هذا المكان المشؤوم الذي قد تبقى أسيره لمدّة تزيد على ثلاثين عاماً.

لم يعرف الملك بماذا يجيب. ليسَ لأنّه لا يرغب في الخروج منَ الأسْرِ لكنّه خشيَ أن تكونَ جنيّة الصّحراءِ قد اتّخَذَت تلك الهيئةَ لكي تنصبَ له فخّاً. وبما أنّه كان متردّداً، حدسَت الحوريّة أفكارَه وقالت له:

- لا تظنّ أنّ هذا فخّاً أنْصبه لك. نواياي طيّبة جدّاً ولا يمكنني بالتّالي أن أرغب في خدمَة أعدائك: إنّ الطّريقة التي انتَهَجَتْها جنيّة الصّحراء والقزم الأصفر قد ألّبَتْني عليهما. أرى في كلّ يوم أميرَتَكَ التّعيسَة الحظّ وأرى جمالها ومزاياها فأُشفق عليها أكثر، وأعوِد وأكرّر لكِ: إذا وثقت بي أنقذتُك.

هتف الملك:

- لديّ ثقة مطْلقة بكِ وسأفعَل كلّ ما تأمرينني به. لكن بما أنّك رأيتِ أميرَتي فزوّديني بأخبارِها.

قالت له:

- سنخسَر وقتاً كثيراً ونحن نتحدّث عنها. تعال معي. سوف آخذُك إلى قصر الفولاذ وأتركُ على هذا الشّاطئ هيئة تشبِهك وكأنّها أنت فتنْطَلي الحيلَة على الجنيّة.

وفي الحال قطَعَت قصباً بحريّاً وصنعَت منه رزمَة ضخمَة ثمّ نفخت فوقه ثلاث مرّات وقالت:

- أيّها القصب، يا صديقي، آمرُكَ بأن تبقى مُمَدّداً على الرّمل دونَ أن ترحَل عنه إلى أن تأتِيَ جنيّة الصّحراءِ لأخْذك.

أخذ القصب يكتسي بالجلدِ ليصبح صنوَ ملكِ مناجم الذهب، الذي لم يرَ حتّى تلك اللّحظة شيئاً مماثلاً أذْهَلَه إلى هذا الحدّ. وأُلبس القصب ثياباً مطابقة لثيابه، وبدا شاحِباً ومنْهَكاً وكأنّه غرق لتوّه. في تلك الأثناء، أجلَسَت الحوريّة الطيّبة الملك على ذيلها الطّويل وأبْحَرا كلاهما في عرْضِ البحرِ يغمرهما الشعور بالرّضا.

قالت له:

- أريد الآنَ أن أعلمَك أنّ القزم الأصفر الشرّيرَ حين اختطفَ آية الجمال، وضعَها، بالرّغم منَ الإصابة التي تسَبّبَت لها بِها جنيّة الصّحراء، خلفه على ظهر هرّه الإسبانيّ الرّهيب ففقَدت الكثيرَ من الدّم واعتلّت صحّتها من جرّاء ذلك النّزيف وفارقَتها كلّ قِواها وبقيَت طيلة الطّريق فاقِدَة الوعي. ولكنّ القزَم الأصفر لم يشأ التوقّف لإنقاذِها إلاّ حينَ وصل إلى قصرِه الفولاذيّ الرّهيب ورأى أنّه في أمانٍ. وهناك كان في استقبَاله أجمل أناسٍ في العالم كان أحضرهم خصّيصاً لذلك. وكلٌّ راحَ ينافِسُ الآخر مسارِعاً لنجدَةِ الأميرَة. وُضِعَت على سريرٍ شراشِفُه من ذهب ومبرقش بلآلئ

بضخامَة الجوز.

هتف ملك مناجم الذّهب مقاطِعاً الحوريّة:

- آه! لقد تزوّجَها. سيُغمى عليّ، سأموت.

قالت له:

- لا يا سيّدي اطمئنّ، إنّ حَزْمَ آية الجمال حَماها من عنفِ هذا القزم المرعب.

قال الملك:

- أكمِلي...

تابعَت الحوريّة:

- ماذا لديّ لأقوله لكَ بعد؟ كانت في الغابة عندَما مررْتَ. رأتكَ مع جنيّة الصّحراء التي كانت متبرّجَة إلى حدٍّ بَدَت لها معه على جمالٍ يفوق جمالها هيَ. لا تستطيع أن تتصوّر يأسها لظنّها أنّك وقعت في حبّ الجنّية.

فصرَخ الملك:

- تظنّ أنّني أحبّها! أيّتها السّماء ارحَميني! أيّ خطأ جسيمٍ تقترفه! وماذا عليّ أنْ أفعَلَ لأحرّرها منه؟

أجابت الحوريّة وعلى وجهِها ابتسامَة ظريفة:

- سلْ قلبك ينبئك بالخبر.

ما إن أنْهَت هذه الكلمات حتّى وصَلا إلى القصر الفولاذيّ. كانت جهة البحر هيَ المكان الوَحيد الذي لم يكسُه القزم الأصفر بتلك الجدران الرّهيبَة التي تحرِقُ كلّ مَن يقارِبُها.

قالت الحوريّة للملك:

- أعرفُ جيّداً أنّ آية الجمال توجد على ضفّة النبعِ نفسه حيث

رأيتها عندما عبَرْت. ولكن بما أنّه لديكَ أعداء يجب محارَبَتهم قبل الوصولِ إليها فهاكَ سيفاً تستطيع بواسطته أن تفعل ما تشاء وتواجه الأخطار الكبرى شرْط ألاّ تدَعَه يسقط من يدك. وداعاً، سأنسحب وأختبئ تحت الصّخرة التي تراها. إذا احتجتَ إليّ لكي أقلّكَ بعيداً برِفقَةِ أميرَتِكَ الغاليَة، فأنا جاهزَة دوماً. لأنّ الملكة والدتها هي صديقتي المفضّلة، ولأجلِ خدمَتِها جئت لأبحَث عنك.

أنْهَت الحوريّة هذه الكَلِمات وأعْطَت الملك سيفاً قُدَّ من ألماسَة واحِدَة، وكان أشدّ سطوعاً من أشعّة الشّمس ما جعله يدرِكَ مقدار نُجوعِه. وبِما أنّه لم يستطع إيجادَ كلماتٍ ملائمَة تعبّر عن امتِنانِهِ رَجاها أن تعوّضَ عن عجزِهِ في التّعبيرِ بتصوُّر ما يستطيع قلبٌ مغرَمٌ أن يشعرَ به إزاءَ معروفٍ كبيرٍ كذلك الذي أسدتْه له.

ولكن يجب قولُ شيءٍ عن جنيّة الصّحراء. عندما أدركت أنّ حبيبَها الغالي لم يعد أسرَعَت للبَحث عنه وذهَبَت إلى الشّاطئ برِفْقَةِ موكِب من مائة فتاة محَمّلات جميعهنّ بسِلالٍ كبيرَة مليئةٍ بهدايا رائعَة للملك. منهنّ مَن حَمَلْنَ سِلالاً كبيرَة مليئة بالألماس ومنهنّ من حملن أواني ذهبيّة متقنة الصّنع والعديد منها مليء بالعنبرِ الرّماديّ والمرجان واللآلئ. وبعضهُنّ حَملنَ على رؤوسِهنّ حِزَماً منَ الأقمِشَة تفوق نفاستُها التصوّرَ، وبعضهنّ الآخر حمِلنَ فواكه وأزهاراً لا بل حتّى عصافير. مشَت الجنيّة خلف ذلك الموكب الأنيق الحاشد، ولكن ماذا صارَ بحالها عندما رأت القصب البحريّ الذي اتّخذ هيئة ملكِ مناجِم الذّهب وبات شبيهَاً به إلى حدّ التطابق؟ أمام ذلك المنظر، صُعِقَت الجنيّة منَ الدّهشَة والألم. أطلقت صرخة مرعبة اخترقَت فضاء السموات وارتعشت لها الجبالَ ووصلَت أصداؤها

حتّى مَنازل الجحيم. إنّ ربّات الغضب الأسطوريّات ميجارا وآلكتو وتيسيفون لا يسعُهُنّ أن يتّخذْنَ سيماء مرعبة كتلكَ التي اتّخَذَتها الجنيّة. ارتَمَت على جسدِ الملك وبَكَت وزَعَقت ومزّقَت إرباً خمسينَ من أجمل مرافقاتها اللّواتي واكَبْنَها، مضحّيَةً بهِنّ لأجلِ أرواحِ الموتى التي ستسهرُ على ذلك المتوفّى العزيز. ومن ثمّ، استدعت إحدى عشرة شقيقة لها كنّ جنيّات مثلها وتوسّلت إليهنّ مساعدَتها لكي تصنعَ ضريحاً لذلك البطل الشّاب. لم تكتشف أيّ منَ الجنيّات خِدْعَة القصب البحريّ. وذلك الحدث من شأنِهِ أن يُدْهِشَ الجميعَ لأنّ الجنيّات كنّ يعْرِفنَ كلّ شيء، لكنّ الحوريّة الماهِرَة فاقتهنّ معرفة.

وفيما هنّ يأتينَ بالرخام السّماقيّ واليشب والعقيق والرّخام والتّماثيلِ وشعارات النّبالة والذّهب والبرونز لأجلِ تخليدِ ذكرى الملك الذي اعتَقدنَه ميّتاً، كان الملك يشكر الحوريّة المُحبّة مستحْلِفاً إيّاها أن توليهِ رِعايتها. فأخذَت على نفسِها عهداً بأن تفعل كلّ ما بِوسعِها واختَفَت عن ناظِرَيهِ. لم يعد لديه ما يفعله إلاّ التوجّه نحو القصر الفولاذيّ.

وهكذا، مدفوعاً بحبّه، مشى بخطى حثيثة، متحَرّياً بعينيه المكان ليَرى ما إذا كانَ سيَلمَح أميرتَه المحبوبة: لكنّه ما كاد يمشي بعض الوقت خليّ البال حتى أحاطَ به أربعة مسوخ بهيآت مرعبة كأبي الهول وانقضّوا عليه بمخالِبهم الحادّة، وكادوا يمَزّقونَه إرباً لو لم يسعِفه سيف الألماسِ كما أنبأته بذلك الحوريّة. ما إن لوّح به لامعاً في أعيُنِ أولئك المسوخ حتّى سقطوا عند قدميه بلا حراك: ثمّ طعَنَ كلّ واحِدٍ بضرْبَة قاضِيَة. وتوغّلَ في سيرِهِ فوجَد ستّة تنانين مكسوّة بحراشف لا يستطيع شيء اختراقها وكأنّها أصلب منَ الحديد. كانت

المواجهة مرعِبَة، لكنّ الملك حافظ على بسالته مستعيناً بسيفه القاطع الرّهيب وشطرَ أجسام التنانين كلّها إلى شطرَين. كان يأمَل أن يكون بذلك قد تَخَطّى أهوَل المخاطر وإذا بهِ يرى أمامه خطَراً أكثر إرْباكاً. جاءت للقائِهِ أربع وعشرون حوريّة، كلّهن جميلات ورَشيقات، حاملات أكاليل طويلة منَ الأزهار وكنّ يَسْدُدْنَ الطّريق أمامه.

قلنَ له:

- إلى أين تريد أن تذهبَ يا سيّد؟ نحن منتدَبات لحِراسَة هذه الأمكنة. إذا تركناكَ تمرّ فسوف يحصل لك ولنا مآسٍ غير متناهية. من فضلك لا تعاندْ. أوَ تريد أن تلطّخَ يدَكَ الظّافرَة بدَمِ أربعٍ وعشرينَ فتاة بريئاتٍ لم يتسبّبْنَ لكَ بأيّ أذى؟

أمام هذا المشهد، بقي الملك مذهولاً، حائِراً في ما يتوجّب عليه فعلُه: هو الذي عاهَدَ نفسَه على احترام الجنس اللّطيفِ وعلى أن يكون الفارِسَ المُقارِعَ لكلّ إحجافٍ يُرتَكَب بحَقّ النساء. وها أنّه مجبَر على النّكثِ بهذا الوعد: لكنّ صوتاً سمعه شدّد من عزيمَته فجأة.

قال له الصّوت:

- اضربْ بسيفكَ، اضربْ ولا توفّرْ شيئاً وإلاّ خسرتَ أميرَتكَ إلى الأبد.

وعلى الفور، ومن دونِ أن يجيبَ أولئك الحَواري بشيءٍ، ارتمى وسَطَهنّ وقَطَع أكاليلَ الأزهار التي يَحْمِلْنَها وهاجَمَهُنّ دون رحمَةٍ وبدّدَهنّ في لحظة: لا بدّ أنّه آخر حاجزٍ يجده في طريقهِ. دخل إلى الغابة الصّغيرَة حيث رأى آية الجمال. كانت عندَ ضفّة النّبعِ شاحِبَةً سّقيمَة. اقتربَ منها وهوَ يرتجِف. أراد أن يرتميَ عند قدَميها لكنّها

ابتعَدَت عنه بسرعَة واشمئزاز وكأنّه كان القزم الأصفر.

قال لها:

- لا تدينيني دون أن تسْتَمعي إليّ يا سيدتي. لست خائناً ولا مذنباً. أنا إنسان تعيس أثار استياءَكِ مُكْرَهاً.

هتفتْ:

- آهٍ منكَ أيّها المتوحّش، رأيتك تجتاز الفضاءَ برِفْقَة امرأة ذات جمالٍ خارقٍ، فهَل قمتَ بتلك الرّحلة معها مُكْرَهاً؟

قال لها:

- نعم يا أميرَتي، قمْتُ بها مكْرَهاً. فجنيّة الصّحراءِ الشرّيرَة لم تكتَفِ بتقييدي بالسّلاسل إلى صخرة بل اختطفتني في عرَبَة إلى أقاصي الأرض حيث كنت سأقضي منَ السّقم لولا نجدَة حوريّة خيّرَة اقتادَتني إلى هنا. أتيت يا أميرَتي لأخلّصَكِ منَ اليدينِ اللّتينِ تأسرانكِ فلا ترفضي نجدة أوفى العشّاق جميعاً.

وارتمى عندَ قدمَيها تاركاً سيفه الرّهيب يسقط لسوءِ الحظّ بعدَ أن علِقَ بفستانها. كانَ القزم الأصفر مختبئاً خلفَ نبتةِ خَسّ؛ وعندما رأى الملك يُفْلِت السّيف من يده سارع للاستحواذ عليه وقد كان عارفاً بقدرَته العجيبة.

أطلقت الأميرَة صرخَة مرعبَة عندَ رؤيتها القزم لكنّ نحيبَها وعَويلَها لم يزيدا إلاّ في غضبِ المسخ الصّغير: وبكَلِمَتينِ من كتابِ الطّلاسم الذي كان يملكه جاء بعملاقينِ فقيّدا الملك بالحديد والسّلاسل الثقيلة.

قال القزم:

- الآن وقد بتُّ قادراً على التحكّم بمصيرِ خصمي سأسمَح له

بكلّ طيبَةِ خاطرٍ بالبقاءِ على قيدِ الحياةِ وسأمنحه حريّة الرّحيل عن هذه الأمكنة شَرِيطَة أن تقبل بي الأميرة زوجاً دون تأخير.

فهتَفَ الملك العاشق:

- آه! أفضّل أن أموت ألف مرّة على أن يحدث هذا.

قالت الأميرَة:

- أن تموت؟ يا ويلي! هل هناكَ أمرٌ أشدّ رعباً من ذلك يا سيّدي؟

فأجابها:

- هل هناكَ ما هوَ أشدّ رعباً من أن تصبِحي ضحيّة هذا المسخ؟

تابَعَت:

- لِنَمُتْ معاً إذاً.

- اترُكي لي يا أميرَتي هذا العزاء: أن أموت لأجلكِ.

قالت للقزم:

- أوافق على تحقيق أمنيتك.

أردَف الملك:

- أيّتها الأميرة المتوحّشة أتجرؤين على الزّواج به الآن أمام ناظري، ستكون كريهةً عليّ إذاً هذه الحياة!

قال القزم الأصفر:

- لا، لن أصبِحَ زوجَها أمام ناظرَيك لأنّ خصماً محبوباً من قِبَلِها يشكّل خطراً كبيراً عليّ.

ولَم يكَد ينهي هذه الكلمات، وبالرّغم من بكاءِ آية الجمال وصراخِها، حتّى طعنَ الملكَ في صميم قلبِهِ ومَدّدَه عند قدَمَيها. لم تستطع الأميرَة البقاءَ على قيدِ الحياة بعد وفاة حبيبِها الغالي فسقَطَت على جسدِهِ واتّحَدَت روحُها بروحِهِ في وقتٍ وجيز. وهكذا قضى

هذان التعيسان العظيمان نَحْبَهما دون أن تستطيع الحوريّة التأثيرَ في مجرى الأمور لأنّ قوّة السِّحر تكمن في السّيف الماسيّ.

أمّا القزم الشرّير فكانَ أحبّ إليه رؤية الأميرة تفارق الحياة على أن تحتضِنَها ذراعا رجلٍ آخر. وحين علمَت جنيّة الصّحراءِ بتلك الحادِثة، دمّرَت الضّريحَ الذي كانت قد شيّدَته، مُظهِرَةً لِذكرى ملك مناجم الذّهب حقداً يوازي الشّغف الذي أثارَه فيها شخصه. والحوريّة المسْعِفَة الأسيانة بعد حدوث تلك المصيبة الكبرى لم تستطع أن تنال منَ القدر سوى أنّ تحوّلهما إلى شجرتَي نخيل. وهكذا غدا ذينك العاشقان الوفيّان نخلتين رائعَتينِ تتلامس أغصانهما في عناق أبديّ ويجري في أوصالهما نسغُ حبّهما الخالد.

كمثلِ ذاكَ الذي يَعِدُ قوى السّماء
وهوَ يغرَقُ في اللّجَج بتقديم نفيسِ الأضاحي لها
ولكنْ عندَما يرى نفسَه على الشّاطئ
ينسى حتّى الانحِناءَ أمامَ مذابِحِها احتراماً
كذلكَ يَعِدُ كلَّ واحدٍ بالكثيرِ وهوَ في قلبِ الخطر،
لكنّ المَصيرَ الذي لاقَتْهُ آية الجمال
يعلّمُكَ ألا تعرّضَ نفسَكَ للخطر
إذا لم يكن قلبكَ قادراً على الوفاءِ بوعوده.

الضّفدَعَة الخيّرَة

كان يا ما كان، كان هنالك ملكٌ يقاوِم منذ وقتٍ طويل حرباً شنّها عليه جيرانه. بعدَ معارك عديدة حوصِرَت عاصِمَة بلاده فَخَشِيَ على سلامَةِ الملكة وتوَسّلَ إليها، نظراً لِحَبَلِها، أن تنعزِلَ في أحدِ الحصون التي بناها والتي لم يذهَب إليها إلاّ مرّة واحدة. توسّلت الملكة إليه باكيَة لتقنِعَه بأن يتركَها بالقربِ منه. كانت تريد أن تشارِكَه قدَرَه. وأخذت تولول بصوتٍ عالٍ عندما وضعها في عربتِه لِترحيلِها. وأمَرَ حرّاسَه بمُرافقَتِها ووعَدَها بأن ينسحب منَ المعركة بسريّة تامّة ما إن تسمح له الظروف بذلك ويذهب إلى زيارَتها. عَلّلها بهذا الأمَل، لأنّ القصرَ كان بعيداً جدّاً ومُحاطاً بغابةٍ كثيفة وَيَسْتَحيل الوصولُ إليهِ ما لَم نكن نعرِف الطّرقَ جيّداً.

انطلَقَت الملكة وهي متأثّرة جدّاً لتَرْكِها زوجَها وسَطَ مخاطِرِ الحرب. ساروا بها على مراحِلِ متتابعة لئلا تُصابَ بتوعّكٍ إثرَ هذه الرّحلةِ الطّويلةِ المنْهكَة. وأخيراً وصَلَت إلى القصرِ قلقة جدّاً وحزينة. بعدَ أن ارتاحَت قليلاً، أرادَت التنزّه في الجوارِ ولَم تجد شيئاً يُسَلّيها. التفتت إلى جميع الجهاتِ ورأت صحارى كبيرة أثارَت فيها الأحزان أكثر منَ المتع. نَظرَت إليها بشجَنٍ وقالت:

- يا للفرقِ بين المكان الذي أنا فيه وبين ذاكَ الذي عشت فيه طيلة حياتي! إذا بقيت هنا لوقتٍ أطوَلَ فسأموت: لِمَن أتحدّث في هذه الخلوات؟ ولمن أشكي همومي وشجوني؟ ثمّ ماذا فعلتُ للملك حتّى ينفيني إلى هنا؟ يبدو لي أنّه يريدني أن أذوق كلّ المرارةِ التي يُحْدِثُها غيابه بنفيي وإقصائي إلى قصرٍ كَريهٍ كهذا.

بهذه الطّريقة كانت تشتكي؛ ومعَ أنّه كان يكتب لها كلّ يوم ويبلّغها أخباراً جيّدة عن المعارك، كانت تزداد شعوراً بالأسى فاتّخذَت قرارَها بالعودَة إلى الملك. لكنّ الضبّاطَ الذين يحرسونَها كانت قد أُعْطِيَت إليهم الأوامر بعدم إصطحابها إليه مجدّداً إلاّ حين يبعث لها برسالة عاجِلَة. لِذا لم تفصِح عمّا كانت تخطّط له وأمَرَت بإنشاءِ عربةٍ صغيرَةٍ لا تتّسع إلاّ لها وحدها قائلةً إنّها تريد الذّهابَ أحياناً إلى الصّيد. كانت تقود الأحصنَة بنَفسِها وتتبَع الكلابَ من مسافةٍ قريبَةٍ جدّاً بحيث إنّ الصّائدينَ بالكِلاب كانوا يَجْرون أقلّ سرعة منها: وبهذِه الطّريقة صارَت حرّة التصرّف تماماً تذهب بعربتِها حينَما تشاء. إلاّ أنّ صعوبة واحدة كانت تعترضها وتتمثّل في أنّها تجهل طُرقاتِ الغابة. لكنّها كانت تؤمّل نفسَها بأنّ القوى السّماويّة ستقودُها إلى برِّ الأمان. وبعدَ أن قدّمَت لهم بعض الهبات البسيطة، قالت إنّها تريد إقامَة حفلةِ صيدٍ كبيرَة تدَعو الجميع إليها؛ وإنّها سوفَ تصعَد في عرَبَتِها، وعندئذٍ يذهب كلّ واحدٍ في طريقٍ مختلفةٍ حتّى لا تُتْرَك أيّة خلوةٍ للحيوانات الضّارِيَة. وهكذا انقَسَمَ المشارِكونَ كلّ في طريق. أمّا الملكة الشّابة التي كانت تريد في أقرَبِ وقتٍ رؤيَة زوْجِها فقد ارتَدَت لِباساً مناسِباً جدّاً. كانت قلنسوَتها مكسوّة بأرياشٍ من ألوانٍ مختلِفة وسُترَتُها مزدانَة كلّها بأحجارٍ كريمَة وجمالها، الفريدَ من نوعه، جعلها تبدو وكأنّها ديانا[1] ثانية.

وفيما الآخرونَ مستغرِقونَ في متعة الصّيد، أطلقت العِنانَ لأحْصِنَتِها وحثّتْها صارخةً بها وهمزتها ببضع ضرباتِ السّوط. وبعد أن هرولت الأحصِنَة بسرعَةٍ كبيرَة، انطَلَقَت تعدو. شدّت الملكة على شكيمَتِها وبَدَت العرَبَة وكأنّ الرّياحَ تجرّها ويشقّ على النّاظرِ

(1) ديانا: سبق التّعريف بها؛ هي في الميثولوجيا الإغريقيّة إلهة الصّيد والينابيع والغابات.

أن يقتفِيَ أثرَها. نَدِمَت الملكة على تهوّرِها ذاك، ولكن بعدَ فواتِ الأوان. قالت:

- ماذا فعَلْتُ؟ كيف أمكنني أن أتجرّأ على قيادَةِ أحصِنَةٍ عَصِيّة وحْدي؟ وا حسرَتاه! ماذا سيصير بحالي؟ آه! إذا عرف الملك بالخطر الذي أتعرّض إليه فماذا سيصير حاله، هوَ الذي يحبّني كثيراً ولم يبعِدْني عن العاصمَة إلاّ حِفاظاً على سلامتي. لو أنّه يعرف كيف استجبْت لِتصرّفاتِه المُراعِيَة لي، وهذا الطّفل الغالي الذي أحْمِله في أحشائي سيَكون مثلي ضحيّة تهوّري.

كانَ الهواء يحمِل صدى شكواها الأليمَة. توسّلت إلى السّماء ونادَت الجنيّات لنَجْدَتها، ولكنّ السّماء نسيتْها والجنيّات تخلّت عنها، وانقَلَبَت العربَة ولم تقوَ على قذفِ نفسِها منها بسرعَة أرضاً لأنّ قدَمَها علِقت بينَ الدّولابِ ومحوَره. ومنَ السّهلِ تصوّر أنّ الأمر كانَ يحتاجُ لمعجزَةٍ لإنقاذِها بعد ذلك الحادث الرّهيب.

وأخيراً بقيَت ممدّدَة أرضاً عندَ أسفَلِ إحدى الأشجار. اختفى نبضُها وصوتُها وغمَرَ الدّم وجهها. وبقيَت طويلاً على هذه الحال. عندَما فتحَت عينيها رأت بالقرب منها امرأة عملاقة الحجم لا يغطّيها سوى فروة أسَدٍ؛ كانت ذِراعاها وساقاها عارية وكان شعَرُها معقوداً بجِلدِ أفعى يابس، وفي يدِها فأس حجريّة تستعمِلها بمثابَةِ عصاً تتّكئ إليها، وعلى خاصرَتها جعبة مليئة بالسِّهام. عندما رأت الملكة هذا المشهد أيْقَنَت أنّها ميتَة لأنّها ظنّت أنّه يستحيل أن تنجوَ من هذا الحادِثِ الخطير. قالت بصوتٍ خفيض:

- لستُ متفاجِئة أن يَصْعبَ على الإنسان تقبّل الموتَ لأنّ ما نراه في العالم الآخر مخيفٌ فعلاً!

لم تستطع العملاقة الامتناعَ عن الضّحكِ وهي تستمع إلى ما

تقوله.

قالت لها:

- استَعيدي رشدَكِ. اعلَمي أنّكِ لا تزالينَ في عِدادِ الأحياء. لكنّ مصيرَكِ لن يكونَ أقلّ حزناً. أنا الجنيّة لبوَة التي تقيمُ على مقْرُبَةٍ من هنا. عليكِ أن تأتي لِتُمْضي حياتَكِ معي.

نظرَت إليها الملكة بحزنٍ وقالت:

- إذا شئتِ تستطيعين أن تصطَحِبيني إلى قصري وأن تحَدّدي للملك الفدْيَة التي تريدينَها لقاءَ ذلك فهوَ يحبّني كثيراً ولن يرفضَ إعطاءكِ نصف مملكته، فما قولك؟

أجابت:

- لا، أنا ثريّة بما يكفي. يُسْئِمُني منذ فترَةٍ قصيرَةٍ أنّني أعيش وحيدَة. أنتِ طريفة وبإمكانِكِ تسليَتي.

وحينَ أنْهَت هذه الكلمات، اتّخَذَت هيئة لبْوَة ثمّ حمَلَت الملكة على ظهرِها واصطَحَبتها إلى عمقِ كهفِها المخيف. وما إن وصَلَت إليه حتّى عالَجَتها بمشروب دَعَكَتْها به.

يا لِدَهْشَةِ الملكةِ وألمِها الكبير حينَ وَجدَت نفسَها في ذلك المكانِ المرعب! لا يمكن بلوغه إلاّ بعدَ النّزولِ مسافة عشرَة آلاف دَرْجَةٍ في جوفِ الأرض. لم يكن هناكَ من نورٍ إلاّ نور المصابيح الضّخمَة التي تنعكِسُ في بحيرَة زئبَقيّة اللّون مملوءة بالمسوخ التي كانت ستُخيف بأشكالِها ملكة أقلّ توجّساً. سُمع زعيق البومَ والخفافيش وبعض الغربانِ وغيرها منَ الطّيورِ المشؤومَة. وكانَ يشاهَد في البعيد جبلٌ تسيلُ منه مياه شبه راكِدَة، إنّها جميع الدّموع التي ذرَفها العشّاق التّعساء، والتي جعلت منها قصص الحبّ الحزينة برَكاً. كانت الأشجار مجرّدَة منَ الأوراقِ والثّمارِ، والأرض مليئة بأزهارِ

الآذَريون والأشواك والقرّاص. وكانَ الطّعام متلائماً معَ مناخ بلادٍ لعينَةٍ كتلك: بعض الجذورِ اليابِسَة وقسطَلَة الهند وثمار الوردِ البَريّ. هذا كلّ ما كانت تغطيهِ تلك الأرض لِتَهْدِئةِ جوعِ التّعساءِ الحظّ الذين يقعونَ بين يدي الجنيّة لبْوَة.

وما إن تَعافَت الملكة وأصبَحَت في وضع يؤهّلُها للعَمَل، حتى قالت لها الجنيّة إنّها تستطيع أن تبنِيَ لنفسِها كوخاً لأنّها ستظلّ طيلة حياتِها معها. لدى سماعِها هذه الكلمات، لم تقوَ الأميرة على حبسِ دموعِها: صرخت قائلة:

- تبّاً لكِ! ماذا فَعَلتُ لكِ لِتُبْقيني هنا؟ إذا كانت نهاية حياتي، التي أشعر بدُنُوّها، تسبّب لكِ بعض المتعَة، فلتهبيني الموتَ: هذا كلّ ما أستطيع أن آمله من شفقتك. ولكن لا تحكُمي عليّ بأن أعيشَ حياةً طويلة بائسَة دون زوجي.

سخِرَت اللّبوَة من ألَمِها وقالت لها بأنّها تنْصَحُها بأن تمْسَحَ دموعَها وتحاوِل أن تروقَ لها. إذا اتّبعَت سلوكاً آخر فستكونُ أتْعَسَ إنسانٍ على وجهِ الأرض.

أجابت الملكة:

- ماذا عليّ أن أفعلَ إذاً لكي أحنّنَ قلبك؟

قالت لها:

- أحبّ فطائر الذّباب. أريد أن تجِدي لي الوسيلة للحصولِ على ما يكفي منَ الذباب لأصنعَ فطيرة كبيرة جدّاً وشهيّة.

قالت الملكة:

- ولكنّي لا أرى ذباباً هنا. وإذا صَدَفَ وجود ذباب فلَن يكون الضّوء كافِياً لرؤيتِها والإمساكِ بها. وافترضي أنّني أمسكْتُ بها فأنا لم أصنَع بحياتي حلوى ومعجّنات لذا فأنتِ توجّهينَ إليّ أوامرَ لا

أستطيع تنفيذها.

قالت اللّبوة التي لا ترْحَم:

- لا يُهمّني. أريد ما أريد.

لَم تُجب الملكة بشيء. فكّرَت أنّها، مَهما فعَلَت الجنيّة المتوحّشة، لدَيها حياة واحِدَة تخسَرها، فماذا عليها أن تخشى في مثلِ حالَتِها؟ بَدَل الذّهابِ للتّفتيش عن ذباب، جلَسَت تحتَ شجرِ الطقسوس وبدأت شكواها الحزينة.

قالت:

- كم سيَكون ألمكَ عظيماً يا زوجي العزيز عندَما ستأتي للبَحثِ عنّي ولن تجِدَني! سيتبادر إلى ظنّك أنّني متّ أو خنتُك. في هذه الحالة أفضَلُ عندي أن تبكي على فقدانِكَ حياتي من أن تبكي على فقدانِكَ حبّي. ربّما سيَجِدون في الغابة عربتي المحَطّمَة وكلّ ما تزيّنتُ به لأروقَ لك، وحينَ ترى هذا المشهَد لن تشكّ بموْتي. وما أدْراني إذا كنتَ ستَمْنَحُ واحِدَةً أخرى المكانة التي خصّصْتَها لي في قلبك؟ ولكن على الأقلّ لن أعرف بذلكَ لأنّني لن أعودَ إلى الحياة.

وكانت ستواصِلُ الكلامَ على هذا النّحوِ لو لم تسمَع فوق رأسِها النّعيق الحزين لأحَدِ الغربان. رَفَعَت عينيها وبفضلِ نورٍ قليلٍ يضيء الضفّة لَمَحت بالفعل غراباً كبيراً يحمل ضفدعَة وَيَهمّ بالتِهامِها.

قالت:

- لا شيءَ من شأنِهِ هنا التّخفيف من ألمي، ومع ذلك فإنّني لن أتوانى عن إنقاذِ ضفدَعَة مسكينَةٍ تعيسَةٍ في حياتِها كما أنا تعيسَة في حياتي.

وأمْسَكت بأوّل عصاً وجَدَتها في متناولِ يدها وجعَلت الغرابَ يُفْلِت طريدَتَه. سقطَت الضّفدعة وبقيَت لبعض الوقتِ فاقِدة

رُشْدَها ثمّ استعادَته. قالت:

- أيّتها الملكة الجميلة، أنت الشّخص الوحيد المُحْسن الذي صادَفتُه في هذه الأمكنَة منذ أن قادَني فضولي إليها.

أجابت الملكة:

- بأيّة معجزة تتكلّمين أيّتها الضّفدعة الصّغيرَة، ومَن هم الأشخاص الذين رأيتِهم هنا فأنا لم أرَ أحداً.

أجابت الضّفدَعَة:

- كلّ المسوخ الذين تحْفَل بهم هذه البحيرَة كانوا في العالم من قبل. بعضهم يُمارس الحُكمَ وبعضهم الآخر مقرّبون من حكّامِهم، وهناكَ أيضاً عشيقات بعض الملوك اللّواتي كلّفْنَ الدّولةَ دماءً كثيرَة: هنّ اللّواتي ترينهنّ متحوّلاتٍ إلى علَقاتٍ ماصّة للدّماء. القدَر يرسِلُهُم هنا لبعضِ الوقتِ، من دونِ أن يرجِعَ أحدٌ من هؤلاءِ الذين يأتونَ إلى هنا وقد تَحسّن أو تَخَلّى عن عاداتِه السيّئة.

قالت الملكة:

- أعرف جيّداً أنّ الأشرار حين يجتمعونَ لا يعمَدون إلى تحسينِ سلوكهم. ولكن فيما يخصّكِ يا صديقتي الضّفدعة، ماذا تفعلين هنا؟

أجابت:

- الفضول جاءَ بي إلى هنا. أنا شبه جنيّة وقدرَتي محدودة في بعض الأشياءِ وقويّة جدّاً في بعضِها الآخر. إذا عرِفَت الجنيّة لبوة أنّني في مملكَتِها فسوفَ تقتلني.

قالت الملكة:

- كيف يُعْقَل ما دُمْتِ جنيّة أو شبه جنيّة أن يتهيّأ غرابٌ لالتِهامِك؟

أجابت الضّفدعة:

- بكَلِمَتَين سأفْهِمُكِ كلّ شيء. عندَما تكون قبّعتي الصّغيرة منَ الورودِ على رأسي، وفيها تَكْمُنُ معظم قدرَتي، لا أخشى شيئاً. ولكن لسوءِ الحظّ كنت تركتها في المستنقَع عندَما أتى هذا الغراب اللّعين وانقضّ عليّ: أعترف لكِ يا سيّدتي أنّه لولاكِ لكانَ قُضيَ عليّ. وبما أنّني أدينُ لكِ بحياتي، إذا كنتُ أستَطيع فِعْلَ شيءٍ لَتعزِيَتِكِ وسلوانِكِ فبإمكانِكِ أن تأمريني بما تشائين.

قالت الملكة:

- واأسفاه! أيّتها الضّفدعة العزيزة، تريدني الجنيّة الشّرّيرة التي تتّخذني أسيرَة أن أصنَعَ لها فطيرَة من الذّبابِ وليسَ هنالِكَ منه. وفي حالِ وُجِدَ ليس هنالِكَ ضوء كافٍ لنستطيع الإمساكَ به. وهناك خطر كبير يحدق بي: أن أموتَ تحت ضرباتِها.

قالت الضّفدعة:

- دَعيني أتَصرَف. سأزَوّدُكِ به بعدَ وقتٍ قصير.

دَعكَت على الفورِ قليلاً منَ السكّر وفعلت أكثر من ستّة آلاف ضفدعةٍ من أصدِقائها الشيء نفسَه: ثمّ ذهبت إلى مكانٍ مليءٍ بالذّباب. كان لدى الجنيّة الشّرّيرَة هناك مستودعٌ منه، لتُعَذّبَ عَمْداً بعض التّعَساء. ما إن شمَّ الذّباب السكّر حتّى تشبّث به، وعادَت الضّفادِعُ المجتَهِدات عندَ الملكة. لم يسبق أن تمّ اصطياد ذُباب بهذه الكميّة من قبل ولم تُصنَع فطيرَة كمثل تلك التي صنعتها الملكة للجنيّة لبْوَة. عندَما قدّمَت لها الفطيرَة، دُهِشَت كثيراً ولَم تفهَم من أينَ جاءت الملكة بهذِهِ المَهارَة لالتِقاطِها.

كانت الملكة عرضَة لمختلفِ عوامِلِ الجوّ المسموم المحيط بها. قطَعَت بعض أشجارِ السّروِ لتبدأ ببناءِ منزِلها الصّغير. وجاءَت الضّفدَعة تقدّم لها بِسَخاءٍ يدَ المساعَدَةِ متقدّمَةً كلَّ الضّفادِعِ اللواتي

ذَهَبَن للإتيانِ بالذّباب، وساعَدْنَ جميعاً الملكة في تشييدِ بيتٍ صغير، كان هو الأجمل في العالم. ولكن ما كادَت تنامُ حتّى جاء مسوخ البحيرة، الذين حسدوها على راحَتِها، لتعَذيبها مُحْدِثَين أفظَع ضوضاءَ سُمِعَت حتّى ذلك اليوم. نهضَت مذعورَة وولّت هاربَة وهذا ما كان المسوخ ينشِدونَه. وعندئذٍ امتَلكَ المنزل تنّين كان فيما مَضى طاغية يَحْكم إحدى أجملِ ممالِكِ العالم.

أرادَت الملكة التّعيسة أن تَلومهم على ما فعلوه، ولكنّ المسوخ بدأوا يسخرون منها، ويصيحون مستهزئين فيما راحت الجنيّة لبوة تقول لها إنّها إذا أرْهقَتها في المستقبلِ بنُواحِها فَستوسِعُها ضرباً. عليها بالصّمت وطلب المساعدة من الضّفدعة التي لا مثيل لنخوتها. فبَكيَتا معاً لأنّها ما إن تضَعُ عباءَتَها منَ الورودِ حتّى تُصبِحَ قادرَة على الضّحكِ والبكاء مثل أيّة امرأةٍ أخرى.

قالت:

- أشعر بصداقةٍ كبيرَة نحوَكِ وسأعيدُ لكِ بناءَ منزِلكِ وعندئذٍ سيتولّى اليأس جميعَ مسوخ البحيرَة.

وفي الحال قطعَت الأخشاب وبُنِيَ القصر الصّغير الرّيفيّ للملكة بِوَقتٍ قصير وأوَت إليهِ في اللّيلة نفسِها.

كانت الضّفدَعَة متَنَبّهَة لكلّ ما يلْزَم للملكة فصنَعَت لها سريراً من أصناف الصّعتَرِ البريّ. وعندَما علمَت الجنيّة الشّرّيرَة أنّ الملكة لم تعُد تنامُ أرضاً أرْسَلَت في طلَبِها. قالت لها:

- مَن هم النّاس أو الشّفعاء السّماويّون الذينَ يَحْمونَكِ؟ هذه الأرض المَرْوِيّة دوماً بِمَطَرٍ من الكبريت والنّار لم تنبت قطّ ولا حتّى ورقةَ مَرْيَميّة. ومع ذلك علِمْتُ أنّ الأعشابَ العطريّة تنمو تحت قدَميكِ!

قالت الملكة:

- أجْهل السَبب وإذا كنتُ أنْسُبه لشيء فإنّما للطّفلِ الذي أنا حبلى به والذي ربّما سيكون أقلّ تعاسة منّي.

قالت الجنيّة:

- لديّ رغبة في الحصولِ على باقةٍ منَ الأزهار الأكثر ندرة. حاولي أن تَرَي ما إذا كان طالِعُ طفلِكِ يزوّدُكِ بها. وإذا لم تجلِبيها فسَأوسِعُكِ ضرْباً لأنّ هذا هو ما أفعله غالباً وأفعله بامتياز.

أخذت الملكة تبكي. لم تكن مثلُ هذه التّهديداتِ تليق بها. واستِحالة العثورِ على أزهارٍ جعلتْها في يأس. عادَت إلى منزِلها الصّغير. وجاءت إليها الضّفدَعة. قالت للملكة:

- كَم أنتِ حزينَة!

- وا حسْرَتاه! ومَن بإمكانِه ألا يكونَ كذلك يا صديقتي؟ تريد الجنيّة باقة من أجملِ الأزهار. أينَ أجِدها لها؟ رأيْتِ تلكَ التي تنمو هنا، حياتي على المِحَك إذا لم أرْضِها.

قالت الضّفدَعَة بلطف:

- أيَتها الأميرة الحبيبة، يجب السّعيُ لإخراجِكِ منَ الورْطَة التي وقَعْتِ فيها. هناكَ خفّاشٌ وهوَ وحْدَه من استطعْتُ الارتَباط معه بصداقة. إنّه مخلوق صالح وهوَ أسرع منّي. سأعْطيه عباءَتي من أوراقِ الورودِ وبفَضلِها سيَجدُ لكِ الأزهار.

انحَنَت الملكة إجلالاً للضّفدعَة، لأنّه لم يكن ممكناً تقبيلُ ضّفدعَة. وذهبت لتتكلّم معَ الخفّاش. بعدَ بضْع ساعاتٍ عادَت وهي تُخفي تحت جوانِحِها أزهاراً رائعَة. حمَلَتها الملكة بسرعة إلى الجنيّة الشّريرة التي دُهِشَت كثيراً بنجاح الملكة في مسْعاها معتبرةً أنّ في الأمر معجزة.

كانت تلك الملكة تحلم باستمرار بالوسائلِ التي تتيحُ لها الهروب. فأعْرَبَت عن رغبتِها للضّفدعة الصّالحة؛ وقالت لها:

- يا سيّدتي اسمحي لي قبل كلّ شيء أن أستشير عباءَتي الصّغيرَة وسوف نتحرّك معاً وفْقاً لنصائحها.

وأخذت العباءَة بعدَ أن كانت وضعتها على قشّة، وأشعلت أمامها بعض أعواد العرعر، وزهر الكَبَر، وحبَّتَي بازلاّء صغيرَتين، ونَقّتْ فوقَها خمسَ مرّات ثمّ بعدَ انتهاءِ هذا الطّقس تدثّرَت بعباءَتِها المصنوعة منَ الورودِ وأخذت تتكلّم مثل عرّافَة. قالت:

- القَدَر، سيّد الأشياء كلّها، يمنعكِ منَ الخروج من هذه الأمكنة. ستنجبينَ فيها أميرة أجملَ من ملائكة الحبّ. ولا تشغلي بالكِ بالهموم فالزّمَن وحده سوف يعزّيك.

خفَضَت الملكة عينيها وانحدرت بعض الدّموعِ على خدّيها ولكنّها صمّمَت على الوثوق بكلام صديقتِها.

قالت:

- على الأقلّ، لا تتركيني، كوني معي حين أضع ابنتي بما أنّه حُكِمَ عليّ أن أنْجِبَها هنا.

وتعهّدَت الضّفدعة الوفيّة بأن تكونَ بمثابة لوسينا[1] لها وواسَتها بقدرِ ما تستطيع.

ولكن، آنَ الأوان للكلام عن الملك. فيما كان أعداؤهُ يحاصرونَه في العاصمَة، لم يكن يستطيعُ أن يرسِلَ باستمرار موفَدينَ أو رَسائلَ إلى الملكة. وفي تلك الأثناء، قامَ بهجمات عديدة فأجبرَهم على

(1) لوسينا: هي في الميثولوجيا الرّومانيّة إلهة النّور، تحرُس الأطفال عند ولادَتِهم. تقابلها عند الإغريق يونون.

الانسحاب. وقد أفرحه تطوّرُ الأحداث لأنّه يستطيع أن يُرسِلَ في طلب الملكة الغالية من دونِ خوف. كان يجهَل المصيبَة التي حلّت بها، ولم يجرؤ أيٌّ من ضبّاطِهِ أن ينبّه بذلك. وجَدوا في الغابة العربَةَ محطّمَةً والأحصِنَة شارِدَةً وكلّ زينة المحارَبَةِ الأمازونيّة التي كانت تضعُها للذّهابِ إلى لِقاءِ الملك.

وبما أنّهم تيَقَّنوا من موتِها وظَنّوا أنّ وحشاً التهمها، لم يعد أمامهم إلاّ إقناع الملك بأنّها ماتت بغتة. عندما تلقّى هذا النّبأ المشؤوم، شعَرَ أنّه سيموت من شدّة الألم. نتَفَ شعرَه وذرَفَ الدّموعَ وأطلقَ صرخاتٍ تبعَث على الإشفاق وبدأ يولول وينتحب. ومن ثمّ كان عليه أن يعاني كلّ الآلام المترتّبَة على الترمّل، ولم يوفّر أيّاً منها.

بعدَ أن أمضى أيّاماً عَدّة دون أن يرى أحداً ودونَ أن يرغَبَ في أن يَراه أحد، عادَ إلى المدينة الكبيرَة ملتزماً حِداداً طويلاً حَمَله في القلبِ وليسَ في الثّياب. جاء لتعزيتِه جميع سفراءِ الممالك المجاورة له. وبعدَ إقامَة المراسم المرافقة لهذه الأنواع منَ الفواجع، واظبَ على إعطاءِ فترَةِ هِدْنَةٍ لرَعاياه وإعفائهم منَ الحرب وتزويدِهم بأسباب التّجارَة على نحو واسع.

كانتِ الملكة تجهَلُ كلّ هذه الأشياء: اقترَب موعد ولادَتها وكانَ وضْعُها مكلّلاً بالنجاح فقد أعطتها السّماء أميرة جميلة كما تنبّأت الضّفدعة بذلك وأسْمَياها موفيت. ونالَت الملكة بكثيرٍ منَ المشقّة السَماحَ منَ الجنيّة لبوَة بأن تغذّيها لأنه كان لدَيها رغبة كبيرَة في التِهامِ الطّفلة لشدّة ضراوتها وهمَجيّتها.

أصبحَت موفيت، تحفَة أيّامِنا، في الشّهر السّادس، وكانت الملكة تنظر إليها بحنانٍ مشوبٍ بالشّفقة وتقول باستمرار:

- آه لو أنّ الملك أباكِ رآكِ يا صغيرَتي المسكينَة فَكم سيفرَح وكم

سيحبّك! لكنّه ربّما في هذه اللّحظة بالذّات بدأ يَنساني ويعتقد أنّنا كِلانا مدفونتانِ إلى الأبد في أهوالِ الموتِ أو ربّما كان هناك امرأة أخرى تشغَل في قلبهِ المَكانَة التي كان يوليها لي.

وانْهالَت الدّموع الغزيرة من عينَي الملكة من جرّاء هذه الأفكار الحزينة. والضّفدعة التي كانت تحبّها من كلّ قلبها قالت لها ذات يومٍ عندما رأتْها تبكي على هذا النّحو:

- إذا شئتِ يا سيّدتي فسأذهب للبحثِ عن الملك زوجك؛ الرّحلة طويلة وأنا أمشي على مهلٍ ولكنّي سأصِل في النّهاية عاجِلاً أم آجِلاً.

رحّبت الملكة بهذا الاقتراح أيّما ترحيب فجمَعَت جمامَ يدَيها وهكذا فعَلَت بيَدَي موفيت لكي تعبّر للضّفدعة عن امتنانها لها لأنّها اتّخذت القرار بالشّروعَ في تلك الرّحلة. وأكّدَت لها أنّ الملك لن يكونَ ناكِراً للجَميل.

ثمّ أرْدَفَت:

- ولكن ما النّفع في أن يعرفَ أنّني في هذا المكان المشؤوم؟ سيكون مستحيلاً عليه أن يخرِجني منه.

أجابت الضّفدعة:

- يا سيّدتي، يجب أن نترك هذا التّدبيرِ للسّماء وأن نفعل من جهتِنا ما يتوجّب علينا.

وعلى الفور، تودّعتا: كتبت الملكة للملك بدَمِها على قطعةٍ صغيرَةٍ من قماش الكتّان لأنّه لم يكن هنالِكَ لا حِبْرٌ وَلا ورَق. وتوسّلت إليه أن يصدّق كلّ ما ستقوله له الضّفدعة الفاضلَة عنها.

واستغرَقَت الضّفدعة سنة وأربعة أيّام لتَصْعَد العشرة آلاف درجَة انطلاقاً منَ السّهلِ الأسود حيث ترَكَت الملكة حتّى سطح الأرض. واستغرقَت عاماً آخرَ وهيَ تجهّز موكِبَها لأنّها كانت من الكِبر بحيث

تأنف زيارة بلاطٍ كبيرٍ بِصِفَتِها ضفدعةَ مستنقعاتٍ حقيرَة. أمَرَت بِصنْعِ محْمَلٍ كبيرٍ لتضعَ عليه بيضتينِ بارتِياح. كان مكسوّاً كلّه بحراشف سلحفاةٍ منَ الخارج ومبطّناً بجلدِ عظاءة فتِيّة. كان لديها خمسون وصيفة من أولئك الملكات الخضراوات الصّغيرات اللواتي يُنَطْنِطنَ في الحقول. وكلّ واحدَةٍ منها كانت تعْتَلي ظهرَ حلزونٍ معَ سَرْجٍ لا تُمْسِكَ فيه، واضعَةً ساقَها على القربوس بكلّ أناقة. وفي الموكِبِ أيضاً فئرانُ حقلٍ يرتدِين زيّ الخدّام يتقدّمْنَ الحلازين التي عُهِدَت إليهن الحراسَة الشّخصيّة للضّفدعة التي كانت لا أجملَ في عباءَتِها المصنوعة منَ الورودِ القرمزيّة النّضرَة دوماً والتي تلائمُها أكثر من أيّ شيءٍ آخر. كانت غنِجَة بطبيعَتِها: وضعت أحمرَ شفاهٍ ولُصوقاً تجميليّة. ويمكن القول إنّها كانت متبرّجَة على نسقِ سيّدات تلك البلاد. ولكن إذا تعَمّقنا في المسألة وجَدْنا أنّ أعداءَها هم الذين كانوا يصفونها على هذا النّحو.

واستغرَقَت رحلتها سبعة أعوام، وفي غيابها الطّويل كابَدَت الملكة آلاماً ومشقّات لا توصَف. ولولا الجميلة موفيت التي تعزّيها في محْنَتِها لَكانَت ماتت ألف ميتَة. كانت تلك المخلوقَة الصّغيرَة الرّائعَة تسحَر والدَتها بكلّ كلمة تخرج من فمها. حتّى أنّها استطاعَت تدجينَ الجنيّة لبوة. وأخيراً بعْدَ ستّ سنوات أمضتها الملكة في ذلك المكان المرعب، أرادَت الجنيّة فعلاً أن تأخذَها إلى الصّيد شرْطَ أن تستولي على كلّ ما تصطاده.

يا لِفَرْحَة الملكة الكبيرة بأن ترى الشّمس من جديد! لقد نسيت وجودَها تماماً وظَنّت أنّ نورها سيجعلها عمياء. أمّا موفيت، فكانت ماهرة جدّاً في الصّيد رغمَ بلوغِها الخامسَة أو السّادسة فقط من عمرِها؛ ما من طريدة تستطيع الإفلات من سهامها. وهكذا توصّلت

الملكة وابنتها إلى التلطيف ولو قليلاً من وحشيّةِ الجنيّة.

أمّا الضّفدعة فقد سارَت مجتازَةً جِبالاً ووِدياناً، ليلاً ونهاراً.

وأخيراً وصَلَت بالقرب منَ المدينة الرّئيسيّة حيث كان الملك يُقيم. ومكثت مندَهِشَة لأنّها لم ترَ في كلّ مكانٍ إلاّ حفلات الرّقص والولائمَ ولم تسمَع إلاّ الضّحكات والأغاني. وكلّما اقتربت منَ المدينة، ألفَت مظاهر الفرح والابتِهاج. كان موكبها المؤلّف من حيوانات المستنقع يدهِشُ الجميع. والكلّ تبعوها وأصبَحَ الحشد متعاظِماً حين دخلت إلى المدينَة بحيث شقّ عليها كثيراً أن تَصِلَ إلى القصر الذي كان كلّ ما فيه يشي بالرّوعَة والبهاء. كان الملك المترمّل منذ تسع سنوات قد انصاعَ أخيراً لتوسّلات رعاياه وها هو يتأهّب للزّواج بأميرة أقلّ جمالاً من زوجته في الواقع لكنْ لا ينقصُها شيء منَ الظَرف.

نزلت الضّفدعة الخيّرَة عن محْملها ودخلت عندَ الملك مصحوبة بكلّ موكبها. لم تَحْتَج لأن تطلبَ مقابلته لأنّ العاهل وخطيبته وجميع الأمراء كانوا راغبينَ جدّاً في معرفة الهدفِ من زيارتها. قالت:

- مولاي، لا أعرف ما إذا كانَ الخبر الذي سأزفّه إليكِ سيفرحُكَ أمْ سيُحزنك. إنّ الزّفاف الذي تنوي إقامَته يقنعني بخيانتِكَ للملكة.

قال الملك وهوَ يذرِف بضعَة دموعٍ لم يستطع كبْتَها:

- إنّ ذِكْراها لَعزيزَة دوماً عليّ ولكن يجب أن تعلَمي أيّتها الضّفدعة اللّطيفة أنّ الملوك لا يفعلون دوماً ما يريدون. منذ تسع سنوات وأفراد رعيّتي يلحّونَ عليّ بأن أتزوّج مجدّداً. أدينُ لهم بورَثة عرْشٍ وهكذا وقعَ اختياري على هذه الصّبيَة الفاتِنَة.

- لا أنصحكَ بالزّواجِ بها لأن تَعدّدَ الزّيجاتِ فِعْلٌ شنيع جدّاً. الملكة لم تمت. هذه رسالة منها مكتوبة بدَمِها عَهِدَت لي بِها. ولديكَ

ابنة صغيرَة تدعى موفيت وهيَ أجمل منَ السّموات كلّها.

أمسَكَ الملك الخرْقة التي خرْبَشَت عليها الملكة بضع كلمات وقبّلها ورواها بِدَموعِه وأراها لكلّ المجتمِعين قائلاً إنّه يعرف جيّداً خطّ زوجَتِه وطرَحَ ألف سؤالٍ على الضّفدعة فأجابت عليها بذكاءٍ وبراعة. أظهرت الأميرة المخطوبة ومعها السّفراء الذين أوكِلَت إليهم المشاركة في احتفالِ الزّواج استياءً شديداً. قال الألمع صيتاً بينهم:

- كيف يمكنكَ يا مولاي أن تَثِقَ بكلِمات ضفدعة كهذه وتبطِلَ زواجاً بهذه الأبّهة؟ أيُعقل أن تجرؤ حُثالة المستنقع هذه على المجيء للكذب في بَلاطك وتحظى بشرف استِماعك إليها!

أجابت الضّفدعة:

- يا سيّدي السّفير اعلَمْ أنّني لستُ حثالة مستنقعاتٍ. وإذا كان الأمر يستوجب أن أستعرضَ معرفتي فهيّا ليظهر الجنّ والجنّيات!

وعلى الفور ظهرت تلك الحيوانات الصّغيرة البَشِعَة، الضفدعة ومعها جميع الضّفادع الصّغيرة والفئران والحلازين والعظايا، سوى أنّها لم تظهر في هيآتها الكريهة المعهودة بل تحوّلت إلى أشخاص ذوي قامات شامِخَة ومهيبة ووجوه جميلة وعيون أكثر التِماعاً منَ النّجوم. وكان كلّ واحِدٍ منهم يحمل على رأسه تاجاً منَ الحجارة الكريمَة، وعلى كتفيه معطفاً ملَكيّاً منَ المخمَلِ المبطّنِ بالفرو، له ذيلٌ طويل يحمله أقزام وقزَمات. وفي الوقت نفسه صَدَحَت الأبواق والصّنوج والنّايات والطّبول مخترقةً السّماوات بأنغامِها الجميلة الحربيّة. وبدأ الجنّ والجنيّات يؤدّون رقصة باليه رشيقة حتّى أنّ القفزةَ الصّغيرة فيها كانت ترفَعهُنّ إلى قبّة قاعة الاستقبال. وأُصيب الملك والملكة المستقبليّة بالدّهشة عندما رأيَا أولئك الرّاقصين يتحوّلون فجأة إلى أزهارٍ راقصة هيَ أيْضاً، إلى ياسمين ونرجس وبنفسج ومسكٍ

روميّ، وكأنّها مزوّدَة بسيقانٍ وأقدام. غدا المشهد روضة متحركّة تُبْهِجُ بحركاتها وأريجها الأنف والعين.

وبعدَ لحظَةٍ اختفت الأزهار وانبجست في مكانها نوافير ماء. كانت ترتفع بسرعةٍ ثمّ تنسكبُ متدفّقة في قناة واسعة تشكّلت في أسفلِ القصر، وامتلأت القناة بسفنٍ شراعيّة صغيرة في غاية الجمال والأناقة، مذهّبَة ومزدانة بالرسوم، ما دَفَعَ الأميرَة لأن تدعو سفراءَها للدّخول إليها ومرافقتها في نزهة صغيرة. فانصاعوا لرَغبَتِها بكلّ سرور معتقدينَ أنّ كلّ ما يحصل هو من باب الترفيه وسينتهي بزفافٍ ميمون.

ما إن أبحروا حتّى اختفت السّفينة والقناة وجميع النّوافير وعادَت الضّفادع ضفادع. سأل الملك عن مكان أميرَته فقالت الضّفدعة:

- يا مولاي، يجب ألاّ تتّخذ زوجة إلاّ الملكة زوجتك. لو لم أكن صديقتها لما عرقلْتُ الزّواجَ الذي كنْتَ على وَشَكِ القيام به. ولكنّ الملكة تتحلّى بفضائلَ كثيرَة وابنتكَ موفيت لطيفة جدّاً وعليكَ ألاّ تضيّعَ دقيقة واحدة وأن تسعى لتحريرِهما من أسرهما.

قال الملك:

- أعترف لكِ يا سيّدَتي الضّفدعة: لو لم أظنّ زوجتي ميتَة لَما تورّعت عن فعلِ كلّ ما أستطيع لرؤيتها مجدّداً.

أجابت الضفدَعَة:

- بعدَ الآيات التي قمْتُ بها ورأيْتَها بأمّ عينيك، يبدو لي أنّه يتوجّب عليك أن تكونَ مقتنِعاً بما قلته لك: غادرْ مملكتكَ مُصْدِراً الأوامِرَ اللاّزمة لإدارتها في غيابك ولا تؤجّل رحيلك. ها أنذا أعطيك خاتماً يزوّدُك بالوسائلِ لِتَرى الملكة وتتحدّث إلى الجنيّة لبوَة مع أنّها أفظع مخلوقَة في العالم.

وإذ غابَت الأميرة التي كان ينوي الزّواجَ بها عن ناظِرَيه، شعَرَ الملك بأنّ شغفه نحوَها بدأ يتضاءَل فيما الشّغف الذي كانَ يحدوه للملكة يتعزّز من جديد ويزداد قوّة.

رحلَ دون أن يرغبَ في أن يرافقه أحَد وقدّم هدايا مميّزة للضّفدعة. قالت له:

- لا تدعْ شيئاً يثبّط من عزيمتكَ، ستكونُ أمامَك مصاعب رهيبة عليك اجتيازها ولكنّي آمُل أن تنجَحَ في مساعيك.

شعر الملك بالاطمئنان لهذه الوعود، ورحل دون أن يتّخذ مرشِداً له سوى الخاتم بهدف العثور على ملكتِه العزيزة. كانت موفيت تزداد جمالاً واكتمالاً على مرّ السّنوات بحيث إنّ جميعَ مسوخ البحيرَةِ الزّئبَقيّة وقعوا في غرامِها. كانت تَرى تنانينَ مرعِبَة تأتي لتَزحَفَ عندَ قدَمَيها. ومَعَ أنها لم ترَ سوى المسوخ فإنّ عينيها الجميلتينِ لم تستطيعا الاعتِيادَ عليهم. كانت تهرب منهم وتختبئ بين ذراعَي والِدَتها.

كانت تقول لها:

- هل سنظلّ وقتاً طويلاً هنا؟ ألن تنتهي مصائبُنا؟

فتُعَلّلها الملكة بالآمالِ الصّالِحاتِ وتواسيها رغم أنّها لم تكن تملك أيّ أمَلٍ في قَرارَةِ نفسِها. إنّ رحيل الضّفدعة، وصَمْتَها العميق، والوقتَ الطويلَ المنْصرِمَ دونَ أن يصلها أيّ خبرٍ عن الملك، كلّ هذا أشجاها إلى أقصى حدّ.

اعْتادَت الجنيّة لبوَة تدريجيّاً على اصطحابِها إلى الصّيد. كانت نَهِمَة وتحبّ الطّرائدَ التي تصطادانِها لها، وكانت تُعْطيهما القوائمَ أو الرّأسَ على سبيل المكافأة. ولكنّ سماحَها لهما برؤيَة ضوءِ النّهارِ مجدّداً يُعتبر بحدّ ذاته نعمة كبيرة.

كانت الجنيّة تتّخذ هيئة اللبوَة فتَعْتَليها الملكة وابنتها ويَغْدون

هكذا وسطَ الغابات.

توقّف الملك، الذي كان خاتمه دليله، في إحدى الغابات ورآهما تَعْبُرانِ كَالسّهْمِ ولم تلحظا وجوده. ولكنّهما غابَتا عن نظره ما إن همّ باللّحاق بهما.

وبالرّغم منَ الآلام المستمرّة التي قاستها الملكة فإنّ جمالها لم يتغيّر وبَدَت له أكثر ظرْفاً من أيّ وقتٍ مضى. واشتَعلت كلّ نيرانِ حبّه مجدّداً وأيقَنَ أنّ الفتاة اليافعة التي كانت برفقتها هي الأميرة العزيزة موفيت. وصمّمَ على أن يَلْقى حَتْفَه ألف مرّة على أن يتخلّى عن عزمِهِ على رؤيَتِهما.

وأرشدَه الخاتم العجيب إلى المكان المظلم حيث تقيم الملكة منذ سنوات كثيرة. كان منْدَهِشاً أشدّ الدّهشة للنّزولِ إلى جوف الأرضِ وكلّ ما رآه زادَ في دهشَته. لم تكن الجنيّة لبوَة تجهل شيئاً؛ عرفت اليوم الذي وصل فيه الملك والسّاعة. وهل كانت ستتورّع عن القيام بشيء لكي تغيّر المقدّر؟ لكنّ هذا لم يمنعها من التصدّي لكلّ ما يَعرقل مخطّطاتها بكلِّ ما أوتِيَت من قدْرَة.

بَنَت وسَطَ البحيرَة الزّئبَقيّة قصراً مائجاً منَ البلّورِ وسجَنَت فيه الملكة التّعيسة وابنتها. ثمّ خطبَت في جميع المسوخ الذين كانوا عاشقي موفيت.

قالت لهم:

- ستخسرون هذه الأميرة الجميلة إذا لم تهتمّوا معي بالدّفاعِ عنها لمواجهة فارسٍ سيأتي لاختطافِها.

وعَدَها المسوخ بِألاّ يألوا جَهداً وَفِعْلَ كلّ ما يستطيعونَه لمحاربته. أحاطوا بقصر البلّور من كلّ جهة وتمركز الأكثر رشاقة بينهم على السطح وحافّات الجدران، وآخرون أمام الأبواب والباقون في البحيرة.

استشار الملك خاتِمَه الوفيّ وذهب أوّلاً إلى كهف الجنيّة. كانت تنتظره في هيئة اللّبْوَة. ما إن ظهَرَ حتّى انقضّت عليه فاستَلّ سيفه بمهارَةٍ لم تتوقّعْها، وبِما أنّها مدّت قائمتها لتَسْحَقه قطَعَها هو من المفصَلِ أي عندَ كوعِها. أطلَقت صرخة مرعِبَة وسقطَت. اقترَبَ منها ووضعَ قدَمَه في صدْرِها وتوعّدَ بأن يقتُلَها. وبالرّغمِ من غضبِها الذي لا يُقاوَم شعرَت بالخوف.

قالت له:

- ماذا تريد منّي؟ ما هوَ طلبك.

أجابَ بفخر:

- أريد أن أعاقبكِ لأنّكِ اختطَفْتِ زوجتي، وأن أُرغمَكِ على أن ترُدّيها لي أو أخنُقَكِ في الحال.

قالت:

- انظر إلى هذه البحيرة وتحقّق بنفسك إذا كانت في قبضتي.

التفت الملك إلى الجهة التي دلّتْه عليها فرأى الملكة وابنتها في قصر البلّور الذي كان يموج دون مجاذيف ولا دَفّة مثل سفينةٍ شراعيّة على الصّفحة الزّئبقيّة.

شعرَ أنّه سيموت من شدّةِ الفرَح والألم. ناداهما بكلّ قوّتِه وسمعَتاه ولكن ما السّبيل إلى موافاتهما؟ وفيما هوَ يبحث عن وسيلة، اختفَت الجنيّة لبْوَة.

فركَضَ على طولِ ضفافِ البحيرة: كلّما شعر بدنوّه من واحدة من الجهات واستعَدّ لبلوغ القصر الشفّاف كان القصر يبتعد عنه بسرعة مخيفة فتتلاشَى آماله باستمرار. خافت الملكة أن يُصابَ بالإنْهاك فأخذت تصرخ به وتستحثّه كي لا يفقد شجاعته، وتُعلِمه أنّ الجنيّة لبْوَة تريد أن تنهكَه لكنّ لا شيء يقف في وجه الحبّ الحقيقيّ. وهنا،

مدّت الملكة وموفيت له أيديهما متوسّلَتين. أحسّ الملك عندما رآهما بأنّ سِهاماً جديدة تخترَقه فصاحَ بكلّ قواه وأقسَم بنهرَيْ ستيكس والأكيرون[1] بأنّه سيُمضي بالأحرى باقي حياته في تلك الأمكنة المشؤومَة على أن يَرحَل من دونهما.

واستوجب الأمر أن يتحلّى بصَبر كبير: هو الملك العظيم كان يمضي أحلك أيّامه. كانت الأرض المليئة بالعوسَج والأشواك بمثابَة سرير له، ولم يكن يقتات إلاّ منَ الثّمار البريّة الأمَرّ منَ العلقَم مواصلاً معاركه مع مسوخ البحَيرَة. إنّ زوجاً مثله يفعل كلّ ما بوسعه كي يستعيد زوجَته لهو ينتمي حَتْماً إلى زمَن الجنيّات وهذا يشير كفايةً إلى زمن حكايَتي.

ثلاث سنواتٍ مرّت ولم يستطِع الملك أن يَعِلّل نفسَه بأيّ أمل. كاد يأسه يبلغ أقصاه. مائة مرّة اتّخذَ القرار بأن يرمي نفسَه في البحيرة. وكانَ سَيَرْمي نفسَه لو أنّ في ذلك المسعى الأخير علاجاً لآلام الملكة والأميرة. كان يركض كَعادَتِه تارةً من هذه الجهة وطوراً من تلك عندما ناداه تنّين مخيف قائلاً له:

- إذا أقسمتَ لي بتاجكَ وصوْلَجانِكَ ومِعْطَفِكَ الملكيّ، وبزوجَتِكَ وابنتِكَ بأن تعطيني شيئاً ما أحبّ أن آكله وأطلبه منك عندما أشتَهيه، فسأحمِلكَ على أجنِحَتي. وبالرّغم من كلّ المسوخ التي تملأ هذه البحيرة وتحرس هذا القصر البلّوريّ فإنّني أعِدُكَ بأنّنا سنُخْرِج الملكة والأميرة موفيت.

هتف الملك:

- آه! يا تنّين روحي العزيز، أقسم لك ولكلّ جنسك من معشر التنانين بأنّني سأعطيكَ لتأكُلَ بقدرِ ما تشاء وسأبقى إلى الأبد

(1) ستيكس والأكيرون: من أنهار الجحيم في الميثولوجيا الإغريقيّة.

خادمكَ الصّغير.

أجاب التنّين:

- لا تعدني إذا لم ترغب في أن تَفي بوعْدك، وإلاّ لَحدثت مآسٍ عظيمَة جدّاً ستتذكّرها طيلة حياتك.

ضاعف الملك من وعوده للتنّين. كان يتحرّق لهفة لتحرير ملكتهِ العزيزة من أسرها: صعَدَ على ظهرِ التنّين كما لو أنّه كان أجمل حصانٍ في العالم، وللحال تقدّم الممسوخ باتّجاهه ليعترضوا طريقه، وَما عادَ يُسْمَع إلاّ فحيح الأفاعي الحادّ، ولا يُرى غير النارِ والبارود وملح البارود، التي تنهمر من كلّ حدب وصوب: وأخيراً وصل الملك إلى القصر. ضاعفَتْ طيورُ الخفّاش والبومُ والغربانُ جهودها لتسدّ عليه المدْخَلَ لكنّ التنّين بمخالبِه وأنيابه وذيلِهِ مزّقَ إرباً كلّ مَن تطاوَلَ عليه. والملكة من جهَتِها التي كانت تراقب المعركة الشّرسَة حطّمت الجدران برَفساتها وجعَلت من حُطامِها أسلحَة لتُساعِدَ زوجَها العزيز. وفي النّهاية كان الانتصار حليفهم واجتمع شملهم وزال السّحر بدويٍّ رعدٍ سقَطَ في البحيرة وجفّفها.

واختَفى التنّين الخدوم كما اختفى الآخرون ولم يعرف الملك كيف انتقل فجأة معَ الملكة وموفيت إلى عاصمة مملكته ووجدوا أنفسهم جالسين هناكَ في صالون رائع أمام مائدَةٍ فيها ما لَذّ وطاب. كانت دهشتهم عظيمَة وفرحتهم أعظم. هُرِعَ جميع رعاياهم ليَروا الملكة والأميرة الشابّة التي، بفضل سلسلة منَ المعجزات، كانت مرتديَة أجمَلَ الثّياب المزدانَة بأحجارٍ كريمَة يخطف بَريقها الأنظار.

منَ السَهلِ تخيّل الاحتفالات المتنوّعة التي أُقيمَتْ في هذا القصر الجميل. نُظّمت الحفلات التنكّريّة وسباقات الخيل والمباريات التي اجتذبَت إليها أعظم أمَراء العالم، وكانت نظرات موفيت الجميلة تسترعي انتباههم جميعاً. وبين أولئك الأحْسَن خلقَة والأبرَع برزَ

الأمير موفي وبَزّهم جميعاً ولم يكن يُسمَع إلاّ الهتاف له. كان الجميع معجبينَ به، والشابَة موفيت التي عاشَت لغاية ذلك اليوم مع الأفاعي وتنانين البحيرة لم تستطع إلاّ أن تقدّر مزايا موفي. ولم يكن يمرّ يوم إلاّ ويقوم فيه بمبادَرات جديدة لكي يروق لها لأنّه كان يحبّها بشغفٍ. وبما أنّه كان بين المتقدّمين لطلَب الزّواج بها، وتأكيداً منه لصدقِ نَواياه أعْلَم الملك والملكة بأنّ إمارَته كانت ذات جمالٍ واتّساعٍ لا يُستهان بهما.

قال له الملك إنّ موفيت باتت سيّدةَ مصيرِها وتستطيع اختيارَ زوجِها بنفسِها وإنّه لا يريد أن يرغِمَها على فعلِ شيء، لا بَل إنّه يبذل قصارى جهدِه ليَروقَ لها، وهنا يكمن مصدر سعادته الوحيدَ. سُرَّ الأمير لهذا الجواب وعرف بعدَ لقاءات عدّة أنّ الأميرة كانت تهتمّ بأمرِه هي أيضاً.

وأخيراً أعلنت موقفها صراحة وقالت له إنّه لن يكونَ لديها زوج آخر سِواه وإلاّ فإنّها لن تتزوّج أبداً. طارَ موفي فرحاً حتّى إنّه ارتمى عند قدَمَيها واستحْلفَها بالعبارات الأكثر رقّة أن تتذكّر الكلمة التي أعْطَته إيّاها.

وهُرِعَ على الفور إلى جناح الملك والملكة. وأعلَمَهما بآخر التطوّرات العاطفيّة بينه وبين موفيت وتوسّلَ إليهما أن يكون زفافهما في أقرب موعد. فوافقا بكلّ سرور. كان للأمير موفي مَزايا كثيرة وبَدا أنّه وحدَه جَدير بالزّواج بِموفيت الرّائعَة. أرادَ الملك فعلاً أن يعقد خطبتهما قبل عودَة موفي إلى الإمارَة لأنّه كانَ مضطرّاً إلى الرحيل للإشراف على الاستعدادات لحفل الزفاف. لكنّه لن يغادرَ قبل الحصولِ على ضمانات بإقامَة العرس لدى عودته. لم تستطع الأميرة موفيت أن تقول له الوداعَ لأنّ دموعها المنهمرة حالت دون ذلك. كانت تستشعر بصورة غامضة أنّ أموراً محزِنَة سوف تحدث. والملكة

إذ رأت الأمير رازِحاً تحت ألمِه، أعطَته صورة ابنتِها واستحلفته ألاّ يَكونَ حفل الاستقبال الذي سيَأمر بإقامته مفرطَ الأبّهَة، وألاّ يتأخّر في العودَة. قال لها:

- سيّدتي لم يسبق لي أن شعَرت بلذّة أن أطيعَكِ كما أشعر بها في هذه المناسبَة. قلبي مهتمّ بها كثيراً ولا أستطيع أن أهمِلَ ما من شأنِهِ أن يجعلَني سعيداً.

وانطلق بسرعَة. وريثما يعود، شَغَلَت الأميرَة موفيت وقتَها بسَماعِ الموسيقى والعزف على الآلات التي تمرّنت عليها منذ بضعَة أشهرَ وكانت تعزف ببراعة كبيرة. وذات يوم، وفيما كانت في غرفة الملكة، دخلَ الملك والدّموع تنهمر من عينيه ثمّ احتضنَ ابنته بين ذراعيه، وهتف قائلاً:

- آه يا طفلتي! يا لي من أبٍ عَديم الحظّ! أيّ ملك تعيس أنا!

ولَم يستطع أن يقول أكثر. اختنق صوته لفرط الشهقات. سألَته الملكة والأميرة ما به وقد راعهما منظره. وأخيراً قال لهما إنّ عملاقاً هائلاً جاء لمقابلته مَدّعياً أنّه سفير التنّين، تنّين البحيرة الذي، وفقاً للوَعدِ الذي انتزَعَه منَ الملك مقابل مساعَدته له في محارَبةِ المسوخ والانتصار عليهم، جاء يطالب بالأميرة موفيت لتكون أضحيةً له؛ لأنّه هو نفسه كان قد قطع عهوداً خطيرةً تُلزمه بأن يُعْطِيَه كلّ ما يريد. وفي ذلك الزّمان كان الناس يفون بوعودهم.

وإذ سمِعَت الملكة هذه الأخبار المشؤومَة، أطلَقت صيحات مرعبَة وعانقت الأميرة بينَ ذراعيها وقالت:

- الأفضل أن تُنْتَزَع منّي حياتي على أن أرضى بتسليم ابنتي لهذا المسخ. ليأخذ مملكتنا وكلّ ما نملكه. أيّها الأب المعتوه، هل يمكنك الموافقة على هذا العمل الشّائن؟ ماذا! ابنتي ستكون أضحيةً للتنّين؟ لا! لا يمكنني أن أتحمّل الفكرة: أرسلوا لي هذا الموفد البربريّ. ربّما

يؤثّر فيه حزني وتفجّعي.

لم يُجب الملك بشيء، وذهب يتحدّث إلى العملاق ثمّ اصطَحَبَه أمام الملكة التي ارتَمَت عند قدميه هي وابنتها تستحلفانه أن يشفق عليهما ويقنع التنّين بأخذِ كلّ ما تملكانه لقاءَ إنقاذ حياة موفيت. لكنّه أجابهما أنّ الأمر لا يتعلّق به إطلاقاً وأنّ التّنين كان في منتهى العناد والنّهَم، وأنّه حين يقرّر أن يتناول وجبة لذيذة فلا أحد يستطيع رَدْعَه عن رغبته. ونصحهما بصفته صديقاً بتنفيذ الأمر طوْعاً لأنّ ويْلات أخرى أفظع بإمكانِها أن تحدث. وعلى أثرِ هذه الكلمات فقَدَت الملكة وَعْيَها وكان الأمر نفسه سيحصل للأميرة لو لم ترَ عليها لِزاماً أن تسعف أمّها.

انتشرَت هذه الأخبار المحزِنَة في القصر وعرفت بها المدينة كلّها، ولم يكن يُسمَع إلاّ البكاء والنّحيب لأنّ موفيت كانت محبوبة جدّاً ولم يكن باستطاعة الملك أن يوافق على تسليمها للعملاق. والعملاق الذي انتظر أيّاماً عدّة بدأ يملّ الانتظارَ ويهدّد ويتوعّد بطريقة رهيبة. إلاّ أنّ الملك والملكة قالا له:

– وَما الأمر الأسوأ الذي يمكنه أن يحصل لنا؟ وحتّى لو أتى تنّين البحيرة والتَهَمَنا كلينا فلن نكون أكثرَ تفجّعاً، لأنّه إذا التهم ابنتَنا موفيت فنحن هالِكان في جميع الأحوال!

وهنا قال لهما العملاق إنّه تلقّى أخباراً من سيّدِه مفادُها أنّ الأميرَة إذا وافقت على الزّواج بابنِ أخيه فسوفَ يقبَل بأن تظَلّ على قيد الحياة. وأضاف أنّ ابن أخَيه ذاكَ هو حقّاً وسيمٌ وقويّ، وأنّه أمير وبإمكانِها أن تعيش سعيدة جدّاً معه.

لطّفَ هذا الاقتراح قليلاً من ألَم جلالتيهما. تحدّثت الملكة إلى الأميرة لكنّها وجَدَتها بعيدة عن فكرة ذلك الزّواج بُعْدَ الموت عن الحياة. قالت لها:

- لا أقدِر يا سيّدتي أن أحتفظ بحياتي لقاء الخيانة. لقد وعدْتِني للأمير موفي ولن أكونَ أبداً لأحَدٍ غيره: دعوني أموت. إنّ نهايَة حياتي تؤمّن الرّاحَة لحياتِكما.

وأتى الملك. قال لابنته أعْذبَ الكلام وأرَقّه ليجعلها تتراجع عن موقفها لكنّها ظلّت حازِمَة لا تلين. وأخيراً، صمّم على اقتيادِها إلى أعلى قمّة جبل حيث يُفترض بتنّين البحيرة أن يأتي لأخذِها.

وحُضّرَ كلّ شيءٍ لذلك القربان الحزين. إنّ أضاحي إيفيجينيا[1] وبسيكيه[2] لم تكن بمثل ذلك الشؤم: لم تكن تُرى إلاّ الملابس السّوداء والوجوه الشّاحِبَة الواجمَة. كان هناكَ أربعمائة صبيّة من نخبة القوم لابِسات أثواباً طويلة بيضاء ويتقلّدن أكاليلَ السّروِ لمرافقتِها: كُنّ يحْمِلْنَها على مِحَفّ مكشوف منَ المخمَل الأسوَد حتّى يَرى الجميع تحفة الخلق تلك. كان شعرها منثوراً على كتِفَيها ومضفوراً بالأشرطة السّوداء، والتّاج على رأسها مضفوراً من أزهار الياسَمين الممزوجَة ببعضِ الآذَريون. كان يضنيها ألَم الملك والملكة اللذين تبعاها رازحَين تحتَ وطأة حزنهما المفجع؛ وكان العملاق المدجّج بكلّ أنواعِ الأسلحة، يمشي إلى جانب المحفّ الذي يحمل الأميرة. كانت نظراته تلتهمها وبدا عليه أنّه كان أكيداً من أنّه سينال حصّته منها. رَجّع الهواء صدى التنهّدات والنّحيب وتبلّلت الطّريق بالدّموعِ المذروفَة.

(1) إيفيجينيا: في الميثولوجيا الإغريقيّة، هيَ ابنة آغاممنون وكليتمنسترا، التي ضحّى بها والدها لأرتيميس لكي ينالَ رضى الآلهة.

(2) بسيكيه: سبقت الإشارة إلى غراميّاتها مع كوبيدون. هي في الميثولوجيا الإغريقية ابنة ملك أرادَ الاستجابَة لإرادَة الآلهة فتركَ ابنته على أعلى صخرة في قمّة تلّة حيث سيأتي خطيبها لاصطحابِها وهوَ أفعوان مجنّح. إلاّ أنَ إله النّسيم يختطفها ويطرحها على بقعة معشبة غيرَ بعيدٍ عن قصر منيف تتسلّل هي إليه وتجد في انتظارها وليمة باذخة. بعد تناول الطّعام تغفو، وهناك يتسلّل إليها عاشقها كوبيدون (إيروس).

هتفَت الملكة:

- آه أيّتها الضّفدعة، لماذا تركتِني وتخَلّيْتِ عنّي! واحَسرَتاه! لماذا أنجدتِني في السّهلِ المظلِم فيما تحجبين عنّي معونتك الآن؟ ما كان أسعدني لو متّ آنَذاك! لَما كنت رأيت على الأقلّ اليوم كلّ آمالي خائبَة! وَلَما كنت رأيت موفيت الغالية تقدّم طعاماً للتنّين.

وفيما كانت ترسل شكواها، كان الموكب يواصِل تقدّمَه رغم إبطاء السّائرين. وأخيراً وصَلوا إلى قمّة الجبلِ المشؤوم. وفي ذلك المكان، بدأت الصّرخات والحسَرات تتضاعَف بقوّة كبيرَة ولم يكن هناكَ مشهد حَريّ بالإشفاق كذلك المشهد. دَعا العملاق الجميع لتوْديع الأميرة والانصراف. وتوجّب القيام بذلك لأنّه في ذلك الزّمانَ كانت الأمور تجري وكأنّها قدر محتوم ولم يكن أحدٌ يبحث عن حلولٍ بديلَة لأيّ شيء.

ابتعد الملك والملكة وصعَدا على جبلٍ آخر يستطيعان منه مع كلّ أفراد الحاشية أن يرَوا ماذا سيصير بحال الأميرة. وبالفعلِ لم يَدُم مكوثهم طويلاً حتّى رأوا في الفضاءِ التنّينَ الذي كان يبلغ طوله نصف فرْسَخ وكانت له ستّة أجنحة كبيرَة. لم يكن يستطيع الطّيران بسهولةٍ لفَرْطِ ما كان جسده ثقيلاً مكسوّاً كلّه بحراشف ضخمَة زرقاء وبألف نبلة ملتَهِبَة. كان ذنَبه ملتَفّاً إلى خمسينَ حلقة ونصف الحلقة، وكلّ مخلب من مخالِبه بضخامة طاحونَة هوائيّة، وكانت تشاهد في شدقِهِ الفارغ ثلاثة صفوفٍ منَ الأنيابِ الطّويلة كأنياب الفيل.

ولكن، وفيما هوَ يتقدّم ببطء، كانت الضّفدعة الوفيّة والعزيزة تعتلي صَقراً مرتدية عباءَتها المصنوعَة منَ الورود، وطارَت بسرعةٍ إلى الأمير موفي، ومعَ أنّه كان داخلَ ديوانه، دخلت عليه دونَ استئذان

وقالت له:

- ماذا تفعل هنا أيّها العاشق العَديم الحظّ؟ هل تحْلم بمفاتن موفيت التي تتعرّض في هذه اللّحظة إلى الكارثة الأفظع: هاك بتْلة ورد سأنفخُ عليها وأصنع منها حصاناً نادراً كَما سترَى.

وفي الحال ظهرَ حصان أخضر كلّه باثنَتَي عشرة قائمَة وثلاثة رؤوس. الرّأس الأوّل يقذف ناراً، والثّاني قنابل والثالث كرات مدفع. أعطته سيفاً يبلغ طوله ثماني عشرة ذراعاً لكنّه أخَفّ منَ الرّيشَة. وألْبَسَت الأميرَ ثوباً صُنع من ألماسَة واحدَة، ومَعَ أنّ ذلك اللّباسَ كان أصلَبَ منَ الصّخر إلاّ أنّه يسهّل عليه حركته ولا يزعجُه بشيء. قالت له:

- انطلقْ وَاجْرِ وَطِرْ للدّفاع عمّن تحبّها. الحصان الأخضر الذي أهبكَ إيّاه سوف يأخذك إلى مكان وجودها. وعندما تنفذها، قلْ لها إنّني أريد حصّتي في ذلك.

هتف الأمير:

- أيّتها الجنيّة السخيّة، لا يمكنني الآن أن أعبّر لكَ عن كلّ امتناني. لكنّي أعلن نفسي خادمكِ الوفيّ لِمَدى الحياة.

وصعَدَ على الحصان ذي الرّؤوس الثّلاثة، وللحال بدأ يعدو بقوائمِهِ الاثنتي عشرة بسرعة ثلاثة أحصنَة من أفضل أحصنة السّباق، فوَصَلَ بوقتٍ قليلٍ إلى أعلى الجبل. هناك رأى أميرته العزيزة وحيدَة، والتنّين المرعِب الذي كان يقترب منها ببطء. أخذ الحصان الأخضر يقذف النّار والقنابل وكرات المدفع التي فاجأت المسخ فعلاً. تلقّى عشرين كرَة في حلقه أصابت الحراشف وأتلفتها قليلاً. أمّا القنابل ففقأت له عيناً. انتابه الغضب وأرادَ أن ينقضّ على الأمير، ولكنّ السّيفَ البالغَ طوله ثماني عشَرة ذراعاً كان من نوعيّةٍ

جيّدَة ويستطيع استعماله كما يشاء فيغرزه فيه حتّى المقبض أحياناً أو يستعمله بمثابَة سَوط. وكان الأمير ستهشّمه مخالب التنّين لولا درع الألماس الذي كان لا يُخترَق.

عرفته موفيت من مسافةٍ بعيدة لأنّ الألماس الذي يكسوه كان لامِعاً نقيّاً واعْتَرَاها خوف مميت، خوف العاشِقَة على معشوقها. لكنّ الملك والملكة بدَآ يستشعرانِ ببَصيص من أمَل في تلك الحلكة التي تكتنفهما. ذلكَ أنّ منَ العجَب رؤيَة حصانٍ بثلاثة رؤوسٍ واثنتَي عشرَة قائمَة، يقذف ناراً ولهباً، وأميرٍ يأتي في اللّحظة الحاسِمَة وهو يرتَدي درعاً منَ الألماس ويمتشق سيفاً مدهشاً، ليُحارِبَ التنّينَ بكثيرٍ منَ البَسالَة. وضَعَ الملك قبّعَته على صولجانه وعلّقت الملكة منديلَها إلى طرف عصاً لكي يؤشّرا للأمير ويشَجّعاه. وهكذا فعَل أفراد الموكب المرافق لهما. والحقّ، لم يكن الأمير بحاجةٍ إلى تشجيع، كان حُبّه كافياً لبثّ الحميّة والحَماس فيه، وكذلك رؤيتُه للخطر المحْدِقِ بالأميرة.

وما الذي لم يفعله لإنقاذها! كانت الأرض مكسوّة بالنبال والمخالب والقرون والأجنِحة والحراشف، وكان دمُ التنّين يسيل من كلّ أنحاء جسده؛ كان دمُ التنّين أزرق ودَمُ الحصانِ أخضر، الأمر الذي أحْدَثَ فارقاً لونيّاً فريداً على أرض المعركة. سقط الأمير خمس مرّاتٍ لكنّه كان يُعاوِدُ النّهوضَ دوماً ويعيد امتطاء حصانه على مهل. ثمّ أمْطَرَه بوابِلٍ منَ القذائف والنّيران اليونانيّة[1]. وأخيراً فقَدَ التنّين قِواه وتهاوى فغرَزَ الأمير السّيف في أحشائهِ وتسبَب له بإصابَة رهيبة. ولكنّ الأمر الذي يصعب على المرء تصديقه والذي هوَ مع ذلكَ حقيقيّ كباقي القصّة، هو أنّه خرج من ذلك الشقّ الكبير الذي

(1) هي عبارة عن أسهم ناريّة من مميّزاتها أنّها تواصل الاشتعال حتّى في الماء.

أحدَثه السّيف فيه أميرٌ قلّ نَظيره جمالاً وفتنة. كان لِباسه منَ المُخمَلِ الأزرق على خلفيّةٍ من ذهب، والمطرّز باللآلئ، وعلى رأسِهِ خوذة معدنيّة كالمحاربين الإغريق تظلّلها رياش بيضاء. فهُرِعَ فاتِحاً ذراعَيهِ ليقبّل الأميرَ موفي. قال له:

– ما الذي لا أدين لك به يا محرّري الشّهم؟ لقد جئتَ وأخرَجْتَني من أفظَعِ سجنٍ يمكن لِحاكِم أن يُسجَنَ فيه؛ حكمَتْ عليّ بهِ الجنيّة لبْوَة، ومنذ ستّةَ عشر عاماً وأنا أقاسي هناك، وكان تأثيرها عليّ منَ القوّة بحيث أنّها أرغمتني، رغمَ إرادَتي بالذّات، أن ألتَهِمَ هذه الأميرة الجميلة: خذوني لأرْتَمِيَ عندَ قدَمَيها وأشرَحَ لها معاناتي.

كان الأمير موفي متفاجئاً ومندهشاً من مغامرة مذهِلَةٍ كتلك. وظلّ مرتاباً بكياسة ذلك الأمير. وسارع كلاهما لموافاةِ الجميلة موفيت التي شكَرَت من جهتها السّماء ألف مرّة على كلّ تلك السّعادَة غير المنتظَرة. كان الملك والملكة وأفراد الحاشية قربَها وكلّ يتكلّم في الوقت نفسه ولا أحَدَ يستمع للآخر. راح الجميع يبكي من شدّةِ الفرَح كمَن يبكي من شدّة الألم. وأخيراً لكي يكتمل الاحتفال، ظهرَت الضّفدَعَة الطيّبَة في الفضاء على متنِ الصّقرِ الذي عُلّقَت إلى قوائمِهِ أجراس ذهبيّة صغيرَة.

وعندَما سَمِعَ الجميع الدَندَنات: درلنْ، دندنْ، رفعوا أبصارَهم ورأوا عباءة الورود تلتمع كالشّمس والضّفدعة جميلة كالفجر. تقدّمَت الملكة نحوَها وأمسكتها من قوائمِها الصّغيرَة. وللحال تحوّلت الضّفدعة إلى ملكة عظيمة ذات وجه في غاية الظرف والجمال. هتفت:

– جئت لأتوّجَ وَفاءَ الأميرة موفيت. لقد فضّلَتْ تعريضَ حياتها للخَطرِ على تغييرِ رأيِها، وهذا مثال نادِرٌ في العَصرِ الذي نعيش فيه

لكنّه سيتكرّر في العصورِ المقبلة.

- وعلى الفور أخذتَ إكليلَين منَ الآس ووضعتهما على رأسَي العاشقَين المتحابّيْن وضربَت عَصاها السّحريّة ثلاث مرّاتٍ وشوهِدَت عظام التنّين ترتفع لتَصيرَ قوسَ نَصرٍ احتفالاً بتلك المغامرة المدهشة التي كُتب لها النّجاح.

ومن ثمّ سار ذلك الموكب الجميل الحاشد نحو المدينة وهوَ ينشد أناشيد الزّفاف والقِران ببهجَة تعادل الحزن الذي اكتنف طقسَ التّضحية بالأميرة.

لم يؤجَّل الزّفاف إلاّ إلى اليوم التّالي. ومِنَ السّهلِ تصوّر الأفراح التي تكلّل بها.

الملكةُ التي روَيتُ لكم قصّتَها
ووصَفتُ لكم أهْوالَ الجحيم الذي كانت تعيش فيه
لم تخشَ أن يُصيبَها أيّ مَكروه
بفضل معونة الصّداقة والحبّ.
لَقد أَظهَرَت لها ضفدعتنا وفاءَها وتفانى زوجُها الملك في مُساعَدَتِها
وبِفضلِ جهودِهما المشتركة
استطاعا، بالرّغم منَ اللبْوَة الضّاريَة،
أن يُنَجّياها من تلكَ الضّفاف المشؤومَة.
لقد وَلّى زمان هؤلاء الأزواج الأوفياء والأصدقاء المتفانين
وعَصرنا يفتقدهم تماماً
وحده عصرُ الجنيّات يَعْتزّ بهم،
وهذا الوَفاء الذي حدّثتُكم عنه
هوَ خيرُ دليلٍ على قِدَمِ القصّبة التي رويتُها.



«ظبية الغابة» نقش غائر لكليمان–بيار ماريلييه

Clément-Pierre Marillier, 1785

ظبيَةُ الغابة

كانَ يا ما كان، كان هنالكَ ملك وملكة يجمعهما قرانٌ سعيد. كانا متحابّين ذاكَ الحبّ الرّقيق الحنون. وكان أفراد رعيّتهما يمْحضونهما حبّاً وإجلالاً متناهيَين. لكنّ تلك السّعادة كانَ ينقصها وريثٌ للعَرش. والملكة كانت مقتنعَةً أنّ الملكَ سيحبّها أكثر إنْ هيَ أنجبَت له وريثاً. لذا، لا يأتي ربيعٌ إلاّ وتذهب للارتواءِ من مياه النّبع البالغة العذوبة، تلك المياه التي يتوافد إليها الغرباء أيضاً بأعدادٍ وفيرَة من جميع أنحاء العالم.

وكان هنالكَ نوافير عديدة في إحدى الغابات الكبيرة ويؤمّها الناس للشّرب منها، محاطَة بالرّخام والحجر السُّمّاقيّ[1]، وكانَ كلّ واحدٍ لا يألو على نفسه جهداً لتجميلها. ذات يوم، وفيما كانت الملكة جالسةً على حافّة النّافورة قالت لجميع وصيفاتها أن يبتَعِدْنَ ويترُكْنَها وحدَها. ثمّ بدأت شكواها المعهودَة. قالت:

– ما أتْعَسَ حظّي، ليتني أُرزَق بوَلَد! لأفْقرِ النّساء أولاد. منذ خمس سنوات وأنا أتوسّل إلى السّماء وهي لا تستجيب لي. أتراني سأموت قبل أن أحظى بهذه النّعمة؟

وأثناء كلامِها على هذا النّحو، رأت مياه الينبوع تتحرّك ثمّ ظهرت أنثى سلطعون ضخمة وقالت لها:

– يا ملكتي العظيمة، سيكون لكِ ما تشتهين. أنبّهك إلى أنّ هناك قصراً بديعاً بالقرب من هنا بنَتْهُ السّاحرات لكن يستحيل العثور

---

(1) الحجر السّماقيّ ضرب من الرّخام الصّلب سُمّي كذلك بباعث من غلبة اللّون الأحمر الشّبيه بلون السّمّاق عليه، ولكن هناك منه صنف أسود وآخر أخضر.

عليه لأنّه محاطٌ بغيوم كثيفةٍ جدّاً لا تستطيع عينُ إنسانٍ فانٍ اختراقها. إلاّ أنّني خادمتكِ المتواضعَة، وإذا شئتِ الوثوقَ بقدْرَة أنثى سلطعون مسكينة، أقدّم نفسي لإرشادِكِ إليه.

استمَعَت إليها الملكة دون أن تقاطعها لشدّة دهشتِها من رؤيةِ أنثى سلطعون تتكلّم. قالت إنّها توافق على ذلك العرض بكلّ سرور لكنّها لا تعرف أن تمشي القهقرى مثلها. ابتسَمَت أنثى السّلطعون واتّخذت في الحالِ هيئةَ عجوزٍ جميلة قصيرة القامة.

قالت لها:

– حسناً يا سيّدتي، لِنَنْسَيَنَّ المشيَ القهقرى، أوافق على الأمر. لكنّي أطلب منك خصوصاً أن تعامليني كواحدةٍ من صديقاتك لأنّني لا أضْمِرُ لكِ إلاّ الخير والمنفَعَة.

خرجت من نافورَة الماء دون أن تبتلّ، كانت ثيابها بيضاء مبطّنَةً بنسيج قرمزيّ وكانَ شعرها الرّماديّ معقوداً بشرائط خضراء. لم يسبق أن كانت عجوزٌ على هذا القدْر منَ الأناقة. ألقَت التحيّة على الملكة، ومن دونِ تأخّر، أرشدتْها إلى الطريق في الغابة. دُهشت الأميرة لأنّها جاءت إلى هناك ألف مرّة لكنّها لم تدخل قطّ إلى تلك الغابة. وأنّى لها ذلك؟ كانت تلك طريق الجنيّات للذّهاب إلى نافورةِ الماء وكانت في العادة مقفلة بالعوسَجِ والأشواك. لكن، عندما ظهَرت الملكة ومُرشدتها أزْهَرَت أشجار الورد وتعانقَت أشجار الياسمين والبرتقال لتؤلّف من أغصانها تعريشة مظلّلةً بالأوراق والأزهار، واكْتَسَت الأرض بالبنفسجِ وغرّدَ ألف عصفورٍ من مختلف الأجناسِ وكلٌّ ينافس الآخر تغريداً وغناءً.

لَمْ تصْحُ الملكة من دهشتِها حتّى انبَهَرَت عيناها ببريقٍ لا مثيلَ له آتٍ من قصرٍ مصنوعٍ كلّه من الألماس. جدرانه وسطوحه وأسقفه

وأرضيّاته وأدراجه وشرفاته وحتّى المصاطب، كلّها من ألماس. لِفرْطِ ذهولها لم تستطع الملكة الامتناع عن إطلاقِ صيْحَة إعجاب. سألت العجوزَ المتَجَمّلة مرافقتَها عمّا إذا كانَ ما تَراه خيالاً أم حقيقة؟ أجابت:

- إنّه الحقيقة بعينها يا سيّدتي.

وللحال فُتِحَت أبوابُ القصرِ وخرجَت منها ستُّ جنيّات، وأيّ جنيّات! كُنَّ الأجمل والأروعَ في مملكَتِهنّ حتّى اليوم. أتَيْنَ جميعاً لِيَنْحَنينَ احتراماً للملكة وتبْجيلاً لها. وقدّمت كلّ واحدةٍ منْهنَّ زهرةً مصنوعة منَ الحجارة الكريمة ونَسَّقْنَ منها باقة، وكان في تلك الباقة وردة وتوليب وشقيقة نعمان وحوضيّة وقرنفلة وزهرة رمّان.

قُلْنَ لها:

- سيّدتي، لا يمكن أن نظهر لكِ دلائل احترام أكبر من هذه المتمثّلة في سَماحِنا لكِ بالمجيءِ لرؤيتنا هنا. لكنّنا مسرورات جدّاً بأن نُعْلِنَ لكِ أنّكِ ستنجِبينَ أميرةً جميلةً اسمها «محبوبة». لا تنسَي عندما تنجبينها دعوتَنا لزيارَتِها لأنّنا نريد أن نمنحها جميع المواهب. ليس عليكِ إلاّ أن تأخذي الباقةَ التي نقدّمها لكِ وتسمّي كلّ زهرةٍ باسمِها وأنت تفكّرينَ بنا. كوني واثقةً من أنّنا سنحضر إلى غرفتِكِ فوْرَ أنْ تلِديها.

هلّلَت الملكة فرَحاً وطوّقت أعناق السّاحرات. ودامَ العناقُ والتّقبيلُ لنصفِ ساعةٍ وأكثر. وبعد ذلك رجونَ الملكة أن تدخلَ إلى قصْرِهِنّ الذي يفوق جماله الوصف. لقد اتّخذنَ لبنائِهِ مهندِسَ الملك-الشّمس نفسَه، فبنى قصراً هو كقصر الملك-الشّمس سوى

أنّه أصغَر منه[1]. شقّ على الملكة أن تتحمّل بَريقهُ فكانت تغمضُ أجفانها كلّ دقيقة. ثمّ اقتَدْنَها إلى الحديقة. لم يسبق أن رأت مثل تلك الثّمار الجميلة. كانت ثمار المشمش ضخمةً بحجم الرأس وليس بالإمكانِ أن نأكل حبّة كرزٍ إلاّ إذا قسمناها إلى أربعة، وطعْمها من الرّوعة لدَرَجة أنّ الملكة شعرَت بعدَ أن التهمَتها أنها ستأنف من تناول الثمار الأخرى طيلة حياتها. وكان هناكَ بستان مليء بالأشجار الاصطناعيّة لكنّها مزوّدة بحياة وتنمو كالأشجارِ الأخرى.

لن أقولَ لكم الفرح العظيم الذي غمَرَ الملكة وحديثها المستفيض عن الأميرة الصّغيرة محبوبة وتشكّراتِها المُلحِفة للجنيّات اللّطيفاتِ اللّواتي زَفَفْنَ إليها ذلك الخبر السّعيد. لن أفعلَ ذلك أبداً. لكنّ الملكة لم تغفَل عن أيّة عبارةٍ مودّةٍ وامتنان. وأيضاً عبّرت عن كلّ امتنانها لجنيّة النّبع. مكثت الملكة حتّى المساء في القصر. كانت تهوى الموسيقى فسمعَت هناك أصواتاً سماوِيّة وحُمِّلَت بالهَدايا. وبعد أن شكرَت أولئك السيّدات العظيمات عادت إلى المنزل برِفقَةِ جنيّة النّبع.

كان جميع أهل البيت في قلقٍ بالغٍ عليها بعدَما فتّشوا عنها في كلّ مكان. لم يكنْ بإمكانهم، بالتّأكيد، تصوّر المكان الذي قصدَته. كانوا يخشوْنَ أن تكونَ قد اختُطِفَت على يدِ بعض الغرباءِ الجسورين لأنّها جميلةٌ وشابّة. كان الجميعُ يتهلّلونَ فرَحاً لعَوْدَتها. وبما أنّها كانت تشعر من ناحِيَتِها بسرورٍ غيرِ متَناهٍ نتيجَة الآمالِ الخلاّبَة التي عُلِّلَت بها للتوّ، اتّصف حديثها بذكاءٍ وطرافةٍ سَحَرا الجميع.

تركتْها جنيّة النّبع بالقرب منَ القصر. أغدَقت عليها الملكة

(1) الملك-الشّمس هو لقب ملك الفرنسيّين لويس السّادس عشر، والإشارة هنا إلى قصر فرساي القريب من باريس.

المجامَلات والملاطَفات لدى افتراقهما. وظلّت الملكة لثمانية أيّام ترِد النّبع ولمْ تتوانَ عن العودَةِ إلى قصر الجنيّات برفْقَةِ صديقتها العجوزِ الغنِجة، التي كانت بادئ الأمرِ تتّخذ هيئة أنثى سلطعون ثمّ عادَت لتأخذ هيئتها الطّبيعيّة.

غادرت الملكة النّبع. ثمّ حبلَت ووضعت أميرة أسمَتْها محبوبة. وفي الحال أمسكت الباقة التي قُدِّمت إليها هديّة من الجنيّات وسمّت جميع الأزهار واحدةً تلوَ الأخرى فرأت الجنيّات يحضُرْنَ توّاً وكلّ منهُنّ في عربةٍ مختلفة: عربة من خشب الأبنوس تجرّها حمامات بيضاء وأخرى منَ العاج تجرّها غربان صغيرة، وعرَبات أخرى أيضاً من خشب الأرز وخشب الصّبر. كان موكبُهُنّ ذاك يعبّر عن التّحالف والسّلام لأنّهن كنّ حين يغضبنَ، يأتينَ في عرباتٍ تجرّها التّنانين المجنّحة والأفاعي التي تقذف النّار من أشداقِها وعيونها، والأسود والسنّوريات والفهود. كنّ يتنقّلْنَ على متنِ عرباتهنّ وهنّ يجُلْنَ الأرض من أقصاها إلى أقصاها بأقلّ ممّا يستغرقُهُ قولُ صباح الخير أو مساء الخير. وهذه المرّة كنّ في أفضل مزاج ممكن.

رأتْهنّ الملكةُ يدْخُلنَ غرفتها بفرح وجَلالٍ ويتبعُهُنّ أقزامُهنَّ وقزَماتُهُنّ محمّلين بالهدايا. بعد أن عانَقْنَ الملكةَ وقبّلْنَ الأميرة الصّغيرة، بسَطْنَ ثيابَ الوَليدة المصنوعة من قماشٍ ناعم ومنَ الجودَة بحيث يمكن استعماله لمائة سنةٍ دون أن يتلفَ إذ كانت الجنيّات ينْسُجْنَهُ خلال أوقاتِ فراغهنّ. أمّا الدّانتيلاّ فقد اشتغلْنَها بإتقانٍ يفوق ذاكَ الذي تحدّثت عنه بخصوص القماش، وقد رُسِمَ عليه تاريخُ العالم كلّه بالإبرَةِ أو بالمغزَل. وبعد ذلك، بسَطْنَ لها الأقمِطة والأغطية التي طرّزنَها خصّيصاً للأميرة ورُسم عليها ألف لعبة مختلفة يلهو بها الأطفال. ومُذْ وُجدَ مطرِّزون ومطرِّزات، لم يشهد

العالم أشياء بمثل تلك الرّوعة. لكن عندما ظهر مَهْدُ الطّفلة صاحَت الملكة إعجاباً لأنّ جماله فاق كلّ ما رأتْه حتّى ذلك الحين: كان مصنوعاً من خشب نادر ونفيس بحيث تبلغ كلفة الرّطل منه مائة ألف دينار. كان يحمله أربعة تماثيل صغيرة لملائكة الحبّ. وملائكة الحبّ هؤلاء كانوا تحفة مشغولة بفنّ يتجاوز رِفْعَة المادّة التي صُنِعُوا منها وهي الألماس والياقوت، فنّ يفوق الوصف. وكان هؤلاء الملائكة تُحَرّكهم الجنيّات، فما إن يسمعون الطّفلة تصرخ حتّى يُهَدْهِدونَها وينيّمونَها. وكان في ذاك عونٌ كبيرٌ للمرضعاتِ والمربّيات.

حَمَلَت الجنيّات الأميرة الصّغيرة ووضَعْنَها على رُكَبِهِنّ. وقمّطْنَها وطبَعْنَ على خدّها أكثر من مائة قبلةٍ لأنّها كانت منذ ذلك الحين جميلة ومحبوبة. لاحَظْنَ أنّها تحتاج للرّضاعة، وعلى الفور ضرَبْنَ الأرض بعصاهن السّحريّة فخرجت مرضعة وأرضعت تلك الطّفلة المكتنزة اللّطيفة. وبقيت هناك مسألة المواهب التي كانت الجنّيات سيمنحنَها إيّاها. فمنحتها الجنيّة الأولى الفضيلة والثّانية الذكاء والثّالثة الجمال الخلاّب والرّابعة الحظّ الميمون والخامسة الصحّة المديدَة والأخيرة منحتْها نعمة أن تنجزَ كلّ أعمالها على أتمّ وجه.

ابتهجت الملكة وشكرتْهنّ مِراراً وتكراراً على الأفضال التي أغدَقنَها على الأميرة الصّغيرة. وعندئذٍ شوهِدَت أنثى سلطعون ضخمة تدخل إلى الغرفة والباب لا يكاد يتّسع لها.

قالت أنثى السّلطعون:

- تبّاً لكِ! أيّتها الملكة الجاحِدة النّاكرة الجميل. ألا تتنازلين إذاً وَتتذكرينني؟ أيُعقل أن تنسي بهذه السّرعة جنيّة النّبع والخدمات الجليلة التي أدّيتها لك باصطحابك إلى أخواتي؟ ماذا! دعوْتِهِنّ جميعاً وغفلتِ عنّي أنا وحْدي! منذ البدء استشعرْتُ ذلك، وهذا ما دفَعَني

إلى اتّخاذ هيئةِ أنثى سلطعون عندما تحدّثت إليكِ في المرّةِ الأولى، أردت أن أشيرَ ها هُنا إلى أنّ صداقتك تتراجع بدَلَ أن تتقدّم.

اغتَمّت الملكة اغتماماً شديداً بسبب الخطأ الفادحِ الذي ارتكبته فقاطعتها وسألتها المغفرة. قالت لها إنّها ظنّت أنّها سَمّت زهرتها مع باقي الأزهار، وإنّ باقة الأحجار الكريمةِ هي التي خدعتها. قالت لها أيضاً إنّها غيرُ قادرة على نسيان المكْرُمات التي تَدين لها بها وأنّها تتوسّل إليها ألاّ تحرِمَها صداقتَها وأن تحيط الأميرة الصّغيرة بعنايتها. كانت جميع الجنيّات يخشَيْنَ أن تُنْزِلَ بها المصائب والنّوائبَ فآزَرْنَ الملكة في مسْعاها آملاتٍ في أن تُلَيّن موقفها.

قلْنَ لها:

- يا أختَنا العزيزة، نرجو من جلالتكِ ألاّ تغضبي على ملكة لم تكن من نيّةٍ لها في حملك على الاستياء! غادري، رجاءً، هيئةَ أنثى السّلطعون هذه واظهري بكلّ سحرك المعهود.

قلتُ لكم آنِفاً إنّ جنيّة النبعِ كانت غنِجَة كثيراً. ليّنَت مدائحَ أخواتها موقفها قليلاً.

قالت للملكة:

- حسناً، لن أنزل بالأميرة محبوبة كلّ الشرّ الذي ضَمَرَتُه لها. كنت أرغب، بالطبع، في حرمانها منَ الحياة ولا شيء كانَ بإمكانه رَدْعي عن ذلك. ومع ذلك، أودّ فعلاً أن أحذّركِ بأنّه ممنوع عليها أن ترى ضوء النّهار قبل بلوغها الخامسة عشرة وإلاّ فستندَم على ذلك أشدّ النّدم أو ربّما سيكلّفها ذلك حياتها.

لمْ يغيّر بكاء الملكة وتوسّلاتُ الجنيّات الشّهيراتِ شيئاً في الحكم الذي تلفّظته جنّية النبع للتوّ. تراجعت إلى الخلفِ لأنّها لا تريدُ أن تترك هيئة أنثى السّلطعون.

ولدى مغادرَتِها الغرفة، طلبت الملكةُ الحزينة منَ الجنيّاتِ وسيلة لتحْمي ابنتها منَ الشّرور التي تتهدّدها. وفي الحال عقَدْنَ جلسة، وبعد أن تبادَلْنَ آراءً مختلفة، استقرّبت مشاورااتُهنّ على هذا الرّأي: يجب بناء قصر بلا أبواب ولا نوافذ ويكون مدخله تحت الأرض. ويجب أن تنشأ الأميرة في هذا المكان حتّى بلوغها العمرَ المحتوم.

كانت ثلاث ضرباتٍ منَ العصا السحريّة كافية لتشييد ذلك الصّرح الكبير. كانَ مبنيّاً في الّداخل من الرّخام الأبيضِ، وفي الخارج من الرّخام الأخضر. وكانت السّقوفُ والأَرضيّات منَ الألماس والزّمرّد منسّقة على أشكال عصافير وأزهار وأشياء أخرى كثيرة طريفة.

وكلّ الأثاث كان مُنَجّداً بالمخمَل من مختلف الألوان ومطرّزاً بأيدي السّاحرات. وبما أنّهنّ كنّ بارعاتٍ في نسج القصَص فقد حِكْنَ لها أجملَ القَصص وأكثرها تميّزاً، ولم يكن المَستقبل فيها أقلّ حضوراً منَ الماضي. وكانت المآثر والأعمال البطوليّة لأعظم ملك في الدّنيا تملأ سُجُفاً عديدة:

ظافراً يبدو ذاك الملك تارةً
كماردِ تراقيا[1]
يتصاعد الشرَر من عينيه
ويحكي جرأته في القتال
و تارةً أخرى مطمئنّاً هادئاً

---

(1) مارد تراقيا: أحد ألقاب آريس، إله الحرب في الميثولوجيا الإغريقيّة، دُعِيَ كذلك لأنّ الأسطورة تقول إنّه كان يسكن في تراقيا، المنطقة البلقانيّة المعروفة، التي تشمل أجزاء من اليونان وتركيا وبلغاريا.

يحكم البلادَ بسلام عميم
وبِعدْلٍ يحسده عليّه باقي البشر

هكذا يصوّره أمهَر الرسّامين
مُخيفاً حين يحتلّ المدن
وشهماً حين يصنَع السّلم.

تخيّلت أولئك الجنيّاتُ الحكيماتُ هذه الوسيلة ليُعَلّمْنَ الأميرة الشّابّة بأسهلِ طريقةٍ الأحداثَ المختلفةَ لحياةِ الأبطال والرّجال البارزين.

لم يكنْ بالإمكان الرؤية في القصر إلاّ على ضوء الشّموع، ولكن كان هناكَ عدد كبير منها بحيث أنّ المكانَ كان مضيئاً وكأنّه في نهار دائم.

وجيءَ بالمعلّمينَ الذينَ كانت تحتاج إليهم لاكتمال تربيتها. وكانت بفكرها وحيويّتها ولباقَتها تستبق دوماً كلّ ما كانوا يُريدون تعليمَها إيّاه. وكانوا في حالة إعجابٍ دائم منَ الأشياء المدهشة التي تقولها في سنّها حيث الآخرون يعرفون بالكاد اسم مربّيتهم. وهكذا، لم يكن عبثاً أن أسبَغت عليها الجنيّات المواهبَ الكثار.

إذا كان ذكاؤها يفتن كلّ من يقاربُها فإنّ جمالها لم يكن ذا تأثير أقلّ نفوذاً. كانت تسحر حتّى مُنْعَدِمي الإحساس. ولم تكن أمّها الملكة لتفارقها لولا الواجبات التي تربطُها بالملك. كانت الجنيّات الخيّرات يأتينَ لرؤيةِ الأميرةِ من وقتٍ لآخر، ويجلِبْنَ لها أشياءَ نادِرة لا مثيل لها وملابسَ فاخرة وأنيقة. ومَن رآها ظنّ أنّها ملابس عُرسٍ جُهّزَت

لأميرةٍ شابّة لا تقلّ لطفاً عن تلك التي أتحدّث عنها[1]. لكن، من بين كلّ الجنيّات اللّواتي كنّ يَمحضنَها أكبرَ الحبّ كانت الجنيّة توليب تحبّها أكثر مِنهنّ جميعاً ولا تنسى أبداً أن توصي الملكة بألاّ تُرِيَها ضوءَ النّهار قبل بلوغِها سنّ الخامسة عشرة.

كانت تقول:

- شقيقتنا على النّبع منتَقِمَة جائرَة. مهما يكن الاهتمام الذي نوليه لهذه الطّفلة، فهي سوف تؤذيها إن استطاعَت لذلك سبيلاً، وهكذا يا سَيّدتي فمهما فعلتِ لن تكوني متيقّظة بما يكفي في هذا الشّأن.

كانت الملكة تعِدُها بأن تسْهَرَ بشكلٍ متواصل على مسألةٍ بهذه الأهميّة. ثمّ أخذ الوقت لخروج ابنتها من ذلك القصر يقترب فأمرت برسمها. حُمِلَ رَسْمُها إلى أعظم قصور الدّنيا. ولدى مرآها لم يكن هناك أيّ أمير إلاّ ويعجب بها. ولكن، ثمّة أمير تأثّر جدّاً بصورَتِها فلَم يعد بإمكانه مفارقتها. وضع رسمها في ديوانه واعتكف فيه وكان يتحدّث إليها وكأنّ الرّسم يَسْتَطيع أن يُحسّ به ويَسمعه. كان يبوح له بأمورِ العِشق والوَلَه.

استعلم الملك الذي لم يعُد يرى ابنه عن مشاغله وعن السّبب الذي يمنعه من الظّهور بمظهَرِهِ الفَرِحِ المَعهود. وتوجّه له بعض رجال الحاشية، الذين كانوا لا يحفظون سرّاً - وكُثُرٌ لهم هذه الطّباع - وقالوا له إنّه يُخشى أن يفقدَ الأميرُ عقله، لأنّه كان يظلّ لأيّام طويلة مُحْتَبَساً في ديوانه، وكانوا يَسمعونه يتكلّم وحده وكأنّه برفقةِ أحدهم.

استقبل الملك تلك الأحاديث ببالغ القلق، وقال للمقرّبين منه:

- هل يُعقل أن يكونَ ابني قدْ فقدَ عقله؟ كانَ على قدْرٍ كبيرٍ مِنَ

---

(1) المِلحة متزلّفة من قبَل الكاتبة إلى زواج ماري-أديلايد دوقة سافْوا بدوق بورغنده، حفيد لويس الرّابع عشر، الذي احتُفِلَ به في 1697.

الذّكاء! وكانَ مثارَ إعجابٍ دائمٍ حتّى الآن، ولم أجد في نظراته أيّ شيءٍ يوحي بالخَبَل. يبدو لي فقط أكثرَ حزناً. يجب أن أتحدّث إليه. ربّما أمكنني أن أفْقه أيّ نوعٍ من الجنون مسّه.

ثمّ أرسلَ في طلبه. أمرَهُم بالانسحاب، وبعد أسئلةٍ عديدةٍ وجّهها إليه الملك وأظهر هو حِيالها سَهْواً أو أجاب عليها بشكلٍ سيّء، سأله الملك ماذا دهاه وما سببُ التغيّر الكبير في مزاجه وشخصيّته. وعندئذٍ، وقد اعتبرَ الأميرُ اللّحظة مؤاتِيَة، ارتمى عند قدَمَيه وقال له:

- صمّمتَ على أن تزوّجني الأميرة دامسة. صحيح أنّ حسنات الاقتران بها تفوق تلك التي أعِدُكَ بها في مُصاهَرَةِ الأميرَة محبوبة، لكن يا مولاي أجِد في محبوبة مفاتن لن أستطيع العثورَ عليها في الأخرى.

سأله الملك:

- وأينَ رأيتَ الفتاتَين؟

أجابه الأميرُ محارب (هكذا سُمّي منذ أن انتصر في ثلاث معارك حاسمة):

- أُرسل إليّ الرّسمان اللّذان يمثّلان كلاًّ منهما. أعترف لك بأنّني شُغفت بالأميرة محبوبة شغفاً بحيث إنّه إذا لم تتراجع عن التعهّد الذي أعطيته للأميرة دامسة، فالموت أهون عليّ، لا بل سأرضى بخسارة هذه الحياةِ إذا فقدتُ الرّجاءَ بأن أكون لِمَن أحبّ.

فأجابه الملك بلهجةٍ صارمة:

- ألِهذا السّبب إذاً يَلذ لك أن تتوجّه بالحَديث إلى رسمِها، ما يجعلك هزأة أمام كلّ رجال الحاشية؟ يظنّون أنّك فقدْت عقلك. ولو كنتَ تَعلم الأخبار التي تناقلوها لي عنك لكُنْتَ خجِلتَ من ظهورِكَ بهذا الضّعف.

أجاب الأمير:

- لا أستطيع أن ألومَ نفسي على هذا الحبّ المتأجّج. عندما ترى رسْمَ تلك الأميرة الفاتنة فسوفَ تتفهّم شعوري حِيالها.

قال الملك بنفاد صبْر يَشي بحزنه:

- أرسل أحداً ليُحْضرَ لي الرّسم الآن!

كان الأميرُ سيأسى لَحزن أبيه أشدّ الأسى لو يكن واثقاً من أنّ لا شيء في العالم يُضاهي جمالَ الأميرة محبوبة. هُرِعَ إلى ديوانه ثمّ عادَ إلى الملك الذي ذُهِلَ كابنه لدى رؤيته صورتها. قال له:

- هكذا إذاً! يا عزيزي محارب، أوافق على تنفيذ أمنيتك. إنَ وجود مثل هذه الأميرة اللّطيفة في قصري سيزيدُني شباباً. سأرسل في الحال بموفدين إلى قصر الأميرة دامسة لكي أعلمها بأنّي تخلّيت عن تعهّدي لها. وإذا ما اضطررت إلى خوض حربٍ ضروسٍ ضدّها فإنّي خائضها لا محالة.

قبّل الأمير يدَي والده باحترام. وقبّل مِراراً ركبتَيه. عَمّت الفرحة كيانَه فَغَدا شخصاً آخر. حَثّ أباه الملكَ على الإسراع في إيفاد رُسُلِه ليس للأميرة دامسة فحسب بل أيضاً للأميرة محبوبة. وتمنّى عليه أن يختار الرّجل الأكْفأ والأثْرى ليكون رسولاً لدى محبوبة، لأنّ عليه أن يضطلع بهذه المهمّة الجليلة ويكون مُقنِعاً في طلب مبتغاه. وقع اختيار الملك على واحدٍ من رجاله اسمه تيّان (وهو بالأصل اسم طائرٍ مولع بثمار التّين). كان هذا شابّاً نبيلاً في منتهى الفصاحةِ ويبلغُ مجموعٍ مداخيلهِ مائة مليون دينار. وكان تيّان يحبّ الأمير حبّاً جمّاً، فجهّز، كرمى له، الموكبَ الأجملَ والأكبرَ الذي يمكن تخيُّله. كان شديد الانهمام بالأمر، لأنّ هيام الأمير كان يزدادُ يوماً بعد يوم وكان لا ينفكّ يُلحّ عليه بالإسراع في الرّحيل، وقد أسرّ له قائلاً:

- فكّرْ بأنّ حياتي رَهْنُ هذه الرّحلة. سأفقِد عقلي إذا ما خطر ببالي أنّ والد هذه الأميرة التزمَ بتعهّد مع أميرِ آخر ولا يريد الإخلال به لأجلي، وأنّني بذلكَ سأخْسَرها إلى الأبد.

كان تيّان يطمئنه كسْباً للوقت، لأنّه كان راغباً في تجهيز موكب على شرفه، يتّسم بكلّ مظاهر البذخ والأبّهة. أعدّ موكِباً من ثمانينَ عربة فاخرة مزدانة كلّها بالذهب والألماس وكانت الرسوم المنمْنمة الأكثر إتقاناً لا تداني تلك التي تزيّنها. وكانت هنالك خمسون عربة فاخرة أخرى وأربعة وعشرون ألف غلام ممْتطينَ صهوات أحصنَتَهم ومنظرُهم أبْهى من منظر الأمراء. ولم تكن بقيّة هذا الموكب الكبير تقلّ عن مقدّمته من حيث البذخ والأبّهة.

استأذَنَ الرّسول الأمير بالانصراف فقبّله بحرارةٍ وقال له:

- تذكّر يا عزيزي تيّان أنّ حياتي وقْف على هذا الزّواج الذي ستفاوِض بشأنه. لا تألُ جُهْداً لإقناعِها وعُدْ وبرِفْقتكَ الأميرة اللّطيفة محبوبتي.

ولقد حمّله بهدايا لا تُحصى، كانت أناقتُها على قدْر نفاستِها حيث كلمات الحبّ محفورة على أختام ماسيّة وساعات من عقيق جمْريّ مزيّنة بأحرف اسم محبوبة، وأساور من ياقوت أحمر في شكلِ قلوب. وأخيراً! كم من الهدايا ابتدعَ إكراماً لعَينَيها!

كان الرّسول يحمل في حوزَته رسماً للأمير الشابّ صوّره فنّانٌ شديد المهارة بحيث كان ينطق ويتفوّه بكلماتِ مجاملة مليئة طَرافة. وفي الواقع لم يكن يجيب على كلّ ما يُقال له لكنّه لم يكن يعوزه ذلك. وعد تيّان الأمير بأن يفعل كلّ ما في وسعه لإنجاح مهمّته، وأضاف أنّه يحمل في حَوْزَته الكثير منَ المال، فإذا مُنعت عنه الأميرة فلن يتورّع عن إيجاد الوسيلة ليكسَب إلى جانبهِ إحدى وصيفاتِها، ويختطِفها.

هتفَ الأمير:

- لا، لا يمكن القبول بهذا الأمر. تلك طريقة تفتقر إلى الاحترام وقد تتسبّب بالإهانة لها.

وانصرف تيّان دونَ أن يُعَقّب بأيّ كلام. كانت الضجّة التي يثيرها موكِبُه تشي بقدومه. سُرّ الملك والملكة لمجيئه. كانا يُبْدِيان احتراماً كبيراً لسيّده وعلى دِرايَة بمآثِر الأمير محارب. وكانا يعرفان أكثر من أيّ شيء آخر مزاياه الشخصيّة، فلو أنّهما فتّشا العالم بأسْره عن زوج لابنتِهما لما وجدا مَنْ هوَ أجدر منه بها. هيّآ أحَدَ القصور لاستقبال تيّان ووجّها كلّ الأوامر اللاّزمة لكي يبدوَ البلاط في أبْهى حلّة.

عقدَ الملك والملكة النيّة على أن يزورَ المبعوثُ الأميرة. لكنّ الجنيّة توليب جاءت للِقاء الملكة وقالت لها:

- حاذري يا سيّدتي من اصطحاب الرسول لزيارة ابنتنا (هكذا كانت تسمّي الأميرة)، لا يجدُر به أن يراها قبل بلوغها سنّ الخامسة عشرة، ولا تُوافقي على إرسالها إلى الملك الذي يطْلبها لابنه قبل أن يحِينَ الموعد، لأنّني متأكّدةً من أنّها لو رَحَلت قبل ذلك فإنّ مكْروهاً سيحصلُ لها.

قبّلت الملكة توليبَ الطيّبةَ ووعَدَتها بأن تتبع نَصائحها. وذهبتا على الفور لزيارة الأميرة.

وصل الرّسول. استغرق مرور موكبه ثلاثاً وعشرين ساعة لأنّه يتضمّن ستّمائة ألف بغل كانت جريساتها وحَوافِرُها من ذهب وأسْرِجتها من مُخمَلٍ وديباج ومزيّنة باللآلئ. شكّل مرورهم ازدِحاماً غيرَ مَسبوقٍ في الشّوارع. هُرِعَ جميعُ النّاسِ إلى رؤيتهم. وذهبَ الملك والملكة لاستقباله لفَرط ما كانا مسرورَينِ بقدومه. من غير المجْدي

التحدّث عن الخطبة التي ألقاها والمراسم والاحتفالات منَ الجانبَين إذ يمكننا تخيّلها بسهولة. لكن، عندما سألهم الإذنَ بالذّهاب لإلقاءِ التحيّة على الأميرة، رُفِضَ طلبُهُ ما جعَلَه مذهولاً.

قال له الملك:

- إذا كنّا نرفض يا سيّد تيّان أمْراً مُحِقّاً كهذا، فإنّنا لا نَفْعَلُ ذلك بسببِ نزوَةٍ غريبةٍ تعرِضُ لنا. يجب أن نَرْوي لك الحادِثة الغَريبة التي حصلَت لابنتنا لكي تكونَ على علْمٍ بالأمر. لقد ناصَبَتْها جنيّة منذُ ولادَتها العَداء وهدّدَتها بحلولِ مصيبَةٍ كبيرةٍ بها إذا رأت ضوء النّهار قبل بلوغِها سِنّ الخامسة عشرة. لذا نحتبِسُها في قصرِ أجْنِحَتُه البَديعَة موجودة تحت الأرض. كنّا عَقدنا النيّة على اصطحابكَ إلى هناك لكنّ الجنيّة توليب أمَرَتْنا بألاّ نفعل ذلك.

أجاب الرّسول:

- ماذا تقول يا سيّدي؟ هل عليّ أن أعودَ إلى الدّيار من دونِها؟ ستتكرّم بالسّماح لها بذلك لأجلِ سيّدي الملك وابنه. إنّهما ينتظرانِها بفارِغِ الصّبر. أيُعقل أن تتوقّف عندَ هذه السّخافات التي يسمّونَها نبوءاتِ الجنيّات؟ معي صورةٌ للأميرِ مُحارب وتلقّيت الأمْرَ بأن أسلّمَها إيّاها. وهي تشبِهُهُ لدرَجةِ أنّكَ تظنّه هو نفسه إذا ما نظرتَ إليه.

وللحال بَسَطَ الرّسْمَ الذي لم يُلَقَّن إلاّ التّحدّث إلى الأميرة، فنطق الرّسم بهذه الكلمات:

- يا محبوبة الجَميلة، لا تستَطيعين أن تتخيّلي بأيّة حماسَة أنتظِركِ. تَعالَي عمّا قريبٍ إلى قصْرِنا لتُزَيّنيه بسحْرِك الذي لا يُضاهى.

وسَكَت الرّسم. مكثَ الملك والملكة ذاهلَين فتوسّلا في الحالِ إلى تيّان بأن يُعْطِيَهما إيّاه ليرْسِلاه إلى الأميرة. فَسُرَّ لذلك وكان لهما ما

يريدان.

حتّى تلك السّاعة لم تكن الملكة تحدّثتْ إلى ابنتها عمّا يجري. لا بلْ حَظَرَت على الوصيفات المقرّباتِ منها أنْ يَقُلْنَ شيئاً عن مجيء الرّسول. لم يَنْصَعْنَ لأوامِرِها وكانت الأميرة تعلَم أنّ الأمرَ يتعلّق بمشروع زواج كبير. لكنّها كانت حذِرَة فلم تُفْصح لأمّها عن شيء. وعندما أظهرَتْ لها أمّها رسمَ الأميرِ النّاطقِ الذي توجّه إليها بإطراءٍ رقيق وظريف في آنٍ معاً، فوجِئَت بالأمر لأنّها لم ترَ من قبلُ لذلك مثيلاً؛ لم تُفاجَأ فقط بِما نطَقَ به رَسْمُ الأمير فحسب بل ببَشاشَته وبَهاءِ طَلْعَته وتناسقِ ملامِحه.

قالت الملكة وهي تضحك:

- هل يغضبك أن تتزوّجي رجُلاً يشبِه هذا الأمير؟

أجابتها:

- مولاتي، لا يعودُ إليّ أمرُ الاختيار. سأرضى دوماً عمّن تختارانَه لي، أنتِ وأبي.

أضافت الملكة:

- لكن افرضي أنّ اختيار القدَر سيقع عليه، فهل ستكونين سعيدةً حسبَ ظنّك؟

احمرّ وجهها. خفَضت عينيها ولم تُجب بشيء. عانقتها الملكة وقبّلتها مرّات عدّة. لم تستطع الامتناعَ عنْ ذَرْفِ دموعها عندما فكّرت أنّها على وشكِ فقدانها، إذ لم يعد أمامها إلاّ ثلاثة أشهرٍ لكي تبلغ سنّ الخامسة عشرة. كتَمَت استياءَها وأطلعتها على المهمّة التي اضطلّع بها تيّان الشّهير، وقدّمت لها الهدايا النّادِرَة التي جلَبَها لها. تأمّلتها الأميرة وامتدحَت بذوقٍ رفيع الطّابعَ الغريبَ الذي يميّزها لكنّها كانت تختلس نظرات الإعجاب إلى رسم الأمير وبلذّةٍ لمْ

تعْهَدْها حتّى ذاك اليوم.

رأى الرّسول أنّ إلحاحَه باصطحاب الأميرة لن يُجْدِيَ نفعاً. كانوا يكتفونَ فقط بأن يَعِدوه بها بشكلٍ لا يرْقى إليه الشكّ. مكث قليلاً بالقرب منَ الملك ثمّ عادَ من مهمّته ليُعْلِمَ سيّدَيْهِ بمفاوضاتِه.

وفَوْرَ علم الأمير بأنّه لا يستطيع الأمَل برؤية معشوقته الغالية إلاّ بعد ثلاثةَ أشهر، أذاعت شكواه الحزنَ في البلاط كلّه. امتنع عن النوم والأكل وأصبح كئيباً حالِماً وبدّلت الهموم ألقَ سحْنَته إلى شحوب. كان يمضي أيّاماً طويلةً مضطجعاً على أريكةٍ في ديوانه يتطلّع إلى صورة أميرته. كان يكتب لها طيلة الوقت ويوجّه الرَسائل لرسمها وكأنّه قادر على قراءتِها. وأخيراً نال الوهن التّدريجيّ من قِواه وأصيبَ بمرَضٍ خطير ولم تكن معرفة سببه بحاجة إلى استشارة الأطبّاء والاختصاصيّين.

يئس الملك. كانَ حبّه لابنه يفوق كلّ وصف. أحسّ أنّه على وشك أن يفقده. يا للألم الذي أصابه، وهل من ألم أشدّ من ألمه كأب! لم يكن يَتصوّر أنّ ثمّة دواءً بإمكانه شفاء الأمير. كان يتمنّى وجود محبوبة إلى جانب ابنه وإلاّ فمصيره الموت. عندئذٍ، وفي لحظة يأس قصوى، اتّخذ قرارَه بالذّهاب للقاء الملك والملكة اللذينِ وعَداه بابنتهما لكي يرجوَهُما بالإشفاق على حالِ الأمير وعدَم إرجاء الزّواج الذي لن يتمّ إذا أصَرّا على موقفِهما بوجوب انتظارِ بلوغِ الأميرة سنّ الخامسة عشرة.

كانَ هذا القرار جديداً من نوعه لكنّ الأمر سيكون أكثر غرابة إذا لم ينْتشل الملك ابناً عزيزاً وغالِياً من قبضة الموت. ومع ذلك وجدَ أنّ عائقاً كبيراً يَحول دونَ هذا المَسْعى وهو سنّه المتقدّمة التي لا تسمحِ له بالذّهاب إلى هناك إلاّ على محْمَل وهذه الوَسيلة لا تلائم الحال

التي بلَغَها ابنه من نَفادِ صبر، ما اضطرّه إلى إرسال تيّان المخلص للاضطلاع بهذه المهمّة محمّلاً إيّاه الرّسائل الأبلغ تأثيراً التي تسنّى لأب أن يَكتُبَها، وهذا لكي يحثّ الملكَ والملكة على تحقيق مرامه.

في تلك الأثناء كانت محبوبة تنظر إلى رسم الأمير بلذّة تضارع لذّة الأمير في النّظر إلى رسمِها. في كلّ لحظة، تذهب إلى حيث وُضِعَ الرّسم لتتأمّله. لم يكن يُجْديها أن تُخفيَ مشاعِرَها التي لم تكن تخفى على أحد، لا سيّما على وصيفتَيها قرنفلَة وشوكَلَة[1] اللّتين لاحظتا تلك الهموم الصّغيرة التي بدأت تعذّبها. كانت قرنفلة تحبّ الأميرة كثيراً وتكنّ لها إخلاصاً كبيراً. أمّا شوكلة فتشعر دوماً بِحَسَدٍ مضمَر من مزايا الأميرة ومَقامِها. والِدة شوكلة هي التي ربّت الأميرة، وبعد أن كانت مربّيتها أصبحت كبيرة وصيفاتها. كان حرِيّاً بها أن تحبّها أكثر من أيّ شيءٍ في هذا الوجود لكنّها كانت تحبّ ابنتها شوكلة إلى حدّ الجنون. وإذ أحسّت بالحقد الذي تُضمِرُهُ ابنتها للأميرة، تواطأت معها.

المبعوث الذي أرسِلَ إلى قصر الأميرة دامِسة لم يستقبَله أفراد الحاشية بحفاوةٍ لدى علمهم بالرّسالة التي أُوكِلَت إليه. فالأميرة دامِسة، هذه الحبشيّة، كانَ يَحْدوها حبّ غير مسبوق للانتقام. رأت أنّ تلك الرّسالة التي تعلن أنّ الأمير في حلّ من الزّواج بها تنمّ عن حقارة ووقاحَة لا حدود لها. كانت قد رأت رَسْمَ الأمير فشغفت به، وحين تتعاطى الحبشيّات بشؤون الحبّ فإنّهنّ يُحببنَ بأغرب من النساء الأخريات.

---

(1) الشوكلة هي الشّوكة او العوسجة، وقد اخترنا هذا الاسم رغمَ ندرة استخدامه لتناغمه مع المفردة «قرنفلة»، اسم الوصيفة الثانية. ويلاحظ القارئ سلبيّة الاسم «شوكلة» وإيجابيّة الاسم «قرنفلة»، وهو تضادّ مقصود من لدن الكاتبة للإشارة إلى تناقض طبعَي الوصيفتين.

قالت:

- ماذا تقول يا سيّدي الرّسول؟ أو يظنّ أميرك أنّني لست ثريّة أو جميلة بما يكفي؟ تستطيع أن تتجوّل في ولاياتي وتجد أنّها متَرامِيَة الأطراف. اذهب إلى خزينة المملكة وستَرى ذهَباً أوفَرَ ممّا تعطيه مناجِمُ البيرو. وانظر أخيراً إلى سوادِ بشرتي، انظر إلى هذا الأنف الأفطَس والشّفتين المكتنزتين، أليْسَ هذا هوَ الجمال بعينه؟

أجابها الرّسول الذي كان يخشى القرع بالعَصا أكثر منَ الخوف الذي يعْتَري أولئك المرسلين إلى الباب العالي[1]:

- ألوم سيّدي على موقفه بقدر ما يحقّ لفردٍ منَ الرّعايا أن يفعل. لو أنّ السّماء نَصّبَتْني على أكبر عرشٍ في العالم لعرفت لمَن أقدّمه.

قالت:

- هذا الكلام سينقذ حياتك. كنت صمّمت على أن أبدأ انتقامي بك. لكنّ ذلك سيكون ظلماً من جانبي فأنت لست السّبب في تصرّف أميرك الشّائن. اذهب وقل له إنّه من دواعي سروري أن يقطع علاقته بي لأنّني لا أحبّ النّاس الغشّاشين.

كان جُلُّ ما يتمنّاه الرّسول هو رحيله بأسرع وقت ممكن.

لكنّ الحبشيّة التي آلَمَها الأذى الكبير الذي سبّبه لها الأمير محارب لم تستطع مسامحته. صعَدَت على متن عربةٍ منَ العاج تجرّها ستّ نعامات، قادرة على اجتياز مسافة عشرة فراسخ في السّاعة، وذهبت إلى قصر جنيّة النّبع التي كانت عرّابتها وصديقتها المفضّلة. رَوّت لها ما جَرى معها وتوسّلت إليها بإلحاح كبير أن تساعدها في إرواء غليل ضغينتها. رقّت الجنيّة لألم ابنتها الرّوحيةّ واستشارَت الكتاب الذي يعرف كلّ شيء فأدْرَكَت في الحال أنّ الأمير محارب لم يترك الأميرة

---

(1) الباب العالي: قصر معروف في أسطنبول كان مركز حُكم السّلاطين العثمانيّين.

دامِسة إلاّ لأنّه مغرَم بالأميرة محبوبة التي كان يُحِبّها بجنون وكان مريضاً من جرّاء لوعته وتلهّفه إلى رؤيتها. أجّجَت هذه المعلومة من غضبها الذي كان شبه خامد. وبما أنّها لم ترَ الأميرة منذ ولادتها فإنّ هذا جعلها غافلة عن التسبّب لها بأذىً لو لم تتوسّل إليها دامسة المنتقمة لتؤازرَها في مسْعاها.

هتفت:

- ماذا تقولين؟ هل في نيّة هذه البائسة محبوبة أن تثير دوماً استيائي؟ لا، لن أسمح لها أيّتها الأميرة الفاتنة. لا يا حلوتي، لن أحتمِلَ أن توجّه إليكِ مثل هذه الإهانة. السّموات والعناصر جميعها معنيّة بهذه القضيّة. عودي إلى ديارِك واتّكلي على عرّابتكِ العزيزة.

شكَرَتها الأميرة دامِسة وقدّمت لها هدايا من أزهار وثمار فقبلتها بسرور كبير.

كان السّفير تيّان يتقدّم بأقصى سرعته إلى المدينة الرئيسة حيث يقيمُ والد محبوبة. ارتمى عند قدمَي الملك والملكة ذارِفاً أحرّ الدّموع وقال لهما بعبارات مؤثّرةٍ جدّاً إنّ الأمير محارب يُحتضَر وسيموتُ إن هما أرجآ لقاءَ الأميرة به. لم يعد أمام الأميرة إلاّ ثلاثة أشهرٍ لتبلغَ سنّ الخامسة عشرة، ولا يمكن أن يحدث لها شيءٌ بغيضٌ في هذه المدّة القصيرة جدّاً. ثمّ إنّه سمح لنفسه بتحذيرهما من وثوقهما بكلام الجنيّات السّخيفات لأنّه يسيء إلى الجلالة الملكيّة. وأخيراً ختم كلامَه بخطبَةٍ في منتهى البلاغة لا سيّما وأنّه مُنحَ موهبَة الإقناع. بكى الملك والملكة إذ تصوّرا الحالَ التّعيسة التي آلَ إليها الأمير الشابّ. قالا للرّسول أن يمْهِلَهما بضعة أيّام ليحزِما أمرهما ويتّخذا القرار الملائم. فأجابهما إنّه لا يستطيع إمهالهما إلاّ بضعَ ساعاتٍ لأنّ سيّده كان على آخر رمَقٍ لظنّه أنَ الأميرة تكرهه وتتقصّد إرجاء سفَرِها. فما كان

من الملك والملكة إلاّ أن طيّبا خاطر الرّسول قائلينَ له إنّه هذا المساء سيُعلمانه بقرارهما الحاسم.

هُرِعَت الملكة إلى قصر ابنتها. روَت لها كلّ ما حدث. وعندئذٍ شعرت محبوبة بألم يعتصر قلبها ما أفقَدَها وعيَها. وإذ ذاكَ أدركَت الملكة عمق المشاعر التي تكنّها للأمير.

قالت لها:

- لا تغتمّي يا عزيزتي. شفاؤه في يدك. لكنّي قلقة فقط منَ التّهديدات التي توعّدت بها جنيّة النّبع لدى ولادتك.

أجابتها:

- مولاتي، أظنّ أنّه بإمكاننا بحيلَةٍ ما أن نخدَعَ الجنيّة الشرّيرة. ألا أستطيع الرّحيلِ مثلاً في عربة مقفلة تماماً محجوبة عن ضوء النّهار، وتُفتح فقط ليلاً ليقدّم لنا الطّعام. وهكذا أصِل بخيرٍ إلى ديار الأمير محارب.

أعْجِبَت الملكة كثيراً بهذا الاقتراح. أطلعت الملك عليه فاستحسنَه أيضاً. سارعَ للإرسالِ بطلَب تيّان وأكّد له أنّ الأميرة ستنطلق في أقرب فرصةٍ ممكِنة. فما كان عليه إلاّ العودة وتبليغ سيّده هذه البشارة السّعيدة. وإمعاناً منه في تسريع رحيله، سيغضّ الملك النّظر عن تجهيزه بالموكب اللاّزم والثّياب الفاخرة التي تليق بمقامه. طار الرَسول فرَحاً وارتمى عند أقدام جلالتَي الملك والملكة على سبيل الشّكر. ثمّ انطلق دون أن يرى الأميرة.

لوْ أنّ الأميرة لم تُخطر للذّهاب إلى الأمير بهذه السّرعة لكان بدا لها افتراقها عن الملك والملكة أمراً لا يُحتمَل. لكن ثمّة مشاعر تطغى أحياناً على مشاعر أخرى وتئدها. جهّزوا لها عربةً مصنوعةً منَ المخملِ الأخضر منَ الخارج ومزيَنة منَ الدّاخل بالدّيباج الفضيّ

المطرّز بالورديّ. لم تكن فيها أيّة مرآة وكانت العربة فسيحةً جدّاً ومحْكَمة الإقفال وكأنّها علبة. أوكِلت إلى سيّدٍ من نخبَةِ الأشرافِ في المملكةِ مهمّة فتحِ الأقفالِ التي أوصدت بها الأبواب.

من حولها كنت ترى ربّات الحُسن
ومَعَهُنّ الضّحكات والمُتع واللّهو
وكذلكَ ملائكة الحبّ
سارعَت بإجلالٍ تتبع خطاها.

كان منظرها مُهيباً
وبرِقّتِها السّماويّة
كانت تجتذب الأماني كلّها
والبقيّة تأتي.

كانت تلتَمِعُ بالسِّحر نفسه
الذي كان لأديلاييد[1]
حين كان الزّواج لها مُرشداً
وقصَدَت تلكَ الأمْكِنَة لِتُوَطّدَ السَلام.

عُيّنَ القليل منَ الضبّاط لمُرافقتِها تجنّباً لأيّ إبطاءٍ قد تتسبّب به حاشية كبيرة في سير الموكب. وبعد أن مُنِحَت أجمل حجارةٍ كريمةٍ في

(1) سبقت الإشارة إليها. يتعلّق الأمر بزواج ماري–أديلاييد، دوقة سافوا، بدوق بورغنده، حفيد ملك الفرنسيّين لويس الرّابع عشر، على أثر توقيع معاهدة سلام بين فرنسا ومنطقة ماري–أديلاييد الأصليّة، بلاد السّافوا، التي كانت مستقلّة عن فرنسا وتشكّل اليوم جزءاً منها.

العالم وبعض الملابس النّفيسَة للغاية، وبعدَ مراسم الوداع التي كادت تجعل الملك والملكة وأفراد الحاشية يختنقون لكثرة البكاء، احْتُبِسَت الأميرة داخل العربة المظلمة مع كبيرة وصيفاتها وشوكلة وقرنفلة.

ربّما كنّا نسينا أنّ شوكلة لم تكن تحبّ الأميرة محبوبة، لكنّها كانت تعشق الأمير مُحارب ما إن رأت رسْمَه النّاطق. وكان سهمُ الحبّ الذي أصابها قد جرحها في الصّميم. ولذا فلدى إيذان ساعة الرّحيل، قالت لوالدتها إنّها ستموت لوْ تمّ هذا الزّواج، وإنّ عليها أن تجِدَ وسيلةً للحؤول دونه إذا أرادت أن تظلّ ابنتها على قيد الحياة. فقالت لها الأمّ ألاّ تحزن أبداً لأنّها ستسعى إلى التّخفيف من ألمها وجعْلِها سعيدة.

عندما أرسلت الملكة ابنتها الغالية إلى الأمير، أوْصَت تلك المرأة الشّريرة بأكثر ممّا يفترض قوله لها.

قالت لها:

- هذه الوديعَة الثّمينة هي بين يديك. إنّها أغلى من حياتي. اهتمّي بصحّة ابنتي ولتعْتني خاصّةً بأن تحولي بينها وبين ضوء النّهار وإلاّ لَضاع كلّ شيء من أيدينا. تعرفين ما هي الشّرور التي تتهدّدها. ولقد اتّفقتُ مع رسول الأمير محارب على أن يضعها في قصر لا ترى فيه النّور أبداً ما عدا نور الشّموع حتّى بلوغها سنّ الخامسة عشرة. وأغدَقَت الملكة على كبيرة الوصيفات الهدايا لكي تحثّها أكثر على التزام الدقّة. وعَدَتها هذه بأن تسْهَرَ على سلامة الأميرة وأن تعْلِمها بما يجري فورَ وصولهنّ.

وهكذا اتّكلَ الملك والملكة على رعاية كبيرة الوصيفات لابنتهما. ولم يعد هناك ما يقلقهما بخصوص ابنتهما الغالية. وساهم هذا في التخفيف منَ الألم الذي تسبّب به ابتعادها. لكنّ شوكلة كانت

تسأل كلّ مساءٍ الضبّاط الموضوعين في خدمة الأميرة حين يفتحون العربة ليقدّموا لهنّ الطّعامَ عن مدى اقترابهنّ من المدينة حيث الجميع بانتظار وصولهنّ. ولمّا علمت أنّ الموكب أوشك على الوصول حثّت والدتها على تنفيذ خطّتها قبل فوات الأوان. فلربّما كان الملك والأمير آتيين لاستقبالهنّ. وعند الظهيرة، وفيما كانت الشّمس تُصْلي بنارها، قطعت بضربةٍ واحدةٍ من سكّين كبيرة أحضرَتها عمْداً الطّبقةَ العليا منَ العربة حيث كنّ محتبَسات. وعندئذٍ، وللمرّة الأولى، رأت الأميرة محبوبة نور الشّمس. نظرَت إليها مُطلقة تنهيدة عميقة ثمّ خرجت منَ العَربة متحوّلة إلى ظبيَة بيضاء وراحَت تركض في الغابة المجاورة حيث تغلغلت في مكانٍ كثيف الأشجار وراحت تتحسّر، دون شهود، على هيئتها الفاتنة التي خسرَتْها للتوّ.

كانت جنيّة النبع تحرّك خيوط هذه المغامَرة الغريبة. وإذ رأت أنّ كلّ أولئك الذين كانوا يرافقون الأميرة انقسموا إلى فريق يريد اللّحاق بِها، وآخر ينوي الذّهاب إلى المدينة لإعلام الأمير محارب بالمأساة التي حدثت للتوّ، بدأت تتصرّف وكأنّها تريد أن تقلب نظام الطّبيعة، فأبرقت وأرعدت زارعةً الخوف في قلوبِ أشجعهم. وأبعَدتهم بمعرفتها العجيبة أبعَد ما يمكن عن مسرح الحَدث لكي لا يزعجها وجودهم.

لم يتبقّ هناك إلاّ كبيرة الوصيفات وشوكلة وقرنفلة. جرَت قرنفلة في أثرِ سيّدتها. وأخذت تَصْدَح باسمها فترَدّده الغابات والصّخور ممزوجاً بنحيبها. أمّا كبيرة الوصيفات وابنتها شوكلة فقد سُرَّتا لكونهما طليقتين ولم تتردّدا دقيقة واحدة لتنفّذا ما خطّطتا له. ارتدت شوكلة أفخر ملابس محبوبة. وكانت العباءة الملكيّة التي خيطَت لزواجها لا مثيل لجمالها، وقد زُيّنَ التّاج بألماسَتين أكبر من حجم قبضة اليد

بمرّتين أو ثلاث، وقُدّ صوْلَجانُها من ياقوتةٍ واحدة. والكرة التي تحملها في اليد الأخرى مصنوعة من لؤلؤة أضخم من حجم الرأس. كان كلّ هذا نادراً وحِمْلُهُ ثقيلاً. لكن توجّبَ على شوكلة أن تقنع الآخرين بأنّها الأميرة وأنّها لم تُهْمل شيئاً منَ الزّينَة الملكيّة.

وكانَ موكبُ شوكلة مؤلّفاً من أمّها التي حملت وراءها ذيل عباءتها. سارَتا نحو المدينة.

مشَت الأميرة المزيّفة بوَقار، موفورة الثقة بأنّهم كانوا آتين لاستقبالها. وبالفعل لم تكَد شوكلة ووالدتها تتقدّمان حتّى لمحتا جحْفَلاً من الخيّالة في وسطه مَحْمِلانِ يلتمِعانِ بالذّهب والأحجار الكريمة، موضوعانِ على أفراسٍ تزيّنها قنزعات طويلة منَ الرّيش الأخضر (لأنّ الأخضر هوَ اللّون المفضّل عند الأميرة). كان الملك على محمل والأمير المريض على الآخر، لكنّهما لم يَعرفا من تكون هاتان المرأتان المتوجّهتان نحوهما. راح الفرسان المعجّلون يَعْدون باتّجاههما وظنّوا، نظراً لجمال ثيابهما، أنّهما شخصان مميّزان بكلّ تأكيد. ترجّل الفرسان وتحدّثوا معهما باحترام.

قالت لهم شوكلة:

- هل تتفضّلان وتقولان لي لِمَن هذان المَحْمِلان؟

فأجابوها:

- سيّدتي، إنّهما الملك والأمير ابنه اللّذان جاءا لِلقاءِ الأميرةِ محبوبة.

أضافت قائلة:

- هيّا، أرجوكم اذهبوا وقولوا لهما إنّها هي بذاتها أمامهما. ثمّة جنيّة غيورَة من سعادَتي فرّقَت كلّ مَن كانوا يرافقونني بمائة ضربة رعدٍ وبرقٍ وخوارقَ مدهشة. لكن ها هي وصيفتي الحميمة وقد أوْكِلَتْ إليها رَسائل المَلك أبي، وعُهِدت إليها حجارتي الكريمة.

وللحال قبّل الفرسان أسفلَ ثوبها وذهبوا بأقصى سُرعتهم كي يُعلنوا للملك أنّ الأميرة كانت على وشَكِ الوصول.
هتف قائلاً:
- عجباً! كيف تأتي سَيْراً على القدمين في وضح النّهار! وأخبروه بما قالت لهم، فأضاف الأمير المتحرّق شوقاً لِلقائها:
- اعترِفوا بأنّها آية في الجمال، قولوا إنّها معجزة، إنّها كاملة الأوصاف!
لم يُجيبوه بشيء. تفاجَأ الملك من صمتهم.
قال:
- يظهر أنّكم عاجزون عن مدْحِها لفرْطِ جمالها، ولذا تفضّلون السّكوت بالطّبع.
قال الفارس الأكثر جَسارة بينهم:
- مولاي، يبدو أنّ تعَبَ السّفر أنهكها وبدّل ملامحها.
مَكَثَ الأمير منْدَهِشاً. لو أنّه كانَ أقلّ وهناً لَنَزَلَ عن محْملهِ لنَفادِ صبرِهِ وإرضاءً لفضوله. نزلَ الملك عن محمَله وتقدّم مع أفراد الحاشية لموافاة الأميرة المزيّفة؛ لكن ما إن وقَعَ نظرُهُ عليها حتّى صرخ بصوتٍ عالٍ متراجعاً بضع خطوات.
قال:
- يا للخطْب! ماذا أرى! لقد خُدِعْنا!
فقالت كبيرة الوصيفات وهي تتقدّم منه بجرأة:
- مولاي، هذه هي الأميرة محبوبة، وفي حوزتي رسائل بعثَ بها الملك والملكة. وأسلّمكما أيضاً صندوق الجواهر الذي حمّلوني إيّاه لدى رحيلي.
احتفظ الملك حيال كلّ ذلك بصمتٍ كئيب. والأمير المستند إلى

تيّان اقترب من شوكلة. آه! أيّتها السّماء! ماذا أصبحت حاله عندما نظر إلى تلك الفتاة التي أثار طولُ قامتها الخارقُ الخوفَ في نفسه. كانت ملابس الأميرة لا تكاد تصل إلى ركبتيها، وكان نحولها مخيفاً وأنفها معقوفاً كمنقار الببّغاء وشديد الاحمرار. كانت أسنانها سوداء وغير منتظمة إلى حدّ راعب. وأخيراً، كانت قبيحَة بقدرِ ما كانت الأميرة محبوبة جميلة.

مكثَ الأمير الذي كان تفكيره مأخوذاً بأميرته مندهشاً وجامداً أمام تلك الفتاة. عجز عن التفوّهِ بكلمةٍ واحدة. كان ينظرُ إليها بدهشة، وفيما بعد توجّه إلى الملك قائلاً:

- لقد خُدعتُ! ذاك الرّسم الرّائع الذي سَلَبَني حريّتي لا علاقة له بالفتاة التي أرسلوها إلينا. لقد سعوا لتضليلنا ونجحوا في ذلك. سيكلّفني الأمر حياتي.

قالت شوكلة:

- ماذا تعني بذلك يا مولاي؟ هل تقصد أنّنا سَعَيْنا لخداعك؟ اعلَم أنّكَ لن تكونَ مخدوعاً أبداً إن تزوّجتني.

لم يكن لِوَقاحَتِها واعتزازها بنفسها مثيل. وكانت أمّها تزايد عليها قائلة:

- آه! يا أميرتي الحلوة! إلى أين جئنا؟ أهكذا تُستقبلُ أميرة من مقامك؟ يا للغدر! يا لقلّةِ الأدب! سيعرف الملكُ والدك كيف يتصرّف حِيالَ هذا الاستقبال.

أجاب الملك:

- بل نحن الذين سنبادر للتّصرّف. لقد وُعِدْنا بأميرةٍ جميلةٍ وها هوَ يُرسل إلينا هيكلاً عظميّاً ومومياء مخيفة. لم أعد متعجِّباً من احتفاظه بهذا الكنز الجميل وإخفائهِ لمدّةِ خمسة عشر عاماً. كان يريد

التّغريرَ بمغفّلٍ ما. ووقعَ القدَر علينا. لكن بإمكاننا الانتقام لشرفنا.

هتفت الأميرة المزيّفة:

- يا للإهانَة! كم أنا تعيسة الحظّ لأنّني جئت التزاماً منّي بكلام هؤلاء النّاس! أيّ خطأ في أن نَرسُمَ أنفسَنا أجملَ بقليلٍ ممّا نحن: أليس هذا ما يحدث كلّ يوم؟ لو كان الأمراء يصْرفون خطيباتهم لهذا السّبب لَما كانَ تزوّج إلاّ قلّة منهم.

أخذ الغضب بالملك والأمير كلّ مأخَذ فلم يُجيبا بشيء. صعَدَ كلّ منهما مجدّداً إلى محْمَلِه. ومن دون أيّة مراسِم احتفاليّة، أجلسَ أحد حرّاس الملك الأميرة خلفه على الحصان، وكذلك فعَلوا مع الوصيفة واقتيدَتا إلى المدينَة بأمرٍ منَ الملك واحْتُبِسَتا في قصر الأسنّة الثلاثة.

شعر الأمير محارب بالإرهاق نتيجة الخدعة التي دبّرَت له، فكَتَمَ كلّ حزنِهِ في قلبِه. وعندَما استرجَعَ القوّة ليَشكو حاله أخذ يستفيض في الكلام عن حظّه المنكود. وما الذي لم يقُلْه بهذا الشّأن! كان لا يزال عاشقاً ولم يكن من موضوع لشغفه إلاّ مجرّد صورة. ذهبت آماله أدراجَ الرّياح وكلّ الأفكارِ الجميلةِ السّاحرةِ بخصوص الأميرة محبوبة كانت أضغاث أحلام. أولى به أن يموتَ من أن يتزوّج تلك التي ظنّ أنّها هي. شعر أنْ ليسَ لِيَأسِهِ حدودٌ ولم يعد بإمكانِه التسبّب بالألَمِ لأهل البلاط فعَقدَ العزْمَ، ما إن يستعيد عافيته، على الرَحيل خفيَةً والذّهاب إلى مكان منعزل لقضاءِ ما تبقّى من حياتِه التعسة.

لم يبحْ بخطّته إلاّ لصديقه المخلص تيّان. كان مقتنعاً أنّه سيتبَعُهُ إلى كلّ مكان، ولقد اختاره لكي يتحدّث إليه أكثر من أيّ شخصٍ آخر عن الخدعة التي دبّرَت له. ما إن بدأت حاله بالتحسّن حتّى رحَلَ تارِكاً رسالةً طويلة للملك على الطاولةِ في ديوانِه، يطمئنه فيها أنّه سيعود قربه عندما يهدأ روعُهُ قليلاً. لكنّه توسّل إليه، ريثما يعود، أن

يخطّط لانتقامهما المشترك ويُبْقي لدَيه الأسيرَة القبيحَة.

يَسْهُلُ تصوّر الحزن الذي أصابَ الملك لدى تلقّيهِ تلك الرّسالة. شعرَ أنّ افترِاقهُ عن ابنه الذي يحبّه حبّاً جمّاً سيتسبّب بموته. وفيما كانَ الجميعُ منشغلاً بمواساته، كان الأميرُ وصديقه تيّان يمضيان قدُماً في رحلتِهما. بعد ثلاثةِ أيّام وجدا نفسَيْهما في غابةٍ شاسعةٍ قاتمةٍ لكثافةِ أشجارها، وظريفة جدّاً لنضارَةِ أعشابها والجداول التي تجري فيها من كلّ ناحيَة.

ترجَّلَ الملك عن حصانه، وقد أتعبَهُ السّفر الطّويل، فهوَ كان ما يزال مريضاً، وارتَمى على الأرض أسيانَ واضعاً يديه تحت رأسهِ وغير قادرٍ على الكلام لشعوره بالوهن الشّديد.

قال تيّان:

- مولاي، أثناء استراحتك، سآتيكَ ببعضِ الثّمارِ ترطّب بها حلقك وأستكشف قليلاً المكان الذي نزلنا فيه.

لم يجبْه الأمير بشيء. أشارَ له بإيماءةٍ من رأسهِ أنّه يستطيعُ القيامَ بذلك.

مرّ وقت طويل على ترْكِنا الظّبيةَ في الغابة، وأقصد الكلامَ عن الأميرةِ التي لا مثيلَ لها. بكت كَظبية يائسة عندما لمحت وجهها في مرآة الينبوع. قالت: «ماذا! هذه أنا! إنّني أعيش أغربَ مغامرةٍ قُدِّرَ لَملكةِ الجنيّاتِ أن تدبِّرَها لأميرةٍ بريئةٍ مثلي! كم سيدومُ امتساخي؟ أين أختبئ كي لا تلتهمَني الأُسود والدّببة والذّئاب؟ كيف بإمكاني أن أرْعى العشب؟» وأخيراً طرَحَت على نفسِها ألفَ سؤالٍ وشعرت بعاصفةٍ منَ الألم تجتاح كيانَها. الشّيء الوحيدُ الذي كان يُواسيها قليلاً هوَ أنّ جمالها كَظبيَة يوازي جمالها كأميرة.

بعد أن أمضّها الجوع، رَعَت محبوبة العشب بشهيّةٍ كبيرَة وَدُهِشت

من قدْرَتها على ذلك. ثمّ اضطّجَعَت على فراشٍ من الطّحالب. داهَمَها اللّيل فأمْضَته بخوفٍ لا مثيل له. سَمِعَت الضّواري تزأرُ قربَها وأحياناً كانت تنسى أنّها ظبية وتحاولُ تسلّق الأشجار. طمأنها ضوءُ النّهار قليلاً. أعجبت بجماله وبَدَت لها الشّمس أمْراً رائعاً، ولم تكن تملّ منَ النّظر إليها. كلّ ما سمعته عنها بدا أقلّ روعةً بكثير ممّا كانت تراه. هذه هيَ التّعزية الوحيدة في ذلك المكان المُقفِر. بقيت وحْدَها بضعَة أيّام.

لكنّ الجنيّة توليب، التي كانت تكنّ للأميرة مودّة كبيرة، تعاطفت مع ألمها رغم استيائها الشّديد منها ومن أمّها الملكة لأنّهما لم تكترثا بما قالته عندما حذّرَتهما مراراً عن عدم وجوبِ رحيلِ الأميرة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة، لأنّها ستجدُ نفسَها في ورطة لا يستهان بها. ومع ذلك، لم تشأ أن تتركها وحدَها في مواجهةِ فَوْراتِ الغضب المسْعورِ لجنيّة النبع، وكانت هي منْ قادَت خطواتِ قرنفلة إلى الغابة لكي تستطيع هذه الصّديقة الحَميمة أن تعزّيَها في محْنَتِها.

كانت تلك الظّبية الجميلة تتهادى على ضفّة الجَدول عندما عَجزت قرنفلة عن متابعة المَسير واضطجعَت هناكَ لترتاح. كانت حزينة واحتارت في الوجهةِ التي يجب اتّخاذُها لكي تعثرَ على أميرَتِها الغالية. لَمَحتها الظّبيَة فوثبت بقفزَةٍ واحدةٍ الجدولَ العريض والعميق مرتميَة على قرنفلة وأخذت تداعِبها دونَ توقّف. دُهِشَت قرنفلَة من تصرّف الظّبية وتساءلت وهي في حيرة من أمرها: هل تصادِق الحيوانات في هذه الأصقاع النّاسَ وتحمِل في داخلها مشاعرَ بشريّة أم أنّ هذه الظّبية تعرِفها؟ استغرَبَت أن تبادِرَ ظبيَة في الغابة للاحتفاء بها واستقبالها بكلّ ذلك اللّطف والحنوّ.

تأمّلتها مليّاً ودُهشَت لدى رؤيَتها دموعاً كبيرة تتدحرج من

عينيها. أدركَت أنّها الأميرة، صديقتها العزيزة. أمسكت قدميها وراحت تقبّلهما باحترام وحَنانٍ وكأنّها تقبّل يديها. تحدّثت إليها وعرفتْ أنّ شادن[1] (هذا هو الاسم الذي صارت تطلقه عليها كلّما رأتها في هيئة ظبية) تسمعها ولكنّها لا تستطيع أن تجيبها. وانهمرت الدّموع غزيرةً من عينَي شادن وقرنفلة وتضاعفت تنهّداتهما. عاهَدت قرنفلة سيّدتها بأنّها لن تتركها أبداً، وأومأت شادن بألف إشارةٍ صغيرةٍ من رأسها وعينيها مَفادُها أنّها ستكون مرتاحَةً جدّاً لأن تشارِكَها آلامَها، وبقيتا معظمَ النّهار سويّة. خشِيَت شادن من أن تكون المخلصة قرنفلة جائعة وتحتاج إلى شيء تأكله. اقتادتها إلى مكانٍ في الغابة حيث لاحَظت وجودَ ثمارٍ بريّةٍ طيّبة المذاق. تناولت منها كميّة كبيرة لأنّها تكاد تموت جوعاً. لكن بعد أن أنهَت وجبَتَها، انتابَها قلق كبيرٌ والسّبب أنّها لا تعرف أين بإمكانها إيجاد مكانٍ للنّوم. فهما لا تستطيعانِ البقاء وسط الغابة معرّضتينِ لكلِّ الأخطارِ المحتَمَلة.

قالت لها قرنفلة:

- لكنْ ألا تخافين أيّتها الظبيَة الفاتنة أن تمضي اللّيلة هنا؟

رَفعَت الظبية عينيها نحو السّماء متنهّدة.

أردفت قرنفلة:

- لكنّك تجوّلتِ حتّى الآن في قسم كبيرِ من هذه العزلةِ الشّاسعَة. أفلا يوجد بيوت صغيرة لأحدِ الفحّامينَ أو الحطّابينَ أو النُّسّاك؟

أشارَت شادن برأسها نفْياً.

هتفت قرنفلة:

- آه! أيّتها السّماء! هل سأبقى حتّى الغد على قيد الحياة؟ وإذا حالفني الحظّ وأمكنني تجنّب النّمور والدّببة فأنا متأكّدة من أنّ

---

(1) الشّادن ولد الظبية، تُقال للذّكر وللأنثى.

الخوف وحده كافٍ لقتلي. ولا تظنّي يا أميرتي الغالية أنّني نادِمَة على فقدانِ حياتي من أجلي أنا نفسي، فأنا أتحسّر على فقدانها لأجلك. يا ويلتاه، كيف أتركك في هذه الأمكنة دونَ أنيسٍ يواسيكِ! هل من حزنٍ أكبر من هذا؟

أخذت شادن تبكي وتشهق وكأنّها إنسان. أشفقت الجنيّة توليب عليها هي التي كانت تحبّها كثيراً. وبالرّغم من أنّها عَصَت أوامِرَها كانت هي حريصة مع ذلك على سلامتها فظهَرَت فجأةً وقالت لها:

- لا أريد أن ألومَك. تشقيني الحالُ التي أراكِ فيها.

قاطعَتها شادن وقرنفلة مرتميتين عند قدمَيها. الأولى قبّلت يَدَيها وَداعَبَتها طويلاً، والثّانية توسّلت إليها لكي ترفق بالأميرَة وتعيد لها هيئتها الطبيعيّة.

قالت توليب:

- الأمر لا يتعلّق بي. الجنيّة التي آذتها تملكُ الكثيرَ من القدرَة، لكنّي أستطيعُ أن أقصّر من مدّة عقوبتها وألطّف منها: ما إن يحلّ اللّيل حتّى تترك شادن هيئتها لتعودَ الأميرة، ولكن ما إن يلوح الفجر حتى تتحوّل من جديد وتجري راكضةً وسط السّهول والغابات كالظباء الأخرى.

كان أمراً لا يستَهانُ به أن تخلعَ ثوبَ الظّبية أثناء اللّيل. عبّرت شادن عن غبطَتِها بقفزاتٍ ونطنطاتٍ أفرحَت توليب.

قالت لهما:

- سِيرا قُدُماً في هذا الدّرب الضيّق وستجدانِ كوخاً نظيفاً جدّاً بالنّسبةِ لهذا المكانِ الرّيفيّ.

واختفَت ما إن أنْهَت كلامَها. انصاعَت قرنفلة لأوامرها وسارَت وشادِنَ في الطّريقِ أمامهما فوجَدَتا امرأةً عجوزاً جالسةً تحبك سلّة

من الأسلِ الرّفيع. حيّتها قرنفلة قائلة:

- من فضلك يا جدّتي هل يمكن أن أجِدَ غرفةً صغيرةً في كوخكِ أنزَوي فيها مع ظبيَتي؟

أجابت:

- نعم يا فتاتي الحلوة، سأمنحك خلوَة ها هنا، ادخلي وظبيَتَك.

واقتادَتها في الحال إلى غرفةٍ جميلَةٍ جدّاً محفوفة بخشب الكرز. فيها سريران من قماشِ القنّب الأبيض وشراشف ناعمَة جدّاً وشفّافة. بدا كلُّ شيء في الغرفة بسيطاً للغاية وملائماً لذَوقِ الأميرةِ التي استحسنَتها كما لم تستحسن شيئاً في حياتها.

ما إن وافى اللّيل، خلعت محبوبة ثوبَ الغزالة. أمطرت عزيزتها قرنفلة بالقُبُلات شاكرة إيّاها على العاطفة التي دفعَتها لتشارِكَها نصيبها منَ التّعاسة ووعَدَتْها بأن تردّ لها الجَميلَ ما إن تُنْهي فترَة عقوبَتِها وبأن توفّر لها كلّ أسباب السعادة.

جاءَت العجوز وقرَعَت على الباب برفق. ومن دونِ أن تدخلَ قدّمَت لقرنفلة ثماراً شهيّة أكلت منها الأميرة بلذّة كبيرة، ومن ثمّ خلدتا إلى النوم، وما إن طلَعَ الصّباح حتّى عادَت محبوبة ظبية وأخذت «تُخَرمِشُ» الباب لكي تفتَحَ لها قرنفلة. أظهَرَتا حسرَةً كبيرَةً لأنّهما مضطرتان للافتراق ولو لوقتٍ طويل، وانطلقت شادن إلى الغابة الكثيفة الأشجار وأخذت تركض على جَري عادَتها.

قُلْتُ آنِفاً إنّ الأميرَ محارب توقّف في الغابة وإنَّ تيّان صديقه أخذ يتجوّل فيها ليعثرَ على بعض الثّمار. كان الوقت قد تأخّر عندَ زيارتِهِ لبيتِ العجوزِ الصّغير، التي تحدّثتُ عنها. خاطبَها بتهذيب وسألها أشياءَ كان يحتاجُها لأجْلِ سيّدِهِ فهُرِعَت ومَلأت له سلّةً منها وأعطتهُ إيّاها.

قالت له:

- أخشى إن أنتَ أمضيتَ اللّيلة هنا في العَراء أن تتعرّض لحادثٍ أو لمَكْروه. أعرضُ عليكَ غرفةً وضيعَةً ولكنّها تقيكَ شرَّ الأسود.

شكرَها وقال لها إنّه كانَ برفقَةِ صديقٍ له وإنّه سيقترِحُ عليه المجيءَ إلى هنا. وعرفَ كيفَ يقنِعُ الأميرَ الذي تبِعَه للذّهابِ إلى بيت هذه العجوز. كانت لا تزال عند عتبةِ بابها. قادتهما بهدوء إلى غرفةٍ شبيهةٍ بتلكَ التي تشغلُها الأميرَة، وكانت قريبة جدّاً منها ولا يفصِل بينَهما إلاّ لوح خشبيّ.

أمْضى الأمير اللّيلة معَ همومِهِ المعهودَة. وما إن لاحَت أولى خيوط الشّمس عند نوافذِهِ حتّى نهض، ولكي يخفّف من حزنِهِ خرج إلى الغابةِ قائلاً لِتيّان إنّه يريد التنزّه وحيداً. مشى طويلاً على غير هدىً إلى أن وصلَ أخيراً إلى مكانٍ شاسعٍ مكسوّ بالأشجارِ والطّحالب. ولِلحالِ ظهَرت منه ظبيَة لم يستطعْ الامتناعَ عنَ اللّحاق بها. كان فيما مضى شغوفاً بالصّيد إلى أن شُغِلَ قلبُهُ بحبّ الأميرة. أخذ يطارد شادن المسكينة مُطلِقاً عليها السّهام وكادت تموت ذعْراً. لم تُصَب بأيّ جرح لأنّها كانت تحت حماية صديقتها توليب، وبالفعل تطلّب الأمر معونة جنيّة وإلاّ كانت قضت أجلَها تحت وَبالِ تلك السّهام المحْكمة. وهدّ أميرة الظّباء تعبٌ غير مسبوق لا سيّما وأنّها أوّل مطاردة تتعرّض لها. وأخيراً انعطفت في أحدِ المسالِكِ لحسْنِ الحَظّ وغابت عن أنظارِ الصيّاد الخطير الذي ألْفى نفسَه متعباً هوَ أيضاً فأقْلَعَ عن مطارَدَتِها.

وانقضى النّهار على هذا النحو واستقبلَت شادن بفَرَحٍ إيذانَ العودَةِ إلى غرفتِها فاتّجهت إلى المنزل حيث تنتظرُها قرنفلة بفارغِ الصّبر. ما إنْ دخَلت إلى غرفتِها حتّى ارتَمَت على السّرير لاهِثةً ومُتَعَرِّقة تماماً.

داعَبَتها قرنفلة كثيراً وتحرّقت لهْفةً لمعرِفة ماذا جرى لها. ثمّ اقترَب اللّيل وآذنَت السّاعة التي تعودُ فيها شادن أميرة. وعندئذٍ عانَقت صديقَتَها الأميرة وقالت لها:

– وا أسَفاه، ظَنَنْتُ أن ليسَ لديّ ما أخشاه إلاّ جنيّة النبع وضواري الغابات. طارَدَني اليوم صيّاد شابّ لم تتسنّ لي رؤيَته لأنّني كنت منشغلة بالفرار. انهال عليّ ألفُ سهم وكان ينتظرُني موتٌ محتوم. لا أعرف كيفَ نجوْتُ بمعجزة.

أجابت قرنفلة:

– يجب ألاّ تخرجي يا أميرَتي. اقضي في هذه الغرفة المدّة المحتومة لعقوبتك. سأذهب إلى المدينة الأقرب لكي أشتري لك كتباً تتسَلّينَ بها. سوف نقرأ معاً القصص الخرافيّة الجديدة التي كُتبت عن الجنيّات ونؤلّف الأشعار والأغاني.

أجابت الأميرة:

– مهلَكِ يا عزيزتي. يكفي أن أفكّر بالأمير محارب لكي أشغل نهاري بمتعة. لكنّ القدرةَ نفسها التي تحيلني أثناء النّهار إلى ظبية ترغمني على فعلِ ما تفعلُه الظِّباء: أن أركض وأقفز وآكلَ العشب مثلها. وفي تلك الأثناء تبدو لي الغرفة غير محتمَلة.

كانت تعِبَة منَ المطارِدَة فطلَبَت شيئاً تأكله ثمّ في الحال أغمضت عينيها الجميلتين حتّى طلوع الفجر. فتحوّلت ظبية وعادَت إلى الغابة.

أمّا الأمير فقد جاء في المساء لموافاةِ صديقه الأثير.

قال له:

– أمضيتُ الوقت وأنا أركض خلف أجملِ ظبية رأيتُها. أفلتَت منّي مائة مرّة بمهارةٍ عجيبَة. كنت أستهدِفُها بسِهامي الموجّهة ولا

أفهم كيف استطاعَت تدارُكَها. فورَ طلوع النّهار سأذهب للبحث عنها، وهذه المرّة لن أخطِئها أبداً.

وبالفعل، فإنّ هذا الأمير الشابّ، وقد أرادَ التحرّر من أفكارٍ بات يعتبرُها وهميّة، استحسنَ أن تشغله فكرة الصّيد فاتّجه عند الصّباح الباكر إلى المكان نفسه حيث كان قد وَجَدَ الغزالَة. لكنّها حاذَرَت بشدّة الذّهابَ إلى هناك لأنّها خشيَت أن يحصل معها ما حدث قبل يوم. التَفَتَ الأمير إلى كلّ النواحي باحثاً عنها. مشى طويلاً فازداد نشاطه وسُرّ لدى عثورِهِ على تفّاحٍ راق له لونه فقطفَ منه وأكلَ، ومن ثمّ استغرق في نوم عميق مُرْتَمِياً على العشبِ الغضّ تحت الأشجار حيث تواعدَ، علَى ما يبدو، ألفُ عصفور.

وفي أثناء نومِهِ، مَرّت ظبيتنا الخائفة، المتلهّفة للعثور على مكانٍ ناءٍ، بالقرب منَ المكانِ الذي رَقدَ فيه. لو انتبَهَت له مِنْ قبل لَلاذَت بالفِرار، لكنّها كانت قريبة جدّاً منه ولم تستطع الامتناعَ عن النظر إليه. غفْوَته طمْأنَتها فتملّت من ملامحه بقدرِ ما تشاء. يا للآلهة! ماذا صارَ بحالِها عندما عرفت الأمير؟ كانَ طيْفه السّاحر يسكن فكْرَها ما يجعلُ نسيانَه شاقّاً في ذلك الوقت القليل. أيّها الحبّ، ماذا تريد إذاً؟ هل يجب على شادن أن تعرّضَ حياتَها للخطر على يدِ عشيقِها؟ أجل، كانت تُعرّضُ حياتَها لهذا الخطر. لم يعد هناك من مجالٍ للتفكير بسلامَتها فاضطجعَت على بعدِ خطواتٍ منه، لم تستطع عيناها المفتونتان برؤيته أن تشيحا عنه لحظة واحدة. كانت تتنهّد وتطلق تأوّهات خافتة. وأخيراً تجاسَرت على الاقتراب منه أكثر وكانت تلامِسُه عندما استيقظ.

كانت دهشته كبيرة. لقد تعرّف على الظّبية ذاتها التي كان قد أجهدَ نفسه في مطاردتها وبحثَ عنها طويلاً. وبَدا له أمراً نادراً وغريباً أن

يراها بمثل تلك الأُلفة البادية عليها في تلك اللّحظة. ولكنّها لم تنتظرْ أن يقبض عليها، بل هربتْ بكلّ ما لديها من قوّة، وركضَ هو وراءها بكلِّ ما لديه من قوّة. بين الفينة والفينة، كانا يتوقّفان لاستعادة أنفاسهما، ذلك أنّ شادن كانت ما تزال مرهَقة من جرْيها في العشيّة، وهو لم يكن أقلّ إرهاقاً منها. لكنّ أكثر ما كان يبطئ فرارَ شادن هو، ويا للأسف! هل يجب قوله؟، هو مشقّة الابتعاد عن ذلك الذي جرَحَها بسِهام حبّهِ أكثر منَ النّبالِ التي رمَاها بها. كان يراها تلتفتُ غالباً إليه وكأنّها تسأله ما إذا كان يريدها أن تقضيَ تحت ضرباته. وعندما أوشك أن يوافيها، قامت بجهودٍ كبيرَة لتَلوذَ بالفِرار.

صاحَ بها:

- آه لو كانَ بإمكانك أن تسمعيني أيّتها الظّبية الصغيرة، لما تجنّبتِني. أحبّك. أريد أن أطعمَكِ وأعتني بك فأنتِ ساحِرَة.

كانَ الهواء يذهب بكلماته فلا تبلغ مسامِعَها.

وأخيراً، وبعدَ أن جالَت في كلّ أنحاء الغابة، لم يعد بإمكان ظبيتنا الرّكض فأبطَأت خطاها، وضاعف الأميرُ من ركضه وأدرَكَها بفرح لم يتصوّر أنّه قادرٌ عليه. رأى فعلاً كيف أنّها فقدَت كلّ قواها. اضطَجعت كبهيمَةٍ صغيرةٍ مسكينةٍ شبه ميّتة ولا تنتظر إلاّ أن ترى حياتها تنتهي على يدِ غالبِها. لكن، بدَلاً من أن يعاملَها بوحشيّة أخذ يداعبُها.

قال لها:

- أيّتها الظّبية الجميلة لا تخافي، أريد أن أصطحبكِ معي وأن تتبعيني إلى كلّ مكان.

قطَعَ عمْداً أغصاناً من الأشجار وفتَلَها بمهارَة ثمّ غطّاها بالطّحالب الخُضر ورَمى فيها بعض الورود التي نبَتَت في الجَنَبات

ثمّ أخذَ الظّبية بينَ ذراعيهِ مُسنِداً رأسه إلى عنقها وأضجَعَها برفقٍ على سرير الأغصانِ ذاك. جلس قربَها مفتّشاً بينَ الفينَة والأخرى عن أعشابٍ طريّةٍ قدّمَها لها وأكلتْها من يده.

تابعَ الأمير حديثَهُ إليها رغمَ اقتناعهِ أنّها لم تكن تسمعُه. ومع ذلك، ومهما تكن مُستَمْتِعَة برؤيَتِه، كانت قلِقة من دنوِّ اللّيل. قالت في نفسها: «ماذا سيحصلُ لو رآني أتغيَّر دفعةً واحدَة؟ سيَرْتَعِبُ من رؤيَتي ويهرُب منّي. وإذا لم يهرب، فما الذي لن أخشاه وأنا وحيدَة هكذا في هذه الغابة؟» وأخذت تفكّر باستمرارٍ بوَسيلةٍ للهَرَب إلى أن أفسَحَ لها المجالَ عن غير قصد: خاف أن تكونَ عطشانة فذهب لِيَرى أينَ بإمكانِهِ أن يَجِدَ جدْوَلاً ليَقودَها إليه. وفيما ذهَبَ ليبْحثَ، غافَلتْه بسرعَةٍ راكضةً إلى البيتِ الصّغيرِ حيث كانت قرنفلة بانتظارِها. وهناكَ ارتَمَت على سريرِها. هبطَ اللّيل وعادَت أميرَة. أخبَرَت قرنفلة عمّا جرى معها.

قالت لقرنفلة:

- أوَ تُصدّقينَ يا عزيزتي أنّ أميري محارب موجود في هذه الغابة. إنّه هوَ الذي يُطاردُني منذ يومين. وعندما أمسكَ بي، لم يكفّ عن مداعبتي. آه! كم أنّ الرّسم الذي جَلَبوه لي أقلّ جمالاً منه في الحَقيقَة! إنّه مائة مرةٍ أجمل. ورغمَ الاضطرابِ الذي يكتَنِفُ الصيّادينَ فهذا لم ينقص شيئاً من حسنِ طلعَتِهِ لا بل يزيدُه بهاءً لا يسَعُني أن أصِفَه لكِ. ألستُ تعيسَة لاضطراري إلى الهربِ من هذا الأمير، هو الذي اختاره لي أهلي زوجاً، هو الذي يحبّني وأُحبّه؟ لم يكن ينقصني إلاّ أن تناصبَني جنيّة شرّيرَة العَداء يومَ ولادَتي وتعكّرَ صفوَ كلّ أيّام حياتي.

وأخذت تبكي. واسَتْها قرنفلة وأخذت تعلّلها بالأمَل: عسى أن تتحوّل آلامُها إلى ملذّات.

عادَ الأمير إلى ظبيتِهِ الغالية بعد عثوره على نبعِ ماء. لكنّها لم تكن في المكانِ الذي تركَها فيه. بحثَ عنها دونَ جدوى في كلّ مكان وأحسّ أنّه ممتعِض منها كما لو كانت كائناً عاقلاً.

هتفَ:

– عجباً! ألن تكونَ لديّ إلاّ ذرائع لأشتكي من هذا الجنس اللّطيف المخادع الغدّار!

عاد إلى منزل السيّدة العجوز مُفعَماً بالكآبَة وروى لصديقه الحميم ما جَرى له معِ شادن متّهماً إيّاها بنكرانِ الجميل. لم يستطع تيّان إلاّ أن يبتسمَ حِيالَ غضبِ الأمير ومازحه ناصحاً إيّاه بأن يُعاقبَ الظبيَة حالَما يقابلها مجدّداً.

أجاب الأمير:

– هذا هو الهدف من بقائي هنا. ومن ثمّ نرحَل إلى مكانٍ أبعد.

طَلعَ النّهار وعادَت الأميرَةُ معَهُ ظبيةً بيضاء. لم تكن تعرِف ماذا ستفعل. هل تذهبُ إلى الأمكنةِ نفسها التي يتجوّل فيها الملك عادةً أم تأخذ طريقاً معاكسَة تماماً لِتتحاشاه. اختارَت الأمرَ الثاني وابتَعَدَت كثيراً. لكنّ الأميرَ الشابّ الذي كانَ مرهفاً مثلها خمّن الحيلة التي ستقوم بها واكتشف مكانَها في أعمقِ مكانٍ في الغابة. كانت في مأمَن عندما لمَحَته وفي الحال قفزَت فوقَ جنباتِ الشّوكِ. وكما لو أنّ خوفَها منه ازدادَ توَجّساً بسبب تحايُلِها عليه في اليوم السّابق، هربَت بأسرع منَ البرق ولكن أثناءَ تَجاوزِها أحَدَ المَسالك، كَمَنَ لها فصوّبَ عليها بإحكام واخترق سَهْمه جنبَها. أحسّت بألَمٍ رهيبٍ ولم يعد بإمكانِها الهرَب فَتهاوَت أرضاً.

أيّها الحبّ القاسي البَربَريّ، أينَ أنت؟ كيف تتركُ فتاةً بهذه الرّوعة تُجرَح على يدِ حَبيبِها الرّقيق!. مأساة حزينة مَحْتومَة أبرمت بها جنيّة

النّبع قصّة الحبّ هذه. اقتربَ الأميرُ من شادن وشعرَ بكبيرِ الأسى عندما رأى الدّم يسيل منها. قطفَ أعشاباً ولفّ بها ساقَها للتّخفيفِ من ألمِها واتّخذَ لها سريراً جديداً من أغصانِ الأشجار ثمّ أسندَ رأس شادن إلى ركبتَيه قائلاً لها:

- ألستِ أنتِ السّببَ أيّتها الطّائشة الصّغيرَة في كلّ ما حصَلَ لك؟ ماذا فعلتُ لكِ البارِحَة لكي تتركيني. لن تفعلي الشّيء نفسه اليوم، سأحملكِ.

لم تجب شادن بشيء. وماذا تُراها تقول. كانت على خطأٍ ولا تستطيعُ الكَلامَ، وإن لم يكن المخْطِئونَ مُلْزَمينَ بالصّمت دوماً. أخذ الأميرُ يداعِبُها دونَ توقّف.

قال لها:

- كمْ يؤلِمني أنّني جرحتكِ بسَهْمي. ستكْرَهينني فيما أريدُ أن تحبّيني.

مَن يسمَعه يظنّ أنّ جنيّاً خفيّاً يلْهِمُهُ كلّ ما يقوله لشادن. وأخيراً آذَنَت ساعة العودَة عندَ مضيفَتِهِ العجوز. حمَلَ صيدَه على ظهرِهِ وكانَ مرتبكاً كثيراً بين حملِهِ واقتيادِهِ، أو جرّهِ أحياناً. لم تكنْ شادن ترغَب إطلاقاً في الذّهابِ معه قائلة في نفسها: «ماذا سيصيرُ بحالي؟ هل سأكونُ بمفرَدي مع هذا الأمير! آه! حريٌّ بي أن أموت!». كانت تُرْخي بكلّ ثقلِها عليه متعمّدة إنهاكه فتصبّبَ عرَقاً وهدّهُ التّعب. ومع أنّ المسافَة لم تكن بعيدَةً عن المنزل الصّغير، إلاّ أنّه أحسّ فعلاً بأنّه يحتاجُ إلى مساعدةِ أحدِهم وإلاّ فلن يستطيعَ الوصول. ذهبَ بحثاً عن صديقه الوفيّ تيّان. وقبْلَ أن يترُكَ طريدَتَه أوْثَقَها بشرائطَ عدّة إلى جذعِ شجرَةٍ ليَحول دونَ هرَبِها.

وا أسفاه! مَن كانَ ليظنّ أنّ أجملَ أميرَةٍ في العالمِ سوفَ تُعامَلُ

يوماً بهذهِ الطّريقة وعلى يدِ أميرٍ متيَّم بها؟ حاوَلَت عبثاً أن تنزَعَ عنها الشّرائطَ لكنّ جهودَها جعَلَتِ الشّرائطَ أشدّ وثاقاً، وكانت على وشكِ أن تخنقَ نفسَها بأنشوطة كان هو نفسها صنعَها لسوء الحظّ. في تلك الأثناء خرجت قرنفلة لتتنَشّق قليلاً منَ الهواء بعْدَما ملّت من الاحتِباسِ في غرفتِها، ومرّت بالمكانِ حيث كانت الظَبيَة البيضاء تتخبّط. فماذا صارَ بحالِها عندَما رأت سيّدتَها العزيزة! سارَعَت كالمجنونَةِ لتَفُكّ الشّرائطَ المعقودَة في غير مكان. وأخيراً وصلَ الأمير برفْقَةِ تيّان عندما كانت قرنفلَة تَهُمُّ باصطحابِ الغزالةِ معها.

قال لها الأمير:

– مع جزيلِ الاحترام الذي أكنّه لكِ يا سيّدتي، اسمحي لي بأن أعترِضَ على سرِقتِكِ للغَزالة. لقد أصَبْتُها بسَهمي. إنّها لي، أحبّها. أرجوكِ، أريد أنَ أكونَ سيّدَها.

فأجابَته قرنفلة بتهذيب (وكانت جميلة المنظرِ وظريفة الرّوح):

– سيّدي، الظبيَة التي أمامَك هيَ لي قبلَ أَن تكونَ لك. أفْديها بحياتي ولا أتخلّى عنها. وإذا أردْتَ أن تتأكّد من أنّها تعرفني، أسألكَ أن تُعْطِيَها القليلَ منَ الحريّة لأثبِتَ لك ذلك. هيّا يا صغيرَتي، يا ظبيتي البيضاء، عانقيني.

وطوّقت شادن عنقَها.

– قبّلي خدّيَ الأيمَن.

فامتثَلَت.

– ألمسي صدري جهةَ القلب.

فجعلت قدَمَها هناك.

– تنهّدي.

فتنهّدَت. لم يعد من مجالٍ أمامَ الأمير ليشكّ بما قالته قرنفلة له.

قال لها بصدق:

- إنّها لكِ لكنّي أعترِف بأنّني أعيدُها لكِ على مَضَض.

وذَهبَت قرنفلَة في الحال برفقةِ ظبيَتِها.

كانتا تجْهلانِ أنّ الأمير يسكن في المنزل نفسه الذي التجَأتا إليه. تبِعَهما من مسافةٍ بعيدة، ومكث منذهِلاً حينَ رآهما تدخلانِ إلى منزل المرأة العجوز. لحقَ بهما بعدَ فترَةٍ قصيرَةٍ، ومدفوعاً بفضولِهِ للتّحرّي عن الظّبيَةِ البيضاء سألَها من تكون تلك الفتاة الشّابة. فأجابت إنّها لا تعرفها، وإنّها استقبَلْتها في المنزلِ مع غزالتها، وإنّها تدفع لها جيّداً وتعيش في وحدَة كبيرة. استعلَم تيّان عن مكانِ غرفتها فقالت له إنّها قريبة من غرفته وإنّ حاجزاً بسيطاً يفصِل بينَ غرفتيهما.

عندما انزوى الأمير في غرفته قال له صديقه الحميم إنّه المخدوع الأكبر بينَ الرّجال لأنّ تلك الفتاةَ كانت تقيمُ مع الأميرة محبوبة وقد رآها في القصر إبّانَ اضطلاعِهِ بمهمّتِه.

قال له الأمير:

- أيّ ذكرى مشؤومَة تعيدُ إلى خاطِري؟ وأيّة صدفة قذفتها إلى هذا المكان؟

أضاف تيّان:

- هذا ما أجهله يا سيّدي. لديّ رغبة في أن أراها أيضاً. وبما أنّ لوحاً خشبيّاً بسيطاً يفصل بيننا، فإنّي سأحْدث فيه ثقْباً.

قال الأمير بنبرَةٍ حزينَة:

- هذا فضولٌ غيرُ مجْدٍ.

ذلك أنّ كلمات تيّان أحيَتْ آلامه مجدّداً. فاتّجه إلى النّافذةِ المطلّةِ على الغابةِ، فتحها وطفق يحلم. في تلك الأثناء، كان تيّان يعمل على فتحِ فجوةٍ يستطيعُ عبْرَها رؤية الأميرة. رأى الأميرة السّاحِرَة ترتدي

ثوباً منَ البروكار الفضيّ الممزوجِ ببعضِ الأزهارِ المطرّزةِ بالذّهب والزمرّد. انسدل شعرها خصلاتٍ كثيفةً على أجمل صدرٍ في العالم وكانت سحنتُها تلتمع بألوانٍ حيّة تزيّنها عيناها الفاتنتان.

كانت قرنفلة ساجدةً على ركبتَيها أمامها تضمّد ذراعَها التي يسيل منها الدّم بغزارة. وبَدَت كلتاهما مرتبكتين بتضميدِ ذلك الجرح.

قالت لها الأميرة:

- دعيني أموت. سيكون الموت أجمل وأرقّ من هذه الحياة البائسة التي أعيش. نعم! أن أكون ظبيةَ طيلة النّهار، أن أرى ذلك الذي قُدّرْتُ له دونَ أن أكلّمَه، دونَ أن أرويَ له قصّتي المشؤومة. آه ليتكِ سمعتِ الكلمات المؤثّرة التي قالها لي وأنا ظبيَة. ما أعذَبَ نبرَةَ صوتهِ! ما أنْبَلَ تصرّفاتهِ وما أجمَلها! ينبغي أن ترثي لحالي أكثر ممّا تفعَلين الآن لأنّني لست في وضع يؤهّلني أن أوضّحَ له ما جرى لي.

لا يستطيع أحدٌ أن يصِفَ مقدارَ الدّهشةِ التي أصابَت تيّان لِما سمِعَه ورآه. هُرِعَ عند الأميرِ واجتذَبه عن النّافذةِ وهوَ يهلّل فرَحاً وابتِهاجاً.

قال له:

- يا سيّدي تعالَ وارم بنظرَةٍ عبرَ هذا اللّوحِ الخشبيّ، سوف ترى عندئذٍ النّسخةِ الأصليّة منَ الرّسم الذي فتنَكَ.

نظر الملك من الثّقب وتعرّف في الحال إلى أميرته. كان سَيُجَنّ منَ الفرَحِ لولا أنّه كان يفكّر في خشيةٍ بأنّ ما يراه في تلك اللّحظة ربّما كان نَتيجةَ سِحرٍ ما: إذ كيف يمكن التوفيق بين ذلك اللّقاء المذهل وبين شوكلة ووالدتها اللّتينِ كانتا محتجزَتينِ في قصر الأسنّة الثلاثة واللتين اتّخذتا الأولى اسم محبوبة والثانية لقب وصيفتِها؟

إلاّ أنّ شغفَه كانَ دليلاً له بحمّسه. فللإنسان مَيل طبيعيّ يدفَعهُ

للاقتناع بما يتمنّاه. وفي مثل هذه الظّروف يجب جلاء جميع الأمور الغامضةَ وإلاّ فالموتُ عن حُرقةٍ ونفادِ صَبر. ذهبَ الأمير في الحالِ وقرَعَ برفقٍ باب الغرفةِ حيث الأميرة. لم تكن قرنفلة تشكّ في أنّها المرأة العجوز تطرق الباب لأنّها كانت تحتاجُ إلى مساعدتِها في تضميدِ ذراعِ سيّدتها فسارَعَت لتفتحَ البابَ وبقيَت مندَهِشةً برؤية الأمير الذي أتى ليرتميَ عندَ قدميْ محبوبة. الفرحة التي عمّت كيانهما لم تسمح لهما بخوضِ حديثٍ متماسك. ومهما يكن الاهتمام الذي أظهَرْتُه لأسْتَعْلِمَ عمّا قالَه لها في هذه اللّحظاتِ الأولى، إلاّ أنّني لم أجد أحداً استطاعَ أن يشفي غليلي. ارتبَكت الأميرة في إجاباتِها لكنّ الحبّ، وهو غالباً وسيط البُكم، كان ثالثهُما؛ فجعلهما يعتقدان أنّه لم يسبق لعاشقين أن قالا كلماتٍ بهذا العُمق، أو على الأقلّ بهذه اللّطافة وبهذه الرقّة. جعلت الدموع والتنهّدات وعهود الحبّ، لا بل حتّى الابتسامات السّاحرَة، من ذلك اللّقاء لقاءً لا يُنْسى. تصرّم اللّيل على هذا النّحو وطلع النّهار دونَ أن يتغيّر شيءٌ في هيئةِ محبوبة أو تتحوّل إلى ظبيَة. انتبهَت إلى زوال اللّعنة وجُنّت فرَحاً. شاركَت الأمير تلك اللحظة السّعيدة وأخذت تروي عليه قصّتها بأناقة وفصاحَة طبيعيّة تفوقُ فصاحةَ أمْهَر الخطَباء.

هتف الأمير قائلاً:

- ماذا! أيُعْقَل يا أميرَتي الفاتِنَة أن أكونَ أنا الذي تسبّبَ في جرحكِ عندما كنتِ ظبيَة بيضاء! ماذا أفعَل لأكفّرَ عن جُرْمٍ بهذه الخطورة؟ هل يرضيك أن أموت ألماً أمام ناظرَيك؟

أضناه الحزن وبانَ استياؤهُ على وجهه. تألّمَت محبوبة لألمِه أكثر ممّا آلَمَها جرحُها. طمأنَتْه أنّ ذلك لم يكن بالأمرِ المهمّ، وأنّها لا تستطيع إلاّ أن تستحسن شرّاً أعقبه كلّ ذلك الخير.

كانت الطريقة التي تكلّمَت بها من اللّطف بحيث لم يعد يستطع الشكّ بِحُسْنِ نَواياها. ومن جهته، أرادَ أن يوضّحَ موقِفَه من كلّ الأمور فرَوى لها الخدعَة التي دبّرتها شوكلة ووالدتها مضيفاً أنّه يجب الإسراع في تبليغ والده الملك بالنّبأ السّعيد وهو عثوره على الأميرة. إذ كان الملك على أهبة الاستعداد لشنَّ حربٍ رهيبَة لردّ الإهانة التي وُجّهت إليه. توسّلت إليه محبوبة أن يكتبَ رسالةً إليه على وجه السّرعة ويبعثها مع تيّان. وعندما كان يَهمّ بالإنصياع لأمرِها، دوّت أصوات أبواقٍ وصنوجٍ وطبولٍ في الغابة. لكأنّها جَلَبَة حشدٍ كبيرٍ منَ النّاسِ يَعْبرونَ من أمام المنزل. نظرَ الأميرُ منَ النّافذةِ وتعرّفَ إلى ضبّاطٍ من جيشِهِ وراياتِهِ وحملةِ الرّايات. أمَرَهم بالتوقّف والتريّث ليوافيهم.

لدى رؤيَته جيشه سُرّ الأمير بهذه المفاجأة الرائعة وكان كلّ الجنود مقتنِعينَ بأنّه سيتولّى قيادتهم وينتقمُ من والدِ محبوبة.

كان الملك والد الأمير يقودهم بنفسه بالرّغم من كِبَرِ سنّه، مرفوعاً على محمَلٍ منَ المخمَل مطرّز بالذّهب. وكانَ المحْمَل متبوعاً بعرَبة مكشوفَةٍ تجلسُ فيها شوكلة ووالدتها. عندما رأى الأمير محارب المحْمَل هُرِعَ لِلقاءِ والدِه. مَدّ له الملك ذراعيهِ وقبّله معبّراً له بألف طريقةٍ عن حبّه الأبويّ.

هتف الملك:

- أينَ كنت يا بُنيّ العزيز؟ أيُعْقَل أن تجعلني نَهبَ الألم الذي سبّبَه لي غيابك؟

قال الملك:

- يا مولاي، اسمَعني من فضلك.

نزل الملك في الحال عن محْمَلِهِ ثمّ اختلَيا في مكانٍ منزَوٍ وأعلمَه

ولدَه باللقاء السّعيد الذي جَمَعَه بالأميرة، وبدناءةِ شوكلة.

سُرّ الملك بما سمعه ورفع يديه وعينيه نحوَ السّماء ليشكرها. وفي تلك اللّحظة رأى الأميرة محبوبة في أبهى حلّةٍ وأجمل من الكواكب مجتمِعَة. كانت تمْتَطي حِصاناً رائعاً يتقدّم رافعاً قائمتيه الأماميّتين ومستنداً إلى الخلفيّتين؛ تزيّن رأسه مائة ريشةٍ وتوشّي سرجه أكبر الألماسات في العالم. وكانت الأميرة ترتدي زيّ صيّاد. وقرنفلة التي تتبَعها لم تكن أقلّ تزيّناً منها. وكلّ ذلك بفضل رعاية الجنيّة توليب التي رتّبت كلّ شيءٍ بأناقة وذوق، بدءاً من منزل الخشب الذي بنته على شرف الأميرة واتّخذت فيه هيئة العجوز التي قدّمت لنزلائها الأطايب لأيّام عدّة. كما أنّ الجنيّة هي نفسها التي، ما إن تعرّف الأمير إلى جيشه وذهب إلى لقاء أبيه الملك حتّى دخلت إلى غرفة محبوبة ونفخت على ذراعها لتُشفيَ جرحَها ثمّ قدّمَت لها الثّياب الفاخرَة التي سترتديها في حضرَةِ الملك. ولقد مكث هذا الأخير حِيالَها مذهولاً بحيث شقّ عليه أن يصدّق أنّها من بني البشر. قال لها ألطَفَ الكلام الذي يمْكِن قوله في مناسبةٍ كتلك وتوسّل إليها أن تحمل المسرّةَ إلى قلوبَ رعاياه فتُولّى ملكَةً عليهم دونما إبطاء.

وأردَف:

- ذلكَ أنّني اتّخذت قراري بتسليمِ ممْلكَتي إلى الأمير محارب لكي أجعَلَه يليق بكِ أكثر.

فأجابته محبوبة بكلّ التهذيبِ المتوقّع من أميرة تلقّت تربيةً رفيعَة. ثمّ، إذ التفتَت إلى السّجينتَين اللّتَيْنِ كانتا في العربَة تسْترانِ وجهَيْهما بأيديهِما، آثَرت أن تسأله العفوَ عنهما وأن توضع العربة التي تستقلاّنِها تحت تصرّفِهما لإيصالهما حيثما تشاءان. استجابَ الملك لأمنيَتِها معجَباً بحِلْمِها ومثْنياً على أخلاقِها.

وأُعْطِيَت الأوامِرُ للجيشِ بأنْ يعودَ على عقبَيه. صعَدَ الأميرُ على الحِصان مُرافِقاً أميرَتَه الجميلَة.

واستُقْبِلا في المدينَة الرّئيسيّة بزغاريد الفرَح، وبدأت الاستعداداتُ ليوم العرسِ الذي ازدادَ أبّهةً بحضورِ الجنيّات الستّ الصالحات اللواَتي كُنّ يُحْبِبْنَ الأميرة وقدّمْنَ لها أغلى الهدايا التي يمكِنُ تصوّرُها. ومن بينِها ذاكَ القصر الرائع حيث كانت قد ذهبَت الملكة أمّ الأميرة لزيارَتِهنّ والذي لاحَ في الفضاءِ وقد حمله خمسونَ ألفِ ملاكٍ من ملائكَةِ الحبّ ثمّ وضعوهُ في سهلٍ جميلٍ على ضفّةِ نهر. ليس يمكن التقدّم بهدايا أثمن من تلك.

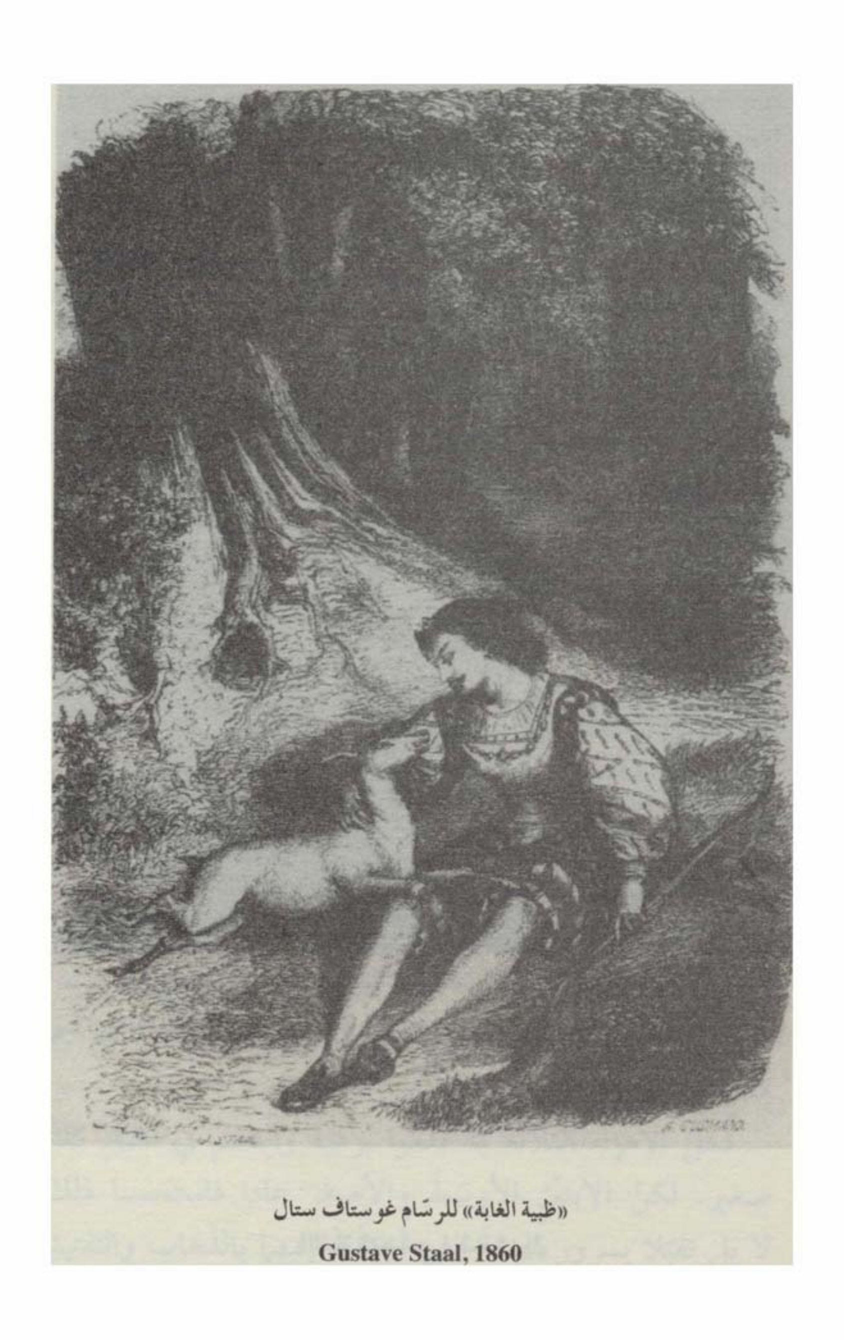
توسّلَ تيّان إلى مُعَلّمِهِ ليتحدّثَ إلى قرنفلَة، ويجمَعَه بها عندما يتزوّج الأميرة. فوافقَ الملك على طلبِهِ دونَ تردّد. وارتاحَت تلك الفتاة اللطيفَة لهذا التّدبير الذي ترافق مع وصولها إلى مملكةٍ غريبة. أمّا الجنيّة توليب فقد كانت أكثر سخاءً من أخواتِها وقدّمَت للأميرة أربعَة مناجم ذهب في الهند لكي تمنع على زوجها فرصة الادّعاء أنّه أغنى منها. ودامَ عرس الأمير شهوراً عديدة. وفي كلّ يوم كان يُقام حفل جديد. وتغنّى النّاس جميعاً بمغامرات الظبيَة البيضاء.

الأميرة المتحرّقة شوقاً
للخروج من تلك الأمكنة المظلمة
حيث أرادت جنيّة حكيمة
أن تحجب عنها ضياء السّموات،
المِحَن التي واجهتها وتحوُّلها إلى ظبية
أبانت عن الأخطار المُحدقة بالصبيّة اليافعة
حين تجرّأتْ ولمّا يصلبْ عودها بعد

على مجابهة العالم وشروره.

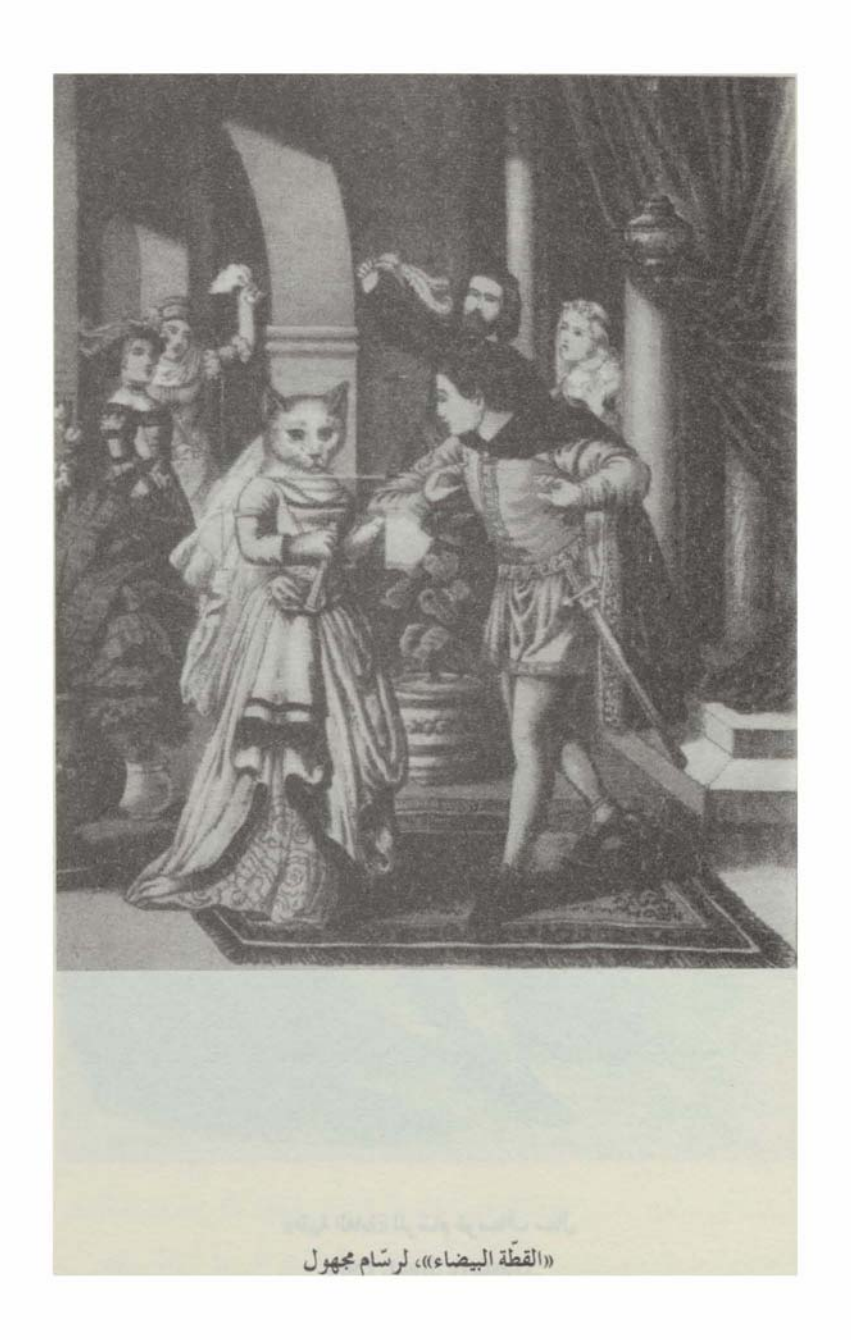
آه أنت يا من أغدق عليك الحبّ مفاتنَ دون حساب،
ووهبك الغوايةَ التي تأسرُ القلوب؛
للجمال جبروتٌ كالقدَر،
وليس في مستطاعك صدّه.

تحسب أنّك تدرأ عنك خطرَ الحبّ
بأن تجعل من نفسك معشوقاً لا عاشقاً،
لكن اعلمْ أنّ من يهب الحبّ
ينتهي به الأمر لا ريبَ إلى أن يُعطى له ويُزاد.



«ظبية الغابة» للرسّام غوستاف ستال

Gustave Staal, 1860



«القطّة البيضاء»، لرسّام مجهول

القطّة البيضاء

كان يا ما كان، كان هناكَ ملك لدَيه ثلاثة أبناء حَسَنِي الخلْقة وشجعاناً. خَشيَ الملك أن تتملّكَهم الرّغبة في الحُكم قبل وفاته، لا بل سَرَت بعضَ الشّائعات مَفادُها أنّهم كانوا يَسْعَوْنَ لكَسْبِ مُوالينَ لهم لكي يخْلَعوه عن العرش.

أَحسَّ الملك بأنّه يتقدّم في السنّ ولكنّ فكرَه وقدراته لم تتراجَع ولم يكن راغباً في أن يتنَحّى عن منصبِ يَشغله بجدارَةٍ كبيرَة. فكّرَ إذاً أنّ الوسيلَة الفُضْلى للعيش مرتاحاً هوَ أنْ يُلهِيهم بوعودٍ، وعند لزوم الحال سيعرِف دوْماً كيف يتمَلّص منها.

دَعاهم إلى ديوانِه، وبعدَ أن حَدّثَهم بكثيرٍ منَ اللّطف قال لهم:

- يا أبنائي الأعزّاء، إنّ سِنّي المتقدّمَة، كما ترون، لم تعد تسْمَح لي أن أولِيَ شؤونَ دولتي الاهتمام نفسَه الذي كنت أوليها إيّاه فيما مَضى. أخشى أن يعاني رعاياي من جرّاء أيّ تقاعس في واجباتي تجاههم. لِذا أريد أن أضع تاجي على رأسِ أحدٍ منكم؛ ولكن منَ العدْلِ، لقاءَ هذهِ المكافأة العظيمة، أن تبحَثوا عنِ وسائلَ لإرضائي وتسليتي، لا سِيّما وأنّني أرمي إلى الإنسحابِ والعيشِ في الرّيف. ويبدو لي أنّ كلْباً لَبِقاً وجَميلاً ووَفِيّاً سيَكون لي نِعْمَ الرّفيق. ولن أختارَ ابني الكبير بدَلاً منَ الأوْسَط أو الأصغر. أعلنُ لكم أنّ مَن يجلِبُ لي من ثلاثتِكم أجمَلَ كلب فسيكون وَريثي في الحال.

ذُهِلَ الأمراء الثلاثة لمّا علموا برغبة والِدهم في اقتِناءِ كلبٍ صغير. لكنّ الابنيْنِ الأوسَطَ والأصغرَ عادا فاستحسنا ذلك، لا بل تقبّلا بِسرورِ المهمّةَ التي أُوكِلَت إليهما بالذّهابِ والتفتيشِ

عن كلب. أمّا الابن الأكبر فكان يهاب والده ويخجل من المُطالبَة بحقوقه. وأخيراً استأذَن الثلاثة بالانصرافِ منَ الملك. أعطاهم مالاً وأحجاراً كريمَة وأضاف أنّ عليهم بعدَ سنةٍ العودَة دون تخلّفٍ في اليوم نفسِه والسّاعَة نفسها جالبينَ معهم كلابَهم الصّغيرَة. قبل الانطِلاقِ في رحلتهم، ذهبوا إلى أحدِ القصورِ وكانَ على بُعْدِ فرسَخ فقط منَ المدينَة. اصطحَبوا معهم إليه أصدقاءهم المقرّبينَ وأقاموا ولائمَ كبيرَة. وهناكَ تعاهَدَ الإخوة الثّلاثة على صداقةٍ أبَدِيّة، وعلى التصرّفِ إزاءَ المهمّة التي أوْكَلَ بها إليهم والِدهم دونَ غيرَةٍ ولا حسدٍ متبادلَين، وعلى أن يُشْرِكَ الأوفر حظّاً بينهم أخَوَيهِ في الحظوَة التي سيناها. ولدى انطَلاقهم اتّفقوا على التّلاقي عند عودَتهم في القصرِ نفسه ومنه يذهبون سويّة إلى الملك. لم يرغَبوا في أن يرافقَهم أحَد وغيّروا أسماءَهم إمعاناً في التّخفي.

وسارَ كلٌّ منهم في طريقه. خاضَ الأخَوان الكبير والأوسَط مغامَراتٍ كثيرَة لكنّي لن أهتَمّ إلاّ بمغامرات الابنِ الأصغر. كانَ ظريفاً ومَرِحاً ومبتَهِجاً، جميل الوجه، مهيبَ القامَة، متناسقَ الملامح، منتظِمَ الأسنان، وكان يمتلِك بإتقانٍ مدهشٍ جميعَ المهارات التي يفترض بأمير امتِلاكُها. كان يغنّي بطلاوَةٍ ويعزف على القيثارَة والونّ[1] برَشاقَة تأخذ الألبابَ ويتقن الرّسم. بكلمَةٍ واحدَة، كانَ كامِلَ الأوصاف. أمّا شجاعَته فتقارِب التهوّر.

لم يَمضِ يوم إلاّ واشترَى فيه كِلاباً من جميع الأصناف كبيرَة وصغيرَة، سلوقيّة وكلاب حراسَة من نوعِ الدّراويس وبوليسيّة وأخرى لِصَيدِ الوحوشِ والطّرائد، وكلاباً طويلة الوَبَر وقصيرَة القوائم. ما إن يَقتني كلْباً جميلاً حتّى يجِدَ آخرَ أجمَلَ منه فيتَخَلّى عن

(1) الونّ: صَنج يُضرَب بالأصابع.

الأوّل ويحتفظ بالثّاني، فهوَ يستَحيل عليه أن يصطَحِبَ وحَدَه ثلاثينَ أو أربعينَ ألف كلبٍ لا سِيّما وأنّه لم يكن يريد برِفقتِهِ لا أشرافاً ولا حرّاساً ولا خدّاماً. وهكذا سارَ قُدُماً في طَريقهِ على غيرِ هدىً إلى أن داهَمَه اللّيل في إحدى الغابات وكانت السّماء ترعد وتمطر.

فاتّخذ أوّل طريقٍ وَجَدَه، وبعدَ أن سارَ طويلاً، لَمَحَ نوراً خافِتاً، فأيْقنَ أنّ هنالكَ منزلاً قريباً يستطيع اللّجوء إليه حتّى يوم الغد. وظلّ مهتدِياً بالنّورِ الذي رآه حتّى وَصَلَ أمامَ باب أحدِ القصور، وكانَ أرْوَعَ قصرٍ رآه في حياته. كانَ من ذَهَب ومَكْسُوّاً بالعَقيقِ الأحمَر، وينير بضوئِه المتوقّد الصّافي الجوارَ كلّه. إنّه الضّوء الذي رآه الأمير من مسافة بعيدة جدّاً: كانت جدرانه منَ الخَزَف الصّينيّ الشفّاف الممزوجِ بألوانٍ عدّة ورُسِمَتْ عليها قصصُ جميع الجنيّات منذ ولادَة الكون: مغامَرات «جِلد الحمار»[1]، و«الأميرة رهيفة»[2]، و«شجرة البرتقال»[3]، و«الحسناء النّائمة في الغابة»[4] و«الأفعوان الأخضر»[5] ومائة قصّة أخرى. ظلّ الأمير مفتوناً بالتعرّف إلى الأمير عفريت[6] الذي كان أحد أعمامه غير المباشرين[7]. منَعَه المطر والطّقس السيّئ من التريّثِ أكثرَ في المكان إذ ألفى نفسه مبتلاًّ فيه حتّى العَظم. هذا عَدا أنّه لا يستطيع الرّؤيَة في الأمكنة التي لا يَصلُها وَهجُ العَقيق الأحمر.

---

(1) «جِلْد الحمار»: حكاية خرافيّة فرنسيّة كتبها شارل بيرّو عام 1694.

(2) «رهيفة أو فتاة الرّماد»: حكاية خرافيّة لماري–كاترين دونوا، من حكايات هذا الكتاب.

(3) من الحكايات الخرافيّة لماري–كاترين دونوا.

(4) «الحسناء النّائمَة في الغابة»: حكاية خرافيّة لشارل بيرو.

(5) «الأفعوان الأخضر»: حكاية خرافيّة لماري–كاترين دونوا.

(6) بطل حكاية خرافيّة لماري–كاترين دونوا، من حكايات هذا الكتاب وتحمل اسمه عنواناً.

(7) أي أنّه ابن عمّ أحد والدَي الشّخص المعنيّ، وهو ما تدعوه الكاتبة حرْفيّاً: «عمّ على الطريقة البروتانيّة»، نسبةً إلى منطقة البروتاني الفرنسيّة.

عادَ إلى البابِ المذهّب ورأى قائمَة ظبيٍ معلّقَة إلى سلسلة كلّها من ألماس. أعجبتَه تلك الزّينة الفاخرة وشَعَرَ بالأمان الذي يعيش في كَنَفه سكّان القصر لأنّه يَسْهُل على السّارِقين المجيء وانتزاع السّلسلة الماسِيّة وأحجار العقيق، لأنّهم لو فعَلوا ذلك لاغتَنوا إلى الأبد.

جَذَبَ قائِمَة الظّبي ولِلحال سمِعَ رنينَ جرسٍ بَدا له أنّه من ذهَبٍ أو من فضّة تبعاً للصّوتِ الذي رجّعَه. وبعدَ قليلٍ فُتِحَ الباب، لم يرَ شيئاً أمامَه إلاّ دزينة منَ الأيدي تُمْسِك بمَشاعل. ذُهِلَ للمشهدِ وتردّد في الدّخول إلى أن أحَسّ بأيدٍ أخرى تدفعه بقوّةٍ منَ الخلفِ فدخلَ يُساوِرُهُ شعورٌ عارم بالقلق واضِعاً يدَه على مقبض سيفهِ تحَسّباً لكلّ مكروه. ولكن، حينَ ولج غرفة الملابس المطعّمَة بالحجَرِ السمّاقيّ واللاّزورد، سَمِعَ صوتينِ ينشِدانِ هذه الكلمات بنبرة ساحِرَة:

لا تكن مُرْتاباً بالأيدي التي تراها
ولا تخشَ في هذا المكان
إذا كان قلبك يريد التهرّب منَ الحبّ
إلاّ مفاتنَ وجهٍ جميل.

لم يستطع الظنّ سوءاً بهذه الدّعوَة. شعرَ أنّه مدفوع باتّجاه بابٍ منَ المرجان. فُتِحَ الباب ما إن اقتربَ منه. ثمّ دخلَ إلى صالونٍ مزدانٍ بعِرْقِ اللؤلؤ ومن بعدِه إلى غرَفٍ عدّة مزيّنة بطرقٍ مختلفةٍ وحافلة بالرّسوم والحجارة الكريمَة لدَرَجَة أنّ الدّهشة لم تفارقه قطّ خلال تجواله. كانت آلاف الشّموع معلّقة من قبّةِ الصّالون وحتّى الأسفل وينير ضوؤها قسماً منَ الأجنحَة الأخرى المليئة هيَ أيضاً بالثريّات والشّماعد المزخرَفَة والرّفوف المكسوّة بالشّموع. وكلّ ما حوله كانَ

منَ الرّوعَةِ بحيث تظنّه من صُنْع الخَيال.

وبعْدَ أن مرّ بستّينَ غرفة، أوْقَفَته الأيدي التي كانت تسَيّره. رأى كنبَة كبيرة مُريحَة اقترَبَت وَحْدَها منَ المدفأة. وفي الوقتِ نفسه، أضْرِمَت النّار في الموقد. راحَت الأيدي التي كانت في غاية الجمال، بيضاءَ، وصغيرَة، ومكتنزَة، ومتناسِقَة تُجَرّده من ثيابِه لأنّه كان مبتَلاً كما قلت سابِقاً، خشْيَة أن يُصابَ بالزّكام. وقُدّمَ له قميصٌ جميل وكأنّه مخصّص للزّفاف، ومبْذلٌ مذهّبٌ ومطرّزٌ بالزمرّد على شكلِ أرقام. قرّبَت الأيدي المجرّدة من الأجساد طاولةً باتّجاهه وقد وُضِعت عليها أدوات الزّينَة وكانت ولا أجْمَل. سَرّحَت الأيدي شعرَه برقّة ولَباقَة، وجعلته يشعر بالرّاحَة والرّضا ثمّ ألْبَسَتْه من جديدٍ ثياباً مختلفة عن ثيابه وأكثر ثراءً بكثير. كان معجباً بصمْتٍ بكلّ ما يجري رغمَ قشعريرة الخوفِ التي تنتابه بينَ الفَيْنَة والأخرى وَلم يستطع التحكّمَ بها تماماً.

وبعدَ أن وُضِعَت الذّرور على خدّيهِ وصُفّفَ شعرَه مُجدّداً وعُطّرَ وزُيّنَ وأُصْلِحَ هِندامه، وجُعِلَ أشدّ جمالاً من أدونيس، اقتادَته الأيدي إلى صالةٍ رائعَةٍ مزدانَةٍ ببَديع الزّخارف الذهبيّة والأثاث. وشوهِدَت على جدرانها قصص القططَ الأكثر شهرة: روديلاردوس المتدَلّي من قائِمَتيهِ وسطَ مجلس الجراذين، وهرّ الماركيز كاراباس ذو الجزمتين، والقطّ الذي يكتب والهرّة التي أصبحَت امرأة، والسّحَرَة الذين صاروا هِرَرَة، وحفلاتِ الشّعوذَة بجميع طقوسها[1]. والحقّ، لم يكن هنالكَ ما هوَ أشدّ فرادَة من تلك اللّوحات.

(1) تلميحات إلى حكايات لافونتين وشارل بيرّو. يظهر الهرّ روديلاردوس في حكايات عديدة للافونتين، منها «مجلس الجراذين» و«الهرّة التي أصبحت امرأة»؛ أمّا هرّ المركيز كاراباس فهو بطل حكاية شارل بيرّو الشهيرة «القطّ العارف أو القطّ ذو الجزمتين».

ثمّ وُضِعَت لوازم المائدة لشخصين معَ سكّينٍ وملعقة وشوكَة من ذهب لكلٍّ منهما. وأدهشته كميّة الأواني المصنوعة منَ البلّورِ الصخريِّ والأحجار الكريمَة النّادِرَة. لم يكن الأمير يعرف لِمَن وُضِعَ ذينك الطّبَقان. وفجأةً رأى قططاً تجتمع مؤلّفة فرقة موسيقيّة صغيرة لتعزِفَ على شرَفِ الحاضرين. كانَ أحد القطط يمسِك كِتاباً دُوّنَت فيه نوتات موسيقيّة مذْهِشَة، وآخَر يحمل مدْرَجاً من وَرَق يضبط به وحْدَة الإيقاع، فيما القطط الأخرى تمسك بقياثرَ صغيرة. وفجأةً أخذت جميعها تموء على نغماتٍ مختلفةٍ ملامِسَةً أوتارَ القياثر بأظافرها. وكانت تلك أغرَبَ موسيقى سمعَها حتّى ذلك الحين. خالَ الأمير نفسه في الجحيم لو لم يجد ذلك القصر أجمل من أن يوحي بفكرةٍ مماثلة. وضحِكَ حتّى التْوَت خاصرَتاه لرؤيَة الوضعيّات والإيماءات المختلفة التي يتّخذها أولئك العازفون الجُدد.

وَراحَ يفكّر في أشياءَ كثيرَة حَصَلَت معَه في ذلك القصرِ إلى أن رأى أمامَه هيئة صغيرة بِطولِ ذراع أشبَه ما تكون بِدُمْيَة متدَثّرة بوشاح طويلٍ أسود للحداد، ويرافقها هرّان يلبسانِ معْطَفاً أسْوَد مُتمَنْطقانِ بسيفٍ على خاصرتيهما ووراءهما موكِب حاشد منَ الهرَرَة يحمِل بعضهم مصائدَ للجرذان مليئة بها وبعضهم الآخر فئراناً في أقفاص.

ظلَّ الأمير في ذهول وحيرة حِيالَ ما يَراه. اقترَبَت الهيئة السّوداء ونزَعَت وشاحها فرأى تحتَه أجمل هرّة بيضاء صغيرةٍ أمْكَن لها أن توجَد. بَدَت يافعَة جدّاً وحزينة جدّاً وأخذت تموء مواءً ناعِماً وفاتِناً يرقّ له القلب. قالت للأمير:

- يا ابن الملك، أهلاً وسَهْلاً بك، جلالتي من معشر القطط، وإنّه لمن دواعي سروري أن أراك.

قال الأمير:

- مولاتي القطّة، كنتِ كريمَة جدّاً في استقبالكِ لي لكنّك لا تَبْدين لي هرّة عاديّة. إنّ قدرتَكِ على الكلام، والقصرَ البديع الذي تملكينَه يُثبتان بشكلٍ قاطعٍ أنّك مخلوق استثنائيّ.

أجابت القطّة البيضاء:

- يا ابنَ الملك، أتوسّل إليك، كفّ عن مُجامَلتي. أنا كائن بسيط في أحاديثي وتصرّفاتي طيّب القلب. ثمّ أردَفَت:

- هيّا قدّموا الطّعامَ ولْيَصمتِ العازِفونَ، فالأميرُ لا يفهَم ماذا يقولون.

سألها:

- وهل يقولون شيئاً يا سيّدَتي؟

تابعَت:

- بالطّبع، لدَينا هنا شعراء يتميّزون بذكاءٍ غيرِ متناهٍ، ولو بَقيتَ قليلاً بيننا لاقْتَنعتَ بما أقوله لك.

قال الأمير متودّداً:

- ليسَ عليّ إلاّ أن أسمَعَكم لأقتنع. ولكن يا سيّدَتي عليّ التّشديد بأنّني انظر إليكِ بصِفَتِك هرّةً نادرةً جدّاً.

وجيءَ بالعشاء. كانت الأيادي المجرّدَة منَ الأجسادِ تقوم بأوامرِ الخدمَة. وَضعَت على الطّاولة نوعَينِ منَ الحَساء، واحداً للأمير وآخر للهرّة. رؤية الحساءين جعَلَت الأميرَ يأنَف من تناولِ حسائه لا سيّما وأنّه تصوّرَ أنّ الطاهي نفسه أعدّهما. لكنّ الهرّة الصّغيرَة حدَسَت من سيماءِ الأمير تفكيرَه، فأكّدَت له أنّ طعامَها يُطهى على حِدَة، وأنّه يستطيع أن يأكلَ ممّا يُقَدّم له وأنْ يكونَ على يقينٍ من أنّ طبّاخيها أعدّوا له حساءً بفِراخ الحَمام..

امتثلَ الأمير في الحال لأنّه شعرَ أنّ الهرّة الصّغيرَة الجميلة لا تنوي أن تَخْدَعَه، ولاحظَ أنّها كانت تحمل في إحدى قوائمها بطاقةً معدَنية أشبه ما تكون بميدالية. تفاجأ من الأمر، وتوسّل إليها أن تُريَه الرّسْمَ الموجودَ داخِلَها معتَقِداً أنّه رسم المعلّم ميناغروبيس[1]، لكنّه رأى صورةَ شابّ في غاية الجمال بحيث يشقّ على المرءِ أن يصدّق أنّ الطّبيعَة استطاعَت خلقَ أحدٍ بمثلِ جماله. كان يشبهه كثيراً وكأنّه هو نفْسه. تنهّدَت الهرّة والتَزَمَت الصّمت العميق مستغرِقَة في أحزانها فأحسّ الأمير أنّ سرّاً غامِضاً خارقاً يُعذّبها. إلاّ أنّه لم يجرؤ على استجلاء الأمر مَخافَة أن يسيءَ إلى القطّة أو يُحْزِنَها. روى لها كلّ الأخبار التي يعرفها وألفاها على علمٍ بكلّ ما يجري في قصورِ الأمراء وأحداث أخرى مهمّة في العالَم.

بعد العشاء دَعَت القطّة ضيفَها للدّخولِ إلى قاعة استقبال مزوّدة بمسرحٍ فيه فرقة مؤلّفة من اثنتي عشرة قطّة واثني عشر قرداً يؤدّون رقْصَةَ باليه. كان بعضهم مرتَدِياً على طريقة المسلمين وبعضهم الآخر على طريقة أهلِ الصّين. وقاموا بوَثَباتٍ وحركاتٍ بهلوانيّةٍ كثيرَة وتبادَلوا أحياناً الخَرْمَشات. وهكذا انتهَت السّهرَة. تمنّت القطّة البيضاء ليلة سعيدَة لضيفِها. اقتادَته الأيدي التي كانت أرشَدَته حتّى ذلك الحين إلى جناحٍ مقابلٍ للجناح الذي رآه. كان ظريفاً أكثر منه بديعاً وتفترشه أجنحَة الفراشات التي شكّلت بألوانها المتنوّعَة ألف زهرةٍ مختلفة. وكان مزيّناً أيضاً بأرياشِ عصافير نادرة لم يسبق له أن رآها إلاّ في هذا المكان. أمّا الأسرّة فمِنَ القماشِ الشفّافِ ومزدانَة بشرائط كثيرة معقودَة. كانت المرايا الكبيرَة تحيط بالجدران منَ

---

(1) تلميح إلى قطّ هرِم في إحدى حكايات لافونتين الشعريّة، منحه فيها هذا الاسم. سبقت الإشارة إليه.

السّقفِ حتّى الأرض وإطاراتها الذّهبيّة نُحِتت عليها رسومٌ صغيرةٌ لملائكة الحبّ.

خَلَدَ الأميرُ إلى فراشِهِ دونَ أن ينبَسَ بكلِمَة لأنّه ما من وسيلةٍ للتحدّث إلى الأيدي التي كانت تخدمه. غَفا قليلاً وما لبث أن استيقظ على ضجّةٍ غامِضَة. وفي الحال اجتذبَته الأيدي من سريره وألبَسَته ثيابَ الصّيد. نظر إلى باحَة القصرِ ولَمَحَ أكثرَ من خمسمائة هرّ، بعضها يقود كلابَ صيدٍ من رَسنِها والبعض الآخر ينفخ في الأبواق. وجَرى احتفال عظيم. كانت القطّة البيضاء ذاهبَة إلى الصّيد وتريد أن يأتيَ الأمير معها. قدّمت الأيدي المُسعِفة للأميرِ حصاناً خشبيّاً يَعْدو بأقصى سرعته ويَمْشي الهُوَينى بشكلٍ رائع. وَجَد صعوبَة ما في اعتِلائهِ قائلاً إنّ الأمر يحتاج إلى الكثير ليُصبِحَ فارِساً هائماً مثلَ دون كيخوته[1]. لكنّ مقاوَمَته لم تُفِدْه بشيء إذ رُفِع وأُجْلِسَ على الحِصانِ الخشَبيّ الذي كانَ سَرجُه موشّىً بالذّهب والألماس.

كانت القطّة البيضاء تمتطي قرداً وكانَ الأجملَ والأبرع. تخلّت عن وِشاحِها الطّويلِ الأسود، وارتَدَت خوذة أضفَت عليها هيئة حازِمَة أثارَت الخوف في فئران الجوار. لم يسبق لِحَفلة صَيد أن كانت بهذه الرّوعة. كانت القطط تركض أسرع منَ الأرانب البريّة وعندَما تستولي على الطّريدة تأمرها القطّة البيضاء بأن تأخذ حصّتها منَ الصّيد أمامها فتتصارَع فيما بينها متوسّلة بحِيَلٍ بارِعَةٍ ومسليّةٍ جدّاً لانتزاع قسمَتِها. ولم تكن الطّيور من جهتِها بمَأمَن لأنّ القططَ الصّغيرَة كانت تتسلّق الأشجار، وكان السيّد القرد يحمل القطّة البيضاء حتّى أعشاش العقبان ليضع في متناوَلها صغارَها رغم كلّ ما تملك من مهابة ورِثَتْها عن آبائها.

(1) بطل رواية الكاتب الاسبانيّ ميغيل دو ثربانتيس: النّبيل البارع دون كيخوته المانشيّ.

انتهت حفلة الصّيد. أخذت القطّة البيضاء بوقاً بطولِ إصبع لكنّه يُطلِق صوتاً رنّاناً وعالِياً يُمْكن سَماعه عن مسافةِ عشرة فراسخ بسهولَة. ما إن نفخت البوق مرّتينِ أو ثلاثاً حتّى أحاطَت بها جميع قطط البلاد. بعضها ظَهرَ في الفضاء راكِباً على متنِ عرَباتٍ مجنّحَة، وبعضها الآخر في قوارب عَبْرَ النّهر مقتَرِبةً منَ الضّفاف. وأخيراً لم يسبق أن اجتمَعَ مثلُ ذلك الحَشدُ منَ القطط. كانت ترتدي أزياء مختلفة. ثمّ عادَت القطّة البيضاء إلى القصر برفقةِ ذلك الموكبِ الفخم وتوسّلت إلى الأمير لكي يأتيَ برفقتِها. رَغِبَ في ذلكَ فعلاً مع أنّه أحسّ أنّ ذلك العَدَدَ الغفيرَ منَ القطط يشبه احتفال السّحَرَة، إلاّ أنّ القطّة النّاطِقَة أدْهَشَته أكثرَ من كلٍّ ما تبقّى.

ما إن عادَت إلى القصر حتّى أُلْبِسَت وشاحَها الطّويل الأسود. تناولَت العَشاءَ معَ الأمير. كانَ جائِعاً وتناوَلَ طعامَه بشهيّة كبيرَة. وجيءَ له بالمشروبات المنعشة فتجَرّعَها بلَذّة وللحال أنْسَته تلك المشروبات الكلب الصّغير الذي يُفترَض به أن يَجلبه للملك. لم يعد يفكّر إلاّ في أن يموءَ معَ القطّة البيضاء أي أن يظلّ برفقتِها. كان يُمضي أيّامَه منتقِلاً من حفلَةٍ إلى أخرى ومن سَلوى إلى أخرى. تارةً يصطاد السّمك أو الحيوانات وطوراً يشاهد الحفلات الرّاقصة وألعاب الفروسيّة وشتّى أنواع اللّهو والتّرفيه. وغالباً ما كانت القطّة الجميلة تؤلّف الأشعارَ والأغاني القصيرَة بأسلوب مشبوب العاطفة؛ لكأنّ قلبَها عَرَفَ الحبّ. لكنّ أمينَ سرّها وهوَ قطّ هرِمٌ يكتب بخطّ رديء ولن يفيد معه أن تُحفَظ أعمالها لأنّ قراءَتها مستحيلة.

نَسيَ الأميرُ حتّى مملكته. واصلَت الأيدي التي تَحَدّثتُ عنها خدمَتَه. وأحياناً كان يتمنّى لو كان قطّاً لكي يستطيع أن يمضيّ أيّامَه وسط تلك الصّحبة الجميلة. كان يقول للهرّةِ البيضاء:

- وا أسَفاه! كمْ سأتألّم عندَ رحيلي عنك. أحبّك حبّاً جمّاً! إمّا أن تجْعَلي نفسَكِ فتاة أو تجعليني هرّاً.

راقَت لها أمنيّتُه كثيراً ولم تُجبْه إلاّ بكلماتٍ غامِضَة لم يَفقهها.

ومرّت السّنة بسرعَة لا سيّما وأنّ الأمير أمْضاها مبتهِجاً متمتّعاً بصحّة جيّدَة دون همّ أو ألم. لم تنسَ القطّة البيضاء موعد عودة الأمير إلى والده. وإذ لاحظت أنّه سَها عنه ذّكرَته به قائلةً:

- هل تعلَم، لدَيكَ ثلاثة أيّام فقط لكي تبحَث عن الكلب الصّغير الذي طلَبه والدك. ثمّ إنّ أخوَيكَ وجَدا كِلاباً جميلة جدّاً.

عندَئذٍ عادَ الأمير إلى رشدِه متعجّباً من تهاونه وهتف قائلاً:

- أيُّ سحرٍ خفيٍّ جعلني أتغافل عن الأمرِ الأهمّ بالنسبة إليّ؟ إنّ مَجْدي في خَطَر وثرْوَتي أيضاً. أين سأجِد كلباً فريداً من نوعِه يجعلني أكْسَب المُلك؟ أين أجد حصاناً سريعاً يؤهّلني اجتيازَ كلّ هذه المسافات بسرعَة؟

انشغَلَ بالُه وحَزِنَ حزناً شديداً.

قالت له القطّة البيضاء بصوتٍ يتعمّد الغنجَ والدّلال:

- يا ابن الملك لا تحزن، أنا صديقتك. يمكنكَ أن تبقى هنا يوماً آخرَ، ومع أنّ المسافَة التي تفصل هذا المكان عن بلادك تبلغ خمسمائة فرسَخ، فإنّ الحصانَ الخشبيّ البارع سَيَحمِلك إليها في أقلّ من اثنتي عشرة ساعَة.

قال لها الأمير:

- أشكرُكِ يا قطّتي الجميلة لكن لا يكفي فقط العودة إلى والدي بل يجب أن أحْمِلَ إليه كلباً صغيراً.

قالت له القطّة البيضاء:

- خُذ، هذهِ بلّوطَة وفيها كلبٌ هو أجمَل من الشِّعرى[1].

أجابَها الأمير:

- آه يا سيّدَتي القطّة، جلالتكِ تسخر منّي.

فقالت له:

- قرّبِ البلّوطَة من أذنكَ وستسمَعه ينبَح.

فَعَلَ ما قالت له وعلى الفورِ بدأ الكلب الصّغير ينبَح. شعَرَ الأمير أنّه في قمّة السّعادَة لأنّ كلباً يقطنُ بلّوطَة صغيرة يُفترَض به أن يكونَ في غايَة الصّغر. أرادَ أن يفتَحَها لأنّه رَغِبَ في رؤيته لكنّ القطّة البيضاء قالت له إنّ الكلب قد يُصاب بالبَرْدِ أثناءَ الطّريق، لذا منَ الأفضل له أن ينتظِرَ حتّى يجتمع بوالده الملك. أمْطَرَها بعباراتِ الشكرِ وودّعَها بحنانٍ قائلاً:

- أؤكّد لكِ أنّ الأيّام بَدَت لي قصيرَةً جدّاً برفقتك حتّى إنّني نادِم بشكلٍ ما على تركِكِ هنا. ومع أنّكِ ملكة وجَميع القطط التي تتغزّل بكِ أذكى وألطف من قططنا، إلاّ أنّني مع ذلك أصِرُّ على دعوتكِ للمجيءِ معي.

لَم تجب القطّة على هذا الاقتراح إلاّ بتنهيدَةٍ عميقة، وتوادَعا.

وصَلَ الأمير إلى القصر حيث حُدِّدَ موعد اللّقاء قبل أخوَيه اللذينِ تبِعاه بوقتٍ قصير. دُهِشا لرؤيتهما في الباحة حصاناً خشبيّاً يقفز ويتفوّق على تلك التي في ميادين الخيل والفروسيّة.

تقدّم الأمير نحوَهما وتبادلوا القبلات مرّاتٍ عدّة وبدؤوا يتحدّثونَ عن مجرَياتِ رحلاتهم لكنّ أميرَنا أخفى عن أخوَيهِ حقيقة

(1) هنا لعب على الكلام، لأنّ نجمة الشِّعرى أو الشِّعرى اليمانيّة Canicule، تشكّل النّجم الرّئيس في كوكبة الكلب الأكبر. وهي تُدعى أيضاً Sirius، ومنها جاء اسم القيظ أو الصّيهود في الفرنسيّة la canicule.

مغامراته وأراهما كلباً شقيّاً يتقن تقليبَ السّفود، قائلاً إنّه وجده في غاية الظرْف وإنّه الكلب الذي أحضرَه للملك. وعلى الرّغم منَ الصّداقةِ التي تجمَع بينهم، شعرَ الأخوان الكبيران بفرَحٍ خفيٍّ للخيار السيّءِ الذي قامَ به أخوهما الصّغير واطمأنّا لأنّه لنْ يكونَ منافساً لهما على العرش.

في اليوم التالي، انطلقوا معاً في العربة نفسها. كانت لدى الأخوَين الكبيرَين كلابٌ صغيرَة موضوعة في سلال، في غايَة الجَمال والنّعومَة بحيث لا نجرؤ على لمْسِها. كان الأخ الأصغر يحمل الكلب المسكين مُقلِّب السّفود الذي كان متّسِخاً بشكلٍ يثير القرف. عندما وصلوا إلى القصر، هُرِعَ الجميع لاستقبالهم بالتّرحاب ودَخلوا إلى جناح الملك. احتارَ الملك أيّ كلب يختار منَ الكلبَين الصّغيرَين اللّذين أحضرهما له ابناه الأكبران لأنّهما كانا متساويَين في الجمال. وأخذ الأخوان يتداولان بشأن أولَويّة الخلافة عندما أسكتَهما الأخ الأصغر وهو يسحب من جيبه البلّوطَة التي أعطته إيّاها القطّة البيضاء. فتَحَها بسرعةٍ فرأى الجَميع كلباً صغيراً ممدّداً على القطن ويستطيع أن يدخل خاتماً دون أن يمَسّ جوانبه. وضعه الأمير في الحال على الأرض فشَرَعَ يؤدّي رقصَة السَرَبَنْدَة مستخدِماً صنّاجات اليدِ[1] برشاقةِ أشهرِ راقصَةٍ إسبانيّة. كان من ألوانٍ مختلفة ووبَره وأذناه تُلامسُ الأرض. مكث الملك مندَهِشاً صامتاً يَحار في ما يقوله أمام جمال ذلك الجروِ الصّغير.

ومع ذلك لم تكن تحْدوهُ أيّة رغبة في التخلّي عن تاجه، وكان أصغرُ زُخْرُفٍ فيهِ أغلى عنده من كلاب الكونِ قاطبَة. عندئذٍ قال

(1) صنّاجات: قطع خشبيّة صغيرة ومجوّفَة بشكلٍ أسطوانيّ تُرْبَط في الأصابع وتُقْرَع الواحِدَة بالأخرى.

لأبنائهِ إنّه كان راضياً عن جهودهم وإنّهم نجَحوا فعلاً في تنفيذِ أوّل أمنِيَةٍ طلبها منهم. لِذا يريد أيضاً أن يواصِلَ امتحان مهاراتهم قبلَ أن يسلّم العرش لأحدهم ويفيَ بوعْدِه. وهكذا فإنّه يُمْهِلهم عاماً كاملاً لِيَبْحَثوا برّاً وبَحراً عن قطعَة قماش رقيقة جدّاً بحيث تستطيع أن تمرّ بثقبِ إبرَة. بدا على ثلاثتهم الحُزنُ الشّديد لأنّهم مُرْغَمونَ على السّعيِ والتفتيش من جديد. وافق الأميران اللّذان كان كلباهما أقلّ جمالاً من كلبِ أخيهم الأصغر على الانطلاق في تلك الرّحلة. ورَحَلَ كلٌّ واحِدٍ منهم متّخذاً جهة مختلفة دون أن يتبادَلوا عهودَ الصّداقة كما في المرّة الأولى، لأنّ مزايا الكلب مقلِب السّفافيد أشاعت بينهم شيئاً من البرودة.

اعتلى أميرُنا حصانه الخشبيّ مجدّداً، دون أن يبحث عن مُعينٍ إلاّ ما يمكن أن يأمَله من صداقةِ القطّة البيضاء فانطَلَقَ على وجهِ السّرعة عائداً إلى القصر حيث استقبلَتْه أفضلَ استقبال. وَجَدَ جميع الأبواب مفتوحَة والنّوافذ والسّطوح والأبراج، مضاءة بمائة ألف مصباح. بدا منظرُها رائعاً. الأيدي التي تفانَت في خدمته المرّة السّابقة تقدّمَت نحوَه وأمْسَكَت بلِجام الحِصان الخَشبيّ البارع واقتادَته إلى الحظيرَة فيما كان الأمير يتّجه إلىَ غرفة القطّة البيضاء.

كانت مُضطجعة في سلّةٍ صغيرَة على بطّانيةٍ منَ السّاتان النّاصع البياض. وكانت القبّعَة التي تضعُها على رأسِها أثناءَ النّوم مفكوكَة وَبَدَت الهرّة تعِبَة. لكن، عندَما لَمَحَت الأمير، أخذت تَثِبُ وتقفزُ بِلا كَلَلٍ لكي تعبّرَ له عن السّعادَة التي تشعر بها لرؤيته. قالت له:

- مهما تكن لديّ أسبابي المشروعة لآمُلَ عودتِكَ يا ابن الملك فإنّي أعترف لك أنّني لم أكن أجرؤ على تعليل نفسي بهذا الأمل. أنا متشائمَة عادةً في الأمورِ التي أتمنّاها، لِذا مجيئك يُفاجئني.

داعبَها الأمير ممتنّاً لها لطفها وشكرها ألف مرّة، ثمّ رَوى لها كيف تكلّلت رحلته بالنّجاح. ربّما كانت تعرف ذلك أكثر منه. قال لها أيضاً إنّ الملك يريد قطعة قماش شفّافة بإمكانها أن تمرّ عبر ثقب الإبرة، وأضاف أنّ العثور عليها أمرٌ مستحيل لكنّه لن يتوانى عن البحث عنها آملاً أن تؤازره في مسعاه. اتّخذت القطّة هيئة جديّة وقالت له إنّ تلك مسألة يجب التفكير فيها؛ لكنّ لدَيها، ولِحُسنِ الحظ، في قصرها، قططاً تنسج ببراعَة تامّة وأنّها هيَ أيضاً ستمُدّ يَدَ المساعَدَةِ وتعجّل في إنجازِ هذا العمل. بإمكانه أن يَطمئنّ إذ لا ضرورة قد تستدعي الذّهابَ إلى البعيد للبحث عن شيء يمكنه إيجاده بسهولة في مشغل قصرها أكثر من أيّ مكانٍ آخر في العالم.

ظهرَت الأيدي. كانت تحمل مشاعل. تبِعَها الأمير مع القطّة البيضاء، ووَلَج بهواً بديعاً يمتدّ بمُحاذاةِ نهرٍ كبيرٍ حيث كانت تُطلق مفرْقعات ناريّة مدهشة. كان سيتَمّ إحراق أربَع قططٍ جرَت محاكمتها بطريقةٍ شكليّةٍ بعد أن وُجِّهَ إليها الاتّهام بأنّها أكلَت اللّحمَ المشويّ الذي خُصِّصَ لعَشاءِ القطّة البيضاء والجبنة والحليب. لا بل هي متّهَمة حتّى بالتآمر عليها معَ مارتافاكس وليرميث وَهما جرذان مشهورانِ في المنطقة بعد أن خلّدَهما الشّاعر لافونتين في أشعاره. إلى هذا، عُرِف أنّ تلك المسألة كانت بأكملِها ملفّقة وأكثر الشّهود فيها كانوا شهودَ زور. أيّاً يكن الأمر، أقنعَ الأمير القطّة بأن تعفو عنهم. لم تَتَسَبّب المفرقعات الناريّة بالأذى لأحدٍ ولم يسبق أن شوهِدَت أسهم ناريّة بمثْل ذلك الجمال وتلك الرّوعَة.

ومن ثمّ قُدِّمَت وجبةُ طعام منتصَفِ اللّيل[1]، وكان كلّ شيءٍ في منتهى النّظافة وسُرَّ الأمير بالطّعام أكثر منَ المفرقعاتِ النّارية لأنّه

(1) وجبة طعام تُقدَّم بعد حفلة راقصة أو سهرة.

كان جائعاً جدّاً. وكان حصانه الخشبيّ قد حمله بسرعة كبيرة لا تضاهيها سرعة حصان أو عربة في العالَم كلّه. وَمرّت الأيّام كتلك التي سَبَقَتْها مرفقة بحفلاتِ سمرٍ وسهرٍ لا تنتهي، أتحفت بها القطّة البيضاءُ ضيفها. ربّما كانَ أوّلَ آدميّ يتَسَلّى إلى هذا الحَدّ معَ الهِرَرَة دونَ أيّةِ صحبةٍ أخرى.

كانت القطّة البيضاء تملك روحاً ظريفة وكانت أليفة المعْشرِ وملِمّة بجميعِ المعارف. وذلك كان يثير دوماً عَجَبَ الأمير فيقول:

- لا، ليسَ أمْراً عاديّاً التميّز الفريد الذي يَسِمُ شخصيّتك! إذا كنتِ فعلاً تحبّينني أيّتها القطّة السّاحرَة قولي لي بأيّةِ معجزَةٍ أتيحَ لكِ أن تفكّري وتتكلّمي بهذه الحِكمَة الرّائعة التي تؤهّلكِ الدّخول إلى الأكاديميّات الشّهيرَة التي تجمع كبارَ المفكّرين؟

أجابته:

- توقّفْ عن طرْحِ الأسئلةِ يا ابن الملك، ليسَ مسموحاً لي أن أجيبَ عليها. واذهبْ بتخميناتكَ إلى حيث تشاء فلن أعترض. كفاكَ أن أكون رقيقة معكَ وأراعي جانبَكَ بكلّ حنانٍ ومحبّة.

ومَرّت تلك السّنَة الثّانيَة كسابقَتِها دون أن يَشعرُ الأمير بمرورِها. لم يكن الأمير يتمنّى شيئاً إلاّ وتأتيه به الأيدي الخَدوم في الحال، منَ الكتبِ والحجارةِ الكريمَة واللوحاتِ والميداليّات القديمَة. كان يكفيه أن يقول أريد هذه الحِليَة من خزنةِ مملكة المغول أو ملك الفرس، أو ذلك التمثال من كورنثيا أو من اليونان، فيَرى أمامَه كلّ ما يشتَهي في الحال دون أن يعرفَ لا مَن جاءَه به ولا من أين. وكان لهذا سحره أيضاً إذ يشعر المرء بالرّاحَة والسّعادَة لرؤيته أجملَ كنوزِ الأرض في حَوْزَته.

كانت القطّة البيضاء تُعْنى دوماً بالسّهرِ على مصالح الأمير.

أنْذرَته أنّ موعدَ رحيله قدْ دَنا وأنّه يستطيع أن يَطمئنّ لجِهَةِ قطعة القماش التي كان يفتّش عنها وأنّها صنعَت له قطعة مُدْهشة مضيفةً أنّها تريد هذه المرّة أن تُعدّ له مَوكِباً يَليق بأصلِهِ العَريق. ومن دون أن تنتظر جواباً، أرْغَمَته على النّظر إلى الباحَة الكبيرة للقصر. رأى عربةً منَ الذّهب مكشوفة، ملمّعَة بِلَوْنِ النّار ورُسِمَ عليها ألف شعارٍ أنيق يُرضي الفكرَ والنّظرَ معاً. وأوثِقَ إليها اثنا عشرَ حِصاناً أبيض كالثّلج وُضِعَت أربعةً أربعةً في مقدّمَة العَربة وَكُسِيَت بِسُروج منَ المخمَلَ بلونِ النّار مطرّزةً بالألماسِ ومزدانَة بصفائح الذّهب. وكانت بِطانَة العربة تشبهها. ثمّ تبعَتها مائة عَرَبة أوثقَت إلى كلّ منها ثمانية أحصِنَة اعْتَلاها أسيادٌ نبلاءٌ يرتدون ثياباً رائعَة. كذلك كانت العَربة مواكَبَة بألفِ حارسٍ ثيابُهُم مطرّزة بشكلٍ كاملٍ لدرَجَة أنّ القماش لم يعد مرئيّاً. والأمر الأكثر إدهاشاً هوَ صورة القطّة البيضاء التي وُضِعَت في كلّ مكانٍ سواء على شعارات العربة أو على ملابس الحرّاس أو علّقت إلى شريط على صدور أولئك الذين يشاركون في الموكب وكأنّها رُتْبَة جديدة مُشرِّفَة.

قالت للأمير:

– اذْهَب إلى قصر والدكَ الملكِ مُحاطاً بهذه المظاهر الفخْمَة التي تُضفي على مهابَتَك مهابَة. اذهَب حتّى يَراكَ فلا يَحجب عنك التّاج الذي تستحِقّه وأعْطيكَ هذه الجَوزة لكن لا تكسرها إلاّ بحضوره. ستجِد فيها قطعة القماشِ التي طلبْتَها منّي.

قال لها:

– أيّتها القطّة البيضاء، أعترف أنّكِ غمَرْتني بلطفكِ. وإذا شئتِ، فأنا أفَضّل أن أمْضيَ حياتي معكِ على نيلِ كلّ الحظواتِ التي أعِدُ نفسي بها في أمكنةٍ أخرى.

أجابته:

- يا ابن الملك أنا مقتنعة بطيبَةِ قلبك وهيَ عُمْلة نادِرَة بين أقوياء هذا الزّمان، فَهم يريدون أن يحبّهم الجميع ولا يريدون أن يُحبّوا أحداً. أنت تثبت أنّ للقاعِدَة العامّة استثناءاتها. أقدّر لك هذه العاطِفَة الحارّة التي تُبْديها لِقِطّةٍ بيضاء صغيرة غير نافعة بشيء إلاّ بصَيدِ الفئران ربّما.

قبَّلَ لها الأمير قائمَتها ورَحَل.

يَصعب علينا تصوّر السّرعَة التي سارَ بها لو لم نكن نعرف مسبَقاً أنّ الحِصان الخشبيّ اجتازَ في ظرْفِ أقلّ من يومَين مسافةً تَرْبو على الخمسمائة فرسَخ التي تفصِله عن القصر. إنّ القدْرَة نفسها التي حفّزَت الحصانَ الخشبيّ حَثّت الأحصِنة الأخرى، ولَم يستغرق اجتياز الطّريق إلاّ أربعاً وعشرين ساعَة. لم يتوقّف الموكب في أيّ مكان بل ظلَّ سائراً حتّى وصلَ إلى قصر الملك حيث سبَق شقيقا الأمير أخاهما الأصغر. وإذ لم يرَياه، أخذا يُهَلّلانِ لِتهاوُنِهِ ويقول أحدُهُما للآخر بصوتٍ خافت:

- هذا فأل خير، إمّا أنّه توفّيَ وإمّا أنه مَريض. ولَن يُشكّل بالتّالي منافِساً لنا في هذه المسألة الهامّة التي ستُحْسَم.

وعلى الفور، بَسَطا القماشة التي جلَبَها كلٌّ منهما، وكانت بالفعلِ رقيقة جدّاً بحيث تمرّ عبرَ ثقب إبرَةٍ ثخينٍ لكنّها تَعصى على الدّخولَ في ثقبِ الإبرَة التي اقترَحها وأحضَرَها القضاة بأمْرٍ من الملك من خزنة المدينة حيث كانت موضوعَة بعناية ومقفلاً عليها.

وأثارَ ذلك خِصاماً طويلاً وجَدَلا كبيراً. كانَ أصدقاء الأميرَينِ وخاصّة أصدقاء الابن الأكبر يقولون إنّ قماشتَه هيَ الأجمل وإنّ ما يفعَله الملك مراوَغَة صريحَة فيها الكثير منَ اللّباقةِ والتعنّت. أمّا أتباع

الملك فكانوا يُسانِدونَه قائلين إنّه ليسَ مجبَراً على الالتزام بشروطٍ لَم يقترَحها، إلى أن قَطَعَ خِصامَهم ذاك صوتُ أبواقٍ جميل وصنوجٍ ومزامير معْلِنَة وُصولَ أميرنا وسَطَ موكبٍ فخم. أثارَت رؤيَةُ الموكب دهشَة الملكِ ووَلَدَيه.

بعدَ أن حَيّا الابن الأصغر والِدَه وقبّل أخوَيه، أخرَجَ من علبةٍ مكْسُوّةٍ بالياقوت الجوزة التي أعْطَته إيّاها القطّة وكَسَرَها معتقِداً أنّه سيَجِد فيها القماشة التي طالَما امتدحتها القطّة ولكنّه وجد بدَلاً منها حبّة بندُقٍ فكَسَرَها أيضاً لكنّه دُهِشَ لعثورِهِ على نواةِ كرَز. تبادَلَ الجميع النّظرات فيما بينَهم وَضَحِكَ الملكُ بصوتٍ خافتٍ ساخراً من ابنِهِ ومن سهولةِ انخداعِه، لظنِّهِ أنّ في الجوزَةِ قطْعَةَ قماش. ولكن لماذا لا يصدّقه وهوَ قدّمَ له من قبْلُ كلْباً يسْكن في بلّوطَة؟ كسَرَ الأمير نواة الكرَز فوجَدَها مليئة بلبّها. وهنا علَت ضجّة مدَوّيَة في الغرفة حيث سُمِعَت جملة واحِدَة:

- الأمير الصّغير غُرِّرَ به.

لم يَردّ بشيء على الدّعاباتِ الخبيثة التي تفوّه بها أفراد الحاشيَة. فَتَحَ لُبَّ نواة الكرز فوجَد حبّة قمحٍ ثمّ وجَدَ فيها حبّة ذرةٍ بيضاء. يا للهول! بدأ يخشى أن يكون قد غُرّرَ به فعلاً فقال مغمْغِماً:

- خدعتِني أيّتها القطّة البيضاء، خدَعْتِني!

وللحال أحسّ بمخلَب قطٍّ يخدشُ يدَه بقوّة وبدأ الدّم ينزف منها. لم يكن يَعرف إذا كان ذلك الخدشُ هوَ لِمَدّهِ بالشّجاعَة أم لتثبيط عزيمته. ومع ذلكَ فتَحَ حبّة الذّرَة وكَم كانت دهشَة الحاضرينَ كبيرَة عندما سحَب قطعة قماشٍ طولها أربعمائة ذراع في غاية الرّوعَة وعليها رُسِمَت جميع العَصافير والحيوانات والأسماك والأشجار والفواكه والنّباتات والصّخور وَنوادر البحر وأصدافه والشمس والقمر

والنجوم والكواكب والأجرام السّماويّة وكان هنالك أيضاً صوَرُ الملوك والحكّام الآخَرين الذين كانوا ولاةَ ذلك الزّمان، وصور نسائهم وعشيقاتهم وأولادهم وأفراد رعاياهم حتّى أصغرِ صعلوكٍ فيهم. وكلٌّ في بلاده يمثّل الدّورَ الذي يقوم به مرتدِياً لِباسَه وفقَ طرازه المحليّ. شحبَ وجه الملك عندما رأى قطعَةَ القماشِ تلك؛ صار وجهه شاحِباً بقَدرِ ما كانَ وجه الأميرِ أحمر من جرّاء انفعالهِ بعدَ عَناءِ التّفتيشِ الطّويل. جيءَ بالإبرَةِ وأُدْخِلَت قطعَةَ القماشِ في ثقبِها وأُخْرِجَت ستّ مرّات. لاذَ الملكُ والأميران الكبيران بالصّمت رغمَ أنّ جمالَ القطعَة النّادر انتزَعَ منهم بينَ الفينة والأخرى صيحات الإعجابِ الشّديد.

أطلقَ الملك تنهيدةً عميقَة والتفت إلى أولاده قائلاً:

- لا شيءَ يستطيع مواساتي في شيخوختي بقدر هذا الاحترام الذي تُظهِرونَه لي. آمل إذاً أن تخوضوا تجربة أخرى. اذهبوا من جديد في رحلةٍ لمدّةِ سنة ومَن جاءني بأجملِ فتاةٍ ليَقتَرِنَ بها فَلَهُ العَرْشُ لدى إقامَةِ زِفافه. أجِدُهُ أمْراً ضروريّاً أن يتزَوّجَ مَن سيَخْلِفني. أتَعَهّد لكم أنّني لن أرْجِئ بعدئذٍ تقديمَ المكافأةِ التي وعَدتُ بها.

استاء الأمير استياء شديداً من موقف الملك المجحف بحقّه لأنّ الكلب الصّغير وقطعة القماش كانا يستحِقّانِ عشرَ ممالك بَدَلاً من واحِدَة، لكنّه كان ابناً أصيلاً ولم يشأ أن يخالف إرادَة والده. ومن دونِ تأخير، صعَدَ في عرَبَتِهِ وتبِعَه كلّ أفرادِ موكِبه متّجهاً إلى قطّتِه الغاليَة البيضاء. كانت تعرِف موعِدَ وصولِهِ: اليوم والسّاعَة. وكان كلّ شيءٍ في طريقهِ مفروشاً بالأزهار، ووضعت المَباخِرَ الكثيرَة من كلّ جانب، وتصاعد الدخان العطِر منها، وخاصّةً في القصر. كانت القطّة جالِسَة على سجّادة فارسيّة في سرادق من قماشٍ ذهبيّ،

موضوعٍ في بهوٍ تستطيع منه أن تتحَيّن عودَته. استقبلته الأيدي المتفانية في خدمَته، وتسلّقت جميع القطط المَزاريب احْتِفاءً به وراحَت تموء مواءً يائساً.

قالت له:

- حسناً يا ابن الملك ها قد عدْتَ غير مكلّلٍ بتاج.

فأجابَها:

- سيّدتي، إنّ النِّعَمَ التي أغدَقتِها عليَّ جعَلتْني مؤهّلاً لنَيلِه لكنّي مقتنع أنّ الملك يشقّ عليه التخلّي عنه أكثر ممّا يَروق لي أنا الحصول عليه.

قالت:

- لا يهمّ. يجب ألاّ نألوَ جهداً في سبيلِ الفوزِ به. وسأساعدكَ في هذا الشأن. بِما أنّه يتوجّب عليكَ أن تأتيَ بفتاةٍ جميلةٍ إلى قصر أبيك فإني سأبحث لكَ عن واحِدَةٍ تؤهّلُكَ لكَسْبِ الرّهان. والآن، لنبتَهجْ. لقد أَمَرْتُ بتنظيم معركَةٍ بَحريّة بينَ قطَطي والجرذان الرهيبة الموجودة في المنطقة. ربّماَ كان هذا سيُثبط من عزيمة قِطَطي لأنّها تخشى الماء. ولكنْ، يتوجّب عليها التأقلم مع جميع الظّروف وإجادة كلّ المهمّات قدرَ الإمكان.

أُعْجِبَ الأميرُ بالحكمة التي تتحلّى بها سيّدَة القطط وامتَدَحَها كثيراً وظلَّ برفقَتِها على شرفَةٍ تطلّ على البحر. كانت القطط تستقلّ مراكب مؤلّفة من قطع كبيرة من الفلّينِ وأبْحرتْ على متنِها بارتياح كبير. فيما كانت قوارب الجراذين مؤلّفة من قشورٍ مجموعَةٍ منَ البيض. تواصَلَت المعركَة بِشراسَة: ارتَمَت الجرذان في الماء وَسَبَحَت أفضل منَ القطط فانتصَرَت وانهَزَمَت عشرينَ مرّة. لكنّ ميناغروبيس أميرال أسطول القطط أنزل بجنسِ الجراذين هزيمة نكراء. ولم تشأ

القطّة البيضاء أن يُمحى الجرذانِ المساكين عن بُكْرَةِ أبيهم. كان لديها خطّة سياسية تقوم على أن يبقى في البلاد جرذان وفئران وإلاّ فإنّ رعاياها سيَعيشونَ عاطِلين عن العمَل وذلك يسيء إليهم.

أمضى الأمير تلك السّنة أسوةً بالسّنوات الأخرى أي في صيدِ الأسماك والطّيورِ واللّهوِ لا سيّما وأنّ القطّة البيضاء كانت تجيدُ لعب الشّطرنج. لم يستطع الامتناعَ من وقتٍ لآخر عن توجيه الأسئلة مُجَدّداً إليها لكي يعرف أصلَ المعجِزَة التي جعَلتْها هرّة ناطقَة. سألَها ما إذا كانت جنيّة أو أنّها تحوّلَت إلى هرّةٍ بفعل سِحرٍ ما. ولكن، بما أنّها كانت متكَتّمَة في أقوالِها فإنّ إجاباتِها كانت تأتي بشكلٍ موارب ودون معنىً فعَرَفَ الأمير أنّها لا تريد أن تتقاسَمَ سرّها وإيّاه.

لا شيءَ يمضي بسرعة كالأيّام التي يعيشها المرء وَسَط الهَناءَة وبعيداً عن الأحزان، ولَو لم تكن الهرّة مهتمّة بتذكير الأمير بموعد عودَتِهِ إلى البَلاط فمِنَ المؤكّدِ أنّه كانَ سينسى الأمر. نبّهَته قبلَ يوم من رحيله إلى أنّ عليه أن يصطحِبَ معه أجملَ الأميرات في العالم لا سيّما وأنّ ساعة زوالِ السّحرِ المشؤوم للجنيّاتِ قد دقّت. لِذا كان عليه أن يتّخذَ قرارَه بقطعِ رأسِها وذنبِها ورَميِها في النّار بسرعَة. فَبادَرَها الأمير هاتِفاً:

- أنا أيّتها البيضاء! يا حبّي! أنا! أوَ تَظنّينَ أنّني على هذه الهَمَجيّةِ لأكونَ قادِراً على قتلكِ؟ يا لقساوتك! لا شكّ أنّكِ تريدين أن تمْتَحِني مقدارَ وفائي لك. لكن كوني على ثقةٍ أنّني غير قادرٍ على الإخلالِ بالصّداقة والعرفان اللّذين أدين بهما لكِ!

فأجابتْ قائلةً:

- لا يا ابن الملك، لا آخذ عليك أيّ مأخَذ وَلا أتّهمُكَ بنكرانِ الجميل. أعرف قدْرَك. ولكنْ، لا أنا ولا أنت نستطيع أن نغيّرَ مشيئةَ

القدَر. افعل ما أتمَنّاه عليك وسوف نعود أنا وأنت سعيدَينِ من جديد، وسَوف ترى. أقسم لكَ بشرَفي أنّني صديقتك حقّاً.

اغرَوْرَقَت عَيْنا الأميرِ الشّاب بالدّموع مرّتينِ أو ثلاثاً، بمجرّدِ التفكير في أنّه يجب قطع رأس هرّتِهِ الصّغيرَة وهي منتهى الجمال والظّرْف. قال أيضاً كلّ ما يمكن تخيّله منَ الكلمات الرّقيقة لكي تعْفِيَهُ من هذه المهمّة. فأجابته بإصرارٍ إنّها تريد أن تموت على يدِه، وإنّها الوَسيلَة الوحيدَة لكي يَحولَ دون حصولِ أخَوَيْهِ على التّاج. وأخيراً طلبَت منه بإصرارٍ كبيرٍ فاستلّ سيْفَه مرتجفاً وبيَدٍ مُتَردّدَة، قطَعَ رأسَ صديقتِهِ الطيّبَة وَذَنَبَها. وعندئذٍ رأى أجملَ تحوّلٍ يمكن تخيّله. استَطالَ جسَد القطّة البيضاء متحوّلاً إلى فتاةٍ فائقة الجمال وليسَ لكَمالِها حدّ. كانت عيناها تسحَرانِ القلوب وعذوبَتُها آسرَة، قامَتها مهيبَة وعلى سيمائِها النّبلُ والتّواضع، روحها وَدودٌ وحركاتها جذّابَة. وكانَ لطفها يفوق الوَصف.

حين رآها الأمير، انذهلَ واعترَته دهشة لذيذة وشعر وكأنّه واقع تحت تأثير سحرٍ ما. عجز عن الكلام. لم تكن عيناه متّسِعَتَينِ بما يكفي ليجيلَ النّظرَ فيها ولم يكن لِسانه منَ الطّلاقَة بحيث يستطيع أن يعبّر عن دهشته. ولكنَ الأمر كان مختلِفاً تماماً لدى رؤيتِه عدَداً لا يُحْصى منَ السيّدات والسّادة يمسكون جميعاً على أكتافِهم بجلودِ القطّات والقطط التي كانوها في السّابق وقد جاؤوا ليسْجدوا عند قدمي الملكة ويعبّروا لها عن فرحَتِهم برؤيَتِها من جديد في حالتِها الطّبيعيّة. استقبلَتهم بالبِشرِ والطّيبَة اللذَينِ يُعَبّران بشكلٍ وافٍ عن شخصيّتِها. وبعد أن أحاطَه أصدقاؤها لبعض الوقت، أمَرَتْهم بأن يتركوها وحيدَة معَ الأمير.

وعندئذٍ قالت له:

- لا تظنّ يا سيّدي أنّني هرّة في الأصل أو أنَّ نسَبي كانَ غامِضاً بينَ بني البشر. كان أبي ملِكاً حاكِماً على سِتِّ ممالك، وكان يحبّ أمي حبّاً جَمّاً ويترك لها الحريّة لتفعل ما تشاء. وكانَ لدَيها الشّغفُ بالسّفر. عندَما كانت حبلى بي، قرّرَت الذّهابَ لزيارة جبلٍ كانت سمِعَت عنه أشياءَ مذهلة. وأثناءَ المَسير، قيلَ لها إنّ هناك قصراً قديماً قريباً منَ المكان الذي تمرّ به تملكه الجنيّات. كان أجمل قصرٍ في العالم أو كان يعتبر هكذا على الأقلّ وفقَ تقليدٍ شائع لأنّه لا أحَدَ يستطيع الدّخولَ إليه. ولكن كانَ منَ المعروف بكلّ تأكيد أنّ أولئك الجنيّات كانت لديهنّ في بستانِهنّ أفضلَ أنواعِ الثّمار وألَذّها وأشهاها. وعندئذٍ ساوَرَت أمّي رغبة جامحة في تذَوّقَها فاتّجهَتْ إلى البستان. وصَلَت أمام باب ذاك القصرِ البديعِ الذي كان يلتَمع كلّه بالذّهب واللاّزورد ولكنّها عبثاً قرَعَت الباب. لم يظهَر أحد، وَبَدا أنّه قصرٌ ماتَ جميعُ ساكنيه. فزادَ الغموض الذي يلفّ المكان من رغبتِها تلك وأرسَلَت الحرّاس لكي يأتوا لها بسَلالم ويتسَلّقوا الجدرانَ فيقدروا على القفز داخل البستان. وكانوا على وَشكِ إتمام مهمّتِهم لوْلا أنّ الجدران عَلَت فجأةً بسحر ما. وعُلّقَت السّلالمَ الواحد إلى الآخر وكانت تتحطّم تحت ثقل أولئك الذين يتسَلّقونَها أو كانوا يفقدونَ أعضاءهم من جرّاء السّقطاتِ أو يُقْتَلون.

«اعْتَرى الملكة يأس مطبَق. كانت تَرى أمامَها أشجاراً كبيرَة مثقَلَة بالفواكه الشهيّة التي تُغْريها بالتِهامِها: إمّا تأكل منها أو تموت رغبة. لِذا نَصَبَت خِياماً فخمَة جدّاً أمام القصر وبقيَت هناكَ لستّة أسابيع معَ كلّ أفرادِ الحاشيَة. لم تكن تَنام ولا تأكل بل تتنهّد باستمرار غير متحَدّثةٍ إلاّ عن ثمار البستان الممتنعة عليها. وأخيراً أصابَها مرَضٌ خطير ولم يستطع أيٌّ كانَ أن يجلبَ دواءً يشفيها من ذلك المرَض،

لأنّ الجنيّات اللواتي لا يَرْحَمنَ بَقينَ محتجبات مذ أقامَت بالقرب من قصرِ هنّ. أصابَ ضبّاطَ الملكة حزنٌ لا يوصَف على حالَتِها. لم يكن يُسْمَع إلاّ البكاء والحسَرات فيما كانت الملكة المُحتضَرَة تُطالِب الذين يخدِمونَها بإحضارِ الفواكه لها. لكنّها لم تكن تريد منَ الفواكِهِ إلاّ تلك الممتنعة عليها.

«وذاتَ ليلة غَفَت قليلاً ورأت لدى استيقاظِها امرأة عجوزاً صغيرة بشعة مُهَلْهَلَة الجسم، جالسة على كنبَةٍ عند أسفل سريرها. فوجِئت بوجودِها وتعجّبت كيف أنّ وصيفاتِها سَمَحْنَ لامرأةٍ مجهولةٍ بالاقترابِ منها. عندئذٍ قالت لها المرأة العجوز: «جلالة الملكة، نجِد تصرّفكِ في غاية الوقاحة نظراً لهذا الإصرار على أن تأكلي من ثمارِنا. ولكن، بما أنّ حياتكِ الغاليَة في خطَر، فقد وافقنا أنا وأخواتي على أن نمنَحَكِ بقدرِ ما تستطيعينَ أن تأخذي وطالما بقيْتِ هنا شرطَ أن تقدّمي لنا هِبَة». هتفتْ: «آه يا جدّتي الطيّبَة قولي ماذا تريدين، أعطيكِ ممالكي وقلبي وروحي شرط أن أحصل على ثمارٍ منَ البستان، لا أستطيع شراءَها بسعرٍ أغلى من ذلك». قالت: «نريدُ أن تمنَحَنا جلالتك الفتاة التي تحملينها في أحشائك. عندما تولَد، سنأتي لأخذها ونُرَبّيها في كنفنا ولن تنقُصَها الفضائل والنّعَم والمعارف، بل سنمْنَحها أفضلها. وبكلِمَة واحِدَة، ستكون ابنتنا وسنجعَلها سعيدة. لكن اعلَمي أنّ جلالتك لن تَراها ثانية إلاّ حين يَحينُ موعد زواجها. إذا وافقتِ على اقتراحِنا فسأشفيكِ في هذه اللّحظَة وأصطحبك إلى بستاننا. وبالرّغم من ظُلْمَة اللّيل فسوْفَ ترَينَ أمامك بوضوحٍ ما يكفي لكي تختارَي ما يحلو لكِ. أمّا إذا كان اقتراحي لا يعجبُكِ فكلّ ما أستطيع أن أقوله لك: عمتِ مساءً يا جلالة الملكة، أنا ذاهبَة لأنام». أجابَت الملكة: «مَهْما كانت شروطك قاسيَة فإنّي أوافق عليها

لأنّها أفضل منَ الموت الذي ينتظرني. أنا أكيدَة أنّني لن أعيش إلاّ يوماً واحداً بعد وسأفقد طفلي بموتي. اشفيني أيّتها الجنيّة العارِفَة بالأسرار ولا تتركيني لحظة واحدة دون أن تمنحيني الامتياز الذي خصّصْتِني به للتوّ».

«لَمَستها الجنيّة بِعَصاً ذهبيّة صغيرَة وهيَ تقول لها: «لتشفَ جلالتك من كلّ الآلام التي تستبقيها في هذا السّرير». وأحسّت الملكة في الحال أنّ ثوباً ثقيلاً وَخَشِناً جدّاً يُنزَع عنها وكأنّها كانت ترزح تحته وأنّ ذلك الثّوب كان في بعض الأماكن أثقلَ من غيرِه. يبدو أنّها المواضع التي كان فيها المرض على أشدّه. أمَرت بِمُناداةِ جميع وصيفاتِها وقالت لهُنّ بوجْهٍ بشوشٍ إنّ صحّتَها باتت ممتازَة وإنّها تريد النّهوض لأنّ أبواب القصر المسحور المحْكَمَة الإقفال والمحَصّنَة ستفتح لها وستأكل الثّمارَ الشهيّة وتأخذ منها بقدرِ ما تشاء.

«ظنّت جميع الوصيفات أنّ الملكة تهْذي وأنّها تهجس بالفواكه المشتهاة. وبدل أن يَسْتَجبْنَ لطَلَبِها، أخذْنَ يبكينَ وذهَبنَ لإيقاظِ جميعِ الاطبّاء ليجيئوا ويعاينوا حالَ الملكة. جعلَ تريُّثهُنَّ الملكة تيأس. طلبَت أن تُحضر لها ثيابَها على عجَل فرُفِضَ طلبها. فأصابَها غضب شديد. قيل لها إنّها لا تزال تحت تأثيرِ الحُمّى. لكن حين دخل الأطبّاء وَجَسّوا لها نبضها وقاموا بإجراءاتهم المعهودَة، لم يستطيعوا أن يُنكِروا أنّها كانت في صحّةٍ ممتازَة. انتبهت وصيفاتها إلى فداحة الخطأ الذي ارتكبنه بسبب تفانيهنّ من أجلها. حاوَلنَ أن يُصَحّحْنَه بإلباسِها ثيابها على عجَل طالَباتٍ المغفرَة منها. هَدَأَ رَوع الجميع، وسارَعَت الملكة للّحاقِ بالجنيّة العجوز التي كانت لا تزال في انتظارَها.

«ودخلت الملكة إلى القصر حيث كان كلّ شيء كامِلاً ما يجعله أجملَ قصرٍ في العالَم.»

وأضافت القطّة البيضاء:

- بإمكانكَ أيّها الأمير أن تصدّق ذلك بسهولَة لأنّه القصر الذي نحن فيه. كانت جنيّتان واقفتينِ عندَ الباب أصغر سنّاً بقليل من تلك التي رافقت والدتي. وبادَرَتا لاستقبالها بالتّرحاب. توسّلت إليهما أن تأخذاها بسرعة إلى البستان نحو التعريشات التي توجد فيها أفضلَ الثّمار. قالتا لها: «جميعها شهيّة ونستطيع مناداتها فتأتي إلينا إلاّ إذا كنتِ تجدينَ متعَة في قطافِها». قالت الملكة: «أتوسّل إليكُنّ، أريد أن أتمتّع برؤية هذا السِّحر العجيب». عندئذٍ، وضعَت المرأة العجوزُ أصابِعَها في فمِها وصفّرَت ثلاث مرّات ثمّ هتفَت: «مشمش، درّاق على أنواعه، كرز، خوخ، إجاص، قراصيّة، شمّام، عنب مسكيّ، برتقال، حامض، كشمش، فراولة، توت،... لبّي نِدائي أيّتها الفواكه!». قالت الملكة: «لكنّ الفواكه التي سَمّيْتِها لِتوّكِ تنضج في مواسِمَ مختلفة!». قُلْنَ لها: «ليسَ الأمر مماثلاً في بساتيننا. لدَينا كلّ الفواكه الموجودَة على الأرض وهيَ دائماً ناضجَة ولذيذة ولا تَفسَد أبداً.

«وللحال، جاءَت الفواكه متدحرِجَة زاحِفَة كيفما اتّفق لكن دون أن تفسد أو تتّسخ. انقضّت الملكة عليها متلهّفة لإشباع رغبتِها والتهمت أولى الفواكه التي وقَعَت تحت يدها بقضمَةٍ واحدَة.

«بعدَ أن أشبَعَت رغبَتَها قليلاً، توسّلَت إلى الجنيّات طالبةً أن يَدَعْنَها تذهب إلى العرائش لكي تتمتّع بالنّظر إلى الثّمار قبل قطافِها». قالت الجنيّات الثّلاث: «نوافق بالطّبع، لكن لا تنْسَي الوعدَ الذي وعدتِنا به إذ لم يعد مسموحاً لكِ النّكث به». أجابت: «أنا مقتنعَة بأنّ الأمورَ ستَجري على ما يُرام معَكنّ، ويبدو لي هذا القصر جميلاً جدّاً. ولو أنّني لا أحبّ زوجي الملك كثيراً لَبَقيتُ فيه. لذا، لا تَخْشينَ شيئاً، لن أخلّ بوَعْدي». فتحَت الجنيّات لها كلّ أبواب حدائقهنّ وجميع

الجنائن المسَوّرة وَهنّ في غايةِ السّرور، وبقيَت هناكَ ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ غير راغبة في الخروج أبداً لشدّة ما وجدَت الفواكه لذيذة. وقطفَت منها لتخزينِها. وبِما أنّها لا تفْسَد أبداً فقد شَحَنَت منها حمولة أربعة آلاف بغلٍ اقتادَتها معها. وأعْطَتها الجنيّات إضافة إلى الفواكه سلالاً منّ الذّهب مرهفة الصّنع لكي تضعَ الثّمارَ فيها وأشياءَ أخرى نادِرَة ونفيسَة الثّمن. ووعَدْنَ والدَتي بأن يعَمَلنَ على تربيَتي كأميرَةٍ وأن يجْعَلنَني كاملة ويخْتَرْنَ لي عريساً ملائماً، وأنّهنّ سيُعْلِمْنَها بموعد عرسي ويأمَلنَ فعلاً أن تأتي لحضوره.

«سُرَّ الملك كثيراً لعودة الملكة. وعبّر أفراد الحاشية كلّهم عن فرْحَتهم. وأقيمَت الحفلات الرّاقِصة والتنكّريّة وسباقات الخيل والمآدب حيث قُدّمَت الفواكه التي جلَبَتها الملكة وكأنّها أطايب نادرَة. وكان الملك يؤثر تناولها على كلّ ما يُقَدّم له. لم يكن يعلَم شيئاً عن المعاهَدَة التي عقدتها زوجَته مع الجنيّات. كان يسألها غالباً عن البلاد التي ذهبت إليها وأتت منها بتلك الأشياء اللّذيذة جدّاً. وكانت تجيبُه تارةً أنّها مجلوبَة من أحد الجبال المنيعَة وتارةً أخرى من ذاك الوادي أو من ذاكَ البستان أو تلك الغابة الكبيرة. تعجّبَ الملك من هذا التّناقض في أقوالِها. وخَطَرَ له أن يسألَ مرافِقيها عن مصدرِ الفواكه لكنّ الملكة كانت حَظَرَت عليهم أن يتحدّثوا لأحَدٍ عن المغامَرَة التي خاضَتها فالتزَموا الصّمت. وأخيراً، ساوَرَ القلق الملكة بشأن وعدها للجنيّات، وإذ رأت أنّ زمَنَ وضْعها اقترَب، انتابَتها كآبَة مخيفة. كانت تطلق التنهّدات بشكلٍ متواصل وتغيّرَت تصرّفاتها بشكلٍ ملحوظ ما أثار قلق الملك وحَثّها على أن تُفْصِحَ له عن سبب حزنِها. وبعد جهدٍ جهيد وأخْذٍ ورَدّ، أخبَرَته كلّ شيء عن مغامرتِها معَ الجنيّات وبأنّها وعدَتهنّ بأنّها ستمْنَحهنّ الطّفلة التي ستنجبها.

هتف الملك: «ماذا! ليسَ لدَينا أولاد، وتعرفينَ رغبتي الجارِفَة العارِمَة في أنْ أرزَقَ بوَلَد. وها إنّكِ في سبيل الحصولِ على تفّاحَتينِ أو ثلاث يصل بكِ الأَمر إلى حدٍّ وهبِ ابنتك؟ لا شكَّ بأنّك لا تكنّينَ لي أيّ حُبّ!». وعندئذٍ أمْطَرَها بالمَلامة فشعَرَت أمّي أنّها ستَموت ألماً. لكنّه لم يكتفِ بذلك بل احتَبَسَها في أحدِ الأبراج ووضَعَ حرّاساً من كلّ جانب لكي يَمْنَعَ عليها أن تَرى أحداً أو تتَعاطى مع أحَد إلاّ الضبّاط الذين وضعهم في خدمتِها مستبدِلاً بهم أولئك الذين رافقوها إلى قصر الجنيّات.

«أثارَ تدهور العلاقة بين الملك والملكة استياءَ الحاشيَة الشديد. سادَ الحزن البلاط وتخَلّى الجميع عن الملابس الفاخِرَة ليرتدي الثّياب التي تليقُ بجوّ الحزن العام. والتَزَم الملك من جهتِه موقفاً مفرطاً في تشدّده وقسوته. لم يعد يَرى زوجَته. وعندما ولدَتني جاء بي إلى القصر لكي يربّيَني فيما هيَ بقيَت سجينَة بُرجِها وتعاسَتها الفائقة. كانت الجنيّات على علم بما حصلَ وساءَهنّ الأمر. أرَدْنَ الحصولَ عليّ وكأنّني ملك لهنّ أو كأنّ احتفاظَ والدي بي سرقة ارتكبَت بحقّهنَ. وقبل أن يَسْعَينَ للانتقام، أرْسَلْنَ وَفْداً كبيراً إلى الملك لِيُبْلِغنَهُ بضرورة أن يخلي سبيل الملكة، ويَرجونه أيضاً أن يسَلّمني إلى الوفد لكي يعمَلنَ على تربيَتي في كنَفِهنّ. كان أعضاء الوفد أقزاماً مشوّهي الخلقَة وليست لديهم الموهِبَة في إقناع الملك بإرادَة الجنيّات. رفض مطالبَهم رفضاً قاطعاً، ولو لم يرحَلوا على وجه السّرعَة لِكانَ حصلَ ما هوَ أسوأ من ذلك.

«عندَما علمَت الجنيّات بنوايا أبي، استنْكَرْنَ موقفهُ أيّما استنكار وأنزلنَ بِممالكهِ الستّ كلّ الشّرورِ الممكِنَة التي يعْرِفنَها. أرسَلنَ تنّيناً مرعِباً ملأ بِسُمّهِ كلّ مكانٍ يمرّ به؛ والتَهم النّاسَ والأطفال وقضى

على الأشجار والنبات بنَفَسِهِ الحارق.

«وجَدَ الملك نفسَه في ورْطَة لا خَلاصَ منها. استشارَ جميع حكماء مملكته عمّا يمكن فعله لكي يُجَنِّبَ رعاياه الكوارثَ التي ألَمّت بهم ويرزحونَ تحت وَطأتِها. نَصحوه بأن يرسِلَ في طلبِ أمْهَر الأطبّاء في العالم وإحضار أنجع الأدويَة لمعالجة رعاياه.

«ومن جهةٍ أخرى، أشاروا عليه بأن يُفرِجَ عن المجرمين المحكومين بالإعدام الذين أظهروا رغبتهم في محاربَة التنّين. استحسَن الملك هذه النّصائح فعَمِلَ على تنفيذها ولَم يُسفر ذلكَ عن أيّة نتيجَة مُرْضِيَة لأنّ الوَفيّات استمرّت ولم يستطع أحدٌ الوقوف في وجْهِ التنّين الذي كان يلتَهم كلّ من يقترب منه. عندئذٍ لجأ الملك إلى إحدى الجنيّات التي كانت راعِيَتَه منذ نعومَة أظفاره. كانت قد صارَت عجوزاً طاعِنَة في السنّ ولم تعد تقوى على النّهوض. ذهبَ إليها وعاتبها ألف مرّة لأنّها تَرى اضطهاد القدر له ولا تقدّم له المعونَة. قالت له: «وكيف تريدني أن أفعلَ ذلكَ وقد أثَرتَ غضبَ شقيقاتي اللواتي يتَساوَينَ معي في القوّة. ثمّ إنّه يَنْدر أن نُعادي بعضنا بعضاً. فكّرْ بالأحرى في تهدئةِ روْعِهنّ بمَنْحِهِنّ ابنتك لأنّ هذه الأميرة الصّغيرَة مِلكُهُنّ. ثمّ لماذا وَضَعْتَ الملكة، هذه المرأة اللّطيفَة، في ذاكَ السّجنِ الخانق؟ ماذا فعَلَت لكَ تلكَ المرأة لكي تعامِلَها بهذا السّوء؟ خذ قراراً بأن تَفِيَ بالوَعدِ الذي قَطَعَتْهُ الملكة لهُنّ. أؤكّد لكَ أنهنّ سيَغمرْنَكَ بالخيرات».

«لم يجد الملك، الذي كان يحِبّني كثيراً، وسيلة أخرى لإنقاذ ممالكِهِ وتخليصِها منَ التنّينِ المشؤوم. قال لصديقته الجنيّة إنّه عازم على الأخذِ بكلامِها وإنّه يرغَب فعلاً في تسليمي للجنيّات بعد أن أكّدَت له أنهنّ سيغمُرنني بالحبّ والحَنان ويعاملنني كأميرَة وقال أيضاً إنّه سيُطلِق سَراح الملكة ويُرْجِعها إلى القصر، وإنّها ما عليها إلاّ أن تحدّد له إلى

مَن يعهدُ بأمري لاصطِحابي إلى قصرِ الجنيّات. قالت له: «يجب أن تَحْمِلَها في مهْدِها إلى جبل الأزهارِ وتضعَها هناك. يُمْكِنكَ أن تبقى في الجوارِ لِتَكونَ شاهِداً على الاحتِفالِ الذي سيُقام على شرَفِها». أجابَها الملك إنّه سيذهب في غضونِ ثمانية أيّام إلى الجبلِ برفقة الملكة، وإنّ عليها أن تُخْطِرَ شقيقاتِها السّاحِرات بالأمر ليَفْعَلنَ ما هوَ مناسب.

«ما إن عادَ إلى القَصر حتّى أرسَلَ في طلبِ الملكة، وشاء أن يعوّض بمظاهر الحنوّ والأبّهة عن غضبه وغيظه حين أمرَ باعتقالها. كانت مُحْبَطَة جدّاً وهيئتها متبدّلة تماماً بحيث شُقَّ عليه التعرّف إليها لولا أنّ قلّبَه حدّثه بأنّها هيَ المرأة التي كان يحبّها بشغف. توسّل إليها دامِعاً أن تنسى الإساءَة التي ارتكبَها بحَقّها مؤكّداً لها أنّها المرّة الأخيرة التي يعامِلها على هذا النّحو. أجابته بأنّها اجتذَبَت الشّرورَ بسببِ تهوّرِها حين وَعَدَت الجنيّات بمنْحِهنّ ابنتَها، وأنّ الشّيءَ الوحيد الذي يشفع بها لها هوَ الألم الذي تكابده. أعْلَمَها أخيراً بأنّه يريد أن يسَلّمَني إليهنّ. اعترضَت الملكة على هذا المَسْعى. يبدو أنّه مقدَّر لي أن أكون دوماً موضِعَ خلافٍ بين والديّ. وبعدَ أن انتحَبَت والدتي وبَكت دون أن تنال ما تتمنّاه (لأنّ الملك كان رأى العواقب المشؤومَة المترتبَة على عَدَم تسليمي للجنيّات، وكيف أنّ أفرادَ رعيّتنا كانوا يموتون باستمرارِ ضحايا الأخطاء التي اقترفتها العائلة الملكيّة)، رَضَخَت أخيراً للأمر وأقيمَت الاستعدادات للاحتفال.

«وُضِعْتُ في مَهْدٍ مصنوع من عرقِ اللؤلؤ ومزيّن بأناقة وفَنّ رفيعَين، وكانت أكاليل الأزهار والكشاكش تتدَلّى من جوانبه. أمّا الأَزهار فمصنوعَة منَ الأحجار الكريمَة المتنوّعَة الألوان التي تنعكس فيها أشعَة الشّمس فتشعشع مبهرَة كلّ مَن ينظر إليها. وكانت روعَة ملابسي تفوق روعَة المَهدِ حيث إنّ جميع شرائطِ

أقمِطتي صُنعت منَ اللآلئ الضَخْمَة. وكانت أربع وعشرون أميرة منَ الأسرة الملكيّة يرفعنني على محْمَلٍ خفيفٍ جدّاً. وكُنّ يَضَعْنَ زينَة مختلِفةً الواحدة عن الأخرى، ولم يكن يُسْمَح لهنّ بأن يرتَدين ألواناً أخرى غير الأبيض رَمْزاً لبراءتي، ورافقني جميع أفراد الحاشيَة، كلٌّ حسَبَ موقعه.

«وفيما كانوا يصعَدونَ إلى الجبل، سُمِعَتْ سمفونيّة عذبَة تقترب منَ المَكان. وأخيراً ظهرَت الجنيّات وكُنَّ ستّاً وثلاثين. كنَّ توسّلنَ إلى صديقاتِهنّ الصّالحات لكي يرافقنَهنّ. وكانت كلّ واحدَة منهنّ جالسة في صَدَفة منَ اللؤلؤ أكبر من تلك التي خرجَت بها فينوس من البحر[1]. وكانت أحصنة بحريّة لا تتقن السّيرَ على البرّ تجرّهنّ بأبّهَةٍ عظيمَة وكأنهنّ الملكات الأوَل في الكون لكنّهُنّ كُنّ على أيّة حالٍ طاعِناتٍ في السنّ وفي غاية القبح. حَمَلنَ أغصانَ زيتونٍ لكي يُلمّحْنَ للملك أنّهنّ يُقَدّرنَ خضوعَه لهنّ. وعندَما حمَلْنني داعبنني بحنانٍ فائق وبَدَوْنَ وكأنّ جلّ ما يطمحْنَ إليه هو أن يجعلنني سعيدَة.

«كان التنّين الذي ساعدهُنّ في الانتقام من والدي يسير خلفهُنّ موثقاً بسلاسل من الماس. أخذنني بينَ أذرعِهنّ وداعَبنني كثيراً ومنَحْنَني فضائل عديدة ثمّ بدَأنَ رقصَة الجنيّات. وكانت رقصة مبْهِجَة جدّاً. لا أحدَ يقدرُ أن يتخيّل كيف أخذت أولئك السيّدات المسنّات يقفزنَ ويُنَطْنِطْن. ثمّ اقترَبَ التنيّن الذي كان قد الْتَهَمَ العديد منَ النّاس زاحفاً وجلسَت فوقَه الجنيّات الثّلاث اللّواتي وعدَتْهُنّ أمّي بي. وضَعْنَ مَهْدي وسَطَهُنّ وضربْنَ التنّينَ بعصاً فبَسَطَ في الحالِ أجنِحَته الكبيرة المحرشفة الملتمِعَة بألف لونٍ غريب. وهكذا

(1) في الميثولوجيا الرّومانيّة، تولد إلهة الجمال فينوس (تقابلها أفروديت عند الإغريق) من زبَد البحر، ويقودها إله النّسيم إلى اليابسة حيث تأتي واقفة على صدَفة.

اتّجهنَ إلى القصر. وإذ رأتني أمّي في الفضاء موضوعَة على متنِ ذلك التنّين المسعور، لم تستطع الامتناع عن إطلاق صرخاتٍ حادّة فبدأ الملك يُواسيها مؤكِّداً لها بأنّ صديقته الجنيّة أعْطَته وَعْداً بأنّ مكروهاً لن يصيبني وبأنّني سيُعتَنى بي كَما لو كنتُ في قصرِهِ بالذّات. وهدّأ روعَها مع أنّ ذلك كان مؤلِماً جدّاً بالنسبة لها: أن تخسَرَني لفترة طويلة وأن تكون هيَ السّبب الوحيد في خسارَتي لأنّها لوْ لم ترْغَب في ثمارِ البستان لَكنْتُ بقيت في مملكة أبي ولَمَا حَلّت بي كلّ المصائب التي سأحدّثك عنها لاحِقاً.»

وأردفتْ:

- ليَكن معلوماً لديكَ يا ابن الملك أنّ حارساتي الجنيّات تعمّدْنَ بناءَ برج لِيُسْكِنّني فيه حيث هناكَ ألف جناح بديعٍ لكلّ فصولِ السّنة وفَرشنَه بأثاثٍ رائع وزوّدْنه بكتبٍ مهمّةٍ ولكنْ لا يوجد باب في ذلك البرجِ وكان يتوجّبَ الدّخول إليه دوماً عبرَ النّوافذ الشّاهقَة. وكانَ هناك حديقة جميلة في البرج مزدانة بالأزهار والنّوافير وعرائش النباتات التي تقي منَ الحرّ في أيّام القيظ الشّديد. وفي ذلك المكان عمِلت الجنيّات على تربيتي بعناية فاقَت كلّ ما وعَدنَ به الملكة. كانت ثيابي على آخر طراز وفي غاية الرّوعة بحيث إنّ مَن رآني ظنّ أنّه يوم عرسي. ولقّنَتني الجنيّات كلّ المعارف التي تتماشى مع سنّي وأصْلي النّبيل ولَم أعذّبهن كثيراً لأنّني كنت أدرك الأشياء بسهولةٍ قصوى: كنْتُ فتاةً رقيقة وتلك الرقّة راقَتْ لهنّ كثيراً، وبما أنّني لم أرَ سِواهُنّ كنت أعيش أيّامي بهناءَة وكنت سأظَلّ هكذا بقيّة حياتي لو كان مقدَّراً لي أن أبقى هناك.

«كنّ يأتينَ دوماً لرؤيَتي معتلياتٍ ظهرَ التنّين الغضوبِ الذي حدّثْتُكَ عنه. لم تكن الجنيّات يحدّثنني أبداً لا عن الملك ولا عن

الملكة. كنّ يُسَمّينني ابنتهُنّ واعتقدْتُني كذلك. لا أحدَ معي في البرج لِيُؤنِسَ وحْدَتي إلاّ ببّغاء وكلب صغير أعْطَيْنَني إيّاهما وكانا يتحَلّيانِ بملكة الفهم ويتكلّمانِ بطلاقةٍ مدْهِشَة.

«كان أحَد جوانب البرج مبْنِيّاً على طريق مجَوّفَة مليئة بالأخاديد والأشجار التي تكتنِفها، ولم أرَ أحداً عليها منذ احتبسْنني. لكن ذات يوم كنت متّكِئة إلى النّافذة أتحَدّث إلى ببّغائي وكلبي فسمِعت ضجّة غامَضة. التَفتّ إلى جميع الجهات فرأيت فارِساً شابَاً يتوقّف ليستمِعَ إلى حِوارِنا. لم أرَ مثله إلاَّ في الرّسوم ولم أشعر بالاستياءِ من ذلك اللّقاءِ المفاجئ ولم آبَه قطّ بالخطر النّاجم عن رؤيتي لذلك الكائن الجميل. كلّما أمْعَنت النّظرَ فيه شعرت بمتعة متزايِدَة. انحَنى لي احتراماً وتبادَلنا النّظرات. بدا لي أنّه يصعب عليه إيجاد وسيلةٍ ليسْمِعَني صوتَه لأنّ نافذَتي كانت شاهِقة. خشيَ إن رفَعَ صوتَه أن تسْمَعه الجنيّات لأنّه كان عارفاً أنّني في قصْرهنّ.

«وهَبَطَ اللّيل دفعَة واحِدَة أو بالأحرى هبَطَ اللّيل دون أن نشعر بمرور الوقت. ضرب على بوقه مرّة أو مرّتين وأبْهَجَني ببضْعَة ألحانٍ بوقيّة ثمّ رحَلَ دون أن أعرف في أيّ اتّجاهٍ لأنّ الظّلام كانَ دامِساً. وظَلَلْتُ أحلم، ولم أشعر حتّى باللذّة التي كنت أشعر بها دوماً وأنا أتحدّث إلى كلبي وببّغائي. وكانا يقولان لي أجمل الأشياء في العالم لأنّ حيوانات الجنيّات تصبح ذكيّة. لكنّي كنت منشغلة جدّاً بأحلامي ولم أكن أعلم شيئاً عن ضبط النّفس. لاحَظَ الببّغاء ذلك، كان مُرْهَفاً ولم يقُل شيئاً ممّا كان يجولُ في رأسه.

«لم أتوانَ عن الاستيقاظ مع الصّباح. هُرِعَتُ إلى نافِذتي وبقيت مندهِشة اندهاشاً لذيذاً لأنّي لمَحت في أسفلِ البرج فارسيَ الشابّ. كان يرتدي ملابسَ بديعَة. كلّمَني عبرَ بوقٍ كانَ يحمل صوته إليّ،

وقال لي إنّه لم يعد باستطاعته الامتناع عن رؤيتي منَ ذلك اليوم وحتّى باقي أيّام حياته لأنّ ذلك الامتناع يعني بالنّسبة له الموت. سُرِرْتُ جدّاً لإطْرائه وفي الوقت نفسه ساوَرَني القلق. لم أجرؤ على الردّ عليه لأنّه كان عليّ أن أصرخ بكلّ قِوايَ فأجازِف بأن تسمَعَني الجنيّات قبل أن يَصِلَ صوتي إليه. رمَيْته ببعض الأزهارِ وتلَقّفَها بمحَبّة وكأنّها نعمَة لا تُقدّر بثمَن. قبّلَها مرّاتٍ عدَّة وشكرني. وسألني فيما بعد إذا كنت أريد أن يأتي كلّ يوم في السّاعَة نفسها لِيَقِفَ تحت نافِذَتي. إذا كنت موافقة فلأرمِ له شيئاً ما. كان لديّ خاتم من الفيروز فانتشَلته بسرعة من إصبَعي ورَمَيته له بكثيرٍ منَ اللّهفة مشيرَةً له بأن يرحَلَ في الحال، لأنّني سمِعت منَ الجهة الأُخرى الضجّة التي تُحدِثها الجنيّة كاسرة التي كانت تمتَطي تنّينَها لتَجلِبَ لي غدائي.

«أوّل شيءٍ قالته لدى دخولها إلى غرفتي: «أشعر هنا بصوتِ رجل. فتّش الغرفَة أيّها التنّين». آه، لو تعرف ماذا صارَ بِحالي، تجمّدَت أوصالي منَ الخوف. خِفْت أن يعبُرَ منَ النّافِذَة الأخرى ويَتبَع الفارسَ الذي بدأت أهيمُ به. قلت لها: «لكن يا أمّي الطيّبَة (لأنّ الجنيّة العجوز كانت تريدني أن أدْعوَها كذلك) لا بدّ أنّكِ تمزَحين عندما تقولين إنّكِ تشمّينَ صوت رجل، وهل للصّوت رائحَة؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فَمَن هوَ ذاكَ الشّجاع الباسل الذي يُغامر بتسلّق هذا البرج؟». أجابتني الجنيّة: «ربّما كان ما تقولينَه صحيحاً يا ابنتي. أنا مسرورة لرؤيتكِ تتكلّمين بهذا المنطق، وأشعر أنّ الحقد الذي أُبَيّتُه للرّجال يصوّر لي أحياناً أنّهم لم يُعفوني من شرّهم». أعطتني طعامي ومكوّك حياكة قائلةً لي: «بعدَ تناولكِ الطّعام لا تنسَي أن تغزِلي لأنّكِ لم تنسُجي شيئاً البارِحَة وهذا سيُغضِب شقيقاتي». أمّا أنا فكان بالي منشغلاً بالرّجل المجهول، ممّا منعَ عليّ أن أواصلَ عملي.

«ما إن رَحَلَتْ حتّى رمَيْتُ مكوّك الحياكة بهيئة عاصِيَة وصعَدتُ على السّطح لأستكشِفَ الرّيف من بعيد. كنت أملكُ منظاراً ممتازاً ولا شيءَ يحَدّ من رؤيتي المنظر. التفتّ إلى كلّ الجِهات ورأيت فارسي على أعلى جبل. كان يرتاح تحت خيمةٍ فخمَةٍ منَ القماشِ الذّهبيّ مُحاطاً بحاشِيَةٍ كبيرة. أيْقَنْت أنّه ابن أحدِ الملوكِ المجاورينَ لقصرِ الجنيّات. وبما أنّني خشيت إن عادَ هوَ إلى البرجِ أن يكتشفه التنّين الرّهيب، أمسكت ببّغائي وأمَرْته بأن يطيرَ حتّى ذلك الجبل ليلتَقيَ بالفارس الذي كان قد تحدّث إليّ وأن يتوسّل إليه من قِبَلي ألاّ يعودَ إلى البرجِ لأنّني أخشى أن تنتَبِهَ حارِساتي لوجوده وينْصبنَ له فخّاً.

«اضطَلعَ الببّغاء الذّكيّ بمهمّتِه. ودُهِشَ الجميع لِرؤيَتِهِ يَطير على جناح السّرعَة ثمّ يحطّ على كتف الأمير ويهمس له في أذنه. أحسّ الأمير بالفرَح والحزن في آنٍ لتلك الرّسالة. كان الاهتمام الذي أبديهِ له يرضي غروره. لكنّ الصّعوبات التي تعترض طريقَه وتَحولُ دونَ لقائهِ بي كانت تُثقِل كاهلَه دون أن تثنيهِ عن مشروعه بنَيلِ حَظوَتِه لديّ. طرَحَ على الببّغاءِ مائة سؤالٍ وأمطرَه الببغاء أيضاً بمائةَ سؤال لأنّه كان فضوليّاً بطبعهِ وأرسَلَ معه الملك خاتماً لي بَدَلَ خاتَمي الفيروزيّ. وكان أيضاً خاتماً فيروزيّاً لكنّه أجمل بكثيرٍ من خاتَمي، منحوتاً على شكلِ قلبٍ ومطوّقاً بحبّات الألماس. أضاف: «يُسْتَحْسَن بي أن أعتمِدَكَ رسولاً. هذا هوَ رسمي أعْطيكَ إيّاه ولا تظهره إلاّ لسيّدتِكَ الرّائعة». علّق تحت جناحه رسمَه وجلَبَ الخاتم في منقاره.

«انتظَرْتُ عودَةَ رسولي الأخضر الصّغير بِفارِغ الصّبر وكان ذلك الشّعور جديداً تماماً بالنسبَة إليّ. قال لي إنّ مَن أرْسَلْتُه إليه كان ملكاً عظيماً، وقد استقبَله بأفضل طريقة ممكنة، وإنّ جلّ ما يريده في هذه

الحياة هو حُبّي. حتّى لو كان مجيئه إلى أسفل البرج محفوفاً بالمخاطر فإنّه قد يتخلّى عن كلّ شيءٍ إلاّ عن رغبتِهِ في رؤيتي. أثارَت هذه الأخبار حيرَةً عميقة في داخلي فأخذْتُ في البكاء. حاوَلَ الببّغاء والكلب الصّغير مواساتي بقدرِ ما يستطيعانِ لأنّهما كانا يحبّانني حبّاً جمّاً. ثمّ أعطاني الببّغاء خاتم الأمير وأراني رسْمَه. أعترِفُ أنّه لم يسبق لي أن ساوَرَني مثْل ذلك الشّعور بالارتياح الذي شعرتُ به آنَذاك عندما تسنّى لي أن أرى عن كثبٍ ذلك الذي لم أرَه إلاّ من بعيد. بدا لي أكثر ظرفاً ممّا تصوّرت. وَجالت في خاطِري أكثر من فكرة، بعضها فرح وبعضها الآخر حزين. وأمْضيت وقتي مسترسِلَة في أفكاري. لاحَظت الجنيّات اللّواتي جئنَ لزيارَتي انشغال بالي. قالت الواحدة للأخرى إنّه يبدو عليّ السّأم لذا يجب التفكير جديّاً في العثور على زوج لي من سلالة الجنّ. وأخَذْنَ يحدّثنني عن أزواج كُثُر واستوقفهُنّ المَلك القزَم الذي يُدعى ميغونيه، وكانت مملكته تقع على مسافة خمسمائة فرسَخ من قصرهنّ لكنّ ذلك لم يعنِ شيئاً لي. سمِعَ الببّغاء هذه النّصيحَة المهمّة وجاءَ يُعْلِمُني بها قائلاً لي: «آه يا سيّدتي العزيزَة، كمْ أرْثي لحالكِ إذا أصبَحتِ الملكة ميغونيت زوجة ميغونيه! إنّه قرد مخيف. أنا نادم على قولِ ذلك لكنّ الملك الذي يحبّك قد لا يتّخذه خادِماً يفتح الباب للضّيوف». سألته: «وهل رأيتَه من قبلُ أيّها الببّغاء؟». أجابني: «أعتقد ذلك فقد رُبّيتُ معه على أحد الأغصان». سألته: «على غصن؟ كيف ذلك؟». فأجابني: «كما قُلتُ لكِ، فَلَه قائمَتانِ كقائمَتَي صقر!

«أحزنني هذا الخبر بشكلٍ غريب. كنت أنظر إلى صورة الملك السّاحر الشابّ وفكّرَت: لم يزَوّد الببّغاءَ برَسْمِه إلاّ لِيَحملني على رؤيته. ورُحْت أقيمُ مقارنَة بينه وبين ميغونيه واستقرّ لديَّ أنّ الموت

كان أجدرَ بي من الاقتران بميغونيه المْسخ.

«لم أنَم طيلَة اللّيل. كان الببّغاء والكلب الصّغير يتحدّثانِ إليّ. غفوْتُ قليلاً عند الصّباح، وَبِما أنّ كَلْبي كان لديه حاسّة شمّ فائقة، اشتَمّ وجود الملك عند أسفل البرج. أيقظ الببّغاء قائلاً: «أراهنُ أنّ الملك هنا». أجابَه الببّغاء: «اصمتْ أيّها الثرثار، تبقى مفتوح العينين وصائخَ السّمَع لأنّك تستاء من راحَة الآخَرين». قال الكلب الطيّب: «قلْ ما تَشاء، أعرف أنّه هنا في أسفل البرج». أجابَه الببّغاء: «وأنا أعرف جيّداً أنّه ليسَ هنا! ألم أبلغه من قِبَلِ سيّدَتي أنّ المجيء محظور عليه؟». فهتَف الكلب: «آه! فعلاً أقنعتني بكلامِكَ وبحججك الدّامغة. إنّ الرّجل المُغرَم لا يستَشير إلاّ قلبَه!». وعلى هذا بدأ يشدّ جناحَي الببّغاء بقوّة ما حَمَله على الغضب. استيقظت على صيحات الببّغاء والكلب. أفصحا لي عن سبب خلافهما فهُرِعْتُ إلى نافِذَتي أو بالأحرى طرْت إليها. رأيت الملك الذي كان يؤشّر لي ويقول لي عبرَ بوقِهِ إنّه لم يعد يستطيع العيش من دوني، وإنّه يستحلِفني أن أجِدَ وسيلة للخروج من بُرجي أو أن أسمح له بالدّخولِ إليه. وكانَ يشهِّد جميعَ الأرباب والعناصر على أنّه سيتزوّجني في الحال وسيجعَلني أكبر ملِكاتِ الكون.

«أمَرْتُ الببّغاء بأن يطيرَ إليه ويقول له إنّ أمنيته تبدو شِبْهَ مستحيلَة. إلاّ أنّني سوف أبذل كلّ ما في وسعي لأحقّق له ما يتمنّاه وفاءً منّي للوعد الذي قطَعَه لي. ثمّ استَحْلَفتُه ألاّ يأتي كلّ يوم لأنّ الجنيّات سيُلاحِظنَ ذلكَ وليسَ في الإمكان أن يُؤمَنَ جانبُهُنّ.

«انسحَبَ وهوَ في قمّةِ الفرَحِ للأمَل الذي علّلته به. ووجدْتُني في وضعٍ يتّسِمُ بحَرَجٍ فائق لدى تفكيري بما وعدتُه بِهِ للتوّ. كيف الخروج من ذلك البرج حيث لا أبواب ولا مُغيث إلاّ الببّغاء والجرْو

الصّغير؟ ثمّ إنّني كنتُ في رَيعانِ الشّبابِ وأفتقر إلى الخبرة وإلى الشّجاعة! عندئذٍ اتّخذْتُ قراري بِعَدَم القيام بأيّ مسعىً لن أنجحَ فيه. وأرسلت الببّغاءَ لِيَقولَ للملك ذلك. أراد أن يقتل نفسَه على مرأى منه. ثمّ كلّفّه بأن يقنعني بالذّهاب عنده لأكونَ شاهدَة على موتِهِ أو أن أقبل بحبّه. فهتَف الرّسول ذو الرّيش الأخضر قائلاً: «مولاي إنّ سيّدتي تملك الرّغبة ولكن تفتقر إلى القدرَة».

«عندما أعلمَني بكلّ ما جرى شعرت بلوْعَةٍ أكبَر. جاءت الجنيّة كاسرة (هذا هو لقبها، لفرط ما كان لها من عنفٍ) وألفت عينيّ متورّمَتين محمَرّتين. قالت إنّني بكيت وإذا لم أخبرها عن السّبب فسوفَ تحرِقني بالنّار. كانت تهديداتها دوماً على هذه الدّرجة منَ الرّعب. أجبتها وأنا أرتجف بأنّني تعبتُ منَ الغزْلِ وأحتاج إلى قماش مشبّك لكي أصطادَ العصافيرَ الصّغيرَة التي تأتي لتنقر الفواكه من بستاني. قالت لي: «إنّ ما تتمنّينَه يا بنَيّتي لا يستحقّ دموعَكِ. سآتيكِ بقماشٍ مشبّك بقدرِ ما تشائين». وأعطتني إيّاه في الحال. لكنّها حذّرَتني قائلَة إنّه يجب عليّ التّفكير أقلّ بالعمل وأن أصُبّ الاهتمام على جمالي لأنّ الملك ميغونيه سيَصِل عمّا قريب. ارتَجفت غضباً لهذا الخبر السيّء ولم أجب بشيء.

«ما إن غادرتْ حتّى بدأتُ أصنَع شِباكاً بواسطة تلك الحبال وقد أتقنت صنعها معَ أنّني لم أرَ مثلَها من قبل. صحيح أنّ الجنيّة لم تكن تزوّدُني بما يكفي وكانت تقول لي دونَ توقّف: «ولكنْ يا بنيّتي، إنّ عمَلَكِ شبيهٌ بعمل بنلوب[1] فهوَ لا يتقدّم وأنتِ لا تتوقّفينَ عن مطالبَتي بتزويدك بالموادّ». قلت لها: «ولكن يا أمّي الطيّبة، أنتِ

---

(1) بنلوب: زوجة أوليس، بطل الأوديسّة، زعمت أمام خطّابها في غيابه بأنّها لن تتزوّج سواه قبل أن تُكمِل نسْج بساطٍ لأبي زوجها، وكانت تحلّ النّسيج كلّما اكتمل.

تتكلّمينَ كيفَما يَحْلو لكِ، ألا ترَينَ أنّني لا أعرف كيف أصنَع الشّباك وأنّني أفسِد كلّ شيء وعليَّ معاوَدَة العمل من جديد؟ ثمّ هل أنتِ خائفَة من أن تصيبكِ الخيوط التي تجْلبينها لي بالإفلاس؟». كان مظهري البريء يبْهجُها معَ أنّها كانت ذات طبع غليظ وقاسٍ جدّاً.

«أرسَلتُ الببّغاءَ لِيَقولَ للملكِ أن يأتِيَ ذاتَ مساءٍ تحتَ نوافذ البرجِ وأنّه سيَجد السلّمَ ويعرف البقيّة عندما سيأتي. وبالفعلِ، أحْكَمْتُ وضعَ السلّم لأنني صمّمتُ على الرّحيلِ معه. لكنّ الملك، عندما رآه، صعَدَ إليّ بعَجَلٍ ولم ينتظر حتّى أنْزِلَ إليه ثمّ دخل إلى غرفتي حيث كنت هيّأتُ كلّ شيءٍ للرّحيلِ.

«أبهجَني مرآه كثيراً فنَسيتُ الأخطارَ المُحدِقَة بنا. جَدّدَ الملك كلّ وعودهِ واستَحْلَفني أن أقبَله زوجاً دونَ أيّ تأخير: أخذْنا الببّغاءَ والكلب الصّغيرَ كشاهِدَينِ على زواجِنا. ولَم يَسبق أن أقيمَ مثل ذلك الزّواجِ بين شخصينِ في مثلِ منزلتنا الرّفيعة هكذا ببساطَة ودون أبّهَة وصخَب. ولم يسبق لَقلبين أن كانا سعيدَينِ مثل قلبَينا.

«غادَرَني الملك قبل طلوع النّهار. روَيت له خطّة الجنيّات الجهَنّمِيّة التي تقوم على تزويجي بالملك الصّغير ميغونيه. وصَفْتُ له هيئتَه فارتَعَبَ منه مثلي. لدى رحيله، بَدَت لي السّاعات طويلة كالسّنين. هُرِعْتُ إلى النّافذة وتَبِعْتُه بنظَراتي بالرّغم منَ الظّلمَة. وكَم كانت دهشتي كبيرَة عندَما رأيت في الفضاءِ عربَة تجرّها سَمَنْدَلات[1] مجنّحَة وتطوف بسرعة لا تستطيع العينُ تعقّبَها! كانت تلك العربَة مرافقة بالحرّاس الذين يمتَطونَ نَعامات. لم يتسنَّ ليَ الوقت لانظرَ مليّاً إلى القردِ الذي يجتاز الفضاءَ وخلته آنَذاك جنيّة أو ساحراً.

(1) السَّمَنْدَل: دويبة كان القدماء يعتقدون أنّها تعيش في النّار، وهي في الحقيقة تتضرّر بالنّار ولكنّها تقذف فيها سائلاً بارداً يطفئها في حال عدم كونها ناراً قويّة.

«بعد وقتٍ قصير، دخلت الجنيّة كاسرة إلى غرفتي وقالت لي: «آتيكِ بأخبارٍ جيّدة. وصَلَ حبيبُكِ منذ بضع ساعات فتحَضّري لاستقباله. خُذي هذه الثّيابَ والمجوهَرات». صحت بها: «ومَن قال لكَ إنّي أريد أن أتزَوّج؟ لا أنوي ذلك إطلاقاً فأعيدي الملك ميغونيه إلى حيث أتى. لن أضعَ دبّوساً واحداً في شعري كَرْمى له ولا يهمّني سواء وجدَني قبيحَة أم جميلة. لا أريده». أجابتني الجنيّة: «كفى أيّتها المتمرّدَة الصّغيرَة، إنّكِ لا تمْلكين ذرَةَ دماغٍ واحِدَة! لا أسمَح لكِ بأن تستهزئي بي وإلاّ...». فأجَبتُها وقد احمَررتُ تماماً لِغَضَبي منَ النّعوت التي وَصفتني بها: «وَماذا ستفعلين بي؟ وهلْ هناكَ أسوأ منَ الظّروف التي نشأت فيها وحَدي في برج لا رِفقَة لي سوى ببّغاء وكلب وأرى في كلّ يوم مرّات عدّة الهيئة المخيفة لتنّين مقيت؟». قالت الجنيّة: «يا لكِ من جاحِدَة، هل تستحقّين كلّ هذه العنايَة والجهد اللّذين أحَطْناكِ بهما؟ سَبَقَ أن قلت ذلك لأخواتي، قلت لهنّ إنّهنّ لن يَلْقينَ جزاءَ جهدهما إلاّ نكران الجميل». وانطلقت لتخبرَهنّ بما حدَث ومكَثنَ مندهشاتٍ جميعاً لِذلك الخلاف الذي حصل.

«لامَني الببّغاء والجرو الصّغير كثيراً على تصرّفي ذاك قائلينَ لي إنّني سأشقى كثيراً إذا تمادَيتُ في عِصياني. شعرت بالفخرِ الكبير لامتِلاكي حبَّ ملكٍ كبيرٍ وجعلني ذلك الفخر أمْقتُ الجنيّات وأستخفّ بنصائح صديقيّ الصّغيرَين التّعيسَين. لم أبدّل ملابسي وتظاهرت بأنّي أتعمّد تسريح شعري بشكلٍ سيّئ لكي يجدَني ميغونيه قبيحَة. جَرى لقاؤنا على الشّرفة وقد جاء إليها على متن عربته الناريّة. مُذ وُجدَ الأقزام لم يكن هناكَ قزَم أقصر من قامَته. كان يمشي على قائمتيه مثلَ نَسر وعلى ركبتيه معاً إذ لا عظامَ في ساقَيه، مستنِداً إلى عكّازَينِ مِنَ الألماس. كان طول معطَفه الملكيّ

نصف ذراع وكان يجرجر أكثر من ثلثه. كان رأسه ضخماً مثل صاع، وأنفه كبيراً جدّاً بحيث يحمل عليه دزينة عصافير، وكانت زقزقاتها تبهجه. لحيته مشرَئبّة وقد اتّخذتها صغار الكناريّ أعشاشاً لها. وكانت أذناه ترتفعان فوق رأسه بطولِ ذراع لكنّه أخفاهما تحت تاج عالٍ حادّ الطرف وضعه لكي يبدو أكثر طولاً. كان اللهيب المتصاعد من عرَبتهِ يحرق الثّمارَ ويجفّف الأزهار ويُنضِب ينابيع البستان. وافاني فاتحاً ذراعَيهِ لِيَضمّني فبقيت متصلّبَة في وقفتي. اضطرّ سائسه الأوّل أن يرفعه ليَصلَ إلى مستواي لكنّه ما إن اقتربَ منّي حتّى هرَبْتُ إلى غرفتي وأغْلَقت بابَها ونوافِذَها فعادَ ميغونيه إلى الجنيّات وهوَ أشدّ غيظاً.

«سألنَه المعذِرَة ألف مرّة لفَظاظتي، ولكي يُهَدّئنَ من روْعِهِ، قرّرْنَ أن يأخذنَه ليلاً إلى غرفتي حين أنام وأن يوثقنَ قدَمَيّ ويديّ ويضَعْنني معه في عرَبته النّاريّة ليصطحِبني معه على هذا النّحو. بعد أن اتّخذنَ هذا القرار تعمّدْنَ عدَم تأنيبي على الفظاظة التي ارتكبتها مكتَفِياتٍ بالقولِ إنّه يجدر بي التّفكير في تصحيحها. بَقيَ الببّغاء والكلب الصّغير مندهشينِ من ذلك اللّطفِ الكبير. قال كلبي: «تعرفين يا سيّدتي، قلبي لا ينبئني إلاّ بالسّوء. إنّ سيّداتي الجنيّات كائنات غريبة والعنف ميزتهنّ». كنت أستهزئ بهذه النّصائح وانتظرتُ زوجي العزيز الذي كان متَلَهّفاً لرؤيتي بفارغ الصّبر وجاء دون تأخير. رمَيتُ له بالسلّم المصنوع منَ الحبالِ المَشبوكَةِ وقد اتّخذت قراري بالعودَة معه. صعَدَ السلّم بخفّة وأتحَفني بكلماته اللّطيفة التي لا أجرؤ على تذكّرِها من جديد.

«رُحْنا نتكلّم بهدوءٍ وارتِياح وكأنّنا كنّا في قصره بالذّات. وفجأة رأينا نوافذ غرفتي تُقتَحَم والجنيّات يدْخلْنَ على متنِ تنّينِهنّ الرّهيب

ويتبَعهم ميغونيه في عرَبتِه النّاريّة وحرّاسه جميعاً برفْقةِ نعاماتهم. لم يَخَف الملك واستلّ سيفهُ غيرَ مفكّرٍ إلاّ بحمايتي من ذلك الهجوم الفظيع. وأخيراً هل يُفتَرَض بي أن أقول ما حَدَث يا سيّدي الأمير؟ دَفعت الجنيّات المتوحّشات التنّينَ لمهاجَمَتنا والتَهَمَ على مرأى منّي الملكَ بلقمَةٍ واحِدَة.

«كنت في ذروَة اليأس من مَصيري المشؤوم فارتَمَيتُ في شدق ذلك المسخ الرّهيب راغبَةً في أن يلتَهِمَني مع الملك الذي كان كلّ ما أهواه في هذه الدّنيا. كان التنّين راغباً في ذلك كلّ الرّغبَة لكنّ الجنيّات اللواتي يتفوَّقنَ عليه وحشيّة منَعْنَه من ذلك هاتِفات: «يجب أن نتركها حيّة لتُكابِدَ آلاماً أشدّ وأقسى. ليست الميتة السّريعة إلاّ نعمة لهذه المخلوقة الوضيعة». لَمَسْنَني بعصاهُنّ ورأيت نفسي على الفور في هيئةِ هرّة بيضاء. واقتدنَني إلى هذا القصر الرّائع الذي كان مُلْكَ والدي وَحَوّلْنَ جميع أسياد وسيّدات المملكة إلى هررَة ولم يتركْنَ لأولئك الذين لا نستطيع رؤيتهم إلاّ الأيدي. وهكذا حوّلْنني إلى الهيئة البائسَة التي وجدْتَني فيها وجَعَلْنَني أعرف كيف ولدْتُ ومَن هُما والدي ووالدَتي اللذَان كانا توفّيا. قلْنَ لي إنّني لن أتحرّر من هيئتي كقطّة إلاّ على يدِ أميرٍ يشبه تماماً زوجي الذي فتَنَني».

ثمّ أردَفَتْ:

- أنتَ يا سيّدي مَن تشبهه، لدَيكَ الملامح نفسها والمرأى نفسه ونبرَة الصّوتِ نفسها. لقد صُعِقْتُ فوْرَ رؤيتكَ. كنتُ على علم بكلِّ ما يجري لي ولا زِلْتُ حتّى الآن كذلك. أصبَحت نهاية آلامي وشَيكَة.

قال الأمير مرتمياً عند قدَمَيها:

- وآلامي أنا أيّتها الملكة الجميلة هل ستكون طويلة؟

قالت الملكة:

- مولاي، إنّني أحبّكَ أكثر من حياتي. يجب أن ترحَلَ فوالدكَ بانتظارك. سَنَرى كيف ستكون مشاعره حيالي وهل سيوافق على تحقيق أمنيَتك.

ثمّ خرجتْ. مدّ لها الأمير يَدَه فصعَدَت معه إلى إحدى العربات. وكانت تفوق بجمالها جميع العرباتِ التي تسَنّى له ركوبها حتّى ذلك اليوم. وكانَ الموكب كلّه فريداً من نوعه؛ كانت حوافر الأحصِنَة من زمرّد ومساميرُها من ألماس. وكانَ لقاء الأمير بالملكة لا مثيلَ له، لا أقصد الأحاديث الظّريفة التي دارَت بينَهما فقط. كانت الملكة فريدَة بجمالِها وبِذكائِها أيضاً، وكانَ الأمير الشابّ مساوِياً لها في الكَمال، وكانت أفكارُهما متشابهة في طرافتها وعُمْقِها.

عندَما اقتربا منَ القصرِ حيث كان الأخوان الكبيران ينتظران أخاهما الأصغر، دخلت الملَكة في صخرة صغيرَةٍ منَ البلّور ازدانَت جميع جوانبِها بالذّهب والياقوت وأحاطَت بها السّتائر من كلّ جهَة حاجِبَة إيّاها عن الرؤيَة. وكانت محمولة على أيدي شبّان أقوياء البُنْيَة أنيقي المَلْبَس. ظلَّ الأمير في العربَة. ثمّ لَمَحَ أخويه اللذينِ كانا يتنزّهان بِرِفقَة أميرتين رائعتَي الجمال. ما إن رأياه حتّى تقدّما لاستقباله وسألاه ما إذا كان اصطَحَبَ عشيقَته معه. قال لهما إنّه كان تعيساً جدّاً لأنّه طيلة سفرِه لم يلتقِ إلاّ بفتياتٍ في غاية القبح، وإنّ الشيءَ الوَحيدَ النّادرَ الذي جَلَبه كان هرّة صغيرَة بيضاء. أخذا يضحَكانِ لسذاجَته. قالا له:

- أحضرتَ هرّة! تُراكَ تخاف أن تأكل الفئران قصرَك؟

فأجابهما الأمير أنّهما على حقّ ولم يكن يفترض به أن يقدّم مثل تلك الهديّة لوالده. وعلى هذا ساروا في اتّجاه المدينة.

صعد الأميران الأكبر سنّاً مع الأميرتينِ اللتينِ أحضراهما في عرباتٍ

من ذهَبٍ ولازورد، وزُيِّنَت رؤوس أحصنتهم بالرّياش والقَنازِع. لا شيء كانَ أكثرَ بهاءً من ذلك الموكب، وتبِعهما أميرنا الشابّ وخلفه الصّخرة البلّوريّة التي كان الجميع ينظر إليها بإعجاب.

وهُرِعَ أفراد الحاشيَة ليُعلِموا الملك بوصول الأمراء الثّلاثة. فسألهم:

- هل أحْضَروا معهم سيّداتٍ جميلات؟

فأجابوه:

- يستحيل تصوّر مَن يفوقهنّ جمالاً.

بدا الملك مستاءً من هذا الجواب. هُرِعَ الأميران إلى الملك برفقةِ الأميرتينِ الرّائعتَي الجمال. استقبلهما الملك بالتّرحاب ولم يكن يعرف لأيٍّ منهما يقدّم عرْشَه. نظرَ إلى أخيهما الأصغر وقال له:

- أتيتَ هذه المرّة وحْدَك؟

فأجابه الأمير:

- سَتَرى جلالتكَ في هذه الصّخرة هرّة صغيرة بيضاءَ تموء بنعومَةٍ وتتصرّف بغنج ودلال.

ابتَسَم الملكُ وذهَبَ بنفسِه لكي يفتَحَ الصّخرَة. لكن، ما إن اقترَبَ منها حتّى جعَلَت الملكة بحركة منها جميع جوانبِها تتداعى، وبانَت هيَ كالشّمس التي حجبَتها غيمَةٌ لبعضِ الوقت. كان شعرها منثوراً على كتِفيها منسَدِلاً خصلاتٍ كثيفةً حتّى قدَمَيها. وكان رأسها مطوّقاً بالأزهار وثوبها من قماشٍ أبيض شفّاف، ومبطّن بالتّفتا الورديّة اللون. نهضَت وانحنَت بإجلالٍ أمام الملك الذي لم يستطع لشدّة إعجابهِ بها إلاّ أن يهتفَ قائلاً:

- هذه هيَ الأميرَة التي لا مثيلَ لها والتي تستحقّ أن تأخذ تاجي.

قالت له:

- مولاي، لم آتِ إلى هنا لأنتزِعَ منكَ العرش لا سيّما وأنّك تشغله بجدارة مذهلة. ولدْتُ أميرة وارثة لستّ ممالك. اسمَح لي أن أقدّمَ مملكة لكلٍّ منك ومن ولديك الآخَرين. ولا أسألك على سبيل المكافأة إلاّ صداقتك وزواجي بهذا الأمير الشابّ، وسنكتفي بممالك ثلاث.

أطلقَ الملك وأفراد الحاشية صيحاتِ الفرَح والاندهاش التي ملأت الأرجاء طويلاً. وأقيمَ الزّفاف على الفور وكذلك زواج الأميرَينِ الآخرين. وأمْضى القصر كلّه شهوراً عدّة في الاحتِفالِ والتلذّذِ بأطايب الولائم التي أقيمت. ومن بعدِها انطلقَ كلٌّ منهم ليحْكُمَ مملكتَه. وخُلّدَت ذكرى القطّة البيضاء الجميلة بفضلِ طيبَتِها وسخائها وأيضاً بفضائلها النّادِرَة وجمالها الفتّان.

سُرَّ هذا الأمير الشّابّ
عندَما اكتشفَ أنّ قطّته أميرَةٌ عظيمَة
جَديرَة بمَديحه وأمانيه
ومستعدّة لِتُشاركَه رعايتَه وحبّه.
حين تنوي عينانِ ساحرَتان أن تأسِرا عاشِقاً
تصعب مقاومتُهما
لا سيّما إذا ساهَمَ الامتنان والعرفان
في تأجيج نارِ الحبّ!
ما عَساني أفعَلُ بتلكَ الأمّ ورغبَتِها المجنونة
التي جعلَت القطّة البيضاء تعاني أمَرّ العَذابات.
ضَحّت بابنَتِها إكراماً لِثمارٍ مشؤومَة
وجعَلتها تحت سَطوَةِ جنيّةٍ عاتِيَة.

أنتُنّ أيّتها الأمّهات اللواتي لدَيكنّ فَلَذاتُ أكبادٍ مفعَمة بالسِّحر إيّاكُنّ والتصرّف مثلَ هذه الأمّ أو محاكاتها.



«القُمْريّ واليمامة»، نقش غائر لكليمان–بيار ماريلييه

Clément-Pierre Marillier, 1785

القُمْريّ واليَمامة

كان يا ما كان، كان هناك ملك وملكة متحابّان حبّاً جمّاً، وكان قرانهما بمثابة قدوَة لكلّ العائلات، ويندر أن نجِدَ في مملكتهما، التي تدعى مملكة الصّحارى، زوجين على خلاف فيما بينهما.

أنجبَت الملكة أطفالاً كُثراً لكن لم يعشْ لها إلاّ فتاة واحدة وكانت على جمالٍ فائق. وإذا كان ثمّة شيء يعزّيها عن فقدانِ أولادِها فهو الجمال والسِّحر اللّذين كانت ابنتهما الوحيدة تتحلّى بهما. ربّاها الملك والملكة بِصِفَتِها أملهما الوحيد المتبقّي. لكنّ سعادة الأسرة الملكيّة لم تدم إلاّ قَليَلاً. كان الملك قد ذهب إلى الصّيد على متن حصان جموح فسمع بعض الطّلقات الناريّة فأرعَبته الضجّة والرّصاص ومضى منطلقاً كالبرق. أراد الملك أن يكبح جماحه على حافّة إحدى الهوّات فشَبا الحصان ورمى الملك عن ظهره، وكانت السّقطة منَ القوّة بحيث قُتِلَ الملك قبلَ أن يتسنّى لأحَدٍ إغاثته.

وأغرقت هذه الأخبار المشؤومَة الملكة في أعمق لُجَجِ اليأس. لم تستطع التخفيف من ألِمها وكان أعنف من أن تقاومَه. ولم تعد تفكّر بشيء إلاّ بتنظيم شؤون ابنتها لكي تقضي هي أجَلَها مرتاحَة الضّمير ولو قليلاً. كان لدَيها صديقة تدعى الجنيّة سائدة لأنّها كان لديها سيادة عظيمَة على الممالك جميعاً وكانت ماهِرَة متوقّدة الذكاء. كتبت الملكة رسالة إلى الجنيّة وهيَ على فراش الموت قالت لها فيها إنّها تتمنّى أن تلفظ أنفاسَها الأخيرَة بين ذراعَيها، لذا عليها الإسراعَ في المجيء إن هي رغِبَت في أن تجدَها على قيدِ الحَياة، ثمّ إنّ لدَيها أشياء في غاية الأهميّة تريد أن تقولها لها.

بالرّغم من انشغال الجنيّة سائدة بأمورٍ كثيرَة فإنّها ألغتها جميعاً وصعَدَت على متنِ جَمَلِها الناريّ الذي كان يَمْضي أسرَعَ منَ نور الشّمس. وصلت إلى قصر الملكة التي كانت تنتظرها بفارغ الصّبر. تحدّثت إليها عن أشياءَ تتعلّق بإدارة المملكة وتوسّلت إليها أن تضطلع بها وتُعْنى بالأميرة الصّغيرة إخلاص:

وأضافت الملكة:

- إذا كان شيء يعزّيني عن همٍّ تَركِها يتيمَة وهيَ لا تزال في سنّ صغيرَة فهو رجائي بأن تمنحيها أمارات الصّداقة التي منحتِني إيّاها على الدّوام، وأن تجد فيكِ أمّاً بإمكانها أن تجعَلها أسعدَ ممّا كنت فعلت، وأن تختاري لها زوجاً لطيفاً لكي لا تحبّ أبداً سِواه.

قالت الجنيّة:

- ها أنتِ تتمنّين خيرَ الأماني أيّتها الملكة العظيمَة. لن أنسى شيئاً في ما يخصّ ابنتكِ، لكنّي استشرت طالِعَها الفلكيّ. يبدو لي أنّ القدرَ مستاءٌ منَ الطبيعة لأنّها أغدَقَت عليها كلّ الحسنِ لدى تكوينها. واختارَ القدَر أن يُكتَب لها العذاب. ويجدر بجلالتكَ أن تعرفَ أنّه يُصدِر أحياناً أحكاماً قاضية يستحيل التحرّر منها.

عقّبت الملكة:

- على الأقلّ، لطّفي من حكم القدَر ولا تنسَي أن تفعلي شيئاً لتَدارك قساوته. غالباً ما يمكننا تجنّب مآسٍ عظيمَة إذا أعمَلنا انتباهنا وحذرَنا.

وعدَت الجنيّة الملكة بأن تحقّق لها كلّ ما تتمنّاه، وبعدَ أن قبّلت ابنتها العزيزة إخلاص ما لا نهاية له من المرّات، أسلمَت الرّوح بشيء منَ الاطمئنان.

كانت الجنيّة تقرأ الطّالعَ بالسّهولة نفسها التي نقرأ بها اليوم

الحكايا الجديدة التي تُطبَع في كلّ يوم[1]. رأت أنّ ما يتهدّد الأميرة هوَ الشّغف المحتوم الذي يكنّه لها أحد العمالقة، ومملكته ليست بعيدة عن مملكة الصّحارى. كانت تدرك أنّه يجب أن تفعل ما بِوسعها لتجنّبِ اللّقاء به ولم تجد وسيلة أفضلَ من أن تخفي الأميرة في أحدِ أقاصي الأرض، أبعد ما يكون عن المملكة التي يحكمُها العملاق، وحيث لا يمكن لشيءٍ أن يُعَكّرَ صفْوَ إقامَتِهما هي والفتاة.

ما إن تسنّى للجنيّة سائدة أن تختار وزراء أكفاء لِتَعْهَدَ لهم بإدارَة الدّولة، وما إن سنّت قوانين صائبَة لم يتسنّ لحكماء اليونان أن يُصدِروا مثلَها أو يُدانوها أهمّيّة حتّى دخلت ذات ليلة إلى غرفة إخلاص، ومن دونِ أن توقِظَها حَملتها على متن جملِها الناريّ ثمّ انطلقَت باتّجاه بلاد خصيبَة حيث يعيش النّاس دون طموح ولا عناء. كانت البلاد أشبه بوادٍ خصب كوادي تمبي[2] حيث لا يوجد إلاّ رعاة وراعِيات يسكنون في أكواخٍ بَنَوها بأيديهم.

كانت تعرف أنّه إذا تجاوزت الأميرة سنّ السّادسة عشرة دون أن ترى العملاق فستعود منتصرَة إلى مملكتها. ولكن إذا رأته في وقتٍ أبكر فستكون معرّضَة لآلامٍ كبيرة. كانت تحرص بعنايَة قصوى على أن تخفيها عن أعين الجميع، ولكي تبدو الأميرة أقلّ جمالاً، ألبَسَتها ثوبَ راعيَة وقبّعَة فضفاضة تنسَدِل على وجهها. ولكن، كالشّمس التي تخترق بِسِهامِها المشعّة الغمامَ، كان جمالها، بالرّغم من تستّرها، مشعشعاً بادِياً للعَيان. وبالرّغم من كلّ العناية التي أوْلَتها إيّاها الجنيّة لتخفي جمالها فإنّ الجميع كان يتحدّث عن إخلاص بصِفَتِها

---

(1) غمزة في اتّجاه حكايا الجنّ ونصوص أدب الناشئة التي شهدت في فترة ظهور حكايات دونوا هذه عصرها الذهبيّ.

(2) أحد الوديان الخصيبة في منطقة تيساليا في اليونان، معروف بجماله وطبيعته السّاحرة، غنّاه قدامى الشّعراء، وكان في اليونانْ القديمة مكرّساً لعبادة أبولون.

آية من الجمال وقد أسبَغت عليها السّماء كلّ نِعمِها وهي بذلكَ تسحَر القلوب قاطِبَة.

لكنّ جمالها لم يكن مصدر روعتها الوحيد. لقد حَبَتْها الجنيّة سائدة بصوتٍ بَديع وبموهبة العزف على جميع الآلات بمهارة بحيث كانت قادرة، مع أنّها لم تتعلّم الموسيقى، أن تلقّن دروساً لربّات الموسيقى ولأبولون ربّ الفنون نفسه.

وهكذا لم تكن تضجَر قطّ. شرَحَت لها الجنيّة الأسباب التي حدَت بها لتربيَها وسطَ تلك الظّروف الغامِضَة محْتَجِبَةً قَدرَ الإمكان عن الأنظار.

وبما أنّها كانت حادّة الذكاء فإنّها انْصاعَت لِمَشيئة الجنيّة بكثيرٍ منَ الحِكْمَة فأُعجِبَت هذه بامتثالها ونباهَتِها رغمَ سنّها الصّغيرة. مَضَت أشهر عديدة لم تذهب خلالها الجنيّة إلى مملكة الصّحارى لأنّها لم تكن تقوى على الافتراق عن الأميرة إلاّ مُكْرَهَة. لكنّ وجودَها كان أمراً ضروريّاً هناك إذ لم يكن أحد يتحرّك إلاّ بأمرٍ منها؛ كذلك تلكّأ الوزراء في القيام بواجباتهم كما ينبغي. انطلقت وهيَ توصي الأميرة بألاّ تفارق المنزل حتّى عودَتها.

كان لِتلك الأميرة الجميلة خروف صغير تحبّه كثيراً، وكان يَروق لها أن تصنَع له أكاليلَ من الزهر، وأحياناً تزيّنه بشرائط معقودَة. أسمتْه «شاطر»، وذلك لكثرة حيَله ومكره. كانَ أمهرَ من كلّ خراف القطيع. كان يسمع صوت سيّدته وأوامِرَها فيُطيعها حرْفيّاً؛ تقول له: «يا شاطر، اذهبْ واجلبْ لي العرناس[1]»، فيُهرَع إلى غرفتها ويُحضره لها وهوَ يقوم بألف وَثبَة. كان يقفز من حولِها ولا يأكل إلاّ العشب الذي تجلبه له وكان سيموت عَطَشاً إذا لم يشرَب من

(1) عرناس: ما يُلفّ عليه القطن أو الصّوف ليُغزَل.

راحَتَيْها. كان يُغلق الباب ويعيّن النّغم عندَما تغنّي سيّدته وهو يثغو بطريقة منتظمَة. كان شاطر ودوداً ومحبّباً وكانت إخلاص تتحدّث إليه باستمرار وتلاطفه بلَمَساتها الحنون.

ولكنّ شاطراً أعْجِبَ بنعْجَةٍ جميلةٍ في الجوار بقدْرِ إعجابه بأميرَته. فكلّ خروفٍ يبقى خروفاً، وأعْجَفُ نَعْجَةٍ كانت في عيني شاطر أكثر جمالاً من ملائكة الحبّ. كانت إخلاص تلومُه دوماً على غنجه الكثير وتقولُ له:

- أيّها المتهوّر الصّغير، لِمَ لا تبقى قربي؟ أنتَ عزيز جدّاً عليّ فأنا أحمل قطيعي كلّه كرمى لك فيما أنت لا تفارق تلك النعجة الجربى لأجلي!

أوثقته بسلسلة من أزهار. عندئذٍ بدا وكأنّه يَحْرِد فجَذَبَ السّلسلة مراراً حتّى قطعَها. قالت له إخلاص بغضب:

- آه منك، قالت لي الجنيّة مِراراً إنّ الرّجال عنيدون مثلك ويهربون من أخفّ القيود وإنّهم المخلوقات الأكثر تمرّداً في الوجود. وبما أنّك تريد أن تتمثّل بهم أيّها الشقيّ شاطر فاذهَب وابحث عن نعجتكَ الجميلة، وإذا التَهمَك الذّئب فأنت تستحقّ ذلك؛ وربّما لن أقدر على نجدتك.

لكنّ الخروف العاشق لم يُصغِ إلى نصائح إخلاص. أمضى نَهاره مع نعجته العزيزة بالقرب منَ الكَوخ حيث تعمل الأميرة وحيدَة. سمعَته يثغو بصوتٍ عالٍ طالباً النّجدَة فعرفت أنّه في موقف عصيب. نهضت مضطربة وخرجَت منَ المنزل فرأَت ذئباً يأخذ معه شاطراً المسكين. لم تفكّر بكلّ ما قالته لها الجنيّة قُبَيلَ رحيلها. ركضت خلف غاصب خروفها وهيَ تهتف: «اقبضوا على الذّئب!»، كانت تطارده وهي ترميه بالحجارة لكنّه لم يفلت طريدَته. لكن، ويا للأسف، حين

مرّت بالقرب منَ غابةٍ، خرجَ منها ذئب آخر، وكان عملاقاً مخيفاً. عندما رأته الأميرة تولاها الذّعر ورفعَت عينيها نحو السّماء مستغيثة ثمّ خفضتهما نحو الأرض متوسّلة إليها علّها تنشقّ وتبلَعها. فلم تصغ إليها لا السّماء ولا الأرض. كانت تستحقّ العقاب لأنّها لم تصدِّق الجنيّة سائدة.

فتَحَ العملاق ذراعَيه لكي يَحولَ دون مرورِها، ولكنّه رغمَ هيئته المرعبة وغضبه المستشيط أحسّ بتأثير جمالها.

قال لها بصوتٍ أقوى منَ الرّعد:

- قولي لي ما هيَ مرتَبَتك السّماويّة، لا تظنّي أنّه يسهل خداعي، لست من بني البشر. قولي لي فقط ما اسمك، هل أنت ابنة جوبيتر أم زوجته؟ مَن هم إخوتك؟ من هنّ أخواتك؟ منذ زمن بعيد وأنا أبحث عن أنثى سماويّة لأتزوّجها، وها قد وجدتكِ لحُسنِ الحظ.

شعرَت الأميرة أنّ الخوف لجمَها وأنّ الكلمات تنسحق على لسانها.

وعندَما رأى أنّها لا تجيب على أسئلته المحتَفِيَة بها، قال لها:

- بالنسبة لكائن سماويّ، أنتِ تفتقرينَ إلى الفطنَة!

ثمّ لم يُضف كلمَة واحِدَة، فتحَ كيساً كبيراً وأدخلها فيه.

أوّل شيءٍ لَمَحَته داخل الكيس في القعر هو الذّئب الشرّير والخروف المسكين. لم يقم العملاق بجولته للا شيء...

قالت الأميرة للخروف وهي تقبّله:

- ستموت معي يا عزيزي شاطر. وهذه تعزيَة صغيرة. لذا منَ الأفضل أن نهرب سويّة.

جعلتها هذه الفكرة الحزينة تبكي بمرارة. كانت تتنهّد وتشهق بصوتٍ عالٍ. راحَ شاطر يثغو والذّئب يعوي فأيقظت تلك الجلبة

كلباً وهرّاً وديكاً وببّغاء من نومهم. وبدأوا من جهتهم يطلقون صراخاً يائساً، وتعالت في خُرجِ العملاق ضوضاءُ غريبة. وأخيراً، وقد استاءَ من سماعِ صراخ تلكَ المخلوقات قرّر أن يقتلها جميعاً، لكنّه اكتفى برَبطِ الكَيس ورَمْيه في أعلى شجرة بعد أن وضع عليها علامة ليستطيع الاستدلال عليها وأخذه. كان يريد الذهابَ لمبارزة عملاقٍ آخر وكلّ ذلك الصّراخ كان يزعجه.

أمّا الأميرة فقد حدّثها قلبها أنّ العملاق، وإنْ مَشى قليلاً، فإنّ خطواته تجعله يبتعد كثيراً بحيث لا يستطيع أسرع حصانٍ اللّحاق به. سحَبَت مقصّها وقصّت قماش الخرج ثمّ دَفعَت خارجاً خروفَها العزيز شاطراً والكلب والهرّ والدّيك والببّغاء ثمّ خرجَت خلفهم وأبقت الذئب في الداخل لكي تعلّمَه ألاّ يعود لالتِهام الخراف الصّغيرة. كان اللّيل مُظلماً مدلهمّاً وشعرَت الأميرة بالغربَة لَوجودِها وحيدَة وسط تلك الغابة دون أن تعرف الوجهة التي عليها اتّخاذها، والسّماء والأرض محتجبتان عنها والخوف يلازمها من مصادَفة العملاق.

كانت تمشي بأسرع ما يمكن وكادت تتعثّر مئات المرّات، لكنّ الحيوانات كلّها التي أعْتَقتها، وقد امتنّت لها امتناناً عظيماً، أرادت البقاءَ معها وتقديم المساعدة لها أثناء الرّحلة. كان للهرّ عينان متطايرتان شرراً وتضيئان اللّيل مثلٍ مشعل، والكلب ينبَح ليقوم بالحراسَة والدّيك يصيح ليُخيف الأسود، والببّغاء يرطن بصوتٍ عالٍ جدّاً بحيث تخال لدى سماعه أنّ عشرين شخصاً يتحدّثون في الوقت نفسه، ما كان يبعد السّارقين لكي يتركوا السّبيل مفتوحاً أمام مسافرتنا الجميلة، وكان الخروف الذي يتقدّمها ببضع خطوات يضمَن لها عدمَ السّقوطِ في الحفرِ الكبيرَة التي كان يشقّ عليه هوَ

نفسه الخروج منها.

سارت إخلاص على غير هدى موكلةً أمرَها إلى صديقتها الجنيّة الطيّبة مؤمّلةً النّفس بنجدةٍ ما معَ أنّها لامَت نفسها كثيراً لأنّها لم تلتزم بأوامرها. لكنّها كانت تخشى أحياناً من أن تتخلّى عنها. كانت تتمنّى أن يقودَها حسنُ طالِعِها إلى المنزل السّريّ الذي تربّت فيه. وبما أنّها كانت تجهل الطّريق إليه، لم تجرؤ على أن تمَنّي نفسها بالعثور عليه إلاّ إذا حالَفَها الحظّ.

وَجَدَت نفسها، عند طلوع النّهار، على ضفّة نهرٍ يروي أظرف مرجٍ في العالم. نظرَت من حولها ولم ترَ لا كلباً ولا هرّاً ولا ديكاً ولا ببّغاءً. وحده شاطر كانَ برفقَتِها. قالت:

- يا وَيلي! أين أنا؟ لا أعرف هذا المكان الجميل فماذا سَيَصير بحالي؟ مَن سيَهتمّ بي؟ آه، يا خروفي الصّغير، لَكَمْ تكلّفني غالياً! لو لم أركض خلفك، لكنت ما أزال في منزل الجنيّة سائدة ولَما خِفْت مِنَ العملاق ولا من أيّة مصادَفَة أخرى بغيضَة.

كان يبدو على شاطر أنّه يستمع إليها وهو يرتجف وكأنّه يعترِف بخطئه. وأخيراً كفّت الأميرة المحْبَطَة والمنْهَكَة عن لومه وجلست على ضفّة الماء. وبما أنّها كانت تعِبَة وكان ظلّ بعض الأشجار يقيها من قيظ الشّمس، أطبَقت أجفانَها بنعومَة وتهاوَت على العشب مستغرقة في نوم عميق.

لم يكن من حارسٍ لها سوى شاطر الوفيّ. لَمَسَها واجتذَبَها من ثيابها. وكم كانت دهشتها كبيرة حينَ استفاقَت ولاحَظَت على بعدِ عشرين خطوَة منها شابّاً يافِعاً مختبئاً خلف بعض الأدغال! كان يختبئ لِيَراها دون أن يُرى من قِبَلها. كان جمالُ جذعه ووجهه وجلال هيئته وفخامَة ثيابه، كان هذا كلّه يدهش الأميرة فنهضت فجأةً مصمّمَةً

على الابتعاد. ولكن لا أدري أيّ سحرٍ ردَعَها. رَمَت ذلك الغريبَ بنظراتٍ وَجِلة. لم يُثر فيها العملاق خوفاً أكبر ولكن للخوف الآن أسباب مختلفة. كانت نظراتهما وحركاتهما تشي بالمشاعر التي تُحَرّكُ قلْبَيهِما منذ تلك اللحظة.

وكانا سيبقيان هكذا صامتين لوقتٍ طويل يتبادلانِ النّظرات لو لا أنْ سمِعَ الأمير صوتَ أبواقٍ ونُباحَ كلابٍ تقترب. لاحَظَ أنّها متفاجئة.

قال لها:

- لا تخشَي شيئاً أيّتها الرّاعية الجميلة، أنتِ في أمانٍ في تلك الأمكنة. عسى أن يكون أولئك الذين يرونك هنا في أمانٍ أيضاً!

قالت له:

- مولاي، أطلبُ حمايتك، أنا فتاة مسكينة يتيمة وليسَ لديّ ما أفعله إلاّ أن أكون راعيَة. من فضلك ائتني بقطيعٍ وسأهتمّ به.

قال لها مبتسِماً:

- طوبى للخرافِ التي تَسوقينَها إلى المراعي! ولكن يا راعيَتي اللّطيفة إذا شئت سأحدّث والدتي الملكة عن الأمر وإنّه ليَسرّني أن أقدّم لكِ اليوم خدماتي.

قالت إخلاص:

- عفوَكَ يا سيّدي، أستَميحك المعذرة للجرأة التي حدّثتك بها. لم أكن لأفعل ذلك لو أنّني عرفت مقامَك!

استمع إليها الأمير بدهشةٍ عظيمَة. وجَد لديها الذّكاء والأدب اللّذين كانا يليقان بجمالها الفريد ويكمّلانه. ولكنّ ثيابها البسيطَة لا تليق بها أبداً ولا مهنة الراعيَة. حاولَ أن يجعلها تقوم بخيار آخر. قال لها:

- ألا تَرَينَ أنّك تعرّضينَ نفسَكِ للخطر وحيدة هكذا في الغابات أو في الأرياف ولا رفيق لكِ إلاّ خِرافكِ البريئة؟ وهل تحتملين الوِحدَة وأنت على هذه الرّهافة في التصرّف؟ مَن يَدري على أيّة حال، ربّما ستجتذبُ لكِ مفاتنكِ التي سيذيع صيتها في هذه الأصقاع متاعب كثيرة! أنا نفسي، أيّتها الراعيَة الجديرة بالحبّ كلّه، قد يحلو لي أن أترك القصر لأتبَعَ خُطاكِ. وسيحذو الآخرون حذوي.

قالت له:

- كفّ يا سيّدي عن إطرائي فأنا لا أستحقّ ذلك. لقد وُلِدْتُ في قرية صغيرة ولم أعرف إلاّ الحياة الرّعوِيّة، وآمل أن تتركني أحرس قطعانَ الملكة بِسَلام في حالِ تفضّلتْ وعهدَتْ لي بها. لا بل سأتوسّل إليها أن تضعني في عُهدَة راعِيَة متمَرّسة أكثر منّي. وبما أنّني سألازِمها فلن أشعر بالسّأم.

لم يستطع الأمير أن يجيبها. فأولئك الذين تبَعوه للصّيد، ظهروا على أحدِ النّجود.

قال لها على عجل:

- أتركُكِ أيّتها الفتاة الفاتنة. لا أريد أن يتقاسَم معي الآخرون سعادةَ أن أراك. اذهبي إلى آخر هذا المرج، هناك منزل يمكنكِ المكوث فيه بأمان ما إن تقولي أنّكِ أتيتِ من قِبَلي.

شعَرَت إخلاص بالألم لافتراقها عن ذلك الشابّ النّبيل، وأسرَعت لتتّجهَ إلى المكان الذي دلّها عليه عَهْد (لأنّ هذا كان اسم الأمير).

شيّعها بنظراته وتنهّد بحنانٍ ثمّ صعدَ على ظهر حصانه متقدّماً فريقه لكن دون أن يتابع الصّيد. حين دخل على الملكة وجدَها غاضبَة جدّاً من راعِيَة عجوز تسيء رعاية قطيعها. راحت الملكة

تؤنّبها وتأمرها بألاّ تُرِيَها وجهها بعد اليوم.

وجَدَ عَهْد الظّرف ملائماً لتنفيذ خطّته. أخبرَ والدَته أنّه التقى بفتاةٍ شابّة ترغب بشدّة أن تعمَلَ لدَيها ويبدو عليها أنّها فتاة شريفة ولا تهوى الانتفاع. سُرّت الملكة بقَول ابنِها ووافقت على توظيفِ الرّاعيَة دون أن تراها وقالت للأمير أن يعطي الأوامر باصطحابِها مع الرّعاةِ الآخرين إلى مراعي المملكة. سُرَّ بتوفيرها على الفتاة عناء المجيء إلى القصر لأنّ لهفته وغيرَتَه ومشاعرَ من هذا القبيل جعلته يخشى أن ينافسَه أحدٌ على قلبِها، عِلْماً أنّه لا أحد يستطيع أن يبزّه لا في المقام ولا في الجَدارَة. لكنّه كان يخشى النّبَلاء أقلّ منَ الوضَعاء لأنّه فكّر أنّها قَد تميل إلى راعٍ بسيطٍ أكثر ممّا تَميل إلى أميرٍ وريثٍ للعرش.

منَ الصّعب رواية الخواطر التي ساوَرَته: أخذ يلوم قلبه هوَ الذي لم يستهوِه شيء حتّى ذلك الحين، ولم يعثر على فتاة جديرة به! هل يمنَح نفسه لفتاة غامضة الأصل ولا يستطيع أن يبوحَ بحبّه لها دون أن يشعر بالعار؟ أراد أن يحاربَ حبّه مقتنعاً أنّ الامتناعَ عن رؤيتها هوَ الحلّ الأمثل وخصوصاً بُغْيَة التصدّي لعاطفةٍ ناشئة. تجنّب رؤية الرّاعيَة من جديد واهتمّ فقط بالصّيد واللّهو. صارَ ما إن يَرى خِرافاً حتّى يَشيح ببصره وكأنّه التقى بأفاعٍ. وبعدَ مرور وقتٍ قليلٍ بدا له السّهم الذي أصابه أقلّ إيلاماً. ولكّن، ذات يوم استعر فيه القيظ، تَعِب عَهْد منَ الصّيد لزَمنٍ طويلٍ، وألفى نفسَه عنَد ضفّة النّهر، فتبعَ مجراه في ظلّ أشجار الغبيراء التي تشبك أغصانَها بأغصان الصّفصاف وتجعل المكانَ نَديّاً ممتعاً. استغرَقَ في حُلم عميق. كان وحيداً ولم يعد يفكّر بكلّ أولئك الذين كانوا في انتظاره. وفجأةً سمِعَ صوتاً سماوِيّاً صَعَقه جماله؛ توقّف ليسْمعه وفوجئ كثيراً بسَماع هذه الكلمات:

وا حسرَتاه! عاهدْتُ نفسي أن أعيش دون حبّ
لكنّ الحبّ يلذّ له أن يجعلني أنكثُ بعهدي،
أشعر أنّ جرحاً عميقاً يُمَزّقُني،
باتَ الأميرُ عَهْد مالكاً لقلبي.
في يوم ليسَ ببعيدٍ رأيته في هذه الخلوَة
منصرفاً إلى الصّيد وسط هذه الغابات
ثمّ جالِساً تحت الظّلالِ الرطيبة
كان يغنّي واصفاً مخاوفَه.
لم أرَ في حياتي جمالاً كجَمالِه.
مكثتُ طويلاً جامدةً حائرَة؛
من يدِ ملاكِ الحُبّ رأيت السّهام تنطلق
لتَستقرّ في قَعرِ روحي.
الألمُ الذي أحِسّه له حَلاوَته
وأعرف أنّني لن أشفى أبداً
من النار التي تحرِقني.

تغلّبَ فضوله على لذّة الاستماع إلى الأداء الرّائع للأغنيَة فتقدّم على وجه السّرعة. صعَقه اسم «عَهْد» لأنّه اسمه. ولكنْ، قد يكون اسماً لأحد الرعيان. لِذا لم يكن يعرف إذا كانت تلك الكلمات موجّهَة له أو لأحدٍ آخر. ما كادَ يصعَد على تَلّة صغيرة مكسوّة بالأشجار حتّى لَمَحَ إخلاص الجميلة في أسفلِها: كانت جالسَة على ضفّة أحَدِ الجَداول وكان تدفّقه المندَفع يحدث دمدمَة لذيذة جدّاً وكأنّها تريد أن تتناسَب مع صوتِها. وكان خروفها الوفيّ مضطجعاً قربَها على العشب فخوراً بأنّه خروفها المفضّل. وكانت إخلاص تلكزه من وقتٍ لآخر

بِعَصاها لكزاتٍ خفيفة، وتداعبه ببراءة الأطفال؛ كلّما لَمَسَته قبّل يدها ونظرَ إليها نظراتٍ مفعَمَة ذكاءً. قال الأمير بصوتٍ خفيض:

- آه! كم ستكون سعيداً لو أنّك تعرف قيمة اللّمَسات التي تغدِقها عليك! لكن بِرَبّكم ألم تزدَدْ هذه الرّاعيَة جمالاً مذ التقيتها؟ أيّها الحبّ! أيّها الحبّ! ما تريد منّي؟ هل يفترض بي أن أحبّها أم عليّ الامتناع عن ذلك؟ لقد تجنّبتها بإصرارٍ لأنّني استشعرت كلّ الخطر النّاجم عن رؤيتِها. أيّتها السّماء! ما أكبر التّأثير الذي تركه فيّ لقائيَ الأوّلُ بها! سعى عقلي لأن يُنْجِدَني فهربت من هذه الصبيّة الجديرة بأن تُحَبّ. للأسف ها إنّي ألتقي بها، ولكنْ يبدو أنّ ذلك الذي تتحدّث عنه هوَ الرّاعي السّعيد الحظّ الذي اختارته!

وفيما كان يفكّر على هذا النّحو، نهضَت الرّاعيَة لتَجمَع قطيعَها، وتعْبرَ به إلى مكانٍ آخر من المُروج حيث كانت قد تركت زميلاتِها. خشيَ الأمير أن يفوِّتَ تلك الفرصَة دون أن يتحدّثَ إليها. فتقدّم نَحْوَها بخطواتٍ عجلى قائلاً لها:

- أيّتها الراعية اللطيفة، ألا تريدين أن أسألكِ عَمّا إذا كانت الخدمَة الصّغيرَة التي أدّيتها لكِ قَد أعجبتك؟

لدى رؤيته، احمَرّت إخلاص وبَدَت بشرَتها متَلَوّنَة بألوانٍ زاهِيَة، قالت له:

- سيّدي، كنت سأوجّه لكَ شكري المتواضع لو كان يليق بفتاةٍ مسكينَة مثلي أن تشكر أميراً مثلك. لكن بما أنّني لم أفعلْ، فالسّماء تشهَد على أنّني لست جاحِدَة البتّة، وأنّني أتضرّع إليها لتعمّ السّعادَة أيّامك.

أجابها:

- إخلاص، لو كان صحيحاً أنّكِ متأثّرة إلى هذه الدّرجة بهذا

المعروف لَكانَ سَهُلَ عليكِ أن تُعَبّري عن ذلك لي.

أجابت في الحال:

- مهلك! ماذا أستطيع أن أفعَل لأجلكَ يا سيّدي؟

- تستطيعين أن تقولي لي لِمَن كنتِ تغنّينَ هذه الأغنيَة؟

فأجابت:

- بِما أنّني لم أكتب كلماتِها يَصْعبُ عليّ أن أوضّحِ لكَ شيئاً في هذا المضمار.

وفيما هيّ تتكلّم، أخذ يراقبها، رآها تحمرّ. كانت مُرتبكة وتخفض بصَرَها.

قال لها:

- لماذا تُخْفينَ عنّي مشاعرَكِ يا إخلاص؟ وجهكِ يشي بمكنونات قلبك، هل تحبّين أحداً؟

صَمَتَ ونظرَ إليها بإمعانٍ أكبر.

قالت:

- سيّدي، الأمور القليلة التي تهمّني لا تستحقّ أن يستعلم أمير كبير مثلك عنها. وإنّي لَمعتادَة دوماً على التزامِ الصّمت برفقةِ نعجاتي، لِذا عليكَ أن تعْذرَني إذا كنت لا أجيب.

وابتَعَدَت بسرعَة لم تسمَح له بأن يستمْهِلها.

الغيرَة تؤجّج أحياناً نارَ الحبّ. ونار الغيرَة التي اضطرمت في قلب الأمير كانت مستعرة لا شيءَ يطفئها. أخذ يكتشف مفاتن جديدة في تلك الصبيّة لم يَلْحَظها في أوّل مرّة رآها فيها. لكنّ الطريقة التي تركته فيها، وكلماتها أيضاً، جعلته يعتقد أنّها مرتبطَة بأحد الرّعاة. فتوَلّى كيانَه حزنٌ عميق. لم يجرؤ على اللّحاق بها مع أنّه كان راغِباً جدّاً في التحدّث إليها. اضطجَعَ في المكان نفسه الذي تركته فيه. وبعد أن

حاول تذكّر الكلمات التي أنشدَتها للتوّ، كتبَها على لوح الكتابة لديه وتفحّصَها بانتباه. قال:

- لكنّ المدعوّ «عَهْد» هذا الذي يَشْغَلها لم ترَه إلاّ منذ بضعَة أيّام: هل يُعقل أن يكون اسمي مثله ولا أملك حظّه؟ كم نظرَت إليّ ببرودَة! بَدَت لي اليوم أقلّ اكتراثاً منَ اليوم الذي صادَفتُها فيه لأوّل مرّة. وكان همّها الوحيد أن تجِدَ ذريعَة لكي تبتعدَ عنّي.

أحزَنته هذه الأفكار بشكلٍ محسوسٍ لأنّه لم يفهم كيف أنّ راعيَة بسيطَة بإمكانها ألاّ تكترِث لأميرٍ كبير.

وما إن عادَ الأمير إلى القصر حتّى أمَرَ بإحضارِ فتى شابّ لطيف من أصل نبيل. سأله أن يرتدي ثيابَ راعٍ ويتظاهَر بسوقِ قطيعه كلّ يوم إلى مراعي الملكة لكي يَرى ما تفعلُه إخلاص دون أن تشتبه بأمرِه. كان ميرتان (هذا كان اسمه) متحَمّساً لأن يؤدي خدمَة لسيّده ولم يشأ أن يفوّت فرصة تتّسِمُ بالأهميّة بالنسبة إليه. فامتثلَ لأوامره في اليوم التالي وذهبَ إلى السّهل. ولم يكن حارس المراعي ليستقبله لو لم يكن يحمل أمراً منَ الأمير يقول فيه إنّه راعيه وقد أوكلَ إليه بحراسة قطيع خرافه.

وفي الحال سُمحَ له بالانضمام إلى الفريق الرّعويّ. كان أنيق التصرّف وراقَ في الحال للرّاعِيات. لكنّه وجَدَ أنّ إخلاص تتّسِم بنفحَة كبرياءٍ لا تتّفق مع وضعها ولا تتناغَم، نظَراً لجَمالِها وذكائها وفضائلها، معَ الحياة الرّيفيّة والرّعويّة التي تعيشها. عبثاً لحقَها إذ كان يجدها دوماً وحيدَة في عمق الغابات منصرفة إلى غنائها الحزين. لم يرَ أيّ راعٍ يجرؤ على الاقتراب منها. حاولَ ميرتان أن يتقرّب منها ويلفت انتباهها لكنّه عرف من خبرته أنّها لا تريد الارتباط بأحد.

كان في كلّ مساءٍ يُطلِع الأميرَ على سَيرِ الأمور. وكلّ ما كان يعرِفه

عنها كان يزيد في يأسه.
سألَه الفتى الشّابّ:
- لا تخدعنّك المظاهر يا سيّدي، ربّما كانت هذه الفتاة الجميلة تحبّ أحد أبناء بلادِها.
أجاب الأمير:
- لو كانَ ذلك صحيحاً فلمَ لا ترغب إذاً في العودة إلى بلادها؟
أضاف ميرتان:
- ومَن يَدري، ربّما كان هناكَ أسباب تمنعها من رؤية وطَنِها من جديد. ربّما كانت غاضبة من عشيقها...
هتف الأمير:
- آه تذكّرتُ! إنّها تُغنّي بحنانٍ شغوفٍ الكلمات التي سمِعتُها.
أضاف ميرتان:
- هذا صحيح: على كلّ الأشجار حَفَرَت اسمَيهُما، وبما أنّها لا أحدَ يُعْجِبها هنا فلا شكّ أنّ مَن يُعجِبها هوَ في مكانٍ آخر.
قال الأمير:
- امتحنْ مشاعرها تجاهي. قلْ لها عنّي خيراً، أو حدّثها عنّي بالسّوء وعندئذٍ يُمكنك أن تعرِف بماذا تفكّر.
لم يَلبث ميرتان أن فتّشَ عن مناسَبَةٍ للتحدّث إلى إخلاص.
قال لها:
- ماذا بك أيّتها الرّاعيَة الجميلة؟ تبدين كئيبة بالرّغم من كلّ الأسباب التي تملكينَها لتكوني أسعَدَ من أيّةِ فتاةٍ أخرى؟
قالت:
- وأي شيءٍ يدعوني لأكونَ سعيدة؟ ها أنا ملزَمَة فقط بحراسَة الخِراف. بعيدة عن بلادي ولا أعرف أيّة أخبارٍ عن أهلي، هل يبدو

لكَ كلّ هذا مُبهِجاً إلى هذه الدّرجة؟

أجاب:

- لا، لكنّك ألطَف فتاة في العالم. تتمتّعين بذكاء كبير وتغنّين بشكلٍ رائع ولا شيء يُضاهي جمالك.

قالَت وهيَ تطلِق تنهيدَة عميقة:

- حتّى لو كنتُ أملكُ كلّ هذه المحاسن فإنّها قلّما تؤثّرُ بي!

أضاف ميرتان:

- ماذا! أنتِ تطْمَحينَ إلى السّموّ إذاً! تظنّين أنّه يجب أن تولَدي ملكة على العرش لتعيشي سعيدة؟ حَذار أن تقعي في مثل هذا الخطأ! أنا صديق الأمير عَهْد وبالرّغم من تباينِ ظروفنا، أتقرّب منه أحياناً وأراقبه مُحاوِلاً أن أعرِف ماذا يَدورُ في دخيلته وأدرك أنّه ليسَ سَعيداً مع أنّه أمير!

- ماذا تقول؟ لكن ما الذي يعَكّر صَفوَ أيّامه؟

أردفَ ميرتان:

- إنّه الغرام المَحْتوم.

قالت وقد بدا عليها القلق:

- إنّه مغرَم، لَكَم أرثي لحاله! لكن ما بالي!...

ثمّ أضافَت وقد احمرّت خجلاً:

- إنّه جدير بالحبّ أو أولى بك أن تقول إنّه لا يُمْكِن إلاّ أن يُحَبّ.

قال:

- لكنّه لا يظنّ ذلك أيّتها الرّاعيَة الجميلة. وإذا كنتِ تريدينَ فعلاً أن تطمئنيه من هذه النّاحيَة فقولي له رأيك لأنّه يثق بكلامكِ أكثر من أيّ شخصٍ آخر.

قالتْ:

- لا يليق بي أن أتدخّل في الشؤون الخاصّة لهذا الأمير الكبير، لا بل عليّ تعمّد عَدَم التدخّل فيها. إلى اللّقاء ميرتان.

ثمّ أضافَت وهيَ تغادِره فجأة:

- إذا كنْتَ تريدُ أن نبقى صديقَين فلا تُحَدّثني عن أميرِكَ ولا عن غراميّاته.

وابتعدْت وقد بدا عليها الاضطراب الشديد. لم تكن مستخفّة بفضائِلِ الأمير. منذ اللحظَة الأولى التي رأته فيها لم تستطع أن تَمحو صورته من فكرها، ولولا السّحر الخفيّ الذي كان يَسْتَبْقيها هناك رَغماً عنها لَحاوَلَت كلّ ما بوسعِها للعثور على الجنيّة سائدة. وفي الواقع، لا نستطيع إلاّ أن نستغرب أيضاً موقف الجنيّة البارعَة العالمة بكلّ شيء لأنّها لم تأتِ لإحضارها. لكنّ الأمورَ لم تعد بيدِها. فما إن التَقى العملاق بالأميرة حتّى باتت أسيرَة قَدَرِها لبعضِ الوقت، ويجبُ أن يتمّ ما كُتِبَ لها. كانت الجنيّة تكتفي فقط بالمجيء لرؤيتِها عبرَ شعاعِ شمس تعجز عينا إخلاص عن التّحديق إليه بإمعانٍ فلا تراها.

ولاحَظَت تلك الأميرة اللطيفة بمرارةٍ أنّ الأميرَ أهمَلَها وأنّه لم يسَع إلى رؤيتِها لو أنّ الصّدفة لم تقُدْه إلى المكان الذي تغنّي فيه. كانت مُستاءَة جدّاً من نفسها لأنّها تكنّ له تلك المشاعر. وإذا كان مُمكناً أن يحبّ المرء ويكرَه في الوقت نفسه، فيمكنني القول إنّها كانت تكرهه لأنّها كانت تحبّه أكثر من اللّزوم. كم منَ الدّموعِ ذرَفَت سرّاً! كان الخروف شاطر شاهداً عليها. وغالباً ما كانت تُسِرّ له بهمومِها كما لو أنّه كان قادراً على فهْمِ ما تقوله. وعندما كان يقفز في السّهلِ معَ النّعجات كانت تهتف به:

- حاذر يا شاطر! حاذر أن تتأجّج نارُ الحبّ لديكَ فهو أسوأ

الشّرور جميعاً، لكنْ، إذا كنتَ تُحِبّ فماذا تفعَل أيّها الخروف الصّغير المسكين؟

واسترسلت في لوم نفسها لأنّها تكنّ مشاعرَ لأميرٍ غير مبالٍ بها وراودتها رغِبَة جارفة في نسيانِه عندَما صادفته في مكانٍ نَديّ. كان مستغرقاً في أحلامه بالرّاعِيَة التي تهرب منه إلى أن غالبَه الوسن فرقدَ على العشب. رأته فازدادَ ميلها له مستمِدّاً من رؤيته قوّة جديدة. لم تستطع الامتناعَ عن تذكّر الكلمات التي قالَها ميرتان عن المرحلة المضطربة التي يمرّ بها الأمير؛ وحين أعْلَمَها أنّه مغرَم، لا أحَدَ يعرفُ مَدى القلق الذي انتابَها بدَورِها! ومَهما يكن الحَذر الذي آلته على نفسِها كبيراً فإنّ وجهها المصطبِغَ بحمرَة الانفعال وشحوب القلق كان أصدق تعبير عمّا يعتمل في دخيلائها. لاحظ ميرتان تبدّلَ سِحْنَتِها، وكانت له أسبابه في مراقبتِها بدِقّة، وهُرِعَ لِيُعْلِمَ سيّدَه بملاحظاته.

لم يتحَمّس الأمير لِما قاله وصيفه. لم يكن يَرى إلاّ اللامبالاة في تصرّف الرّاعيَة حياله وكان يردّ ذلكَ إلى عَهْد السّعيد الحظّ الذي تهواه والذي أنشَدَت له الأغنيَة. ومنذ اليوم التّالي، ذهَبَ للبحث عنها. ما إن لمحته حتّى لاذت بأذيال الفرار وكأنّها رأت نمراً أو أسَداً؛ كانَ الهرب هو الحلّ الوحيد الذي تداري به شقاءها. ومنذ الحديث الذي جرى بينها وبين ميرتان، أدركت أنّ عليها السّعي الدؤوب لانتزاعِ حبّه من قلبِها، وأنّ تجنّب رؤيته هو السّبيل الوحيد لتَحْقيقِ ذلك.

لكن ماذا صارَ بِحالِ عَهْد عندَما رأى الراعيَة التي يحبّها تُسارِعُ إلى الابتعادِ عنه بنفور غريب؟ كان ميرتان قربَه.

قال له:

- أرأيت، أرأيت النّتيجة الحميدَة لَمساعيك: إخلاص تكرهُني ولا أجرؤ على اللّحاقِ بها لأبوحَ لها بِمَشاعِري.

أجاب ميرتان:

- لديك الكثيرِ منَ التّقدير لفتاةٍ ريفيّة كهذه. وإذا شئت يا سيّدي فسآمُرُها من قِبَلِكَ أن تأتي إليكَ هيَ بنفسِها.

هتف الأمير:

- آه يا ميرتان! لو تعلَم أنّ هنالك فرْقاً بينَ العاشق والصّديق المؤتَمَن على أسراره! لا أفكّر إلاّ بأن أروقَ لِتلكَ الفتاة اللَّطيفة وأجدَ أنّ لديها منَ الأدب ما لا يتّفق معَ التّصرّفات القسريّة التي تنوي أنتَ اتّخاذَها. أفَضّل أن أتعذّب على أن أحْزِنَها.

ما إن أنهى هذه الكلمات حتّى صارَ في الجهة المقابلة وانتابَته كآبَة عميقة تؤثّر في مَن يَراه وخصوصاً في إخلاص الحسّاسَة.

ما إن غابَ عن نظرِها حتّى عادَت على عقبَيها لكي تتلَذّذ بوجودِها في المكان الذي غادَرَه لتوّه. قالت:

- هنا توقّف، وهنا نَظَر إليّ. ولكن وَيا للأسَف في كلّ هذه الأمكنة لا يُقابِلني إلاّ بِعَدَمِ الاكتراث؛ يبدو أنّه يأتي إليها ليَحلمَ دون رقيب بمَن يحبّها، ولكن ما بالي... هل يحقّ لي أن أتذمّرَ؟ ما الذي يَدفعه لِيتَعلّق بفتاةٍ يحسبها أدنى منه مرتبةً؟

كانت ترغب أحياناً في أن تحْكي له قصّتها ولكنّ الجنيّة سائدة كانت حَظَرَت عليها بشكل مُطلَق أن تفصِحَ لأحَدٍ عن سرّها، وكان امتِثالها يتغلّب على مَصالحها بالذّات، لِذا اتّخذت القرارَ بأن تَلزَمَ الصّمت.

وبعدَ بضعَة أيّام، عادَ الأمير إلى المكان نفسه. تجنّبته بِعنايَة وحزنَ لذلك، فأوْكَل إلى ميرتان بأن يَلومَها على تهرّبِها. تظاهَرَت بأنّها لم تنتبه

للأمر، ولكن بِما أنّه لاحَظَ ذلك فسَتَحْتَرِس في المرّة المقبلَة لِتَصرّفاتها.
سُرَّ ميرتان لِكلامِها وأخطَرَ بهِ سيّدَه. وفي اليوم التّالي، أتى لِموافاتها. عندَما اقتربَ منها، بَدَت مُحرَجَة. وعندما حَدّثَها عن مشاعره، زادَ حرجُها وارتِباكُها. وَمَهما تكن رغبتها جارفة في تصديقه كانت خائفة من أن يُخيّبَ ظنّها وأن يَحْكمَ عليها وفْقَ ما يراه ويتلذّذ بإبهارها بتصريحٍ بالحبّ لا يتلاءم مع وضعِها كراعِيَةٍ فقيرة. أغاظتها هذه الفكرة فازداد كبرياؤها وتلقّت إفصاحه عن حبّه ببرودَة تامّة عزّزت من شكوكه وارتيابه. قال لها:

- أنتِ مغرَمَة برجل آخر! لكنّي أُشهّد السّماءَ على أنّني إذا عرفته فسأصبّ عليه جامَ غضبي عليه.

أجابت:

- لا أطلب منك الرّحمَة لأحدٍ يا سيّدي. لو عَلِمْتَ بمشاعري لَعرفتَ أنْ لا علاقة لها بما تنسِبُه لي.

ما إن سمِع الأمير هذه الكلمات حتّى استعادَ قبساً من رجاء. لكنّ ذلك الرّجاء ما لبثَ أن بدّدته تتِمَة حوارهما لأنّها قالت له إنّها لا تبالي بالحبّ، لا بل إنّها لن تحبّ أبداً في حياتها. وكلماتها الأخيرَة هذه تسبّبت له بألمٍ لا يُطاق لكنّه تَمالكَ نفسَه وتحامل على ألَمِه قدر الإمكان.

إمّا أنّه الإكراه الذي فَرَضَه على نفسه، أو أنّه شطَطُ شغَفِه الذي تَفاقَم بسبب الصّعوبات التي تعترضه، سقط الأمير صَريعَ المرض وكان الأطبّاء يجهلون سبب علّته فيَئسوا من إمكانيّة شفائه وأصبَحَت حياته في خَطر. بيد أنّ ميرتان، الذي لازَمَ بأمرٍ منَ الأمير إخلاص، أعْلَمَها بالأخبار المحزِنَة فاستمَعَت إليه باضطّراب وانفعال يصعب وصفُها.

قال لها:

- ألا تعرفينَ دواءً نافِعاً للحمّى ولأوجاع الرّأسِ والقلب؟

- أعرف دواءً، إنّه مزيج منَ الأعشابِ والأزهار، ولكنّ كلّ شيءٍ متعلّق بطريقة تحضيرها.

أضاف:

- ألا يمكنكِ المجيء إلى القصر لأجل ذلك؟

قالت وقد احْمَرّ وجهها:

- لا، أخشى فعلاً ألاّ أنجح.

أردَفَ ميرتان:

- لكن ماذا دَهاكِ! أوَ تقْدِرينَ على التّهاونِ معنا في أمْرٍ فيه منفعة أميرنا؟ أعرِفُ أنّك قاسِيَة جدّاً ولكنّكِ أقسى مائة مرّة ممّا تَصوّرتُك.

كانت مآخذ ميرتان تُدْخِل السّرور إلى قلب إخلاص وكانت مسرورَة لِكَونه يلحّ عليها لرؤيَة الأمير.

ولكي تفوزَ بهذه الأمنيَة، ادّعَت أنّها تعرف دواءً قادراً على التّخفيف عن الأمير لكنّها في الحقيقة لم تكن تعرف أيّ دواء.

ذهبَ ميرتان لزيارَة الأمير. أخبره بما قالته الرّاعيَة ووصف له اللهفة التي أظهرتها متمنّيةً أن يتعافى. قال له عَهْد:

- تسعى إلى إرضائي لكنّي أسامحك. على أيّة حال أودّ أن أقدِرَ على التّفكير (حتّى لو كنت مخطِئاً) بأنّ هذه الفتاة تُكِنّ مودّة ما لي. اذهبْ إلى الملكة وقل لها إنّ إحدى راعِياتها تملك سرّاً عجيباً وإنّ بإمكانها شفائي وخذ منها الإذن باصطِحابِها: اركض ميرتان، طِرْ في الحالِ لأنّ اللّحظات تبدو لي دُهوراً.

لم تكن الملكة قد رأت الرّاعيَة بعدُ عندَما حدّثها عنها ميرتان. قالت له إنّها لا تؤمن بالمعرِفَة التي تدّعيها االصّغيرات الجاهِلات

وإنّ اصطحابَها إلى القصر لهو ضربٌ من الجنون.

قال لها:

- ولكن يا سيّدتي، أحياناً يمكننا أن نَجِدَ الشّفاء في بعض الأعشاب أكثر ممّا نجده في جميع كتب إسكليبيوس[1]. الأمير يتألّم كثيراً ويتمنّى أن يُجرّبَ كلّ ما تقترحه هذه الفتاة.

قالت الملكة:

- حسناً. لكن إذا لم تشفهِ فسأعاملها بقسْوَة بحيث لا تجرؤ بعدَ اليوم أن تدّعي الحِذْق.

عادَ ميرتان إلى سيّده وأعْلَمَه بمزاجِ الملكة السيّء وأنّه يخشى أن تُقاسي إخلاص بسببه.

هتف الأمير:

- أفضّل الموت على ذلك. عُدْ على عقبَيكَ وقلْ لوالدَتي إنّني أتوسّل إليها أن تَدَعَ هذه الفتاة الجميلة بالقرب من أغنامِها البريئة، ثمّ أردف:

- ليسَ عليها أن تتحمّل هذا العناء! أشعر أنّ هذه الفكرة تزيد من ألمي.

هُرِعَ ميرتان إلى الملكة يقول لها من قِبَلِ الأمير ألاّ تدَعَ إخلاص تأتي إلى القصر. ولكن بما أنّ الملكة كانت بِطَبيعَتِها سريعَة المبادرَة فقد أغاظَها تردّد ولَدِها وتقلّبه. قالت:

- لقد أرسلتُ في طلبها. إذا شَفَت ولَدي فسأعْطيها شيئاً ما على سبيل المُكافأة، وإذا لم تشفهِ فأنا أعرف ماذا عليّ فعله. عُدْ إليه وحاول أن تُسَلّيَهُ، إنّه في كآبَة تُحْزِنني.

أطاعَها ميرتان لكنّه احترَسَ جيّداً من أن يعرف سيّدَه عن المزاج

(1) إله الطبّ لدى الإغريق القدامى.

السيّء للملكة لأنّه سيَموت همّاً لقلقه على الرّاعِيَة.

كانت مَراعي الملكة قريبَة منَ المدينة، لِذا لم تتأخّر الرّاعيَة في الوصول إليها، هذا دون أن ننسى أنّها كانت مدفوعة بشغَفٍ يَحْدوها للإسراع أكثر. عندَما وصلَت إلى القصر أُعْلِمَت الملكة بذلك لكنّها لم تُكلّف نفسَها عَناءَ رؤيَتها بل اكتَفَت بأن تطلب منها الاحتِراسَ ممّا ستبادر إلى فعله؛ وإذا لم تشفِ الأميرَ فستضعها في كيس مقفل وترميها في النّهر. عندَما سَمِعَت الأميرة الجميلة هذا التّهديد شحَبَت وجَمَدَ الدّم في عروقِها.

قالت في نفسِها:

- تبّاً لي! إنّني لأستحِقّ مثل هذا العِقاب لكذبي وادّعائي معرفة التّداوي بالأعشاب. ورغبتي في رؤيَة عَهْد ليست عاقلة بما يكفي لتُهرَع السّماء لحمايتي!

خفضت رأسَها برِقّة وسالَت دموعها دون أن تجيب.

أولئك الذين كانوا حولَها أعجبوا بها. بَدَت لهم فتاة منَ السّماء وليسَ شخصاً منَ البَشَر.

قالوا لها:

- وممّ تخافين أيّتها الرّاعيَة اللّطيفة؟ إنّكِ تحمِلين في عينيك الحياة والموت. وإنّ نظرَة واحدَة من نظراتِكِ يُمكنها أن تديمَ عُمرَ أميرنا الشّاب. تعالَي إلى غرفته، جَفّفي دموعَكِ واستعمِلي دواءَكِ دونَ خشيّة.

إنّ الطّريقة التي تكلّموا بها والرّغبة العارِمَة التي دفَعَتها لرؤيته قد أعادَتا إليها الثّقة بنفسها من جديد: توسّلَت إليهم أن يَدَعوها تدخل إلى الحديقة لتقطفَ بيدِها كلّ ما كان ضَروريّاً لها. أخذت آساً ونفْلاً وأعشاباً وأزهاراً أهدَت بَعضها إلى كوبيدون رسول الحبّ وبعضها

الآخر لوالِدَته فينوس. أخذت ريشاتِ يمامَةٍ وقطراتٍ قليلةً من دمِ ذكَرِ حمامٍ، واستغاثت بجميع القوى السّماويّة والجنيّات. ثمّ قالت، وهي ترتَجِف كما ترتجف اليَمامَة عندَما تَرى صَقراً، إنّ بإمكانهم اصطحابها إلى غرفة الأمير. كان مضطَجعاً في سريره، شاحِبَ الوجه، سَقيم العينين. لكن ما إن لَمَحها حتّى تبدّلَ لونُ وجهه إلى الأفضل ولاحَظت ذلكَ بفرَحٍ عَميم.

قالت له:

– سيّدي، منذ أيّام وأنا أنذر النّذورَ لِتعود إليكَ صحّتك. لا بَل إنّ ورَعي دَفعَني لأن أقولَ لأحَدِ رعيانِكَ إنّني أعرف بَعض الأدوِيَة النّاجِعَة، وإنّني سأحاول التّخفيف من آلامِك بكلّ سرور. لكنّ الملكة قالت لي إنّه إذا تخلَّت عنّي السّماء ولم أستطع شفاءكَ فإنّها تنوي إغراقي في النّهر. أحكمْ بنَفسكَ يا سيّدي على المخاطِرِ التي تحدق بي وَكن مقتنِعاً أنّني أهتمّ بشفائكَ حرصاً على سلامتكَ أكثَرَ من حرصي على سلامتي.

قال لها:

– لا تخشَي شيئاً أيّتها الرّاعيَة الفاتِنَة. الأمنيات الجَميلة التي تتمنّينَها لِحياتي ستجعلها عزيزة عليّ وسأبذل جهدي للمحافظة عليها. كنت لا أبالي بأيّامي: وأنّى لي أن أكون سعيداً حين أتذكّر الأغنية التي سمعْتُكِ تنشدينَها لِعَهْد! هذه الكلمات المشؤومَة وبرودَتك أحالَتني إلى الوضع التّعيس الذي ترينَني فيه، ولكنّك أيّتها الرّاعيَة الجميلة تأمُرينني بالعيش، لِنَعِشْ إذاً، لنعشْ من أجلكِ فقط.

لم تستطع إخلاص أن تُخفي إلاّ بمشقّةٍ اللذّةَ التي شعرت بها لهذا القول اللّطيف. ومعَ ذلكَ، ولأنّها خافَت أن يسمعَ أحدٌ ما كان يقوله لها الأمير، سألته ألَم يكن منَ الأفضل أن تضعَ له ضمادات

الأعشاب التي قطفَتْها على رأسه وحوْلَ معصميه. مَدّ لها ذراعَيه بحنان فوضعَت له بسرعة إحدى الضّمادات خوفاً من أن يُلاحِظَ أحدُ الحاضرين ما كان يدور بينهما. وهتفَ الأمير بعدَ بضع لحظات إنّه لم يعد يشعر بالألم. وكان ما يقوله صَحيحاً: أُحْضرَ أطبّاؤه وَمَكثوا مندَهِشينَ منَ المفعول السَريع لذلك الدّواء. وعندَما رأوا الرّاعيَة التي عالجته، عدلوا عن تفاجئهم وقالوا إنّ نظرة واحِدة من نظراتها أشدّ نجوعاً منَ الأدويَة كلّها.

كانت الرّاعيَة غير متأثّرة بكلّ المدائح التي تُكال لها، ما دفع المادحين لاستغراب تصرّفها ووصفه بالأبله، غير مُدركين أنّ له أسبابه. انزَوَت في ركنٍ منَ الغرفة واحتجبَت عن الجميع إلاّ عن مريضِها. كانت تقترب منه من وقت لآخر لكي تلمس رأسه أو تجُسّ نبَضه، وخلال تلك اللّحظات القليلة كانا يقولان أحدهما للآخر آلافَ الأشياء الجميلة التي يمليها انعطاف قلبيهما.

قالت له:

- آمل يا سيّدي أنّ الكيس الذي أمَرَت الملكة بتحضيره لإغراقي لم يعد صالحاً لذاك الاستعمال المشؤوم. يبدو أنّ صحّتك التي هيَ غاليَة جدّاً عندي آيلةٌ إلى التحسّن.

أجاب:

- الأمر متعلّق بكِ يا إخلاص اللّطيفَة. افردي لي مَكاناً صغيراً في قلبك فأرتاح ويُكتب لي عمر جديد.

نهض الأمير وذهب إلى جناح الملكة. عندما قالوا لها إنّه سيدخل إلى غرفتها لم تشأ تصديقَهم. تقدّمَت فجأة لِلقائه ومَكثت مندهشَة فعلاً لرؤيته أمام باب غرفتها.

هتفت:

الانبعاث العجيب؟

أجابَها:

- لِطيبَتِكِ وحنانكِ يا مولاتي. أرسلتِ في طلبِ أمْهَرِ فتاةٍ في العالم. أتوسّل إليكِ أن تُكافِئيها بطريقَةٍ متناسبَة مع الخَدمَة التي أدّتْها لي.

أجابت الملكة بنبرَةٍ قاسيَة:

- ليسَ الأمر مستعجلاً. إنّها مجرّد راعيَة بسيطَة تعتبر نفسها محظوظة لكَوْنها تحرس خرافي.

وفي تلك اللحظة وصَلَ الملك. ذهبوا لِيُعْلِنوا له الخبرَ السّعيدَ لشفاء الأمير. دخلَ على الملكة. أوّل شيءٍ لفَتَ نظرَه هوَ إخلاص بجمالها الذي يُشبِه الشّمس السّاطعة بألف شعاع، جمالها الباهر الذي جعلَه مذهولاً لبَعضِ الوقت غيرَ قادرٍ على سؤال الحاضرين مَن هيَ تلك الفتاة الرّائعَة ومنذ متى تسكن فتيات السّماء قصرَه.

وأخيراً أفاق من ذهوله واقترَب منها. وإذ عرف أنّها السّاحرَة التي شَفَت ولَدَه للتوّ، قبّلها وقال متظارِفاً إنّ حالَته سيّئة للغاية واستحلَفَها أن تُبادر إلى شفائه هوَ أيضاً.

دخل، وتبعته إخلاص. لم تكن الملكة قد رأتها بعد. لا يمكن وصف دهشتِها لدى دخول الفتاة. أطلقتْ صرخة عظيمَة وتَهاوَت أرضاً موجِّهة إلى الرّاعيَة نظراتٍ غاضبَة. مكث عَهْد وإخلاص مرتعِبَين. لم يعرف الملك ما سبب تلك النّوبَة المفاجئة وأظهر جميع أفراد الحاشية استياءهم لما جرى. وأخيراً عادَت الملكة إلى رُشدِها. سألها الملك مرّات عدّة ما الذي دهاها لكي تتصرّف على هذا النّحو فأخفَت اضطرابها وقالت إنّه مجرّد إرهاق فحسب. لكنّ الأمير

كان يشعر بالقلق إزاء تصرّفِ والدته فهو يعرِفها جيّداً. تحدّثَتْ إلى الرّاعيَة بشيءٍ منَ الطّيبَة قائلةً لها إنّها تريد أن تبْقِيَها قربها لكي تعتني بزهور حديقتِها. شعرَت الأميرة بِفَرَحٍ عندما فكّرَت أنّها ستبقى في مكانٍ يتيح لها أن ترى عَهْد في كلّ يوم.

إلاّ أنّ الملك أرغَمَ الملكة على الدّخول إلى مكتبِه وسألها بلطفٍ عن سبب الهلع الذي انتابها لدى رؤية الفتاة.

هتفت قائلة:

- آه يا مولاي. رأيت حُلماً مُرْعِباً. لم أرَ في حياتي هذه الرّاعيَة الشابّة لكنّ خيالي صوّرَها لي بوضوح كليّ وَما إن لمحْتُها حتّى عرَفتُها. رأيتُها في الحلم تتزوّج ابني. وأخشى أن تتسبّب لي هذه الفلاحَة البائسة بألَمٍ كبير.

قال لها الملك:

- وهل تثقين بالأحلام وهي من نسج الخيال! أنصحكِ بألاّ تركني إليها. أرْسِلي الرّاعية لِتَحْرُسَ لكِ قطعانكِ ولا تَحزَني لأجلِ أشياءَ مَوهومَة.

أغضبَت نصيحَةُ الملك الملكة. كانت أبعدَ من أن تمتثِلَ لها ولم تعد تنوي إلاّ تحرّي مشاعر ابنها تجاه إخلاص.

اغتنم الأمير كلّ الفرَص لرؤية الفتاة. بِما أنّها كانت تعتني بالأزهار فإنّها كانت غالباً في الحديقة تَرويها. ويبدو أنّها كلّما لَمَستها ازدادَت لَمعاناً وجمالاً. كان شاطر يُرافِقها وكانت تتحدّث إليه أحياناً عن الأمير مع أنّه لم يكن بِمَقدورِهِ أن يجيبَها. وعندما يقترِب منها الأمير تظَلّ مرتبكة، وكانت عيناها تَشِيانِ بأسرارِ قلبِها بِما يكفي. كان الأمير مفتوناً بها وكان يقول لها كلّ ما يقوله عاشق حنون بوحيٍ من قلبه.

أمّا الملكة فلم يعد بإمكانها النّوم لتشبّثها بحُلمِها ولِخَشيَتِها من تأثير جمال إخلاص الذي لا يُضاهى. كانت تستيقظ مع الفجر؛ وتختبئ أحياناً خلف سياج الحديقة وأحياناً أخرى في عمقِ مغارة لكي تسمعَ ما كان ابنها يقوله للفتاة الجميلة. لكنّهما كانا يلتزمان الحذر في لقاءاتهما فيتحدّثان بصوتٍ خفيضٍ جدّاً ما حدا بالملكة للتّصرّف فقط بموجَبِ ظنونها. وكان قلقها يتفاقم، ولم تكن تنظر إلى ابنها الأمير إلاّ باحتقارٍ، وتهجس ليلاً ونهاراً بفكرة أنّ تلك الرّاعيَة ستَعْتَلي العرش.

كان عَهْد يُراقب تصرّفاته ويضبطها قدْرَ الإمكان. ولكن الجميع لاحظوا مع ذلكَ أنّه يحبّ إخلاص. سواء كان يمتدِحها على دارجِ عادَته بالتّعبير عن إعجابه بها، أو يلومُها عن قصدٍ فإنّه في الحالتينِ كان يتصرّف كرَجُلٍ مهتمّ بأمرِها. وإخلاص من جهتها، لم تكن تستطيع الامتناعَ عن التحدّث عن الأمير إلى صديقاتها. وبما أنّها كانت تغنّي غالباً الكلمات التي ألّفَتها لأجله ظلّت الملكة مندَهِشَة لدى سَماعِها صوتها الرّائع وجمال كلمات الأغنيَة.

كانت الملكة تقول:

– ماذا فعَلْتُ لكِ أيّتها القوى السّماويّة العادِلة. ماذا فعلت لكي أُعاقَب في الأمر الذي يمسّني في الصّميم؟ يا ويلتاه! كنت أريد تزويجَ ابني من ابنة أخي وها إنّي أرى، والألم يكاد يميتني، أنّه متعلّق براعِيَة بائسة ستجعله أكثرَ عصياناً لأوامري.

وفيما كانت الملكة تنْدب حظّها وتفكّر في ألف طريقة لكي تُعاقب إخلاص على جمالها وفتنتها، كان الحبّ يزداد توهّجاً في قلبَي عاشقينا اليافِعَين. وإذ اقتنَعت إخلاص بصدقِ الأمير، فإنّها لم تستطع أن تُخفي عنه أصلها الشّريف ولا مَشاعرَها تجاهَه. سحَرَه هذا الاعتراف

الرّقيق وهذا البَوح الحميم، وفكّر أنّه لو كان في مكان آخر غير حديقة الملكة لَكان ارتَمى عندَ قَدميها ليَشكرَها على إجلاء ذلك السرّ. آلَمَه أن يكون مكرَهاً على كتمان شغفه. أحبّ إخلاص الرّاعيَة وازداد حبّه لها عندما عرف مقامَها. وإذا كان صدّق بسهولة هذا الأمر الغريب، أي أن يَرى أميرة عظيمة متشرّدَة في أرجاء العالم تارةً تعمَل كَراعيَة وطوراً كبُستانيّة، فذلك لأنّه في تلك الأزمِنَة كان هذا النّوع منَ المغامَرات شائعاً جدّاً. ثمّ إنّه كان يجد في تصرّفاتِها وحركاتِها دَليلاً على صدق أقوالِها.

عاهَدَ الأميرُ عَهْد المفعَمُ بالحبّ والاحترام الأميرةَ على وفاءٍ أبديّ. وهكذا فعَلَت هيَ أيضاً. وتواعدا على الزّواج ما إن يوافق الأهل على قِرانهما. لاحَظَت الملكة قوّة ذلك الشّغف النّاشئ. وذات يوم جاءت وصيفَتها، وكانت تسعى لإرضائِها من خلال إثباتِ ظنونها، تقول لها إنّ إخلاص كانت تُرسل شاطراً كلّ صباح إلى جناح الأميرِ حامِلاً سلّتَينِ ممتَلِئتينِ أزهاراً وكان ميرتان يقتاده. فَقَدَت الملكة صبرَها لدى سماعها هذه الأخبار. وانتظرَت بِنَفسِها مرور شاطر المسكين. وبالرّغم من توسّلات ميرتان، اقتادَت الخروف إلى غرفَتِها ومَزّقَت السّلالَ والأزهارَ إرباً وفتّشت بينَها فوَجَدَت في قرنفلة كبيرة غير متفتّحة قُصاصةَ ورقٍ صغيرة كانت إخلاص أدْخلَتْها بلَباقَةٍ كبيرَة. وكانت في تلك الرّسالة توجّه مَلامَة رقيقة إلى الأمير لِخَوْفها منَ المخاطرِ التي يتعرّض إليها كلّ يومٍ أثناء ممارَستِه هِوايَة الصّيد. وقد جاء فيها ما يلي:

وسَطَ المَلَذّاتِ التي أنْعَمُ بها
أشعرُ بالخَطَر

لأنّك يا أميري تذهَب كلّ يوم لِلصَيد في تلكَ الأمكِنة.
حبّاً بالسّماءِ قلْ لي أيّ سحرٍ تجِد في مطارَدتكَ
ضَواري الغاباتِ تلك؟
حرِيٌّ بكَ أن توجِّهَ سِهامَكَ إلى القلوبِ الحنونة
المنقادة لك:
حَرِيّ بكَ تجنّبُ غضَبِ الدّببَةِ والأُسود.»

وفيما كانَ غيظ الملكة حِيالَ الرّاعيَة يبلغ منها مبْلَغاً، ذهَبَ ميرتان لِيُعْلِمَ سَيّدَه بالحادِثةِ البَغيضَةِ التي حصَلَت معَ الخروف. هُرِعَ الأمير القلِق إلى جناحِ والِدَتِه لكنّها كانت ذهبَت لِلِقاءِ الملك.

قالت له:

- أرأيت يا مولاي المشاعرَ النّبيلة لابنك. إنّه يحِبّ تلك الرّاعيَة التّعيسَة التي أقنعتنا بأنّها تعرِف عِلاجاً ناجعاً لشِفائه. يبدو أنّها تعرف سرّ الدّواء لأنّ الحبّ هوَ الذي علّمَها. لم تردّ له صحّته إلاّ لكي تصيبَه بِشرور أكبر. وإذا لم نَحْتطْ للمَصائب التي تهَدّدُنا فإنّ حلمي الذي أَخبرتُكَ به سيتَحقّق.

قال لها الملك:

- أنتِ صارِمَة بطَبيعَتك. تريدين ألاّ يفكّرَ ابنك إلاّ بالأميرة التي اخترْتِها له زوجَة. ليسَ الأمر سهلاً، لذا عليكِ أن تتحَلّي بشيء منَ التّسامح حِيالَ سنّه.

هتفت الملكة:

- لا يمكنني أن أحْتَمِلَ دِفاعَك الدّائِمَ عنه. كلّ ما أطلبه منكَ يا مولاي هوَ أن توافِقَ على إبعادِه لبعضِ الوقت لأنّ غيابَه سيحلّ المشكلة.

كان الملك يُحبّ السّلام. وَيُذعِن لكلّ ما تطلبُه الملكة التي عادَت في الحالِ إلى جناحِها.

وَجَدت فيه الأمير وكان ينتظِرها بقلقٍ بالغ.

قالت له قبل أن يُبادِرَها بالكلام:

– يا بُنَيّ، أراني أبوك الملك رسالة بعثها شقيقي الملك لتوّه، ويريدك أن تذهب إلى قصره لكي تتعَرّف على الأميرة التي اختيرَت زوجَة لك منذ الطّفولة وتتعرّف هيَ إليك. أليسَ منَ العَدل أن تحْكم بنفسِكَ على مَزاياها وأن تحبّها قبلَ أن تتّحِدا للأبد؟

قال لها الأمير:

– لا أطلب شيئاً مميّزاً لنَفسي. لم يعد عُرْفاً أن يَزورَ الملوك بعضهم بعضاً وأن يستشيروا قلوبَهم بدَلاً من اعتبار المصلحَة العامّة حافِزاً للمُصاهَرَة. سواء كانت الفتاة التي اختَرْتِها جميلة أم قبيحَة، ذكيّة أم غبِيّة فالأمر سواء.

هتفت الملكة وقد تفجّر غضبها فجأة:

– أفهَمُ ما تَرْمي إليه أيّها الفتى المتهوّر. أنتَ مُغرَم براعيَة غير جديرَة بكَ وتخاف أن تتركَها. ولكنّك ستتركها وإلاّ جعلتها تقضي نحْبَها أمام عينيك. لكنّك إذا رحَلت دونَ تأخير أو مماطلة وعملت جهدَك لنسيانِها فسأحتفظ بها بالقرب منّي وسأحبّها بقدْرِ ما أكرهها الآن.

شحبَ وجه الأمير وكأنّه مشرف على الموت. شاورَ نفسه بشأن القرار الذي يجب اتّخاذه. قلّب المسألة من كافّة وجوهها ولم يكن يرى إلاّ غيوماً سوداء تلوحِ في الأفق. كان يعرف أنّ والِدَته كانت أشدّ الملكاتِ قسوَة وانتقاماً فخَشيَ أن تغيظَها مقاوَمَته لها وأن تُعاني عشيقته المحبوبة من جرّاء ذلك. وأخيراً، وقَد حثّته والدَته على البتّ

في الأمر والقول ما إذا كان ينوي الرّحيل أم لا، أعلن موافقته كما يوافق رَجلٌ على اجتراع كأسِ السمّ الذي سيَقتله.

وعدَ والدته بالرحيل ثمّ خرجَ من غرفتها ودخل إلى مخدعه منْقَبِض القلب وهوَ يشعر أنّه على شفير الموت. أسَرّ إلى ميرتان الوفيّ بالمصيبَة التي لَحِقَت به. وأرادَ أن يُخبِرَ إخلاص عمّا جَرى وذهب للبَحث عنها نافِدَ الصّبر. أحياناً كانت تلوذ إلى أحدِ الكهوف هرباً من أشعّة الشّمس الحارقة في الحَديقة. أمامه كان هناك مرج صغير منَ العشب الأخضر على ضفّة شلالٍ متساقطٍ من أعلى إحدى الصّخور. في ذلك المكان الهانئ أرْخَت جدائلَ شعرِها الأشقر المتموّج المائل إلى الفضّة، والأرقّ منَ الحَرير؛ وَضَعَت قدَمَيها العارِيَتينِ في الماء فحملَتْها وشوَشَته العذْبَة على الاسترخاء بعد تَعَبِ العَمَلِ واستسلِمت تدريجاً للوسن الجميل. رغم أنّ عينيها كانتا مغمَضتَينِ إلاّ أنّهما احتفظتا بكلّ سِحرِهما. وكانت أهدابها الطّويلة السّوداء تُبرز بياض بشرَتِها. بَدا وكأنّ إلهات الجمال وآلهة الحبّ يرفرفون فوقها، وكان التّواضعَ والعُذوبَة يزيدان على جمالها جمالاً.

وهناك في تلك الخلوة، عَثَرَ عليها الأمير العاشق. تذكّرَ أنّها كانت نائمةً أيضاً حين رآها أوّل مرّة، لكنّ المَشاعر التي ألهَمَته مذ ذاك ازدادَت ولهاً وأحسّ أنّه يُعطيها نصف حياته ليعيش نصفَها الآخر قربَها. نظرَ إليها لِبَعضِ الوقت بلَذّة أنْسَتْه همومَه إلى حين. ثمّ جالَ نظره على مفاتِنِها فلَمَحَ قدَمَها الأشدّ بياضاً منَ الثّلج. لم يستطع أن يشيح ببصره عنها لشدّة إعجابه بها. اقتربَ منها ساجَداً على ركبَتيه ثمّ أمسكَ بيدِها فأفاقت في الحال وبدَت مستاءَة لأنّه رأى قدَمَها فخَبّأتها وهيَ تحْمَرّ خجَلاً مثل وردَة حمراء تفتّحَت مع انبثاق الفجر. لكنّ ذلك اللّون ما لبثَ أن شحبَ لأنّها لاحَظت حزناً شديداً

على وجه الأمير. قالت له مرتَعِبَة:

- ما بِكَ يا سيّدي؟ أرى من عينيكَ أنّك في غاية الحزن.

قال لها وهو يَذرِف دموعاً لم يقوَ على تداركِها:

- آهِ يا أميرَتي الغاليَة، مَن يقدر في مثْل هذه الحال على غير الحزن؟ سيفرِّقون بيننا، عليّ أن أرْحَل، أو أعَرّضَ أيّامَكِ لكلّ الأخطارِ التي قد تنجمُ عن غضبِ الملكة. فهيَ عرفَت بالحبّ الذي يجمَعني بك. لا بَل إنّها رأت الرّسالة الصّغيرَة التي كتبْتِها لي، إحدى وصيفاتِها قالت لي ذلك. لم تبدِ أيّة رغبة للتّعاطف معَ ألمي، لا بل ترغمني على الذهاب إلى الملك أخيها بكلّ ظلمٍ وإجحاف.

هتفت الأميرة:

- ماذا تقول أيّها الأمير؟ أنتَ على أُهْبة أن تتركني وتظنّ أن ذلك ضروريّ للإبقاءِ على حياتي؟ كيف بإمكانكَ أن تتصوّر مثلَ هذا المَسعى؟ دَعْني أموتُ أمام ناظِرَيك على أن أعيش بعيدة عنكَ فهذا أسهل عندي.

لا يمكن لمثلِ هذا الحديث الرّقيق المستعطِف إلاّ أن تقطَعَه غالباً الشّهقات والدّموع. لم يكن هذانِ العاشِقانِ اليافِعانِ يعرفانِ بعدُ تباريح الغياب ولم يحتَرِسا لها، وذلك ما أضافَ هموماً جديدة على تلكَ التي اعترضتهما حتى ذلك الحين. تعاهَدا ألفَ مرّة على الوفاء والحبّ الأبدي. ووعدَ الأمير إخلاص بالعودَة بأقصى سرعَة. قال لها:

- لا أرْحَل إلاّ لأُفهم خالي وابنته بأن يعدلا عن فكرَة مصاهرتي، لن أعمَلَ إلاّ على إسخاطِ تلك الأميرَة التي يخطّطون لتزويجي بها وسأنجح في ذلك.

قالت إخلاص:

- إذاً لا تدعها تَراكَ وإلاّ لأعْجبتَها مَهما حاولت أن تنفّرها منك.

وراحا كلاهما يبكيانِ بمرارة وألم. تبادَلا نّظرات مفعمة بالأسى وتَعاهَدا كلٌّ من جانبِه وبشغفٍ كبير، وكان ذلك بِمثابَة عَزاءٍ لهما، على أن يظلاّ على مشاعرهما الرّقيقة والجامِحَة في آن.

مرّ الوقت أثناءَ ذلك الحديث الرّقيق بسرعة كبيرة وكان اللّيل قَد ادلَهَمّ قبل أن يفكّرا بالافتراق. لكنّ الملكة أرادت أن تستشير الأميرَ بالنّسبة للموكب الذي سَيرافقه فعجّل ميرتان بالمجيء للبَحث عنه. وجَدَه ساجِداً أمامَ عشيقته ممْسِكاً بيَدِها في يدَيه. ولدى رؤيته تصلّب العاشقان بحيث عجِزا عن الكلام. قال لسيّدِه إنّ الملكة تطلبه ويجب الانصياع لأوامِرها. كذلك ابتعَدَت الأميرة من جهتها.

وَجَدَت الملكة الأمير في غايَة الكآبة، متبدّل الملامح فأدركت في الحال مَن كان السّبب. لم تشأ أن تُحَدّثَه عن الأمر، يَكفيها أن يَرْحَل. وبالفعل، تمّت التّحضيرات بسرعَةٍ كبيرَة بَدا معها وكأنّ الجنيّات يتدخّلنَ في سَيرِ الأمور. وهو لم يكن منشغِلاً إلاّ بِما يتعلّق بشغفه. أرادَ أن يبقى ميرتان في القصر لكي يمدّه كلّ يوم بالأخبارِ عن أميرته. ترَكَ لها أجمَل جواهره في حالِ احتاجَت إليها وجعلته فطنَته غير غافلٍ عن أيّ شيء في مثل ذلك الظّرف الخطير من حياته.

وأخيراً توجّب عليه الرّحيل. لا يمكن التّعبير عن اليأس الذي تولّى عاشقَينا اليافعَين. لم يكنْ شيء يستطيع التخفيف من وطأة ذلك اليأس إلاّ الأمل بالتلاقي من جديدٍ قريباً. عندئذٍ أدرَكَت إخلاص فَداحَة بَلِيّتِها: أن تكونَ ابنة الملك، أن تمتلِكَ ولاياتٍ مترامِيَةَ الأطراف، وأن تَجِدَ نفسَها بينَ يدَي ملكة متوحّشَة تُبْعِد ابنَها خشيَةَ أن يقعَ في حبّها هيَ التي لم تكن دونَه في شيء والتي تملك كلّ المؤهّلات ليسعى إثرها أهمّ ملوكِ الكون. لكنّ القدَرَ شاءَ ذلك.

سُرَّت الملكة لغياب ابنِها، ولم تعد تفكّر عندئذٍ إلاّ بِمصادَرَة الرّسائل التي تُبْعَث له وقد نجَحَت في ذلك بعد أن عرِفت أنّ ميرتان كانَ المؤتَمَنَ على أسراره. فأعْطَت الأوامرَ بتوقيفه ملفّقةً حجّة كاذِبَة وأرسلته إلى سجن في أحدِ القصور حيث كان يقاسي آلالام الاعتقال. اسْتاءَ الأمير من هذه الأخبار كثيراً وكتب إلى الملك والملكة يسألها إطلاق سراح صديقه المفضّل. ولكن كانَ ذلك جزءاً يَسيراً منَ فصل عذابه الطويل.

ذاتَ يوم، أفاقَت الأميرة منذ الفجر ودَخلَت إلى الحديقة لتقطِفَ الأزهارَ التيّ تُستخدَم عادةً لزينَة الملكة فرأت شاطراً الوفيّ لا يكاد يتقدّم إلى الأمام حتّى يعود على عقبَيه مرتعداً. وعندما أرادت أن تعرف ما الذي يُثير خوفه إلى هذا الحدّ، بدأ يجتذِبها من ثوبها لكي يمنَعَها منَ الاقتراب (فهوَ كان مفعَماً بالذّكاء). سمعت حَفيفَ أفاعٍ حادّاً. وفي الحال طوّقتها الضّفادع والأفاعي والعقارب والنّواشر[1] والحيّات التي أخذت تنشب في الهواءِ لكي ترتمي عليها وتلسَعَها لكنّها ارتَدّت إلى حيث كانت عاجِزَة عن التقدّم.

بالرّغم منَ الرّعب الذي اعْتَراها لم تستطع إلاّ أن تعترف بذلك الأمر الخارق الذي نَسَبَته هي إلى خاتَم مرَصّع بالجواهر أعطاها إيّاه حبيبها. كيفَما التفتت رأت تلك الحيوانات السّامّة تُهرَع نحوَها مالئةً الممرّات ومنتشرَةً على الأزهار وتحت الأشجار. لم تعرف إخلاص الجميلة ماذا يجدرُ بها أن تفعَل. رأت الملكةَ عندَ نافِذتها تضحَك من خوفها. وأدرَكَت حينئذٍ أنّه لا يمكنها أن تَعِدَ نفسَها بأن يأتيَ أحدٌ لإنقاذِها بأمْرٍ منَ الملكة.

قالت بشجاعَة:

---

(1) ناشر: أفعى صغيرَة سامّة.

- عليّ أن أموت. فهذِه المسوخ المرعِبَة التي تحيط بي لم تأتِ وحْدَها هنا. إنّ الملكة هي التي أمَرَت بإحضارِها؛ تريد أن تتفرّج على نهاية حياتي البائسَة التي كانت حتّى هذه اللحظة حياة ممعنة في التّعاسَة فلا أكنّ لها أيّ حبّ؛ وإذا كنت أتَحَسّر على فقدانِها فلتشهد السّماء على سببِ تحَسّري هذا ولتنصفْني.

وعلى هذا تقدّمَتْ، لكنّ جميع الأفاعي وشركاءها راحت تتراجع مبتعدة عنها. كلّما مشت نحوَها كانت تلك الزواحف المميتة تنسحب منَ الحديقة بطريقة أدهَشت الأميرة بقَدْرِ ما أدْهَشَت الملكة، منذ وقتٍ طويل كان يجري تحضيرُ تلك الأفاعي والحيوانات الخطرة لإهلاكِ الرّاعيَة بلَسَعاتها.

فكّرَت الملكة أنّ ابنَها لن يكون متفاجِئاً بأمْرِ موتِها لأنّه سَيُعْزى إلى سبب طبيعيّ وستكون بمنأى عن ملامَته، لكن بعدَ فشَلِ خطّتِها أرادت اللّجوء إلى وسيلة أخرى.

كان هنالكَ عندَ آخر الغابة جنيّة لا يمكن الوصول إليها لأنّ لدَيها فِيَلة تجول حول الغابة دونَ توقّف وتلتهِم المسافرين التّعساء الحظّ وخيولهم حتّى الحوافر لشدّة نَهمها. وقد أجْرَت الملكة اتّفاقاً مع الجنيّة: إذا صادَفَ ووصَل أحدهم من قِبَلِها بفعلِ معجزةٍ إلى قصرِها، فعَليها تزويده بشيءٍ ما مميت ليَحْمِله إليها.

نادَت على إخلاص ووجّهَت إليها أوامِرَها بالرّحيل. كانت سمِعَت من زميلاتها جميعاً عن مخاطر الذّهاب إلى تلك الغابة. لا بل إنّ راعيَة عجوزاً أخبرَتها أنّها استطاعَت الخروج من هناك لحُسْنِ الحظّ بفضلِ نجدَة خروفٍ صغيرٍ اصطَحَبَته معها. لأنّ تلكَ الفِيَلة مهما تكن غضوباً فإنّها عندَما ترى حَمَلاً تصبح وديعَة مثله؛ وتلك الرّاعيَة نفسها قالت لها إنّه أوكِلَ إليها جَلْب حزامٍ حارقٍ إلى الملكة.

خافَت أن تُرْغِمَها الملكة على ارتِدائه فأحاطَت به الأشجار التي احترَقت مُبطلةً تأثيرَه وهكذا فقد الحِزام قدرته على التسبّب بالأذى الذي كانت تتوقّعه الملكة.

عندَما استمعَت الأميرة إلى هذه الحِكاية، لم تصدّق أنّها ستشكّل فائدَة بالنسبة لها في يوم منَ الأيّام. لكن عندما أصدَرَت الملكة أوامرَها، وهي بمثابة حُكْم مبرَم، توسّلَت إلى السّماء لتُساعِدَها. اصطحَبَت شاطراً معَها وانطلقت إلى الغابة المحفوفة بالأخطار.

ابتهَجَت عندئذٍ الملكة وقالت للملك:

- لن نَرى بعدَ اليوم عشيقة وَلَدِنا اللّعينَة. أرسَلْتُها إلى مَكانٍ حيث ألف واحِدَة مثلها لا تشكّل ربعَ وَجبَة لِطعام الفِيَلة.

قال لها الملك إنّ لدَيها روحاً انتقاميَة جامِحَة ولا يمكنه إلاّ أن يتحسّر على أجمل فتاةٍ رآها حتّى اليوم:

أجابته:

- أحَقّاً؟ أنصَحُكَ إذاً بأن تحبّها وأن تَذْرِفَ الدّموعَ على موتِها كما يذرف عَهْد البائس الدّموعَ على غيابِها.

في تلك الأثناء، لم تكد إخلاص تصل إلى الغابة حتى رأت نفسَها مُحاطَة بالفيلة. لكنّ تلك الحيوانات العملاقة المُخيفَة ابتهَجَت برؤيَة الخروف الجميل الذي كان يمشي بجرأةٍ أكبر من سيّدته، وبدأت تُداعبه برقّة بواسطة خراطيمِها المروِّعَة مثلَما تلامس سيّدة خروفاً بيدِها. ذُعِرَت الأميرة من أن تفصِل الفيَلة مَصيرَها عن مصيرِ الخروف فحَمَلته بينَ ذراعَيها رغمَ وزنِه الثّقيل. كيفَما التفتت كانت تشْهره دوماً وهكذا تقدّمَت بسرعَة نحوَ القصر المَنيعِ لتلك الجنيّة العجوز.

وصلت إلى القصر بكثيرٍ من العناء والخوف. بَدا لها ذلك المكان

مهمَلاً بشدّةٍ، ولم تكن الجنيّة التي تسكنه أقلّ تعرّضاً للإهمال. أخفتِ الجنيّة بعضَ اندهاشها من رؤيتها في قصرها، لأنّ أحداً لم يتمكّن من الولوج إليه منذ زمنٍ بعيد.

سألتها:

- عمَّ تبحَثينَ أيّتها الفتاة الجميلة؟

أعلمتها الأميرة بنبرَة متواضعة بتَوصِيات الملكة وتوَسّلت إليها أن تعطيها حِزامَ الصّداقة لتسلّمها إيّاه.

قالت:

- لن يُرفَض لملكتكِ طلب. لكنّه لكِ بالطّبع.

أجابت:

- لا أعرف يا سيّدتي.

- لكنّي أنا أعرف.

وَاستلّت من صندوقِها حِزاماً مُخمَلياً أزرَق تتدَلّى منه جيوب عدّة تُستخدَم لوضع صرّة نقود ومقَصّات وسكين، ثمّ قدّمَت لها تلك الهديّة الجميلة.

قالت لها:

- خذي، هذا الحِزام يجعلكِ محبوبَة شرطَ أن تَضعيهِ فوْرَ وصولكِ إلى الغابة.

شكرَتها بإخلاص وانطلقت محتميةً بشاطر الذي كانَ ضروريّاً لها أكثرَ من أيّ وقتٍ مَضى. احتفلَت بها الفيَلة وسمَحت لها بالمرور بالرّغم من ميولها المتوَحّشَة. لم تنسَ أن تضعَ حزامَ الصّداقة حول شجرةَ. وفي الحال بدأت الشّجرة تشتعل ويتأجّج لهيبها متطاولاً نحو السّموات. ثمّ نزعَت الحِزامَ وحَملته من شجرة إلى شجرة حتّى فقَدَ مفعولَه. ومن ثمّ وصَلت إلى القصر وهي تكاد تموت تعَباً.

عندَما رأتها الملكة، مكثت مندَهِشَة جدّاً ولم تستطع إلاّ التعبيرَ عن غضبِها. قالت لها:

- أنتِ مُحْتالة. لم تذهَبي عندَ صديقتي السّاحِرَة، أليسَ كذلك؟

أجابت إخلاص الجميلة:

- عُذراً سيّدتي، أجلب لكِ حِزامَ الصّداقة الذي طلبتِه.

أضافَت الملكة:

- ألَم تضعيه؟

- إنّه أثمَن من أن تضعَه راعيَة فقيرَة مثلي!

قالت الملكة:

- لا بأس! لا بأس! أقدّمه لكِ لِقاءَ الجهدِ الذي بَذَلتِه. لا تنسَي أن تتَخَصّري به. ولكن قولي لي، ماذا صادَفتِ في طريقك؟

قالت:

- صادَفْت فيَلة ذكيّة للغايَة وتَتحَلّى باللباقَة ورؤيتها متعة للنظر. يبدو أنّ هذه الغابة مملكتها، وبعضها أكثر سيادة منَ البعض الآخَر.

شعرت الملكة بغيظ عارم بَيدَ أنّها تداركت نفسها لكي تكتمه. لكنّها أملَت بأن يُحرِق الحِزام الرّاعيَة دون أن يستطيعَ شيء في العالم حِمايتَها. قالت بصوتٍ خفيض:

- إذا كانت الفيَلة أعفتكِ منَ الموتِ فإنّ الحِزامَ سينتقِم لي. سترينَ أيّتها التّعيسَة الصّداقة التي أكنّها لكِ والمكافأة التي ستتَلَقّيْنَها لأنكِ عرفتِ كيف تَروقينَ لابني!

انزَوَت إخلاص في غرفتِها الصّغيرَة وراحَت تبكي غيابَ أميرها الغالي. لم تكن تجرؤ على الكتابة له لأنّ للملكة جواسيسَ في الرّيف وهم يصادرونَ الرّسائلَ التي تُبعَث لابنِها. قالت:

- وا أسَفاه يا عَهْد ستسمع قريباً بأخبار مُحزِنَة عنّي. لم يكن يجدرُ

بكَ أن ترحَلَ وتتركني لغضبِ أمكَ المسعور. كان عليك أن تدافع عنّي أو ألفظ بين يديكَ أنفاسيَ الأخيرَة بَدَلَ أن أكونَ ألْعوبَة في قبضةِ سيطرتِها وطغيانها، وَلا عَزاءَ لي.

ذهبت عندَ طلوعِ النّهار إلى الحَديقة لِتَعمَلَ كالعادَة. وَجَدَت هناكَ أيضاً ألفَ حيوانٍ سامّ ووقاها خاتَمها شرّها. وضعَت الحِزام المخمليّ الأزرق. وعندما رأتها الملكة تقطف الأزهار بذلك الهدوء وكَأنّه مجرّد خيطٍ يُطوّقُ خصرَها، شعَرَت بامتِعاضٍ غير مسبوق. هتفت:

- أيّة قدرة تحمي هذه الرّاعيَة؟ بسِحرِها تَفتِنُ ولَدي، وبفضلِ أعشابٍ بسيطَة تُعيدُ له صحّتَه، والحيّات والنّواشر تزحَف عندَ قدمَيها دونَ أن تَلْسَعَها، وعندَ مرآها تصبِح الفيلة مهذّبَة ولطيفة. والحِزام الذي يُفترَض به أن يحْرِقَها بقدرة الجنيّات يُزَيّنُها ليسَ أكثر. عليّ إذاً أن ألجأ إلى وَسائل أكثر حسماً وفعّاليّة.

وفي الحال، أرسَلَت إلى المرفأ قائدَ حَرَسِها الذي كانت تثِق به كثيراً لِيَرى ما إذا كان هناكَ سفن متأهّبَة للانطلاق إلى مناطق نائيَة جدّاً، فوجَدَ سفينَة تستعدّ للإقلاع عندَ بدايَة اللّيل. ابتَهَجَت الملكة كثيراً، وأرسلت مَن يتحدّث مع القبطان ويَعرِض عليه شراء أجملَ جارية في العالم. استحسن التّاجر العرض مُعرباً عن رغبته في شرائها. جاءَ إلى القصر ومن دونِ عِلم إخلاص لَمَحها في الحَديقة فذُهِلَ أمامَ مفاتن تلك الفتاة الفريدَة. أمّا الملكة التي كانت في غاية البخل وتعرِف كيف تستفيد من كلّ شيءٍ فقد باعَتها بِسعْرٍ باهظ.

كانت إخلاص تجهَل كلّ شيءٍ عن المكائد الجديدة التي تُحَضّر لها فانزَوَت باكراً إلى غرفَتها الصّغيرَة لكي يَلذّ لها أن تحلم بعَهْد دون رقيب، ولكي تُجيبَ على إحدى رسائله التي استلمتها مؤخّراً: قرأتها مراراً مأخوذة برقّة كلماتها. وعندَئذٍ رأت الملكة تدخل إلى غرفتها،

فهي تملك مفتاحاً يَصلح لجميع الأقفال في أبواب القصر. كانت متبوعَة بحارِسَينِ أخرَسَين وبقائدِ حرّاسِها. وضَعَ لها الأخرسان منديلاً على فَمِها وأوْثَقا يدَيها واختطفاها. أرادَ الخروف شاطر أن يلْحَقَ بسيّدته العزيزَة فانقضّت الملكة عليه ومَنَعَته من ذلك لأنّها كانت تخشى أن يُسمَعَ ثغاؤه. أرادت أن يجرِيَ كلّ شيءٍ بِصَمت وفي الخفاء. وهكذا اقتيدَت إخلاص، وحيدة دونَ مُعين لها، إلى السّفينَة التي تنتظر وصولها للإقلاع في رحلتها. وهكذاً تُركَت الأميرة لقدرها المشؤوم لأنّ الجنيّة سائدة كانت عاجزة آنذاك عن أن تُثني إرادَة القدَرِ لِصالِحِها. وكلّ ما استطاعت فعْلَه هوَ أن تتعقّبَها إلى كلّ مَكان متَدَثّرَة بغمامَةٍ سوداء تحجبها عن الأعين. وفي تلك الأثناء كان الأمير عَهْد المأخوذ بشغفه لإخلاص يتصرّف بفظاظَة لا تهاوَنَ فيها حيالَ الأميرَة التي اختيرَت له كزَوْجَة على الرّغم من أنّه كانَ الأكثرَ أدَباً بينَ الرّجال. وغالباً ما كانت تشكو تصرّفاته إلى والدها الذي لم يكن يتورّع عن التّشاجر مع ابن أخته لسوء تصرّفه. وهكذا أُجّلَ الزّواجَ إلى أمَدٍ غيرِ معروف.

عندَئذٍ وجدَت الملكة أنّ الظّرفَ كان مناسِباً لتَكتبَ إلى الأمير رسالة تقول فيها إنّ إخلاص تصارع سكرات الموت. شَعَرَ الأمير بألَم لا يُطاق؛ لم يَعد يُريد المُجامَلة والبقاء في قصر خاله لأنّ ذلك بات يُكَلّفه ليسَ فقط حياته بل حياة عشيقته فانطلقَ كالبَرق.

ومهما تكن السّرعَة التي سافرَ فيها فقد وَصَلَ متأخّراً جدّاً لا بل بعدَ فواتِ الأوان. توقّعت الملكة عودَته فأمَرَت، قبل مجيئه ببضعة أيّام، بإشاعَة نبأ مرض إخلاص. وأحاطَت نفسَها بنساءٍ يعرِفنَ متى يتكَلّمْنَ ومتى يَصمتْنَ بموجَبِ ما يتلقّينَه من أوامر. ثمّ أُذيع خبر موتِها فيما بعد. ودُفِنَ بَدَلاً منها تمثالٌ من شمع. عمدت الملكة إلى

وَسائل عديدة لإقناعِ الأمير بتلك الميتَة، ومن بينها إخراج ميرتان منَ السّجنِ لحضور جنازَتها. وأُعلن عن موعد الجنازَة على الملأ وأتى الجميع لحضورها وهم يتَحسّرون لفقدان تلك الفتاة الرائعَة. أمّا الملكة، وهيَ الماهرة في لبسِ قناعِ الكذب، فتظاهَرَت بالتأثّرِ لتلك الخسارَة نِيابَة عن الأمير.

ووصَلَ الأمير وهوَ على قلق لا يوصَف. عندما دخلَ إلى المدينة بادر إلى سؤال أوّل مَن صادَفهم عن أخبار عزيزَتِه الغالية إخلاص. فقالوا له إنّها توفّيَت وهم لم يكونوا على معرفة ولا على علم بمجريات الأمور. وَلَدى سَماعِهِ هذه الكلمات المشؤومَة شعر بألمٍ صاعق وسقطَ عن صهوة حصانِه أبْكَمَ هامِدَ النبض. تجمّعوا حوْلَه وعرِفوا أنّه الأمير فهُرِعَ كلُّ واحِدٍ لِنَجدَتِه وحَملوه شبهَ مَيْتٍ إلى القصر.

أحسّ الملك بالإشفاقِ على حالِ ابنه وكان متَعاطفاً مع ألمه. واستعدّت الملكة من جهتها لمُجابَهَةِ الأمر. ظنّت أنّ الزّمَن وفقدانَ الأمل بالحبّ سيَشفيانه. لكنّ لا شيء كان ينسيه ألمه أو يحمل العزاء إلى نفسه. وبدَلَ أن يتضاءَلَ حزنه كان يزدادَ مع مرورِ كلّ دقيقة. أمضى يومينِ دونَ أن يَرى أحداً أو يتكلّمَ مع أحد. ثمّ ذهَبَ إلى غرفة الملكة شاحب الوجه، زائغَ العينين دامعهَا. قال لها إنّها هيَ التي تسبّبت في وفاة عزيزتِه إخلاص ولكنّها سوف تُعاقَب عَمّا قريب على فعلتها تلك لأنّها ستتسبّب في موته هوَ أيضاً. ثمّ أصرّ على الذّهابَ إلى المَكانِ الذي دُفِنَت فيه.

لم تستطع الملكة أن تُثنيه عَن مَرامِهِ وقرّرَت أن تقودَه بنفسها إلى غابة مزروعَة بأشجار الشّرْبين حيث أُقيم القبر. عندما وجَدَ الأمير نفسَه أمام الضّريح الذي ترقد فيه عشيقته إلى الأبد، قال أشياءَ مُفعَمَة بالحبّ والرقّة لم يَقلها أحد من قبله. وبالرّغمِ من قساوَة الملكة،

انفجرَت باكِيَة. وأحسّ ميرتان بالتفجّع بقَدْرِ سيّده. وكلّ الذينَ سمِعوه قاسَموه يأسَه. وأخيراً وفجأةً، ممتلئاً حزناً وغيظاً وقهراً استلّ سيفَه مقترِباً منَ الرّخام الذي كان يحجب ذلك الجسدَ الجَميل، وهمّ بقتلِ نفسه لو لم تُمسك الملكة وميرتان بِذراعه.

قال:

- لا، لا شيء في العالم سيثنيني عن الموت وموافاة أميرَتي العزيزة.

فوجَئت الملكة بالتّسميَة التي أعْطاها للراعيَة. ولو لم تكن تعرف أنّ ابنها كان صادِقاً في كلّ ما يقوله لظنّته يهذي أو أصيب بمسّ من الجنون.

سألته لِماذا سَمّى إخلاص بالأميرة. فأجابَها لأنّها كانت أميرَة، وأنّ مملكتها تدعى مملكة الصّحارى وهي وَريثتها الوحيدة، وأنّه لم يكن ليتحدّثَ عن الموضوع لكنّ التحفّظَ لم يَعد له أيّة أهميّة.

قالت الملكة:

- مهلك يا ابني! ما دامَت إخلاص من أصلِ مُساوٍ لأصلك فَلا تحزَن لأنّها لم تمت. عليَّ أن أعترِفَ لك بأنّني بعتُها إلى تجّار الرّقيق؛ عَسى أن يخفّف هذا من آلامك.

هتف الأمير:

- كَفاكَ كذباً! تتكلّمينَ هكذا لكي تثنيني عن قتلَ نفسي. لكنّي صمّمت على الأمر ولا شيءَ يمكنه أن يردعني عنه.

أضافت الملكة:

- يجب إذاً أن تَرى ذلك بأمِّ عينيك.

وعلى الفور، أمَرَت بأن يُخرَجَ تمثال الشّمع. اعتقدَ بادئَ الأمرِ أنّها جثّة أميرتِهِ الحَبيبَة فانْهارَ صريع الألم وشقّ على الحاضرين انتِشالهُ من كَبْوَته. عبثاً حاولت الملكة طمأنَته أنّ إخلاص لم تُمت فهوَ لم يعد

قادِراً على تصديقها بعد كلّ ما فعَلتْه من شرور. لكنّ ميرتان عرف كيف يقنعه بتلك الحقيقة نظراً للمودّة التي يَكنُّها له وليقينه أنّه غير قادرٍ على أن يكذبَ عليه.

شعرَ ببعضِ العزاءِ لأنّ أسوأ كارثة بين الكوارث جميعاً هيَ الموت. استَعادَ أمله برؤية معشوقته من جديد. ولكن أين البحث عنها؟ لا أحَدَ يعرف التجّارَ الذين اشترَوها ولا وجهتهم. وهنا برزت مشقّة هائلة؛ لكنّ الحبّ الكبير يتجاوز كلّ العوائق. كان يفضّل أن يموتَ وهو يُطارد خاطفي عشيقته على أن يعيش من دونها.

عابَ ألف مرّة على الملكة قسوَتها التي لا تُحْتَمَل. ثمّ أضاف أنّها ستجد مُتّسَعاً منَ الوقتِ كي تندَمَ على فعلَتِها تلك، وأنّه سيَرحَل مصمّماً على عدَم الرّجوعِ أبداً. أرادَت الملكة أن تتخلّص من معشوقة ابنها لكنّها بذلك خسرَت ابنها أيضاً. ارتَمَت تلك الأمّ المفجوعَة معانقةً ابنها مُغرقة وجهه بِدموعِها واستحلفته بشيخوخة والده وبعاطفتها حِياله ألاّ يتخلّى عنها، لأنّه إذا حَرَمَها من عزاء رؤيته فسيَتَسبّب بموتها، وأنّه أملها الوَحيد. ثمّ إنّ الدول المجاورة للمملكة وأعداءها سيستغلّون فرصة غيابه ليستولوا عليها. استمع إليها الأمير ببرودَةٍ واحترام لكنّه لم يستطع أن ينسى أبداً القسوة التي عاملت بها إخلاص فجميع ممالك الأرض لن تَعني له شيئاً دونِ أميرته. وظَلّ متصَلّباً في موقفهِ وإصراره الثّابت على الرّحيل في اليوم التّالي.

حاول الملك أن يستبْقيَه دون جَدوى. أمْضى ليلته يوجّه أوامِرَه إلى ميرتان وعهد له بالخروف الوفيّ لكي يهتمّ به. أخذ معه كمّيَة كبيرة منَ الأحجار الكريمَة وأعطى ميرتان بعضها وقال له إنّه الوحيد الذي سيُعْلِمُهُ بأخبارِه شرْطَ أنْ يكتمها عن الجميع لأنّه كان يتعمّد

إشعارَ والدته بتباريح الفراق وانشغال البال.

اعتَلى عَهْد الملهوف على حبيبته حصانه قبل طلوع النّهار، مُسَلّماً أمْرَه للقدَر ومتوسّلاً إليه أن يُساعدَه على إيجاد معشوقته. لم يكن يعرف الوجهة التي عليه اتّخاذها. لكنْ، بما أنّها رحَلَت على متنِ سفينَة فقد ظنّ أنّ عليه ركوب البحر للّحاقِ بها. ذهب إلى المرفأ الأشهر ومن دون أن يُرافقه أيٌّ من خدّامه ومن دونِ أن يعرفه أحد، استعلَم عن المَكانِ الأبعدِ التي تؤمّه السّفن ومن ثمّ عن كلّ السّواحل والشّواطئ والموانئ التي تبلغها. ثمّ أبْحَرَ على أمَلِ ألاّ يكون الشّقاء دوماً مآلَ ذلك الشّغَف الصّادق والجارف الذي يحرّكه.

ما إن اقتربَت السّفينة من البرّ حتّى صعدَ على متن قاربٍ وجال به الشّاطئ صارخاً في كلّ اتّجاه:

- إخلاص، يا إخلاص الجميلة، أين أنتِ؟ أبْحَث عنكِ وأناديكِ عَبَثاً: هل سَتَظلّين لِوَقتٍ طويلٍ بعيدَة عنّي؟

لكنّ حسَراته وشكواه لا تلبث أن تتَلاشَى في الفضاء. فعاد إلى السّفينة وقلبه مفعَم بالألم وعيناه مليئتانِ بالدّموع.

وذات مَساء رَمى البَحّارَة المرساة خلف صخرةٍ كبيرَة فنزَلَ على جَري عادَتِه منَ السّفينَة ليتجوّل على الشّاطئ. وَبِما أنّ البلادَ كانت مجهولَة والظّلمَة دامِسَة رفض البحّارة مرافقته خوفاً من أن يَصيبهم مكروه. أمّا بالنسبة للأمير الذي لم يكن يهتمّ كثيراً بحياته، فقد أخذ يمشي على غير هدىً، متعثّراً وناهضاً من تعثّرِهِ مَرّاتٍ عديدة. وأخيراً لَمَحَ ضوءاً ساطعَاً آتِياً من إحدى النيران. كلّما اقترَب منه، سمع ضجّة تتعالى وضربات مَطارقَ تدَوّي بشكلٍ مُخيف. لم يشعر بالخوف بل أسرعَ لِيَرى مصدَرَ الضجّة فوجَدَ مصهراً كبيراً يعمل في العراء وكانت جميع أفرانه مشتعلة لِدَرجَة تحسب معها أنّ الشّمسَ

تَسطع هناك. وكانَ ثلاثونَ عملاقاً بعينٍ واحِدَة في منتصَف جباههم يعملونَ في ذلك المكان في صناعة الأسلَحَة.

اقترَبَ عَهْد منهم قائلاً:

- إذا كنتم قادرينَ على الشّعورِ بالشّفقة أنتم العاملين وسَط الحَديد والنار، قولوا لي إذا رأيتم صدفةً في هذا المكان إخلاص الجميلة التي اقتادَها بعض التجّارُ أسيرَةً، وأين أستطيع أن أجِدَها. اطلبوا منّي كلّ ما أملكه وأعطيه لكم بكلّ طيبَةِ خاطر.

ما كادَ يُنْهي خطبتَه الصّغيرَة حتّى عادَت الضجّة الهادرة الي كان قد أسكتَها بحضورِهِ قليلاً وأصبحت أقوى من ذي قبل.

قال:

- الوَيلُ لكم! لا تأبَهونَ لألَمي أيّها المتوحّشون، لا يَجدُرُ بي أن أنتظرَ شيئاً منكم.

وأراد في الحال أن يرْتَدّ على عقبَيه، لكنّه سمِعَ موسيقى عَذبَة سَحَرَتْه. نظَرَ إلى المصاهر ورأى أجملَ طفلٍ يستطيع الخيال تصوّره: كان أشدّ لَمَعاناً منَ النّار التي خرجَ منها. عندَما رأى الأمير جماله والعُصبة على عينيه والسّهام التي يَحمِلها، أدرك أنّه كوبيدون الذي هتف له قائلاً:

- توقّف يا عَهْد، تتأكّلك نارٌ طاهِرَة ولا أستطيع بالتّالي أن أرفض نجْدَتَكَ: أنا الحبّ العفيف، أنا الذي أصَبتكَ بِسَهمي عندما رأيت إخلاص الفتيّة. وأنا الذي أحْميها منَ العملاق الذي يُطارِدُها. الجنيّة سائدة هيَ صديقتي الحَميمَة. ولقد تضامنّا سويّة لكي نحْميها لك. ولكن يجب أن تبَرْهِنَ عن عشقكَ قبلَ أن تَعثُرَ عليها.

هتف الأمير:

- أمركَ أيّها الحبّ! أمركَ! أطلب ما تشاء وسأطيعُكَ.

أجاب الطفل:

- إرم بنفسك في هذه النّار وتذكّر أنّك إذا لم تحبّ امرأة واحَدَة وبِتَفانٍ فسَوفَ تهلك.

فأجاب عَهْد:

- ليسَ هنالِكَ ما يُخيفُني.

وفي الحال رَمى بنَفسِهِ في المصهر ففَقَدَ وَعْيَه ولم يعُد يَعرِف أينَ هوَ ولا مَن هوَ.

نامَ ثلاثينَ ساعَة، وحين استيقظ رأى أنّه تحوّل إلى أجمَلِ قُمْريٍّ[1] في العالم، وبَدَلَ المصهر الرّهيبِ وجَدَ نفسَه في عشّ صغيرٍ منَ الورودِ والياسَمين وزهر العسَل. دُهِشَ دهشَةً ليسَ لها مثيل: كانَت قائمَتاه المُسَرْوَلتانِ[2] والألوان المختلفة لريشِهِ وعيناه النّاريّتان، كلّ ذلك كان مدهشاً حقّاً. تمَرأى في جدوَلٍ وأرادَ أن يرثي حاله فوجَدَ أنّه فقدَ مَلَكَة الكلام رغمَ احتِفاظه بمَلَكَةِ الفهم والإدراك.

رأى في هذا التحوّل ذروَة مصائبه. فكّر:

- آهِ منك أيّها الحبّ الغدّار! أهذه هيَ المكافأة التي تُجازي بها أكثر العاشقينَ كَمالاً؟ هل يجب أن أكونَ طائشاً وخوّاناً وماكراً لكي أجِد حَظوَة لديك؟ صادَفْتُ الكثيرينَ من هؤلاء الخَوَنَة الذين كلّلتَهم بالمَجد فيما أشقَيْتَ المتفانين والأوفياء المخلِصينَ لعُهودِهم.

ثمّ أردَف:

- ما الذي يمكن أن أعلّلَ النفسَ به من هيئة غريبة كهَيئتي؟ ها أنا قُمْريٌّ: آه ليتَني أستطيع الكلام كما تكلّمَ فيما مَضى العصفور

(1) القُمْريّ: اسم صنف من الحَمام، اخترناه على قلَة شيوع اسمه لكونه ذكراً، في حين تُستخدَم المفردتان «حمامة» و«يمامة» لكلا المذكّر والمؤنّث.

(2) المُسَرْوَل: يُقال هذا النّعت للطّائر الذي يغطّي الرّيش حتّى قائمتَيه.

الأزرق (الذي أحبَبتُ طيلة حياتي قصّته)[1]، لَكُنتُ طِرْتُ بعيداً وعالِياً وبحثت في جميع الأصقاع عن معشوقتي الغالية مسْتَعلِماً عن مَكانِها، مسائلاً كلّ من أصادفهم حتى أجدها. لكن، ليسَ لديّ القدرة لألفظَ اسمَها. والحلّ الوحيد المتاح لي اللّجوءُ إليه هوَ أن أرميَ بنَفسِي في هاوِيَة ما وأقضي فيها.

مأخوذاً بهذه الفكرة المشؤومَة، طارَ على جبلٍ عالٍ وأرادَ أن يَرتَمي منه إلى الأسفَل لكنّ جناحَيهِ حَمَلاه رغماً عنه. دُهِشَ لذلِكَ لأنّه لم يكن قطُّ قُمْرِيّاً. كان يجهَل ما الفائدَة من ريشه واتّخَذَ القرارَ بانتزاعهِ كلّه، ومن دونِ تردّد، بدأ ينزَع عنه ريشه.

منزوعَ الرّيش، حاولَ أن يجرّب قفزةً جديدة من أعلى صخرَة، وحينئذٍ أتَت فتاتان صغيرَتانِ فجأة. عندما رأتا ذلك القُمريّ التّاعِسَ قالت الواحِدَة للأخرى:

- من أينَ جاءَ هذا الطّائر التّعيس؟ هل هوَ مفلت من البَراثِنِ الحادّةِ لِطَيرٍ كاسر أم من شَدقِ ابنِ عِرس؟

أجابَت الأصغر سنّاً:

- أجهَل من أينَ هوَ آتٍ لكنّي أعرف أينَ سيَذهَب.

وأمسكت بالطّائرِ الوديع. ثمّ أردَفَت:

- سيذهَب ليُرافِقَ خمسَة طيورٍ من نوعِه؛ أريد أن أصنَع منها فطيرَة للجنيّة سائدة.

عندَما سمِعَها الأمير قُمْرِيّ (وقد صار هذا هو اسمه طالما كان على هيئة طائر) تتكلّم على هذا النّحو، لم يَقم بأيّة حرَكَة للهَرَب بلْ اقترَبَ منها لكي تتكرّمَ عليه بقتله سريعاً. لكنّ الفتاتَين وجَدَتاه

(1) إشارة إلى العصفور الأزرق، «بطل» حكاية بهذا العنوان لماري-كاترين دونوا ماثلة في أوّل هذا الكتاب.

وادعاً وأليفاً جدّاً فقرّرتا الاهتمام به. وضعته الفتاة الأجمل في سلّة مغطّاةٍ حيث كانت تضعُ أشغال التّطريز، ثمّ تابعتا نزهتهما.

قالت الواحدة للأخرى:

- يبدو أنّ سيّدَتنا، منذ بضعَة أيّام، منشغِلَة بأمور كثيرَة فهيَ تصعَد في كلّ لحظة على جَمَلها الناريّ وتذهَب نهاراً وليلاً من قطبٍ لآخر دون توقّف.

قالت رفيقتها:

- إذا كنتِ متكتّمَة فسَأقول لكِ السّبب، لأنّها شاءت أن تكشفه لي.

أجابتها الأخرى:

- هيّا قولي لي ولن أتكلّم. كوني واثِقَة من كتمي السرّ.

أردَفَت:

- اعلَمي إذاً أنّ أميرَتَها إخلاص، التي تحبّها كثيراً، يُطارِدها عملاق ويسعى للزّواجَ بها: لقد احتبسَها في برج؛ ولكي تَحُول الجنيّة دون هذا الزّواج، عليها أن تذلّل مصاعب جمّة.

كان الأمير يستمع إلى حوارهما من داخل سلّته. حتّى ذاكَ الحين، خالَ أن لا شيءَ يمكنه أن يزيدَ وضعَه سوءاً لكنّه أدرَكَ، وبِألَم مبرّح، أنّ هناك ما هو أسوأ. بإمكانكم أن تتصوّروا مَدى ألمه بعدَ كلّ ما رويتُهُ لكم عن آلامه والظّروف الصعبة التي يواجِهها. اعتراه يأسٍ مطبق لأنّه ألفى نفسه قُمْريّاً فيما كانت أميرَته بأمسّ الحاجة إليه كي ينقذها. ثمّ إنّ خياله الثريّ أمعن في تعذيبه؛ كان يصوّر له إخلاص أسيرة البرج المشؤوم، والعملاق المخيف يضرب من حولها حصاراً خانقاً وعليها أن تكابد سورات عنفه وغضبه. خشيَ أن يدفعها

خوفها للزّواج به. ثمّ بعْدَ حينٍ خشيَ أيضاً ألاّ تخافَ وتعرّضَ حياتَها للخَطَر النّاجم عن الغضبِ المسْعور الذي قد ينتاب مِثْلَ ذلك العاشق. منَ الصّعبِ بمكانٍ وصف الحال التي كانَ فيها.

كانت الفتاة اليافعَة التي تحمله في سلّتها عائدَة معَ صديقتِها إلى قصرِ الجنيّة التي كانتا في خدمتها. ووجَدَتاها تتنزّه في ممرّ قاتم في حديقتِها. خرّتا ساجدَتينِ أمامَ قدَمَيها ثمّ قالتا لها:

- أيّتها الملكة الكبيرة، هذا قُمْريٌّ وجَدناه. إنّه رقيق وأليف، ولَو كان لدَيهِ ريشاته لَكان جميلاً جدّاً. لقد صمّمنا على إطعامهِ في غرفَتِنا ولكن إذا وافقتِ فهو يَستَطيع أحياناً أن يُسَلّيَكِ في غرفَتك.

أخذت الجنيّة السلّة حيث كان محْتَبَساً وأخرجَته منها، ثمّ استغرَقت في تأمّلاتٍ عميقة حولَ غرائبِ هذا الوجود. غريب فعلاً أن تَرى أميراً مثلَ عَهْد محوَّلاً إلى قُمْريٍّ مصيره أن يُشوى يوماً أو يُطبَخَ حَساءً. ومعَ أنّها هيَ التي أشرَفَت على ذلك التحوّل بملء إرادَتِها، إذ لا شيءَ كان لِيَحصل دونَ أوامِرَها، فلقد أثّرَ فيها ذلك التحوّل كثيراً. داعبَت القُمْريّ، ومن جهتِه فعل كلّ ما بوسعه ليلفت انتباهَها ويحنّن قلبها فتعمد إلى مواساته في خِضَمّ تجربَتِهِ الحزينَة تلك. انحَنى أمامَها على طريقة الحمام وهو يُرْجِعُ قائمَتَه إلى الوراء وأخذ ينقرُها بِحَنان، ومعَ أنّه كان ما يزال زغلولاً[1] إلاّ أنّ خبْرته كانَت تفوق خبرة أجداده وسائر طيور الحمام.

حَمَلته الجنيّة سائدة إلى غرفتِها وأغلقَت الباب ثمّ قالت له:

- أيّها الأمير، عرفتكَ بالرّغم من حالتك التعسة هذه، واعلمْ أنّني أحبّك كرْمى لابنتي إخلاص التي تهتمّ بأمرك قدر اهتمامها بنفسها.

---

(1) الزّغلول هو صغير الطّير.

لا تتّهم أحَداً سِوايَ بتحويلكَ إلى قُمْريّ. أدخلتكَ إلى المصهر لكي أمتحِنَ صدق حبّك: حبّكَ طاهرٌ ومتأجّج، ويجْدُر بكَ أن تُشَرّفَكَ هذه التجربة.

استَمَع الأمير قُمْريّ إلى قول الجنيّة وخفَضَ رأسَه ثلاث مرّات علامَةً على امتنانه لها.

أردَفت:

- عندما تلقّت الملكة والدتُكَ المالَ والأحجار الكريمَة لِقاءَ متاجَرتها بالأميرة أرسلتْها فوراً ودون رحمة إلى التجّارِ الذين اشْتَرَوْها فحملوها معهم على متن إحدى السّفن وأبْحَروا بها إلى شرق الهند وهم واثقونَ كلّ الثّقة بأنّهم سيبيعون بدورهم هذا الكنز الثمين لقاءَ ثروَةٍ طائلة. لم يُغيّر بُكاؤها وتوسّلاتها شيئاً من تصميمهم. عبثاً قالَتْ لهم إنّ الأمير عَهْد سوف يفْتَديها بكلّ ما يملِكه في العالم. وكلّما أبرزَتْ لهم المنفعَة التي يمكن أن يَجنوها من الأمير، أسرَعوا في الهرب منه لِئلاّ يعرف باختطافهم لها ويأتي فيحرمهم تلك الغنيمة.

«وأخيراً، بعدَ أن جالوا نصفَ العالَم، داهَمتهم عاصفة هوجاء. كادت الأميرة الرّازِحَة تحتَ وطأةِ الألم وتعبِ الإبحار أن تقضي نحبها. خافوا أن تموت فلجؤوا إلى أوّل مرفأ. ولكن عند نزولهم إلى البَرّ رأوا عملاقاً ذا ضخامَة مرعِبَة يتبعه عمالقة آخَرون عديدون، وكلّهم كانوا يَرغبونَ في رؤيَة الأشياءِ الأكثر نُدْرَة التي يحمِلونَها على متن سفينَتِهم. دخَلَ العملاق وأوّل ما لفَتَ انتباهه هوَ الأميرَة الشابّة؛ عرف أحدهما الآخر في الحال. هتف قائلاً: «هذه أنتِ أيّتها السّافلة الصّغيرَة! إنّها السّماء إذاً، السّماء العادِلة والرّحيمة التي تُعيدك إليّ. هلْ تذكُرينَ اليومَ الذي وَجدتكِ فيه وكيف قصصتِ

كيسي؟ تبّاً لي إذا أعدتِ الكرّةَ مجدّداً».

«ثمّ أمْسَكها كما يُمسك نسرٌ فرّوجاً. وبالرّغم من مقاوَمَتها وتوسّلات التجّار، حَمَلها بينَ ذراعَيهِ راكِضاً بأقصى سرعتِه إلى بُرجِه الكبير.

«يقع ذلك البرج في جبلٍ عالٍ. السّحَرَة الذين بَنَوه فعلوا كلّ ما بوسعهم لكي يجعَلوه جميلاً وغريباً. لا أبواب فيه ويتمّ الدّخول إليه عبرَ النّوافذ الشّاهِقَة. جدرانه المصنوعَة منَ الألماس تلمَع كالشّمس وتتميّز بصلابَة لا شيء يخترقُها. وفي الواقع، إنّ أثمنَ ما قدّمَه الفنّ أو احتوته الطّبيعَة لا يداني ذاك القصر. عندَما أمسَكَ العملاق المسْعورُ بإخلاص الفاتِنَة، قال لها إنّه يُريد أن يتزوّجها؛ سيَجْعَلَها أسعَدَ شخصٍ في الكَون، ويمنحها جميعَ الكنوزِ التي يملكها، ويمنّ عليها بِحبّه. عليها أن تبتهِجَ لأنّ حُسنَ طالِعِها اقتادَها إليه. أفهمَته بدموعِها ونَحيبِها وحسراتها فداحةَ يأسها. وبما أنّني كنتُ أحْمي إخلاص سرّاً بالرّغم منَ القَدَر الذي أرادَ تَدميرها، أوْحَيْت للعملاقِ بمَشاعرَ رقيقة لَم يشعر بها في حياته قطّ: بَدَلَ أن يغضَب، قال للأميرة إنّه يُمْهِلها سنة لتفكّر بعَرضِه، وخلالها لن يُعنّفَها أو يضغط عليها أبداً. ولكن إذا لم تتّخذ إبّان تلك المهلة قرارها بالموافقة فسيتزوّجُها رغماً عنها ويأمر بقتلِها بعدَ ذلك. وهكَذا تستطيع أن تَحْتكمَ إلى الموقف الذي يُناسِبُها أكثر.

«بعدَ أن خيّرها بين أسوأ الأمور، احتَبَسَ معها في أعلى الأبراج أجملَ فتيات العالم يُلازِمْنَها لكي يُخَفّفْنَ عنها ذلك الحزنَ العميقَ الذي كانت تغرَق فيه. كما طوّق البرج بعَمالقة لِيَمْنَعوا أيّاً كان منَ الاقترِاب. وبالفعل، فلو تجرّأ أحدٌ على فعلِ ذلكَ لَنالَ عِقابَه على

الفور على يد أولئك الحرّاس المتوحّشين الذين يُثيرونَ في النفس هلعاً لا يوصَف.

«وأخيراً، أدركت الأميرة أنّه يستحيل تقديم النّجدَة لها وَأنّه لم يتبَقّ لها إلاّ يومٌ لاختتام السّنة، فتحَضّرَت لِرَمي نفسها من أعلى البرج في البحر. تلكَ هيَ الحال التي آلَت إليها الأميرة أيّها القُمْريّ. الحلّ الوَحيد الذي أجده هوَ أن تطيرَ إليها حامِلاً في منقاركَ هذا الخاتمَ الصّغير. ما إن تضعه في إصبَعِها حتّى تصبحَ يمامة فتهربا سويّة.

كان القُمْريّ متلَهّفاً للرّحيل أيّما تلهّف. لم يكن يعرف كيف يُفْهِمها ذلك. جَذَبَها من طَوقِها ومن صدارها المُكشكَش الفضفاض، ثمّ اقترَبَ منَ النّوافذ ناقِراً بمنقارهِ على الزّجاج وَكلّ هذا يعني في لغةِ الحمام: «أتوسّل إليكِ يا سيّدَتي أن ترسليني معَ خاتَمِكِ المَسحورِ لكي أعَزّي وأواسي أميرتنا الجميلة». سمِعَت صوتَه وفَهِمَت ما يَرْمي إليه واستجابت لرَغباته. قالت له: «اذهب وَطِرْ أيّها القُمْريّ السّاحر. هذا هوَ الخاتم الذي سيُرشِدُكَ. احرصْ على ألاّ تفقِدَه فلا أحد سواك في هذا العالم يستطيع أن يُخرِجَ إخلاص منَ سجنِها».

كما قلت، لم يكن لدى الأمير قُمْريّ ريشٌ لأنّه نَتَفَ ريشَه في غمْرَةِ يأسه العارم. دَعَكَته الجنيّة بخلاصة عجيبة أرْجَعَت له رياشاً في غاية الرّوعَة والجمال، لا بل أجمل بما لا يُقاس من حَمائم فينوس. ابتهَجَ لرؤيته جسمَه يَكْتَسي بالرّيش من جَديد. وإذ حلّقَ في الفضاء سريعاً، وَصَلَ عندَ طلوعِ الفجر إلى أعلى البرج الذي كانت جدرانه الألماسيّة تلمَع أشدّ سطوعاً منَ الشّمس. كان هنالكَ حديقة فسيحَة وفي وسَطِها شجرة برتقالٍ مثقلَة بالأزهارِ والأثمار. أثارت الحديقة إعجابه، ولكنّ الأمير قُمْريّ كان منشغلاً بأشياءَ أكثر أهميّة.

جثمَ على شجرة البرتقال وحَمَلَ في منقارِهِ الخاتمَ. عندما دخلت الأميرة، انتابه قلق رَهيب. كانت ترتدي ثوباً طويلاً أبيض، وكان رأسها مكسوّاً بوشاحٍ أسودَ مطرّز بالذّهب يَنسدِل على وجهها ويتجرجر خلفها من كلّ جانب. لو لم يتعرّف القُمْريّ العاشق إلى نُبْلِ قامَتها وهيبَة مَظهَرِها اللّذين يتّصفان بالكمال ويجعلانها فريدة بين النّساء، لكانَ شكّ بأنّها هيَ. جلسَت تحتَ شجرة البرتقال، ثمّ رفَعَت وِشاحَها دفعة واحدة. بقيَ لبعضِ الوقت منبَهِراً.

هتفتْ:

- أيّتها الحَسَرات المريرة! أيّتها الخواطر الحزينة! ما جدواك؟ لقد أمضى قلبي الملتاع سنة كامِلة بين الخشيَة والرّجاء؛ لكنّ ها إنّ النّهاية دَنَتِ اليوم! ما هيَ إلاّ بضع ساعاتٍ وأموت أو أتزوّج العملاق: واأسفاه! أمِنَ الممكنِ أن تتخلّى عنّي الجنيّة سائدة أو الأمير عَهْد؟ ماذا فعَلتُ لهما لكي يتخلّيا عنّي؟ لكن ما نَفْعُ كلِّ هذه الأفكار، ألا يجدُر بي أن أنفّذَ الخطّة النّبيلَة التي رسمتُها؟

ثمّ نهضت بِهيئةٍ مفعَمَةٍ بالجسارة لكي ترميَ بنفسِها. لكنّها في تلك الأثناء، وَبِما أنّ أقلّ ضجّةٍ كانت تُرْعِبها فقد سمِعَت القُمْريّ يتحرّك على الشّجرة. رفَعَت نظرَها لِتَرى مصدَرَ الضجّة. وَلِلحال طارَ صوْبَها ووضعَ في حِجْرِها الخاتم الصّغيرَ العَجيب. فوجِئت الأميرة بمداعباتِ ذلك العصفورِ الجميلِ وريشهِ الرّائع وأكثر من ذلك كلّه بالهَديّة التي قدّمَها لها للتوّ. تفحّصَت الخاتم ولاحَظت عليه بعض النّقوشِ الغريبَة. كانت لا تزال تحمِله عندَما دخلَ العملاق إلى الحديقة دون حتّى أن تسمَعَه.

بعضُ النّساءِ اللواتي كُنَّ يخْدُمْنَها ذهَبْنَ لِيُعْلِمنَ ذلك العاشقَ

الرّهيبَ بيأسِ الأميرة وبأنّها ترغب في قتلِ نفسِها بدَلَ أن تتزوّجه. عندَما عَرَفَ أنّها أرادَت الصّعود في الصّبيحَة الباكرة إلى أعلى البرج، خَشيَ من تلك الكارثة المشؤومَة. كان قلبه الذي لم يعرف حتّى ذلكَ الحَين إلاّ الهمَجيّة، مفتوناً بِعَينَي تلك الفتاة اللطيفة السَاحِرَتين، وكان يُحبّها برَهافَة. أيّتها السّماء! ماذا صارَ بحالِها عندَما رأته! خشيَت أن يحول دون تنفيذ مخطّطها. وكان القُمْريّ المسكين مرتعباً مثلَها من ذلك العملاق المخيف. وفي غمْرَة الاضطراب الذي كانت فيه، وضَعَت الخاتَم في إصبَعِها، وفي الحال، وَيا للعَجَب! تحوّلَت إلى يَمامَة وحلّقَت عالِياً معَ قُمْريِّها الوفيّ.

لم يسبق للعملاق أن فوجئ على هذا النّحو. وبعدَ أن رأى عشيقتَه تتحوّل إلى يمامة وتجتاز الفضاء الشّاسع، مكَثَ جامِداً لِبَعضِ الوقتِ ثمّ أطلقَ صراخاً وزعيقاً اهتزّت لهما الجبال ولم ينتهِ إلاّ بنِهايَةِ حياته في أعماقِ البحرِ حيث غرِقَ بدَلاً منَ الأميرة السّاحرَة، ولم يكن في ذلك إلاّ مطلق العدل. ابتعَدَت اليمامة إذاً بسُرعةٍ كبيرَة معَ دَليلِها. ولكن بعدَ أن قَطَعا مسافة طويلة وزالَ الخطر عنهما انحَدَرا برفقٍ منَ السّماءِ إلى غابَةٍ مكتظّةٍ بالأشجار بَديعَة المنظرِ تزيّنها مروج من العشبِ الأخضر والأزهار. كانت إخلاص لا تَزال تجهل أنّ القُمْريّ هوَ عشيقها الأمير. وكانَ هو حزيناً جدّاً لأنّه لم يستطع أن يُعلِمَها بذلك. وعندَئذٍ، شعرَ أنّ يداً خفيّة تفكّ عقدَة لسانه فاغتبطَ وقال حالاً للأميرة:

– أيّتها اليمامَة الرّائعَة، ألَم ينَبئكِ قلبكِ بأنّكِ برِفقةِ قُمْريٍّ يحترِق دوماً بالنار التي أضْرَمْتِها في قلبه؟

أجابت:

- إنّ قلبي كان يهفو إلى السّعادَة التي تحقّقت لي لكنّه لم يجرؤ على تصديق ذلك: فمَن كان قادِراً على تصَوّرِ ما جرى! كنتُ على وشكِ الهَلاكِ تحت تأثير طالعي المشؤوم الغريب ثمّ جئتَ لِتَنْشُلَني من بين براثن الموت أو بالأحرى من قبضة وحشٍ أخشاه أكثر من الموت نفسه.

ابتهجَ الأمير لأنّه سَمِع اليَمامَة تتكلّم وألفاها لا تزال على عهد الحبّ كما كان يَشتَهي؛ قال لها كلّ ما يُمْليهِ عليه أرقّ الشّغفِ وأكثره اضطراماً. روى لها ماذا جَرى منذ غيابهِ المُحزن وخصوصاً ذاك اللّقاء المُدهش برسول الحبّ كوبيدون في المصهر وأيضاً بالجنيّة في قصرِها. سُرّت الأميرة لَمعرِفَتِها أنّ الجنيّة صديقتها المفضّلَة لا تَزالُ تَسْهَر على مَصالِحِها.

قالت لعَهْد:

- تَعال نذهَب إليها يا أميري العَزيز ونشكرْها على كلّ ما فعَلته لأجْلِنا. سوفَ تُعيد لنا هَيئَتَنا الأصليّة ونعود بعدَها إلى مملكتِكَ أو مملكتي.

أجابَها:

- إذا كنتِ تُحِبّينَني بقَدْرِ ما أحبّك، فسوفَ أقترِحُ عليكِ اقتراحاً يُمْليهِ الحبّ عليّ ولا شيءَ سِواه. ولكن لا تقولي لي يا أميرَتي العزيزة إنّني غريبُ الأطوار.

أجابت:

- لا تَرفَعْ من قدْرِ ذكائكَ على حِسابِ قلبك. تكلّم دونَ خشيَة. سأستمِع إليكَ دوماً بِسرور.

أضاف:

- أودّ لو أنّنا لا نُغيّر هيئتَنا وأن نبقى كما نحن قُمْرِيّاً وَيَمامة وفي قلبينا يضطرم الحبّ نفسه الذي كان يُحرق عَهْد وإخلاص. أنا مقتنع بأنّنا بابتعادنا عن هموم الحُكم، بلا مجلس نعقده ولا حرب نشُنّها ولا مقابَلات نُجريها، سَنُعفى من القيام بهذا الدور المزعِج المتواصل على مَسرَح هذا العالَم الكبير. وهذا ما يُسَهّل علينا أن يعيش أحَدنا للآخر في كنف خلْوتنا اللّطيفة.

هتفت اليَمامَة:

- آه! ما أعظَمَ ما تنشدُه وما أنبَله! رغمَ صغَرِ سنّي كابَدْتُ وَيا للأسَف مشقّات كثيرَة. اضطهَدني القَدَر الغيور من جَمالي البريء وأمْعَن في اضطِهادي. يسرّني أن أبتعد عن كلّ مجدٍ زائفٍ، وألاّ أعيشَ إلاّ لأجلك. نعم يا أميري العَزيز، أقبَل اقتراحَك. لنَختَرْ بَلَداً ظريفاً ونُمضِ فيه أجمَلَ أيّامِنا كقُمْريٍّ ويمامة. لِنَعش حياةً بريئة لا طموحَ فيها ولا رَغبات إلاّ تلكَ التي يُلْهِمُها حبّ عفيف.

هتف رسول الحبّ النازل من أعلى جبل الأولمب:

- أنا الذي سأدلّكُما على هذه البلاد. إنّ خياراً مُفْعَماً بالحبّ كهذا لَيستحقّ رِعايتي.

- ورِعايَتي أيضاً! قالت الجنيّة سائدة التي ظهرَت فجأة. جئت أبحث عنكما لأستبقَ الوقتَ وأستمتعَ برؤيتكما.

سُرَّ قُمْريّ ويَمامَة بلقاء رسول الحبّ والجنيّة بقَدرِ ما فوجِئا به.

قالت إخلاص للجنيّة:

- سنَضَع نفسَينا تحتَ إمرَتك.

وقالَ عهْد لرسول الحبّ:

- لا تتركنا. لا تَتَخَلّ عَنّا.

قال رسول الحبّ:

- تعالا إلى بافوس[1]، حيث لا يَزالونَ يكنّونَ الاحترامَ لوالِدَتي، ويكرِّمونَ الطّيورَ التي كُرِّسَتْ لها.

أجابت الأميرَة:

- لا، لا نسعى إلى الاختلاطِ ببني البشر. طوبى لِمَن يتخلّى عنهم! ما نَحتاجه فقط هوَ خلوَة رائعَة.

وللحال ضرَبَت الجنيّة الأرض بِعَصاها. وصوّبَ رسول الحبّ إلى الأرض سَهْماً مذهّباً. فَرَأيا على الفورِ أجمَلَ قفرٍ في الطّبيعَة مزيّناً بأفضل ما يكون بالأشجار والأزهار والمروج والينابيع.

هتف رسول الحبّ:

- ابقَيا هنا لِمَلايينِ السّنين. وتَعاهَدا على وفاءٍ أبديٍّ بحضورِ هذه الجنيّة البديعَة.

هتف قُمْريّ:

- أقسمَ بذلكَ لِيَمامَتي!

وهتفت يمامَة:

- أقسِمُ بذلِكَ لقُمْريّي!

قالت الجنيّة:

- لا يمكن أن يُباركَ زواجكما رسولٌ من السّماء أكثرُ اقتداراً على جَعْله زواجاً سَعيداً. وأعِدكُما أنّه إذا تولاكما السّأم يوماً من هذا التحوّل فلن أتخلّى عنكما وسأعيدُ إليكما هيئتكما الأولى.

شكَرَ قُمْريّ ويَمامَةُ الجنيّةَ، لكنّهما أكّدا لها أنّهما لن يَستدْعِياها أبداً لأجلِ هذه الغايَة وأنّهما قاسَيا في حياتهما مِحَناً كثيرَة. توسّلا إليها فقط

(1) تقع بافوس في جزيرة قبرص، وفيها معبد لفينوسَ شهير.

أن تُحضرَ لهما الخروف شاطراً، هذا إذا لم يمت.

قالَ رسولُ الحبّ:

- غيّرَ هيئتَه، أنا الذي حَكَمت عليه بأن يكونَ خروفاً. لقد أثارَ شفقتي، أعدْتُه إلى العَرش الذي كنتُ خلَعْتُه عنه.

عندما سمِعَت إخلاص ما قاله رسول الحبّ لم تعد متفاجِئة منَ المبادَرات الجميلة التي كانَ يَقوم بها لأجلِها. واستحْلَفَت رسولَ الحبّ أن يُطلِعَها على أخبارِ الخروف الذي كانَ غالِياً جدّاً عليها.

أجاب بِتَهذيب:

- سآتي لأنقُلَ إليكما أخبارَه. اليوم ثمّة الكثير ممّن ينتظرونني وينشدونَ مجيئي في أماكن عدّة حتّى إنّني لا أعرف إلى أيّ مَكانٍ أتوجّه أوّلاً. وَداعاً أيّها الزّوجانِ السّعيدان اللّطيفان. بإمكانهما أن تتباهَيا بأنّكما الأكثر حكمَةً في مملكتي.

بقيت الجنيّة سائدة لبَعضِ الوقت مع العريسين المتزَوّجَينِ حَديثاً. قالت إنّها عاجزة عن امتداحهما بما فيه الكفاية على احتقارِهما لأباطيلِ هذا العالَم. لكنْ منَ المؤكّد أنّهما اختارا أفضلَ سبيلِ لهَناءَةِ العَيش. وأخيراً غادرتهما وعرفنا منها ومن رسولِ الحبّ أنّ الامير قُمْريّاً والأميرة يمامَة أحبّا أحدهما الآخرَ حبّاً وفيّاً أبدِيّاً.

إنّه قدَرُ الحبِّ الطّاهر:

بعدَ أن اعترضت الهمومُ والأحزانُ والعقبات

طريقَ هذين العاشِقَينِ الكامِلَين

رأينا أنّ الحبّ الذي يوثقنا بقيوده الوثيرَة

له طرقٌ شتّى ليَقودنا إلى السّعادَة

والشّمس إذ تُعَكّر صفوَ هذه السّبل، تُثبّتنا في عزمنا.
أيّتها القلوب الفتيّة، قد ترغمك محنٌ قاسيَةٌ على ذرفِ
أمرِّ الدّموعِ والحَسَرات
ولكن، حينَ يكون الحبّ طاهراً!، فإنّ الآلام
والهموم هيَ الضامِنَةُ لأروَع الملذّات جميعاً.

الأميرَة نجمَة الجمال والأمير عزيز

كان يا ما كان، كان هناكَ أميرَة لم يبقَ لها من عَظَمَتِها السّابقة إلاّ ظِلّة العَرش، والعلبَة التي تَحوي سكّينَها وَشوْكتَها وملعَقَتها. كانت الظِّلّة منَ المخمَلِ المُطَرّزِ باللآلئ والعلبة من ذهب مزدانٍ بالألماس. احتفظَت بهما بقَدْرِ ما سمحت لها الظروف. لكنّ العوَزَ والفقرَ اللّذينِ غَرقَت بِهما، كانا يُرْغِمانها من حينٍ لآخر على أن تنزعَ لؤلؤة أو ألماسَةَ أو زمرّدَة لتبيعها سرّاً وتُطْعِمَ أفرادَ حاشيَتِها. وكانت الأميرة أرمَلة وأمّاً لثلاث بنات يافعات رائعات الجمال وكان عليها أيضاً أن تهتمّ بتنشئتهنّ. لكنّها ما لبثت أن أدركَت أنّها إذا تولّت تربيتهنّ في جوٍّ منَ العظمَة والأبّهَة اللتَينِ تليقانِ بمقامِهنّ فسَوفَ يشعُرْنَ فيما بعد بمرارة أكبر عندما يُداهمهنّ الفقر. فاتّخَذت القرارَ بأن تبيعَ القليلَ ممّا تبقّى لديها وترحَلَ بعيداً معَ بناتِها الثّلاث للإقامَةِ في منزِلٍ في الرّيف، وإنفاق المبلغ الذي يَتلاءَم وثروَتهنّ الصّغيرَة. ولَدى مُرورِهنّ في غابَة محفوفَةٍ بالمَخاطر، سرقَ اللّصوص مالَ الأميرةِ فلَم يبقَ لها شيء تقريباً. أصابَ الأميرة المسكينةَ غمّ لا يُوصف من جَرّاء تلك المصيبة وأدرَكت أنّه يتوجّب عليها أن تكسَبَ رزقَها بعرق جبينها أو تقضيَ جوعاً. كانت تهوى فيما مضى الطّعامَ اللّذيذ وتتقِنُ صُنْعَ أشهى الصلصات. ولم تكن تذهَب إلى أيّ مَكانٍ من دونِ أوانيها الذّهبيّة، وكانوا يقصدونها من أماكن بعيدة لزيارَتها وتذوّق الأطباق التي تعدّها. لكنّ تلك الهواية التي كانت تسلّيها فيما مضى باتت اليوم مصدر رزقَها. اختارت الإقامة في منزلٍ جميلٍ

جدّاً بالقرب من إحدى المدنِ الكبيرة وطفقت تُعدّ اليخَنات الشهيّة. وكان النّاس في تلك البلاد يهوون المآكل اللّذيذة فأخذوا يتوافدون إليها. وذاع صيت الطّاهيَة البارِعَة ولم يعد زبائنها يترُكونَ لها متّسعاً من الوَقتَ لِتَرتاح. في تلك الأثناء كَبُرَت بَناتُها الثّلاث وكانَ صيتُ جَمالِهنّ سَيذيع كما ذاعَ صيتُ الصّلصاتِ التي تُحَضّرها أمّهن لو لم تُخفِهنّ هي في إحدى الغرف غير آذنةٍ لهنّ بالخروج منها إلاّ نادِراً.

وذاتَ يوم جميل مشرق، دخلت إلى منزلِها امرأة عجوز قصيرَة القامَة بَدا علَيها التّعبُ والإرهاق. كانت تتّكئُ إلى عَصاً وكانَ جسدِها مُحدَودِباً تماماً ووَجهُها مليئاً بالتّجاعيد.

قالت:

- جئتُكِ خصّيصاً لكي تَصنَعي لي وجبَة لذيذة لأنّني أريد قبلَ ذهابي إلى العالم الآخر أن أتلَذّذَ بأطايِبِ هذا العالم.

أخذت كرسِيّاً منَ القشّ وجلسَت بالقربِ منَ الموقد وَقالت لها أن تُسرِعَ في إعدادِ الطّعام. لم يكن بإمكانِ الطاهية أن تُعِدّ كلّ شيء بِمفرَدِها فَنادَت على بناتِها الثّلاث. كانت الأولى تُدعى صهباء والثّانية سمراء والثالثة شقراء. وقد أعطتهنّ هذه الأسماء نظراً لِلَوْنِ شَعرِهنّ. كنّ يَرتَدينَ زيّ الفلاحات مع صدرِيّاتٍ وتنانير من ألوانٍ مختلفة. كانت الصّغرى أجملهنّ وأرَقّهنّ. أمَرَت الأمّ إحداهنّ بأن تذهب للإتيان بحَمائم صغيرَة منَ القفص والأخرى بأن تذبَحَ بضعَ فراريجَ، والثالثة بأن تصنعَ الحلوى. وأخيراً، وفي وقتٍ قصيرٍ جدّاً، أعددْن للعجوز المائدَة وكانت في منتهى النّظافة والأناقة: وضعن شرشفاً ومناديلَ ناصِعَة البياض وأواني فخّارِيّة لامِعَة صقيلة وقدّمْن لها أطباقاً عدّة. كانت المشروبات لَذيذة، وأيدي الصّبايا الرّائعات تَغسل الأكواب في كلّ لحظة. وكلّ ذلك فَتَحَ شهيّة العجوزِ القصيرة

القامَة فأكلَت هنيئاً وشرِبَت مريئاً ومن فرطِ انتشائها قالت أشياء كثيرَة وجَدَتها الأميرة ظَريفة جدّاً رغمَ أنّها تظاهَرَت بِعَدَم الاهتمام بها.

وانتهَت المائدَة في جوّ منَ الجذل كما بدأت. نهضت العجوز وقالت للأميرة:

- يا صديقتي العزيزة، لو كان لديّ مالٌ لدفعتُ لكِ. ولكن منذ زمنٍ طويل وأنا مفْلِسَة. بحثت عنكِ وقصدتكِ لأتناولَ طعاماً لَذيذاً: كُلّ ما أستطيع أن أعدَكِ بهِ هوَ أنْ أبعَثَ لكِ بِزبائن أفضلَ منّي.

ابتسَمَت الأميرة وقالت لها بِلطف:

- اذهَبي يا جدّتي الطيّبَة. لا تقلقي أبداً، أشعر دوماً أنّني نُقِدتُ جيّداً عندما أُدْخلُ السّرور إلى قلبِ زبائني.

وقالت لها الابنة الشّقراء، وكانت تُدعى «شقراء»:

- سُعِدْنا جدّاً بِخدمَتكِ وإذا أرَدْتِ تناول العَشاءِ عندَنا فسَنُعِدّ لك عَشاءً ألذّ.

فهتفت العجوز:

- آه! ما أسعد حظّ الإنسان الذي حباه الله اللّطف والودّ! ولكنْ، ليكنْ معلوماً لديكُنّ أنكنّ سوف تَنَلْنَ مكافأةً على ذلك. كنّ واثِقات أنّ أوّل أمنيَةٍ تتمَنّينَها، دونَ أن تفكّرنَ بي، سوف تتحقّق.

وفي الحال اختفَت فأدْرَكنَ أنّها كانت جنيّة.

فاجَأتْهُنّ أقوال الجنيّة، لا سيّما وأنّها كانت أوّل جنيّة يصادفنها، لكنّها أثارت أيضاً الخوف في نفوسهنّ، وبَقينَ لخمسة أو ستّة أشهر يتحَدّثنَ عنها. وكلّما رغبنَ في شي، فكّرْنَ بها فلا تتحقّق أيّة أمنية فغضبْن منها. ولكن ذاتَ يومٍ، وفيما كانَ الملك ذاهباً إلى الصّيدِ، مَرَّ

بالطّاهيَة لكيِ يَرى ما إذا كانت بارعة كما يُقال عنها. ولَدى اقترابِ موكبه منَ الحَديقة مُحدثاً جلبَة كبيرَة، سمِعَته الأخوات الثّلاث اللّواتيَ كنّ يقطفْنَ ثمارَ الفراولة.

قالت الابنة الثانية، وكان اسمها «صهباء»:

- آه! لو كنت سعيدَة الحَظّ فأتزوّج الأميرال[1]. وعندئذٍ أعِدكُنّ بأنّني سأفْتلُ بِمغزلي وبمكّوك الحياكة خيوطاً كثيرَة أصنع منها قماشاً كثيراً فلا يحتاج إلى شراء أشْرِعَة لِسُفُنه.

وقالت الثالثة، وكان اسمها «سمراء»:

- ليتَ طالعي يكون حسناً فأتزوّج شقيق الملك. أعِدُكنّ أنّني سأنسجُ له بإبْرَتي قِطَعَ دانتيلاّ كثيرة بحيث يمتلئ قصره منها.

وأضافَت شقراء:

- وأنا، إذا ما تزوّجَني الملك فسأنجبُ له في ظرفِ تسعة أشهر صبيّيَن جميلَين وفتاة جميلة تنسَدل شعورهم خصلات مفتولَة وتتساقط منها أحجار كريمَة نفيسَة وتزيّن جباهَهم نَجمَة لامِعَة وتطوّق عنقهم سلسلة ذهبيّة فاخرة.

كان أحَد أصدِقاءِ الملك قد اقتربَ لِيُخبرَ الطّاهية بِمَجيئهِ فسَمعَ كلاماً في الحَديقة. اقتربَ دون أن يُحْدِثَ ضجّة وتفاجأ بِالحَوارِ الذي دارَ بين الفتيات الجميلات الثّلاث. ذهبَ بسرعَةٍ لِيُخبر الملك بما سمعه فيُسَلّيَه ويُضحِكَه. وأفلَحَ في ذلك فأمَرَ الملك بأن يَتمّ إحْضارُهنّ إليه.

وعلى الفور ظهَرْنَ وفي حَرَكاتهنّ ظرفٌ وأناقة. ألْقَينَ التحيّة على الملك بِكثيرٍ منَ الاحترام والتّواضع. وعندَما سألَهُنّ ما إذا كانَ صحيحاً الحِوارُ الذي دارَ بينَهنّ عن الرّجال الذين يَرْغبْنَ في الإقترانِ

(1) أي قائد السّفن أو الأساطيل، مختصر شائع عالميّاً للتّسمية العربيّة «أمير البحر».

بهم، عَلا الاحمِرار وجوهَهنّ وخفَضْنَ نَظراتهنّ. فحَثّهُنّ أكثر على الاعتراف واستجبْنَ. وفي الحال هتف قائلاً:

- بالطبع، لا أعرف أيّة قدرَة تؤثّر بي لكنّني لن أخرج من هنا قبلَ أن أتزوّج الشّقراء الجميلة.

وقال شقيق الملك:

- مولاي، أستأذِنكَ أن تسمَحَ لي بالزّواجِ بهذهِ السّمراء الجميلة.

وأضاف الأميرال:

- وامنَحْني رِضاكَ أيضاً لأنّ الصّهباءَ تعجبني كثيراً.

سُرَّ الملك بأن يحْذوَ اثنَانِ من كِبار مملكته حَذوَه وقال لهما إنّه يوافق على خيارِهما. سألَ والِدَتهُنّ ما إذا كانت موافقة. فأجابت أنّها لم تكن تحْلم بمثلِ تلك الفَرحَة. قبّلَها الملك وكذلك فعل الأمير والأميرال.

عندَما استعدّ الملك لتناول الغداء، رأى طاولة تنزل منَ المدخنة وعليها لَوازم ذهبيّة للمائدَة وكلّ ما يمكن تخيّله منَ الأطباق اللّذيذة الشهيّة. ولكنّ الملك تردّد في تناولِ الطّعام. خشيَ أن يكونَ اللحم مُعَدّاً وفقَ طقوسِ السّحَرَة في أعيادهم. وأثارَت تلك الطّريقة في تقديم السّفْرَة عبرَ المدخنة بعض الرّيبَة في نفسه.

جُهِّزَت المائدَة، ولم تكن تُرى إلاّ الأوعية والأواني الذّهبيّة المصنوعَة بإتقانٍ يفوق الذّهب جمالاً. وفي الوقت نفسه ظهرَ قفير منَ النّحل في خلايا منَ البلّورِ وبدأ في عزفِ أعذب موسيقى يمكن تصوّرها. ثمّ امتلأت القاعَة كلّها بالدّبابير والذّباب وكلّ أنواع الحشرات التي راحَت تخدم الملك بلباقةٍ مدهشة. وقدّمت له آلافُ الحشراتِ الشّرابَ دون أن تجرؤ واحدَة منها على السّقوط في الكوب، واتّصف أداؤها باتّزانٍ وانضباط مذْهِشَين. وأدركَت الأميرة وبناتها أنّ كلّ ما يحصل لا يمكنُ عزوُه إلاّ للعجوز القصيرة القامة فأخذنَ

يبارِكنَ السّاعَة التي تعرّفْنَ إليها فيها.

استغرق الغداء وقتاً طويلاً بحيث أنّ اللّيل داهَمَ المُولِمين وهم لا يَزالونَ جالسين إلى المائدَة. أظهَرَ الملك قليلاً منَ الحَياء؛ بدا له أنّ ملائكة الأُنس اتّخذت مَكان ملائكةِ الحبّ في ذلك الزّواج. ثمّ نهضَ وقال:

- لِنُنْهِ الحفلة من حيث كان يُفترَض بها أن تبدأ.

واستَلَّ خاتِمَه من إصبعِهِ ووضَعَه في إصبَعِ الشّقراء، وكَذا فعَلَ الأمير والأميرال. ضاعَفَت النّحلات من غنائها. ورَقَصَ الحاضرون وابتهجوا، وقَدِمَ كلُّ مرافقي الملك في الصّيدِ لإلقاءِ التحيّة على الفتاة الشّقراء التي صارت ملكة وعلى أمّها الأميرة. أمّا زوجَة الأميرال فلم يُحْتَفل بها كثيراً ممّا أشْعَرَها بالإحْباط: أفليست الأختَ البكرَ للسّمراء والشّقراء ويُفترض بها بالتالي أن تجد الشّريك الأرفع مقاماً؟

أرسَل الملك كبيرَ المرافقين لكي يُعْلِمَ الملكة والِدَته[1] بما جَرى ولكي يأتيَ بأجملِ العرباتِ لاصطحابِ الملكة الشّقراء وشقيقتيها. كانت الملكة الأمّ من أكثر النّساءِ قساوَة وخبثاً. عندَما عرفت أنّ ابنها تسرّعَ في الزّواج وخصوصاً من فتاةٍ مجهولة النّسَب، وأنّ أخاه الأمير فعَلَ مثله، انتابَها غضبٌ مسعور بحيث روّعَت القصرَ كلّه. سألت كبيرَ المُرافقين ما السّبب الذي دعا الملك لِعَقدِ ذلك الزّواج الذي لا يَليق بمَقامه. قال لها إنّ السّبب هوَ الأمل بإنجابِ صبيّينِ وبنت في تسعة أشهر، سَيولَد كلٌّ منهم بشعرٍ يسترسل في خصلاتٍ، ونجمةٍ على الجبين وسلسلة منَ الذّهب حولَ العنق. كما أنّ أشياءَ أخرى

---

(1) تظلّ زوجة الملك المتوفّى تتمتّع بلقب «الملكة» حتّى بعد ترمّلها وانتقال التّاج إلى ابنها البِكر. وعندما يتزوّج الابن تُدعى زوجته أيضاً ملكة. وللتفريق بين الملكتين في هذه الحكاية تحمل أمُّ الملك لقبَ «الملكة الأمّ»، وزوجتُه لقبَ «الملكة الشابّة». لا يخفى ما في تكرار الصّيغتين من إملال، ولكنّنا اضطررنا إلى تبنّيهما دفعاً للّبس.

غاية في النّدرة سَحرَتْه. ابتسَمَت الملكة الأمّ باحتقار وسَخِرت من سرعَة ابنِها في تصديق ما يُقال له. وقالت في ذلك الشّأن كلماتٍ مُهينَة تعبّر عن غَضَبِها المَسعور.

وصَلت العربات أمام المنزل الصّغير. دَعا الملك حَماتَه للّحاقِ به ووَعَدَها أنّه سيتمّ معامَلتها بِكثيرٍ منَ المُراعاة. لكنّها فكّرَت في الحال أنّ البلاط هوَ أشبه بِبَحرٍ مضطرِبٍ دوماً.

قالت له:

- مولاي لقد اختبرتُ ما يكفي حَياة القصور ولا أنْوي أن أتَخلّى عن الرّاحَة التي لم أحصل عليها إلاّ بعدَ عناءٍ كبير.

أجاب الملك:

- ماذا؟ هل تريدين أن تواصلي عمَلكِ في استِضافَة النّاسِ وتقديم الطّعامِ لهم؟

قالَت:

- لا، ستقدّم لي شيئاً لأعْتاشَ منه.

أضاف:

- تقبّلي على الأقلّ أن أمدّك بأفرادِ حاشيَةٍ وضبّاط.

قالت له:

- عَفوَكَ سيّدي. عندَما أكون وحْدي لا أكون مُحاطَة بأعداء يضمرون لي شرّاً. ولكن إذا أحاطني الخدّام فأخشى أن أجِدَ بينَهم مَن يُعاديني.

أعجِبَ الملك بِذكاءِ المرأةِ وقناعتها لأنّها كانت تفكّر وتتكلّم مثل الحُكَماء.

وفيما كان يحثّ حَماته على المجيءِ معه، خبّأت زوجة الأميرال في جوفِ عرَبَتِها جميعَ الأوعية الجميلة والأواني الذّهبيّة الموجودَة

في خزانة أمّها ولم تترك منها شيئاً. لكنّ الجنيّة التي كانت ترى كلّ شيء، ولا أحَدَ يَراها، حوّلتْها إلى أوانٍ خزَفيّة. وعندما وصلت زوجة الأميرال إلى بيت عريسها وأرادَت حَمْلَها إلى مَخْدَعِها، لم تجد شيئاً جَديراً بأن تحْتفظ به.

قبّل الملك والملكة الشابّة الأميرةَ الحكيمَةَ أمّ الفتيات الثّلاث بحَنانٍ وأكّدا لها أنّها يمكن أن تتصرّف عندَما تشاء بكلّ ما يملكانه. وغادَرا البيت الريفيّ وجاءا إلى المَدينة تتقدّمهم الأبواق والمَزامير والصّنوج والطّبول التي سُمِعَت تَصْدَح من بعيد. وقدّمَ وُصَفاءُ والدة الملك لها النّصحَ بالعمل على إخفاء مِزاجَها السيّئ لأنّ ذلك سيُزْعِج الملك ويمكن أن تترتّب عليه عواقب وَخيمَة. فأرْغَمَت نفسها على تَمالُكِ أعصابِها ولم تُظهر إلاّ الودّ لِكنّتَيها وقَدّمت لهما الجَواهرَ ووجّهت إليهما عبارات الثّناء على كلّ ما تفعلانه دون تمييز.

كانت تجْمَع الملكةَ الشّقراءَ والأميرةَ السّمراءَ علاقة متينَة ولكن زوجَة الأميرال الصّهباء كانت تكرههما كُرْهاً مميتاً[1].

قالت هذه الأخيرة في نفسها:

– يا لَحَظّ شقيقتَيّ السّعيد! الصّغرى ملكة والوسطى أميرة ملكيّة وزوجاهما يحبّانهما بشغف. وأنا، أنا الأخت البكر التي تفوقهما جمالاً بمائة مرّة لم أحظَ إلاّ بزوج أميرالٍ ولا يُحبّني كَما أستحقّ.

وكانت الغيرَة التي تشْعر بها حِيالَ شقيقتيها تدفعها للوقوف إلى جانب والدة الملك؛ كانَ جلِيّاً أنّ الحَنان الذي تُبْديه هذه الأخيرة لِكنّتيها مصطنَعٌ ليس إلا، وأنّها كانت تتحَيّن بِلهفةٍ فرصة سانحة

(1) ينبغي التذكير بأنّ هذه الكراهية تتلاءم واللّون الأصهب لهذه الفتاة، فاللّون المذكور يرمز في حكايا الجنّ لكلّ ما هو خبيث وذو مفعول ضارّ، ويلاحظ القارئ آثاره في حكايات أخرى من هذا الكتاب.

لإيذائهما.

حبَلت الملكة والأميرة، ولكنْ، لِسوءِ الحظ، شُنّت في تلك الأثناء على المملكة حربٌ كبيرَة. توجّبَ على الملك الرّحيل لكي يقودَ جيشه. وَأُرْغِمَت الملكة الشابّة وأختها الأميرة على البقاءِ تحت سلطة والدة الملك وتوسّلتا إليها أن توافق على أن تعودا للإقامَة عندَ والِدَتهما لتُروِّحا عن نفسيهما خلال ذلك الغياب القاسي لبَعلَيهما. لكنّ الملك نفسه شاء عدم الموافقة على ذلك. استحلف زوجته بالبقاء في القصر وأكّد لها أنّ والِدَته ستُعاملهما هي وشقيقتها بلطْفٍ كبير. وبالفعل، توسّلَ إليها بإلْحاح شديدٍ أن تحبّ كنّتَها وأن تُعْنى بها. وأضافَ أنّ أكثرَ ما يتمنّاه هوَ أن تنجبَ له زوجته أطفالاً حسني التكوين وأنّه ينتظر الأخبار بِفارِغ الصّبر. ابتهجَت تلك الملكة الشرّيرة بأن يعهدَ لها ابنها بزوجته، ووَعَدَته بألاّ تعنى إلاّ بسَلامَتِها وأكّدَت له أنّه يستطيع الرّحيلَ خليَّ البال. وهكذا رَحَلَ غيرَ راغبٍ إلاّ في الرّجوع في أقرب وقتٍ ممكنٍ ما كان يدفَعه إلى حثّ جيوشهِ على القتال كلّما سنحت له الفرصَةُ. وكان النّصر حليفه دوماً ما دفعه للإسراع في تصريفِ شؤونه. ووضعَت الملكة قبل عودته صبيّين وبنتاً كما رأتْهم في أمنيتها، وأنجبَت شقيقتها الأميرة في اليوم نفسه صبيّاً جميلاً لكنّها توفّيت على الفور.

كانت زوجَة الأميرال الصّهباء منشغلة جدّاً بإيجاد وسيلة لإيذاء الملكة الشابّة. وعندما رأت أطفالها الرّائعي الجمال فيما هيَ لم تُرْزَق بأيّ طفل، تفاقم غيظها. واتّخذت القرارَ بأن تتكلّم سَريعاً إلى والدة الملك لأنّه ليس لديها الكثير منَ الوقت لتُضيّعَه.

قالت لها:

- مولاتي، منحتِني شرفاً عظيماً حين تكرّمتِ عليّ بِنِعَمِك.

وأتخلّى طوْعاً عن مَصالِحي لكي أخدم مَصالحَكِ وأرعاها. أدْرِكُ كلَّ الاستياءَ الذي تشعرينَ به مُذ عقدَ الملك والأمير قِراناً لا يليق بمقامِهما. ثمّ ها قد وُلدَ أربعَةُ أطفالٍ سَيُديمونَ الخطأ الذي ارتكباه. أمُّنا المسكينَةَ هيَ امرأة قروِيّة فقيرَة لم يَعد لدَيها ما تأكله عندما فكّرَت أن تُصبِحَ طاهيَة. صدّقيني يا سيّدَتي، من الأفضل أن نَقضي على هؤلاءِ الأطفال الصّغار ونُخرِجْهم منَ الوجود قبل أن يَجلبوا لكِ العار.

قالت الملكة وهيَ تُقبّلها:

- آه يا عزيزتي يا زوجَة الأميرال ما أحسنكِ! كم أحبّكِ لأنّك بهذا الإنصاف، ولأنّكِ تشاطرينني انزعاجي واستيائي المُحقّين! سبَقَ لي أن صمّمتُ على تنفيذ ما اقترحْتِه، ولم يبقَ عليّ سوى أن أجد الطّريقة.

أجابت الصّهباء:

- لا يشغَلَنّ ذلكَ بالك. لقد أنجبت كلبتي جرْوَينِ وجروة، وجميعهم لديهم نجمَة على الجبين وسلسلة حولَ الرّقبة. يجب أن نَعمَل على إقناعِ الملكة بأنّها أنجبت هذه الحيوانات الصّغيرة، فيما يُؤخذ الصبيّانِ والفتاة وابن الأميرة ويُقضى عليهم.

هتفت:

- خطّتكِ تَروق لي كثيراً. سبَقَ أن أعْطيتُ الأوامرَ في هذا الشّأن إلى بهتان، وصيفتها، حتّى تأتي بِجراءِ الكلاب الصّغار.

قالت زوجة الأميرال:

- ها هيَ، لقد أحضرتُها.

وفي الحال فتحَت كيساً كبيراً كان قربَها وأخرَجَت منه ثلاثة جِراءٍ من فصيلة الدّرواس. لفّتها الملكة الأمّ والصّهباء في أقمِطَة وكأنّ

الجراء أطفال؛ وكانت الأقمطة مُزيّنَة كلّها بالدانتيلاّ والذّهب، ووضعتاها في سلّةٍ مغطّاةٍ ثمّ ذهبت تلك الملكة الشرّيرة إلى الملكة كنّتها مصحوبة بشقيقتِها الصّهباء.

قالت لها:

- أتيت لأشكرَكِ على وَرثةِ العرش الرّائعِي الجَمال الذين أنْجبتِهم لابني: هاكِ رؤوساً جميلة لتضعي فوقَها تاجاً. لا أتفاجأ من أنّكِ وعَدْتِ زوجَكِ بِصبيّين وبنتٍ تزيّن جباههم نجمَة على الجبين وشعورهم طويلة وحولَ أعناقهم سلسلة ذهبيّة. خذي، أطعِميهم لأنّه ليسَ هناكَ امرأة ترضى بأن تُرضعَ جِراءَ كلاب.

أحَسّت الملكة الشابّة المسكينة، التي كانت لا تزال منهكة من آلام الوضع، بأنّ ذلك الألم الجديد الذي تثيره فيها رؤيَةِ جِراء الكِلاب الثّلاثة سوف يميتها، وكذلك الضجّة اليائسَة التي كانت تُحْدِثها تلكَ الدّراويس على سَريرها. راحت تبكي بِمَرارة ثمّ جمعَت يديها وقالت:

- وَيلٌ لي ماذا أرى! سيّدَتي لا تُضيفي مَلامَةً على تفجّعي لأنّه لا يمكنه أن يكون أكبر. لو أنّ السّماء قد سمَحَت بموتي قبلَ أن يحلّ بي هذا العار وأراني أمّاً لهذه المسوخ الصّغيرَة، لَكنت اعتبَرت نفسي سعيدَة جدّاً: يا لَمُصيبتي! ماذا سأفعل؟ سيَكرَهني الملك بقدْرِ ما أحَبّني.

خنقت التنهّدات والشّهقات صوتَها، وفقدت القدرَة على الكلام. وأمضت الملكة الأمّ زهاءَ ثلاث ساعات عندَ سريرها مستمتعة بتوجيه الشّتائم المتواصلة إليها.

ثمّ انصرفت الملكة الأمّ، أمّا شقيقة الملكة، التي تظاهَرت بأنّها تُشاطِرها آلامَها فقالت لها إنّها ليسَت الأولى التي تحلّ بها مثل تلك المصيبة. لا بدّ أنّ الجنيّة العجوز التي وَعدَتهنّ بِنِعَمٍ كثيرَة هي التي

قامَت بذلك العمل الخبيث؛ لذا تنَصَحُها بالعودة عند أمّها المسكينة مصطحبة أولادِها الجراء الثلاثة لأنّه لا يليق بها أن ترى الملك وهي في ذلك الموقف المعيب. لم تُجبها الملكة الشابّة إلاّ بدُموعِها. أيّ حال كانت هي فيها بسبب حماتها وشقيقتها! كان مرآها قادراً على إثارة الشفقة في أقسى القلوب! أرضَعَت تلك الكلاب البائسة معتقدَة أنّها والِدَتهم.

أمَرَت الملكة الأمّ الوصيفة بُهتان بأن تأخذ أطفال الملكة الشابّة وابنَ شقيقتها الأميرة وأن تخنقهم وتدفنَهم تحت سابعِ أرض بحيث لا يُعرَف عنهم شيء. وفيما كانت على وشكِ تنفيذَ المهمّةً ممسكةً بالحبل الذي سيَلتفّ على أعناقهم، نظرَت إليهم مذهولة بجمالهم العجيب ومَزاياهم الخارِقة وتلك النّجوم التي تلمَع على جباههم فلم تجرؤ على وضع يديها المجرِمتينِ على أطَفالٍ هم بمثْلِ ذلك النّقاء.

جَذبَت قارباً إلَى شاطئ البَحر ووضعَت فيه الأولاَدَ الأربعة في المَهد نفسه وبعض السّلاسل منَ الأحجار الكريمَة حتّى إذا قادَهم القَدر بين يدَي إنسان مُحسِن يُعنى بهم، وجدَ مكافأتَه بهذه الطّريقة.

دفَعَت ريحٌ قويّة القاربَ فابتعدَ سريعاً عن الشّاطئ، وغاب عن نظرِ بهتان. ولكنْ في الوقت نفسه علتِ الأمواج واحتجبت الشّمس وانهالَ المَطر مدراراً ودوّت آلاف الرّعود فوق كلّ تلك البطاح. لا شكّ أنّ القارب الصّغير غمَرَته المياه؛ شعرَت الوصيفة بالسّرور لدى تفكيرها أنّ أولئك الأبرياء المَساكين لاقوا حتفهم؛ ومع ذلك كانت تخشى دوماً أن يحصل شيء خارق يُنقذهم.

كان الملك في قلقٍ دائم على زوجته العزيزة ويريد الاطمئنان على حالها. استطاع الحصول على هِدنَة لِبَعض الوقت وعادَ على وجه السّرعة. وصلَ بعد اثنتي عشرَة ساعَة من ولاَدَة زوجته.

وعندما علمَت الملكة الأمّ بذلك ذهبت لموافاتِه وهي تتصنّع الألم وأبْقته طويلاً بين ذراعَيها مبلّلة وجْهَه بالدّموع. تظاهرت بأنّ ألَمَها يمنعها منَ الكَلام. ارتجف الملك خوفاً لشعوره بأنّ هناكَ كارثة كبيرة وقعتْ، ولم يجرؤ على السّؤال عمّا يحدث. وأخيراً استجمعت الملكة أمّه قواها وأخبرَتْه أنّ زوجَته أنجَبَت ثلاثة كلاب: وفي الحال جلَبَتهم له بُهتان. ثمّ ارتمَت زوجة الأميرال باكِيَة منتَحِبَة عندَ قدَمَي الملك وهيَ تتوسّل إليه بألاّ يأمُرَ بِقتلِ الملكة زوجته وبأن يكتفي بإرسالِها إلى والِدَتها، لأنّ زوجته نفسها مصمّمة على الأمر، وستتلقّى هذه المعاملة وكأنّها عملٌ رحيم.

وجدَ الملك نفسَه في غمرة الحيرَة والضّياع وشعر بنَفَسه يضيق حتّى الاختناق. نظرَ إلى جِراءِ الدّراويس ولاحظ مدهوشاً تلك النّجمَة التي تتوسّط جباههم واللّون المختلف الذي يطوّق رقابهم. تهاوى على إحدى الكنبات وأخذت آلاف الأفكار تتصارَع في رأسه دون أن يستقرّ على قرار. لكنّ والدته الملكة كانت تضغط عليه وتؤلّبه على زوجته البريئة فأمَرَ بنَفيها. وعلى الفور وُضِعَت على مَحْمَل معَ كِلابها الثّلاثة من دونِ أيّة مراعاةٍ لها واقتيدَت إلى عندِ أمّها حيث وصلَت على آخرِ رمق.

نظرَت السّماء بعينِ الشّفقةِ إلى القارب حيث كان الأمراء الصّغار الثّلاثة معَ الأميرة الصّغيرة. لكنّ الجنيّة التي تحْميهم جعلت بَدَلَ المَطر حليباً في أفواههم النّاشئة. لم تؤثّر فيهم تلك العاصفة الهوجاء التي هبّت على نحوٍ مفاجىء. وأخيراً ظلّوا في عَرض البحرِ سبعَة أيّام وسبعَ ليالٍ كانوا إبّانها أكثرَ هدوءاً ممّا لو كانوا في قنال صغيرة. وعندئذٍ صادَفَهم أحد مراكب القراصنَة. انبَهَرَ القبطان، معَ أنّه كان لا يزال على مسافةٍ بعيدةٍ، ببريق النّجومِ الباهرةِ التي تزيّن جباههم؛

ولكنّه تأثّر بشكلٍ خاصّ بالجمال الرّائع للأطفال الأربعة. ثمّ إنّ الرّغبة في الاحتفاظِ بهم أرْغَمَته على الرّجوعِ إلى بيتِه ليَهَبهم إلى زوجَته التي لم تُرزق بأولاد وترغب منذ وقتٍ طَويل في أن تكون أمّاً.

شعرت الزّوجة بقلق كبير لرؤيته عائداً بهذه السّرعة لأنّه كان ينوي القيام برحلَة طويلة. لكنّها طارَت فرَحاً عندَما سلّمَها تلك الكنوز الثمينة. أُعجِبا بالنجوم والسّلسلة الذهبيّة التي لم يكن بالإمكانِ نزعها من أعناق الأطفال وشعورهم الطّويلة. لكنّ الأمر بلغ حدّ العَجَب المُطلَق عندَما كانت تلك المرأة تمشّط شعورَهم التي تتساقط منها في كلّ لحظة لآلئ وياقوت وألماس وزمرّد من مختلِف الأحجام وجميعها في غاية الرّوعة. تحدّثت عن الأمر لزوجِها الذي تفاجأ مثلها.

قال لها:

– لقد سئمتُ مهنة القرصان. إذا استمرّت شعور هؤلاء الأطفال في إمدادِنا بالجواهر فلن أذهَبَ لأجوبَ البِحار وستكون ثروَتي موازِيَة لِثروَة أعظم القباطِنَة.

ابتهجَت زوجةُ القرصان، وكانت تُدْعى قرصانَة، بالقرار الذي اتّخذَه زوجها. وازدادَ حبّها لأولئك الأطفال الأربعة. سمّت الأميرةَ الصّغيرة نجمة الجمال وأخاها البكر منيراً والثاني سعيداً. أمّا الابن البكر للأميرة خالتهم فسمّته عزيزاً. كان يفوق الذّكَرَين الآخرَين جمالاً مع أنّه لم تكن لدَيه لا نجمَة على جبهته ولا سلسلة حول عنقه، وكانت قرصانة تحبّه أكثر منَ الآخرين.

وَبِما أنّها لم تكن تستطيع أن تُطعمَهم من دونِ اللّجوء إلى مرضعة فقد توسّلت إلى زوجِها الذي كان يحبّ الصّيد كثيراً ليُمسك لها

بشوادِنَ[1] لا تزال رُضّعاً. وجَد الوسيلة لذلك لأنّ الغابة حيث كانا يسكنان كانت فسيحَة جداً. عندما حصلت قرصانة على الشّوادن، وَضَعَتها لِجهَة الرّيح فاشتمّت الظّباء رائحَتها وهُرِعَت لإرضاعها. فخبّأتها قرصانة ووَضعَت بَدَلاً منها الأطفال الذين لاءَمَهم حليب الظّباء بامتياز. وكانت مرّتين في كلّ يوم تأتي أربع ظباء سويّة إلى منزل قرصانَة بحثاً عن الأمراء والأميرة الذين حسبتْهم هيَ شوادِن.

وهكذا مَضَت السّنة الأولى من طفولة الأمراء. كان القرصان وزوجته يحبّونهم بشغفٍ كبيرٍ وأولَياهم كلّ رِعايتهما. كان القرصان قد تلقّى في صغره تربية راقيَة وأصبَحَ قرصاناً بفعلِ غرابَة القدَر وليسَ لِمَيلٍ فيه إلى هذه المهنة. تعرّف على زوجته عندَ إحدى الأميرات حيث كانتْ تلقّت أيضاً تربية حسنة وثقافة رفيعَة. ومعَ أنّها كانت تعيش في مكانٍ أشبه ما يكون بالقفر، وكانا يَعتاشانِ منَ السّرقات التي يقوم بها القرصان خلال جولاته إلاّ أنّها لم تنسَ أصول التصرّف الخاصّة بالمجتمَع الرّاقي. كانا سعيدَينِ جدّاً لأنّهما لم يعودا مُجبرَينِ على التعرّض لكلّ المخاطر التي تَسِمُ مهنة القرصان. وأصبحا ثريّينِ دون القرصنَة. وفي معدّلِ كلّ ثلاثة أيّام كانت تتساقط، كَما قلت لَكم آنِفاً، من شعور الأميرة الصّغيرة وإخوتِها أحجار كريمة كبيرة الحجم فتذهب قرصانة لِبيعِها في المَدينة الأقرب، وكانَ الجميع يُثني علىَ أطفالِها الأربعة.

وعندَما انقضت سنوات طّفولتهم الأولى، انكبّ القرصان بجديّة على تنشئة المواهب الطبيعيّة التي حَبَتْهم بها السّماء. لم يكن يخمّن أنّ هناكَ أسراراً كبيرة خفيّة تحيط بمَولِدهم وبلِقائهِ بهم. أرادَ، من خلالِ اهتمامه بتربيتهم، أن يشكر السّماءَ على تلك النّعمَة التي منَحَته إيّاها.

---

(1) جمع شادن، وهو صغير الظبية.

وعندَما أصلَحَ من هيئةِ منزله وزوّده بوسائل الرفاهيَة، استدعى أساتذة أكفّاء لتلقينهم مختلف العلوم فاستوعبوها بسهولة أذْهشَتهم.

لم يتحدّث القرصان وزوجته إطلاقاً عن المغامرَة التي خاضَها الأطفال الأربعة. كان الجميع يظنّون أنّهم أولادهما مع أنّ جميعِ تصرّفاتهم أظهَرت نبالةَ محتدهم. كانوا متضامِنينَ جدّاً فيما بينَهم وكانوا يتعامَلونَ حِيالَ بعضهم البعض باحترام وتهذيب، ولكنّ الأميرَ كان يَكنّ للأميرة نجمَة الجمال مشاعرَ أكثرَ اندِفاعاً منَ الأميرَينِ الآخرَين. ما إن تتمَنّى الفتاة شيئاً حتّى يُحاول المستحيل لإرضائها. لم يكن يكاد يُفارِقها. عندَما تذهب إلى الصّيد، كانَ يُرافقها، وعندَما تَمتنِعَ عن الذّهاب، يجد دوماً الأعذار ليحذوَ حذوها. وكان أخواها منير وسَعيد يتحَدّثانِ إليها بِحَنانٍ واحترام أقلّ. لاحَظت ذلك الفرقَ بين تصرّفهما وبين تصرّف عزيز فَكنّتْ له محبّة خاصّة.

وكلّما تقدّم عزيز ونجمة الجمال في السنّ ازدادَت عاطفتهما المتبادَلة رسوخاً، وكان ذلك الشّعور ممتّعاً بادئ الأمر.

كانت نجمة الجمال تقول له:

- يا أخي الحنون لو أنّ تمنيّاتي لك تكفي لِتجَعلكَ سعيداً، فستصبحُ واحداً من أعظم الملوك في العالم.

وكان يجيبها:

- يا أختي! لا تضنّي عليّ بالسّعادَة التي أشعر بها قربَك. أفضّل أن أقضي ساعة معك على كلّ ما تتمنّينه لي من ترقيات!

وعندَما كانت تقول الشّيء نفسَه لأخوَيها كانا يُجيبان، أسوةً بالجَميع، بأنّ ذلك سيَكون أقصى ما يتمنّيانه. وكانت تمتحن مشاعرهما بِقولِها:

- أجل، أودّ أن تكونا على عرش أعظم مملكة في العالم حتّى لو لمَ

أَرَكما أبداً.

ويجيبانِ على الفور ساخرَين:

- أنتِ على حقّ يا أخت، المُلك أفضل بالطّبعِ من رؤيتك.

- إذاً أنتُما لا تهمّكما رؤيَتي كثيراً!

- يكفينا فقط أن تصِلَنا أخبارَك.

وحالما تجد نفسَها وحيدة، كانت تمعن في التفكير في فوارق العاطفة هذه. صحيح أنّها كانت تحبّ أخوَيها منيراً وسعيداً لكنّها لم تكن تتمَنّى أن تبقي معهما طيلة حياتها. أمّا إذا فكّرت بعزيز فكانت تنهار باكِيَة ما إن يخطُرُ على بالِها أنّ والدهم سيرسله ذاتَ يوم لِيَجوب البحار أو ليلتحق بالجيش. وهكذا فإنّ الحبَّ المتلبّسَ قنَّاعَ ذلك الانعطاف الفطريّ الجميل ترسّخ في قلبَي هذينِ الشّابّينِ اليافِعَين.
ولكن في عمرِ الرّابعة عشرة، بدأت نجمة الجمال تلومُ نفسَها على الظّلم الذي خالَت أنّها تلْحِقه بأخوَيها لأنها لا تُكِنّ لهما الحبّ نفسه.
تخيّلتَ أنّ العنايَة التي يوليها إيّاها عزيز وَبادِراته الحنون هيَ السبب فمَنعَته من أن يَسعى لإيجادِ الوسائلِ التي تحبّبه إليها.

كانت تقول له بلطف:

- لقد عرفتَ كيف تجد الطّريقة لأحبّكَ أكثرَ منهما فجعلْتَني أشعر بِفارق كبيرٍ بينك وبينهما.

أيّة سعادَة كانَ يشعر بها عندَما تكلّمه على هذا النّحو! وَبَدَلَ أن يخفّفَ هذا القولُ من حَماسَته، كان يَزيدها فيسعى للتوَدّد إليها في كلّ يوم بلطفٍ أكبر.

كانا يجهَلانِ إلى أين سَتُفْضي بهما عاطفتهما ولا يعرِفانِ ما طبيعَتها.
وذات يوم جيءَ لِنجمة الجمال بِكتبٍ جديدة عديدة. أمسكت بأوّل كتابٍ وقَعَ تحتَ يدِها، وصادف أنّه يروي قصّة عاشقَينِ يافِعَينِ

كانا يظنّان في البداية أنّهما أخَوان ومن ثمّ تعرّف إليهما أقارِبهما وبعدَ صعوباتٍ جمّة، تزوّج الفتى والفتاة.

بما أنّ عزيزاً كان يُحسن القراءة، ويفهم برهافةٍ كلّ ما يقرؤه، ويعبّر عن أفكاره برهافةٍ أيضاً، طلبت منه نجمة الجمال أن يقرأ إلى جانبها فيما تُكمل هي تطريز قطعةٍ من النّسيج كانت راغبةً في إنهائها. فقرأ تلك القصّة بقلقٍ بالغ ورأى فيها مرآة تعكس مشاعره كلّها. وكَذلكَ فوجِئت نجمة الجمالَ بالقصّة وبَدا لها وكأنّ الكاتب يدرك كلّ ما كان يَدور في نفسِها. وكلّما أمْعَنَ عزيز في القراءة شعرَ أنّها تمسّه أكثر. وكلّما استمعت إليه الأميرة، رقّ قلبها أكثر. ورغمَ الجهد الذي بذلته انهمرت الدّموع من عينيها وغمَرَت خدّيها، وسعى عزيز من ناحيته ليتَمالكَ نفسه لكنّ شحوب وجهه وتبدّل نبرَة صوته كانا يعبّران عن دخيلائه. لقد شعرَ عزيز ونجمة الجمال بكلّ الألم والعذاب.

هتفَ يقول وهوَ ينظرُ إليها بحُزنٍ تاركاً الكتاب يسقط من يده:

– آه يا أختي! آه يا أختي ما كانَ أسعَدَ هيبوليت لأنّه لم يكن شقيق جولي![1]

أجابته:

– لن تُكتبَ لنا مثل هذه الفرْحَةِ رغم أنّها أقصى أمانينا.

ما إن أنْهَت كلماتها هذه حتّى أدركَت أنّها قالت أكثرَ ممّا يُفترَض بها قوله، فبَدَت مُرْتبكَة. وإذا كانَ هناكَ شيء يُمكنه أن يَحمِلَ العَزاء إلى قلبِ الأمير فهوَ الحال التي رآها فيها. ومنذ ذلكَ الحين غرقَ الاثنان في حزنٍ عميقٍ دونَ أيّ تعليل إضافيّ، محاولينَ بِصمتٍ أن يُدرِكا جزءاً

---

(1) هيبوليت وجولي هما بطلا رواية ماري–كاترين دونوا الحاملة عنوان: **حكاية هيبوليت، الكونت دوغلا**، وكان يجمعهما عشقٌ حالَ دونه عائق مشابه لهذا الذي يحول دون عشق نجمة الجمال وعزيز.

ممّا كان يَدور في خلدَيهما، متوَخّيَينَ أن يُخفِيا على الجميع سرّاً أرادا إغفالَه هما بالذات ولم يعودا للتطرّق إليه. ومع ذلك فمِنَ الطبيعيّ جدّاً أن يتعَلّلا بالأمل، وما كان يَدْفَع الأميرة لِتستمرّ في رَجائِها ذاك هوَ أنّ عزيزاً لم يكن يملك لا نجمَة على جبهتِه ولا سلسلة حولَ عنقه، أمّا شعره الطّويل وَهِبَة إسقاط الأحجار الكريمة منه لدى تسريحه، فكانَ يملِكهما مثله مثل ابنَي خالته.

وذاتَ يوم ذهبَ الأمراء الثّلاثة إلى الصّيد. وظلّت نجمة الجمال في المنزل واختَلَت في مخدَع صغيرٍ كانت تهوى اللّجوء إليه لأنّه مُعتم وتستطيع أن تحْلم فيه بِحرّيّة أكثرَ من أيّ مَكانٍ آخر. لم تكن تصدر عنها أيّة ضجّة. لم يكن يفصِل بين ذلك المخدَع وغرفة قرصانة إلاّ حاجز خشبيّ. ظنّت قرصانة أنّ نجمة الجمال ذَهبت إلى النزهَة معَ إخوَتِها. وعندئذٍ سمِعَتها نجمة الجمال تقول لزوجها:

- ها إنّ نجمة الجمال أصبَحَت بِعمرِ الزّواج، لو كنّا نعرِف مَن هيَ لَسَعيْنا لأن نَجِدَ لها زوجاً يليق بِمَقامِها. أو لو كان بِمَقدورِنا أن نعتقدَ أنّ هؤلاءِ الذين نعتبرُهم إخوَتَها ليسوا كذلك حقّاً لَزَوّجْناها أحَدَهم فأين بِوسعها أن تجِدَ أفضلَ منهم؟

قال القرصان:

- عندما عثرتُ عليهم، لم أهتدِ إلى شيء يعرّف بهم. لكنّ الأحجار الكريمة التي كانت موضوعَة في مَهدِهم كانت تُشير إلى أنّهم ينتمونَ إلى أناسٍ أثرِياء. ولكن يبدو لي مستبَعداً أن يكونوا توائمَ جميعاً لأنّ أعمارَهم تبدو متشابهة وليسَ مألوفاً أن تنجبَ امرأةٌ أربعةَ توائم.

قالت قرصانة:

- أشكّ أيضاً أنّ يكون عزيز شقيقهم فهوَ ليسَ لَدَيهِ لا نجمَة على جبهتِه ولا سلسلة في عنقه.

أجاب زوجها:

- هذا صحيح، لكنّ اللآلئ تتساقط من شعره مثله مثل الآخرين، وبعدَ كلّ الثّرواتِ التي جَمعناها بفضلِ هؤلاء الأولادِ الأعزّاء لم يبقَ لي ما أتمنّاه سوى أن أكتشف أصلَهم.

قالت قرصانة:

- لِنَترك الأمر لِمشيئةِ السّماء فهي التي أعطتنا إيّاهم، وعندَما يحينُ الوقت ستجعلنا نَعلَم ما خَفِيَ علينا.

كانت نجمة الجمال تُصغي بانتباه كليٍّ إلى ذلك الحوار. وَشعرَت بفرْحَةٍ لا تُوصف لِعلمِها أنّها يمكن أن تأمل أن تكون من أصلٍ نبيل؛ فبالرغم من كلّ الاحترام الذي تكنّه لأبَوَيها، كانت تشعر دوماً بالألم والتّعاسَة لأنّها ابنة أحدَ القراصنة. ولكن ما أشعَرَها بفرْحَةٍ أكبر هوَ احتمال ألاّ يكون عزيز أخاها. كانت تتلهّف شوقاً لِتُحَدّثه عن الموضوعِ وتُخبرهم هو وأخوَيها الآخَرين بهذه القصّة الخارِقة.

صعَدَت على فَرَس أحمر اللون، وكانَ شعرُ عُرْفِه الأسود مزداناً بأبازيمَ من ألماس، لأنّها ما كان عليها إلاّ أن تُسَرّحَ شعرَها مرّة واحِدَة لكي تُزيّنَ بالألماس موكبَ صيدٍ بِكامِله. كان سرجُها المخمليّ الأخضر موشّىً بالألماس ومطرّزاً بالياقوت. اعتلت ظهر الحِصان على وَجهِ السّرعَة، وذهبت إلى الغابة لتبحَثَ عن إخوَتها. أعْلَمَتها ضجّة الأبواقِ والكلاب بمكان وجودِهم فوافَتهم في الحال. لدى رؤيتها، تركَ عزيز أخَوَيهِ وجاءَ لِموافاتِها بأسرَعَ منهما.

هتف بها:

- يا للمفاجأة الجميلة يا نجمة الجمال! وأخيراً جئتِ إلى الصّيدِ أنتِ التي لا نستطيع أن نُلهيَكِ لحظة عن المَسَرّات التي تُمِدّكِ بها الموسيقى والعلوم.

أجابت:

- لديّ أشياء كثيرَة أريد أن أخبِرَكم إيّاها. وأتيت للبحث عنكم لأنّني أريد أن نكون وحْدَنا.

قال وهو يتنَهّد:

- آهٍ يا أختي! ماذا تريدين منّي اليوم؟ منذ زمنٍ بعيدٍ لم تطلُبي شيئاً منّي.

احمَّرَت خجلاً وخفَضت عينيها جالِسَة على حِصانِها حزينةً حالِمَةً دون أن تُجيبَه.

وأخيراً وَصَلَ أخواها. أيقظتها رؤيتها وكأنّها انسلّت من سَباتٍ عَميق فتَرَجّلَت وسارَت في المقدّمَة فلحِقوا بها جميعاً. وعندما أصبَحَت في وسَط مرجَة صغيرَة مظلّلة بالأشجار، قالت لهم:

- لِنجلس هنا وخذوا عِلماً بِما سَمِعتُه للتوّ.

وَرَوَت لهم بكلّ دقّةٍ الحوارَ الذي جَرى بين القرصان وزوجته، والذي كان مفادُه أنّهم لم يكونوا أولادَهم. دُهِشَ الأمراء الثّلاثة كثيراً لِما سَمِعوه وتباحَثوا فيما بينهم عمّا يجدُرُ بهم فعله. أراد الأوّل أن يَرحَلَ سرّاً فيما رفضَ الثّاني فكرة الرّحيل، وأعرب الثّالث عن رغبته في الرّحيل ولكن ليس قبل أن يُبلّغ القرصان وزوجته بذلك. علّل الأوّل السّبب الذي يدعوه للرّحيلِ خفيَةً قائلاً إنّه الوَسيلة الأضمَن لأنّ أبويهما يجنيان مكاسبَ جمّة من الأحجار الكريمة المتساقطة من شعورهم، الأمر الذي قد يدعوهما لاحتجازِهم وإبقائهم في عُهْدَتِهما. وقال الثّاني إنّه إذا توجّبَ الرّحيل عنهما فيجب على الأقلّ معرِفة مَكانٍ مُحَدّدٍ للذهابِ إليه والطبقة التي ينتمونَ إليها. ثمّ إنّ لقبَ المتسَكّعين الشّارِدينَ ليسَ مُسْتَحَبّاً. فيما أضافَ الثّالث أنّ الافتراق عنهما هكذا دون نيلِ رضاهما جحودٌ وإنكارٌ للجميل.

لكنّ البقاءَ معَهما وسطَ الغابة حيث لا يمكنهم أن يَعْلَموا شيئاً عن أصلهم يتّصِفُ في الوقتِ نفسه بِغباءٍ كبيرٍ، وأنّ الموقف الأصَحّ هوَ التحدّث إليهما ونَيلِ الموافقة بالرّحيلِ منهما. فاستحسنوا جميعاً هذا الرَأيَ وفي الحال امتطوا أحصنَتِهم وذهبوا لِلقاءِ القرصانِ وزوجته.

امتلأ قلب عزيز بكلّ السّرورِ الذي يبثّه الرّجاء في قلب عاشِقٍ معَذَّب: جعلَه حبّه يحدس بما سيكون عليه المستقبل: لم يعد يعتبر نفسَه شقيقَ نجمة الجمال. عادَ حبّه الملجوم للانطلاقِ من جديد وصَوّرَ له مباهِجَ كثيرَة سَاحرة. وهكذا ذهب الأولاد لِموافاة القرصان وزوجته بِوجوهٍ يشوبُها السّرور والقلق في آنٍ معاً.

قال لهما منير (وكان النّاطقَ بلسان الأربعة):

- لم نأتِ لِنُنْكِرَ عليكما العاطِفة والامتنانَ والاحترام وكلّ تلك المشاعر التي نَدينُ لكما بها. لقد علمنا أنّكما عثرْتُما علينا في عرضِ البحر وأنّكما لستُما أبَوَينا، ومَعَ ذلك فإنّ إشفاقكما علينا وَتَنجِيَتنا منَ الموت، والتربيَة الرّفيعَة التي مَنحتمونا إيّاها، وكلّ هذه الرّعاية والحَنان اللّذينِ تُحيطاننا بهما، هذا كلّه يجعلنا مرتبطَينِ بكما بوثاقٍ متين لا شيءَ بوسعِهِ فكّه. جئنا إذاً لكي نجَدّد لكما شكرَنا الصّادق والعميق ونتوسّل إليكما أن تخبرانا عن تلك الحادِثة الغريبة وأن تنصَحانا بِما يجب أن نفعلَه لكي نَهتدي وفقَ آرائكما الحَكيمة متجَنّبينَ الأخطاءَ والعواقب.

دُهِشَ القرصان وزوجته من اكتشافِ الأولادِ سرّاً أخفَياه عنهم بِعناية كبيرَة.

قالا:

- اطّلَعتم على الحَقيقة بشكلٍ وافٍ ولم يعد بإمكاننا أن نخفيَ عليكم أنّكم لستم أولادَنا وأنّ القدَرَ وحْدَه هو الذي وضعَكم

بين أيدينا. لا نعرف شيئاً عن مُلابَساتِ ولادَتِكم ولكنّ الأحجارَ الكريمَة التي تزيّن مهدَكم تشير إلى أنّ أهلكم هم إمّا منَ الأشراف أو منَ الأثرِياء. وفي الواقع، ماذا بِمَقدورِنا أن ننصحَكم؟ إذا احْتَكَمتم إلى العاطفة التي نكنّها لكم لَبَقيتم معنا دونَ شكّ وكنتم العَزاءَ لشيخوخَتِنا بِصحبتكم اللّطيفة. وإذا كان القصر الذي بَنَيناه في هذه الأمكنة لا يُعجبكم أو إذا كانت هذه الخلوَة تحزنكم فسنذهب حيثما شئتم شرْطَ أن يكونَ ذلك بعيداً عن أيّ بَلاط، لأنّ تجربة طويلة جعلتنا نأنف أجواءَ القصور، وسيُخامركم بِدَورِكم الشّعورَ نفسُه إذا ما علِمتم بالاضطرابات المستمرّة التي تعمّ الحاشية فيها، والخبث والحسد والنّزاعات والشّرور والزّيف. وسوفَ نقول لكم المَزيدَ عنها، لكنّكم ستَظنّونَ أنّ لِنَصائحِنا غرضاً مُبَيّتاً. وربّما هي لَكذلكَ يا أولادي، فنحن نرغب باستبقائكم في هذه الخلوة الهانئة رغمَ أنّكم أسياد مَصيركم وتستطيعونَ مغادرتها ساعة شئتم. وفكّروا دوماً أنّكم معنا في ميناءِ الأمان، وأنّكم تُبْحِرونَ وسَطَ اليمّ الهائج. نريدكم أن تعلموا أنّ المشقّات تطغى دوماً على المسرّات، وأنّ الحياة قصيرَة وغالباً ما نغادِرها في أوج عَطائنا، وأن كلّ الأشياءَ العظيمَة في هذا العالم مَظاهر برّاقَة مُخادِعَة تُبهرنا بفعلِ قَدَرٍ غريب؛ أمّا الخيرُ الأعظمُ والأكثرُ رسوخاً فهوَ القناعَة والتمتّع بالسّكينة، والتعقّل.

وكان القرصان سيسترسل أكثر في وَعْظِهِ لو لم يقاطعه الأمير.

قال له:

- أبي العزيز، نرغب بشدّة في أن نكتشف شيئاً عن وِلادَتِنا لِذا لا نريد أن ندفنَ أنفسنا في عمقِ هذه الصّحراء. الحكمَة التي تعِظنا بها ممتازَة وأوَدّ لو نكون قادِرين على العمل بموجَبها، ولكنْ ثمّة قدرٌ ما يُناديناً من حيث لا نَدري للرّحيل. اسمَحا لنا بأن نستجيبَ لقَدَرِنا.

سنعودُ لِرؤيتكما وإبلاغِكما بكلّ ما جَرى معنا.

وعندئذٍ أخذ القرصان وزوجته يبكيان فَرَقّ قلب الأمراء لِحالِهما وخصوصاً قلب الأميرة نجمة الجمال التي كانت عَطوفاً بطبيعتها والتي ما كانت لِتترُكَ الصّحراءَ لو كانت واثقَة من أنّ عزيزاً سيظلّ معها.

اتُّخِذَ القَرار بالرّحيلِ ولم يعد أمامهم إلاّ إعداد العدّة للإبحار، لأنّهم كانوا يأمَلونَ بالعثورِ في البحرِ على إلهام ما ينير طريقهم ويُسَهّلِ عليهم ما يريدون معرفته. وأدخلوا في مركبِهم الصّغير حِصاناً لكلّ منهم. وبعدَ أن سرّحوا شعورَهم حتّى كادوا يخدِشون فروة رؤوسهم لكي يتركوا لِوالدَتهم أكبَر قدْرٍ منَ الأحجارِ الكريمة، توسّلوا إليها أن تُعْطِيَهم بالمقابل سلاسلَ الألماس التي كانت في مَهدِهم. فذهبَت لإحضارِها من مَخدَعِها حيث احتفظت بها بعناية وعلّقتها جميعاً إلى ثوبِ نجمة الجمال وقبّلَتها باستمرار مبلّلَةً وجهَها بدموعِها.

لَم يحدث لِفراقٍ أن كانَ بمثلِ ذلك الحزن. أوشكَ القرصان وزوجته أن يقضيا ألماً، وهذا الألم لم يكن نابعاً من منفعَة شخصيّة، لأنّهما جمَعا ثروَة طائلةً ولا يريدانِ أكثر. صعدَ منير وسعيد وعزيز ونجمة الجمال إلى المركب. كان القرصان قد أمَرَ بصُنْعِهِ بشكلٍ متينٍ وجميلٍ: كان الصّاري مصنوعاً من خشبِ الأبنوس والأرز. وكانت الحبالَ منَ الحَرير الأخضرِ الممزوج بالذهب، والأشرعَة منَ القماش الذهبيّ والأخضر، وطلاءُ المركبِ بديعاً. بدأ المركب بالإبحار، ولو رآه أنطونيوس وكليوباترا[1]، لا بل لو رآه مرافقو فينوس[2] جميعاً،

(1) إشارة إلى وصول القائد السّياسيّ الرّومانيّ أنطونيوس إلى مصر على رأس أسطول حربيّ، وإلى غراميّاته مع ملكة مصر القديمة كليوباترا.

(2) لم يكن لفينوس مرافقون مخصوصون، لكن قد تقصد الكاتبة عموم الكائنات البحريّة، بما أنّ فينوس ولدت بحسب الميثولوجيا الإغريقيّة من زبَد البحر.

لخفَضوا رايتهم احتراماً له. كانت الأميرة جالسَة في ديوان نفيس في مؤخّرَة السّفينة وكان أخواها وابن خالتها جالِسينَ قربَها أكثرَ سطوعاً من الكواكب، وكانت النّجوم التي تُزيّن جباههم تُرسِلُ أشعّة مبهِرَة. قرّروا الذّهابَ إلى المكان نفسه حيث عثر القرصان عليهم، إلى أن بَلَغوه فعلاً. وتحضّروا في ذلك المَكان لِيُقَدّموا تضحِيَة كبيرَة للسّماء والجنيّات لكي يَفوزوا بالحِماية وليُرْشَدُوا إلى مَكانِ ولادَتهم.

أمسَكوا بيَمامَة لِذَبْحِها ولكنّ الأميرة أشفقت عليها ووجدَتها جميلة جدّاً فأرادَت إنقاذ حَياتِها. ولكي تَقِيَها شرورَ حادِثٍ مماثِلٍ، أطلَقتْ سَراحَها.

قالت لها:

- طيري يا عصفورَة فينوس الجميلة. وإذا احتجتُ إليكِ يوماً ما فلا تنسَي العملَ الخيّرَ الذي صنَعته لكِ.

وَطارَت اليمامة. بعدَ أن انتهَت التّقدمة شَرَعوا في الغناءِ بشكلٍ ساحرٍ وبَدَا وكأنّ الطّبيعَة بأكْمَلِها آثَرَت الصّمتَ العميقَ لِتَسْمَعَهم: لم تكنْ أمواجُ البحر ترتفع إطلاقاً. ولم تكن الرّيح تهبّ. وحدَه النّسيم العليل كان يُطَيّر شعرَ الأميرة ويُشَعّث وشاحَها قليلاً. وعلى الفور، خرجت منَ الماء حوريّة تغنّي بشكلٍ بديع حتّى أنّ الأميرة وأخوَيها أعجبوا بها. وبعدَ أن أنشدَت بعض الأغانيّ، التفتت نَحْوَهم وهتفت بهم:

- لا تقلقوا بعدَ الآن. دَعوا مَرْكَبَكم يأخُذكم حيثما شاءَ وترَجّلوا منه حيثما توقّف، وليستمرّ كلّ المتَحابّينَ في حبّهم.

شعرَ عزيز ونجمَة الجمال بفرَحٍ خارقٍ لِما قالته الحوريّة للتوّ. لم يشكّا لحظةً واحِدة في أنّ الكلامَ يخصّهما، وبنظرَةٍ واحدَةٍ تفاهَمَ قلباهما دون أن يلحَظ منير وسنعيد شيئاً. كان المركب يُبحِر على هوى

الرّياحِ والأمواج. وكان إبحارهم دونَ مشقّة، الطّقس جميل والبحر هادئ دوماً. وظلّوا في البحرِ ثلاثة أشهر كامِلة تحدّثَ خِلالَها الأمير العاشق عزيز معَ الأميرة غالباً.

قال لها ذاتَ يوم:

- أيّتها النجمة السّاحرَة! قلبي مفعَم بالآمال! لستُ أخاكِ. هذا القلب الذي يعترِف بِسَطْوَتِكِ عليه والذي لن يعترِف بسَطوَةٍ أخرى أبداً، لم يولَد لِيَرتكِبَ الآثام، وإنّه لَذنْبٌ عظيم أن أحِبّكِ كما أفعل لو كنتِ أختي حقّاً. لكنّ الحوريّة المُحْسِنَة التي جاءت لِتُقَدّمَ لنا النّصْحَ أكّدَت لي صوابَ ما كنت أشعرُ به في خلْدي.

أجابته:

- آه يا أخي لا تثق كثيراً بشيءٍ لا يزال غامِضاً جدّاً ولا نستطيع إدراكَ كنهِه! ماذا سيَصير بِحالِنا إذا أثَرْنا غضبَ السّماء بمشاعر قد لا تروق لها؟ كانت كلمات الحوريّة غامِضة ومَنحناها نحنُ المعنى الذي يَروق لنا لِرَغبتِنا الشّديدة في ذلك.

قال الأمير مكتئباً:

- تمتنِعينَ عن تصديقِها ليسَ احتراماً للسّماء بِقدرِ ما هوَ نفور منّي!

لم تُجبْه نجمة الجمال بشيءٍ بَل رفعَت عينيها نحوَ السّماء ثمّ أطلقت تنهيدَة عميقة لم يستطع أن يفسّرَ سببها إلاّ لِصالحه.

كانوا في الفصل حيث النّهارات طويلة حارِقة. نحو المساء، صعَدَت الأميرة وإخوتها إلى سطح السفينة لِيَرَوا غروبَ الشمس في حضنِ الأمواج. جلست وقربَها جلسَ الأمراء ثمّ أخذوا آلاتهم الموسيقيّة وشرَعوا في غنائهم الجميل. وفي تلك الأثناء دفعَت المركبَ ريحٌ منعِشَة وبَدا وكأنّه يُبحر بخفّة أكبر وسارَعَ للانعطاف حول

رغْنٍ منَ البرّ داخل في البحر ويخفي جزءاً من أجملِ مدينة في العالم. ولكنّ المدينة بانَت فجأةً وأدهَشَ منظرُها شبّاننا اللّطفاء. كانت جميع القصورِ من رُخام، وسطوحها من ذهبٍ وجدرانها من الخزفِ النّفيس. وكان بَريق أوراق الأشجار الخضراء يمتزِج بمختلف ألوان الرّخام والذّهب والخزف. تمنّى الأمراء أن يدخلَ مركَبهم في المرفأ لكنّهم استبعدوا أن يجدوا مكاناً لهم لأنّه كان مزدحماً بمراكبَ أخرى كثيرَة راسية فيه وبانَت صواريها وكأنّها غابة عائمَة.

تحقّقت رغباتهم، اقترَبوا منَ الضفّة، وبلحْظَة واحِدَة امتلأ الشّاطئ بالنّاس الذين لَمحوا السّفينَة البديعَة: ذلكَ أنّ السّفينة التي بَناها ملاّحو الآرغوس[1] لاستعادَة الجزّة الذّهبية لم تكن على ذلك البهاء. كانت النّجوم اللاّمعة على جباه الأولاد الرّائعي الجمال تَسْحَر الأنظار كلّها. وهُرِعَ النّاس يزفّونَ هذا الخبرَ للملك. كانت شرفة القصرِ الكبيرَة تطلّ على البحرِ؛ لم يَستَطع الملك تصديق الخبر فذهبَ إلى المرفأ مُسرِعاً. رأى الأميرَينِ منير وعزيز يحمِلانِ الأميرة بين أذْرُعِهم ويضعونَها أرضاً ومن ثمّ أُخْرِجَت أحصِنتهم وكانت أسْرِجَتها الفاخِرَة تتماشى معَ كلّ الأبّهة التي تُحيط بذلك الموكب. وصَعدَ منير على حصانٍ أدهمَ أشدّ سواداً منَ السّبَج، فيما كانَ حصان سعيد رمادِيّاً وحصان عزيز أبيض كالثّلج وحصان الأميرة أغبَسَ اللّون. أعْجبَ الملك بهم أربعتهم على أحصنتهم التي سارَت بِفخرٍ مبْعِدَةً كلّ مَن كانوا يُحاوِلونَ الاقتراب.

سمِعَ الأمراء النّاس من حولِهم يقولون: «هوَذا الملك!» فرَفَعوا

---

(1) إشارَة إلى الأسطورَة الإغريقيّة التي تصف كيف أبْحَرَ جايسون مع مجموعة منَ الأبطال لإحضارِ الجزّة الذّهبيّة. وقد صاروا يُدْعَونَ الأرغونويتيّين، نسبة إلى السّفينة التي حملتهم وكان اسمها آتياً من اسم بانيها: آرغوس.

أبْصارَهم نحوه ووجدوه مليئاً بالجلالِ والهيبَة فانحَنَوا له باحترام كبير ومَرّوا بهدوءٍ وهم يرنون إليه. أمّا الملك فانذهل بجمالِ الأميرةِ الذي لا يُضاهى وبِبشَرة الأمراء الشبّان الممتلئة صحّة. وأمَرَ قائدَ الحَرَس بأن يذهَبَ ويُقَدّمَ لهم الحِماية اللاّزمة وجميعَ الأشياءِ التي يحتاجونَ إليها في بِلادٍ غريبةٍ عنهم على ما يبدو. تَلَقّوا الشَّرَف الذي أولاهُم إيّاه الملك بكثيرٍ منَ الاحترام والامتنان وقالوا له إنّهم لا يحتاجونَ إلاّ إلى منزِلٍ بعيدٍ عن أعيُنِ المتَطَفّلينَ، ومن الأفضل أن يكون على بعدِ فرسَخٍ أو فرسَخينِ منَ المَدينة لأنّهم يهوون التنزّه كثيراً. وفي الحال، قدّمَ لهم قائد الحَرَس بيتاً جميلاً تتوفّر فيه وسائل الرّاحة لهم ولأفراد موكبهم.

تأثّر الملك برؤيَةِ الأولادِ الأربعة الذين رآهم لتَوّه، وفي الحالِ ذهبَ إلى غرفة الملكة والدته لِيُخبِرَها عن الآية المتَمَثّلةِ في النجوم التي تلمَع على جباههم وكلّ ما أعجبَه في مَرآهم. ذُهِلَت الملكة الأمّ وسألته دونَ تصنّع عن أعمارهم فأجابها أنّ أعمارَهم تتراوَح بينَ الخامسة عشرة أو السّادسَة عشرة. لم تُظهر قلقاً لكنّها خافت خوفاً مُريعاً أن تكونَ وَصيفتها بهتان قد خانَتها. في تلك الأثناء كان الملك يجول الغرفة بخطى كبيرة ويقول:

- ما أسعَدَ الأب الذي لَدَيه أبناءٌ بهذا الكَمالِ وبنتٌ بهذا الجمال! أمّا أنا الملك العَديم الحظّ فأنا أبٌ لِثلاثة كِلاب. ها هم ورثة عرشٍ جَديرونَ بالمُلك حَقّاً!

كانت الملكة الأمّ تستمع إلى هذه الكلمات والقلق يعتصرها. فالنجوم اللاّمِعَة لأولئك الغرباء وأعمارهم، كلّ ذلكَ على صلَةٍ كبيرَة بأحفادها الأربعة الذين سعت إلى التخلّص منهم. وسرعان ما تبادر إليها الشكّ بِوَصيفَتِها بهتان. فلربّما خدعَتها وأنقذت أولئك

الأولادَ بَدَل أن تقتلَهم. لكنّ الملكة الأمّ كانت تملِكُ دوماً القدرَة على ضبط نفسِها، لذا لم تُظهر شيئاً ممّا يجول في ذهنِها، ولم تشأ حتّى أن تُرسِلَ في ذلكَ النّهارِ أحَداً لِيَسْتَعلِمَ لها عن أشياءَ كثيرَة كانت راغبة في معرفَتِها. ولكن في اليوم التّالي طلبت من أمينِ سرِّها الذّهابَ إلى هناك بحُجّة إعطاءِ الأوامرَ لتأمينِ الرّاحَة لهم في المنزل الذي أقاموا فيه، وأن يتحقّق لها من كلّ شيء وخصوصاً من وجود نجوم على جباههم.

وانطلَق أمين السرّ في الصّباح الباكر. ووَصَل إلى المنزل فيما كانت الأميرة تُسرّحُ شعرَها وتسوّي زينتها. في ذلكَ الزّمان، لم يكن هناكَ لدى العَطّارين مسحوق لتبديلِ لونِ البشرة. مَن هيَ بيضاء كانت تبقى بيضاء، ومَن هي سوداء تبقى سوداء. رآهم يُسَرّحونَ لها شعرَها الأشقرَ الأرَقّ من خيوطِ الذّهب والمنسَدِل خصلاتٍ حتّى يُلامِسَ الأرض. كان هنالِكَ سِلالٌ عَديدة من حَولِها لكي لا يَضيعَ أيٌّ منَ الأحجارِ الكريمة المتساقِطَة منه. كانت النّجمَة على جبينها ترسل أشعّة تبهِر العيون، وضاهت السّلسلة المطوّقة عنقها روعَة الألماساتِ النفيسَة المتدحرِجَة من أعلى شعرِها. شقّ على أمين السرّ أن يُصدّق كلّ ما تراه عيناه. ولكنّ الأميرة اختارَت أكبرَ لؤلؤة له متوسّلَة إليه أن يحتفظَ بها كَذِكرى منها. إنّها اللؤلؤة نفسها التي كان ملوك إسبانيا يُقَدّرونَها كثيراً وَيُسَمّونها «بيريغرينا»، أي رحّالَة، لأنّ مالِكَتَها كانت كذلك.

دُهش أمين السرّ من سخاء الأميرة وشعر بالارتَبَاكَ لدى تلقّيه تلك الهديّة الثّمينَة فاستأذنها بالانصراف مُلْقِياً التحيّة على الأمراء الثّلاثة الذين مَكث معهم وقتاً طويلاً لِيَسْتَعلِمَ عن جزءٍ ممّا كان يُريدُ معرِفته. وَعادَ ليُخبِرَ الملكة الأمّ بِما عَلِمَه، فتيقّنَتْ من صحّةِ الشّكوكِ

التي راوَدَتها سابِقاً. قالَ لها إنّ عزيزاً، وهو الأجمل، لم يكن لَدَيهِ نجمَة ولكنّ الأحجار الكريمَة تتساقَط من شعرهِ كما من شعر إخوَته؛ وإنّهم آتونَ من مكانٍ بعيدٍ جدّاً، وإنّ والديهم لم يَمْنحاهم إلاّ مهلة قصيرة لِرؤيَةِ البلدانِ الأخرى. أثارَ هذا القِسْم من الحديث حيرَة الملكة الأمّ قليلاً وخالت لِبَعضِ الوقتِ أنّهم ليسوا أولادَ الملك.

تردّدت بينَ الخوفِ والرّجاء. وفي تلك الأثناء كان الملك الذي يهوى الصّيدَ يمرّ بالقربِ من منزلهم فقال له قائد الحرس الذي كان يرافقه إنّه أسْكَن نجمَة الجمال وإخوتَها في ذلك المنزل بأمْرٍ منه.

أجاب الملك:

- نصحتني الملكة والدتي بألاّ أراهم. تخشى أن يكونوا آتينَ من بلَدٍ تفَشّى فيهِ وَباءُ الطّاعون وأن ينقلوا العَدوى معهم.

أجابَ القائد:

- تلكَ الشابّة الغريبة خطيرَة جدّاً في الواقع، لكنّي يا مولاي أخشى عينيها أكثرَ منَ الوباءِ الذي يمكن أن تنقله.

قال الملك:

- إذا أردتَ الصّدقَ، فأنا أوافِقكَ الرأي.

وإذ دَفَعَ بِحصانِهِ إلى الأمام، سمعَ أصواتَ آلاتٍ موسيقيّةٍ وغناء. فتوقّف قريباً من قاعة استقبالٍ فسيحة كانت نوافِذها مفتوحَة. أعْجبَ بِعُذوبَة تلك السّمفونيّة فاقترب.

أرغمَت جلبَة الأحِصنَة الأمراءَ على النّظر. ما إن رأوا الملك حتّى حيّوه باحترام وسارَعوا للخروج واقتربوا منه بوجوهٍ ملؤها البشاشَة مُظْهِرينَ له علاماتِ خضوع كثيرَة حتّى إنّهم قبّلوا ركبَتَيه. وقبّلَت الأميرة يدَيه. تصرّفوا معه وكأنّهم يعترِفونَ به أباً لهم. داعَبهم بِحَنانٍ وأحسّ بقلبِه منفعِلاً دون أن يعرِف السّبب. قال لهم أن يأتوا إلى

قصرِهِ لأنّه يريد التحدّث إليهم وتعْريفَهم إلى والِدَته. شكروه على كلّ التّكريم الذي أبْداه لهم وقالوا له إنّهم لن يتوانوا عن الذّهابِ إلى القصر فورَ الانتهاء من تهيئة ملابِسهم وموكبهم.

تركَهم الملك لِيُكمِلَ رحلَةَ الصّيد التي كان قد بدأها. وأرسَلَ لهم بِلطْفٍ نصفَ الطّرائدِ التي استطاعَ اصطيادَها وحَمَلَ النّصفَ الآخر إلى والِدَتِه الملكة.

قالت له:

- ماذا! أيُعْقَل أن تكونَ فُزْتَ فقط بهذه الطّرائد القليلة؟ تصطادُ عادَةً أكثر بثلاث مرّات ممّا فعلت هذه المرّة.

أجابَ الملك:

- صحيح، لكنّي قدّمت بعضاً منَ الطّرائدِ لهؤلاء الغرباءِ الجميلين. أشعر نحوَهم بانعطافٍ شديدٍ يُفاجِئني أنا نفسي. وإذا كنتِ أقلعتِ عن خوفِكِ منَ العَدوى فسآتي بهم لأُسْكِنَهم في القصر.

غضِبَت الملكة الأمّ كثيراً واتّهَمته بأنّه لا يُراعي مشاعِرَها ولامَتْهُ على تعريضِ نفسهِ لِلخطرِ بهذه الخفّة.

ما إن تَرَكَها حتّى أرسَلَت في طلبِ الوصيفة بهتان. اختلَتْ بها في مَخدَعِها وأمسكتها بيَدٍ من شعرِها وباليدِ الأخرى وجّهَت خنجَراً إلى عنقها وقالت لها:

- أيّتها البائسَة، لا أعرف أيّة بقيّة من طيبَة تَمْنَعُني من قتلك: لقد خنْتِني! لم تقتلي الأطفال الأربعة الذين عَهدتُ بهم لكِ لكي تتخلّصي منهم! اعترِفي على الأقلّ بجريمَتكِ ورُبّما سوفَ أسامِحك.

ارتَعَدَت بهتان وشلّها الخوف فارتَمَت عندَ قدَمَيها ورَوَت لها كيف سارَت الأمور. قالت لها إنّها تعتقد أنّه منَ المُستحيل أنْ يكون الأطفال على قيدِ الحَياة لأنّ عاصفة رهيبَة كانت قد هبّت، وكادَ البَرَد

يَسْحَقها. وفي النّهايَة طلبَت منها أن تُمْهِلَها بعض الوقت، وعندئذٍ سَتَجِد الوَسيلة للتّخلّص منهم الواحد تلو الآخر دونَ أن يَرتابَ أحدٌ بالأمر.

لم تكن الملكة الأمّ راغبة إلاّ في القضاءِ عليهم. هدأ روْعُها قليلاً وقالت لها ألاّ تضيّع لحظَة واحدَة. وبالفعل، وإذ رأت بهتان العجوزَ نفسَها في مأزِقٍ خطير، لم تهمل شيئاً ممّا يتعلّق بخطّتها. تَحَيّنَت الوقت الذي ذهبَ فيه الأمراء الثلاثة إلى الصّيدِ ثمّ حملت تحت ذراعِها غيتاراً وجلست قبالة نوافذ الأميرة وراحَت تغنّي هذه الكلمات تردّدها وتُنَوّع عليها:

أيّتها القلوب الفتيّة، استجيبي لِسِحرِ الحبّ
وأنتِ في عمر الرّبيع
لأنّ الجمالَ يُمْحى
وشتاءُ العمر
يأتي ليُذبلَ زهورَ الصّبا
يَمُضّنا الألم
حين نسترجِع ذكرى
المفاتنِ التي فقدْناها!
يتولاّنَا اليأس
ونبذلُ لكي نثيرَ الإعجاب
جهوداً بِلا طائل.

أيّتها القلوب الفَتِيّة، استسلِمي للسّحر
فالحبّ واجبٌ في ربيع العمر

الجمال عابر
والشّيخوخة، زمَن الصّقيع،
تأتي لِتُذبلَ كلّ الأزهار.
ما أشدَ آلامنا
عندَما نسترجعُ ذكرى
مفاتنَ فقدناها
وَما أشدّ يأسنا!
عبثاً نُحاوِل أن نُثيرَ الإعجاب
بجهودٍ لا طائلَ منها.

وَجَدَت نجمة الجمال هذه الكلمات طريفة جدّاً. اقترَبت من حافّةِ الشّرفَة لِتَرى مَن تلكَ التي كانت تُغنّيها. ما إن ظهَرَت الأميرَة حتّى انْحَنَت بهتان أمامها، وكانت متأنّفَة للغاية، بإجلالٍ كبير. حيّتها الأميرة. وَبِما أنّها كانت مبْتَهجَةَ المِزاج، سألتها ما إذا كانت الكلمات التي سمِعَتها للتوّ كُتِبَت لأجلِها.

أجابت بهتان:

- نعم أيّتها الفتاة الفاتِنَة، إنّها لأجلك، ولكن، حتّى لا تكونَ من أجلك، جئت أقولُ لكَ رأياً عليكِ ألاّ تتوانَي عن الاستفادَة منه.

- وَما هوَ هذا الرأي؟ سألتها نجمة الجمال.

فأضافَت:

- ما إن تَسْمَحي لي بالصّعود إلى غرفتك فسوفَ تعرفينه.

أجابتها الأميرة:

- تستطيعين المجيء.

وللحال عرّفَت العجوز بنفسِها بشيء من مَهابَة ساكني القصور

التي لا نَفْقِدُها ما إن نُعايِشُها مرّة واحِدَة.

قالت بهتان من دونِ أن تضيّعَ دقيقة واحِدَة خوفاً من أن يُقاطِعَها أحد:

- يا فتاتي الحلوَة، لقد جعلتكِ السّماء في غاية اللّطفِ والجمال. منحتْكِ نَجمَةً لامِعَةً على جبينك، ومواهبَ أخرى يتحدّث عنها الجميع، ولكن لا يَزالُ ينقُصُكِ شيءٌ ضروريّ بِشَكلٍ أساسيّ. عليك أن تسارعي لامتلاكه وإلاّ فإنّي أرثي لِحالك.

أجابت:

- وَماذا ينْقُصُني؟

أجابت العجوز المُحتالة:

- الماء الذي يرقص. لو استطعتُ الحصولَ عليه لَما رأيتِ شعرَة واحِدَة بيضاءَ على رأسي ولا تجعيدَة على جبيني ولَكان لدَيّ أجمل أسنانٍ في العالم ومَلامح طفوليّة ساحِرَة. وا أسفاه! لم أعرف هذا السرّ إلاّ بعدَ فواتِ الأوان بعدَ زوالِ مفاتِني. خذي بنصيحتي يا طفلتي العزيزة فتِلكَ ستكونُ تعزِيَةَ لي لأنّني أشعر نحْوَكِ بِحنانٍ غريب.

سألتها نجمة الجمال:

- ولكن من أينَ أحصلُ على هذا الماء الذي يرقص؟

أجابَت مرائية:

- إنّها في الغابة السّاطعَة. لدَيكِ ثلاثة إخوَة: ألا يُحِبّكِ أحدُهم ما يكفي لِيَذهَبَ ويَجلُبَها لكِ؟ وإلاّ فَلن يكونوا إخوَة جديرينَ بِهذا الاسم.

قالت الأميرة:

- إخوَتي يُحِبّونني كثيراً. وهناكَ واحِدٌ فيهم لا يرفُضُ لي طلباً. وبالطّبع، إذا كان هذا الماء يملِكُ المفعول الذي تقولينَه فسَوفَ

أعْطيكِ مكافأةً متناسبة مع قيمَتِه.

انصرَفَت العجوز الخبيثة على وجهِ السّرعة مسْرورَةً لنجاحها في إقناع الصّبيّة. قالت لِنَجمَة الجمال إنّها ستأتي لِزِيارَتِها مِراراً.

عادَ الأمراء منَ الصّيدِ. كان الأوّل يُحْضِرُ ظبْياً والثّاني أرنباً بريّاً والثّالث إيَّلاً. وضعوا كلّ الطرائد أمام قَدَمَي أختِهم. نظَرَت إلى ذلك التّكريم بلا مبالاة. كانت منشغلة بِما حَدّثَتها عنه الوصيفة بهتان. لا بَل بَدَت قلقة البال. وَعَزيز الذي كانَ هَمّهُ الوحيد مراقبتها لاحَظَ انشغالَها ما إن اختَلى بها لِمُدّةِ ربعِ ساعَة.

قال لها:

– ما بكِ يا عَزيزتي نجمة الجمال؟ ألا يُعجِبكِ البلد الذي نحنُ فيه؟ إذا كان لا يتلاءم وذوْقَكِ فلْنَرحَل عنه الآن. أم تُراكِ تَجِدينَ أنّ تجهيزاتنا ليسَت كبيرة بما يكفي أم أنّ أثاثنا ليسَ جَميلاً، ولا الطّعام لَذيذاً كما تشتهين. تكلّمي، من فضلك، فأنا رهن إشارتك وكلّ شيء سيكون كما تتمنّين.

أجابت:

– الثّقة التي أوْلَيتَني إيّاها لأقولَ لكَ ما يجري في خُلدي تُلْزِمُني بأن أقول لكَ إنّني لن أقدِرَ على العَيشِ إذا لم أحْصل على الماء الرّاقِص. إنّه في الغابة السّاطِعَة. لن أخشى شيئاً معَه ولن آبَه لوطأة السّنين.

فعقّب عزيز:

– لا تكتئبي أبداً يا نجمَتي اللّطيفة. سأرحَل وسأجلِب لكِ منها أو سَتَعْلَمين بِموتي أنّ منَ المُستحيلِ الحصول عليها.

قالت له:

– لا، أفضّلُ التخلي عن كلّ محاسنِ الجَمال، أفضّل أن أكونَ مُريعَة المنظر على أن أخاطِرَ بِحياتك الغالِيَة لدَيّ أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

أسْتَحْلِفُكَ بِعَدَمِ التّفكيرِ بالماء الذي يرقص. وإذا كنت أملك قدْرَة عليكَ فأنا أمْنَعكَ منَ الذّهابِ لإحضاره.

تظاهَرَ الأمير بإطاعَتِها ولكن ما إن رآها منشغلة حتّى صَعَدَ على حِصانِه الأبيض الذي لم يكن يسير إلاّ قَمْصاً[1]. أخذَ مالاً وثياباً فاخِرَة. أمّا الألماسُ فلَم يكن بِحاجَة إليه لأنّ شعرَه كانَ يُزَوّده به بما يكفي وإذا أعْمَلَ المشطَ ثلاث مرّات تساقط الألماس من شعره ما يكفي أحياناً لجني ثروة طائلة. وبالفعل كان العدَد في كلّ مرّة مختلفاً لأنّ وفْرَة تَساقط الجواهرِ مرْتبطَة بِحالِ الأميرِ النّفسيّة والصحيّة. لم يصطحب معه أحَداً لِيَكونَ أكثر حريّة، وحتّى لا يضطرّ للتّراجع أمام تحذيراتِ خادم مفرط الحرْص ومتخوّف في حالِ بَدَتِ المغامرَة خطِرَة وتستوجبُ المجازَفَة.

وعندَما حانَ وقت العَشاء ولم ترَ الأميرة لأخيها عزيز أثراً، تولاّها القلق، ولم تستطع لا الشّربَ ولا الأكلَ بل أصْدَرَت أوامِرَها بالمضيّ للبحثِ عنه في كلّ مَكان. لم يكن الأميرانِ يعرِفانِ شيئاً عن الماء الرّاقِص؛ قالا لها إنّه لا لزوم لقلقها: ليس في إمكانه الابتعادَ كثيراً؛ لا بُدّ أنّه توقّفَ في الغابة واستغرق طوعاً في أحلام لا تنتهي. فهَدَأ روْعُها قليلاً حتّى منتصَفِ اللّيل. وعِندَئذٍ عيلَ صبرُها واعترفت لأخَوَيها وهيَ تبكي بأنّها كانت السّبَبَ في ابتِعادِ عزيز عندما عبّرَت له عن لهفتِها الشّديدة في الحصولِ على الماء الرّاقص الموجود في الغابة السّاطِعَة؛ لا بدّ أنّه ذهب للبحث عنه. لّما سَمِعا ما قالَته، صمّما على إرسالِ فرقة للبَحثِ عنه، وكلّفَتْ هي الرّجالَ بأن يقولوا لهُ إنّها تستحْلفه أن يعود.

إلاّ أنّ الوَصيفَة الشريرَة بهتان كانت متَحَرّقة جدّاً لِمَعرفةِ ما

---

(1) قمْصاً: قَمَصَ الفرس: رَفعَ قائِمَتيهِ الأمامِيّيْنِ معتَمِداً على قائمَتيهِ الخلْفِيّين.

ستؤول إليه النَصيحَة التي أسدتها إلى الأميرة. عندَما عَلِمَت أنّ عزيزاً كانَ انطلق للبحث عن الماء الرّاقص شَعَرَت بِفرَحٍ كبير، وأيْقَنَت أنّه سبق بمسافات كثيرة أولئك الذينَ لحِقوا به، ولَم تستبعد أن يَحصلَ له مكروه. هُرِعَت إلى القصرِ معلّلةً النفسَ بذلك الأمل، وأخبَرَت الملكة الأمّ بما جرى.

قالت لها:

- لا شكّ يا سيّدَتي أنّهم الأمراء الثّلاثة وشقيقتهم: لديهم نجوم على جِباههم وسَلاسل ذهبيّة حولَ أعناقهم، وشعورهم ذات جمالٍ فتّان ويتساقط منها في كلّ حينٍ أحجارٌ كريمَة. كما رأيت الأميرَة متزيّنة بالجواهر التي كنتُ قد وضعتُها في مَهدِها مع أنّها لا تُساوي تلك المتساقطة من شعرِها بحَيث بتّ متَيَقّنة من أنّهم عادوا بالرّغمِ من كلّ المَحاذيرِ التي حسِبتُ أنّني اتّخذتُها لأحول دون عودتهم. ولكن يا سيّدَتي سأخلّصُكِ منهم. وَبما أنّها الوسيلة الوحيدَة التي تَبقّت لي لكي أصَحّحَ خطئي، أتوسّل إليكِ فقط أن تمنَحيني وقتاً. ها إنّ أحَدَ الأمراء انطَلَق للبَحث عن الماء الرّاقِص، وسوفَ يقضي نَحْبَه ولا شكّ في هذه المغامَرَة. وهكذا أُعِدّ لهم خططاً عَديدة لإهلاكِهم.

قالت الملكة الأمّ:

- سوفَ نَرى ما إذا كانَ النّجاحُ سيُكَلّل مساعِيَكِ ولكن فَكّري أنّ هذا وحده يمكنه أن ينَجّيَكِ من سيف غضبي القاطع.

انصرَفت بهتان مذعورة أكثرَ من أيّ وقتٍ مَضى وأعملتْ من جديدٍ تفكيرَها عَساها تجِدُ كلّ ما يُمكنه أن يتسَبّبَ في إهلاكِهم.

كانت الخطّة التي وضعتها لإهلاكِ الأمير عزيز مُحْكَمَة تماماً لأنّ الماء الرّاقِص لا يُغترَف بِسهولَة. والمَصائبُ التي نَزَلت بأولئك الذين ذهبوا للبحثِ عنه ملأت أصداؤها الدّنيا، ولم يستطع أحدٌ أن يعرِف

الطريق المؤدّيَة إليه. كان حِصانه الأبيض يسيرُ بِسرعَةٍ مذهِلة وَكانَ يَهمزه دوماً لأنّه يريد العودَة بسرعَة إلى الأميرة نجمَة الجمال ويقدّمَ لها ما وعَدَت نفسَها به من رحلَتِهِ وإدخالِ السّرورِ إلى قلبها. وهكذا سار ثماني ليالٍ متتابِعَة دونَ أن يرتاحَ إلاّ في الغاباتِ تحتَ أوّل شجرة يُصادِفها ولم يكن يقتات إلاّ الثّمارَ التي يجِدُها في طريقه، وكان على مضضٍ يترك لِحِصانِهِ الوقتَ لِيَرعى العشبَ. وأخيراً في نهاية المَطاف، وَجَدَ نفسَه في بلادٍ هواؤها حارق، وَهذا الأمر آلمه بشدّة ليسَ لأنّ الشمسَ أكثر توهّجاً فحسب بل لأنّه لم يكن يعرف ما هوَ مَرَدّ ذلك؛ وعندَئذٍ لَمَحَ ناراً عند قمّة الجبل: كانت تتصاعد من الغابة السّاطعة، حيث تشتعِل جميع الأشجارِ دونَ أن تفنى مُرسِلة لَهَباً إلى أماكنَ بعيدة جدّاً، فكان الرّيف من حولِها قاحِلاً مقفراً. ثمّ سَمِعَ في تلكَ الغابة حَفيفَ الأفاعي وزئيرَ الأسود، ما أدْهَشَ الأميرَ كثيراً لأنّه بَدا له أنّ أيّ حيوانٍ لا يستطيعُ العيش في ذلك المصْهر عدا السَّمَنْدَل[1].

بعدَ أن رأى ذلك المنظرِ المُريع نَزلَ عن صهوَةِ حِصانه مفكّراً بِما يتوَجّب عليه فعْله وقال لِنفسِهِ أكثر من مَرّة إنّه هالك لا مَحالة. وعندما اقترَبَ من تلك النّارِ الكبيرَة، كادَ يموتُ عَطَشاً. وجَدَ نبعاً يتَدَفّق منَ الجبَلِ ويجري في بِركَةٍ كبيرَةٍ منَ الرّخام. ترجّل أرضاً واقترَبَ منه وانحَنى لكي يغرفَ الماء في إناءٍ صغيرٍ منَ الذّهب كانَ قد جَلَبَه لكي يضعَ فيهِ الماءَ الذي تَنشُدُه الأميرة. وعندَئذٍ أبصَرَ يَمامَة تكاد تغرَق في ذلك النبع. كانت ريشاتها مبَلّلة كلّها وتتخبّط للخروج من هناك، لكنّ قِواها أُنْهِكَت فغرقت في عمقِ البركة. أشفق عزيز عليها وأنقذَّها رَافِعَاً إيّاها من قائِمَتيها. كانت قد عَبّت الكثيرَ منَ الماء فانتفخت به. ثمّ دفّأها وجفّفَ جَناحَيها بِمنديلٍ ناعم. أنْجدَها

---

(1) «السّمَندَل» سبق التّعريف به؛ دويبة يفرز جِلدها مادّة سائلة تطفئ النّار.

بِكلّ تَفانٍ، ولم يمرّ وقت قصير حتّى عادت اليمامَة مبتهجَة بعدما هدّها الإحباط.

قالت له بِصوتٍ عَذب رقيق:

- يا سيّد عزيز، لِمَ لاّ تتكرّم وتساعد حيواناً أكثر امتناناً منّي؟ ليست هذه المرّة الأوَلى التي تنجدنِي فيها عائلتكَ، فضلكم سابق علَيّ، وكم سأكون مسرورة إن استَطَعْتُ أن أردّ لك الجميل! لا تَظنّني غافِلة عن الهَدَفِ الذي تنشده من رحلتك. لا بدّ أنّك تتميّز بشجاعة كبيرة لتجرؤ على القيام بهذه الرّحلة فأنت لا تعرف عدد الذين هلكوا فيها. الماء الرّاقص هو ثامِن عجائبِ الدّنيا للنّساء، فهو يزيد الجمال ويُجدّد الشّبابَ ويجلب الثروة. ولكن إذا لم أرْشِدْكَ إليه فلن تستطيع بلوغ منبعه لأنّه ينبجس حارّاً من وسطِ الغابة ليتَدَفّق في الهاوِيَة: والطّريق تعترضها الأغصان المشتَعِلة المتساقطة من الأشجار، ولا أرى وَسيلة أخرى للذّهابِ إليه إلاّ تحتَ الأرض. استرحْ إذاً هنا خليّ البال وسَأرى ما يُمْكِنني فعله.

وفي الحال ارتفعَت اليمامَة في الهواء ذهاباً وإياباً ثمّ انخفَضَت لتطيرَ من جَديد مِراراً وتكراراً إلى أن مالَ النّهار وعندَئذٍ قالت للأمير إنّ كلّ شيءٍ باتَ جاهِزاً. أمسكَ اليمامة المُسْعِفَة وقبّلَها وَداعَبها وشكَرَها ثمّ تَبِعَها على حِصانِهِ الأبيض الجميل. ما كادَ يسيرُ مائة خطوَة حتّى رأى صَفّين طويلَينِ منَ الثّعالِب والغرائر والخِلْدان والحَلازين والنّمل وجميع أنواع الحيواناتِ التي تَختبئُ تحتَ الأرض. وَكانَ هناكَ الكثيرُ منها ولَم يَفهَم ما هيَ القدرَة التي جعلتها تجتمع على هذا النّحو.

قالت اليمامة:

- اجْتَمَعَت بِأمْري، لِذا ترىٰ هنا هذا القومَ الصّغير الذي هُرِعَ من

دياميس الأرض لمساعدتك. سيكونُ مَدْعاةَ سرورٍ لي أن تشكرَهم.

حَيّاهم الأميرُ وقال لهم إنّه يريدُ أن يصطحبهم إلى مَكانٍ أقَلّ قَحْطاً ويُقَدّم لهم القوت بكلّ طيبة خاطر. فَسُرَّت الحيوانات لعرض الأمير.

تَرَكَ عزيز حِصانَه هناكَ عندَ مَدخل الممرّ، ثمّ انْحَنى نِصفَ انْحِناءة وسارَ معَ اليَمامَة الطيّبة التي قادَته بنجاحٍ حتّى الينبوع الذي كان يُحْدِث هديراً صاخِباً فشعَرَ الأمير أنّه علىً وَشَك الصّمم لو لم تُقَدّم له اليَمامة اثنَتينِ من ريشاتِها البيضاء ليَسدّ بهما أُذُنَيه. كانَ مُتَفاجِئاً من رؤيَةِ تلك المياه ترْقصُ بالرّشاقة نفسِها التي يَرقصُ بها فافييه وبيكو[1]: رغم أنّها كانت رقَصاتٍ قديمَة كرَقصة البوكان أو رقصة العروس أو السّرَبَنْدَة[2]، حَلّقَتْ عَصافير كثْر في الفضاءِ مُنْشِدَةً الألحانَ لترقص المياه على إيقاعِها. غَرَفَ الأميرُ ملءَ إنائهِ الذّهبيّ منها وجَرَعَ جَرْعَتَينِ جَعَلتاه أجملَ مائة مرّة ممّا كانَه وأشعرتاه بانتعاشٍ لَذيذٍ كادَ ينسيه أنّ الغابة السّاطعة هيَ إحدى أكثر مناطق الدنيا سُخونة.

وقفلَ عائداً على الدّربِ نفسها التي جاءَ منها. كان حِصانُه قد ابتعَدَ لكن ما إن سَمعَ صوتَه يُناديه حتّى جاءَ مُسْرِعاً فاعْتَلاه الأميرُ برَشاقة وكلّه فخرٌ بِحيازَتِهِ على الماء الرّاقص.

قال لليمامة التي كانَ يُمسكُها:

- أيّتها اليمامَة اللّطيفة، لا أعرف من أين أتيتِ بهذه القدرَة العجيبة! كلّ ما أعرفه أنّني ممتنّ كثيراً للخَدَمات التي قدّمْتِها لي. وَبِما

(1) فافييه Favier وبيكو Picot: راقِصانِ شهيرانِ من مُعاصِري المؤلّفة.

(2) البوكان: رقصَة قديمة بطيئة، حملت اسم مصمّمها. رقصة العروس: رقصة سريعَة وَحيوِيّة تصاحبها إيماءات. السّرَبَنْدَة: رقصة إسبانيّة بسيطة ثلاثيّة الإيقاع، سبق التّعريف بها.

أنّ الحريّة هيَ أعظم كنزٍ، فها أنا أعيدُ إليكِ حريّتَكِ لكي أردّ لكِ الجَميلَ الذي أسديتِهِ لي.

وعلى هذه الكلمات، أطلقها فَطارَت مُتحدِّيةً ونافرةً كَما لو كانت قد بَقِيَت معَه رَغْماً عنها.

فقال لها:

- إجحافك هذا يُظهرُ أنّكِ أقربُ إلى الإنسانِ منكَ إلى اليَمامَة فالإنسان متقلّبٌ واليمامُ وَفيّ.

عندئذٍ أجابته اليمامَة من أعالي الفضاء:

- وأنت! هل تعرفُ مَن أكون؟

تعجّبَ الأمير من أن تَرُدّ اليمامَة عليه بِهذا الشّكل. أدرك مدى براعتها ونباهتها فغضِبَ لأنّه سمَحَ لها بالذّهاب. قال:

- رُبّما كانت مفيدَة لي، وبِفضلِها كنت سأعرِف أشياءَ كثيرَة بِوسعِها أن توفّرَ لي سبُل الرّاحة.

ومعَ ذلك عادَ واقتنَعَ في سريرَتِهِ أنّه يجب ألاّ نندَمَ أبداً على إحسانٍ فعلناه. ثمّ ما لبث أن انتبه أنّها سبقته إلى الإحسان عندما مَهّدَت أمامَه الطريق لِيَحوزَ على الماء الرّاقص. كانَ إناؤه الذهبيّ مُحْكَمَ الإغلاق بحَيث إنّ الماءَ لا يُمكِنه أن يتسرّب منه أو يتبَخّر. وكم كان سروره عظيماً عندما تمثّل السّعادَة التي ستتلقّى بِها نجمَة الجمال ذلك الماءَ، وسعادته هوَ برؤيَتِها من جَديد. ثمّ لمح بضعَة فرسانٍ يأتونَ إليه مُسرعين ويتنادون مُطلقين باتّجاهه صرخاتٍ عالِيَةً وهم يدلّون عليه واحدهم للآخر. لم يشعر بالخوف لأنّه كان مقداماً ولا يخافُ بِسهولَةٍ منَ المَخاطر. ومعَ ذلكَ شعَرَ ببعضِ الغمّ لأنّ أمراً ما كان يعترض طريقه. دَفعَ حِصانَه بِفظاظة نحوَهم لكنّه فوجىء برؤية بعضٍ من خدّامه يقدّمون له رسائلَ صغيرة كلّفَتهم الأميرة

بإيصالِها وترجوه فيها ألاّ يعرّضَ حياته لمخاطر الغابة السّاطعة: قبّل الكلمات التي خطّتها الأميرة نجمة الجمال بيدها مُطلقاً تنهيدَاتٍ متتالية وسارَعَ بالعودَةِ إليها لأنّه بذلكَ سينتشِلها منَ أفظع ألمٍ أمْكَنَ لها أن تُكابِدَه.

وَجَدَها عندَ وصولِهِ جالسَةً تحت الأشجارِ وعلى سيمائها يلوح الكرَب وانشغال البال. عندما رأته ساجداً عندَ قدَمَيها حارت كيف تستقبله. أرادَت أن تؤنّبَه لأنّه رحَلَ مُعارِضاً أوامِرَها. ثمّ أرادَت أن تشكرَه على الهدِيّة الرّائعَة التي يقدِّمُها لها. قبّلَت أخاها الحَبيب موجّهة إليه ملامَة لطيفة.

بيد أنّ الوصيفة العجوز بهتان، التي هجَرَ النّومُ أجفانَها، عرفت بِفَضلِ جواسيسها أنّ عزيزاً عادَ أجمَلَ ممّا كان لدى رحيله، وأنّ الأميرَة مسحَتْ وجهها بالماء الرّاقص فأصبَحَ جمالها يفوق الوصَف، وبات يصعب على أيٍّ كان أن يقاوم نظرَة واحِدَة من نظراتِها.

أثار الخبر في بهتان تعاسة كبيرة لأنّها ظنّت أنّ الأمير سيَقضي نَحْبَه في تلك المغامرة الخطيرَة التي خاضَها. لكنّ الوقت لم يكن مُلائِماً للقنوط. تحَيّنَت ذهابَ الأميرة من دون إخوَتها إلى معبَد صغير لِديانا. اقتربَت منها وقالت بِهيئَةٍ مفعَمَةٍ بالودّ:

- كم أنا سعيدَة يا سيّدَتي لِرؤيتي النّتيجَة الباهِرَة لِنَصائحي! يكفي أن ينظرَ المرء إليكِ لِيَعرفَ أنّكِ تملِكينَ الآنَ الماءَ الرّاقص. ولكنّي سأتَجرّأ وأقدّم لكِ نصيحَة أخرى: عليك أن تمتلِكي التفّاحَة التي تُغَنّي فتلكَ آية أخرى أيضاً تُجَمّلُ الرّوحَ وتُعْطينا القدرة على فعلِ كلّ شيء: هل تريدينَ أن تُقنِعي أحداً بأمرٍ ما؟ ما عليكِ إذاً إلاّ أن تمْسِكي التفّاحَة التي تغنّي. هل تريدينَ أن تتكلّمي وسَطَ النّاسِ، وتكتبي الشعرَ والنّثرَ، وتُسَلّي الآخرينَ، أو تضحكيهم، أو

تبْكيهم؟ للتفّاحَة كلّ هذه المَزايا وهيَ تغنّي بشكلٍ جميل وبصوتٍ عالٍ بحَيث يُسمَع صوتُها من على مسافةِ ثمانية فراسخ دونَ أن تُسَبّبَ لنا الإزعاج.

هتفت الأميرة:

- لا أريدُها. لقد أوشكْتِ أن تقضي على أخي بِبمائكِ الذي يرقص. نَصائحُكِ خطيرَة جدّاً.

أجابت بهتان:

- ماذا تقولين يا سيّدَتي! هل تغضبينَ من أنّكِ سَتكونين الشّخصَ الأكثرَ علماً وذكاءً في العالم؟ حقّاً إنّكِ لا تُدْرِكين أهميّة الموضوع.

أردَفت نجمة الجمال:

- صحيح! ولكن ماذا سأجني لو أنّ أخي عادَ جثّةً محمولةً أو على وشكِ الموت؟

قالت العجوز:

- أخوكِ هذا لن يَذهَب. شقيقاكِ الآخران يُفترَضُ بهما أيضاً خدْمَتكِ بِدورهما والمغامرةُ أقلّ خطورَة.

أضافت الأميرة:

- لا يُهمّ. لن أسمحَ لنفسي بتعريضهما للأخطار.

قالت بهتان:

- في الحقيقة إنّني أرثي لِحالِكِ لأنّكِ تريدينَ أن تُضَيّعي هذه الفرْصة الفائقة الأهميّة بالنسبَةِ إليكِ. ولكن فَكّري في الأمرِ جيّداً. إلى اللقاء يا سيّدَتي.

وانصَرفت في الحالِ وهي على قلق بالغ بألاّ يؤثّر ما قالته في الأميرة. بَقِيَت نجمَة الجمال عندَ قدَمَي تمثالِ ديانا، حائرَةً من أمرها. كانت تحبّ شقيقيها لكنّها تحبّ نفسَها أيضاً وتشعر أنْ لا شيءَ يمكنه

أن يُمِدّها بِلَذّةٍ مماثلة كلَذّةِ الحيازة على التفاحة التي تغنّي.

تنهّدَت طويلاً وأخذت في البكاء. عادَ منير منَ الصّيد. سمِعَ ضجّة في المعبد فدَخلَ إليهِ ورأى الأميرة تغطّي وجهها بِوشاحِها لأنّها كانت خجِلة من أن تكونَ عيناها مبَلّلَتينِ بالدّموع. كان قد لاحَظَ دموعَها ثمّ اقترَبَ منها واستَحلفَها لِتقولَ له ما السّبب الذي دعاها للبكاء. امتنعَت عن مُصارَحَتِهِ مجيبَةً إنّها تخجَل من نفسِها. ولكن كلّما امتنعَت عن قولِ سرّها له ازدادَ رغبَة في معرِفَته.

وأخيراً قالت له إنّ العجوزَ نفسَها التي نَصَحَتها بإرسالِ أخيها لإحضارِ الماءِ الرّاقص قالت لها للتوّ إنّ التفّاحَة التي تغنّي هيَ أعْظَم تأثيراً لأنّها تمدّ بِذكاءٍ عَظيم ويُصبِحُ الإنسان بفضلِها عبقريّاً! ليتها تستطيع الحصول على مثلِ تلك التفاحة. لكنّها تخشى أن يكونَ إحضارها محْفوفاً بالأخطار.

قال لها شقيقها وهوَ يبتسم:

- لا تَخافي عليّ، لأنّي لا أريد أن أسْدِيَ لكِ هذه الخدْمَة الجليلة. ما بالك! أوَ ليس لديكِ ما يكفي من الذّكاء! تعالي تعالَي يا شقيقتي، وَكُفّي عن البكاء.

تَبِعَته نجمَة الجمال حزينَة منَ الطّريقة التي تلَقّى بها شقيقها قولَها هذا. أدركَتْ أيضاً استِحالة امتِلاكِها التفّاحَة التي تغنّي. قُدّمَ العَشاء، وجلسَ أربعتهم على الطّاوِلة. لم يكن باسْتِطاعَتِها أن تأكل. وعزيز، عزيز اللَطيف الذي لم يكن يهتمّ إلاّ بِها راح يقدّم لها أفضلَ شيءٍ موجودٍ في المائدة وَيحثّها على تذوّقه. عند أوّل لقمَةٍ تناولتها شعرَت بِقلبِها منقبضاً واغرَورَقت عيناها بالدّموع. تركت المائدة باكية. نَجمة الجمال تبكي! أيّتها السّماء! أيّ انشغالِ بالٍ بالنسبَة لِعَزيز! سألَ عَمّا بِها فأجابه منير عن السّبب وهوَ يَسخر بطريقة جارحة من

شقيقته. فآلمها ما قالَه وذهبت إلى غرفتِها وأغلقت عليها الباب غير راغبة في مكالَمَةِ أحدٍ طيلة السّهرَة.

ما إن خلدَ منير وسعيد إلى النّومِ حتّى صعَدَ عزيز على متن حصانه الأبيض الرّائع دون أن يُعلم أحداً بوِجهَتَه. تركَ فقط رِسالة لِنجمة الجمال وأمَرَ بأن تُسلّم لها لَدى نُهوضِها. وطيلة اللّيل، سارَ على غيرِ هدىً غيرَ عارِفٍ أينَ يجدُ التفّاحَة التي تغنّي.

عندَما استيقظت الأميرة من نومِها، سُلّمَت لها رسالة الأمير. منَ السّهلِ تصوّر القلقِ الذي انتابَها والحنان الذي اعتَمَلَ في قلبها. هُرِعَت إلى غرفة شقيقيها لِتقرَأها أمامهما فشارَكاها خوفَها، لأنّهم كانوا أخوة متضامنين. وعلى الفور، أرسلوا جميعَ أفرادِ حاشيتِهم إثرَه لإرغامِهِ على العودَة دونَ خوضِ تلك المغامرةِ التي لا بُدّ أنّها رهيبة.

في تلك الأثناء، لم ينسَ الملكُ الأطفالَ الحِسانَ المقيمين في الغابة. كانت قدَماه تقودانِهِ دوماً في ذلك الاتّجاه. وعندَما يَمُرّ بالقربِ منهم وَيَراهم، يتوَجّه إليهم بالمَلامَة لِعَدَم مجيئِهم إلى قصرِهِ فاعتَذروا منه في البدء قائلينَ إنّهم أرسلوا أفرادَ حاشيتهم في مهمّة وتطرّقوا إلى غيابِ شقيقهم قائلينَ له إنّهم سيَغتَنِمونَ الفرصَة لدى عودَتِهِ لِزيارَتِهِ وتقديم كلّ عبارات الشّكرِ والاحترام له.

كانَ الأمير عزيز مفعماً بالعشقِ للأميرة ومتلَهّفاً لِيَجدَ لها مَطْلَبَها بأقصى سرعَة. صادَفَ عندَ طلوعِ النّهارِ رجلاً حَسَنَ التكوين مستريحاً في ظلِّ الأشجار ومنصَرِفاً إلى قراءَةِ كتاب. اقترَبَ منه بِتَهذيب وقال له:

– عُذراً لمُقاطَعَتِكَ. أريد أن أسألَكَ هل تعرِف أين توجَد التفاحَة التي تغنّي؟

رفعَ الشّاب نظرَه وابتسَمَ بِلطفٍ قائلاً:

- وهل تريد الحصولَ عليها؟
- نعم، إنْ كانَ هذا ممكِناً؟
- آه يا سيِّدي! أنتَ لا تعرِف كلّ الأخطارِ المُحدقة بهذه المهمّة: هذا الكتاب يتحدّث عنها وقراءته تُخيف.
قال عزيز:
- لا يُهمّ، الخطرُ ليسَ قادراً على تثبيط عزيمتي. قل لي فقط أينَ بإمكاني العثور عليها.
أضاف ذلك الشاب:
- الكتاب يشير إلى أنّها في صحراءَ شاسِعَة في ليبيا وأنّه بالإمكانِ سَماعُها تغنّي عن بعدِ ثمانيَة فراسخ وأنّ التنّينَ الذي يَحْرُسُها التَهَمَ خمسمائة ألف شخص تجاسَروا على الذّهابِ للحصولِ عليها.
أجابَ الأمير وهوَ يبتَسِم بِدَوره:
- أنا الأوّل بعدَ الخمسمائة ألف.
ثمّ حَيّاه واستأنَفَ المَسيرَ ناحِيَة صحاري ليبيا. كان حِصانه الجميل المُجَنّح يسير بسرعَة الرّيح بحَيث اجتازَ مسافاتٍ شاسِعةً بسرعَةٍ لا تُصَدّق.
عبَثاً أصغى، لم يسمع غناء التفاحَة آتياً من أيّة جهة. أنْهَكَه طولُ الطّريقِ وذلك السّفر غير المجدي. وعندئذٍ لَمَحَ يَمامَة مسكينة تسقط أمامه. كانت على وشكِ الموت. من تراه أصابها؟ التفتَ من حوله فلم يرَ أحداً؛ ظنَّ أنّها ربّما كانت من يمائم فينوس، وأنّ كوبيدون، ذاكَ الشرّير الشقيّ الذي يهوى الرّماية بسِهامَه، قد صوّبَ إليها عندما هرَبَت من القفص. أشفق عليها فترجّلَ عن حصانِهِ ثمّ أخذها ومَسَحَ ريشاتها البيضاء المُلطّخَة بِدَم أحمر. وَسَحَبَ من جيبِهِ زجاجَة ذهبيّة يحمِل فيها بلْسَماً شافياً للجِراح. ما إن مسح به جناحِ اليمامَة

المريضة حتّى فتَحَت عينيها ورَفَعَت رأسَها باسطةً جناحَيها مهَنْدِمَةً ريشاتها بمنقارها ثمّ نظرَت إلى الأمير وقالت له:

- صباح الخير يا عزيز الجميل. قدَرُك أن تُنقذَ لي حَياتي، وأنا مقدّرَة ربّما لكي أرُدّ لكَ جميلَك. جئتَ للحصولِ على التفّاحَة التي تغنّي. المغامرة تليق بكَ لأنّ التفّاحَة يَحْرُسُها تنّين مرعب، له اثنتا عشرَة قائمة وثلاثة رؤوس وستّة أجنحة وكلّ جسدِهِ منَ البرونز.

قال لها الأمير:

- آه يا عزيزتي اليمامَة! يا لَفرحَتي برؤيتكِ من جديد وفي وقتٍ أنا في أمسّ الحاجة فيه لنجدَتِكِ! لا ترفضي طلبي هذا يا جميلتي الصّغيرَة، فلسوفَ أموتُ ألماً إذا ما كان عليّ أن أحتملَ عارَ العودَة دونَ التفّاحَة التي تغنّي. وبما أنّني حصلت بفضلك على الماءِ الذي يرقص، آمل أن تساعديني أيضاً لكي أنجح في مسعاي هذا.

قالت اليمامة بنبرة ملؤها العطف:

- أنتَ تهزّ مشاعري، اتبَعْني، أريد أن أطيرَ أمامَكَ وآملُ أن يسيرَ كلّ شيءٍ على ما يُرام.

سمَحَ لها الأمير بأن تتقدّمه. بعدَ أن سارا طيلة النّهار، وصَلا بالقربِ من جبلٍ منَ الرّمل.

قالت اليمامَة:

- يجب أن تحْفِرَ هنا!

ودونَ تلكّؤ، أخذ الأمير يحفر تارةً بيدَيه وتارةً بسيفه. وفي ظرفِ بضعِ ساعاتٍ وجدَ خوذةً ودِرْعاً وبقيّة لأْمة[1] المُحارِب، معَ العدّة الكامِلة اللاّزِمة لِحِصانه، وهذه كلّها مصنوعَة على هيئة مَرايا.

قالت اليمامة:

---

(1) لأمَة أو شكّة: لِباس الحرب أو مجموع آلات الوقاية المعدَنيّة كالدّرع والخوذة.

- تسلّحْ ولا تخشَ إطلاقاً التنّين. عندَما سَيَرى نفسَه في كلّ هذه المَرايا سيُصاب بالذّعرِ لأنّه سَيَخال كلّ تلك التنانين مسوخاً مثله فيلوذ بالفرار.

استحسنَ عزيز كثيراً ذلك المَسعى وتسلّحَ بالمَرايا وسارا هوَ واليمامة طيلة اللّيل. وإذ بهما يسمعان لَحْناً رائِعاً. توسّلَ الأمير إلى اليمامة أن تعيّن له مصدر ذلك الصّوت.

قالت:

- لا بدّ أنّها التفاحَة، فهي وحدها بوسعها أن تُصدِرَ لَحْناً بهذه العذوبَة فهي قادرة على أن تعزِفَ وحْدَها كلّ مقطوعات الموسيقى على تنوّعِها ومن دونِ أن تلمس أيّة آلة موسيقيّة.

واصَلا اقترابهما من مصدر الصّوت. فكّرَ الأمير في قَرارَةِ نفسه أنّه يريد فعلاً أن تغنّي له التفاحَة شيئاً ما يتوافق والحال التي يوجَد فيها، فَسَمِعَ في الحال هذه الكلمات:

يستطيع الحبّ أن يفوزَ بالقلبِ الأكثرِ نفوراً
فلا تكفّوا أبداً عن الحبّ
أيّها المتثّلونَ لِشرائع الجمالِ الطّاغي
أحبّوا، ثابِروا في حبّكم وسَتسعَدون!

هتفَ يُجيب على هذه الكلمات:

- آه! يا لنبوءة السّاحرة! بوسعي الأمل بأن أكونَ ذاتَ يومٍ أسْعَدَ حظّاً ممّا أنا عليه الآن. ها هيَ التفاحَة تؤكّد أقوال السّاحرة.

لم تقل اليمامَة شيئاً. لم تكن ثرثارَة بطبعها ولا تقول إلاّ ما يجب قوله فقط. كلّما تقدّمَ في سيرِه ازدادَ جمال الموسيقى وشعرَ أنّه، على

الرّغمَ من استعجاله لإنهاءِ مهمّته، مسحورٌ بذلك الجمال وغير قادرٍ إلاّ على التوقّف قليلاً والاستماع إلى النغمات الرائعة. لكنّ رؤية التنّين الرّهيب الذي انبثَق فجأةً بقوائمِهِ الاثنتي عشرة، ومَخالبه التي تتعدّى المائة، ورؤوسه الثلاثة، وَجسمه البرونزيّ، انتزعَته من غفلته. اشتمّ التنّين رائحَة الأمير من مسافة بعيدة جدّاً وكان ينتظرُه لكي يلتَهمَه كما فعلَ بالآخرين جميعاً الذين جعل منهم وَلائمَ ممتازَة. كانت عِظامهم تتكدّس حولَ شجرة التفاح، التي عُلّقت إليها أجمل تفاحَة، وترتفع عالِياً فتحجبها عن الرّؤية.

تقدّم الحيوان المرعب قافزاً وكَسا الأرض بزبَدٍ مسموم حارق. كان يُخرج من شدْقه الجحيميّ ناراً وَتنانينَ صغيرَة يقذِفها مثلَ سِهام في أعيُنِ الفرسان المتسكّعينَ الذين يريدونَ الفوز بالتفاحَة وفي آذانهم. لكنّه، حينَ رأى هيئتَه المُرعِبَة مضاعفةً مئات المرّات في المرايا التي تزدان بها لأْمةُ الأمير، ذُعِرَ بدَورهِ. توقّف ناظراً بازدراء إلى الأمير المحمّل بالتّنانين ولم يعد يُفكّر إلاّ بالفرار متّجهاً إلى أحد الكهوف العميقة. وإذ لاحَظَ عزيز الأثرَ الذي أحْدَثته لأْمَته في التنّين تبِعَه حتّى مدخل الكهف وسدّ منفذه بسرعة ثمّ سارَعَ للعودَة إلى شجرة التفاحَة التي تغنّي.

صعَدَ على كومَةِ العِظام التي تطوّق الشّجرة، ثمّ نظرَ إليها مندهشاً. كانت الشجرة منَ العنبرِ وتّفاحاتها من الزّبَرْجَدِ؛ أمّا التفاحَة الأروَع بينَها جميعاً التي كان يَنشِدُها بكلّ كَيانه رغمَ الأخطارِ المحْدِقة به، فظهرَتْ في أعلى الشجرة مكوّنةً من ياقوتة واحدة مكلّلَة بتاجٍ منَ الألماس. طارَ الأمير فرَحاً لأنّه يستطيع أن يقدّم إلى نجمة الجمال كنزاً بهذا الكمال والنّدرَة، وسارَعَ إلى كسرِ غصنِ العنبر. متشجّعاً بِحُسْنِ طالِعِهِ، صعَدَ على حِصانه الأبيض لكنّه لم يجد اليمامَة. عندما

أدركت أنّ وجودها لم يعدْ ضروريّاً، طارَت بعيداً في السّماء. لكنّ الأمير لم يُضِعْ وقته في حسَراتٍ غيرِ مُجْدِيَة لأنّه كان يسمَع حَفيفَ التنّين ويخشى عودته إلى شجرة التفاح، فسارَعَ للعودَةِ إلى أميرَته وفي حَوْزَتِه التفاحَة العجيبة.

كان النّوم قد هجر عينَي الأميرة منذ غيابه. راحَتْ تلومُ نفسها باستمرار على رغبتِها في أن تتفوّق بذكائها على الآخرين. كانت تخشى أن يُصاب عزيز بمكروه أكثرَ من خشيتها على حياتِها. هتفت وهي تُطلِق تنهيداتٍ حارّة:

– آه! يا لي من تعيسة، هل كان عليّ أن أطمع في هذا المجد الباطل؟ ألم يكن يكفيني أن أفكّرَ وأقول أشياءَ لا تسيء إلى أحد؟ سأنال العقاب الذي أستحقّه إذا فقدت من أحبّه بسبب كبريائي! وا أسفاه، أوَ تكون السّماء مستاءة منَ المَشاعر التي لا أستطيع كبتها حِيالَ عزيز، فشاءت انتزاعَه منّي على نحوٍ مأساويّ؟

وأخذت الأفكار السّوداء تتزاحم في رأسها، وحَدّثها قلبها المتألّم بألف سوءٍ قد يحصل لعزيز. وفجأةً، عندَ منتصَفِ اللّيل، سمِعَت موسيقى رائعَة. فنهضت ووقفت إلى النّافذةِ لِتَسْمَعَها بشكلٍ أفضل. كان جمالها يفوق الوصف. أحياناً تَخاله أبولون يعزف بصحبَة ربّات الآداب والفنون والعلوم، وأحياناً أخرى تظنّها فينوس ومعها ربّات الجمال ورُسُل الحبّ. كانت الموسيقى تقترِب دوماً ونجمَة الجمال تستمِع إليها.

وأخيراً وصلَ الأمير. كان القمر مُشِعّاً ساطِعاً. توقّف تحت شرفة الأميرة التي عادَت إلى داخلِ غرفتها. وعندئذٍ لَمَحَت في البَعيدِ فارِساً، وللحال غنّت التفاحة:

نظرَت الأميرة بسرعة متلهّفة لِمعرِفَة مَن بإمكانِهِ الغناء المتقن على ذلك النّحو. تعرّفت إلى أخيها عزيز فكادَت من لهفتها ترمي بنفسِها منَ النافذة لِتَكونَ قرْبَه في الحال. ونادَت بأعلى صوتِها فاستيقظ الجميع وجاؤوا لِيَفتحوا البابَ لِعزيز فدَخلَ بِسرعَة خاطفة. كان يحملُ في يدهِ غصنَ العنبرِ الذي عُلّقَت إليه التفاحَة العجيبة. ولأنّه شمّ رائحَتها طيلة الوقتِ فإنّ ذكاءهُ اشتدّ لِدَرَجة أنْ لا أحَدَ في العالم كان يستطيع مضاهاته ذكاءً.

تقدّمَت نجمة الجمال نحوَه بِعَجَلَةٍ كبيرة. ثمّ قالت له وهيَ تبكي منَ الفَرح:

- وهل تعتقد أنّني سأشكرُكَ يا أخي العزيز؟ لا، ما نفعُ أعجبِ الأشياء ما دمْتَ تعرّضُ حياتك للخطرِ لحيازتها من أجلي.

قال لها:

- كلّ أخطار هذا العالم تهون في سبيل أن أرضيَكِ وَلَو قليلاً. خُذي يا نجمَة الجَمال. خذي هذه الثمرَة الفريدة. لا أحَدَ في العالم يستَحِقّها أكثر منك. ولكنْ ما تراها ستضيف إلى صِفاتك الكاملة بالأصْل؟

جاءَ منير وَسَعيد ليقطعا على أخيهما حَديثه. سُرّا كثيراً لِرؤية الأمير فَرَوى لهما رحلته وظلّ يتحدّث عنها حتّى طلوع النّهار.

كانت بهتان الشّريرَة قد عادَت إلى منزِلها الصّغير بعدَما حدّثت والدة الملك عن خططها. كانت تشعر بقلَق بالغ يمنَعها منَ النّوم بِسلام. سمِعَت غناءَ التفاحَة العَذبِ الذي لا يمكن لِشيء مضاهاةَ جماله. وأيقنَت أنّ الأميرة استطاعَت الحصولَ عليها! بَكَت

وانتحَبَت وخدَشَت وجهها ونتفت شعرَها. كان ألمُها فظيعاً لأنّها، بدَلَ أن تسيءَ إلى الأولادِ الحِسان بنصائحها الخبيثة، كانت تسدي لهم خدماتٍ باهرة.

ما إن طلَعَ النّهار حتّى علِمَت بعوْدَةِ الأمير. ذهبت لزيارة والدة الملك.

قالت لها الملكة الأمّ:

- حسَناً يا بهتان، هل تحملين لي أخباراً سارّة؟ هل قضى الأولاد نحبَهم؟

قالت وهيَ ترتمي عندَ قدَميها:

- لا يا سيّدَتي. ولكن أتمنّى على جلالتكِ ألاّ تفقدي صبرَكِ. لاتزال لديّ وَسائل كثيرة لأخلّصَكِ منهم.

قالت الملكة الأمّ:

- آه! أيّتها التّعيسَة، أنتِ لم تأتي إلى هذا العالم إلاّ لِتَخونيني. أنتِ تُجَنّبينَهم الموت.

اعترَضت العجوز قائلةً العكس. وعندَما هدّأت من رَوعِها قليلاً، عادَت إلى منزلها لتفكّرَ مليّاً في ما يجب أن تفعَله.

ظلّت غائبةً عن الأنظار لبضعة أيّام تترصّدَ خلالها تحَرّكات الأميرة إلى أن وجَدَتها تتنزّه وحيدَةً في إحدى طرقات الغابة الأميرة منتظِرَةً عودَة أشقّائها.

قالت لها العجوز الوضيعة وهيَ تقترب منها:

- السّماء تنعم عليك بالخيرات. يا نجمَة الجمال الفاتنَة، علمت أنّكِ حصَلتِ على التفّاحة التي تغنّي. وبالطّبع لو استطعْتُ الحصولَ على هذه الآية لَكنْتُ أسْعَدَ النّاس. ويجب أن أعترفَ لك، أنا لدَيّ اهتمامٌ خاصّ بكلّ ما يتعلّق بِمَصالحك. لِذا لا أستطيع الامتناعَ عن

إسْداءِ نصيحَة جديدة لك.

هتفت الأميرة وهيَ تبتعد عنها:

- مهما يكن الخير الذي ستَعودُ بهِ عليّ نصائحك، احتفظي بها. لأنّها لن تستطيعَ التّعويضَ عن القلق الذي تتسبّبُ لي به.

أجابت العجوز مبتسِمَة:

- ليسَ القلق سيّئاً إلى هذا الحدّ! ثمّة قلق جميل.

أضافت نجمة الجمال:

- اصمُتي، إنّني أرتجف حين أفكّر بِما حَصَل.

قالت العجوز:

- صحيحٌ أنّ حالَتكِ تُحسَدينَ عليها لِكَونكِ الفتاة الأجمَل والأذكى في الكون. أقَدّم لكِ اعتذاراتي.

فأجابتها الأميرة:

- ضربة أخرى من ضرباتك! أعلم بما فيه الكفاية الحال التي قادني إليها غياب شقيقي.

ثمّ أضافت:

- يجب بالرّغم من ذلك أن أقولَ لكِ إنّه لا يزال ينقصكِ العصفور الصّغير الأخضر الذي يبوح بكلّ سرّ، ويُعْلِمُكِ بكلّ الظّروف التي أحاطَت بولادَتِكِ والحظوظ السيّئة والجيّدَة التي ستُصادِفينَها في حَياتك. ليسَ هنالكَ من أمرٍ إلاّ وَيَكشفه لكِ. وحينَ سيقولُ النّاس إنّ نجمَة الجمال لدَيها الماء الرّاقص والتفاحة التي تغنّي، فهم سيقولون في الأوان ذاته إنَها ينقصها العصفور الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار، وهذا ما يكاد يعني أنّها لم تحصل على شيء.

وبعدَ أن قالت العجوز مَا يدور في ذهنها، انصرَفت. بدأت

الأميرة الحزينة الحالِمَة تتنَهّد بِمَرارة وحسرة وتقول:

- هذه المرأة على حقّ، ففيمَ ستُفيدُني كلّ هذه الحَسَناتِ التي أتلَقّاها منَ الماءِ والتفاحَة ما دمت أجهَل من أنا ومَن هم أهلي وما هوَ القدَر الذي جعَلَنا أنا وإخوَتي نواجه غضبَ الأمواج العاتِيَة؟ لا بدّ أنّه حصلَ شيء خارق أثناء ولادَتِنا لِنُتْرَكَ على هذا النّحو، وأنّ السّماء قدّمَت لنا رعايتَها لِننجوَ بعدَ كلّ هذه الأخطار. يا لَسروري العظيم عندما أتعرّف إلى أبي وأمّي فأحبّهما إذا كانا لا يزالانِ على قيدِ الحَياة وأكرّمَ ذكراهما إذا كانا متوفّيَين!

وعلى هذا انهالَت الدّموع من عينيها بِغزارة وغمَرَت وجنَتيها أشبه ما تكون بِقطَراتِ النّدى التي تُزَيّن في الصّباح الزّنابِقَ والورود.

سارَعَ عزيز، الذي كان دوماً متلهّفاً لِرؤيتها أكثَر من شقيقيها منير وسعيد، للعودَة إليها بعدَ الصّيد. كان راجلاً وقوسه تتدَلّى بتهاونٍ من خاصرَته ويده متسلّحَة ببعضِ السّهام وشعره مرفوعٌ إلى الخلف. كانت لَدَيهِ هيئة محاربٍ رائع لا يُمَلّ النّظَر إليه. ما إن لَمَحَته الأميرة حتّى وَلَجَت ممرّاً قاتِماً فَلا يَرى علاماتِ الألم على وجهها. ولكنْ لا تكاد المعشوقة تبتعِد حتّى يُوافيها العاشق متلهّفاً. اقترب منها عزيز. ما كادَ ينظر إليها حتّى عرفَ أنّ بها ألَماً. فانشغل بالُه وتوسّلَ إليها بإصرار أن تُعلِمَه السّببَ فتمَنّعَت بإلحاح. وأخيراً وجّهَ رأسَ أحَدِ سِهامِهِ إلى قلبه وقال لها:

- أنتِ لا تُحِبّينني يا نجمَة الجمال. لم يتبَقَ لي إذاً إلاّ الموت.

أخافتها الطّريقة التي قال بها هذه الكلمات ففقدَتِ القدرة على إخفاءِ سرّها. لكنّها لن تَقولَهُ إلاّ بشرط ألاّ يُضَحّيَ بحَياتِهِ لكيٍ يُحَقّقَ لها رغبَتَها. ووعَدَها بأن ينفّذَ كلّ ما تطلبه منه وطمأنها قائلاً إنّه لا ينوي القيامَ بتلك المغامرة.

وعندَما انزَوَت في غرفتِها وخَلَدَ الأميران إلى غرفتيهما، ذهب ليُخرجَ حصانَه منَ الإسطبل ثمّ صعَدَ على صَهْوَتِهِ وانطَلَقَ دونَ أن يُكلّمَ أحداً. استاءت العائلة لخبر رحيله استياءً شديداً. آنذاك أرسَل الملك في طلبهم، وكان يفكّر بهم دوماً، مُلِحّاً عليهم بالمَجيء لِتناولِ الغداءِ معه. فأجابوه إنّ شقيقهم رَحَلَ للتوّ وإنّهم لا يمكنهم أن يَهنَأَ لهم بال من دونه، وأنّهم سيَذهبونَ لِزيارَته في القصرِ حالَما يعود. لم تكن الأميرة لِتَتَعَزّى. ولم يعد للماءِ الرّاقص ولا للتفاحَة التي تغنّي أيّ معنى بالنّسبة لها. فمِن دونِ عزيز، لا شيءَ يُسَلّيها.

ورَحَلَ الأمير سائحاً في الدّنيا. سألَ كلّ من صادَفهم أين بإمكانه العثور على العصفورِ الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار. لكنّ الجميع كانوا يجهلونَ الأمر إلاّ شيخٌ جليلٌ صادَفَه ودَعاه للدّخولِ إلى منزله. أشار إلى موقع محدّد على الكرَة أمامه قائلاً له إنّ العصفورَ موجودٌ في مناخ متجلّدٍ على قمّةِ صخرةٍ شاهقةٍ ثمّ رسمَ له خارِطَة الطّريق المؤدّيَة إليه. شكره الأمير وأعطاه، على سبيل الامتنان، كيساً صغيراً منَ اللآلئ الضخمَة التي تساقطت من شعرِه ثمّ استأذَنَه بالانصرافِ متابعاً رحلته.

وأخيراً عندَ طلوعِ الفجر، لَمَحَ الصّخرَة الشاهقة الشديدة الوعورَة وعلى قمّتِها العصفورَ المتنبّيء الذي يتكلّم كالعرّافين. أدركَ أنّه بقليلٍ منَ المَهارَة يستطيع الإمساك به لأنّه لا يبدو جَفولاً وكان يَروحُ ويجيء قافِزاً بِخِفّةٍ من صخرَةٍ إلى صخرة. ترجّلَ الأمير عن حصانه وتسلّقَ بصمْتٍ ذلك التلّ الصخريّ رغمَ وعورَتهِ متخيّلاً مقدار السّرور الذي سيُدْخِله إلى قلب الأميرة نجمَة الجمال. اقترب منَ العصفورِ الأخضرِ لا بل أوشكَ أن يُمسِكَ به. وفجأةً انفجّتِ الصّخرة ورأى نفسه يسقط في قاعَةٍ فسيحَةٍ ثمّ يتجمّدَ مثلَ تمثال. لم يكن يستطيع لا

الحراك ولا التشكّي من مغامرَتِه المخْزِنَة؛ ومن حَولِهِ ثلاثمائة فارس كانوا قد تحوّلوا إلى تماثيل بعدما خاضوا المغامرة نفسها. وكان الأمر الوَحيد الذي يَقدِرونَ على القيام به هو أن يتبادَلوا النّظرات.

بدا الوقت طويلاً طويلاً لِنَجْمَة الجمال. وإذ لم ترَ عودةً لِعَزيز أصابَها مرضٌ خطير. عرف الأطبّاء أنّه مجرّد كآبة عميقة تتأكّلها. وكانَ شقيقاها يُحِبّانها حبّاً جمّاً. حَدّثاها عن سبب حزنها فاعترفت لهما أنّها تلوم نفسها ليلاً نهاراً على غيابِ عزيز وأنّها تشعر أنّ ذلكَ سيُميتُها إذا لم تعرف شيئاً عن أخباره. أثّر حزنها فيهما، وقرّر منير الذّهابَ والبحث عن أخيه علّ ذلك يساعدها على الشّفاء.

انطلق الأمير. عرفَ مكان العصفور الشّهير فذَهَبَ إليه ووجده واقتربَ منه معلّلاً نفسه بالآمال ذاتها كالآخرين. وفي تلك اللّحظة انشقّت الصّخرة وابتلعَته وسقط في القاعة الكبيرة. وأوّل شيءٍ استوقف نظرَه كان عزيز لكنّه لم يستطع التحدّث إليه.

كانت نجمة الجمال تتماثل قليلاً إلى الشّفاء وتأمَلُ في كلّ لحظَةٍ أن تَرى عودَة أخويها. لكنّ آمالَها باءَت بالفشل وازدادَت كآبَتها وتفاقمَت مستمدَةً قوّة جديدة. لم تعد تَكُفّ عن الشّكوى وتلوم نفسها ليلَ نهار على المصيبة التي ألّمت بشقيقيها. والأمير سعيد الذي باتت شفقته عليها تُعادِل قلقه على الأميرَينِ اتّخذ بدَورِهِ القرار للذّهابِ والبحث عنهما. وقال ذلكَ لِنجمة الجمال. أرادَت في البدءِ أن تُعارِضَ لكنّه احتجّ قائلاً إنّ منَ الصّوابِ أن يُعرِّضَ نفسَه للخطَرِ كيما يَعثرَ على الشّخصَينِ الأعزّ بالنسبة له في هذا العالم. وعلى هَذا رحَلَ مودّعاً الأميرة بكَلِماتٍ لطيفة: وبقيت وحْدَها فريسَة الألم الأكثر تبريحاً.

وعندما علمَت الوصيفة بهتان أنّ الأمير الثالث كان في طريقهِ

للبحث عن أخوَيهِ، سُرّت وابتهجت ابتهاجاً عظيماً وأخبرت الملكة الأمّ بالأمر وأكدّت لها أكثر من أيّ وقتٍ مضى الهلاك الوشيك لجميع أفراد تلك العائلة التّعيسة. وبالفعل فإنّ سعيداً خاضَ التّجربة نفسَها التي خاضَها عزيز ومنير. بلغ الصّخرَة ووجد العصفور الجميل وسقَطَ في القاعة متحوّلاً إلى تمثالٍ وهناك تعرّف على شقيقيه الأميرَينِ دونَ أن يستطيعَ التحدّث إليهما. وكانوا جميعاً موضوعينَ في كوىً من بلّور بلا نوم أو طعام مسحورينَ بطريقةٍ حزينة: كانت لدَيهم فقط الحريّة في أنً يحلموا ويتحسّروا على مغامرتهم.

لم تكن نجمة الجمال تتعزّى. وإذ لم ترَ عودةً لأشقّائِها، لامَت نفسَها على أنّها تأخّرَت كثيراً عن اللّحاقِ بهم. ومن دونِ تردّد، أعْطَت الأوامِرَ لكلّ أفرادِ حاشِيَتِها بأن ينتظِروها لمُدّةِ ستّةِ أشهر وإذا لم تعد هيَ وإخوتها خلال ذلك الوقت فعَلَيهم إبلاغ نبأِ موتهم إلى القرصانِ وزوجته. ثمّ تنكّرت في ثيابَ رجلٍ لأنّها ارتأت أنّ ذلكَ سيكون أقلّ خطورةً عليها أثناء رحلتِها. رأتها بهتان ترحَل ممتطية صهوة حِصانها الجميل وعندئذٍ عَمّ السّرور قلبها وذهبت إلى القصرِ لكي تُعلِم والدة الملك بذلك الخبرِ السّار.

تسلّحَت الأميرة فقط بخوذةٍ ولَم تكن ترفع واقِيَتَها قطّ لأنّ جمالَها كانَ مرهفاً مكتملاً، وما كان أحدٌ لِيصدّق أنّها من الفرسان كما أرادَت أن توحي به. وحلّ فصل الشّتاءِ على البلاد التي يسكن فيها العصفور الصّغير الناطق بكلّ الأسرار، ولم تكن تتلقّى في أيّ فصلٍ أيّ شعاعٍ منَ الشّمسِ المُحْيِيَة.

أحسّت نجمة الجمال ببرْدٍ غريبٍ يلفح كيانها ولكن لا شيء كان يستطيع أن يُثْنِيَها عن مسْعاها. وعندئذٍ رأت يمامَة بيضاءِ باردة كالثّلج الذي اضطجعت فوقه. وبالرّغمِ من لهفَتِها للوصولِ إلى الصّخرَةِ، لم

تشأ أن تتركها تموت بل ترجّلَت عن حِصانها وأمسكتها بين يدَيها ودفّأتها بِأنفاسها ثمّ وضعَتها في حُضنِها. كانت اليمامة الصّغيرَة المسكينة جامدة بلا حراك. ظنّتها نجمة الجمال ميتة وأسفت لموتها. فأمسكتها قائلة لها وهيَ تنظر إليها وكأنّها تستطيع أن تسمَعَها:

- ماذا أفعَل أيّتها اليمامة اللطيفة لأنقِذ حياتَكِ؟

فأجابتها العصفورة:

- يا نجمَة الجَمال، إنّ قبلة رقيقة من فَمِكِ لهيَ أجمل ختامٍ يتوّج ما استهلّه إحسانُكِ ومروءتُك.

قالت الأميرة:

- ليسَ قبلَة واحِدَة بل مائة إذا اقتضى الأمر.

وقبّلتها فاستعادَت اليمامَة شجاعتها وقالت بِفَرَح:

- عرفْتُكِ بالرّغم من تنَكّرِك. اعلَمي أنّكِ تقومينَ بشيءٍ مستحيلٍ إذا لم أقدّم لك مساعدَتي. افعلي إذاً ما أنْصَحُكِ به. عندما تَصِلين أمامَ الصّخرة، بدَلَ أن تَسْعَي لِتَسلّقِها ابقَي في أسْفَلِها وابدَئي بغناءِ أجملِ وأعذَبِ أغنيَةٍ تعرِفينَها. عندَئذٍ سيستمِعُ إليكِ العصفور الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار وسَيَعرِف مصدَر الصّوت. وبعدئذٍ تتظاهَرينَ بالنّوم: سأبقى قربَكِ وعندَما يَراني سيَنزِل عن قمّة الصّخرَة لينقرَني، وفي تلك اللّحظة يمكنُكِ الإمساك به.

تعلّلت الأميرَة بهذا الأمل وابتهجَت. سُرعانَ ما وصلت إلى الصّخرة وهناك رأت أحصنة أشقّائها ترعى العشب. أحيى ذلك المنظر آلامَها كلّها. فجَلسَت وبَكت طويلاً وبِمرارة. لكنّ العصفورَ الأخضر الجميل كان يقول أشياءَ في غاية الجَمال تحمل العزاء إلى قلوب التّعَساء فلا يَسمعها قلب محزون إلاّ ويبتهج. فمَسَحَت دموعَها وأخذت تغنّي بصوتٍ عالٍ وبأداء متقن فَسُرَّ الأمراء في

عمقِ الصّالة المسحورَة بِسَماعِها.

وعندَئذٍ شعَروا ببعضِ الأمَلِ بنَجاتهم. كان العصفور الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ الأَسرار يَسْمَعُ الصّوتَ ويتحَرّى عن مَصدَره فلَمَحَ الأميرةَ التي نزعَت خوذَتها لِتنام براحَة أكبر واليمامةَ التي تُحَلّق فوقها. وعندما رآهما، نزلَ عن صخرَتهِ وأتى لِينقرَ اليمامة، ولكنّه لم يَكَد ينتزِعُ منها ثلاث ريشاتٍ حتّى أمسكت بهِ الأميرة.

قال لها:

- تبّاً لكِ! ماذا تريدينَ منّي؟ ماذا فعلتُ لكِ حتّى أتيتِ من بعيدٍ لتتَسَبّبي بتَعاسَتي؟ أطلقي سراحي أفعَلْ لكِ كلّ ما تتمَنّينَه.

قالت له نجمَة الجمال:

- أحبّ أن تعيدَ لي إخوَتي الثلاثة، لا أعرف مكانهم ولكنّ أحْصِنتهم تَرعى بالقربِ من هذه الصّخرَة، وهذا يَحمِلني على الاعتقاد أنّكَ تحتجزهم في مَكانٍ ما.

قال لها:

- لديّ تحتَ جَناحي الأيسَر ريشة قرْمزيّة. انتشليها واستخدِميها لِتفتحي الصّخرة.

قامت الأميرة على نحوِ السّرعَة بما أمَرَها بهِ فرَأت للحالِ بروقاً وسمعت صوتَ رِياحٍ ورعود ممتزجة فأصابتها رعدة لا توصَف. وبالرغم من خوفِها، ظلّت تمسكُ العصفورَ الأخضرَ لِئلا يهرُبَ منها وتَابعت وضعَ ريشتها القرمزيّة على الصّخرة وفي المرّة الثّالثة انشقّت الصّخرة منَ القمّة إلى الأسفل، ودخلت الأميرة بهيئةٍ ظافِرَةٍ إلى القاعَة حيث كانَ الأمراء الثّلاثة مُحْتَجَزينَ معَ الفرسان الآخرين: هُرِعَت باتّجاهِ عزيز فلم يتعرّف عليها بثيابها وخوذتها ومن ثمّ لم يكن السِّحر قد زالَ بعد فكان عاجزاً عن الكّلامَ والحراك. لاحَظَت

الأميرة ذلك فَسألت العصفور الأخضر عمّا يجب أن تفعله، فأجابَها أنّ عليها أن تمسحَ بالرّيشة القرمزيّة أعينَ كلّ مَن تُريدُ أن تُزيلَ عنهم السِّحرَ وكذلك أفواهَهم. نفّذت ما قال لها مؤدّيةً هذه الخدمَة لِملوكٍ وحكّام عَديدين وطبعاً لأمَرائنا الثلاثة.

وامتناناً منهم لِصنيعِها العَظيم ارتموا جميعاً عندَ قدَمَيها وسمّوها محرّر الملوك. لاحَظَت عندئذٍ أنّ إخوَتها لم يتعرّفوا إليها في ثيابها الذّكورِيّة فنزَعَت عنها خوذَتها بسرعَة وضمّتْهُم وأمطرتهم بالقبلات وسألت الأمراءَ الآخرين بتَهذيب كبيرٍ عمّا جرى لهم. فروى لها كلّ واحدٍ منهم ما كان قد حدثَ له وَعَرَضوا عليها مرافَقتَها أنّى شاءت. فأجابتهم بأنّها وإن كانت قوانين الفروسيّة تُعْطيها بعض الحقّ للتصرّف بالحريّة التي أعادَتها إليهم، إلاّ أنّها لا تريد أن تمارسَ ذلك الحقّ. وعلى هذا انصرَفَت معَ الأمراء الثلاثة لكي يتحَدّثوا فيما بينهم عمّا حصَلَ منذ افتراقهم.

قاطَعَهم العصفور الأخضر الصّغير الذي ينطق بكلّ الأسرار متوَسّلاً إلى نجمَة الجمال أن تطلق سراحَه. فتّشت للحالِ عن اليمامة لكي تسألَها رأيَها ولكنّها لم تجدها. أجابت العصفورَ إنّها لم تتكبّد كلّ تلك المشقّة وكلّ ذلك العَناء لكي تتخلّى عنه بهذه السّهولة وتفرّط بِمتعة الحصول عليه. صعَدوا أربعَتهم على أحصِنتهم وتركوا الملوكَ والأمراء راجِلينَ لأنّ أحصِنتهم قضت نحبها منذ مائتي سنة، أو ثلاثمائة سنة.

بعد أن أزاحت والدة الملك عن صدرها كلّ الهموم التي كان ظهور الأولاد الحسان قد سبّبها لها، ألحّت من جديد على الملك وبإصرار لكي يتزوّجَ ثانيَةً بعد أن اختارَت له أميرة من قريباتِها. وبما أنّه يُفترَضُ أن يُبْطِلَ الزّواجَ بالملكة التّعيسَة شقراء التي كانت لا تَزال

تسكنُ عند والِدَتِها في منزِلها الريفيّ الصّغير معَ الكِلابِ الثّلاثةِ التي سمّتهم «حزن» و«غمّ» و«همّ»، تجسيداً لكلّ الأحزانَ التي عانتها بسببهم، أرسَلت الملكة الأمّ في طلَبِها. فصعَدَت إلى العرَبَة مصطحبةً الكِلابَ معَها وهيَ ترتدي السّوادَ متلفّعة بوِشاحٍ طويلٍ يَصلُ حتّى قَدَمَيها.

حتّى في حالتها هذه، ورغمَ هزالها ونحولها، بسبب فقدان الشهيّة للطّعام وقلّة النّوم، بَدَت أجمَلَ من كوكبِ النّهار. رقّ الملكُ لحالِها ولَم يجرؤ على النّظرِ إليها، ولكنّه كان يخشى أيضاً أن يكون ورَثَته جِراء كلاب، فارْتَضى أن يَفعَلَ أيّ شيءٍ لتجَنّبِ تلك المصيبة.

حُدّدَ موعِد الزّفاف. وتوسّلت صهباء زوجَةُ الأميرال (وَكانت لا تَزال تَمْقت شقيقتَها العَديمَة الحظّ) إلى والدة الملك أن تدعوَ الملكة شقراء إلى الحَفل. أُعِدّ كلّ شيء لِيكونَ الحفل كبيراً مَهيباً. أعرب الملك عن رغبته في مجيء ضيوفه الغرباء لحضور الزفاف وأمَرَ قائدَ حرَسِه بالذّهابِ إليهم ودعوتهم مباشرة أو إخطارهم بالمَجيءِ في حال غيابهم.

ذهبَ قائد الحرَسِ لإحْضارِهم ولم يجِدْهم. ولكنّه كانَ يعرِف مقدار فرحة الملكِ برؤيَتِهم فَأوكل إلى أحَد معاونيه مهمّة انتظارهم واصطحابِهم دونَ تأخير. وجاءَ اليوم السّعيد، يوم الزّفاف المنتظَر. وعند وصول نجمَة الجَمالِ برِفقةِ أشقّائِها الثّلاثة، دعاهم المُعاون إلى حفل الزّفاف وروى لهم قصّةَ الملكِ الذي اقترَنَ فيما مَضى بفتاةٍ فقيرَةٍ رائعة الجمال، مفعَمَةٍ بالذكاء ولكنّها أنجبَت له ثلاثة جراء كلاب فطَرَدَها من القصر مع أنّه كان يُحِبّها كثيراً وأمضى خمسَة عشر عاماً دون أن يستمِعَ لوالِدَته وأفرادَ حاشيتِهِ الذين كانوا يلحّون عليه دوماً بالزّواجِ من جديد، إلى أن قرّرَ أخيراً الاقتران بأميرة منَ البَلاط. ثمّ

حثّهم على المجيء بسرعَةٍ لِئلاّ يفوتهم شيء من حفلِ الزّفاف ذاك.

كانت نجمَة الجمالِ قد ارتدت ثوباً مُخْمَلِيّاً ورديّ اللوْنِ مُزداناً كلّه بألماساتٍ برّاقة. وجعَلَت شعرَها ينسَدِل خصلاتٍ كبيرة على كتِفَيها وعقدَته بالشّرائط. وكانت النجمة على جبينِها تُرسِلُ نوراً باهِراً، وبدت السّلسلة الملازمة لعنقها مصنوعة من معدَنٍ أثمَن منَ الذّهبِ نفسه. وأخيراً لم يكن لِجَمالِها مثيلٌ بينَ الفانين، وكذلك كان أشِقّاؤها، وخصوصاً الأمير عزيز الذي كانَ لدَيه شيءٌ ما يَجعَله مميّزاً عن سِواه. وصعَدوا ثلاثتهم في عرَبة منَ الأبنوس والعاج يجُرّها اثنا عشر حِصاناً أبيض، وكانت منَجّدة من الدّاخِل بِقماشٍ ذهبيّ، والوَسائدُ منَ القماشِ نفسه مُوَشّاة بالأحجارِ الكريمَة. وكانَ باقي الموكب على الجمالِ نفسه. وعندَ قدوم نجمة الجمال وَإخوتها، سُرَّ الملك وأتى لاستقبالِهم معَ جميع أفرادِ حاشيته عندَ أعلى الدّرَج. وَكانَ في حوزتهم التفّاحَة المغنيّة، التي راحت تُغنّي صادحةً بأنغام رائِعَة، والماء الرّاقص الذي شرعَ بالرّقص، والعصفور الأخضر الصّغير النّاطق بكلّ الأسرار، الذي راح يتكلّم بأفضل منَ العَرّافين. انحَنوا أربَعَتهم حتّى رُكْبَتَي الملك ثمّ أمسكوا بيَدِهِ وقبّلوها باحترامٍ وحَنان. وقبّلَهم بدوره قائلاً لهم:

- أنا ممتنّ لكم أيّها الغرباء اللّطفاء لِمَجيئِكم اليوم: إنّ حضورَكم يَسُرّني كثيراً.

أنهى كلماته هذه واصطحبهم إلى قاعة استقبال كبيرة حيث كان الموسيقيّون يَعْزِفونَ على جميع أنواعِ الآلات، وامتدّت المآدِب حافلة بِكلِّ ما لَذّ وَطاب.

جاءَت والدة الملك برفقة كِنّتها القادمة وزوجة الأميرال صهباء وجميع سيّدات القصر، وبينهنّ الملكة التّعيسَة الموثقة إلى عنقها برسن

طويل منَ الجِلدِ وَخلفها الكِلاب الثلاثة الموثقة بالطّريقة نفسها. واقتيدَت إلى منتصفِ قاعة الاستقبال حيث كان هناكَ مَرجَل مليء بالعظام وباللّحم الفاسد أمَرَت والدة الملك بِوَضْعِه لِعَشائهم.

عندما رأت نجمَة الجمال والأمراء تعاسة تلك المرأة، انهالَت الدّموع من أعينِهم مع أنّهم لا يَعرِفونها، إمّا لأنّ انقلابَ حَظّ أمجاد العالَم أثّرَ فيهم وإمّا لأنّ رابطَ الدّم حرّكَ عاطفتهم. ولكن ماذا كانت حال والدة الملك الشّريرة عندَما رأت عودة الأمراء التي لم تكن تتوَقّعها والمُعاكِسَة لِخططها؟ ألقت نظرَة مسعورَة على الوصيفة بهتان التي كانت جلّ أمانيها أن تنشَقّ الأرض وتبْتلَعَها.

قدّمَ الملك الأطفالَ الحِسانَ إلى والِدَته قائلاً لها ألف شيءٍ رائع عنهم. وبالرّغم منَ القلقِ الذي تَمَلّكَها تحَدّثت إليهم بِوَجهٍ باسِمٍ ورَمَقتهم بِنَظراتٍ لطيفةٍ كما لو أنّها كانت تستلطفهم، لأنّ التصنّعَ والكذبَ كانا شائعين منذ ذلكَ الوقت. وكانت الوَليمَة مُبهِجة بالرّغم من أنّ الملك كان متألّماً لِرؤية زوجته تأكل مع جِراء الكلاب وكأنّهاَ أحقر الكائنات. لكنّه إذ صمّمَ على إرضاءِ والِدَته التي أجبرَته على الزّواج من جديد سمَحَ لها بأن تأمُرَ بكلّ شيء.

عندَ نهايَة المأدبة، وجّهَ الملك الكلام لِنجمة الجمال فقال:

- أعرف أنّكِ تملِكينَ ثلاثة كنوزٍ عجيبة أهنّئكِ عليها وأتوسّل إليكِ أن تُخبِرينا كلّ ما توجّبَ فعلُهُ للحصولِ عليها.

قالت:

- سَمْعاً وطاعة يا مولاي. قيلَ لي إنّ الماءَ الرّاقص سوف يجعلني جميلة وإنّ التفاحَة التي تغنّي سوفَ تُمدّني بالذّكاء. أردت الحصول عليهما لهذَينِ السّبَبَين. أمّا العصفور الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ الأسرار فالسّبب الذي دَعاني للحصولِ عليه مختلف: ذلكَ أنّنا لا

نعرِف شيئاً عن وِلادَتِنا المَشؤومَة. نحن أولاد تخلّى عنّا أهلنا ولا نعرِف أحَداً منهم. فأمِلتُ أن يُنَبّئنا هذا العصفور العجيب عن أمرٍ يشغل بالنا ليلاً ونَهاراً.

أجابَ الملك:

– إذا أرَدْنا أن نَحْتَكِمَ لأصلِكم من هيئَتِكم فَلا بُدَّ أنّ أصلَكم نبيلٌ جدّاً. ولكن قولي لي بصدْقٍ مَن أنتم؟

قالت له:

– يا مولاي، أنا وإخوَتي أرْجأنا أن نسألَ العصفور الأخضر الصّغير حتّى عودَتِنا. ولدى وصولِنا، تلقّينا أوامرك بالمجيء لحضور زفافك. كلّ ما استطعتُ أن أفعلَه هو أن أحْمِلَ إليكِ هذه الطُّرَفَ الثّلاثَ لِتسلِيتك.

هتف الملك:

– أنا مسرور جدّاً. لا نُرْجِئَنّ هذا الأمرَ الظّريف.

قالت والدة الملك غاضبةً:

– أنتَ تستمتعُ بِكلّ التّفاهات التي تُعرَضُ عليك. إنّهم مسوخٌ جاؤوا في صحبة طرائفهم! الحقّ إنّ الأسماء وحدَها تدلّ على أنْ ليس هناك ما هو أكثر سخفاً. وأنا لا يرضيني أن يتمكّن غرباء ينتمون بكلّ وضوحٍ إلى عامّة الشّعب من تضليلك. ما هذه إلاّ ألاعيب من باب الشعوَذَة والتَحايُل. ولولاك لَما أُعطِي لهم شرَف الجلوسِ إلى مائِدَتي.

عندَما سمِعَت نجمَة الجَمال وإخوَتها كلام الملكة الأمّ اعترى وجوههم اليأس والحيرَة ولم يعودوا يَعرِفونَ ماذا يفعَلونَ إزاء تلك الإهانة التي وُجّهت إليهم على مرأى من أفرادِ الحاشيَة كلّهم. لكنّ الملك أجابَ والِدَته أنّ ما فعلتْه مُهين ومعيب وتوسّلَ إلى الأولادِ ألاّ يعيروا الأمر اهتماماً ومَدّ لهم يَدَه علامَة على صداقته. أخذت نجمَة

الجمال طستاً منَ البلّورِ الصّخريّ وسكبَت فيه الماءَ الرّاقص كلّه، وللحال شوهِدَ ذلك الماء يتحرّك ويقفز وفقَ الإيقاع ويروحُ ويجيء ويرتفع مثلَ بحرٍ صغيرٍ هائج ويتلوّنُ بألفِ لونٍ ويُحرّك طستَ البلورِ على طول المأدبةِ أمام الملك. ثمّ طار منه بعض الرّذاذِ ملامِسَاً وجهَ قائدِ الحرسِ الذي يَدين له أولئك الأولاد بِمساعدَتهم لدى وصولهم إلى البلاد. كان رجلاً يتحلّى بفضائلَ نادِرة ندرة قباحَته: لا بَل إنّه كان أعْوَر. ما إن لامَسَه الماء حتّى أصبَحَ جميلاً حتّى لَيستحيل التعرّف إليه، وشُفِيَت عينُه. كان الملك يحبّه كثيراً فَسُرّ أشدّ السّرور لِما حصَلَ له بِقَدرِ ما استاءَت والدته الملكة لأنّها لم تكن تطيق سَماعَ التّصفيقِ الذي قوبِلَ بهِ الأمراء. وبعدَ أن تلاشت الضجّة وضعت نجمة الجمالِ على الماء الراقص التفاحةَ التي تغنّي والمصنوعة من ياقوتة واحدةٍ والمتوّجَة بالألماسِ مع غصنِها العنبريّ؛ فبدأت التفّاحة تعزف موسيقى رائعة ومتناسِقة تُوازي عزف مائة موسيقيّ. ابتهجَ الملك لذلكَ مع كلّ أفرادِ حاشِيته. ثمّ أخرجَت نجمة الجمالِ من كمّها قفصاً ذهبيّاً صغيراً مُتقنَ الصّنع كانَ فيه العصفور الصّغير الأخضر النّاطق بكلّ سرّ. لم يكن ذلكَ العصفور يتغذّى إلاّ من مسحوق الألماس، ولا يشرَب إلاّ ماءَ اللؤلؤ المقطّر. وضعته برفقٍ على التفاحة التي صَمَتت احتراماً له لكي تفسِح له المجالَ للكلام. كانت ريشاته في غاية النعومَة حتى أنّها تهتزّ إذا ما أغمضنا أعيُننا وفتحناها بالقرب منه؛ وكانت متلوّنة بكلّ درجات الأخضر. توجّه إلى الملك وسأله عمّا يريد معرفته.

أجاب الملك:

- نتمَنّى أن نعرِف جميعاً مَن هم هؤلاء الأولاد: هذه الفتاة الجميلة وهؤلاءِ الفرسان الثلاثة.

أجاب العصفور الأخضر بصوتٍ قويّ واضح:

- آه أيّها الملك! إنّها ابنتك واثنانِ من هؤلاء الأمراء هما ابناك والثالث الذي يُدعى عزيز هوَ ابن أخيك.

وهنا روى بكلّ فَصاحَةٍ القصّةَ كلّها من دون أن يُهمِلَ أدنى تفصيل.

انْهارَ الملك باكِياً والملكة شقراء المَحزونَة تركَت مرْجلَها وعِظامَها وكلابَها واقتربتْ بهدوء. بكت فرَحاً، بكت حبّاً لِزوجِها وأولادِها: إذ كيف لها أن تشكَّ بصحّة هذه القصّة عندَما رأت جميع العلاماتِ الفارِقَة التي تسمَح لها بالتعرّف إليهم؟ نهضَ الأمراء الثلاثة ونجمَة الجمالِ عندَ نهاية القصّة وجاؤوا للارتماءِ أمامَ قدَمَي الملك وقبّلوا ركبتيه وقبّلوا يدَيهِ ومدّ لهم ذراعَيه وعانقهم وهو يشدّهم إلى صدره. ولم تكن تُسمَع إلاّ التنهّدات ممزوجَةً بِصَيحاتِ الفرَح. نهضَ الملك ورأى الملكة زوجَته التي ظلّت تقف مُرتَعِدَةً بالقربِ منَ الحائطِ مهانةً ذليلةً فتوجّهَ نحوَها، وداعَبها مقرّبا لها الكنبَةَ لِتَجلِسَ بالقربِ منه وأرغمَها على الجلوسِ عليها.

وقبّل أولادُها قدَمَيها ويدَيها ألف مرّة. تصعب رؤية مشهد مؤثّر ومثير للعَطفِ كذلك المشهد. وكلٌّ راحَ يبكي في سرِّهِ رافعاً يديه وعينيهِ إلى السّماء لِيَشكرها على أنّها أجْلت مثلَ تلك الحقائق الهامّة الغامِضة. وشكَرَ الملكُ الأميرَةَ التي كانت تنوي الزّواجَ به وتركَ لها مجموعة كبيرة منَ الأحجارِ الكريمة. ولكنْ أيّ عقابٍ مُشينٍ كان سيُنزلُ بالملكة الأم وزوجة الأميرال والوصيفة بهتان لَو أنّه انصاعَ لِضغينته؟ أخذ يرعد ويزبد غضباً. وعندَئذٍ استحلَفته زوجته الملكة الشّهمَة وأولادها وعزيز أن يهدأ وأن يُنزلَ بهنّ حُكْماً يكون قدوة للآخرين أكثر منه قاسِياً. أمَرَ بِسَجنِ والدته الملكة في أحدِ الأبراج.

أمّا زوجَة الأميرال وبهتان فقد رَماهما في مخبأٍ قاتم رطب حيث كانتا تأكلان مع الجراء الثلاثة التي، لِعَدَم رؤيتِها سيّدتَها اللّطيفة، أخذت تعضّهما في كلّ لحظة. وهناكَ أنهيَتا حَياتهما التي كانت طويلة بما يكفي لتسمَحَ لهما بالنّدم على كلّ الجرائم التي اقترفتاها.

ما إن اقتيدَتَ الملكة الأم وزوجَة الأميرال وبهتان، كلٌّ إلى المَكانِ الذي عَيّنَه الملك، حتّى عاوَدَ الموسيقيّون الغناءَ والعزفَ على آلاتِهم. كانت الفرْحَة لا مَثيلَ لها. وشعرَت نجمة الجمالِ وعزيز بالفرحَة أكثر منَ الحاضرينَ مجتمعين لأنّهما ألفَيا نفسَيهما على وَشَكِ الزّواج. وبالفعل، وجد الملك أنّ ابن أخيه كان هو الأجمل والأذكى بين جميع شبّان القصر، فقال له إنّه لا يريد أن يمُرّ يوم بهذه الأهميّة دون زفاف وإنّه يُعطيه يد ابنته. طارَ الأمير فَرَحاً وارتمى عندَ قدَمَيهِ وشعرَت نجمة الجمالِ برضاً غامر.

ولكنّ الأميرة العجوز، والدة الملكة، التي كانت تعيش في كنَفِ الوحدة منذ سنواتٍ طويلة، توجّب عليها أن تُشاركَ الجموع فرحتها. فجأةً دخلت عليها الجنيّة القصيرَة القامَة نفسها التي أتت لِتناولِ الغداءِ عندَها قبل سنواتٍ واستقبلتها أفضلَ استقبال، ورَوَت لها ما حَدَثَ في القصر.

وأردَفت:

- لنذهبْ إلى العرس، سأخبركِ أثناءَ الطّريقِ كيف سهِرْتُ على رِعاية أفراد أسرَتك.

صَعَدَت الأميرة الممتنّة في عرَبَتِها التي كانت تلمع بالذّهب وباللاّزورد، تتقدّمها الأبواق والطّبول، ويتبَعها ستّمائة حارس شخصيّ بدَوا منَ الأشراف. روَت للأميرة كلّ حكاية أحفادِها وقالت لها إنّها لم تتخلّ عنهم قطّ وإنّها، سواء في هيئة حوريّة أو يمامَة،

أوْلَتهم رِعايتها بألفِ طريقة.

وأضافَت:

- هل رأيتِ؟ لا يضيع المعروف أبداً.

أرادَت الأميرة الطيّبة أن تقبّل في كلّ دقيقة يدَي الجنيّة لِتُظهِرَ لها امتنانَها. لم تجد عبارات تصفُ بها فرحَها. وأخيراً وصَلتا. استقبلهما الملك بحرارةٍ وودّ كبيرَين. وهُرِعَت الملكة شقراء والأولاد الحِسان لإظهارِ الودّ لتلك المرأة الوقور. وعندَما عرفوا كلّ ما فعلَته الجنيّة لهم وأنّها اتّخَذت هيئةَ اليمامَة لِتُرْشِدَهم، فاضوا بِعِبارات الشّكرِ والامتنان. ولكي ينعمَ المَلك بكلّ الرّضا والسّرور، أخبَرَته الجنيّة أنّ حماتَه التي اعتبَرَها دوماً فلاحَة فقيرَة كانت في الحقيقة قد وُلِدَت ملكةً حاكِمَة. ربّما كان ذلك هو الشّيء الوحيد الذي كان ينقص كي تكتملَ سعادَة ذلك الملك. واختُتِمَ الحَفل بزفاف نجمَة الجمال والأمير عزيز. وأُرسِلَ في طلبِ القرصانِ وزوجته لِمُكافأتهما على التربية النّبيلة التي منَحاها للأطفال. وأخيراً، وبعدَ مشقّات كثيرَة، كانَ الجميع في تمام الرّضا.

الحبّ، وَلْيَمُتِ الرّقباءُ حسَداً وقهراً،
هوَ أصلُ المجد
فهوَ يُحرّكُ القلوبَ الشّهِمَة
لكي تتحَدّى الخطرَ وتسعى إلى النّصر
الحبّ هو الذي خلّدَ في العالِم كلّه
ذكرى الأمير عزيز
وهوَ الذي جعله يُحرْزُ شتّى المآثرَ
التي زيّنتْ قصّته.

ما إن يتَغزّل رجلٌ بأنثى
عليه أن يستعدّ لإرضاءِ جميعَ نزَواتِها
لكنّ القلبَ الذي ينشد الحبّ والمجد
لا يخشى أشدّ الأهوال خطراً.

الأمير ذيب

كان يا ما كان[1]، كان هناكَ ملك وملكة يعيشانِ في همّ وغمّ لأنّهما لم يُرزَقا بطفل. لم تعد الملكة يافعَة، معَ أنّها لا تزال جميلة، ولم تعد تجرؤ على أن تَعِدَ نفسَها بأيّ طفل. وذلك كانَ يُشعِرُها بأسىً بالغ. كانت على أرقٍ دائم، والحسرة لا تفارقها، تسأل باستمرارٍ معونة السّماء والجنيّات جميعاً.

وذات يوم ذهبت تتنزّه في غابة صغيرة. قطَفَت بضعَ بنفسَجاتٍ وورودٍ، وأيضاً حبّات قليلة من الفراولة. ولكن ما إن تناوَلت بعضاً منها حتّى تمَلّكَها نُعاسٌ شديدٌ فرَقَدَت عند أسفلِ شجرَةٍ واسترسَلت في نوم عَميق.

حَلَمَت، أثناءَ نومِها بأنّها تَرى ثلاث جنيّاتٍ يَعْبُرْنَ الفضاء ويتوَقّفْنَ فوقَ رأسِها.

نظَرت إليها الأولى بشفقَةٍ وقالت:

- انْظرْا: تلكَ ملكة لطيفة. فلنؤدِّ لها خدْمَة جليلة فنَهَبَها طفلاً.

قالت الثّانية:

- بكلّ سرور، هَبيها واحِداً بما أنّكِ أختنا البِكْر.

فأردفتِ الأولى:

- أهَبها طفلاً ذكَراً، الأجملَ والألطَفَ والأحبَّ في العالم.

وأجابت الأخرى:

- وأنا، سأجعلها تَرى هذا الابن موفّقاً في مَشاريعه، ظافراً على

---

(1) تتضمّن ترجمة الحكاية التّالية تصرّفاً بسيطاً يتمثّل في اختيار اسم بطلها. انظر الفقرة المخصّصة لترجمة أسماء الأعلام في تمهيد هذا الكتاب.

الدّوام، مليئاً بالذّكاء ومتسلّحاً بالعَدل.

وجاءَ دور الثّالثة لكي تهبَها شيئاً ما فانفجرَت ضاحِكَة وَغَمْغَمَت شيئاً بينَ أسنانِها لكنّ الملكة لم تفهم حرفاً ممّا قالته. ذاكَ هوَ الحلم الذي رأته. حينَ أفاقت منه بعدَ لَحَظات، لم ترَ شيئاً لا في الفضاءِ ولا في الحَديقة. قالت في نفسها:

- يا حسرَة، ليس لديّ حظّ ميمون ولا آمل أن يتحقّق حلمي: لكن كم سيَكون شكري عظيماً للسّماء والجنيّات الخيّرات لو كانَ لديّ طفل!

ثمّ قطفَت الأزهار من جديدٍ وعادَت إلى القصر أكثر فرَحاً مما هيَ في العادة. لاحَظَ الملك ذلك وتوسّلِ إليها أن تفْشِيَ له سِرَّ تلك السّعادَة المفاجئة. فامتنَعَت فازدادَ إلحاحاً.

عندئذٍ قالت له:

- ليسَ الأمر يستحقّ فضولك. إنّه مجرّد حُلمٍ ولكنْ لا تلمْني إذا أظهرتُ بعض الضعف وآمنْتُ به قليلاً.

روَت له أنّها رأت أثناءَ نومِها ثلاث جنيّاتٍ في الفضاء وقد تحَدّثنَ إليها لكنّ الثّالثة بينَهنّ انفجَرَت ضاحِكَةً، دونَ أن تستطيع هي سَماعَ ما كانت تتمتِم به.

قال الملك:

- هذا الحلم يَمُدّني مثلكِ بالسّرور. ولكنّي قلِق من هذه الجنيّة المرحة لأنّ أغلب الجنيّات ماكِرات وعندما يَضحَكنَ فهذا لا يُعتبَر فألاً حسّناً.

أجابت الملكة:

- بالنسبة إليّ، أعتقد أنّ هذا لا يعني لا خيراً وَلا شرّاً. فِكْري منشغلٌ بالرّغبة في إنجابِ طفل ويختلق بهذا الخصوص أوْهاماً

وأوْهاماً. تُرى ماذا سيَحدُث في حالِ تحقّق ما كنت أحلم به؟ هل سيكون ابني متمتّعاً بكلّ ما هوَ خيرٌ له؟ عسى السّماء أن تُنْعِمَ عليّ بهذه التعزية.

وأخذت في البكاء. طمْأنَها زوجُها أنّها غاليَة جدّاً عليه حتى لو لم يُرزقا بطفل.

وبعدَ أشهر عديدة، لاحَظت الملكة أنّها حبلى. وأُعلِنَ النبأ في أرجاء المملكة كلّها لكي يتمنّى لها الرّعايا خلاصها بالسّلامَة. وعلى جميع المذابِح أُحْرِقَت القرابين لكائنات السّماء لكي تحفَظ لها ذلك الكنز الثّمينَ. واجتمعَت الولايات وانتدَبَت موفدين للذّهاب إلى المملكة وتهنئة جلالتيهما؛ كما ذهب جميع الأمراء ذوي القربى، والأميرات، والسّفَراء لِحضورِ ولادَة الملكة. وكانَ جِهاز ذلك الوليد الغالي ذا جمالٍ رائع؛ وجيء بمرضعَة ممتازَة. ولكنّ كلّ تلك الفرحَة الشّاملة تحوّلت إلى حزن عندما وُلِدَ بدَلاً من أميرٍ جميل، ذئبٌ صغير! أطلق الجميع صرَخاتٍ أحْدثَت في نفْسِ الملكةِ رُعْباً كبيراً. سألت عن سبب ذلك الصّراخ ولم يَقل لها أحدَ شيئاً لِئلاّ تقضي نَحْبَها ألماً. على العَكس، أكّدوا لها أنّها باتَت أمّاً لِصَبيٍّ جميل وأنّ عليها أن تبتَهِجَ وتَفرَح.

ولكنّ الملك توَلاّه حُزن لا يوصَف. أمَرَهم بأن يوضعَ الذّئبُ في كيسٍ وَيُرْمى في قَعْرِ البحرِ لكي يمحو نهائيّاً تلك الفكرة البغيضة المحزِنَة من رأسه. لكنّه ما لبث أن أشفقَ عليه مفكّراً أنّه ليسَ منَ العدلِ أن يقوم بتلك الفعلة قبلَ أن يستشير الملكة. فأمَرَ بِتَغْذِيَتِهِ ولم يذكرْ شيئاً أمام زوجته بانتظار أن تتعافى كليّاً لئلاّ يُميتَها حزنُها. كانت تطلب في كلّ يوم أن تَرى ابنها فيُقال لها إنّه لا يزال طَرِيَّ العود ويُستحسن عدَم نَقلِه إلى غرفتها. وذلك كان يهدّئ روْعَها.

أمّا الصّغير ذيب (وقد صار هذا هو اسمه) فقد كان يتغذّى بِصَفَتِهِ ذئباً تَحْدوه رغبة جامحَة في الحَياة. توجّبَ أن تُكرَّس له ستُّ حاضنات. وهؤلاء كُنَّ يُقدِّمْنَ له في كلِّ الأوقات أطعمةً طيّبةً ومَشروباتٍ مُنعِشة. والملكة المتلهّفة لِمُداعَبَة ولدها قالت للملك إنّها باتت في حالٍ جيّدَة وتستطيع الذّهابَ بنفسِها حتّى غرفته وإنّها لم يعد بإمكانها العيش دون أن تَرى ابنها. أطلق الملك تنهيدةً أليمَةً وأمَرَ بأن يؤتى بِوَريثِ العَرش. كانَ مقمّطاً كطفل في أقمِطة منَ الدّيباج المذهّب. أخذته الملكة بين ذراعَيها ورَفعت الدّانتيلا المُكَشكَشة التي تغطّي رأسَه. وَيلٌ لها! ماذا صارَ بِحالِها لدى رؤيتِها ذلك المنظر المشؤوم؟ أحسّت أنّها على وشكِ الموت. وَرَمَتِ الملكَ بِنظراتٍ حزينَة عاجِزَة عن الكَلام.

قال لها:

- لا تحزني أيّتها الملكة. لا أُحمّلك أيّ خطأ في المصيبة التي حَلّت بنا. إنّ ذلكَ صنيعَة تلك الجنيّة الشّريرَة. إذا وافقتِ فسأنَفّذ الخطّة الأولى التي خطرَت لي وهي إغراق هذا المسخ الصّغير.

قالت له:

- آه يا مولاي. لا تستشرْني في هذا الفعل الشّنيع، فأنا والدَة هذا الذّئب العَديم الحظ. أشعر أنّ قلبي يُرفق به. رُحماك! دعْنا لا نتسبّبِ له بأيّ أذى فهوَ تكفيه مصيبَة أنّه وُلِدَ ذئباً بَدَلَ أن يولَدَ إنساناً.

أثّرَ بكاؤها في الملك أيّما تأثير، وكذلك الحججُ التي قدّمتها فوَعَدَها بأن يفعلَ ما تتمنّاه. وبدأت السّيّدات اللواتي كنّ يُرَبّينَ ذيب الصّغيرَ يُعْنَينَ به أكثر بعد أن عامَلنَه حتّى ذلك الوقت كَحَيوانٍ ملعونٍ مُعَدٍّ لأن يَكون عمّا قريبٍ طعاماً للأسماك. صحيح أنّه بالرّغم من قباحَتِهِ، كان له عينان تلفتانِ الأنظار مفعمَتان بالذّكاء. وجَرى

تَعْويده على أن يَمُدّ قائمَتَه الصّغيرَة لِمَن يُلقونَ عليه التحيّة وَوُضِعَت لهُ أساوِرُ منَ الألماس، وكانَ يقومُ بكلّ تلكَ الحَركات بظرف كبير.

لم تستطعِ الملكة الامتناعَ عن حبّه. كانت تحمِله غالباً بين ذِراعَيها وتجِده جميلاً في سريرَةِ قلبِها، لأنّها لم تكن تجرؤ على المجاهَرَة بذلكَ خشيَةَ أن تُعْتَبَرَ مجنونة. لكنّها كانت تعترِف لِصديقاتها أنّ ابنَها يبدو لها لطيفاً، وكانت تزيّنه بِشرائطَ ورديّة لا حصرَ لها. ثُقِبت أذناه، وَزُوِّدَ بِرباطٍ يُمسكُ بهِ لتَعليمِه المشيَ على قائمَتيهِ الخلفيّتين، وَأُلْبِسَ حذاءً وجوارِبَ حريرِيّة مثبّتَة إلى الرّكبتين لتبدو ساقاه أطْوَل.

وكان يُضرَب بالسّوط عندما يعوي كالذّئب، وهكَذا جُرِّد، قدْرَ الإمكانِ، منَ العاداتِ الذّئبيّة.

وذات مساء، كانت الملكة تتنزّه وهيَ تَحْمِله على كتِفيها. جاءَت إلى الشّجرة نفسها التي كانت قد نامَت تحتَها وحلمَت في ظلّها بكلّ ما أخبرْتُه سالِفاً. استحضرت ذكرى ذلك الحلم بقوّة وقالت:

- هذا هوَ إذاً الأمير الرّائع الجَمال، الكامل، السّعيد الحظّ الذي كان عليّ أن أنجبَه! أيّها الحلم المخادع! أيّتها الرؤيا المشؤومَة! أيّتها الجنيّات، ماذا فعَلْتُ لَكُنَّ حتّى تسْخرنَ منّي على هذا النّحو؟

وإذ تمْتَمتْ بهذه الكلمات رأت سندِيانَة أمامها تكبُرُ فجأةً وتخرج منها سيّدَة متزَيّنَة بأجمل حلّة. نظرَتْ إليها السيّدة بودٍّ وهيَ تقول لها:

- لا تحزَني أيّتها الملكة الكبيرة لأنّكِ أنجبتِ ذئباً. أؤكّد لكِ أنّه سَيَأتي وقتٌ تجدينَه فيه جَديراً بالحبّ.

تعرّفَت إليها الملكة فهيَ إحدى الجنيّات الثّلاث اللّواتي مَرَرْنَ في الفضاء أثناءَ نوْمِها وتوَقّفْنَ متَمَنّياتٍ لها أن تُرْزَق بِوَلَد.

أجابت:

- يَصعب عليّ أن أصَدّقَكِ يا سيّدَتي. فَمَهْما يَكن ابني ذَكِيّاً فمَن ذا

الذي يَستَطيع أن يحبّه وهوَ على هذه الهيئة؟

فأجابتها الجنيّة مرّة أخرى:

- لا تحزَني أيّتها الملكة الكبيرة لأنّكِ أنجبتِ ذئباً، أؤكّد لكِ أنّه سيأتي وقت تجِدينَه فيه جديراً بالحبّ.

ودَخلت من جديد إلى الشجرة التي غارَت في الأرض لكَأنّها لم تكن موجودَة في ذلك المكان.

دُهِشت الملكة لهذه الرؤيا الجديدة وسُرّت لأن تهتَمّ الجنيّات بجلالَة الأمير ابنها. ثمّ عادت بسرعة إلى القصر لكي تتحدّث معَ الملك عن الأمر. لكنّه فكّرَ أنّها تخيّلت تلك الوسيلة لكي تجِدَ ابنَها أقلّ قباحَة.

قالت له:

- أرى من سيمائكَ أنّك لا تُصدّقني. ولكن الأمر الذي أخبرتكَ إيّاه للتوّ حقيقيّ، صدّقني.

قال الملك:

- إنّه لأمرٌ محزن أن يحتمل المرء سخريَة الجنيّات. ماذا بوسعهنّ أن يفعلن لِيَجعَلْنَ وَلَدَنا شيئاً آخرَ غيرَ ذئب؟ لا أفكّر في الأمر إلاّ وأجد نفسي رازحاً تحتَ وطأة الألم.

انصرَفت الملكة أكثر حزناً ممّا كانت عليه. ظنّت أنّ وعودَ الجنيّة سوف تخفّف من حزنِ الملك. ومَع ذلكَ لم يبدُ عليه أنّه كان يستمعَ إليها. انصرَفَت مصمّمَةً كلّ التّصميم على ألاّ تقولَ له منذ ذلك اليوم فصاعداً شيئاً عن ابنهما وأن تترك للسّماء أمْرَ مواساة زوجِها.

أخذ ذيب يتكلّم كما يفعل جميع الأطفال. كان يتمتم قليلاً وكانت الملكة تستمتع بسَماعه رغم خشيتها من ألاّ يكون منضبطاً في كلامه. أصبحَ ضخمَ الجثّة ويمشي على قائمَتيهِ الخلفيّتين. كان يرتدي سترات

طويلة تكسو ساقيه، وقلنسوَة على الطّريقة الانكليزيّة منَ المُخمَل الأسود لكي تغطّي له رأسَه وأذنَيه وجزءاً من خَطمه. كان طويل الأنياب، منتَفِش الوبَر، فخورَ النظْرَة، ومن حضوره تنبعث سَطوَة مُطلقة. كان يتناوَل طعامَه في معلَف من ذهب حيث يُحَضّر له الكمأ والبلّوطَ والفطر والعشب. وكانت تتمّ العناية بنظافته وتهذيبه. فُطِرَ على ذكاءٍ عالٍ وشجاعَةٍ لا تُقْهَر. وكان الملك يعرف طِباعَه وبدأ يحبّه أكثرَ ممّا فَعَلَ حتّى ذلك الحين. جاء له بمعلّمينَ أكفّاء لكي يُلقّنوه كلَّ ما يستطيعونَه. لم يكن ينجح في أداءِ الرّقصاتِ المتّصفَة بِحَرَكاتٍ معقّدَة؛ أمّا في رقصة الرِّجل والرّقصَة الثّلاثيّة[1] اللّتين يتطلّب أداؤهما سرعَةً وخفّةً فكانَ مُدهِشاً. وفي ما يَخُصّ الآلات الموسيقيّة، كان يعرِف أنّ القيثارَة والونّ[2] لا يُلائمانه، ولكنّه كان يَهوى الغيتار ويعزِف على المزمار بإتقان. كان يصعد على ظهر الحِصان بِمهارة ورَشاقة عجيبتَين، ولا يمرّ يوم إلاّ ويذهب فيه إلى الصّيد منقضّاً، بأسنانه أحياناً، على الوحوش الأكثر ضراوَة وخطورَة. كانَ مدَرّبوه يَجِدونَ لدَيه ذكاءً متوَقّداً وقدرَة مذْهشة متزايدة على فهم العلوم. لكنّه شعر بِمرارَة إزاء قباحَة هيئَتِهِ الذّئبيّة، وما تُثيرُها منَ سخرية فتَجَنّبَ الظّهورَ في المحافل العامّة.

أمضى حَياتَه في لا مبالاةٍ هانئة إلى أن كان ذات يوم عند الملكة ودخلت عليها سيّدَة ذات مرأىً نَضِرٍ، متبوعَة بثلاث فتيَاتٍ رائعات الجمال. ارتمَت السيّدة عندَ قدَمَيِ جلالتها وتوسّلتْ إليها لكي تستقبلَها في قصرِها، لأنّ وفاة زوجِها ومصائب كبيرة أحالَتها إلى الفقرِ المُدقِع. وأضَافت أنّه لا يخفى على الملكة أصلُها النّبيلُ، وكانت

---

(1) الرّقصة الثلاثيّة: رقصَة من رقصات القرن السّابع عشر بثلاث حركات.

(2) الونّ: صنج يُضرب بالأصابع.

تأمَل أن تشفقَ عليها فعجلة الدهر دارت وجعلتها في ذلك الوضع المُزري. عندئذٍ رَقّ قلب الملكة لرُؤية المرأة وبناتها مُرتَمِياتٍ عندَ قدَمَيها فقبّلَتهنّ وقالت لهنّ بأنّها تستقبلهنّ بكاملِ السّرور. كانت الابنة البِكر تدعى إيسهان والثّانية زيلونيد والصّغرى مارتيزي. ووعَدَتهنّ الملكة بأنها سوف تعتني بهنّ، وقوّت من عزيمة الوالدة ثمّ أضافت أنّ بإمكانها الاعتماد على صداقَتِها، والبقاء في القصرِ مع بناتها حيث سيُحَظْنَ بكبير الرّعاية والاهتمام. انسَحَرَت الأمّ بسَخاءِ الملكة وطيبتِها فقبّلت يديها ألف مرّة وغمرها شعور عارم بالطّمأنينة لم تعرفْه منذ أمَدٍ بعيد.

شاعَ خبر جمال إيسهان في القصر وفُتِن بها فارسٌ شابٌّ يُدعى كوريدون وكان جميلاً مُشرقاً مثلها. وأحسّا في الوقت نفسه بانجذاب سريّ أحدهما تجاه الآخر. كان الفارس وَدوداً إلى حَدٍّ بعيد، ومتألّقاً، ومحبوباً من الجميع. وبما أنّ هذه العلاقة كانت تعود بالفائدة على إيسهان، رنَتِ الملكة راضيةً إلى الاهتمامَ الذي يوليه الفارس لإيسهان وكيف أنّها كانت تُبادِله الاهتمام نفسه. وأخيراً بدأ يَجري الكلامُ عن زواجهما، وأنّهما مخلوقَانِ أحدهما للآخر. ولم يكن كوريدون يتوانى عن إقامة الحفلات الرّاقيَة وإظهار كلّ أمارات المودّة والحَنان التي يَهواها قلبٌ مَسّه الحبّ.

إلا أنّ الصبيّ ذيب أُعجِبَ بإيسهان ما إن رآها لكنّه لم يجرؤ على أن يبوحَ لها بحبّه. قال وهوَ ينظر إلى نفسه في المرآة:

- آهٍ آهٍ منك يا ذيب، هل يُعقل وأنت بهذه الهيئة الشّنيعَة أن تجرؤ على الأمل بأن تبادلَكَ إيسهان الجميلة الحبَّ؟ يجب أن تقتلعَ منكَ هذا الشّعور لأنّه من بينِ المصائب جميعاً تبقى المصيبَة الكبرى أن تُحِبّ دونَ أن تكون مَحبوباً.

كان يَتعمّد تجنّب رؤيتَها، وبما أنّه لم يكن يفكّر إلاّ بها فقد غرقَ في كآبةٍ مرعبَة: أصبحَ نَحيلاً حتّى بانَت عِظامه؛ ولكنّ قلقه تفاقمَ عندَما علمَ أنّ كوريدون يَسعى عَلناً للزّواج بإيسمان، وأنّها تُبْدي له الكثيرَ من التّقدير، وأنّ الملك والملكة سيَحتفلان بزفافهما في وقتٍ قريب.

لدى سَماعه هذه الأخبار، شعرَ أنّ حبّه يزداد وأنّ أمَلَه يتناقص: بَدا له أنّ إثارة إعجاب إيسمان غير المباليَة كانت أمراً صعباً، لكنْ أكثر صعوبة من ذلك إثارة إعجاب إيسمان المقدَّرة لكوريدون. وأدركَ أيضاً أنّ صمْتَه يوشك أن يتسبّب بهلاكه. وأخذ يبحث عن فرصة ملائمة ليُحَدّثَ إيسمان عن مشاعره، إلى أنْ رآها ذات يوم، جالسَة تحت شجرَة جميلة تغنّي بعض الكلمات التي ألّفَها حبيبها لها، فاقتربَ منها والانفعال يَهُزّه، ثمّ جلسَ قربَها وسألها ما إذا كان صحيحاً ما يُقال عن زواجها الوَشيك بكوريدون. أجابته إنّ الملكة أمَرَتْها بأن تستجيبَ لاهتمامه وإنّه يجب أن يَسْتتبعَ ذلك مشروعُ زواج.

قال لها وهوَ يلطّف صوتَه:

- إيسمان، أنتِ لا تَزالين يافعَة جدّاً. لم يخطر لي أنّهم سيفكّرونَ بتزويجك. لو عرفتُ ذلكَ لاقترَحتُ عليكِ الزّواج بالابنِ الوَحيدِ لملكٍ كبيرٍ يُحبّكِ وسَيكون في غايةِ السّعادَةِ بأن يُسعدك ويتزوّجك.

غمَرَ الشّحوبُ وجهَ إيسمان لدى سماعِها هذه الكلمات. كانت لاحَظَت أنّ ذيب، الذي كانَ بِطَبعِهِ جفولاً، يتحدّث إليها بمتعة، ويُعْطيها كلّ الكمأ الذي كان يعثر عليه في الغابة ويقدّم لها الأزهار التي كانت تُزَيّن قبّعته عادةً. خافَت خوفاً عَظيماً من أن يكونَ هوَ الأمير الذي يُحَدّثها عنه. فأجابته:

- مولاي، أنا مَسرورَة جدّاً لأنّي أجهَل مشاعرَ ابن هذا الملك

العظيم. ربّما كانت عائلتي التي تطمَح إلى الجاه أكثرَ منّي ستجبرُني على الزّواج به. ولكنّي أسِرّ لكَ أنّ قلبي مقدّرٌ لِكوريدون ولن يتغيّر أبداً.

أجابها:

- ماذا تقولينَ! ترفضينَ أميراً مُتَوّجاً يفعلُ ما بِوسعِه لِيَروقَ لك؟

قالت له:

- ليسَ هنالكَ شيء إلاّ وأرفضه في سبيل مَن أحبّ لأنّ حبّه أهمّ لي من الطموحِ. وأستَحْلِفك يا سيّدي، بما أنّك تعرِف هذا الأمير، أن تُلزِمَه بأن يترُكَني بِسلام.

فهتفَ ذيب وقد نَفَدَ صَبره:

- آه! يا لكِ من فتاة متهوّرة! تعرفينَ جيّداً الأمير الذي أتحدّث عنه! هيئته لا تَروق لك. لا تريدينَ أنْ تحمِلي اسم «السيّدة ذئبة». لقد تَعَهّدتِ بِحبٍّ أبَديّ لِفارسِكِ. ومع ذلك فَكّري، فكّري بالفرقِ بيني وبينه. صحيحٌ أنّني لستُ أدونيس[1]، لكنّي ذئبٌ مَهيبٌ؛ والجَبَروت يستحقّ بعض التقدير، وهو منبعٌ لمسرّات كثيرة. إيسمان، فكّري في الأمر، لا تُخيّبي أمَلي.

وإذ قال هذه الكلمات، بَدَت عيناه ملْتَهِبَتَينِ واصطكّت أنيابه محْدِثَة صَريراً ارتعَشَت له الفتاة المسكينة.

انصَرَفَ ذيب، وكانت إيسمان في غَمرة الاضطراب؛ راحَت الدّموع تنهمِر من عينيها كالشلاّل. ثمّ وافاها كوريدون. لم يعرِف العاشقان، حتّى ذلك اليوم، إلاّ حبّهما الرقيق المتبادل، ولم يعترض مساره شيء، وكانا يَعِدانِ نفسَيهما بأنّه سيُتَوّجُ بزفافٍ قريب. فَماذا صارَ بِحالِ ذلك العاشق الشابّ عندَما رأى الألم الذي يَعْتَري

(1) أدونيس: هو في الميثولوجيا الإغريقيّة فتىً بالغ الوسامة عشقتْه أفروديت.

عشيقته الجميلة؟ ألَحّ عليها في السؤال. وأخيراً أخبرَتْهُ عن السّبب فأثار ذلك الخبر اضطراباً عارماً في نفسه.

قال لها:

- لستُ قادِراً على أن أبني سَعادَتي على حِسابِ سَعادَتك. يُقدّم إليك عرش وَعليكِ أن تقبَليه.

هتفت:

- أن أقبَلَه! أيتها السّماء الرّحيمة! أنتَ تريدني أن أنساكَ وأتزوّج مسخاً؟ يا للهول! ماذا فعَلتُ لك لتقدّم لي النَصائحَ التي تتنافى والحبَّ الذي يجمع قلبينا؟

أحسّ كوريدون بقلبه منقبضَاً فلم يستطع أن يُجيبَها. لكنّ الدّموعَ التي سالَت من عينيه كانت أصدق تعبيرٍ عمّا يعتمل في نفسه. بادرت إيسمان، وقد آلمها كثيراً سوءُ حَظّهِا العاثر، إلى القول مراراً إنّ حبّها له لن يتغيّر وإنْ تقدّمَ لها جميعُ ملوكِ الأرض. تأثّرَ كوريدون بِوفائها وقال لها مرِاراً أن تترَكَه لألمِهِ القاتل، وأن تقبل العرض الذي يُقدّم لها.

وَفيما كانَ هذا الجَدَل يدور بينَهما، ذهب ذيب إلى غرفة الملكة يقول لها إنّ الأمل بشفائهِ منَ العشقِ الذي يكنّه لإيسمان أرغَمَه على الصّمت؛ عبثاً حارَب شعوره هذا، لكنّها كانت على وشكِ الزّواج، ولذا يشعر بِعَدَم قدرَته على تحمّلِ هذه المُصيبَة، ويرغب في الزّواجِ بها أو الموت. تعجّبَت الملكة كثيراً لِسَماعِها الذّئب يتكلّم عن عشقه.

أجابته:

- هل تفكّر بِما تقوله؟ مَن سيرَغَب بكَ يا بُنيّ وأيّ أطفالٍ تُؤمِّلُ نفسَكَ بهم؟

أجابها:

- إيسمان في غاية الجَمال ولا يُمكِنها أن تنجِبَ أطفالاً قبيحين.
وإذا كانوا يُشبِهونني فإنّي صمّمْتُ على توَلّي أمرِهم، فهذا أفضل من أن أراها بينَ ذراعَي رجلٍ آخر.
أردَفَت الملكة:
- وهل تنبّهْتَ إلى أنّكَ ترغَب في فتاةٍ أصلُها دون أصلك.
أجاب:
- أتحسبين أنّ ملكةً على شيء منَ الرّهافَة تقبل بأن تتزوّج ذئباً تعيساً مثلي؟
أضافَت الملكة:
- أنت مخطئ يا بُنَي. الأميرات يملكنَ أقلّ من سِواهُنّ الحُريّة في الاختيار. سَنَرسم لكَ صوَراً تظهر فيها أجمل من ملاكِ الحبّ نفسه، وعندَما يُعْقد الزّواج وتَصير زوجتك في حَوْزَتِنا، نُرغِمُها على البقاءِ معنا.
قال:
- لستُ قادِراً على القيام بهذه الخدعَة. لا أستطيع أن أجعلَ زوجَتي تعيسَة فهذا يَحمِلني على اليأس.
هتفت الملكة:
- أوَ تَظنّ أنّ تلكَ التي تُريدُها لن تكونَ تعيسَة أيضاً معك؟ مَن يُحبّها جَديرٌ بأن يُحَبّ. وإذا كان الفرقُ فاضِحاً بينَ الملك وَفَرْدٍ من أفرادِ رَعِيّته فإنّ الفرقَ فاضح أيضاً بين ذيب وأجمل رجل في العالم.
أجاب ذيب وَقَد استاءَ منَ الحُججِ التي تُقَدّمُها له الملكة:
- تبّاً لي يا سيّدَتي. ألا يُفترض بكَ أن تهوّني عليَّ مُصيبَتي أكثرَ من أيِّ شخْصٍ آخر: لِماذا ولَدتِني ذئباً؟ ألَيْسَ منَ الظّلمِ أن تَلوميني على أمرٍ لستُ مسبّبَه؟

أضافَت الملكة وقَد رَقّ قلبُها كليّاً:

- لا ألومُكَ على شيء: أريد فقط أن أقول لكَ إن تزوّجْتَ امرأةً لا تُحِبّكَ فستكونُ مُعَذِّبَها وستشقى أنتَ نفسُك: لو عرفتَ كم يتَعَذّب الأزواج من جرّاء هذه الزّيجات المُكْرَهة لَما جازَفت بالقيامِ بهذِهِ الخطوَةِ أبداً: أليس من الأفضل لك أن تبقى وحْدَكَ بِسَلام؟

قال لها:

- يتوجّب عليّ لذلك أن أكون أقلّ عِشقاً يا سيّدَتي. أحبّ إيسمان. إنّها فتاة رقيقة وأظنّ أنّ مُلاطَفتَها والتّاجَ الذي يَنتظِرُها سَيُلَيّنانِ من موقِفِها. أيّاً يكن، إذا كان قَدَري ألاّ أُحَبّ فآمُل على الأقلّ أن أمتلِكَ امرأةً أُحِبّها.

وَجَدَته الملكة متشَبّثاً كثيرا بغرامه ذاك، ما أفقدَها القوّة على ثنيِهِ عنه. وعدَته بأن تساعِدَه في ما يتمَنّاه، وفي الحال أرسلَت في طلبِ والدَة إيسمان. كانت تعرفها فهي امرأة طمّاعة وكانت لِتُضَحّي ببَناتها من أجل مَكاسِبَ دون الحكم أهمّيّة. ما إن قالت لها الملكة إنّها تتمنّى أن يقترن ذيب بإيسمان حتّى ارتَمت عندَ قدَمَيها مؤكّدَة لها أنّ ما علَيها إلاّ أن تعيّنَ يومَ الزّفاف.

قالت لها الملكة:

- لكنّ قلبَها مرتبط. لقد أمَرْناها بأن تنظر إلى كوريدون على أنّه الزّوجُ المقدَّر لها.

أجابت المرأة العجوز:

- حسناً يا سيّدَتي سنأمرها بأن تنظرَ إليه في المستقبل على أنّه ليس كذلك.

أضافَت الملكة:

- لا يستشير القلبُ العقلَ دوماً. عندَما يُصمّم القلب على شيء

فمنَ الصّعبِ إخضاعه.

أجابت المرأة العجوز:

- إذا كانَ قلبها مصمّماً على تنفيذ رغباتٍ مُنافِيَة لرَغباتي فسأقتَلِعُه منها دون رحْمَة.

عندما رأت الملكة تصميمَها أدرَكت أنّه يمكنُها الاعتماد عليها في إقناع ابنتِها وحَمْلِها على الطّاعَة.

وبالفعلِ هرَعَت الأمّ إلى غرفةِ ابنتِها. عندَما علِمَت الفتاة المسكينَة أنّ الملكة أرسلَت في طلبِ والدَتها، انتظرَت عودَتَها بقلقٍ بالغ. ومنَ السّهلِ تصوّر تفاقم قلقِها عندَما قالت لها بلَهْجَةٍ قاسيَةٍ وحازِمَة إنّ الملكة اختارتها زوجةً لابنها وإنّها تَحْظُرُ عليها التحَدّث إلى كوريدون منذ ذلك الحين فَصاعِداً وإنّه إذا لم تُطعْها فسوفَ تخنِقها. لم تجرؤ إيسمان على أن تردّ بشيءٍ إزاءَ هذا التّهديد. لكنّها بَكَت بُكاءً مُرّاً، وشاعَ الخبر بأنّها ستتزوّج ذيب لأنّ الملكة حَمَلت الملك على الموافقة، وأرسَلت إليها أحجاراً كَريمَة لتتزيّنَ بها عندَ مجيئِها إلى القصر.

رازِحاً تحتَ وطأة اليأسِ، جاءَ كوريدون لِموافاتها واستطاعَ الوصولَ حتّى جَناحِها الخاصّ بالرّغم من كلّ المَوانِع التي اعترضَت طريقه. ألْفاها مضطجِعَة على سريرٍ للرّاحة، ووَجهها غارق في دموعِها. ارتَمى على ركبَتيهِ قربَها وأخذَ يدَها.

قال لها:

- يا لَحسرَتي أيّتها الفاتنَة إيسمان! إنّكِ تبكينَ مصائبي.

أجابته:

- لكنّ مصائبَكَ مَصائبي. أنتَ تعرِف يا عَزيزي كوريدون ما هوَ الحُكمُ الذي سيُنَفّذ بي. لا أستطيع تجنّبَ الإكراه الذي يَفرضونَه عليّ إلاّ بالموت. أجل، وسأقدر على الموت، أؤكّد لك، فأنا أفَضِّل أن

أموتَ على أن أكونَ لِسِواك.

قال لها:

- لا، عِيشي، ستَكونينَ ملكة ولعلّك سَتَعتادينَ على هذا الأمير المخيف.

- ليسَ هذا في مَقدوري، لا أتصوّر شيئاً في العالم أشدّ هَوْلاً من زوج مثله. إنّ تاجَه لن يُلَطّفَ أبداً من آلامي.

أضاف:

- إنّ السّماء ستَقيكِ شَرَّ هذا القرار المشؤوم يا إيسمان اللّطيفة! لا يَليق مثلُ هذا القرار إلاّ بي.

أجابَت:

- إذا متَّ فلَن أعيشَ بَعدَكَ. وأشعر ببعضِ العَزاءِ عندَما أفكّر أنّ الموت سيَجمَعنا على الأقلّ مجدّداً.

كانا مسْترسِلَين في حَديثِهما وإذا بذيب يدخل الغرفة بغتة. بعْدَ أن أخبرَتْه الملكة بما فَعَلَته لأجلِه، هرَعَ إلى إيسمان لِيُعبّر لها عن فَرْحَته. ولكنّ حضورَ كوريدون أثارَ فيه استياءً عارماً. كان ذا طبْع غيورٍ ولجوج. أمَرَه بِنبْرَةٍ فيها الكثير من طِباعِ الذّئب أن يخرُجَ وألّا يعودَ للظّهورِ في القصر.

هتفت إيسمان وهيَ تستوقف ذلك الذي تحبّه:

- ولكن ماذا تظنّ أيّها الأمير؟ هل تظنّ أنّك قادر على محْوِهِ من قلبي؟ لا، إنّه محفورٌ فيه عَميقاً: لا تغفلْ عن شقائك أنتَ يا من تتَسَبّب بِشقائي: هو وحده العزيز الغالي عليّ. أمّا أنت فلا تثير فيّ إلاّ الخوف.

قال ذيب:

- وأنا، أيّتها الهمَجيّة، ليسُ لديّ إلاّ الحبّ تجاهَك. لا يجْديك

نفعاً أن تُظهري لي كلّ حقدِكِ فهذا لن يمنعكِ من أن تكوني زوجتي لا بل إنّه سيزيد في عذابك.

شعرَ كوريدون باليأسِ لأنّه تسبّبَ لِعَشيقتِه بذلك الشّقاءِ الجَديد، وخرجَ في اللّحظَةِ التي دخلت والدَة إيسمان لتلوم ابنتها على تصرّفها المُشين. طمأنَت الأمُّ الأميرَ على أنّ ابنتها سوف تنسى كوريدون إلى الأبد وأنّه لا يجوز أبداً أن يُصار إلى تأجيلِ عرس رائع كعرسِهما. قال ذيب، وكان يوافقها الرأي تماماً، إنّه سيُحدّد موعد الزّفاف بالتشاور معَ الملكة لأنّ الملك ترك لها أمْرَ الاهتمام بتلك المناسبة العظيمة. في الواقع، لم يشأ الملك التدخّل لأنّ ذلك الزّواجَ بَدا له بغيضاً ومُثيراً للسخريَة لا سِيّما وأنّه كانَ مستاءً من أنّ يستمرّ النّسل الذّئبيّ في البيت الملكيّ. وَكان حزيناً مغتمّاً جدّاً للخضوعِ الأعمى الذي تبديه الملكة لابنِها.

كانَ ذيب يَخشى أن يتراجع أبوه الملك عن موقفه المؤيِّد على مضض لذلك الزواج. ما دفعه للإسراع في إعدادِ تحضيرات العرس. أمَرَ بِخياطةِ سروالٍ له وجوارب نصفيّة وصديريّة معطّرة. طُرّز معطفه بالأحجار الكريمة، ووُضعت على رأسه لَمّةَ شعرٍ مستعار شقراءَ شقرةَ الأطفال وقبّعةً مكْسوّةً بالرّيش. لم يسبق أن شوهدَ أحدٌ على شاكلتهِ ولولا المصيبَة المقترنة بزواجه لَما كانَ بالإمكانِ النّظر إليه دون ضحك. ولكن، يا للأسف، قلّما كانت تعتَري إيسمان الرّغبة في الضّحك. عَبثاً وَعَدوها بمظاهر الأبّهَة والعَظَمَة لأنّها كانت تحتقرُها جميعاً ولا تستشعر إلاّ بالنَحسِ وسوءِ الطّالع اللذينِ لا بدّ أنّهما يَسِمان حياتها.

رآها كوريدون أثناء مرورها إلى المعبد: لَكأنّها ضحِيّة جميلة تُساق إلى الذّبح. ابتهجَ ذيب لرؤيتها وتوسّل إليها أن تُبْعِدَ عنها شبحَ ذلك

الحزن العميق الذي تبدو رازحَة تحتَ ثقْلِه لأنّ كلّ ما يطمح إليه هو أن يجْعَلَها سعيدَة لا بل أنّ تحسدها جميع ملِكات الأرض على سَعادَتِها، وأضاف:

- أعترف أنّني لست جميلاً، ولكن يُقال إنّ جميعَ النّاسِ لدَيهم بعض التّشابه مع الحيوانات. أشبه أنا أكثر من أيّ واحِدٍ آخرَ ذئباً. هذا هوَ شبهي بين الحيوانات: لا يَجدُرُ بكِ بسبب ذلكَ أن تجِديني أقلّ لطْفاً، ولا تنسي أنّ قلبي مليء بالمشاعر ويَكُنّ لَكِ عشقاً كبيراً.

لم تُجبه إيسمان بل نَظرَت إليه باحتقار ثم رَفعت كتِفيها استهزاءً تاركةً لظنونه التخمين بكلّ ما كانت تشعر به حِياله من قرَفٍ. كانت والِدَتها تتعقّب خطاها موجّهةً إليها ألْفَ تهديد.

قالت لها:

- أيّتها البائسَة! هل تريدين إذاً أن يتسبّبَ هلاكك بِهَلاكِنا؟ ألا تَخشينَ أن يتحوّل حبّ الأمير إلى غضبٍ مَسعور؟

لم تُعرْ إيسمان، المستغرقة في همّها، انتباهاً لهذهِ الكلمات. كانَ ذيب يُمْسِكها من يَدِها ولم يستطع الامتناعَ عن القفز والرّقص هامِساً لها في أذنها بألْفِ كلمَةٍ حلوَة. وأخيراً بعد أن انتهى حفل الزّفاف وبعد أن هتف الجمع ثلاث مرّات «يحيا الأمير!، تحيا الأميرة!»، اصطَحَبَ الزّوج زوجتَه إلى القصر حيث أُعِدّت وَليمة بديعَة. جلسَ إليها الملك والملكة، وجلسَت العروس قُبالة ذيب الذي كان يلتَهمُها بنظراته لشدّة إعجابه بجمالها. لكنّها كانت مستغرقة في حزنٍ عَميق فلم ترَ شيئاً ممّا يجري من حولها، ولا كانت تسمَع الموسيقى ولا الجَلَبَة الصاخِبَة التي تحدثها.

جذَبَتها الملكة من ثوبها وقالت لها في أذُنها:

- يا بنيّتي، أترُكي هذه الوحدَة القاتمة إذا أردْتِ أن تروقي لنا.

يبدو لي لَكَأنّه يومُ جَنازَتكِ وليسَ يوم عرسك.

قالت لها:

- يا مولاتي، ليتَ السّماء تجعله آخرَ يوم في حَياتي! لقد أمَرْتني بأنّ أحبّ كوريدون. لقد منحْتُه قلبي بخيارٍ منّكِ. ولكن يا للأسف! إذا كنت غيّرت رأيك بخصوصهِ فأنا لم أتغيّر مثلك.

أجابت الملكة:

- لا تتكلّمي هكذا، فهذا يجعلني أحْمَرّ خجَلاً وغيظاً. تذكّري الشّرفَ الذي أوْلاكِ إيّاه ابني بزواجهِ بكِ، والامتنان الذي تَدينينَ له به.

لم تُجب إيسمان بشيء، بل خفَضَت رأسَها بِعذوبَة واستغرقت في حُلمِها السّابق.

كان ذيب حزيناً جدّاً حيال النّفورِ الذي تَبادِرُهُ بهِ زوجته. حتّى إنّه تمنّى للحظةٍ لو أنّه لم يتزوّج. وأرادَ أن يُبْطِل ذلك الزواج في الحال ولكنّ قلبه كان ينهاه عن ذلك. بدأت الحفلة الرّاقصة، وتألّقت فيها أختا إيسمان اللّتان لم تكونا آبهتين كثيراً بأحزانِ شقيقتِهما، بل كانتا تتخيّلان بفرحِ الحظوةَ التي سيأتي بها لهما ذلك القِران. رقصت العروس مع ذيب وكان شيئاً مرعِباً حقّاً أن ترى هيئته وأكثر منها رُعْباً أن تكون زوجته. عمّ الحزن أجواء القصر وغابت عنه كلّ بهجة. لم تدم الحفلة إلاّ وقتاً قصيراً. واقتيدَت الأميرة إلى جَناحِها. وبعدَما نزعَتْ وصيفاتها الثياب عنها، انسحبَت الملكة. انْدَسّ العاشق ذيب في الفراش سريعاً. قالت له إيسمان إنّها تريد أن تكتب رسالة. دخلت إلى غرفتِها وأغلقت الباب وراءَها مع أنّ ذيب كان يصرخَ بها أن تنهيَها بسرعةٍ لأنّ الوقت لم يكن وقتَ مراسلة.

ويلٌ لها! عندَما دخلت إلى تلك الغرفة رأت فجأةً وَيا لَهَوْلِ ما

رأت: كوريدون تعيسَ الحظّ! كان أقنع إحدى وصيفاتِها لكي تفتحَ له باب الدّرج السّريّ فدخَل منه.

قال لها وهو يمسِك خنجراً في يده:

- لا تظنّي أيّتها الأميرة الفاتنَة أنّني أتيتُ إلى هنا لكي ألومَكِ على تخلّيكِ عنّي: لقد تعهّدتِ لي في بدايَة حُبّنا أنّ قلبك لن يتغيّر أبداً. ومَعَ أنّك وافقتِ على التخلّي عنّي إلاّ أنّني ألومُ السّماء بدلاً منك. ولكن لا أنتِ ولا هي لتَقدِرا على جَعلِي أتحَمّل مثلَ هذه المصيبَة الأليمة. خسرْتُكِ أيّتها الأميرة، وَلَم يعد لحياتي معنى.

لم يَكَد ينْهي هذه الكلمات حتّى أغمَد الخنجر في قلبه.

لم يتّسع الوقت لإيسمان كي تُجيبه أو تردعه.

هتفَتْ بألم:

- لقد متَّ يا كوريدون العزيز. لم يعد لدَيّ ما أفعله في هذا العالم. كلّ أبّهَة وعَظَمَة ستكون مقيتة بالنسبة إليّ. ولن أقدر على تحمّل ضوء النّهار.

لم تقل إلاّ هذا. ثمّ استَلّت الخنجر نفسَه الذي كانَ لا يَزال بُخار الدّم السّاخنِ يتصاعَد منه، دم كوريدون، وطَعَنَته في صدرها فسقطَت جثّة هامِدَة.

كان ذيب ينتظر إيسمان الجميلة بفارغِ الصّبر. لاحظ أنّها تأخّرَت في العودَة. ناداها بكلّ قِواه فلم تُجِبْ. تولاّه غضب شديد ونهض مرتَدِياً مبذل النّوم ثمّ ركض باتّجاه باب الغرفة فَخَلَعَه ودخل: يا لِدَهشَته عندما رأى إيسمان وكوريدون جثّتينِ هامِدَتين. أوْشَكَ أن يموتَ حزناً وغضباً؛ كانت مشاعره يُخالِطها الحَبّ والحقد، ما تسبّب له بعَذابٍ كبير. كان يحبّ إيسمان ولكنّه يعرِف أنّها لم تقتل نفسَها إلاّ لِتتخلّص دفعَة واحِدَة من رِباط الزّواجِ الذي يجمعها به. هُرِعَ

الحرّاس يخبرونَ الملك والملكة بما جرى في جناحِ الأمير. وتَصاعَد العويل والنّحيب في أرجاء القصر. كانت إيسمان محبوبة وكان كوريدون محترَماً. لم يشأ الملك أن يتدخّل في أمورِ ذيب كما تفعل الملكة وترَكَ لها أمرَ مواساته.

وضعَته في السّرير وامتزجَت دموعُها بدموعه. وعندما كفّ لِبَعضِ الوقتِ عن نَحيبه وشَكواه مفسحاً لها المَجالَ لكي تتكلّم حاوَلَت إفهامَه أنّه محظوظ لِكَونِهِ تخلّصَ من فتاةٍ لن يَسعها أن تحبّه أبداً لأنّ قلبَها مِلْك رجُلٍ آخر، ومن المستحيل أن يُمحى العشق الكبير من قلب العاشق. يجدرُ به إذاً أن يكونَ سعيداً لأنّه خسِرَها.

هتف:

- لا يُهِمّ، كنت أودّ امتِلاكَها حتّى لو كانَت غيرَ وفِيّةٍ لي. لا أستطيع الادّعاءَ أنّها كانت تسعى لِخداعي أو تتظاهر بالتودّد إليّ. لقد أظهَرَت لي دوماً هلَعها واشمئزازها منّي. أنا السبب في موتِها وكَم ألومُ نفسي على ذلك!

رأته الملكة في غاية الحزنِ فأحاطته بالأشخاصَ الذين يَستَلْطفهم، وانصَرَفت إلى غرفتِها.

عندما خلَدَت إلى النّوم، تذكّرَت كلّ ما حصلَ لها مذ رأت حلم الجنيّات الثّلاث. قالت:

- ماذا فعَلْتُ لهنّ لكي يُنزِلْنَ بي كلّ هذه المصائب المَريرَة؟ كنت آمل أن أرزَقَ بابنٍ لطيف وفاتن. فجَعلنَه ذئباً ومسخاً حقيقيّاً: لقد فَضّلَت إيسمانُ المسكينَة الموتَ على العيش معَه. ولم يحظَ الملك بلَحْظَةِ سَعادَة واحدة منذ ولادَة هذا الأمير العَديم الحظّ. وبالنسبة لي يَمُضّني الحزن كلّما رأيته.

كانت مستغرقة في أفكارها تلك عندما أَبصَرت نوراً باهِراً في

غرفتِها. رأت قرب سريرِها الجنيّة التي خرجَت من جذعِ الشّجرة في الغابة. قالت لها:

- أيّتها الملكة! لماذا لا تريدينَ تصديقي؟ أَلَمْ أؤكّد لكِ أنّك سَتُلْقَينَ السّرورَ والرّضا لأنّك رزقْتِ بذئب؟ هل تشُكّينَ بِصدقِ كلامي؟

قالت:

- وَمَن لا يَشكّ به! لم أرَ حتّى الآن أيّ شيء يتطابق معَ كلامك! ليتَكِ تركْتِني حتّى آخر عمري دون وريث بدَلَ أن ترزقيني بابن كهذا!

أجابتها الجنيّة:

- نحن ثلاث شقيقات. اثنتانِ منّا صالحتان والثّالثة تُفسِد دوماً الخير الذي نفعَله. هيَ التي رأيْتِها تضحَك أثناءَ نومك. لولانا لَكانَت آلامك أطوَل أمَداً لكن ستكون لها نِهاية.

- عندما تنتهي حياتي! أو حياة ذيب!

أردَفت الجنيّة:

- لا أستطيع أن أعلِمَك بأكثر من هذا. سُمِحَ لي فقط بأن أواسيكِ فأضَع في قلبكِ بعضَ الرّجاء.

واختفت في الحال. بَقيت الغرفة مفعَمَة بِرائحةٍ عَطِرَة لذيذة. وأملَت الملكة بتغييرِ ما لصالِحها.

ومَكثَ ذيب في حِدادٍ كبير. أمضى أيّاماً عدّة في غرفته وهو يُخربِشُ على الورق حسرات مريرة على فقدان الحبيبة. لا بَل إنّه أرادَ أن تُحفَرَ هذه الكلمات على قبرِ زوجته:

أيّها القَدَر القاسي، أيّها الحُكمُ المبْرَم!

إيسمان ها أنتِ تنْحَدِرينَ إلى ظلمات اللّيلِ الأبَديّ:

عيناكِ، اللّتانِ لهما أن تفتِنا القلوب قاطِبَة،
عيناكِ هاتان أُغمِضَتا إلى الأبد.
أيّها القَدَر القاسي، أيّها الحُكمُ المُبْرَم.
إيسمان ها أنتِ تنحَدرينَ إلى ظلمات اللّيل الأبديّ.

دُهِشَ الجميع عندَما أدركوا أنّ ذيب يحتفِظ بِذكرى رقيقة حِيال فتاةٍ أظهَرَت له نفوراً هائِلاً. ثمّ بدأ شيئاً فشيئاً يتردّد إلى مجمع السيّدات وهناك التقى زيلونيد شقيقةَ إيسمان التي كانت تضاهيها فتنَة وتشبهها كثيراً، ما أثار إعجابه الشديد. عندما تحدّث إليها وجَدَ لدَيها ذكاءً وحيويّة. وَظنّ أنّه إذا كان هناكَ امرأة تستطيع تعزِيته عن خَسارَة إيسمان فهي الشابّة زيلونيد. كانت تُظهر له الكثيرَ من الاحترام والودّ ولم يكن يَخْطرُ ببالِها قطّ أنّه يُريد أن يتزوّجَها؛ لكنّه مع ذلكَ اتّخذ قراره. وذات يوم كانت الملكة وحيدَة في غرفتِها فذهب إليها مبتهِجاً أكثر منَ العادَة. قال لها:

- مولاتي، جئْتُ أطلب منكِ خدمَة متوسّلاً إليكِ في الوقت نفسه إلاّ تُثنيني عن قراري فلا شيء في العالم بِوسعِه أن ينتزِعَ منّي الرّغبة في الزّواج من جديد. أعطيني موافقتكِ ومعونتكِ، أستَحْلِفكِ بذلك: أريد أن أتزوّج بِزيلونيد. تحدّثي عن ذلك إلى والدي حتّى لا تُبتّ هذه المسألة بسرعة.

قالت الملكة:

- آه! يا بُنيّ، قل لي ما الذي تخطّط له؟ هل نسيت اليأسَ الذي أصابَ إيسمان وميتتها المأساويّة؟ كيف تستطيع أن تأمَلَ بأنّ شقيقتَها سوف تحبّكَ أكثر؟ هل أنتَ جدير بالحبّ أكثر من ذي قبل، هل صرت أقلّ ذئبيّة؟ أو أقَلّ إثارَة للرّعب؟ كُن متعَقّلاً يا بُنَيّ، لا تُعرّض

نفسَك كلّ يوم لِمَخاطِرَ جديدة. مَن له هيئتك، عليه بالاحتجاب عن الأنظار.

أجابَ ذيب:

- أوافقكِ يا سيّدَتي لكنّي أريد الزّواجَ لكي أحتجب عن الأنظار. أريد شريكة. طيور البوم تجِد رفيقة لها والضّفادع والأفاعي أيضاً فهل أنا دون هذه الحيواناتَ المَقيتَة؟ لكنّكِ تَسْعَينَ إلى إتعاسي، ويبدو لي معَ ذلك أنّني ذئبٌ يتحلّى بِمَزايا أكثر من كلّ تلكَ البهائم التي سمّيتِها.

قالت الملكة:

- يا بُنَي العزيز تشهد السّماء على الحبّ الذي أكنّه لكَ والحزن الذي يتوَلاّني عندما أراك! عندما أحثّكَ على اللّجوءِ إلى العقل فهذا ليسَ لأنّي أسعى إلى إتعاسك. أريدك أن تحصل على زوجَة وأن تكون قادرة على حبّك بقدرِ ما أحبّك. لكنّ هناكَ فارقاً بين مشاعر الزّوجَة ومشاعر الأمّ.

قال ذيب:

- أخذت قراري. أتوسّل إليكِ يا سيّدَتي أن تتحدّثي منذ اليوم إلى الملك وإلى والدة زيلونيد، لكي يُصارَ إلى الإسراع في زواجي.

أعطته الملكة كلِمَتها، ولكن عندما حدّثت الملك بذلك، قال لها إنّ لدَيها ضعفاً غريباً تجاه ابنها لكنّه أكيد من أنّ كارثة سَتَقع من جرّاء ذلك الزواج المدبَّر بشكلٍ سيّء. ومعَ أنّ الملكة كانت توافقه الرأي إلاّ أنّها لم تُفصح عن ذلكَ لأنّها أرادَت أن تفِيَ بوعدِها لابنها. فما كان منها إلاّ أن حثّت الملك على الموافقة فقال لها والتّعَب يخالجُه إنّها تستطيع أن تفعلَ ما تشاء، وإذا نتجَ عن ذلك ما لا تُحْمَد عُقباه عليها ألاّ تلومَ إلاّ نفسَها.

عادَت الملكة إلى جناحِها ووجَدَت فيه ذيب الذي كان ينتظرها بِفارغ الصّبر. قالت له إنّه يستطيع أن يعلن عن مشاعره لزيلونيد، وإنّ الملك يوافق على ما تتمنّاه شرط أن توافق هيَ نفسها لأنّه لا يريد أن تتسبّب السلطة التي يتقلّدُها بإتعاسِ الآخرين.

قال لها ذيب متبجّحاً:

- أؤكّد لكِ يا سيّدَتي أنّكِ الوَحيدَة التي تفكّر بي بهذا الاحتقار. لا أرى أحَداً إلاّ ويمتدِحني مُشيراً إلى الفضائل العَديدة التي أتحلّى بها.

قالت الملكة:

- هكذا هُم أفراد الحاشيَة، ذاكَ هوَ شرط الأمراء. النّاس قسمان: المدّاحون والممدوحون. فكيف بالإمكان أن يتعرّف الإنسانِ على أخطائه في مثلِ هذه المتاهَة؟ آهٍ كم سيكون كبار القوم سعداء لو أنّ لدَيهم أصدقاءَ يتعلّقون بشخصهم أكثر ممّا بثروتهم!

أجاب ذيب:

- لا أعرف يا سيّدَتي إذا كانوا سيشعرون بالسّعادة لِسَماعِهم حقائق بغيضة. لا أحدَ يحبّ ذلكَ أيّاً تكن المرتبة التي يتّصف بها. بِماذا يُفيدني مثلاً أن تُفهميني دوماً أنّه ليسَ هنالكَ فارق بينَ ذئب وبيني وأنّني أثير الرّعبَ وعليّ الاحتجاب عن الأعين؟ ألا أدينُ لهؤلاء الذين يُلَطّفون تعاستي ويكذبون عليّ لِصالِحي ويتسَتّرونَ على العيوب التي تُمْعِنينَ أنتِ في كشْفِها لي؟

هتفت الملكة:

- آهٍ منكَ أيّها الغُرور! كيفما التفتنا وجدناكَ دوماً وفي كلّ مَكان. نعم يا بُنَيّ أنتَ جميل، أنت وَسيم، أنْصَحكَ بأن تواصِلَ تقديمَك الهِبات لِمَن يُرْضونَ غرورَك.

قال ذيب:

- سيّدتي، لستُ بِغافِلٍ أبداً عن عيوبي لا بَل أشعر بها أكثر من أيٍّ كان. لكنّي لا أملك القدرة على أن أكون أطوَلَ قامَةً أو أجمل هيئةً، ولا أن أتخلّى عن وجه الذّئب لأتمتّعَ برأسِ رجلٍ مزيّنٍ بشعرٍ طويل. أوافق على أن يوجّه إليّ اللّومَ فيما يتعلّق بِسوءِ المزاج والظّلم والبخل، أي كلّ الأشياءَ التي بِوسعها أن تُصحّحَ ولكن فيما يخصّ شخصي فأنت توافقينَ على أنّني أدعو للرّثاء وليسَ لِلّوم.

وإذ رأت الملكة أنّه مكتئب قالت له إنّ باستِطاعَته رؤية زيلونيد والاتّفاقَ معها ما دامَ مُصرّاً على الزّواج كلّ ذلك الإصرار.

كان متلَهّفاً لإنهاء المُحادَثة مع والدَته. فَما كان منه إلاّ أن هُرِعَ لرؤيةِ زيلونيد فدَخلَ غرفتها دونَ مُراعاةٍ لقواعِد الأدب. وإذ وَجَدَها في ديوانها، قبّلَها وقال لها:

- يا أختي الصّغيرة. جئت أنَبّئكِ بخبَرٍ سَيَروق لكِ بالتأكيد: أريد أن أزوّجك.

قالت له:

- سيّدي، أن أتزوّجَ على يدكِ فهذا قمّة ما أطمَح إليه!

قال:

- إنّه أحد أكبر أسياد المملكة لكنّه ليسَ جميلاً.

قالت:

- لا يهمّ. أمّي قاسيَة جدّاً معي وسأكون سعيدة جدّاً إذا تغيّرَت ظروف حياتي.

أضاف الأمير:

- هذا الذي أحدّثكَ عنه يشبهني كثيراً.

نظرَت إليه زيلونيد بانتباهٍ وبَدَت متفاجئة.

قال لها:

- تلزمين الصّمت يا أختي الصّغيرَة، هل تفعلين هذا فرحاً أم حزناً؟

أجابت:

- سيّدي، لا أذكر أنّني رأيت أحَداً في البَلاط يشبهك.

قال:

- ماذا! ألا يمكنكِ أن تحزَري بأنّني أحَدّثكِ عنّي؟ نعم يا طفلتي العزيزة، أحبّكِ وأتيتُ لأعرِضَ عليكِ أن تشارِكيني قلبي وعَرْشي.

هتفت زيلونيد بنبرَةٍ أليمَة:

- أيّتها السّماء! ماذا أسمَع؟

قال ذيب:

- ما سمِعتِه أيتها الجاحِدَة، ويُفترَض به أن يسعدك ويُرضيكِ أكثرَ من أيّ شيءٍ في العالم. هل كنتِ تأمَلينَ يوماً أن تصيري ملكة؟ إنّه تنازل كبير منّي أن أرْنو إليك. فكّري بأن تستحقّي حبّي ولا تقلّدي إيسمان في نَزَقِها الجنونيّ.

قالت له:

- لا، لا تخشَ أن أنهي أيّامي كما فعلَتْ هيَ ولكن يا سيّدي، هناكَ الكثير منَ الفتيات اللّواتي هنّ أكثر ودّاً وطموحاً منّي. فلمَ لا تختار لكَ واحِدَة تقدّر بشكل أفضل الشّرفَ الذي تخصّني به؟ أعترف لك أنّني لا أتمنّى إلاّ حياةً هادِئة ومنعزلة. دَعني أكون سيّدَة مصيري.

هتف:

- لا تستحقّين البتّة الإكراه الذي أفرضه عليكِ لأرفعكِ على العَرشِ. لكنّ قدَراً محتوماً يُرغمُني على الزّواج بك.

لم تُجب زيلونيد بشيء إلاّ بَدُموعِها.

غادَرَها مفعَماً بالألم وذهب لِزيارة حَماتِه ليفصح لها عن نيّته الاقتران بزيلونيد عسى أن تحثّها على الاستِجابة طَوْعاً لِرَغبته. روى لها ما جَرى بينَهما والنّفور الذي أبْدَته حِيالَ زواج يثريها ويُثري عائلتها. كانت الأم الطّماعة مدرَكةً تماماً للحسنات المترتّبَة على مثل تلك الزّيجة. عندما انتحَرَت إيسمان كان حزنُها على مصالحها أكثر منه على خسارتها ابنتها. شعرَت بفرَحٍ عظيم أن يُعرِبَ ذيب القذِر عن رغبته بِمُصاهَرَةٍ جديدة لعائلتها. ارتمت عند قدميه وقبّلته وشكرَته ألف مرّة على ذلك الشّرَف الذي يؤثّر بها تأثيراً عميقاً.

وأكّدَت له أنّ زيلونيد سوف تنصاع إليه وإلا فإنّها ستَطعَنها بالخنجر أمام عينيه.

قال ذيب:

- أعترف لكِ أنّه يصعب عليّ أن أُكرِهَها على شيء. لكنّي إذا كنت أريد الانتظار لكي تمنحني فتاة قلبها فسأنتظر طيلة حياتي. جميع الجميلات يجِدْنَني قبيحاً لكنّي مع ذلك صمّمت ألاّ أتزوّج إلاّ فتاة جميلة.

أجابت العجوز الماكِرَة:

- معكَ حقّ يا سيّدي. يجب إرضاؤك. وإذا كُنّ مستاءات فهذا لأنّهُنّ لا يعرِفنَ مصالِحَهُنّ الحقيقيّة.

وَقوّت من عزيمة ذيب. قال لها إنّ الأمر منتَهٍ إذاً وإنّه سيَصمّ أذنَيهِ عن بكاء زيلونيد وتوسّلاتها. عادَ إلى عشيقته وقدّم لها سِلالاً منَ الذّهب مليئة بالجواهر فلم تَجرؤ على رفضِها لأنّ والدتها كانت حاضِرَة. لكنّها أبْدَت عدم اكتراثها بكلّ ما يُقَدّم لها، ولم تهتمّ إلاّ لخنجَرٍ غِمده مزدان بالألماس. أمسَكته مرّاتٍ عدّة ووَضَعَته في حِزامِها لأنّ السيّدات في تلك البلاد كنّ يحْمِلنَه بشكلٍ عاديّ.

ثمّ قالت:

- هل أنا مخطِئة أم أنّه الخنجر نفسه الذي اخترَق أحْشاءَ أختي المسكينة.

قيل لها:

- لا نعرِف يا سيّدَتي ولكن إذا كنتِ تعتَقِدينَ ذلك فيَجب إذاً ألاّ تَرَيه.

قالت:

- على العكس، أمتَدِح شجاعَتَها. طوبى لِتِلكَ التي تمِلك شجاعَة مثلَها.

هتفت مارتيزي:

- آه منكِ يا أختي! ما هذه الأفكار المشؤومَة التي تَدور في ذهنك! هل تريدينَ الموت؟

أجابت زيلونيد بلهجَة حازِمَة:

- لا! إنّ المَذبَحَ لا يليق بضحيّة كهذه، ولكن تشهد السّماء على أن....

ولم تستطع أن تقول أكثر. خنقَت دموعُها شكواها وصوتَها.

أُعْلِمَ ذيب بالطّريقة التي تلقّت بها زيلونيد هدِيّتَه فاستاءَ جدّاً منها وأوشكَ أن يُبطِلَ زواجَه بها ويمتنع عن رؤيتها طيلة حياته. ولكن، إمّا حبّاً بها وإمّا تَعظيماً لنفسه، لم يشأ أن يفعلَ ذلك وصَمّمَ على مواصلة خطّته السّابقة بأقصى سرعة ممكنة. وأوْكَلَ إليه الملك والملكة أن يُعنى بذلك الاحتفال الكبير. فأمَرَ بأن يكونَ بديعاً، ولكن يبقى في كلّ ما يفعله شيء من ذوق الذّئب الخاصّ جدّاً: أجريَت حفلة الزّفاف في غابة فسيحَة حيث وُضِعَت طاوِلات محمّلة بلَحم الطّرائد لكلّ الحيوانات الضّاريَة والمتوحّشة لتأكل وتشارِكَ في

الاحتفال.

وإلى ذلك المكان بالذّات ذهبت زيلونيد التي رافَقَتها والِدَتها وشقيقتها لتُوافي الملك والملكة وابنهما الذّئب وجميع أفراد البَلاط تحت أشجارٍ كثيفة الأغصانِ حيث سيقام زفاف العَريسين الجديدين ويَتَعاهَدان فيه على حبٍّ أبَديّ. لم يشقّ على ذيب إطلاقاً أن يتعهّد بذلك، ولكن كان واضِحاً لزيلونيد أنّها تنصاع للأمر بنفورٍ واشمئزازٍ كبيرَين. ولكنّ هذا لا يعني أنّها لم ترْغم نفسَها على تَمالكِ أعْصابِها وإخفاءِ جزءٍ من استيائها. تظاهر الأمير بأنّ كلّ شيء على ما يرام متصوّرَاً أنّها في النّهاية ستخضَع للواقع المحتوم ولن تفكّر إلاّ في إرضائه. وهذه الفكرة أرجَعَت له كلّ المزاج الرّائق الذي فقدَه. وخلال الوقت الذي استغرقه البدء بالاحتفال، سارَعَ ليتنكّر بِزيّ فلكيّ يرتدي ثوباً طويلاً. كان هناك سيّدتان فقط من أشراف القصر تشاركان في الحفل التنكّري. وأرادَ أن يبدو مُشابِهاً لهما بحيث يَصْعُب تفريقه عنهما. ولم يَكن سَهلاً والحالة هذه التّفريق بين نِساءٍ جميلاتٍ وذئبٍ قبيحٍ مثله.

كانت واحدة من تينك المرأتين مؤتَمَنة على أسرارِ زيلونيد. وَلَم يكن ذيب غافلاً عن ذلك، وقد أعَدّ تنَكّرَه ذاك على سبيلِ الفضول. بعدَ أن استُهلّت الحفلة برقصة باليه، ولكن بشكل وجيز، فلا شيء يُتْعِب الأمير مثل تلك الرّقصَة، اقترَب من عَروسَتِهِ وقامَ لها ببعض الإشارات باتّجاه أحَدِ الفَلَكيّينَ المتنَكّرينَ ما أقنَع زيلونيد بأنّ صديقتها كانت قربها وتدلّها على ذيب.

قالت:

- يا مصيبتي! أعرف، إنّه ذاكَ المسخ الذي أعطتني إيّاه السّماء الغاضبة زوجاً لي، ولكن إذا كنتِ تحبّينني فسنُطَهّر الأرض منهُ هذه

اللّيلة.

فهِمَ ذيب ممّا قالته أنّ الأمر متعلّق بمؤامرة عليه. فقال لزيلونيد بصَوتٍ خَفيض جدّاً:

- أنا رَهن أوامِرك.

أضافَت:

- أمسكي إذاً هذا الخنجر الذي أرْسَلَه لي. عليكِ الاختباء في غرفتي وأن تساعديني على ذَبحه.

لم يُجِبها ذيب إلاّ بِكلِماتٍ قليلة خوفاً من أن تعرف رطانته التي كانت شديدة الخصوصيّة. أمسَكَ الخنجرَ بِرفقٍ وابتعدَ عنها لِبَعضِ الوقت.

عادَ فيما بعد دونَ قِناع يتوَدّد إليها واستقبَلته بحَرَج ظاهر لأنّها كانت تخطّط لقتله. وفي تلك اللحظّة، لم يكن أقلّ قلقاً منها. كان يقول في نفسه:

- هل منَ المعقولِ أن تكونَ فتاة جميلة وفي مُقتَبَلِ العُمر شرّيرة على هذا النّحو؟ ماذا فعَلتُ لها لكي تَرغَبَ في قتلي؟ صحيح أنّني لست جميلاً وأنّني آكلُ بِطريقةٍ غير مرتّبَة وأنّ لديّ بعضَ العيوب ولكن مَن ليسَ لدَيه عيوب؟ أنا رجلٍ في هيئةِ حيوان. لكنْ كم منَ الحيوانات في هيئة أناس! زيلونيد تلكَ التي وجَدْتُها في غاية الرّوعَة أليَسَ لها طباع نَمِرَة أو لَبْوَة؟ آه! كم المظاهر خدّاعَة!

كان يغمغم كلّ هذا بين أسنانه عندَما سألَته ما به.

- أنتَ حزين يا ذيب. أوَ تكونُ نادِماً على زواجك بي؟

قال لها:

- لا، لا أتغيّر بِسهولَة. كنت أفكّر بِوَسيلةٍ لإنهاءِ الحفلِ الرّاقص عمّا قريب. أشعرُ بالنّعاس.

ابتهجَت الأميرة لرؤيته شاعراً بالنّعاس مفكّرَةً أنّها ستنفّذ خطّتها بعَناءٍ أقلّ. انتهَت الحفلة. واصْطُحِبَ ذيب وزوجته في عربةٍ فخمَة. كان القصر كلّه مُضاءً بالمَصابيح على شكلِ ذئاب، وأقيمَت طقوس قبل أن يخلد الذّئب والعَروس للنَوم. لم تكن زيلونيد تشكّ البتّةَ في أنّ الوصيفَة المؤتَمَنَة على أسرارِها كانَت خلف السّتائر، فاندسّت في الفِراش ومعَها خيطٌ منَ الحَرير تحتَ مخدّتها أرادَت استخدامه لتنتقمَ بهِ لِمَوتِ إيسمان، ولإكراهها هي على القبولِ بذلك الزَواج المُريع. خيّم سكون تامّ، وتظاهرَ ذيب بالنّوم وأخذ يشخر فيهتزّ لِشخيره أثاث الغرفة كلّه.

قالت زيلونيد:

- وأخيراً نِمْتَ أيّها الذّئب القبيح! ها قَد وافَت السّاعَة لِمعاقبتك على حبّك المشؤوم. سوفَ تموتُ في هذه اللّيلة الظلماء.

ونهضَت على مهلٍ وهُرعَتْ إلى جميع الزّوايا تُنادي على وصيفَتِها ولكنّها لم تكن هناكَ لأنّها لَم تكن على علمٍ بمخطّط زيلونيد.

هتفتْ بصوتٍ خافت:

- أيّتها الصّديقة الجاحدَة! تخلّيْتِ عنّي بعدَ أن أعْطيتِني موافقتكِ. ها قَد نكثْتِ بِوعدك. لكنّ شجاعتي لن تخونَني عندَ لُزوم الحال. قالت هذه الكلِمات ومرّرَت بِرفقٍ خيطَ الحَرير حولَ عنقِ ذيبَ الذي لم يكن ينتظرُ إلاّ ذلك لكي يرتَمي عليها. انقضّ عليها وغرز أنيابه الطّويلة في عنقها فأهرَقَت الرّوح بعدَ وقتٍ قليل.

لا يمكن لِكارثةٍ كهذه أن تمرّ دون أن تُحدِثَ صدىً مدَوّياً. هُرِعَ أفراد القصر ورأوا بِدَهشةٍ ما بَعْدَها دَهشَة زيلونيد المحتَضرَة. كانوا يُريدونَ إنقاذَها ولكنّه وقَفَ أمامَهم بِهَيئةٍ مسْعورَة لِيَحولَ دونَ ذلك. أُرسَل في طلبِ الملكة، وعندَما حضرَتْ رَوى لها ما حَدَث

والسّبب الذي حَمَله على قتلِ تلك الأميرة التّعيسَة.

لم تستطع الملكة الامتناعَ عن التحسّر عليها.

قالت:

- سبق أن حَذّرْتكَ منَ المَغبّات النّاتجَة عن مثلِ هذا الزّواج. عَسى هذه النّتيجَة أن تُساعدَك على الأقلّ للشّفاء من هذه الرّغبةِ المحمومَة التي تَعْتَريك للزّواج. لا يحظى المرء دوماً برؤية حفل زفافٍ ينتهي بجَنازَة.

لم يُجب ذيب بشيء. كانَ مستغرِقاً في حلم عميق. خلدَ إلى الفراش دون أن يتمكّنَ منَ النّوم. واستسلمَ لتأمّلٍ متواصلٍ في المآسي التي تعترضه. عابَ على نفسه سرّاً التسبّب بوفاة أكثر شخصَين أحبّهما حتَى اليوم. كان الشّغف الذي كَنّه لهما يستفيق في قلبه كلّ لحظةٍ ليُعَذّبه.

قال لنبيلٍ شابٍّ كان هو يثق به:

- كَم أنَاً عَديم الحظّ! لَم أعش قطُّ لحظةَ سعادة في حياتي. إذا تحَدّثت عن العرشِ الذي سأعْتَليه، قالوا إنّه لأمْر مؤسف أن يُنَصّبَ مسخٌ مِلكاً على مملكَةٍ بهذِه الرّوعة. وإذا كنت أتَقاسَم عَرشي معَ فتاةٍ فقيرَة سَعَتْ هذه الأخيرة إلى إيجاد الوسائلِ لِتَموتَ أو لِتَقتُلَني بَدَلَ أن تعتبرَ نفسَها سعيدَة الحظّ. وإذا فتّشتُ عن بعضِ السّلوى لدى والدي أو والدَتي فإنّهما يمقتانني وينظرانِ إليّ غاضبَيْن مستاءين. فما الذي يَجدُرُ بي فعله في خِضَمّ اليأسِ الذي يتَمَلّكُني؟ سوف أهجُرُ القصرَ وأذهَب إلى أبعدِ غابةٍ وأعيش الحياة التي تَليق بذئب يملك البأس والذكاء مثلي. لن أؤدّي دورَ المتَأنّق بعدَ اليوم. لن أَجِدَ أبداً هناك حيواناتٍ تلومُني على أنّي أقبَح منها. سيَكون سهلاً عليّ أن أكون مَلِكَهم لأنّ لدَيّ العقل وسوف يساعِدني لإيجاد الوَسيلة

للسّيطرَة عليهم. سأعيش بهناءَة معهم أكثر ممّا أعيش في هذا القصر، ولن أبتلي بالزّواج ببهيمة تطعنُ نفسَها أو تُريد خنقي. هاه! لِنَهرب، لِنَهرب بَعيداً في الغابات ولنَحْتقر عَرْشاً يظنّونني غيرَ جَديرٍ به.

أراد صديقُه المؤتمَن على أسراره أن يَثنيَه عن قرارٍ عَجيبٍ كهذا. ومعَ ذلكَ رآه رازِحاً تحتَ الضربات المتواصلة التي يكيلها له فأله السيّء ما جعله يُقلِع عن الضّغط عليه بالبقاء. وذات ليلَةٍ أُهمِلَتْ فيها إقامَة الحراسة حول قصره، هَرَبَ دونَ أن يراه أحد حتّى عمق الغابة حيث بدأ يفعَل كلّ ما يفعله زملاؤه الذّئاب.

تأثّرَ الملك والملكة لذلك الرّحيل الذي كان حافزه اليأسُ وحده. أرسلوا صيّادينَ للبَحث عن ابنهما: ولكن كيف بالإمكان التعرّف إليه؟ أسَروا حيوانَين مَسْعورين أو ثلاثَة واقتادوها في ظلِّ أخطارٍ جمّة، لكنّها عاثت خراباً كبيراً في القصرِ فاتُّخِذَ القرارُ بعَدَم اللجوء إلى تلك الوسيلة. وكذلك صدرَ قرارٌ بمنعِ قتلِ أيِّ ذئبٍ خشيَةً أن يكون الأمير هو الضحيّة.

كان الذّئب، لحظةَ رحيله، قد وعَدَ صديقه المفضّل بأن يَكتُبَ لهُ أحْياناً. أخذ معه لَوحاً للكتابة. وبالفعلِ كان الحرّاس، من وَقتٍ لآخر، يَجدونَ أمامَ بابِ المدينَة، رسالة كلماتها مكتوبة بشكلٍ مُبهَم موجّهة إلى ذاكَ النّبيل الشّاب. وكانت تلك الرّسائل تعزّي الملكةَ لأنّها تطمئنها أنّ ابنَها كان ما يَزال حيّاً يُرزَق.

كانت والِدَة إيسمان وَزيلونيد متأثّرَة جدّاً لِموتِ ابنتَيها. بمَوتِهما، ذهبَت جميع أحلامها بالأبّهَة والعَظَمَة أدْراجَ الرّياح. عاب الآخرون عليها طَمَعها، فلَولاه لَكانَتا لا تَزالانِ على قيدِ الحياة، وأيضاً إكراهها لهما على الزّواج بذيب تحت طائلة التّهديد. لم تعد الملكة تعاملها بِطيبَة كما في السّابق فاتّخذت القرارَ بالذّهابِ للعيش في الرّيف بِرِفقةِ

مارتيزي ابنتها الوَحيدَة. كانت تلكَ تفوق أختَيها جمالاً بأضعاف، وكانت تَجمعُ اللطف إلى الفتنة وتثير إعجاب كلّ من يراها. ذات يوم وفيما كانت تتنزّه في الغابة برفقةِ خادمتَين (لأنّ منزِل والِدَتها لم يكنَ بعيداً عنها)، رأت فجأةً على مسافة عشرين خطوَة منها ذئباً ذا حجم هائل. ذُعِرَت المَرأتانِ اللّتانِ ترافقانها فتخلّتا عنها ولاذتا بالفرار. وتولّى مارتيزي خوف شديد سمّرها في مكانها وأفقدها القدرة على الهَرَب.

كان ذلك ذيب نفسه وقد تعرّف إليها على الفَور وأدرك هو من خلالِ ارتِعاشِها أنّها ستَموت رُعْباً. لم يَشأ أن يُخيفها أكثر. لكنّه تريّث وقال لها:

- يا مارتيزي، لا تَخشَي شيئاً فأنا أحبّك كثيراً ولا يسعني الإساءة إليكِ. إن شئتِ أن أحْسِنَ صنيعاً معك فالأمرُ مَنوطٌ بكِ. تعرفينَ ما عانيتُه بسَببِ شقيقتيكِ. ذاك جزاء مثلّث لِعاطفتي. أعتَرِف أنّني استحققت حقدَهما بسبب عنادي وإصراري على امتلاكهما رغماً عنهما. وعلِمْتُ مُذ سكنْتُ هذه الغابات أنْ لا شيءَ في العالم ينبَع منَ الحريّة أكثر من الحبّ. أرى جميعَ الحيوانات سعيدَة لأنّها لا تُكره نفسَها على فعلِ شيء. لم أكن أعرف آنذاك قوانينها في الحياة، الآنَ بتّ أعرِفها وأشعر فعلاً أنّني أفضّل الموتَ على الزّواج بالإكراه. إذا كانت السّماء السّاخطة عليّ قد استكانت أخيراً، وإذا كانت مشيئتها أن تجعلكِ تشعرينَ بالودّ نحوي، فأنا أعترف لكِ يا مارتيزي أنّني سأكون سعيداً لو اتّفق حَظّي معَ حظّك. ولكن يا حسرة! ماذا دهاني لأفصح لك عن رغبتي: هل تريدينَ المجيء برفقة مسخٍ مثلي للعيش داخل كهفٍ مظلم؟

وَفيما كان ذيب يتكلّم، استطاعَت مارتيزي أن تستعيد رباطة

جأشها وأجابته:

- عجباً يا سيّدي! أيُعقل أن أراكَ في هذه الحال وهي قلّما تتلاءَم معَ أصلِكَ النّبيل؟ الملكة والدتك تمضي أيّامها بالبكاء والتحسّر على مصيرك البائس.

قال ذيب وهوَ يُقاطِعها:

- لم يعد بائساً! لقد اتّخذْتُ قَراري، صحيح أنّني دفعت الثّمن باهظاً ولكنّ الأمر انتهى الآن. لا تظنّي أيّتها الصبيّة مارتيزي أنّ الإقامَة في قصرٍ لامع هوَ مصدرُ الغبْطَة العظمى، لأنّ هناكَ أشياء أكثر سحراً وأعود وأكرّر ذلك : بإمكانكِ أن تَدُلّيني عليها إذا كنتِ في مزاجٍ يسمح لك بأن تعيشي في البريّة إلى جانبي.

قالت:

- ولِماذا لم تعد تريد العودَة إلى المَكان حيث أهلك وأحبابك؟

هتف:

- أحبابي؟ لا، لا، لا أحدَ يحبّ الأمَراء الرّازِحينَ تحتَ مصائبِهم. يسعى الآخرون للانتِفاعِ إلى ما لا نهاية منَ الأمراء، وإذا لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً فإنّهم يجعلونهم مسؤولينَ عن سوءِ طالِعهم ويحْتَقَرونَهم أكثر منَ الجَميع.

ثمّ أضاف:

- ولكن ماذا دهاني؟ إذا مرّ بعض الدّببَة أو الأسود الذين في جِواري من هنا وسمعوني أتكلّم على هذا النّحو، فهذا يَعني هَلاكي. اعقِدي عزمَكِ إذاً على المجيءِ معي دونَ أيّ هَدَف تَضَعينَه نَصبَ عينيكِ إلاّ قضاءَ أجمل أيّامك في خلوَة منعزِلَة مع مسخٍ عَديم الحظّ لكنّه لن يعودَ كذلك إذا امتلكَ قلبكِ.

قالت له:

– يا ذيب، ليسَ لدَيّ حتّى الآن أيّ سببٍ وجيه لأحبّك. لولاكَ لَكانَت أختايَ اللّتانِ أحبّهما كثيراً على قيدِ الحياة. أَمْهِلْني لبعض الوقتِ، ليس سهلاً اتّخاذَ قرار بهذه الخطورة.

قال لها:

– ربّما كنتِ تريدين أن أُمهلك لِكَي يتسنّى لك أن تَغدري بي.

أجابت:

– لست بِقادِرَة على ذلكَ وأؤكّد لكَ منذ الآن أنّني لن أخبر أحَدَاً أنّني رأيتك.

سألها:

– هل ستَعودينَ إلى هنا؟

أجابت:

– لا تشكّ بالأمر.

– لكنّ أمّك سَتُعارض مَجيئكِ إلى هنا. سوفَ يُخبِرونَها أنّكِ التَقيتِ ذاك الحيوان المُرعب. ولن تُجازِفَ بِتعريضِكِ لأيّ خطرٍ إضافيّ. تعالَي إذاً يا مارتيزي، تعالَي معي.

قالت:

– إلى أيّ مَكانٍ سوف تصطحِبني؟

أجابها:

– إلى كهفٍ عَميق. هناكَ حيث يَجري جدوَل أشدّ نقاءً منَ البلّورِ، تكسو ضفافَه الطّحالب والعشب النّضر، ويُرجّع أصداء الأصوات الشّاكيَة للرّعاةِ العاشقين الذين يُعامَلون بِجَفاء.

أضافت:

– وهناك سنَعيش معاً: وسيأتي لِزيارتكَ أحَد أصدقائكَ المفضّلين فيلتَهِمني وينتهي أمري؛ أو أنّ والدَتي سيُصيبُها اليأس لفقداني

وستجعلهم يبحثونَ عنّي في كلّ مكان وسَيجدونني في نهاية المطاف لأنّ هذه الغابة مجاورة لمنزلها.

قال لها:

- سنذهب إلى حيث تشائين. ليسَ لدى ذيب مسكينٍ الكثير لِيُعدّه فما يَحْتاجه قليلٌ جدّاً وَيَجْهَز بسرعَة.

قالت:

- أوافقكَ الرأي ولكن في ما يخصّني، عليّ الاستعداد مليّاً. يَلزمُني ثياب لكلّ الفصول وشرائط وأحجار كريمَة.

قال ذيب:

- يَلْزَمكِ زينَة سخيفة وأشياءُ لا نَفْعَ منها. عندما تمتلك فتاة مثلك الذّكاء والعقل أفَلا يمكنها أن تتعالى على هذه الصّغائر؟ صدّقيني يا مارتيزي، لن تزيدَ على جمالكِ شيئاً وأنا متأكّد أنّها سوف تكمد بَريقه. لا شيء يجدّد نَضارَة سحنتك كَماء الينابيع الصّافيَة. شعرُكِ مُتموّج، رائع اللوْن، وأرقّ منَ الخيوط التي يحبس فيها العنكبوت الذّبابة المسكينة؛ تزيّني به. أسنانكِ أكثر انتظاماً وأنْصَع بياضاً منَ اللآلئ، اكتفي بِبَريقها، واتركي الحليات السّخيفة لأولئك اللّواتي هنّ أقلّ جمالاً منكِ.

أجابت:

- أنا مسرورة جدّاً لِما تقوله ولكنّكَ لن تستطيع أن تُقنِعَني بأن أدْفُنَ نفسي في عمقِ إحدى المغاور حيث لا رَفيقَ لي إلاّ السّحالِي والحَلازين. أليسَ منَ الأفضلِ أن تأتيَ معي إلى أبيكَ الملك؟ أعِدُكَ أنّهم إذا وافقوا على زواجِنا فسأكون سعيدة. وإذا كنت تحبّني أفَلا تتمنّى لي أن أكونَ سعيدة وأن أكون في مقامٍ مَجيد؟

أضاف:

- أحبّكِ أيّتها العشيقة الجميلة لكنّكِ لا تُحبّينني. هذه الرّغبة الجامِحَة في نَيلِ الشّرَفِ والثّراء هي التي تدْفعُكِ لِتَقبّلي بي كَزوج.

أجابت مارتيزي:

- لديكَ استعدادٌ فطريّ لِتَحكمَ بشكلٍ سيّء على جنسِنا، ولكن يا سيّد ذيب أنا أعاهِدُكَ على صَداقَة متفانيَة، هذا أيضاً شيء مهمّ. فكّر في الأمر، سوفَ تَراني هنا في غضونِ أيّام قليلة.

استأذَنَ الأمير بالانصراف وانسحَب إلى كهفه المظلم وهو يمعن التفكير في كلّ ما قالته له. إنّ انعدام حظوته يجعله مَكروهاً من كلّ أولئك الذين يحبّهم لِدَرَجة أنّه حتّى ذلك اليوم لم يمتَدِحه أحدٌ بكلِمَةٍ لطيفةٍ وذلك ما جعله أكثر تأثّراً بِكلماتِ مارتيزي. ومن ثمّ أراد أن يُعِدّ لها مأدبة لذيذة، فاصطادَ لها بعض الحيوانات ثمّ وضعَها في كهفهِ منتظراً اللّحظة التي سَتَفي فيها مارتيزي بكلامِها.

من جِهَتِها لم تكن قادرة على أن تتّخذ قراراً حاسِماً. لو أنّ ذيب كان جميلاً بقدرِ ما هوَ قبيح، لو أنّهما يُحِبّانِ أحدهما الآخر على غرارِ العاشقَين الأسطوريَّين أستريه وسيلادون، لَكانَ كلّ ما تطمَح إليه هوَ أن تُمْضيَ هكذا أجملَ أيّامِها في تلك الخلْوة المرعِبَة. ولكن شتّانَ ما بينَ ذيب وسيلادون! ومَعَ ذلك لم يكن قلبها حتّى ذلك الحين متعلّقاً أو معْجَباً بأحَد. اتّخذت القرار بأن تعيش مع الأمير إذا شاء أن يتركَ الغابة.

وهربَت خِلسَة للذّهاب للقائه. وجَدَته في المَكانِ الذي حُدّدَ فيه الموعد: كان يذهب إليه مرّاتٍ عديدةً في اليوم خشيَة أن تَفوتَه اللحظة التي ستأتي فيها. ما إن رآها حتّى هُرِعَ لِمَوافاتها جاثياً عندَ قدَمِيها وأبانَ لها أنّ الذّئاب، حينَ يَحلو لها، تعرف كيف تلقي التحيّة بلطفٍ وتفانٍ.

ثمّ انعزَلا في إحدى الخلوات. نظرَ إليها ذيب بِعَينَيهِ الصّغيرَتين المليئتينِ بالحبّ والشّغف.

قال لها:

- هل يمكنني أن آملَ بِعَطفِ ما منكِ نحوي؟

أجابت:

- بإمكانكَ أن تأملَ الكثيرَ إذا اقتنَعتَ بالعودَةِ إلى القصر. أصارِحكَ القول إنّني لا أشعر بالقدرَةِ على تمضيَة بقيّة حياتي بعيدة عن المجتمع.

قال لها:

- هكذا إذاً! هذا لأنّكِ لا تُحبّينني. صحيح أنّني لستُ جَديراً بالحبّ، لكنّي تعيس، وعليكِ أن تفعلي من أجلي، بِدافعِ الشّفقةِ أو السّخاء، ما تستطيعين أن تفعَليه لآخرَ بِدافع الحبّ.

أجابت:

- مَهلاً! مَن قال لكَ إنّ هذه المَشاعرَ غريبة عن هذه العاطفة التي أكنّها لك. صدّقني يا ذيب، إنّ أكبرَ برهانٍ عليها هوَ رغبتي بمرافقتك عندَ أبيك الملك.

قال لها:

- تعالَي إلى مَغارَتي. تعالَي واحكمي بنَفسكِ على ما تريدين أن أتخلّى عنه لأجلكِ.

تردّدَت قليلاً حِيالَ هذا الاقتراح، كانت تخشى أن يَستبقِيَها رغماً عنها. حدسَ ما كانت تفكّر به.

قال لها:

- لا تخشي شيئاً! لن أكونَ سعيداً أبداً إذا أكرهتك على فعل شيء!

وَثِقَت مارتيزي بكلامه. أنزلها إلى عمقِ الكهفِ وهناكَ وجَدَت

الحيوانات التي ذبحَها لها لكي يعدّ لها مائدَة شهيّة. أشعرَتها تلك المذبحَة بالغثيان فأشاحَت بداية نظرَها عنها وأرادت الخروجَ من هناك إلاّ أنّ ذيب اتّخذ نبرَة السيّد وهيئته وقال لها:

- مارتيزي الحبيبَة، تعجبينني كثيراً ويَصعبُ عليّ أن أدع لكِ الحريّة لكي تتركيني. تشهَد السّماء على أنّكِ ستكونين دوماً مالكة قلبي. ثمّة أسباب قاهِرَة تمنعني منَ العودَة إلى أبي الملك؛ لذا اقبلي ها هنا حبّي وثِقي بي. ولْيَكن هذا الجَدوَل المناسب وهذه الكَرْمَة الخضراء أبداً وهذه الصّخرة وهذه الغابات وجميع ساكِنيها شهوداً على عهدِنا المتبادَل.

لم تكن لدَيها الرّغبة مثله لأن تقطَعَ على نفسِها مثل هذا العهد. لكنّها كانت محتبَسَة في الكهف دونَ أن تستطيع الخروج. لماذا ذهبت إليه. ألَم يكن يجدر بها أن تسْتَبِقَ ما حَدَث لها؟ أخذت بالبكاءِ وتوجيهِ اللّوم لِذيب.

قالت له:

- كيف بإمكاني أن أثِقَ بِكلامِكَ ما دُمْتَ أخلَلتَ بأوّلِ وعدٍ قطَعتَه لي؟

قال لها وهوَ يبتسِم على الطّريقة الذّئبيّة:

- يجب أن يكون هناك شيء منَ الرّجولة يُخالِط الذّئب الذي فيَّ. هذا الإخلال بالوعدِ الذي تَعيبينَه عليّ هوَ هذا المَكر اللّطيف الذي أرْعى بهِ مَصالحي. إنّ الرّجل فيّ هوَ الذي يدفعني. وإذا صدَقتكِ القول، فأنا أصارِحكِ بأنّ الحيوانات لدَيها منَ الشّرفِ فيما بينها أكثر ممّا بين البشر.

أجابته:

- يا للأسف! لديك أسوأ ما في الإثنين، لدَيكَ قلبُ إنسان وهيئة

عندَ رغبتك.

قال لها:

- ولكن يا مارتيزي الجميلة، هل تريدين أن تظلّي معي دونَ أن تكوني زوجتي؟ كوني متأكّدة: لن أسمَحَ لكِ بالخروج من هنا أبداً.

فتضاعَفَ بُكاؤها متوسّلة إليه بإلحاح، لكنّ ذلك لَم يؤثّر به. وبعدَ أن عارَضَت طويلاً زواجها به ارتَضَت أخيراً الأمر مؤكّدَة له أنّها ستُحبّه كما لو كان أجملَ أميرٍ في العالم.

سَحَرَه لُطفها. فقبّل يديها ألف مرّة وأكّد لها بِدَورِه أنّها ربّما لن تكون على التّعاسَة التي تتصوّرها. سألها فيما بعدُ إذا كانت ستأكل من الطّرائدِ التي اصطادَها لأجلِها.

قالت له:

- لا، لا أستسيغها. إذا استطعتَ أن تجلِب لي فواكه فسأكون مسرورة.

خرج وأقفل جيداً مَدخل الكهف ما جعَلَ هرَبَ مارتيزي مُستَحيلاً. ولكنّها لو استَطاعَت الهرَبَ لَما فعَلت لأنها كانت اتّخذَت قرارَها بالبقاء.

حمّل ذيب ثلاثة قنافذ بثمار البرتقال واللّيمون الحلو والحامض وفواكه أخرى غرَزها في الأشواك التي تكسو جسم القنافذِ ووصلَت المؤونَة منَ الفواكه بأمانٍ حتّى المغارة. دخلَ إليها وقدّمها لمارتيزي لكي تأكل منها.

قال لها:

- هذه مأدبة عرسٍ لا تشبه أبداً تلك التي أقيمَت لِشقيقتيكِ. لكنّي آمل أن نتمتّعَ بها أكثر، وإن تكن مظاهر الأبّهَة فيها أقلّ.

أجابت:

- هكذا شاءت السّماء!

ومن ثمّ غَرَفت منَ الماءِ بيدِها وشرِبت متمنّيَة دوامَ الصحّة للذئب فَسُرَّ لذلك كثيراً.

وكانت المأدُبة قصيرَة بقَدرِ ما كانت بسيطَة. ثمّ جمَعَت مارتيزي كلّ الأعشاب والطّحالب والأزهار التي أحضَرَها لها ذيب وصنَعَت منها سريراً لها وللأمير فرقَدا فوقه. وعُنِيَت بأن تسألَه ما إذا كان يُحبّذ أن تكونَ وِسادَته عالِيَة أم منخفِضَة وإذا كان لدَيهِ متّسَع منَ المَكانِ لِيَنامَ مُرْتاحاً وفي أيّة جهة. شكَرَها ذيب الطيّب بحنان وكان يهتف من وقتٍ لآخر:

- لن أُبدلَ حياتي هذه بكلِّ ممالك الأرض. لقد عثرْتُ أخيراً على ضالّتي. أحبّ حبيبتي وهيَ تُحِبّني.

وقال أشياءَ كثيرَة جميلة ولم تتفاجأ منها، لأنّه كانَ مفعَماً بالذّكاء. لكنّها بدأت تستمتع مثله بتلك الخلوة التي كانَ يعيش فيها.

واستسلَما للنوم. أفاقَت مارتيزي لأنّ سريرها بَدا لها أفضلَ ممّا كان عندَما رَقَدَت فيه. ثمّ لمَسَت ذيب برفقٍ فألفَت رأسَه شبيهاً برأس الإنسان يزيّنه شعر طويلٌ ولَدَيهِ ذراعانِ ويدان. لم تنِ تشعر بالدّهشة. خلَدَت للنّوم من جديد وعندما طلَعَ النّهار، وجَدَت زوجها ذئباً كما هوَ دوماً.

أمضيا ذلك اليوم كَسابقِه. لم تُفصح مارتيزي لِزوْجِها عمّا ارتابَت به أثناءَ الليل. ثمّ وافى وقت النّوم. لمسَت رأسَه فيما كان نائماً، ووجَدَت الفارق السّابق نفسه. شعرَت بالعَذابِ ولم تعد تنام إطلاقاً لأنّها شعرَت أنّها في قلقٍ متواصل وتتنهّد باستمرار. لاحظ ذيب ذلكَ بيأسٍ حقيقيّ.

قال لها:

- يا عزيزتي مارتيزي أنتِ لا تُحبّينني. أنا تعيس وهَيئتي تنفّركِ منّي. سوف تتَسَبّبين بِمَوتي.

أجابت:

- بل قُلْ أيّها البربريّ أنّكَ ستَتسبّب بموتي أنا. فإنّ الخطأ الذي ترتكِبه معي يمسّني بشكلٍ لا أستطيع تحمّله.

هتف:

- تقولين إنّني أخطأت إليكِ وإنّي بربَريّ؟ إشرحي موقفكِ لأنّني لم أخْطئ إليكِ بشيء وليسَ هنالِكَ ما تلومينني عليه.

قالت له:

- وهل تظنّ أنّني لا أعرِف أنكَ تُخلي مَكانكَ في كلّ ليلةٍ إلى رجل؟

قال:

- إنّ الذّئاب، وخاصّةً تلك التي تشبِهني، ليسَت حسنَةَ الطّبع ولا تخطرَنّ على بالكِ فكرة مهينة جدّاً لكِ ولي يا عَزيزتي مارتيزي، وفكّري أنّني سأكون غيوراً حتّى منَ الملائكة. ولكن ربّما وأنتِ نائمَة اختلقَتِ لِنَفسِكِ هذا الوَهم.

خجِلت مارتيزي من حديثها عن أمرٍ ليسَ قابلاً للتّصديق، فأجابت أنّها تثق بِكلامِهِ مع أنّها متأكّدَة منَ أنّها لم تكن نائمَة عندما أحسّت بأنّها تلمس ذراعَينِ ويدَين وشَعراً، وأنّها أرادَت أن تَدحضَ ظنّها، ولن تتحدّث عنه في المستقبل.

وبالفعل أبعَدَت من ذهنِها كلّ المواضيع التي قد تُثيرُ فيها شكوكاً. وَمَضت ستّة أشهر غير ممتعَة كثيراً بالنسبة لِمارتيزي لأنّها لم تكن تخرج منَ الكهفِ لئلا تلتقي بأمّها أو بِخدّامِها. منذ أن فقدَت تلك الأمّ التّعيسة ابنتها وهيَ لا تكفّ عن النّحيب وعن مناداتها. كانت تسمع

أنينها يقرَع جدارَ أذنيها كلّ يوم، فتتألّم خفيَة لأنّها سبب كلّ ذلك الألم لِوالِدَتها ولعجزها عن تغْزِيَتِها. لكنّ ذيب زجرها بقوّة وكانت تهابه بقدرِ ما تحبّه.

ولأنّها كانت في غاية الرقّة والعذوبَة فما انفكّت تُغدِق على ذيب الكثيرَ منَ الحنان وهو أيضاً كان يحبّها بشعفٍ كبير. وجدَت نفسها حاملاً وشعرت بحزنٍ هائلٍ إذ تصوّرت أنّ النّسلَ الذّئبيّ سوف يستمرّ.

وذات ليلةٍ فارَقَ النوم عينيها وراحَت تبكي بِصَمت. سمِعَت كلاماً قريباً منها وكأنّ أحَداً يتحدّث إليها بصوتٍ خافت، وأصغَت إلى كلّ كلمَة تقال لها. كان ذلكَ صوت الذّئب الطيّب الذي كان يتوسّل إلى أحدِهم أن يكون أقلّ قسوَة معه وأن يوافقَ على أن يسمح له بالقيام بأمرٍ طلبه منه منذ زمنٍ طويل. وكانَ الجواب دائماً:

- لا، لا، لا أريد.

تَعاظَمَ قلق مارتيزي أكثر من أيّ وقتٍ مَضى وقالت في نفسِها:

- من ذا الذي يستطيع الدّخولَ إلى هذه المغارَة؟ لم يَبح لي زوجي قطّ بهذا السرّ.

لم تشأ العودَة إلى النّوم من جديد، كانت تتحرّق لهفَة لِمعرفةِ ماذا يجري. وبعد أن خرج زائر الأمير منَ الكهف نام هذا الأخير في الحال مرسِلاً شخيراً قويّاً. وعندئذٍ نهضَت هي وأرادَت أن ترى ما إذا كان سهلاً زحزَحَة الصّخرة التي تسدّ مَدخلَ الكهف لكنّها لم تستطع تحريكها. وبعد ما عادَت بهدوءٍ في الظلام، شعرَت بشيءٍ ما تحت قدَمَيها: كان جِلدَ ذئب. أخذَته وخبّأته. ثمّ ترقّبت بصمْتٍ ما ستؤولُ إليه الأمور.

كان الفجر لا يكاد يطلع عندما نهض ذيب. سمِعت جلبته وهو

يبحث في كلّ جِهة من المغارة. وفيما هوَ يتململُ منشغلَ البال، طلعَ النّهار فرأته رائعَ الجمال حسَنَ التّكوين. انذهلت للمفاجأة وغمرَ السّرور قلبَها بشكلٍ لا يوصف.

هتفت:

– آه يا لَفرْحَتي! لا تحجب عنّي هذه السّعادَة، أعرف سرّها وأشعر به عميقاً في قلبي يا أميري العزيز! أيّة صدْفَةٍ سعيدَة جعلتكَ أجمَلَ النّاس جميعاً؟

فوجئَ بأنّها اكتشفت أمرَه لكنّه قال:

– يا مارتيزي العزيزة، كنت سأعْلِمُكِ بهِ لكنّي أدينُ بهذا التحوّلِ لكِ أنتِ.

«اعلمي أنّ الملكة والِدَتي كانت تَنامُ ذاتَ يوم في ظلّ بعض الأشجار، وعندَئذٍ عبَرَت جنيّاتٌ ثلاثٌ الفضاءً وتعرّفنَ إليها فتوقّفن. منحَتها الجنيّة الكبرى هِبَة أن تُرزَقَ بصبيٍّ ذكيّ وحسَنِ التكوين. وزايدَت الثّانيَة عليها ومنحَتني مَزايا حسنة كثيرَة. لكنّ الصّغرى قالت وهيَ تنفجر ضاحِكَة: «يجب إدخال بعض التّنويع إلى هذه المسألة، لن يكون الرّبيع جميلاً إذا لم يَسبقه الشّتاء. ولكي يكون الأمير الذي ترغبين في أن تُرزَقي به أكثر سِحراً سأجعَله ذئباً إلى أن يتزوّجَ ثلاثَ نساءٍ، وتعثرَ الأخيرَة على جِلده». ما إن قالت الجنيّات الثلاث هذه الكلمات حتّى تَوارَينَ عن الأنظار. سمِعَت الملكة ما قالَته الجنيّتانِ الكبرى والوسطى بِوضوح ولكنّها لم تفهم ما قالته الجنيّة الشريرة لأنّ ضحِكتها كانت عاليَة، ومنعتْها من تبيّنِ قولِها.

«لم أعرف أنا نفسي كلّ ما أخبَرتُكِ به إلاّ يوم زواجنا. عندَما ذهبتُ لأوافيَكِ والشغف الجارف يتملّكني، توقّفْتُ لكي أرتَوي من جدوَلٍ يسيل قريباً من كهفي. إمّا لأنّ الجدولَ كانَ أصفى من

ذي قبلُ، أو لأنّني نظرتُ إليه بانتِباه أكثر منَ المعتاد، وجدْتُني مُرْعِباً وشعرتُ باليأس التّامّ: لن أستطيع أبداً أن أروق لك، أيقنتُ من ذلك ورحتُ أبكي بكاءً مرّاً. ومن دونِ مبالغة، ذرفْت منَ الدّموع ما يستطيع رفد الجدول، وأنا أفكّر أنّ منَ المستحيل أن أقدرَ على إثارَة إعجابك!

«ثبّطت هذه الفكرة عزيمَتي واتّخذت القرارَ بِعَدَم المُضيّ في هذه العَلاقة. قلت: «لا أستطيع أن أكون سعيداً إذا لَم أكَن مَحبوباً، ولا يمكن لأيّة فتاةٍ عاقلة أن تُحِبّني». تمتمتُ بهذه الكلمات وبعدَئذٍ لَمَحْتُ سيّدَة تقترب منّي بجرأة. فاجأتني جرأتها لأنّ مَظهَري كان يُثير الخوف في من يراني لأوّل مرّة. قالت لي: يا ذيب، إنّ زمَن سعادَتكَ يقترب شرط أن تقترن بمارتيزي وتحبّك كَما أنت. وَكُن واثقاً أنّه لن يمضي وقت قليل على تَحقّق هذا الشرط حتّى تعودَ إنساناً. وابتداءً منَ الليلة الأولى لِزفافكَ ستترك جلدَ الحيوانِ هذا الذي يسيئكَ النّظر إليه ولكنّك ستستعيده قبل طلوع النّهار. ولا تتحدّث عن الموضوع إلى زوجتك ولا تدعْها تلاحِظَ تحوّلكَ حتّى اليوم الذي سينكشف فيه شكلك النّهائيّ».

وأضاف:

- أخبرَتني الجنيّة كلّ ما سبقَ أن أخبَرْتكِ إيّاه عن الملكة والدَتي. شكرتُها بِكلّ تواضع وامتنان لما وعدتني به. وذهبْتُ لِلقائكِ بِفرَح ممزوج برَجاء لم أستشعرْه من قبل. وعندَما أسعدتُ بتلقّي بَوادِرِ الصّداقة منكِ، ازدادَ سروري كثيراً وأردتُ بلهفة حارقة أن أبوح لك بسرّي. لكنّ الجنيّة كانت غير غافلة عن ذلك وَجاءَت تُهَدّدُني أثناءَ الليلِ قائلة بأنّها ستُنزِلَ بي أشدّ أنواع العِقابِ إذا لم أسكت. قلت لها: «آهِ يا سيّدَتي يبدو أنّك لم تحبّي من قبل لأنّكِ ترغمينني على

التسترّ على أجمل شيءٍ يمكن لي أن أتَقاسَمَه مع أكثر شخص أحبّه في هذا العالم». كانت تضحَك من ألمي وتَحظُر عليّ أن أحزنً لأنّ كلّ شيءٍ سيُصبِح مؤاتِياً لي».

ثمّ أضاف:

- ولكن أعيدي لي جلدَ الذّئب، يجب أن أضعَه من جديدٍ خوفاً من أن أغيظ الجنيّات.

قالت له مارتيزي:

- يا أميري العزيز، أيّاً يكن شكلكَ فلن أتغيّرَ حيالَكَ أبداً، وسوفَ أحتفظُ بذِكرى تحوّلكَ السّاحر.

قال:

- أنا متيَقّن من أنّ الجنيّات لا يُردْنَ أن يتسبّبنَ لنا بالعَذاب طويلاً. وسَيولينَنا اهتِمامَهن. هذا السّرير الذي يبدو لكِ منَ الطّحالب والأعشاب هوَ منَ الرّيشِ الممتاز والصّوف النّاعم، وهنّ اللواتي وضعْنَ عندَ مَدخَلِ المغارَةِ جميعَ الفواكِه الرّائعَة التي تناولتِها.

لم تتوانَ مارتيزي عن أن تشكرَ الجنيّات على كلّ تلك النِّعَم.

وفيما كانت تتوجّه إليهنّ بأحرّ عبارات الشكر، كان ذيب يبذل جهداً كبيراً لِيضعَ جلد الذّئب من جديد لكنّه ضاق كثيراً عليه ولم يعد باستطاعتهِ أن يغطّيَ له ساقاً واحدة. جذبَه طولاً وَعَرْضاً بأسنانه ويدَيه فَلم يُفلح. أصابه حزن قاتل وتَحَسّر على مصيرِه لأنّه خشي، وبحَقّ، أن تبادر الجنيّة التي جعلته ذئباً حقيقيّاً لأن تعيد له هيئته الأولى ولِزمنٍ طويل.

كان يقول:

- يا لَحسْرَتي! لماذا أخفَيتِ يا مارتيزي العزيزة هذا الجلدَ المشؤوم؟ ربّما كان الهدف معاقبتنا! أريد، كما رأيت، استخدامَه كما كنت أفعل

من قبل ولا أستطيع. إذا كانت الجنيّات غاضبات فكيف سنهدّئ من رَوعِهنّ؟

كانت مارتيزي تبكي من جهتها وكانَ بُكاؤها غريباً لا سيّما أنّ السّبب هوَ أنّ ذيب لا يستطيع العودَة إلى ما كانَ عليه.

وفي تلك اللحظة اهتزّت المغارَة، ثمّ فُتِحَت القبّة ورأيا ستّة مَغازلَ محمّلة بالحرير، ثلاثة منها بيضاء وثلاثة أخرى سوداء، وكانت ترقص معاً. خرج صوت من إحداها قائلاً:

– إذا حزرَ ذيب ومارتيزي ماذا تعني هذه المَغازل البيضاء والسّوداء فسيكونان سعيدَين.

سرَحَ الأمير قليلاً ثمّ قال:

– أظنّ أنّ المَغازل البيضاء الثلاثة ترْمُز إلى الجنيّات الثلاث اللّواتي منَحْنَني المَزايا لدى وِلادَتي.

هتفت مارتيزي:

– وبالنسبة لي، أفترض أنّ المَغازل السّوداء الثلاثة هيَ شقيقتاي وكوريدون.

وفي الحال ظهرَت الجنيّات مَكانَ المَغازل البيضاء. وأيضاً ظهَرَ كلٌّ من إيسمان وزيلونيد وكوريدون. لم يكن هناك شيء أكثر رعباً من رؤية هؤلاء عائدين منَ العالم الآخر.

قالوا لِمارتيزي:

– لا تظنّي أنّنا أتينا من مكان بعيدٍ كهذا الذي تتصوّرينَه. تكرّمَت الجنيّات الصالحات علينا فأنجَدْنَنا. وفيما كنتم تبكونَ علينا، كنّ يصطحِبنَنا في مركب ولم يكن ينقصنا سوى رؤيتكم.

قال ذيب:

– ماذا! ألم أرَ بأمّ عيني إيسمان وحبيبَها هامِدَينِ بِلا حراك، ألم

أقتل زيلونيد بنفسي؟

قالت الجنيّات:

- لا، رأيتَ خِدَعاً صوّرْناها لك. وفي كلّ يومٍ نقوم بهذه الحِيَل الغريبة. ذاكَ يظنّ زوجَته في الحفلِ الرّاقص فيما هيَ نائمَة في سَريرها. وذاكَ يظنّ أنّه حَظِيَ بِخليلةٍ جميلَة فيما هيَ قردَة، وذاكَ يظنّ أنّه قتلَ عَدوّه، فيما عدوّه يتمتّع بصحّة جيّدَة في بلَدٍ آخر.

قال الأمير:

- سوف تزرَعنَ في نَفسي شكوكاً غريبَة. يبدو لي لدى سماعِكنّ أنّه يجب ألاّ نصدّق ما نَراه حتّى...

أجابت الجنيّات:

- ليسَت هذه قاعدَة عامّة. ولكن منَ المؤكّد أنّه يجب أن نراجع أحْكامَنا بشأن أمورٍ كثيرَة لأنّ هناكَ دوماً مقداراً منَ السِّحر في كلّ ما يبدو لنا يقيناً تامّاً.

شَكَرَ الأمير وزوجته الجنيّات لأنهنّ حافظن على حياة أحبابهما، وأوضحن لهما أشياء كانت خافية عليهما.

ثمّ أضافت مارتيزي وهيَ ترتمي عندَ أقدامهن:

- ولكن هل أستطيع التأكّد من أنّكنّ لن تُعِدْنَ جلدَ الذّئب لأميري الوفيّ؟

قلنَ لها:

- جئنا نؤكّد لكما ذلك لأنّ الوقت حانَ للعودَة إلى القصر.

وَلِلحال تحوّلت الصّخرَة إلى خيمَةٍ رائعة حيث وَجَدَ الأمير خدّاماً عديدين يُساعِدونه على ارتِداءِ ثيابٍ بَديعَة. وكذلك وجَدَت مارتيزي نفسَها مُحاطَة بسيّداتٍ وبأدواتِ زينَةٍ كامِلة لِتَسْريح الشّعرِ واللّوازم الأخرى. ثمّ أقامت لهما الجنيّات وَليمَة فخمَة. وهذا كافٍ

لإعطاءِ فكرة عن مدى اهتمام الجنيّات بهما.

لم يكن للفرحَة التي عَمّت المكانَ مثيل. كلّ ما عاناه ذيب من عَذابٍ انمحى أمام متعَة أن يَرى نفسَه رجلاً، لا بل إنّه أصبح رجلاً رائع الجمال. وبعدَ انتهاء الوليمة، شوهدت أجمل أحصنَةٍ في العالم تعدو مسرِعَة جدّاً وقد أوثِقت إلى عَرَباتٍ بَديعَة. صعَد الزوجان إلى عربتهما ولحق بهما الموكب الصّغير. ومشى حرّاس أمامَ العربات وَخلفها. وهكذا ذهبَ ذيب إلى القصر.

لم يكن أحد في القصر يعرف من أينَ أتى ذلك الموكب الفخم ولا مَن كانَ بِداخله. وعندَئذٍ نادى البشير بِصوتٍ عالٍ على إيقاعِ الأبواقِ والصّنوجِ، وهُرِعَ الشّعب كلّه لِيَرى الأمير وفُتِنَ الجميع به، ولم يشأ أحدٌ الارتياب في صحّة الأخبار التي يسمعها على الرّغم من غرابتها.

ووصَلت الأخبار للملك والملكة فنزلا على وجه السّرعَة إلى باحَة القصر. كانَ الأمير يشبِه والِدَه كثيراً بشكلٍ لا يَرقى إليه الشكّ. وعَمّت الفرْحَة النّاس وبعدَ بضعَة أشهر زادَتِ الفرحَة بِولادَةِ ابنٍ لم يكن لديه قطّ لا هيئة الذّئب ولا طباعه.

حين نُخفي عن الحبيب
كلَّ ما يُلزِمُنا بِهِ الواجب:
تلك هي الشّجاعةُ الحقيقيّة،
وبِفضلها استحقّ ذيب
هذه العودَة الظّافرَة إلى قصرٍ مجيد.
أن يُلامَ على تهاونِهِ في الحبّ، أوافق،
ولكنْ أحرى بالإنسان أن يُخِلّ بالحبّ
من أن يُخِلّ بالحكْمَة.

«العصفور الأزرق» وحكايات أخرى

ساهمت ماري-كاترين دونوا إلى جانب شارل بيرّو وعدد من الكاتبات والكتّاب الفرنسيّين في إرساء قواعد أدب الناشئة وبخاصّةٍ ما يُدعى حكايا الجنيّات. وكأغلب كتّاب هذا الجنس الأدبيّ، لطالما عملت دونوا على استلهام حكايات آتية من مصادر وثقافات شتّى، تعمل على تطويرها والإضافة إليها وقلب مساراتها، جامعةً فيها كلاًّ من الخرافيّ والعجائبيّ والتّاريخيّ والواقعيّ. وبذا قرّبت الحكاية الخرافيّة من القصّة الطّويلة أو الرّواية القصيرة فكانت من الممهّدين لكتابة الحداثة.

من سِمات حداثة حكايات دونوا توفّر نصوصها على قدر من الدّعابة والسّخرية، فتبالغ في وصف قبح بعض الشّخوص أو جمالها، وتتسلّى أحياناً بوصفِ سذاجة بعض العشّاق أو الأبطال، مستهدفةً بالنّقد بعض العناصر الشّائعة في حكايات الفروسيّة والعشق.

ومراراً تخرج على بعض قواعد هذا الجنس الأدبيّ، فلا تلتزم مثلاً بمبدأ النّهاية السّعيدة في جميع الحكايات. هكذا نجد لديها نهاياتٍ غير مألوفة ولا متوقّعة، لا بل حتّى نهايات مأساويّة. وفي هذا الخرق لقاعدة يفرضها الكتّاب على أغلب حكايا الجنّيات وقصص النّاشئة تُقرّب الكاتبة الأدبَ من الواقع ولا تتخفّى برياءٍ على ما في التّجربة الملموسة أحياناً من مآسٍ ومصاعب وخسارات.







